مجلـــة
المـؤرخ العربـــي

مجلة علمية محكمة

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثلاثين - اكتوبر ٢٠٢٢ م

-(المجلـد الثانـي)-

موقع المجلة على بنك المعرفة المصرى
https://hja.journals.ekb.eg/

المجلة معتمدة ضمن المعايير العالمية لمعامل "أرسيف Arcif" الدولية

تحت اشراف:
مكتب اليونيسكو، لجنة الأمم المتحدة، مكتبة الاسكندرية، عدة دول عربية وبريطانيا

جميع المراسلات ترسل باسم
الأستاذ الدكتور رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة
مقر الإدارة : مدينة نصر- الحى الثامن- ١٠ شارع فؤاد بدواني – خلف مدرسة الصديق
تليفون: ٠٠٢-٠٢-٢٢٨٧٠٠٩٠ - فاكس: ٠٠٢-٠٢-٢٢٨٧٠٠٩١
Email : arabhistoryso@hotmail.com
مقر المؤتمرات: التجمع الأول – بعد سنترال التجمع - خلف مدرسة جرين هايتس
www.arabhistoryso.net

رقم الإيداع: (١٩٩٤/٦٥٤٩)
الترقيم الدولي للطباعة (2535-2288) (ISSN-P)
الترقيم الدولي الإلكتروني (2735-5144) (ISSN-O)

لا يسمح إطلاقا بترجمة هذه الدورية إلى أي لغة أخرى، أو إعادة إنتاج أو طبع أو نقل أو تخزين أي جزء منها على أية أنظمة استرجاع بأي شكل أو وسيلة، سواء الكترونية أو ميكانيكية أو غيرها من الوسائل دون الحصول على موافقة خطية مسبقة من: إدارة اتحاد المؤرخين العرب.

شروط نشر البحوث في مجلة المؤرخ العربي

١. أن يكون عضوا باتحاد المؤرخين العرب.
٢. عدد صفحات البحث (٣٠ ورقة) وما يزيد يتم دفع (رسوم إضافية عن كل ورقة).
٣. الخط: (Simplified Arabic) بنط (١٥)، والهوامش بنط (١٣).
٤. في بداية كل بحث يكتب **ملخص** للبحث (باللغة العربية والانجليزية) صفحة لكل منهما.
٥. يرسل البحث بعد ذلك على اللينك الخاص بالمجلة:
https://hja.journals.ekb.eg/
٦. المجلة غير ملزمة بإعادة البحوث الى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

شروط الاشتراك في عضوية الاتحاد

١. الحصول على الدكتوراه (في التاريخ أو الآثار).
٢. ملئ استمارة العضوية، مع عدد (٢) صورة شخصية.
٣. سداد الرسوم المقررة.

مجلــة
المـؤرخ العربـــي
(مجلة علمية محكمة)
يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

رئيس مجلس الإدارة

أ.د. محمـد عيسى الحريري

رئيس اتحاد المؤرخين العرب

الأستاذ بكلية الآداب - جامعة المنصورة

رئيس التحرير

أ.د. زبيـدة محمد عطا

مسئولة النشاط الثقافي باتحاد المؤرخين العرب

أستاذ بكلية الآداب - جامعة حلوان

هيئة التحرير

أ.د. عفيفي محمود إبراهيم — أمين عـام الاتحـــاد

أ.د. حـامـد زيـان غـانم — أمين الصندوق (السابق)

أ.د. عفـاف سيـــد صبرة — مسئولـة العلاقـات العامـة

سكرتارية التحرير

أ. عبدالعزيز همام

أ. محمـود يحيـى

الرؤيـــة

السعي لتحقيق الريادة في النشر العلمي المتميز في المحتوي والمضمون والتأثير والمرجعية في مجالات الوطن العربي وأقطاره.

الرسالـــة

نشر البحوث العلمية الأصلية والرصينة والمبتكرة في مجالات الوطن العربي وأقطاره في مجالات اختصاص المجلة وفق المعايير والقواعد المهنية العالمية المعمول بها في المجلات المحكمة دولياً.

الأهـــداف

- العمل على توثيق التعاون وتحقيق الترابط بين الدول العربية.
- إتاحة المجال أمام العلماء والباحثين في مجالات اختصاص المجلة في التاريخ، على المستوي المحلي والإقليمي والعالمي لنشر بحوثهم وإنتاجهم العلمي.
- نشر أبحاث كبار الأساتذة وأبحاث الترقية للسادة الأساتذة المساعدين والسادة المدرسين بمختلف الجامعات المصرية والعربية.
- تشجيع ونشر مختلف البحوث المتعلقة بالدراسات التاريخية والآثارية للوطن العربي.
- الإسهام في تنمية مجتمع المعرفة في مجالات اختصاص المجلة من خلال نشر البحوث العلمية الرصينة والمتميزة.
- اصدار مجلة المؤرخ العربي في مجلدين (الأول والثاني).

الهيئة الاستشارية المصرية

م	الاســـم	الوظيفـــة
١	أ.د.محمـد عيسى الحريـري	رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة الأستاذ بكلية الآداب - جامعة المنصـورة
٢	أ.د .عفيفي محمود إبراهيم	أمين عام اتحاد المؤرخين العرب بالقاهـرة أستـاذ بكليـة الآداب – جامعة بنهـا
٣	أ.د. حـامـد زيـان غـانم	أمين الصندوق (السابق) بالاتحاد أستـاذ بكلية الآداب – جامعة القاهرة
٤	أ.د. زبيـدة محمد عطـا	أمينة الصندوق ومسئولة النشاط الثقافي بالاتحاد أستـاذ بكلية الآداب - جامعة حلـوان
٥	أ.د. عفاف سيد محمد صبـرة	مسئولة العلاقات العامة باتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الدراسات الإنسانية - جامعة الأزهر
٦	أ.د.رأفت غنيمي الشيـخ	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستـاذ بكلية الآداب - جامعة الزقازيق
٧	أ.د.أشرف محمد مؤنـس	مسئول المكتبات باتحاد المؤرخين العرب مدير مركز بحوث الشرق الأوسط- جامعة عين شمس
٨	أ.د.طارق منصور محمـد	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهـرة أستاذ بكلية الآداب – جامعة عين شمس
٩	أ.د. حمدى عبدالمنعم محمـد	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهـرة أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة كلية الآداب جامعة اسكندرية
١٠	أ.د.إيمان محمد عبدالمنعم عامر	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهـرة أستـاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة

الهيئة الاستشارية الدولية

م	الاســـم	الجنسية	الوظيفـــة
١	أ.د.إسماعيل محمد البشرى	سعودى	نائب رئيس اتحاد المؤرخين العرب مديـــر جـامعـــة الجـــوف سابقا
٢	أ.د.أحمد عمـــر الزيلعي	سعودى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية السياحة والآثار-جامعة الملك سعود
٣	أ.د.إبراهيم بن محمد المزيني	سعودى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية العلـوم الاجتماعيـــة جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض
٤	أ.د.حياة ناصر سالم الحجـي	كويتية	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بكلية الآداب – جامعة الكويـت
٥	أ.د.على منصور آل شهاب	بحريني	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب نائب رئيـس جامعـة البحريـــن
٦	أ.د.محمد بهجت القبيسي	ســورى	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ محاضر بجامعـة حلـب- سابقا
٧	أ.د.نبيلة عبدالشكـــور	جزائرية	عضو مجلس إدارة اتحاد المؤرخين العرب أستاذ بجامعـة الجزائـر ٢.
٨	أ.د. عبدالله سعيد الغامدى	سعودى	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهـرة أستاذ العصور الوسطى- كلية الشريعة- جامعة أم القرى
٩	أ.د. عبدالرحمن محمد الانصارى	سعودى	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهـرة أستاذ بكلية الآداب – جامعة الملك سعود

المحكمون

م	الاســـم	الوظيفـــة
١	أ.د.محمد عيسى الحريـري	رئيس اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة الأستاذ بكلية الآداب - جامعة المنصـورة
٢	أ.د.إسماعيل بن محمد البشرى	نائب رئيس اتحـاد المؤرخين العـرب مديـر جـامعـة الجـوف سابقا
٣	أ.د.عفيفي محمود إبراهيم	أمين عام اتحاد المؤرخين العرب بالقاهـرة أستـاذ بكليـة الآداب – جامعـة بنهـا
٤	أ.د. زبيـدة محمد عطـا	مسئولة النشاط الثقافي باتحاد المؤرخين العرب أستـاذ بكلية الآداب - جامعة حلـوان
٥	أ.د. إسماعيل زين العابدين	أستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة
٦	أ.د. إيمان محمد عبدالمنعم عامر	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهـرة أستـاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة
٧	أ.د. طارق منصور محمد	عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهـرة الأستاذ بكلية الآداب - بجامعة عين شمس
٨	أ.د. حمدي عبد المنعم محمد	أستاذ بكلية الآداب جامعة الإسكندرية
٩	أ.د. كمال السيد أبو مصطفى	أستاذ بكلية التربية جامعة الإسكندرية
١٠	أ.د. شلبي إبراهيم الجعيدي	أستاذ بكلية الآداب جامعة المنصورة
١١	أ.د. عادل عبد الحافظ حمزة	أستاذ بكلية الآداب جامعة المنيا
١٢	عبد السلام عبد الرحيم عامر	أستاذ بكلية الآداب جامعة حلوان
١٣	أ.د. محمد عاطف عبد المقصود	أستاذ بكلية الآداب جامعة المنيا

هـذه المجلــة

١. مجلة المؤرخ العربي مجلة تاريخية بحتة، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة.
٢. تستهدف المجلة إظهار الحقيقة التاريخية لموضوعات محددة صافية نقية، بعيدة عن أي تيارات سياسية أو عقائدية.
٣. البحوث التي تنشر فيها محكمة، تعبر عن وجهة نظر أصحابها، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد من آراء علمية.
٤. تصدر سنوياً في أكتوبر من كل عام، علي أن تصلها البحوث المقدمة للنشر في كل عدد في موعد غايته نهاية شهر يوليه من نفس العام.
٥. يشترط ألا يكون العمل المقدم قد سبق نشره، أو قدم للنشر في أية جهة أخري، ويكتب الباحث تعهداً بعدم تقديمه للنشر في أي جهة أخري بعد قبوله للنشر بالمجلة.
٦. لا يتم استرداد أصول الأعمال المقدمة للنشر سواء قبلت للنشر أو لم تقبــل.
٧. يرد عنوان البحث في رأس الصفحة الأولي، متبوعاً باسم المؤلف مقروناً بوظيفته وجهة عمله.
٨. ترتب الهوامش والتعقيبات التفصيلية بترقيم موحد في نهاية العمل.
٩. يراعي في إعداد قائمة المراجع ما يلي:

(أ) تسجيل أسماء المؤلفين أو المحققين أو المترجمين أو المراجعين، متبوعة بعنوان الكتاب ثم مكان النشر ثم اسم الناشر، ثم تاريخ النشر، مع بيان الطبعة.

(ب) مقالات الدوريات تبدأ باسم صاحب المقال، ثم عنوان المقال، ثم اسم الدورية، ثم رقم المجلد والعدد والمجلة وتاريخه، ثم أرقام الصفحات التي يقع فيها المقال.

(جـ) الرسائل الجامعية يتم تسجيل اسم صاحب الرسالة، وعنوانها، والجامعة التي أجازتها، واسم المشرف، وتاريخ الإجازة.

خطاب تهنئة بنجاح مجلة (المؤرخ العربي) الصادرة من اتحاد المؤرخين العرب في تحقيق معايير اعتماد معامل أرسيف (Arcif) المتوافقة مع المعايير العالمية لعام ٢٠٢٢م

التاريخ: 2022/09/28

الرقم: L22/0845 ARCIF

سعادة أ. د. رئيس تحرير مجلة المؤرخ العربي المحترم

اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، مصر

تحية طيبة وبعد،،،

يسر **معامل التأثير والاستشهادات المرجعية للمجلات العلمية العربية (ارسيف – ARCIF)**، أحد مبادرات قاعدة بيانات "**معرفة**" للإنتاج والمحتوى العلمي، إعلامكم بأنه قد **أطلق التقرير السنوي السابع للمجلات للعام 2022**.

يخضع معامل التأثير "ارسيف Arcif" لإشراف "مجلس الإشراف والتنسيق" الذي يتكون من ممثلين لعدة جهات عربية ودولية: (مكتب اليونيسكو الإقليمي للتربية في الدول العربية ببيروت، لجنة الأمم المتحدة لغرب آسيا (الإسكوا)، مكتبة الاسكندرية، قاعدة بيانات معرفة). بالإضافة للجنة علمية من خبراء وأكاديميين ذوي سمعة علمية رائدة من عدة دول عربية وبريطانيا.

ومن الجدير بالذكر بأن معامل "**ارسيف Arcif**" قام بالعمل على فحص ودراسة بيانات ما يزيد عن (**5100**) عنوان مجلة عربية علمية أو بحثية في مختلف التخصصات، والصادرة عن أكثر من (**1400**) هيئة علمية أو بحثية في (**20**) دولة عربية (باستثناء دولة جيبوتي وجزر القمر لعدم توفر البيانات). ونجح منها (**1000**) مجلة علمية فقط لتكون معتمدة ضمن المعايير العالمية لمعامل "**ارسيف Arcif**" في تقرير **عام 2022**.

ويسرنا تهنئتكم وإعلامكم بأن **مجلة المؤرخ العربي** الصادرة عن **اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، مصر، قد نجحت في تحقيق معايير اعتماد معامل "ارسيف Arcif"** المتوافقة مع المعايير العالمية، والتي يبلغ عددها (**32**) **معياراً**، وللاطلاع على هذه المعايير يمكنكم الدخول إلى الرابط التالي:
http://e-marefa.net/arcif/criteria/

وكان معامل "**ارسيف Arcif** " لمجلتكم لسنة 2022 (**لم نرصد أيةً استشهادات**).

ونأمل حصول مجلتكم على معامل تأثير متقدم في تقرير عام 2023. وبإمكانكم الإعلان عن نجاحكم في الحصول على معايير اعتماد معامل "**ارسيف Arcif**" العالمية سواء على موقعكم الإلكتروني، أو على مواقع التواصل الاجتماعي، وكذلك الإشارة في النسخة الورقية لمجلتكم إلى معامل **أرسيف Arcif** الخاص بمجلتكم.

أ.د. سامي الخزندار

رئيس مبادرة معامل التأثير " ارسيف Arcif"

+962 6 5548228 -9
+ 962 6 55 19 10 7
info@e-marefa.net
www.e-marefa.net
Amman - Jordan
2351 Amman, 11953 Jordan

المحتويـــات

م	الموضـــوع	الاســـم	ص
أ	**كلمة الافتتاح** (رئيس اتحاد المؤرخين العرب)	**أ.د. محمد عيسى الحريري**	١٠
ب	**كلمة التحرير** (رئيس تحرير مجلة الاتحاد)	**أ.د. زبيدة محمد عطـــا**	١٢
١	**أثر تطور العمارة الأموية على تجديد الدور الحضاري والثقافي لمسجد القيروان (في عصر الدولة الأموية) (٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠م)**	**د. ولاء محمد محمود**	١٥
٢	**فلسفة ابن خلدون فى حديثه عن الأمصار والمدن فى المغرب العربى " رؤية تطبيقية فى بيان مدى صحة اجتهاداته " بدءاً من تأسيس القيروان إلى نهاية تأسيس مراكش " ٥٠ -٤٥٩ هـ / ٦٧٠ – ١٠٦٦ م "**	**د. عادل يحي عبدالمنعم**	٥٤
٣	**التأثيرات المشرقية على فنون العمارة الأندلسية (مسجد باب المردوم انموذجًا)**	**أحمد السيد حسين**	١٠٦
٤	**سلوكيات الدول والمجتمعات في مواجهة الأوبئة (دولتي المرابطين والموحدين في الأندلس[٤٨٤-٦٦٨هـ/١٠٩٢-١٢٦٩م] أنموذجاً)**	**د. يوسف عبدالحميد ناجي**	١٣٩
٥	**اللاَلاَ في دولة سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)**	**سمير بدر محمد**	١٧١
٦	**بعض مظاهر العمران في المغرب في العصر المريني (٦٦٨- ٨٦٩هـ/ ١٢٦٩- ١٤٦٥م) "دراسة تاريخية"**	**د: أماني محمد محمد قطب**	٢٤٠
٧	**عمارة مدينة الدرعية من خلال كتابات وليام فيسي** "William Facey " **١١٥٧-١٣٣٦هـ/١٧٤٤-١٩١٧م**	**أ.د/ أحلام علي أحمد أبوقايد**	٢٧٩

٨	الطباعة في مكة المكرمة خلال الفترة (١٣٠٠ - ١٣٧٣هـ/ ١٨٨٣-١٩٥٣م)	د. سحر على دعدع	٣٢٢
٩	ضم القنفذة تحت حكم الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله _ عام (١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م) دراسة تاريخية	صافيه مشبب آل هويدي	٣٦٥
١٠	زيارة الملك البريطاني جورج السادس لاتحاد جنوب افريقيا سنة ١٩٤٧ (قراءة في أبعادها السياسية من منظور الخارجية البريطانية والمصرية)	أ.د. أحمد عبد الدايم حسن	٣٨٥
١١	انعكاسات ثورة يوليو على السياسة البريطانية تجاه أفريقيا (١٩٥٢-١٩٦٦)	أم.د : هدي محمود نايل	٤٧٨ الى ٥١١

كلمة الافتتاح

أ.د. محمد عيسى الحريـــري
رئيس اتحاد المؤرخين العرب

أعزائي وزملائي.... **وأصدقائي الأحباء..**

وتمضي الأيام.. ويتجدد اللقاء الذي ننتظره بلهفة واشتياق – عامًا بعد عام– لألتقي بكم عبر هذه السطور والكلمات المتواضعة في مجلتنا الكبيرة **مجلة المؤرخ العربي** التي نعتبرها جميعًا موسوعة ثقافية كبيرة .. وحاوية تاريخية عظيمة لما تحتويه من أبحاث علمية قيمة ومتنوعة تفوح منها رائحة الماضي وأصالة الحاضر وأريج المستقبل بعلم مزدهر وتاريخ متجدد وعطاء لا ينقطع.

وبصدور العدد الثلاثين من **مجلة المؤرخ العربي** يكون قد مر على اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة حتى الآن ثلاثون عامًا انقضت بالجهد والعرق والعطاء، لم يبخل أحد من أعضاءه بأي جهد أو عمل يُطلب منه. فالكل كان يعمل جنبًا إلي جنب بروح الأخوة والزمالة في ضوء حرية الفكر وجراءة الرأي بكل أصالة وصدق وسمو الأهداف وأدب النقاش.

كل عضو ساهم بكل ما يملك ابتداءً من السادة الأفاضل مؤسسي الاتحاد الأوائل حتى الأخوة الأعزاء أعضاء مجلس الإدارة الحالي الذين تسلموا الراية عالية مرفوعة ليكملوا مشوار العلم والحياة على طريق الحرية الذي رسمه علماؤنا الكبار من شوامخ المؤرخين العرب–منذ نشأته– على مبدأ علامة الأمة وإمام الأئمة **ابن خلدون** في مقدمته الخالدة: "**إن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية**". وهذا هو حال السابقين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم.

زملائي الأعزاء...

إننا الآن في سبيلنا ليتخذ **اتحاد المؤرخين العرب** –بمشيئة الله تعالى– وضعًا عالميًا بارزًا كأحد المنظمات العلمية الكبيرة على المستوى الإقليمي والدولي.

فالاتحاد بوضعه الحالي سيصبح **هيئة علمية عالمية عظيمة وكبيرة** يضم نخبة كبيرة من كبار مؤرخي العالم العربي بخبرتهم وعلمهم ورؤيتهم المستقبلية.

كما يضم الاتحاد أيضًا شبابًا مليئًا بالحيوية والنشاط يملكون طاقة علمية كبيرة وعقلًا متفتحًا منيرًا، وكلهم يحملون على عاتقهم تراث الأمة العربية بتاريخها العريق وحضارتها الأصيلة، وآن لنا أن نحتفل معهم جميعًا بالعيد الثلاثين لاتحاد المؤرخين العرب بما قدمه من إنجازات وأنشطة كثيرة وعلومًا وثقافات غزيرة على المستويين الإقليمي والدولي.

إن ثمة حقيقة ينبغي ألا تفوتنا أيضًا وهي: أن الاتحاد قد فتح أبوابه للباحثين والدارسين لنشر وتحكيم الأبحاث المتميزة والمتنوعة فكريًا وعلميًا بدءًا من العصر القديم مارًا بالعصور الوسطى والإسلامية حتى العصر الحديث والمعاصر، بل كثف الاتحاد أنشطته العلمية باللقاءات الثقافية من خلال .. إقامة المؤتمرات السنوية، والندوات العلمية والتي تعقد شهريًا، ويناقش من خلالها تاريخ الأمة العربية والإسلامية على مر العصور ويشارك فيها نخبة كبيرة من السادة علماء التاريخ والآثار في مراحل العصور الأربعة، سواءً كان حضوريًا بقاعة مؤتمرات الاتحاد، أو بالمشاركة عبر برنامج **(الزووم)** مما يتيح للحاضرين والمشاركين من الخارج فتح باب المناقشة العلمية وتبادل الآراء لتعم الفائدة على الجميع.

وأخيرًا .. أحبائي الكرام .. لا يسعني إلا ان اتوجه إليكم جميعًا بجزيل الشكر والعرفان على حسن تعاونكم وإسهاماتكم الفعالة ومشاركتكم في جميع الأنشطة العلمية والفكرية بفضل تجاوبكم الدائم معانا.

أشكركم مرة أخرى على أمل من الله تعالى أن نلتقي على خير دائم وعلم نافع سائلين المولى عز وجل لنا ولكم التوفيق والسداد..

أ.د. محمد عيسى الحريري

كلمة التحرير

رئيسة التحرير
أ.د. زبيدة محمد عطا
مسئولة النشاط الثقافي

لقد مضى على انتقال اتحادنا العربي أكثر من ثلاثين عامًا بعد انتقاله لمقره في القاهرة، شاهدت تطورات وإنجازات عديدة، أولها زيادة عدد الأعضاء والاقبال على المشاركة في عضويته وأنشطته، ولدينا مقران مجهزان بأفضل التقنيات، ومؤتمر شارك فيه غالبية الدول العربية، وندوات شهرية وأدت استعمال تقنيه الزووم إلى زيادة إعداد المشاركين فيها.

أما بالنسبة لمجلة المؤرخ العربي، فقد حصلت على أعلى تقدير من بنك المعرفة، ولقد ازداد الإقبال على النشر في المجلة من مصر ومختلف أنحاء العالم العربي، فلدينا أربعة وعشرون بحثًا علميًّا شارك فيه أعضاء من مصر والسعودية والكويت، وهي دراسات جادة محكمة من كبار الأساتذة وتطرقوا فيها بين التاريخ السياسي والحضاري، وانتقلت عبر الفترات الزمنية المختلفة، من تاريخ العرب إلى تاريخ الغرب إلى الصلات والعلاقات السياسية والحضارية، فهناك أبحاث تناولت التاريخ القديم وتوغلت في القدم مثل سياسة الحيثيين تجاه مملكة أمورو في القرن الثالث عشر قبل الميلاد انتقالًا للفترة البيزنطية، حيث تناولت إحدى الوظائف في مصر البيزنطية، وبحث عن علاقة الدولة الساسانية بمكة قبل الإسلام، انتقالًا للفترة الإسلامية وبعضها تناول تاريخ المشرق والبعض تاريخ المغرب الإسلامي، وكنموذج لهذا أثر تطور العمارة الأموية والتأثيرات المشرقية على فنون العمارة الأندلسية، القضاء في العصر الساماني، ظاهرة العزوف عن الزواج في الأندلس، أبناء موسى ودورهم في فتح بلاد المغرب والأندلس، انتقالًا للعصر الحديث، مثل البحر المتوسط في الصراع البريطاني العربي، ضم القنفذة تحت حكم الملك عبد العزيز آل سعود، انعكاسات ثورة يوليو على السياسية البريطانية تجاه أفريقيا، الطباعة في مكة المكرمة. إلخ...، وهي أبحاث تشكل موسوعة منوعة من الثقافة والعلم. **والله ولي التوفيق**

هيئة التحرير

أ.د. حامد زيان غانم أ.د. عفاف سيد صبرة أ.د. عفيفي محمود إبراهيم

أثر تطور العمارة الأموية على تجديد الدور الحضاري والثقافي لمسجد القيروان (في عصر الدولة الأموية) (٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٥٠م)

أ.م.د. ولاء محمد محمود محمد
استاذ مساعد بالجامعة الإسلامية بولاية مينيسوتا الولايات المتحدة الأمريكية

المستخلص:

يهدف البحث إلقاء الضوء على مدينة القيروان بوصفها من أهم المدن الإسلامية التي أسسها المسلمون في صدر الإسلام، وأول قاعدة عسكرية في بلاد المغرب، ولها دور كبير كأحد مراكز الإشعاع الديني والحضاري في العالم الإسلامي.

يركز البحث على مسجد القيروان؛ لأنه من المساجد الجامعة في المدن الإسلامية ومركز ورمز للقيادة السياسية، ويعبر عن السلطة الناشئة، من أجل ذلك وجب التطور في عمارة المدن لكي تناسب المجتمع الإسلامي، ومسجد القيروان أحد المؤسسات الدينية التي أوضحت التطور العمراني للمدينة.

يلقى البحث الضوء لإبراز الآثار العلمية لعلماء القيروان ودورهم في نشر الحضارة الإسلامية، وتنوعت الحقول المعرفية، وكانت علوم الدين هي الأساس، ولعلماء المسجد دور كبير في تسيير الأمور الحياتية بفضل تعاليم الإسلام السمحة.

هذا، وقد قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة محاور على النحو التالي:

تمهيد:

- القيروان لغة.
- قيروان معاوية بن حديج

المحور الأول: (التاريخ السياسي لمدينة القيروان)

١) القيروان في عهد عقبه بن نافع:

١. حملة عقبه بن نافع على إفريقية

٢. مكانه مدينة القيروان
٣. عزل عقبه بن نافع وأثر ذلك على القيروان
٤. قيروان أبو المهاجر بأفريقية
٥. ولاية عقبه بن نافع وتجديد مدينة القيروان
٢) مدينه القيروان حتي نهاية الدولة الأموية
١. مدينة القيروان في عهد حسان بن المنذر
٢. الولاة بعد وفاة حسان

المحور الثاني:

عمارة مسجد القيروان في العصر الأموي:

١. جامع القيروان في عهد عقبه بن نافع.
٢. عمارة مسجد القيروان في عهد حسان بن النعمان بن المنذر.
٣. تطور عمارة مسجد القيروان في عهد بشر بن صفوان.

المحور الثالث:

الآثار العلمية لعلماء القيروان ودورهم في نشر الحضارة الإسلامية:

وأخيرًا الخاتمة التي درجت فيها أهم نتائج البحث، وذيلتها بقائمة المصادر والمراجع التي استعنت بها.

Abstract:

The research aims to shed light on the city of Kairouan as one of the most important Islamic cities founded by Muslims in the early days of Islam and the first military base in the Maghreb, and it has a great role as one of the centers of religious and civilized radiation in the Islamic world.

The research focuses on the Kairouan Mosque because it is one of the mosques in Islamic cities, a center and a symbol of political leadership, and it expresses the emerging authority. For this, it is necessary to develop in urban architecture, but it fits the Islamic society, and Kairouan Mosque is one of the religious institutions that illustrated the urban development of the city.

The research sheds light to highlight the scientific effects of the scholars of Kairouan and their role in spreading Islamic civilization, and the fields of knowledge varied, and religious sciences were the basis, and the scholars of the mosque played a great role in managing life matters thanks to the tolerant teachings of Islam.

The research was divided into an introduction, a preface, and three axes as follows:

preamble:

Kairouan language.

Kairouan Muawiya bin Hadij

The first axis (the political history of the city of Kairouan)

1) Kairouan in the era of Uqbah bin Nafie:

1. Uqbah bin Nafeh's campaign against Ifriqiya

2. Its location is the city of Kairouan

3. Isolation of Uqbah bin Nafeh and its effect on Kairouan

4. Kairouan Abu Al-Muhajir in Africa

5. The mandate of Uqba bin Nafie and the renewal of the city of Kairouan

2) Kairouan during the reign of Hassan bin Noaman until the end of the Umayyad dynasty:

1. The Wilayat of Hassan bin Numan

2. The city of Kairouan during the reign of Hassan bin Al-Mundhir

3. The governors after the death of Hassan

The second axis:

The architecture of the Kairouan Mosque in the Umayyad period:

1. The Kairouan Mosque in the era of Uqbah ibn Nafi

2. The Jameh Mosque

3. The architecture of the Kairouan Mosque in the era of Hassan bin Al-Numan bin Al-Mundhir

4. The evolution of the architecture of the Kairouan Mosque during the era of Bishr ibn Safwan

The third axis:

The scientific effects of the scholars of Kairouan and their role in spreading Islamic civilization:

Examples of the scholars of Kairouan during the Umayyad era:

Finally, the conclusion in which the most important results of the

research were listed, and appended to it with a list of sources and references that you used.

- **التمهيد:**
- القيروان لغةً واصطلاحًا.
- المحور الأول: (التاريخ السياسي لمدينة القيروان).
- القيروان في عهد عقبة بن نافع.
- القيروان في عهد حسان النعمان حتى نهاية الدولة الأموية.
- المحور الثاني: (عمارة مسجد القيروان في العصر الأموي).
- جامع القيروان في عهد عقبة.
- عمارة المسجد في عهد حسن بن النعمان.
- تطور عمارة المسجد في عهد بشر بن صفوان.
- المحور الثالث:
- الآثار العلمية لعلماء القيروان ودورهم في نشر الحضارة الإسلامية.

مقدمة:

تمثل مرحلة الفتوحات الإسلامية وعصر الولاة الأمويين في المغرب أهم الصفحات المشرقة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية؛ وذلك لما حملته من فكرٍ جديدٍ يحث السكان على تقبل دين العِلم والتسامح والمعرفة؛ وذلك لظهور مجموعة من المؤثرات الحضارية على المجتمع وعلى العمران الجديد أو على المدن التي تمت ترقيتها وامتزجت الحضارة فيها، والتي نذكر منها مدن طنجة وميلة وتاهرت وتلمسان.

أكسبت عمليات الفتح الأولى مسلمين جددًا من عنصر البربر، فرأى عقبة أن يتخذ مدينة تكون قاعدة عسكرية ونقطة ارتكاز بإفريقية واختار موضع القيروان [١]، وحدد خططها وأتم أمرها ببنائها عام٥٥هـ/٦٧٥م، وأصبحت هذه المدينة نواة لولاية جديدة، وهي "ولاية إفريقية والمغرب"، فأصبحت بذلك منبعًا للعلم، وأرضية لمؤثراتٍ اجتماعية وعمرانية، ثم أنشأ عقبة الدواوين وخصوصًا ديواني الجند والخراج، فصارت القيروان محورًا لكل التفاعلات الحضارية وقاعدة عسكرية مستقلة.

---

[١] علي خلاصي: القيروان ومدن المغرب الأوسط بين ٥٠ و١٧٠هـ/٦٧١ و٨٠٠م، مؤتمر المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس ٢٠٠٩م، ص٤٥، ٤٦

التمهيد:

القيروان لغةً:

لفظ قيروان فارسيٌ معربٌ، أصله كروان أو كريان ومعناه قافلة أو مراحل القوافل، وقد كان مستعملاً حتى في الجاهلية بهذا المعنى، وجميع اللغويين العرب يتفقون أن الاسم مُعَرَّب يعني معظم العسكر والقافلة والجماعة [١]، وأصله فارسي 'كاروان'، وقد وردت الكلمة في الشِعرِ الجاهلي، فقد قال امرؤ القيس:

وغارةٌ ذات قيروان * كأن أسرابها الرعال

والقيروان بفتح القاف في اللغة تعني القافلة، ويقال أن القافلة نزلت بذلك المكان وبَنَتّ المدينة في موضعها فسميت باسمها[٢]، والقيروان بفتح الراء تعني معظم الجيش[٣] أو العسكر [٤] أو الجيش [٥].

يوجد لفظ يقرب من قيروان وهو تكيروان أو دكرور أو تكرور، فقد ورد أن ديناراً أبا المهاجر اختار موضعاً يُعرف بذلك. قال ابن عبد الحَكَم: "فلما قَدِمَ أبو المهاجر أفريقية كَرِهَ أن ينزل في الموضع الذي اختطه عقبة بن نافع ومضى حتى خلفه بميلين فابتني ونزل". [٦]

---

[١] الجواليقي: المُعرَّب من الكلام الأعجمي، تحقيق خليل عمران منصور، دار القلم دمشق، ط ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م، ص٢٥٤؛ ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، الجزء الثالث، ص٢٨٨؛ ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت ١٩٦٨م، المجلد الخامس، ص١٢٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر بيروت، طبعة عام ١٢٥١هـ / ١٨٣٥م، الجزء الأول، ص٣٨.

[٢] الجواليقي: المصدر السابق، ص٢٥٤.

[٣] ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل بيروت لبنان، طبعة عام ٢٠٠٨، الجزء الثالث، ص١١٣٩؛ الجواليقي: المصدر السابق، ص٢٥٤

[٤] ابن الأثير: المصدر السابق، الجزء الثالث، ص٢٨٨.

[٥] ابن عبد الحق: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة، الجزء الثالث، ص١١٣٩؛ ابن خلكان: المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

[٦] ابن عبد الحَكَم: فتوح مصر وأخبارها، القاهرة ط١، ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص١٩٧.

وقد عرفت هذه المدينة بتكيروان أو دكرور أو تكرور، وينتهي حسين مؤنس [١] إلى أن لفظ قيروان ليس تحريفاً من لفظ تكيروان، حيث لم يُعثر على أثرٍ للألفاظ السابقة قيروان، تكيروان، دكرور، تكرور في اللهجات البربرية، مما لا يجعل سبيلاً إلى الأخذ بهذا الرأي، وليس هناك ما يؤيد القول بأن قيروان كان علمًا على مدينة قديمة بإفريقية، اختطت مكانها، فلم يبق إلا القول بأن عقبة وأصحابه أرادوا به محطاً لقوافلهم، ومراحاً لعسكرهم، أي مدينة على غرار مدن البصرة والكوفة والفسطاط.

قيروان معاوية بن حديج:

توجه معاوية بن حديج بحمله إلى إفريقية، في عام ٤٥هـ/٦٦٦م، مداها قد استمر إلى نهاية عام ٤٦هـ/٦٦٧م، خرجت الحملة من مصر وليس من دمشق، نفس الطريق الذي سلكه عبد الله بن سعد. [٢]

سار معاوية بن حديج بالقرب من الساحل، وتقدم حتى وصل إلى سهل تونس ونزل في قمونية، ثم تَقَدَّمَ حتى استقر في مكانٍ يسمى، القرن. قال ابن عبد الحَكَم: "فافتتح قصورًا وغَنِمَ غنائمَ عظيمةً، واتخذ قيروان عند القرن. [٣]

وأقام معاوية بن حديج بقيروانة مدة إقامته بإفريقية، وحفر آباراً عند باب تونس من ناحية الجبل منه منحرفًا للشرق بالقرب من مصلى الجنائز، تسمى للآن آبار حديج، وذلك قبل تأسيس مدينة القيروان. [٤]

حملة معاوية بن حديج على إفريقية لم تكن فتحاً منظماً، وإنما غارة استولى العرب فيها على ثلاث مدن، وتعتبر الحملة إحدى المقدمات الطويلة التي سبقت الفتح الحقيقي، إذ كانت آخر الغارات على إفريقية، غير أنه صاحَبَتْها فكرة تأسيس مدينة إسلامية في قلب إفريقية يتخذها الجنود قاعدةً عسكريه، ومركزاً لانطلاق الجيش

---

[١] حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة د.ت، ص ص١٥٣ – ١٥٤.

[٢] حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص ١١٥–١١٩.

[٣] ابن عبد الحَكَم: المصدر السابق، ص١٩٣.

[٤] حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ١٢

لتحقيق أهدافه، وهي الفكرة التي عَمِلَ عقبة بن نافع على تنفيذها عند غزو إفريقية، سنة٤٨هـ/٦٦٩م[١]

تأسيس القيروان:

شَرَعَ عقبة بعد أن استقر على موقع بناء المدينة في تمهيد المكان للبناء، فأزال الأشجار وأخرج ما فيها من حيواناتٍ وحَيَّاتٍ وغير ذلك، وبدأ في تخطيط المدينة وبناء عمائرها، وكان ذلك في عام ٥٠هـ/٦٧٠م، وقد استخدم في تشييد عمائرها قراميد الآجر، لوجود الطين المناسب ولِخُلُّوِها من الحجارة. [٢]

وتُعَدُّ القيروان رابع مدينة مصرت خارج شبه الجزيرة العربية، بعد مدن البصرة والكوفة والفسطاط، والواقع أن المسلمين منذ بدء الفتوحات الإسلامية في العراق والشام ومصر قد اهتموا اهتمامًا بالغاً ببناء مراكز انطلاق لجيوشهم التي خرجت من شبه الجزيرة العربية رافعةً راية الدين الإسلامي في كافة أرجاء المعمورة، وقد أراد العرب أن تكون هذه المدن الجديدة موطناً لهم، ومراكز إدارية للأقاليم تم فتحها من قّبلهم، وكذلك أن تكون بمثابة مركز إشعاعٍ للعِلم والمعرفة ومراكزًا للتجارة والصناعة والزراعة، لذا، فإن الخليفة عمر بن الخطاب حَرِصَ على أن يضع شروطاً واضحةً لاختيار المكان المناسب لها، وأوضح خريطة تخطيطها، وأمر أن يشارك المهندسون الولاة في تنفيذ التخطيط بعد اختيار الموقع الذي تنطبق عليه الشروط الموضوعية، وهي الشروط التي روعيت عند اختيار موقع القيروان وبناء منشآتها الدينية والمدنية والحربية من قِبَل عقبة بن نافع.

فَرَغَ عقبة من تشييد القيروان في عام ٥٥هـ / ٦٧٥م أي أن بناء المدينة استغرق خمس سنوات. قال ابن الأثير: "وأمر ببناء المدينة فبُنِيَت، وبنى المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم وكنائسهم، وكان دورها ثلاثة آلاف وستمائة باع، وتم أمرها سنة خمس وخمسين، وسَكَنَها الناس، وكان في أثناء عمارة المدينة يغزو ويُرسل السرايا...

---

[١] حسين مؤنس: المرجع السابق، ص ١٣٧.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص ٢٣٤.

ودخل كثيرٌ من البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين، وقَوِيَ جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وأمنوا واطمأنوا على المقام، فثَبُتَ الإسلام فيها". [١]

وجاء في فتوح البلدان ما نَصُّهُ: قلت لموسى بن علي رأيت بناء إفريقية المتصل المجتمع الذي نراه اليوم من بناه فقال: أول من بناها عقبة بن نافع الفهري اختطها ثم بَنَى وبَنَى الناس معه الدور والمساكن، وبَنَى المسجد الجامع بها [٢].

مما تقدم، تتضح أهمية نص المؤرخ ابن الأثير، فقد أمدنا بالسَّنَّة التي بدأ فيها عقبة البناء، ثم بالسَّنَّة التي فَرَغَ فيها من عمارتها، وهي فترةٌ طويلةٌ إذا ما قورنت بتأسيس الأمصار الإسلامية الأولى في العراق ومصر، خاصةً وأن عقبة تفرغ لعمارتها والإشراف على منشآتها الدينية والمدنية والحربية، وربما استغرق البناء كل هذه الفترة الطويلة بسبب استحكاماتها الدفاعية، حيث رَغِبَ عقبة أن تكون مدينةً وحصناً في أن واحدٍ، فقد ذَكَرَ حسين مؤنس[٣] نقلاً عن الباجي في الخلاصة النقية "أنه – أي عقبة – جعل دور سورها اثني عشر ميلاً"، وعلى الرغم من أن المؤرخين لم يَذكروا أن عقبة بن نافع شَيَّدَ بها أسواراً" إلا إن إشارة الباجي تتفق وفِكرُ عقبة بن نافع في تأمين مدينته، خاصةً وأن الأخطار محدقة به من جانبين، الروم والبربر.

والواقع، إن القيروان تختلف عن مدن البصرة والكوفة والفسطاط في اشتمالها على تحصيناتٍ حربيةٍ تحيط بالمدينة، حيث خلت هذه الأمصار من التحصيناتِ الدفاعية، خاصةً بعد استقرار الفتوحات الإسلامية قال البكري [٤]: "للقيروان من القديم سبعة محارس أربعة خارجها وثلاثة داخلها".

---

[١] ابن الأثير: المصدر السابق، ج٣، ص٦٣.

[٢] البلاذري: فتوح البلدان، مكتبة الهلال بيروت، ط١، ١٤٦٢هـ / ١٩٨٣م، ص٢٢٦.

[٣] حسين مؤنس: فتح ص ١٤٥.

[٤] المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ج٢، ص ٦٧٥، فريد شافعي، العمارة العربية في مصر الإسلامية، عصر الولاة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٤م، ص ٥١٩.

هذا وقد شَيَّدَ عقبة بن نافع المسجد الجامع في الوسط من المدينة، وشَيَّدَت القبائل مساجدها على نحوٍ يتفق ومساجد الكوفة والفسطاط، ، كما شُيِّدَت المنشآت المدنية المتمثلة في دار الإمارة. قال ياقوت الحموي: "ثم اختط داراً للإمارة"[١]، وكان موقع دار الإمارة إلى الجنوب من المسجد الجامع، نزل بها الولاة في العصرين الأموي والعباسي، إلى أن انتقل عنها إبراهيم بن الأغلب عندما شَيَّدَ بجوار القيروان مدينة العباسية (القصر القديم) تعبيراً عن ولائه للعباسيين، ثم آل أمرها بعد ذلك أن أصبحت مقراً للدواوين، وتتمثل المنشآت الدينية إلى جانب دار الإمارة في دور المدينة، قال ابن الأثير: "دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع"[٢] ،القيروان ربما تكون عند نشأتها أقل من أن تشغل كل هذه المساحة. [٣]

وتتفق دار الإمارة ودور المدينة في توزيعها على المخطط العام للمدينة مع مثيلاتها في مدن البصرة والكوفة والفسطاط، وهو الأمر الذي يتضح في ضوئه أن الخطط في مدن البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان جاءت قبائلية، وأن عقبة بن نافع تأثر في تخطيط مدينته بتخطيط الأمصار الإسلامية الأولى في العراق ومصر، خاصةً مدينة الفسطاط .

حملة عقبة بن نافع وتأسيس القيروان:

سَيّر عقبة بن نافع حمله إلى إفريقية في أوائل سنة ٤٩هـ/٦٦٩م، وقد اتخذ عقبة طريقه في داخل البلاد مبتعدًا عن الساحل، وهو الطريق الذي سَلَكَهُ منذ البداية عندما قَدِمَ عمرو بن العاص إلى برقة، وعلى ما يبدو، فإنه أَلِفَ منذ البداية التعامل مع جوف البلاد وأهل أفريقية من جهة، وآثر الابتعاد عن الخط الساحلي حيث حصون

---

[١] ياقوت الحموي: معجم البلدان، صادر لبنان، ط٢، ١٩٩٥، مج٤، ص٤٢١.

[٢] ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص٦٣.

[٣] محمد محمد زيتون: المرجع السابق، ص٨٠.

الروم، وهو أول من اتخذ هذا الطريق، حيث اتجه كل من تقدمه من القادة المسلمين إلى الخط الساحلي. [١]

سار عقبة بجيشه متنقلاً بين أقاليم الواحات، وأخذ أرض مزاتة، ثم بعث حمله إلى غدامس فافتُتِحَت، ثم فتح قفصة وقسطنطينية، ومن ثَمّ قصد أفريقية، وانضم إلى جيشه من أسلم من البربر في تلك البلاد، فاتجه إلى قمونية، حيث أقام معاوية بن حديج قيراونه. وهنا يذكر ابن عبد الحَكَم: "ثم انصرف إلى القيروان، فلم يُعجب بالقيروان الذي كان معاوية بن حديج بناه قبله، فركب والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم"[٢]

أدرك عقبة بن نافع نتيجة خبرته بأحوال إفريقية، حيث ظل مقيمًا ببرقة ونواحيها خلال الفترة الممتدة (٢١-٤٩هـ/٦٤٢-٦٦٩م)، فكان على دراية كاملة بأحوالها السياسية والجغرافية والاجتماعية والثقافية، أن فتح إفريقية لن يثبت إلا بإقامة مدينة للمسلمين فيها، وهو الأمر الذي يتضح جليًّا فيما أورده "حسين مؤنس" نقلاً عن النويري ونَصُّه: "إن إفريقية إذا دخلها إمام تحوموا بالإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أسلَم بها، وارتد عن الكُفر، وأرى لكم – يا معشر المسلمين – أن تتخذوا منها مدينة نجعلُ فيها عسكراً وتكون عز الإسلام إلى أول الدهر"[٣].

ويذكر محمد زيتون[٤] تعليقًا على هذا النص أن تأسيس القيروان كان لهدفِ ديني ولهدفٍ عسكريٍ حربي، وقد جمع عقبة وجوه أصحابه وأهل العسكر ودار بهم حول مدينته، وأقبل يدعو لها ويقول في دعائه: "اللهم املأها عِلماً وفقهًا، وأعز بها الإسلام، وامنعها من جبابرة الأرض". وكما يتضح من النَّصِّ إلمام عقبة بن نافع

---

[١] حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص١٣٧.

[٢] ابن عبد الحكم: فتوح العرب، المغرب، ص١٩٣؛ حسين مؤنس: المرجع السابق، ص١٣٩.

[٣] حسين مؤنس: المرجع السابق، ص١٤٠.

[٤] القيروان، ص ص ٧٢ – ٧٣.

بأحوال أفريقية من كافة النواحي، فقد استقامت له الأمور في برقة، حيث ظل وحاميته العسكرية مقيمًا بها، متنقلاً بين قبائلها، ملتفتاً إلى عمارتها وكافة أحوالها.

وأغلب الظن أن كل هذه الأحداث التي مرت بها الفتوحات الإسلامية في إفريقية كانت ماثلةً أمام القائد عقبة بن نافع، حيث كان مراقباً لها عن كثب أثناء إقامته ببرقة ونواحيها، وهو يقوم بحملته التي تمثل مرحلةً انتقاليةً من عهد الغارات السريعة والعودة إلى برقة ثم الفسطاط، إلى عهد الفتح المنظم والمتمركز في المدينة الجديدة التي رَغِبَ عقبة في تشييدها، بحيث تتوسط أفريقية، فأدرك ضرورة إقامة مدينة القيروان.

مكانة مدينة القيروان:

حظت مدينة القيروان بعنايه الكتاب[١]، لبيان مكانتها بين العواصم العربية الإسلامية، حول تأسيسها ومؤسسها والصحابة والتابعين الأوائل الذين حضروا إليها، ووقائع التأسيس التي اختلط فيها التاريخ بالأسطورة، الواقع بالخيال،[٢] مدينة عقبة: "اللهم املأها علماً وفقهاً واعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزاً لدينك وذلاً على من كفر، وأعز بها الإسلام وامنعها من جبابرة الأرض"[٣].

وهي كما وصفها المقدسي "مفخرة المغرب ومركز السلطان، وأحد الأركان، أكبر من نيسابور، وأرفق من دمشق، وأجل من أصبهان"[٤].

والقيروان كما وردت في كتاب مسالك الممالك للاصطخري "هي أَجَّلُ مدينة بأرض المغرب"[٥]، ويزيد ابن حوقل "أعظم مدينة في المغرب، وأكثرها تجارةً وأموالاً

---

[١] الرفاعي أنور: تاريخ المدن عند العرب والمسلمين – دار الفكر ١٩٧٧، صـ ٤٢.

[٢] راجع وصف ياقوت الحموي لها، وما كتبه عنها في معجم البلدان، تحقيق فستفلد، ليبزخ ١٨٦٩، ج٤، نقلاً عن الحبيب الجمحاني، القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٨، ص١٧٦.

[٣] النويرى: نهاية الأرب، المكتبة العربية بالقاهرة، ١٩٨٤، ص ٢٤ – ٢٤.، التميمي: طبقات علماء أفريقيا، دار الكتاب البناني، بيروت، ص ٨.

[٤] المقدسي: شمس الدين بن محمد بن أبي بكر البناء الشامي: حُسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي جوية، نشر بريل، ليدن، ١٩٠٦، ص٢٢٦.

[٥] الاصطخري: مسالك الممالك، دي جويه، بريل، ليدن، ١٩٢٧، ص٣٩.

وأحسنها منزلاً وأسواقاً،[١] هي أم أمصار وقاعدة أقطار وكانت أعظم مدن المغرب قطراً وأكثرها بشراً وأيسرها أموالاً وأوسعها أحوالاً وأتقنها بناءً وأنفسه هممًا وأربحها تجارةً وأكثرها جباية وأنفقها سلعةً وأنماها ربحًا"، كما يخبرنا الإدريسي[٢]و يؤكد اليعقوبي على عروبتها بها "أخلاط من الناس من قريش ومن سائر بطون العرب من مضر وربيعة وقحطان"[٣]، هذا ما جاء في بعض كتب الجغرافيا .

- **عزل عقبة بن نافع وأثر ذلك على القيروان:**

أصبحت أفريقية ولايةً ذات أهميةً بعد تشييد القيروان، إذ كانت القيروان نواة إفريقية الإسلامية، و عاصمةَ وحاضرةَ إسلامية، فعمل والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري على أن تتبعه القيروان، وتم عزل عقبة في عام ٥٥هـ/٦٧٥م، أي في السنة التي أتم فيها بناء مدينه القيروان. قال ابن عبد الحكم: "عزله مسلمة بن مخلد الأنصاري، وهو يومئذٍ والي البلد من قِبَل معاوية بن أبي سفيان، ومسلمة بن مخلد أول من جُمعت له مصر والمغرب"[٤].

مدينة القيروان كانت سببًا رئيسيًا في عزل عقبة بن نافع؛ لأنه تفرغ تمام لعمارتها وتوقف عن الاستمرار في الفتوحات، إيمانًا منه بأهمية عمارة المدينة أولاً، ثم الانطلاق منها للغزو والفتح ثانياً، ولما عُزِلَ عقبة جُمِعَت لمسلمة مصر والمغرب، وولى مسلمة أبا المهاجر ديناراً مولى الأنصار. [٥]

قيروان أبو المهاجر دينار بأفريقية:

أصبح دينارٌ أبو المهاجر أميراً على إفريقية خلال الفترة الممتدة من (٥٥-٦٢هـ/ ٦٧٥-٦٨٢م)، قال ابن الحَكَم: "فلما قَدِمَ أبو المهاجر إفريقية كَرِهَ أن ينزل في

---

[١] ابن عبد الحق: كتاب صورة الأرض، ليدن، ١٩٣٩، القسم الأول، ص٩٦.

[٢] الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، دوزي ودي جويه، بيل ليدن، ١٨٦٤، ص١٠، عن الحبيب الجنحاني، ص١٧٤.

[٣] اليعقوبي: كتاب البلدان، دي جويه، بريل ليدن ١٨٩٢، ص٣٤٧.

[٤] ابن عبد الحَكَم: فتوح، ص١٩٧.

[٥] حسين مؤنس: فتح، ص ص ١٤٧ – ١٥٢.

الموضع الذي اختطه عقبة بن نافع، ومضى حتى خلفه بميلين، فابتنى ونَزَلَ، وكان الناس قبل أبي المهاجر –كما حَدَّثَنا عبد الملك بن مسلمة عن أبي لهيعة وأحمد بن عمرو بن وهب عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب يغزون أفريقية ثم يقفلون منها إلى الفسطاط، وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر مولى الأنصار، أقام بها الشتاء والصيف، واتخذها منزلاً". (١)

وفي اعتقادي أن دينارًا أبا المهاجر تعمد عدم نزول القيروان بأمرٍ من والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري، لكون القيروان تُنسب إلى عقبة بن نافع، وهو الأمر الذي أدى إلى تشييد مدينةٍ جديدةٍ من قِبل دينار بن أبي المهاجر من جهة، وإهمال القيروان من جهةٍ أخرى، مما ترتب عليه تأثر منشآتها الدينية والمدنية والحربية تأثراً كبيراً، حيث تُركت فترةً سبع سنوات حتى عاد إليها عقبة بن نافع.

ولاية عقبة بن نافع وتجديد القيروان:

شهد عام ٦٠هـ/٦٨٠م وفاة معاوية بن أبي سفيان بدمشق، وتولى بعدة ابنه يزيد، وتولى عقبة بن نافع إفريقية بعد وفاة مسلمة بن مخلد في عام ٦٢هـ/٦٨١م(٢).

وقال ابن عبد الحكم: "إن معاوية ليس هو الذي ردَّ عقبة بن نافع، ولكنه قَدِمَ على يزيد بن معاوية بعد موت أبيه، فردَّهُ والياً على إفريقية لا عاملاً تابعاً لوالى مصر"، وذلك أصحُّ؛ لأن معاوية توفي سنة ستين. (٣)

وقد ترتب على عودة عقبة بن نافع وولايته إفريقية أن استرَدَّت مدينة القيروان مكانتها، وازدهرت ازدهاراً كبيرًا، وعَظُمَ شأنها، وجُدِّدَت منشآتها الدينية والمدنية والحربية (٤).

---

(١) ابن عبد الحَكَم: فتوح، ص ص١٩٧ – ١٩٨.

(٢) الطبري: تاريخ، مج ٣، ص ص ٢٦١ – ٢٦٤.

(٣) ابن عبد الحَكَم: المصدر السابق، ص١٩٨؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، مكتبة النهضة، ١٩٦٤، ج١، ص ٢٨٠

(٤) أبي عبيد البكري: المغرب في ذِكر بلاد أفريقية والمغرب، (جزء من كتاب المسالك والممالك)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص ص٢٢ – ٢٣.

ترك عقبة على القيروان زهير بن قيس البلوي على رأس حامية صغيرة من الجند، وتوجه لفتح المغرب الأقصى، فكان أول أميرٍ مسلمٍ تطأُ خيله المغرب الأوسط، فاستطاع عقبة أن يفتح بلاد المغرب حتى أشرفَ بجنده على المحيط الأطلسي، فرفع يده إلى السماء قائلاً: "اللهم أشهد أني قد بلغت المجهود، ولوا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد دونك"[١]، وعندما أراد العودة إلى القيروان قُتِلَ مع ٣٠٠ من أصحابه بالقرب من تهودة على يد 'كسيلة' – زعيم البربر، وذلك في عام ٦٣هـ/٦٨٣– ٦٨٤م[٢]، ثم قصد القيروان، فخرج منها زهير بن قيس، وتوجه نحو برقه، وخرج العرب هاربين من القيروان، ودخل كسيلة القيروان وأقام بها أميراً[٣].

ولاية حسان بن النعمان:

بعد استيلاء البربر على القيروان، عاود المسلمين حملاتهم لاسترداد المدينة في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان عام ٦٥هـ/٦٨٥م أرسل زهير بن قيس وهزم كسيلة وقتله واسترد القيروان لكنه قتل عام٦٩هـ/٦٨٩م.

سيطرت الكاهنة زعيمة البربر على القيروان، ولذلك جهز الخليفة عبد الملك بن مروان جيشاً بقيادة حسان بن النعمان الغساني عام ٧٤هـ/٦٩٤م، عندما علم البربر بذلك دمروا المدينة وخربوا الحصون والمدن وقطعوا الأشجار[٤].

وصل حسان إلى القيروان وهزم الكاهنة وجيش البربر، وأتم فتح أفريقية ثم عاد إلى القيروان واقام بها، حتى وافته المنية بعد أن خرج من المغرب في عام ٨٥هـ/٧٠٤م إلى دار الخلافة بدمشق[٥].

---

[١] عبد الوهاب حسن حسني، خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية للنشر ١٩٦٨، ص ٥٧.

[٢] حسين مؤنس: فتح، ص ص١١٩ – ٢٠٥.

[٣] الدباغ عبد الرحمن وابن ناجي: معالم الإيمان في معرفة أصل القيروان، مصر ١٩٦٨م، ص٥٥

[٤] الكاهنة دعت قومها وقالت لهم: "إن العرب لا يريدون من بلادنا إلا الذهب والفضة والمدن ونحن تكفينا المزارع والمراعي، ولسنا نأمن غائلتهم إلا إذا قطعنا تأميلهم، وخربنا المدن والحصون وقطعنا الأشجار، فإذا علموا بذلك ضعفت أطماعهم، لن يرجعوا إلينا أبداً فوافقوها، وصيروا البلاد قاعاً صفصفاً لا ترى فيها إلا الطلال"، الثعالبي: تاريخ شمال أفريقية، دار الغرب الإسلامي بيروت، ١٩٨٧م، ص ٧٣.

[٥] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي بيروت، ١٩٨٦م، ج٤، ص ٣١ – ٣٢.

مدينة القيروان في عهد حسان بن المنذر:

أهتم حسان بن المنذر بالنواحي الإدارية إلى جانب اهتمامه بالنواحي الدينية، فنظم الدواوين وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية؛ أنشأ دار الإمارة بجانب الدواوين وكذلك داراً لضرب النقود وتعديل الأوزان، وأنشأ داراً للضيافة لاستقبال الوفود كما وزع على صغار فلاحي البربر مساحات من الأراضي لزراعتها، وقربهم من الإسلام، واتخذ منهم جيشًا عظيمًا، بذلك جاء الإسلام ليرسي قواعده الراسخة وتعاليمه السمحة في مجتمعات لها جذور راسخه[١].

استقرت مدينة القيروان في عهد الحسان بن النعمان وأشرف المسلمون بالمغرب من خلال ميناء تونس على غربي البحر المتوسط ومنها خرجوا إلى صقلية، وشهدت المدينة ازدهارًا في كافة أحوالها ومنشآتها الدينية والحربية وازدهرت الحضارة، ويذكر محمد محمد زيتون[٢] فيما يتعلق بدروبها "أما داخل المدينة ينقسم أرباض وحارات وشوارع وأسواق عامرة، من أشهر أرباضها (ربض السدرة) ومن الدروب (درب السكة) ويضيف أنه لم يمر نصف قرن على تأسيس القيروان حتى أصبحت أم القرى المغربية.

في النهاية نستطيع أن نذكر أن الانطلاق الحقيقي لعمران مدينة القيروان كان في عهد حسان بن النعمان، حيث ازدهرت معالم المدينة وبرز وجهها الحقيقي، منذ ذلك الحين، أصبح تاريخ القيروان وعمراتها في تطور متواصل[٣].

الولاة بعد وفاة حسان بن المنذر:

تولى حكم افريقية موسى بن نصير عام ٨٩هـ/٧٠٨م، والذي ولاة عبد العزيز بن مروان والي مصر، تعتبر ولاية موسى بن نصير آخر صفحة من صفحات تدخل ولاة

---

[١] القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ص ٧٩.

[٢] عبد الوهاب حسن حسني: خلاصة تاريخ تونس، دار التونسية للنشر ١٩٦٨، ص ٥٧ – ٦٢.

[٣] هشام جعيط: تأسيس الغرب الإسلامي القرن الأول والثاني هـ/ السابع والثامن م، بيروت ٢٠٠٤، ص ١٦٠ – ١٦٥.

مصر في شئون المغرب، فحرص الخلفاء بعد ذلك على أن تتبع ولاية افريقية الخلافة مباشرة، حرص موسى بن نصير على إرساء قواعد الإسلام في المدينة، فاهتم بتعليم البربر القرآن والسنن[١].

توالى الخلفاء بعد ذلك على إفريقية مثل بشر بن صفوان الذي ألحق التجديد بجامع عقبه، ثم من بعده عبيد الله بن الحبحاب تولى عام ١١٦هـ/٦٣٨م الذي أهتم بالمؤسسات الاجتماعية ونظم الأسواق وأنشأ سقايات خارج سور المدينة وأنشأ قنوات للصرف وكان ذلك من عمران المدينة[٢].

تولى مدينه القيروان ولاة اتبعوا الخلافة الأموية اسميًّا مثل عبد الرحمن بن حبيب الفهري من أحفاد عقبه عام ١٢٩هـ/٧٤٧م، وحكم إفريقية حكمًا شبه مستقل، واستمر حكمة حتى ١٤٠هـ/٧٥٨م وهو آخر والي أموي[٣].

المحور الثاني: عمارة مسجد القيروان في العصر الأموي:

١) جامع القيروان[٤] في عهد عقبة بن نافع:

امتد جامع عقبة على مساحة واسعة حتى قيل: "لم يبن عقبة مدينة لها جامع بل بنى جامعًا له مدينة[٥]،فيما يتعلق بالمسجد الجامع، فقد جاء بسيطاً من حيث التخطيط والعمارة في عهد عقبة بن نافع شأنه في ذلك شأن المسجد النبوي ومساجد البصرى والكوفة والفسطاط في مرحلتها الأولى، وأرجع أنه كان من صحنٍ وظلةٍ للقبلة، وهو التخطيط الذي كانت عليه المساجد الأولى عند تأسيسها خارج الجزيرة العربية على غرار المسجد النبوي قبل تحويل القبلة، وهو التخطيط أيضًا الذي ظل

---

[١] عبد الوهاب حسن حسني: كتاب العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، بيت الحكمة، تونس، ١٩٩٠، ج١، ص٤٦.

[٢] يذكر عبد الوهاب حسن حسني: "من يتأمل هندسة هذه القنوات، يحكم أن وضعها غاية في الإتقان من الناحية المعمارية والفنية". ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية، مكتبة المنار تونس، ١٩٧٢، ج١، ص٥٧.

[٣] ابن عذارى: البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة بيروت، ١٩٤٨م، ج١، ص٧٢–٧٣.

[٤] انظر: ملحق رقم (١)، ورقم (٢) في نهاية البحث.

[٥] الرفاعي أنور: تاريخ المدن عند العرب والمسلمين، دار الفكر ١٩٧٧، ص٤٢

عليه الجامع فترةً طويلةً حتى زاد الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الظلات الجانبية للمسجد في عام ٢٦١هـ/٨٧٥م، فأصبح يتكون من صحنٍ وأربع ظلات.

يبدو إن المسجد لم يكن يشتمل على عقودٍ أيام عقبة بن نافع، وأن السقف كان قائمًا مباشرةً على الأعمدة وتيجانها، كما يروي المؤرخون حدوث رؤيا لعقبة بن نافع تحدد لهم قبلة المسجد بما يقطع أمر الاختلاف الذي حدث لعقبة وأصحابه، وبما يعطي لتحديد موقع القبلة منزلةً روحيةً. [١] وقد ساهم في بناء الجامع إسماعيل بن عبيد الأنصاري، وقيل أن عبدالله بن الزبير أسس مسجد القيروان، وكان ممن اختط في القيروان من التابعين أبوعبدالله بن رباح بن نصير اللخمي، الذي اختط بالقيروان دارًا ومسجدًا، ومسجده عند باب نافع، ومنهم أبو رشيد حنش بن عبدالله السبأي الصنعاني الذي اختط بالقيروان داراً ومسجداً يُنسب إليه، وكان يقع بالقرب من باب الريح، ومنهم زياد السفياني الذي اختط بالقيروان داراً ومسجداً بالقرب من باب نافع.[٢]

وهناك مسجدٌ ينسب إلى الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري يُعرف بمسجد الأنصاري، وعُمِّرَت القيروان، وشَدَّ الناس إليها الرحال من كل حدبٍ وصوب، واتسعت بالأسواق والمرافق، ومن ثم ازدهرت الحركة التجارية بها. [٣]

المسجد الجامع:

اختط القائد عقبة بن نافع أولاً دار الإمارة، وحدد موضع المسجد الأعظم، واختطه إلا إنه لم يشيد عليه بناء، وكانت الصلاة تقام على أرضه من غير بناء[٤]، ويروي ابن عذاري أن الناس اختلفوا عليه في أمر قبلة المسجد وقالوا: "إن جميع أهل المغرب

---

[١] أحمد فكري: مساجد الإسلام – مسجد القيروان، مطبعة المعارف بمصر، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م، ص٦٤.

[٢] السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المغرب، ص ص١٢٠ – ١٢١؛ محمد محمد زيتون: القيروان، ص ص٨٧– ٨٨.

[٣] السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص١٢١؛ محمد محمد زيتون: المرجع السابق، ص٨٧.

[٤] سوف لا نتناول في هذا البحث الكلام عن المسجد الأعظم بمدينة القيروان في الفترات التاريخية المختلفة؛ إذ إن البحث يقتصر على تأسيس مدينة القيروان في زمن القائد عقبة بن نافع؛ ولأن المسجد الذي بناه عقبة هدمه حسان بن النعمان بعد عشرين عامًا، حيث ضاق بالمصلين، وأقام بدلاً عنه مسجداً، ومن يرغب في الاطلاع على المزيد من المعلومات عن المسجد الجامع يراجع كتاب 'المسجد الجامع بالقيروان' للمرحوم الدكتور/ أحمد فكري. مطبعة دار المعارف بالقاهرة، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م.

يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد، فاجهد نفسك في تقويمها'، فأقاموا ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس، فلما رأى أمرهم قد اختلف بات مغمومًا، فدعا الله عز وجل أن يُفَرِّجَ عنه، فأتته آتٍ في منامه فقال له: 'إذا أصبحت فَخُذّ اللواء في يدك واجعله على عنقك، فإنك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحدٌ من المسلمين غيرك، فانظر الموضع الذي ينقطع عنك فيه التكبير، فهو قبلتك ومحرابك، وقد رضي الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة، وسوف يعز الله بها دينه، ويُذِلُّ بها من كفر به. فاستيقظ من منامه وهو جزعٌ فتوضأ للصلاة وأخذ يصلي، وهو في المسجد ومعه أشراف الناس، فلما انفجر الصبح وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين، إذا بالتكبير بين يديه، فقال لمن حوله: أتسمعون ما أسمع؟ قالوا: لا. فعلم أن الأمر من عند الله، فأخذ اللواء، فوضعه على عنقه، وأقبل يتبع التكبير، حتى وصل إلى موضع المحراب، فانقطع التكبير، فركز لواءه، وقال: هذا محرابكم"[١].

وقد أجرى "أحمد فكري" أبحاثاً في جامع القيروان في أعوام ١٣٥٠-١٣٥٣هـ/١٩٣١-١٩٣٤م، ثم في عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م أيدت ما أَجْمَعَ عليه المؤرخون من أن محراب المسجد الذي رَكَّزَ عقبة بن نافع لواءه ما زال باقياً إلى اليوم، وإن كانت قد ألصقت حوله في عهد 'زيادة الله' في عام ٢٢١هـ/٨٣٦م، كسوة من الرخام المزخرف بزخارفٍ رائعةٍ أخفت من ورائها معالِم المحراب العتيق، وهكذا يرجع إلى عقبة موضع المحراب وتخطيط جدار القبلة.[٢]

عمارة مسجد القيروان في عهد حسان بن النعمان:

مسجد القيروان من المساجد الجامعة في المدن الإسلامية، ويعتبر مركزًا ورمزًا للقيادة السياسية يُعبر عن السلطة الناشئة، من أجل ذلك، وجب التطوير في عمارة

---

[١] ابن عذاري: البيان المغرب، ص٢٠؛ الطبري: حوادث سنة ٥٠، الجزء الرابع، ص١٧٨؛ ياقوت: معجم البلدان، الجزء الرابع، ص٤٢١.

[٢] أحمد فكري: مساجد الإسلام – مسجد القيروان، مطبعة المعارف بمصر، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م، ص٢٠٥؛ سليمان مصطفى زبيس: المحاريب في العمارة الدينية بالمغرب الإسلامي، المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية، تونس ١٨ – ١٩ مايو، ١٩٦٣م، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥م، ص٥٥٣.

المسجد، بعد أن استقامت البلاد لحكم النعمان، وأقر الأمور في إفريقية أعاد عمارة مسجد القيروان، الواقع، إن تخطيط المسجد في عهدة (٧٦–٨٥هـ/٦٩٥–٧٠٤م)، وأقدم تخطيط وصل إلينا في عمارة المسجد، وهو التخطيط الذي جاء من مساحة مستطيلة قسمها المعمار إلى صحن فسيح وظلة للقبة يماثل لتخطيط باقي مساجد المدن الإسلامية، جاءت ظلة القبة من أربع بلاطات، والبلاطة الأولى أكثر اتساعًا من باقي البلاطات، حيث جاءت باتساع ٥,٥م، بينما تراوح اتساع باقي البلاطات ما بين ٣,٥–٤,٢٥م، وتمتد عقود البائكة الأولى من الشرق إلى الغرب موازية لجدار القبة، وتشرف ظلة القبلية على الصحن من خلال بائكة تمتد عقودها موازية لجدار القبلة[١].

تقع المئذنة بجدار المسجد الشمالي الغربي، زاد حسان في عدد أروقته، وأن حسان أضاف أبراجاً على أركان مسجد عقبه الأول الذي كان على هيئة سور وحصن[٢]، أما الأعمدة الحقت بالمسجد عام ٨٣هـ/٧٠٢م وهي الأعمدة التي تحيط بالمحراب[٣].

يذكر البكري[٤] فيما يتعلق بالجامع: "أول من وضع محرابه عقبة بن نافع، ثم هدمه حسان حاشى المحراب وبناة وحمل إليه السارتين الحمراوين الموشايتين بصفرة اللتين لم يرَ الراؤون مثلهما من كنيسة كانت للأول في الموضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق الضرب، أن صاحب القسطنطينية بذل لهم فيهما قبل نقلهما إلى الجامع زنتهما ذهبًا".

---

[١] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي بيروت، ١٩٨٦، ج ٢٤، ص ٣١–٣٢.

[٢] المساجد، ص١٢١

[٣] أحمد فكري: مساجد الإسلام – مسجد القيروان، ص ٧٩.

[٤] المسالك والممالك، ج٢، ص ٦٧٣

تطور عمارة مسجد القيروان في عهد بشر بن صفوان:

جاء بشر بن صفوان والي على إفريقية من قبل الخلافة الأموية الذي جدد المسجد واهتم بتوسيعه بعد أن استأذن الخليفة هشام بن عبد الملك عام ١٠٥هـ/٧٢٣م ،وصل المسجد إلى مساحته التي هو عليها حتى اليوم في العصر الأموي من محراب عقبه إلى مئذنة بشر، وبنى المئذنة في بئر البستان الذي اشتراه لتوسيع المسجد [١].

حافظ بشربن صفوان على محراب عقبة أثناء التجديد والتوسيع عام ١٠٥هـ/٧٢٣م، بالنسبة للمئذنة، يرجع بناؤها إلى بشر بن صفوان، فيذكر البكري [٢]: "طولها ستون ذراعًا وعرضها خمسة وعشرون، لها بابان شرقي وغربي، وعضائد بابيها رخام منقوش كذلك عتبتهما"، وأقيمت المئذنة على الطراز السوري حيث أوفد هشام بن عبد الملك معمارًا شاميًّا ليقيم المئذنة على غرار المئذنة المقامة في الجامع الأموي الكبير بدمشق، وبذلك كانت نموذجًا شاميًّا، أتخذه رجال الفن من المسلمين في بلاد المغرب والأندلس مئذنة مسجد القيروان نموذجًّا لمساجدهم [٣].

والأساكيب بالنسبة لهيئة المسجد الخارجية تمثل منظرًا رائعًا فسيحًا ممتدًا كثير الأروقة متعدد القباب والأبواب به دعائم ضخمة تصد جدران المسجد تلتصق بواجهاته[٤].

في النهاية، رأينا كيف أن بناء مسجد القيروان أظهر مقدرة وتماسك معماري، وأقيمت عقوده في صفوف متجهة إلى القبلة وجعلها معارضة للأساكيب دون الأروقة حتى يجد الضوء سبيله إلى صحن المسجد، لذلك مسجد القيروان يمثل الوجه المتألق للعمارة القيروانية التي ظلت من أبرز روافد العمارة المغربية والأندلسية عبر التاريخ.

---

[١] نجوى عثمان: مساجد القيروان، دمشق طبعة ٢٠٠٠، ص ٦٧.

[٢] المصدر السابق، ج٢٢، ص ٦٧٤.

[٣] عفيفي بهنسي: الفن الإسلامي في بداية تكوينه، دار الفكر بدمشق، ١٩٨٣، ص ٨٠.

[٤] أحمد فكري: المرجع السابق، ص ١٠٩.

المحور الثالث:
الآثار العلمية لعلماء القيروان ودورهم في نشر الحضارة الإسلامية:

بدأت حركة التعليم والتعلم في الدولة الإسلامية منذ نشأتها، وتطورت مراكز نقلة من المسجد إلى الكتاتيب ثم المدارس والجامعات، خرجت من هذه المراكز جماعة من أعظم الرجال العلماء، وكانت عناية المسلمين في صدر الإسلام مقصورة على العلوم الدينية والشرعية، لكن مع قيام الدولة الأموية، أخذ الاهتمام بالعلوم الأخرى، وبلغت الحركة العلمية ذروتها في المجالين النقلي والعقلي في العصر العباسي.

المسجد هو المدرسة الأولى في الإسلام إلى جانب كونه داراً للعبادة، وكان العلماء الذين يُدرسون في المساجد لا يتقاضون أجرًا على تدريسهم ويبتغون الأجر من الله، وكان الطلاب يفدون إليهم تاركين أوطانهم لتحصيل العلم [١].

اتسعت المساجد في العهد الأموي وازداد عددها، وكان القرآن الكريم هو محور علم المسلمين ثم ظهر التفسير وعلم الحديث والاهتمام باللغة والتاريخ، وتشعبت الدراسة بعد ذلك إلى بقية العلوم العلمية.

مدينة القيروان من أهم المدن الإسلامية التي أسسها المسلمون في صدر الإسلام، والفتوحات الإسلامية التي تسير وفق منهج ديني حنيف أوصى بأهميته العلم، لذلك الدين كان الأساس ولعلمائه دور كبير في تسيير الأمور الحياتية بفضل تعاليم الإسلام لهذا كان دور علماء القيروان في القضاء والفتوى وأعمال العمارة وسائر شئون الحياة العامة بجانب دورهم العلمي.

شهد مسجد عقبة بن نافع دروب علم مختلفة من فقه ولغة وطب وفلك وهندسة، أهم هؤلاء العلماء (علي بن زياد هو أبو الحسن علي زياد) عاش في القرن الثامن الميلادي وتوفى عام ١٨٣هـ/٨٠٠م وعلى بن زياد هو أول من حمل نسخة الموطأ إلى إفريقية الذي آلفة الأمام مالك[٢] وهو كتاب فقه وتشريع رتبه على أبواب الفقه،

---

[١] عطيه القوصي: الحضارة الإسلامية، دار الثقافة العربية، د.ت، ص ١٤٥.

[٢] كتاب الإمام مالك (الموطأ) بمعنى (المحرر) أو المنقح، قال الأمام الشافعي في الكتاب: "ما في الأرض كتاب في الفقه والعلم أكثر صوابًا من كتاب مالك"، ويقول أهل الصحاح وأصحاب الأسانيد: "إن الموطأ هو الأصل الأول وصحيح البخاري هو الأصل الثاني، عطية القوصي: الحضارة الإسلامية، ص ١٦٤.

فكان على من تلاميذ الإمام مالك وبلغ عنه وأراد نشر المذهب المالكي بين مسلمي القيروان، فكان المذهب يعتمد على الحديث تمامً، ولم يعمل بالرأي مخالفاً في ذلك منهج الأمام أبي حنيفة، من تلاميذ علي بن زياد البهلول بن راشد وسحنون بن سعيد واسد بن الفرات، ويذكر في حق علي بن زياد أنه اعتنى بالعلم والمعرفة الفقهية وكان أهل العلم بالقيروان إذا اختلفوا في مسألة فقهية، كتبوا إليه لعيلمهم الصواب ولذلك له الفضل في إرساء قواعد المذهب المالكي في تونس[١]، له مؤلف شهير: "موطأ على بن زياد" هو نفائس المخطوطات في الفقه الإسلامي[٢].

واشتدت الحاجة إلى الفقه في العصر الأموي؛ لأنه ينظم المعاملات ويضع التشريعات التي تنظم حياة الأفراد وعلاقاتهم بعضهم ببعض من ناحية وعلاقتهم بالدولة من ناحية أخرى، فضلاً أنه يوضح التعاليم التي يجب أن يتبعها الناس في شئون دينهم، لذلك ظهر كثير من فقهاء القيروان ذكرنا منهم علي بن زياد على سبيل المثال لا الحصر.

يأتي الحديث في الأهمية بعد القرآن الكريم كمصدر من مصادر التشريع الإسلامي، والحديث هو ما أثر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو حكم أصدره في موضوع عرض عليه، من أشهر المحدثين في القيروان (ابو عمران موسى بن علي بن رباح اللخمي) مولده القيروان عام ٨٩هـ/٧٠٨م والوفاة ١٦٣هـ/٧٨٠م كان والده راوي حديث وعامل أموي ومن الفضلاء يروى عن التابعين، وبذلك نستدل أن موسى بن علي تتلمذ علي يد والدة وإدراك العلوم الدينية منذ نشأته في بيت والدة، وقال عنه شمس الدين الذهبي[٣]: "الإمام الحافظ الثقة، الأمير الكبير العادل، نائب الديار المصرية"، وصلت مكانه موسى بن علي إلى أرفع المناصب، فإنه وفد على الخليفة هشام بن عبد الملك عام ١٢٠هـ/٧٣٨م، وعرف عنه فضله وعلمته وروى له مسلم بن الحبحاب وأصحاب السنن الأربعة، وروي عنه أكابر العلماء منهم الليث بن

---

[١] أبي إسحاق الشيرازي: طبقات الفقهاء، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٧٠، ص ١٦٢، التميمي: طبقات علماء إفريقية وتونس، دار الكتاب اللباني د.ت، ص ٢٢٠ – ٢٢٣.

[٢] نشرته مجلة دعوة الحق العدد ٤٣٤ تصدر عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، يناير ٢٠١٣م.

[٣] سير أعلام النبلاء، ج ٢٧، ص٤١١

سعد، تولى إمارة مصر في عهد أبي جعفر المنصور فضل عليها اشتد أعوام منذ عام ١٥٥هـ/٧٢٢م إلى عام ١٦١هـ/٧٧٨م وتوفي موسى بالإسكندرية عام ثلاث وستين ومائة هجري[١].

مدينة القيروان تسير وفق منهج ديني حنيف، وذلك الدين كان الأساس في تسيير الأمور الحياتية، لهذا كان دور علماء الدين في القضاء والفتوى وبرز نماذج من علماء الدين في القيروان عملوا بالقضاء ومثال لهم عبد الرحمن بن زياد بن انعم بن ذرى، واشتهر بعبد الرحمن بن زياد الأفريقي وكنيته جلَّه المحدثين والعلماء منسوبًا إليه الزهد والورع متقناً للعربية أجاد الشعر، وكان عبد الرحمن يروى عن أبيه أبي أيوب الأنصاري وعبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر، تنقل عبد الرحمن طلبًا للعلم في الأمصار الإسلامية مثل الكوفة ومصر، وأسرة الروم ومضوا به إلى القسطنطينية ثم أطلقوا سراحه، تولى عبد الرحمن القضاء بإفريقية في عهد مروان بن محمد أيام بني أمية ثم عهد له بالقضاء مرة أخرى في عهد أبي جعفر المنصور، وبقى بالقضاء إلى أن توفي، لقب بالقاضي الحليم الذكي وعرف عنه فضله وفائض علمه، وتوفي في عهد يزيد بن حاتم عام ١٥٦هـ/٧٧٤م[٢].

لما تأسست القيروان، ساهم علماؤها وأدباؤها بنصيب كبير في ازدهار الحياة الأدبية في المغرب ومثال لهؤلاء ابن ربيعه خالد بن ربيعه الأفريقي أول من عرف من الأدباء الكتاب المترسلين في إفريقية، رحل في طلب العلم إلى الشام في خلافة هشام بن عبد الملك، زادت ثقة الخليفة به وعمل في ديوان الانشاء في دمشق، ثم عاد إلى إفريقية عام ١٣٢هـ ٧٥٠م، واتصل بالأمير عبد الرحمن بن حبيب الفهري، فعهد إليه بتدبير شئون إمارته في المغرب وهذه الدلالة تصل بنا لنتيجة مهمة، وهو تشجيع الخلفاء والأمراء للعلماء والأدباء والثقة التي منحوها إياهم حتى ترقوا إلى أعلى المناصب في إفريقية، تبلغ مصنفات خالد بن ربيعة التي سميت (رسائل) نحو مئتي ورقة[٣].

---

[١] ابن العماد الحنبلي بشذرات الذهب، ج١، ص ٢٥٨ (سنة ١٦٣)

[٢] الذهبي: سير أعلام النبلاء، ص ١١.

[٣] موسوعة التراجم والأعلام: دار العلم للملايين، بيروت ط١٥ عام ٢٠٠٢، ج٢٢، ص٢٩٥

تنوعت الحقول المعرفية في القيروان، وكان لعلماء المسجد دورهم في العلوم الإنسانية مثل: التاريخ ومن أقدم المؤرخين الذين كتبوا في تاريخ إفريقية عيسى ابن محمد بن ابى المهاجر وجدة أبو المهاجر هو الذي ولى إفريقية بعد ولاية عقبة بن نافع[١]، ويذكر التميمي[٢]: "ألف كتابًا في فتوح أفريقيا، وتوفي في القرن الثاني الهجري، وبذلك نستخلص أن رغم بداية حكم العرب ودخول الدين الإسلامي إلى القيروان إلا إن الاهتمام لم يوجه فقط للعلوم الدينية بهدف نشر الدعوة الإسلامية، إنما اهتم الولاة الأمويون بكافة فروع العلم والمعرفة، وعلى الرغم من أن مؤلفات المؤرخين القدامى فقدت ولا نعرف إلا أسماءها إلا أن جاء مؤرخون بعد ذلك العصر وتحدثوا عن هذه المؤلفات[٣].

يواكب قيام دولة الأمويين في المغرب نمو للحياة الفكرية في القيروان وازدهارها خلال حكمهم لتشمل معظم العلوم التي كانت متواجدة آنذاك ،وعلى الرغم من الاهتمام بالعلوم الدينية من فقه وتفسير ولغة لإرساء قواعد الفتح الإسلامي في بلد ما تتطلب ذلك لنشر الدين الإسلامي ودعوته وتعاليمه، وابتدأت الحياة الفكرية في القيروان بالعلوم الدينية ثم تطورت في عصر الأغالبة والفاطميين تطورًا سريعًا لتشمل كافة النواحي العلمية.

على الرغم من الاهتمام بالعلوم الدينية في فترة حكم الولاة الأمويين، فإن إفريقية لم تخلو من الجهود العلمية، والأثر العلمي الوحيد في الدراسات الفلكية والرياضة في عصر الأمويين تم تصنيفه على يد العالم أبي على شقران بن علي الهمذاني القيرواني، ويذكر عنه المؤرخون[٤] أنه كان رجلاً صالحاً – ضرير البصر من أهل الفضل ومستجاب الدعوة وعالمًا بالحديث وفقير صوفي كبير عالمًا بالفرائض، وله

---

[١] الرفيق القيرواني: مقدمة تاريخ إفريقية، ص ١٥.

[٢] طبقات علماء إفريقية، ج٢١، ص ١٢٠.

[٣] محمد محمد زيتون: القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ص ٤٠٠.

[٤] يوسف بن أحمد حوالة: الحياة العلمية في إفريقية، طبعة عام ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ج٢، ص ٣٨٨؛ محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسية، حرف الهاء، ص ٦٠٨.

فيها كتاب لم نجد عند علمائنا غيره، وهذا الكتاب مفقود روى عنه سحنون بن سعيد وعون بن يوسف الخزاعي وتوفي عام ١٨٦هـ في القيروان[١].

أما عن علم الرياضة والهندسة، سبق أن تحدثنا عن التطور الهندسي الذي صاحب العمارة في القيروان ومسجدها والحصون الحربية وسفن الأسطول التي كانت تستخدم، كل ذلك شواهد تدل على وجود هندسة المباني والآلات وعلى الرغم من ذلك لم تمدنا المصادر عن أسماء علماء رياضيين في فترة الدراسة [٢].

يذكر في القيروان من اشتغل بالكيمياء وهو إسماعيل بن يوسف في ترجمة محمد بن الحارث الخشن أنه تعلم على يد أحمد بن يوسف القيرواني كان حكيمًا بالأذهان، وأنه اشتغل بصنعة الكيمياء.

في النهاية، نستخلص أن الحياة الفكرية في القيروان ظلت رائدة للفكر الإسلامي في غرب العالم الإسلامي، واستمرت تحقق ما أرادة مؤسسها عقبة بن نافع الصحابي الجليل عندما دار حولها وقال: "اللهم املأها علمًاً وفقهًا واحفظها من جبابرة الأرض).

---

[١] محمد محمد زيتون: القيروان ودورها في الحضارة، ص ٤٠١.

[٢] محمد محمد زيتون: المرجع السابق، ص ٤٠١.

الخاتمة (نتائج البحث):

تطرق البحث إلى أثر تطور العمارة الأموية على تجديد الدور الحضاري والثقافي لمسجد القيروان في عصر الدولة الأموية بالمغرب، ويمكن عرض أهم نتائج البحث على النحو التالي:

١. أفادت الدراسة إن انتشار الإسلام في القيروان قد مَرَّ بعدة مراحل – كما هو موضح بالبحث – كما رصدت الدراسة مكانة مدينة القيروان وكذلك جامع القيروان في عهد عقبة بن نافع، وأيضًا في عهد أبي المهاجر دينار بإفريقية، حتى وفاة معاوية بن أبي سفيان.

٢. كما أوضحت الدراسة الاستقرار السياسي الذي عاشت فيه مدينة القيروان في عهد عقبة بن نافع وتجديد القيروان مرةً أخرى.

٣. تطرقت الدراسة لولاة الدولة الأموية بإفريقية بعد وفاة عقبة بن نافع وأهمهم حسان بن النعمان والاستقرار السياسي والتطور الحضاري الذي ساد القيروان في عهدة.

٤. استطرق البحث لتطور عمارة مسجد القيروان مروراً بمؤسسة عقبة بن نافع والتطور العمراني في عهد حسان بن النعمان وفي عهد بشر بن صفوان.

٥. وأوضحت الدراسة الآثار العلمية لعلماء القيروان ودورهم في نشر الحضارة الإسلامية، كما أظهرت الدراسة اهتمام الولاة الأمويين بالعلوم الدينية من فقه وتفسير ولغة وتشجيعهم للرحلات العلمية بين علماء القيروان وعلماء المشرق لتحصيل العلم.

٦. اهتم الفكر القيرواني بالتاريخ، وكتب عن الحوادث المعاصرة لفتح الأمويين لإفريقية.

٧. حقق علماء القيروان تقدماً ملحوظاً في الفلك والكيمياء وعلم الرياضيات.

وفي النهاية، لا أزعم أنني قدمت الصورة الكاملة لعمارة مسجد القيروان، فربما فاتني الشيء الكثير، فهذا هو قدر جهدي وطاقتي، إلا إنني آمل أن يكون هذا البحث قد فتحت به أبواب البحث التاريخي لعمارة المدن الإسلامية في منطقة الدراسة، وفي مناطق أخرى من القارة الأفريقية.

أسأل التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ملحق رقم (١)

ملحق رقم (٢)

عبد الله كامل: الآثار الإسلامية خلال العصر الأموي في شرق وغرب العالَم الإسلامي، دار الوفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص٤٢١.

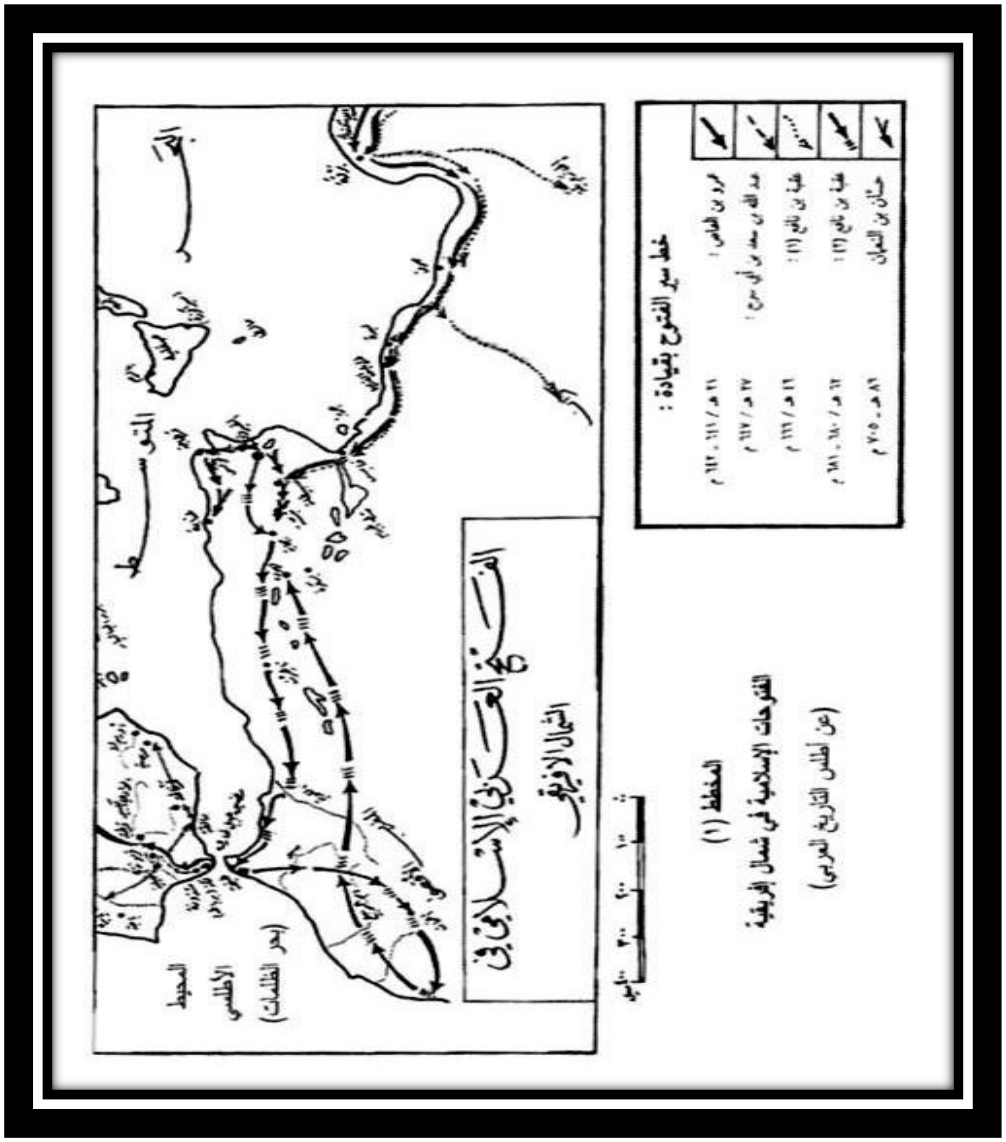

المخطط (١)

الفتوحات الإسلامية في شمال إفريقية

(عن أطلس التاريخ العربي)

نجوى عثمان (مساجد القيروان)

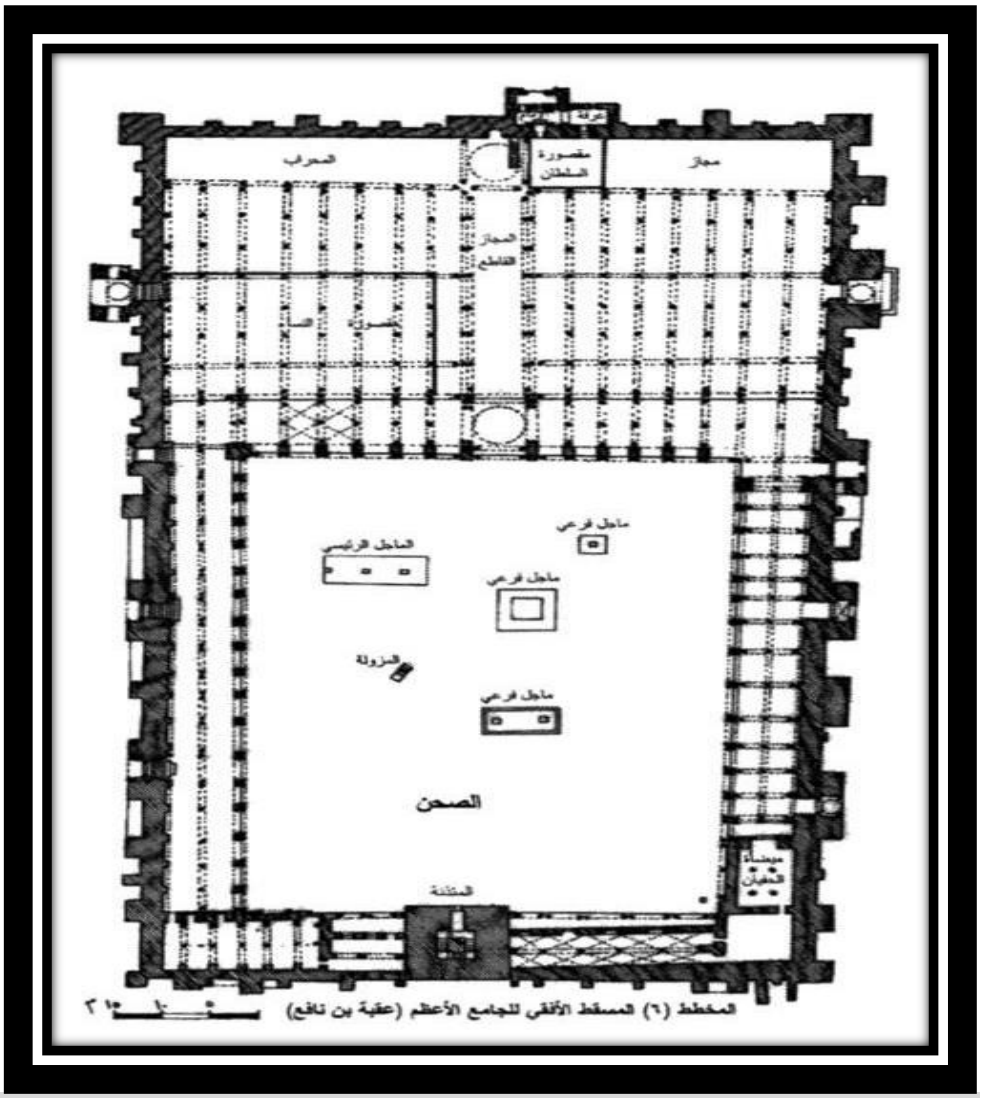

نجوى عثمان (مساجد القيروان)

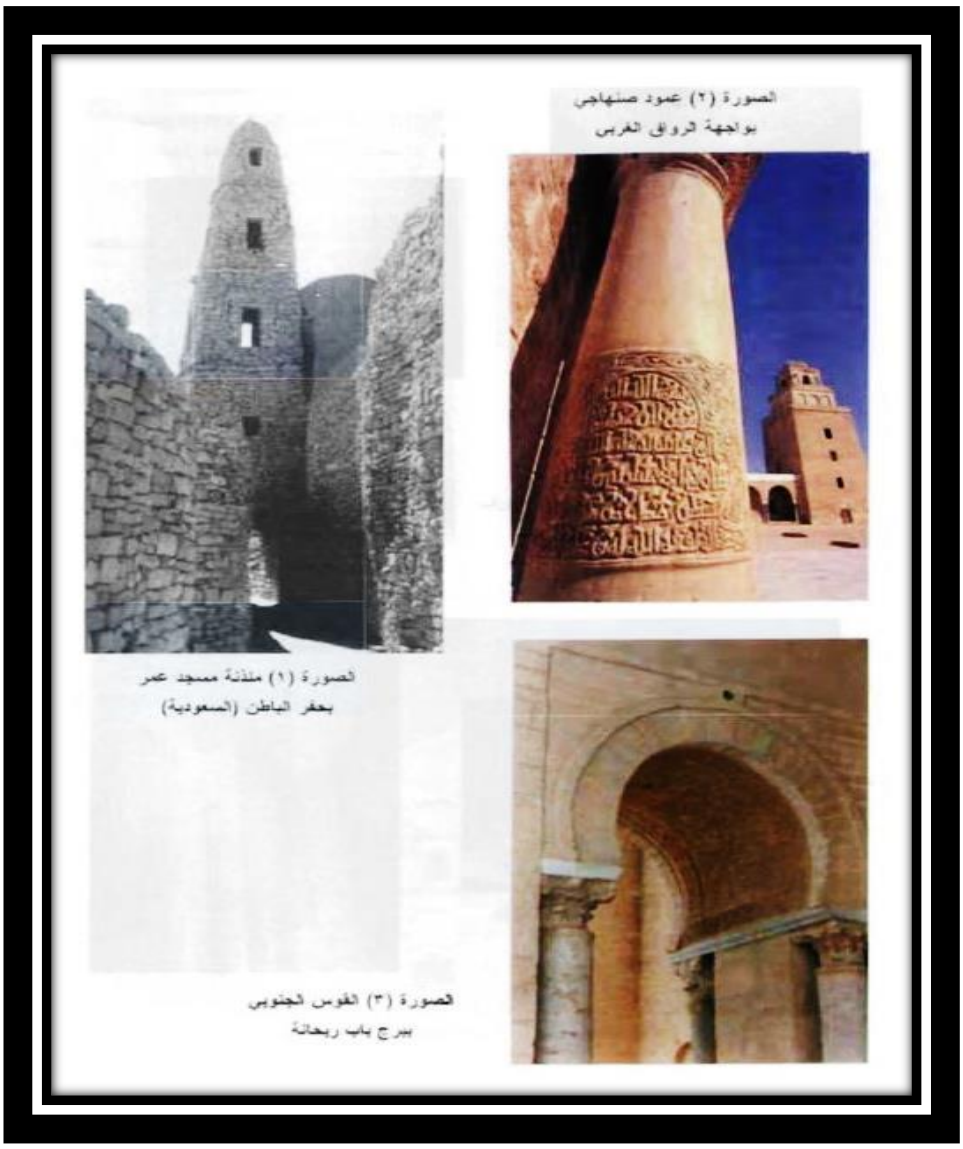

نجوى عثمان (مساجد القيروان)

الصورة (٤) جزء من سقف المجاز الأول
(مجاز المحراب) في الجامع الاعظم

الصورة (٥) ٣ أعمدة يسار المجاز القاطع
في الجامع الاعظم

الصورة (٦) ٥ أعمدة عند تقاطع
المجاز القاطع مع مجاز المحراب والقبة

الصورة (٧) فاصل رصاص
بين جسم العمود وقاعدته

نجوى عثمان (مساجد القيروان)

الصورة (٨) مجاز المحراب

الصورة (٩) قبة المحراب من الداخل

الصورة (١٠) قبة المحراب من الخارج

نجوى عثمان (مساجد القيروان)

الصورة (١٣)
تفصيل الجزء العلوي فوق المحراب

الصورة (١١) المحراب

الصورة (١٢) تفصيل جزء من جنبة المحراب وأحد عموديه

الصورة (١٥) منظر عام للمنبر والمقصورة

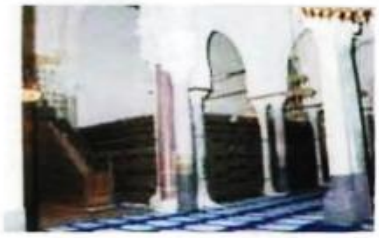

الصورة (١٤) تفاصيل زخارف المنبر

الصورة (١٧) باب المئذنة

الصورة (١٦) المئذنة والرواق الشمالي

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

١- ابن الأثير: عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني) ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م: الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٢- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان – تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، طبعة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م.

٣- ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، نشره محمد بن تاويت الطنجي، تقديم: عبادة كحيلة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د.ت

٤- ابن عبد الحَكَم (أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري ت٢٥٧هـ ٨٦٧م: فتوح مصر وأخبارها (صفحات من تاريخ مصر – ١٠) مكتبة مدبولي، القاهرة ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٥- أبي عبيد البكري: المغرب في ذِكر بلاد أفريقية والمغرب، (جزء من كتاب المسالك والممالك)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت

٦- الاصطخري (ابن إسحاق بن إبراهيم بن محمد الفارسي): المسالك والممالك، تحقيق: محمد جابر عبد العالي الحيني، محمد شفيق غربال، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

٧- البغدادي: (ابن عبد الحق البغدادي صفي الدين): كتاب: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل بيروت لبنان، ط ٢٠٠٨.

٨- البكري (أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز) ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م: المسالك والممالك، ج٢.

٩- البلاذري (أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر ت٢٧٩هـ/٨٩٢م: فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٣م.

١٠– الجواليقي: المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، دار القلم دمشق، ط١٤١٠/١٩٩٠م.
١١– الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير) ت٣١٠هـ/٩٢٢م: تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧م/١٩٩٧م، ج٣.
١٢– ١٢–ابن عذاري: البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة بيروت، ١٩٤٨م.
١٣– المقدسي (شمس الدين أبوعبدالله ت٣٨٠هـ/٩٩٠م: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
١٤– ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت، لبنان، ١٩٦٨.
١٥– ياقوت الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي) ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م: معجم البلدان، دار صادر، ط٢، مج٤، بيروت، ١٩٩٥م.
١٦– اليعقوبي: كتاب البلدان، دي جويه، طبعه أبريل لندن ١٨٩٢م

ثانياً: المراجع:

١– أحمد فكري: مساجد الإسلام – مسجد القيروان، مطبعة المعارف بمصر، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م.
٢– الرفاعي أنور: تاريخ المدن عند العرب والمسلمين – دار الفكر ١٩٧٧.
٣– علي خلاصي: القيروان ومدن المغرب الأوسط بين ٥٠ و١٧٠هـ/٦٧١ و٨٠٠م، مؤتمر المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس ٢٠٠٩م.
٤– حسن الباشا: مدخل إلى الآثار الإسلامية دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٩م.
٥– حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د. ت).
٦– سليمان مصطفى زبيس: المحاريب في العمارة الدينية بالمغرب الإسلامي، المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية، تونس ١٨ – ١٩ مايو، ١٩٦٣م، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٥.

٧- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د. ت.

٨- عبد الله كامل موسى: الاستحكامات الحربية بالثغور المصرية في عصر الحروب الصليبية، مجلة كلية الآداب بقنا، جامعة جنوب الوادي، العدد الرابع، ١٩٩٥م.

ـــ: الآثار الإسلامية خلال العصر الأموي في شرق وغرب العالَم الإسلامي، دار الوفاء، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ٢٠١٣

٩- عبد الوهاب حسن حسني: العمر في المصنفات والمؤلفين التونسيين، تونس ١٩٩٠.

١٠-علي خلاصي: القيروان ومدن المغرب الأوسط بين ٥٠ و١٧٠هـ / ٦٧١ و٨٠٠م، مؤتمر المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس ٢٠٠٩م.

١١-عفيفي بهنسي: الغد الإسلامي في بداية تكوينه، دار الفكر بدمشق، ١٩٨٣.

١٢-فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م

١٣-محمد محمد زيتون: القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار، الطبعة الأولى،١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

١٤-نجوى عثمان: مساجد القيروان، دمشق، ط٢٠٠٠.

١٥-هشام جعيط: تأسيس الغرب الإسلامي في القرن الأول والثاني الهجري / السابع والثامن الميلادي، بيروت ٢٠٠٤.

فلسفة ابن خلدون في حديثه عن الأمصار والمدن في المغرب العربي
" رؤية تطبيقية في بيان مدى صحة اجتهاداته"
بدءاً من تأسيس القيروان إلى نهاية تأسيس مراكش"
" ٥٠ -٤٥٩ هـ / ٦٧٠ – ١٠٦٦ م "

د . عادل يحيى عبدالمنعم
مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية المنتدب
بكلية التربية – جامعة عين شمس" سابقًا "

ملخص البحث:

هذا البحث يتحدث عن فلسفة ابن خلدون في حديثه عن الأمصار والمدن في المغرب العربي بدءاً من تأسيس القيروان سنة ٥٠هـ/٦٧٠م إلى نهاية تأسيس مراكش سنة " ٤٥٩هـ/١٠٩٦م"

وقد بدأت البحث بالتعريف بابن خلدون ونشأته ومراحل حياته الفكرية والعلمية بإيجاز شديد جدا، ثم أعقب ذلك الحديث عن أسباب قلة المدن والأمصار في المغرب العربي في فلسفة ابن خلدون، مشيراً إلى بعض أقواله في هذا الشأن عن عمران إفريقية والمغرب، وأنه كان بدوياً، وأن العرب لا هدف لهم في بناء المدن سوى توفير المراعي لإبلهم، وأن العرب والبربر أبعد الناس عن الصنائع ... إلى أخر ما قاله .

ثم كان الجانب التطبيقي في البحث من خلال الحديث عن بناء المدن والبلدان في المغرب العربي، ومقارنتها بما قاله ابن خلدون، لبيان مدى ما كان محقاً فيه، وما أصابه من الشطط، وهو ما حرصت على تدوينه في خاتمة البحث وخلاصة الرؤية التطبيقية .

وأياً كانت نتائج البحث والأخطاء وقع فيها ابن خلدون، فيكفي الرجل أنه كان ومازال وسيبقى علامة بارزة في تاريخ الفكر الإسلامي، والله – سبحانه وتعالى – أسأل القبول والسداد والتوفيق .

The conception of Ibn Khaldun in his talk about the countries and cities in the Arab Maghreb.
"An applied vision in explaining the validity of his jurisprudence"
From the foundation of Kairouan to the end of the foundation of Marrakesh "50-459 AH / 670-1066 AD"

This research talks about the conception of Ibn Khaldun in his talk about the countries and cities in the Arab Maghreb, starting from the founding of Kairouan in the year 50 AH / 670 AD to the end of founding of Marrakesh in" 459 AH / 1096 AD".

The research began with the definition of Ibn Khaldun, his upbringing, and the stages of his intellectual and scientific life with a very brief summary, then followed that with a talk about the reasons for the scarcity of countries and cities in the Arab Maghreb in the conception of Ibn Khaldun, referring to some of his sayings in this regard about the construction of Africa and Morocco, and that he was a Bedouin, and that the Arabs had no goal in building cities other than providing pastures for their camels, and the Arabs and Berbers were the most distant people from industries to the last of what he said.

Then the practical aspect of the research was by talking about the construction of cities and countries in the Arab Maghreb, and comparing them with what Ibn Khaldun said, to show the extent of what he was right about, and what he was wrong about, which I was keen to write in the conclusion of the research and the summary of the applied vision.

Whatever the results of the research and the mistakes that Ibn Khaldun fell into, it is sufficient for the man that he was, is, and will remain a prominent mark in the history of Islamic thought, and God - Glory be to Him - asks for acceptance, payment and success.

مقدمة:

أهمية الموضوع والدراسات السابقة وإشكالية البحث فيه: –

تبدو أهمية موضوع بحثى هذا في إنه يمثل رؤية جديدة تتعلق بالمقارنة بين فلسفة ابن خلدون في حديثه عن الأمصار والمدن في المغرب العربي، فيما أسماه في مقدمته بالعمران البشرى [١]، وبين الواقع العملي والتاريخي لنشأة المدن على أرض المغرب.

وهى إن تك رؤية جديدة، فذاك فضل من الله تعالى أفضى إليَّ به اجتهادي، وإن تكن غير ذلك فحسبي أنى اجتهدت، وإن هدفي هو استجلاء الحقيقة في ديار الإسلام عامة، وقد يكون في ذلك أيضًا دعوة إلى إعمال العقل في بيان مدى صحة اجتهادات ابن خلدون بمقارنتها على أرض الواقع التاريخي؛ إذ لا يمكن أن يكون الهدف هو تخطئة ابن خلدون فيما ذهب اليه، وهو من يأتي – مع أعلام غيره بالطبع – على قمة تاريخ الفكر والثقافة في ديار الإسلام عامة حتى يومنا هذا، ويتنازع حوله أصحاب تخصصات شتى في العلوم الإنسانية، كلٌ يحاول انتسابه إليه، أو إلى تخصصه.

وخارج عن القصد أيضًا الحكم على الرجل بمقياس العصر الحديث ؛ بل إن الحكم على اجتهاداته سيكون من خلال معطيات العصر الذي تمت فيه المنشآت والمدن على أرض المغرب . ولعله من المفيد القول بأن اجتهادات المؤرخين – أيًّا كانت درجة دقتها – لا يمكن أن تأخذ صفة القداسة، وأن قليلاً منها – خاصة المستند إلى ثقافة قرآنية – تبدو وكأنها قوانين، أو تعميمات لها قوة القانون في العلو التطبيقية، كما هو الحال في قول ابن خلدون أن "الظلم مؤذن بخراب العمران" [٢]،

---

(١) يذكر ابن خلدون أن الاجتماع الإنساني ضروي، وأن الإنسان مدني بالطبع، ولابد له من الاجتماع الذي يعبر عنه بالعمران في اصطلاح الحكماء. انظر: ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد ت " ٨٠٨هـ/١٤٠٥م " مقدمة ابن خلدون، ط ١١ دار القلم بيروت ١٤١٣هـ/١٩٩٢م ص٤١ وهذا العمران هو الذي يعبر عنه بالطور الحضري، ويعرف بالتمدن، ويمثل قمة الحضارة الإنسانية في رأي نفر من المستشرقين. انظر: وليام سبنسر، المنجزات الإسلامية في تخطيط المدن من الوجهة التاريخية، ضمن أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، ج١، جامعة حلب ١٩٧٧. ص ٥٥١ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون، ص ٢٨٦.

وما عدا ذلك من اجتهادات يمكن إعمال العقل بشأنها ومناقشتها، ما لم تكن هناك وثائق تحسم بصحتها .

وتبدو إشكالية بحثى هذا فيما يتعلق باختلاف التواريخ حول نشأة المدن أو الانتهاء من بنائها، ورغم أن هناك ثمة اتفاق واضح حول بناء القيروان سنة "٥٠هـ/٦٨٠م" [١]؛ إلا إن الآراء قد اختلفت حول بداية تأسيس مراكش، أو الانتهاء منها، أو بنائها .

وقد ناقش القضية المذكورة – من قبل – الأستاذ الدكتور السيد عبدالعزيز سالم رحمه الله تعالى، مشيرًا إلى أن هناك إجماعًا واضحًا على أن "يوسف بن تاشفين" هو الذي اختط مدينة مراكش سنة "٤٥٤هـ/١٠٦٢م" [٢]؛ ومشيرًا في نفس الوقت إلى تعدد التواريخ حول بناء المدينة، وأن ابن عذارى يذكر أن أبا بكر بن عمر اللمتوني هو الذي شرع في بنائها سنة "٤٦١هـ/١٠٦٨م" [٣]؛ في حين ذكر صاحب الاستبصار أن يوسف بن تاشفين أسسها في سنة "٤٥٩هـ/١٠٦٧م" [٤]. كما ذكر ياقوت أن يوسف بن تاشفين قد اختطها في حدود سنة "٤٧٠هـ/١٠٧٧م" [٥].

وخلاصة القول في ذلك الشأن بأن مدينة مراكش قد تم تأسيسها على يد يوسف بن تاشفين سنة "٤٥٤هـ/١٠٦٢م" في الفترة التي غادر فيها أبو بكر بن عمر المغرب

---

(١) يأتي هذا انطلاقا مما جاء في كتابات بعض المؤرخين أن ولاية عقبة بن نافع كانت سنة "٥٠هـ/٦٨٠م" وأنه شرع في بناء مدينته آنذاك .

انظر: سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي. المغرب العربي، ج١، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٩٥. ص ١٨؛ السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسس شباب الجامعة ١٩٨٢. ص ١٠٩؛ حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ، مكتبة الثقافة الدينية دون تاريخ . ص ١٤٠ –١٤٤.

(٢) انظر: سالم : تاريخ المغرب، ص ٦١٦ – ٦١٧ .

(٣) انظر: ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٤، تحقيق ومراجعة: إحسان عباس، ط ٣، الدار العربية للكتاب ص ١٨ ، ١٩.

(٤) انظر: كاتب مراكش من كتاب ق "٦هـ/١٢م" كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق: سعد زغلول عبدالحميد، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) بغداد – دار النشر المغربية ١٩٨٥ ص ٢٠٨ .

(٥) انظر: ياقوت الحموي: الشيخ الإمام شهاب الدين أبى عبدالله ت "٦٢٦هـ/١٢٢٨م" معجم البلدان، ج ٤، دار صادر بيروت دون تاريخ ص ٩٤.

إلى الصحراء لإزالة الخلافات بين قبائل صنهاجة، وأن بناء المدينة قد استغرق خمس سنوات، وأنه تم الانتهاء من بنائها سنة " ٤٥٩ هـ/١٠٦٦م" طبقًا لما قال به صاحب الاستبصار[١]، وأن ما عدا ذلك من تواريخ بشأن بناء المدينة أو الانتهاء منها يمكن استبعادها، وهو ما أرجحه تمامًا و دفعني إلى اختبار عنوان البحث في فترته الزمنية على النحو المذكور.

وقد أفضى إليَ اجتهادي في بحثي هذا أن أبدأه بالتعريف الموجز بابن خلدون، ثم استعراض لآرائه في بناء الأمصار والمدن في المغرب العربي، ثم الحديث عن مدى صحة اجتهاداته في ضوء الحديث عن المدن على امتداد عصور المغرب التاريخية على النحو التالي:

– مدن عصر الفتح

– مدن عصر الدويلات المستقلة

– مدن الفاطميين والصنهاجيين، وتحتوى هذه الجزئية على المدن التي أنشأها الفاطميون، ومن بعدهم مدن بني زيري الصنهاجيين وأبناء عمومهم من بنى حماد، ملحقًا مدينة مراكش اعتمادًا على إنها من إنشاء المرابطين وهم من صنهاجة. مختتمًا البحث بتعليق وتقييم وكلمة ختام، محاولًا استخلاص أهم ما توصل إليه البحث من نتائج، سائلاً المولى– عز وجل – أن يلهمني السداد والتوفيق، إنه ولى ذلك والقادر عليه.

– التعريف الموجز بابن خلدون، ومراحل حياته العلمية :–

يُنتسب بنو خلدون إلى العرب اليمانية في حضرموت، وكانوا أول من رفعوا لواء الثورة في إشبيلية في عهد الأمير عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن "٢٧٥ –٣٠٠هـ/ ٨٨٨ –٩١٢م" واستمرت دولتهم في إشبيلية وقرمونه بالأندلس حتى انتهت في بداية

(١) انظر: سالم: المرجع السابق، ص ٦١٧؛ وهو ما يعنى أن ما ذهب اليه الكاتب المراكشي صاحب الاستبصار هو المرجع لدى، وهو ما اتفق فيه تمامًا مع الأستاذ الدكتور السيد عبدالعزيز سالم رحمة الله تعالى عليه؛ وهو ما يعنى أيضًا أن الكاتب المراكشي أعلم بشئون بلده وتاريخها، طبقًا للمثل القائل أهل مكة أدرى بشعابها .

عهد عبدالرحمن الناصر[١]. وإلى هؤلاء ينتسب أبو زيد ولى الدين عبدالرحمن بن خلدون المؤرخ والمفكر والفيلسوف، الحضرمي في أصله الأول، الإشبيلي في أصله الثاني، انتقل أسلافه إلى تونس أواسط المائة السابعة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم/ أواسط القرن الثالث عشر من الميلاد، وكان مولده بها في أول رمضان سنة ٧٣٢٥هـ/٩٣٦م" [٢].

وثمة كتابات تاريخية أشارت باقتضاب إلى تعدد مراحل حياته فيما بين التعليم والنشأة من سنة " ٧٣٢ – ٧٥٣هـ/١٣٣١– ١٣٥٢م " والمرحلة الثانية من حياته العلمية والعملية التي شملت شمال أفريقيا والمغرب والأندلس بدءًا من سنة " ٧٥٣– ٧٨٤هـ/١٣٥٢– ١٣٨٢م " ثم مرحلته الأخيرة التي استقر خلالها في مصر، واستمرت ما يقرب من أربعة وعشرين عامًا بدءًا من " ٧٨٤ – ٨٠٨هـ/١٣٨٢– ١٤٠٥م " وفيها كانت وفاته بالقاهرة يوم الأربعاء من شهر رمضان عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م" [٣] .

---

(١) انظر: محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول / القسم الأول، ط ٣ مكتبة الخانجي ١٩٨٨. ص ٣٣١ – ٣٣٤؛ وقد ذكر ابن الآبار من زعماء بيت بنى خلدون: كريب بن عثمان بن خلدون وأخيه خالد

انظر: ابن الأبار: ابو عبدالله محمد ت " ٦٥٨هـ/١٢٦٠م" كتاب الحلة السيراء، ج٢، تحقيق: حسين مؤنس، ط٢ دار المعارف ١٩٨٥. ص ٣٧٦؛ كما ذكر ابن خلدون نفسه عن كريب وأخيه خالد أنهما كانا من أعظم ثوار الأندلس.

انظر: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر، مج ٧، ط ١ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣. ص ٤٥٢ .

(٢) جاء في التعريف بابن خلدون ونسبه ضمن كتابه العبر ورحلته غربا وشرقا إنه عبدالرحمن بن محمد بن ممد بن ممد بن الحسن بن ممد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن خلدون ... انظر: ابن خلدون :المصدر السابق، مج ٧؛ ص ٤٥١؛ ويمكن إحالة القارئ الكريم إلى بعض المصادر التي ترجمت له في كتاب النقد الاجتماعي ضمن الحديث عن الكتابات المرتبطة بالأندلس، وذلك خشية الإطالة. انظر: عادل يحي عبدالمنعم: النقد الاجتماعي عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٨، ص ٣٥٧ ضمن حواشي الكتاب.

(٣) انظر: أحمد صبحى منصور: مقدمة ابن خلدون، دراسة أصولية تاريخيه، دار الأمين، القاهرة ٢٠٠٣ ك ص ١٢.

وقد عاش ابن خلدون حياة فلقة منذ بدايتها، فقد توفي والداه – من جراء طاعون أصاب البلاد – بعد ما يقرب من سبعة عشر عامًا من مولده، ثم عاش في مسيرته العلمية والعملية حياة ملؤها القلق والاضطراب والاغتراب النفسي، وعانى كثيراً من الحقد والحسد ومنافسة أقرانه له في كثير من رحلاته فيما بين المغرب والأندلس، حتى أتيح له في النهاية أن يلجأ إلى مصر في عهد السلطان برقوق سنة " ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢ م "، وهى فترة لم تسلم مما عانى منه فيما سبق من مراحل حياته، حتى كانت وفاته كما سبق القول [١] .

وعلى أية حال الحديث عن حياة ابن خلدون وتراثه الفكري [٢] قد يؤدى إلى إسهاب لا حاجة للبحث فيه ؛ فما يهم هنا هو آراء الرجل وفلسفته في الحديث عن الأمصار والمدن في المغرب العربي، وهو ما سوف أتناوله في الجزئية التالية :-

آراء ابن خلدون عن الأمصار والمدن في المغرب العربي :-

يذكر ابن خلدون في حديثه عن الأمصار والمدن في المغرب العربي إنها كانت قليلة، ومرد ذلك إلى أسباب متعددة يمكن وضعها على النحو التالي : -

أولًا : إن إفريقية والمغرب كانت للبربر منذ آلاف السنين قبل الإسلام [٣].

ثانيًا : إن عمرانها كان بدويًّا، ولم تستمر فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها[٤].

ثالثًا : إن الشعوب التي حكمت بلاد المغرب – قبل الفتح الإسلامي – قد اقتصر تواجدها على السواحل، دون منطقة الداخل، وأن المناطق الداخلية قد تُرك

---

(١) انظر: أحمد صبحى منصور: المرجع السابق، ص ١٦– ٢٣.

(٢) تحدث أ. عنان – رحمه الله – عن ابن خلدون وأسرته ونشأته الأولى ووجوده في بلاط فاس، وخدمته السلطان أبى عنان المريني، وتنقله ما بين دمشق والقاهرة. والأندلس، والخصومة بينه وبين الكتاب المصريين حتى مقامه بمصر في نهاية حياته ووفاته بها، كما تحدث عن تراجم ابن خلدون بأقلام معاصريه ، وما جاء بشأنه بأقلام بعض المستشرقين الأجانب، فضلًا على تعدد ملكاته ما بين التاريخ والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك. انظر: محمد عبدالله عنن: ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري، مؤسسة مختار ١٩٩١ . ص ١٤–١١٣ ، ٢٠٦ – ٢٨٧ ، ١٧٢ – ١٨٨ .

(٣) انظر :ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٥٧.

(٤) انظر: ابن خلدون : المصدر السابق ، نفس الصفحة .

أمرها إلى أهل البلاد من البدو، وهو ما يعنى أن البدو لم ترتفع الحضارة فيهم، وأنهم كانوا أقرب إلى البداوة وشئونها من التحضر والحضارة[١] .

رابعًا : لم يكن هناك انتحال لمهنة "الصناعة" ؛ وهو ما يعنى أنهم لم تكثر مبانيهم، ومن المعروف أن المباني والمنشآت تعتمد على الصنائع التي تعد من توابع الحضارة، وأن تلك الصنائع بعيدة عن البربر؛ لأنهم أعرق في البداوة، وإنهم – أي البربر– في حاجة الى "الحذق فيها " [٢] على حد قول ابن خلدون.

وفي إطار حديث ابن خلدون عن الصنائع يشير إلى بعد العرب عامة عن الصنائع وإنهم لا هم لهم في اختطاطهم المدن سوى إنهم: " يراعون مراعى إبلهم" دون مراعاة لحسن اختيار موقع المدينة وطيب الهواء ووجود المياه والمزارع، ويضرب هنا أمثلة متعددة ببعض المدن مثل: – البصرة والكوفة والقيروان، وإنهم لم يراعوا فيها إلا... "مراعى إبلهم" [٣].

وفي هذا ما يعنى أن ابن خلدون يساوى بين العرب والبربر في الصفات التي يتصفون بها، وأن البربر أشبه الشعوب بالعرب، وأن حديث ابن خلدون عن أسباب قلة المدن في المغرب العربي عامة ترجع إلى طبيعة العرب والبربر في كل ما قاله من أسباب؛ ويرجح ذلك ما قاله في مقدمته عن العرب إنهم لا يتغلبون إلا على البسائط، مشيراً إلى طبيعة التوحش الموجود فيهم وإنهم " أهل انتهاب وعيث "

وفي موضع آخر، يذكر عن العرب إنهم " أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقا وجبلة، وكان عندهم ملذوذًا لما فيه من الخروج من ربقة الحكام، وعدم الانقياد للسياسة، وهذه الطبيعة منافية للعمران" مشيرًا في نفس الموضع إلى أن طبيعتهم "انتهاب ما في أيدى الناس وأن رزقهم في ظلال رماحهم" [٤] .

---

(١) انظر: ابن خلدون: نفس المصدر، نفس الصفحة .

(٢) ابن خلدون: نفسه، ص ٣٥٧ .

(٣) ابن خلدون: مقدمة، ص ٣٥٩، ولست معنيًّا هنا إلا بالحديث عن مدن المغرب العربي فقط، وهو ما سوف يأتي في حينه أو موضعه.

(٤) انظر: ابن خلدون: مقدمة، ص ٤٤٩ ؛ تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر..، مج ١، ص ١٥٨، وفي قوله الأخير ما يشير إلى ما جاء على لسان عبدالله بن عمر في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم " جُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى؛ والحديث الشريف دعوة إلى الجهاد، وحماية أمن وحدود الدولة في بدايتها على عهد=

ووفق تلك الرؤية الخاصة بابن خلدون، فإنه يشير إلى ما أحدثته قبائل " بنو هلال وبنو سليم " في إفريقية والمغرب أوائل المائة الخامسة وأثر ذلك على العمران[١].

خامسًا : لم يكن للبربر تشوف إلى المباني، لأنهم أهل عصبيات وأنساب وأن العصبيات والأنساب لا تخلو من جمع بينهم وأن بسبب تلك العصبيات فإنهم يحتمون إلى سكنى البدو، وفي نفس الموضع يوضح ابن خلدون أن لحمة النسب تؤدى إلى العصبية، وتنزع بصاحبها إلى سكنى البدو؛ وهو ما يدفعه إلى عقد مقارنة بين عمران بلاد العجم، وعمران بلاد البدو، وأن الأوَّل ليسوا أهل أنساب يحافظون عليها وعلى التحامها، وهو ما يؤدى بهم إلى سكنى القرى والأمصار والرساتيق [٢] .

=رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يفهم منه الدعوة إلى السلب والانتهاب وإعمال السيف كما يُفهم من سياق حديث ابن خلدون، وهذا هو ما أفضى إليَّ به اجتهادي في هذا الشأن. انظر في نص حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم . الإمام البخاري: شيخ الحفاظ محمد بن اسماعيل ت "٢٥٦هـ/٨٧م" صحيح البخاري، تحقيق : طه عبد الرؤف سعد، دار الاعتصام، القاهرة، دون تاريخ . ص ٦١٢ باب (٨٨) ما قيل في الرماح؛ ومن التفسيرات غير المقبولة للحديث الشريف ما ذكره د. أحمد صبحى منصور، بأن الحديث لا يزال متداولاً حتى الآن بين الجماعات الإرهابية التي تستحل النهب والسلب للآخرين. انظر: أحمد صبحى منصور. مقدمة ابن خلدون دراسة أصولية تاريخية ، ص ٤٤٩.

(١) انظر: ابن خلدون: مقدمة، ص ١٥٠؛ وفي القول إشارة إلى ما أحدثته قبائل بنى هلال وبنى سليم من تخريب في البلاد، وأثر ذلك على معاناة الحكام من بنى زيري ولجوئهم الى المهدية بعد تخريب القيروان ، وشقاء المعز بن باديس بهم .

انظر: ابن الخطيب: أبو عبدالله محمد ت " ٧٧٦هـ/١٣٧٤م" تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، ق ٣، تحقيق: أحمد مختار العبادي محمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء ١٩٦٤ ص ٧٤ –٧٥؛

GEORGES MARCAIS : La Berberie Musulmane Et L'orient au Moyen Age., Paris 1946 pp. 193 -196 .

(٢) انظر: ابن خلدون :مقدمة ، ص ٣٥٨؛ ولعل الرسانيق هنا المقصود بها الكور والمدن، وهو ما أوضحه ابن منظور في مادة رستق، رستاق وجمعها الرساتيق. انظر: ابن خلدون: جمال الدين الأنصاري ت "٧١١هـ/١٣١م" لسان العرب، مج ٣، تحقيق: عبدالله على الكبير وآخرين، دار المعارف دون تاريخ ص ١٦٤٠ مادة رستق

سادسًا : إن الدعوة إلى سكنى المدن ترتبط بالدعة والسكون والترف والغنى، ويصير سكانها ... " عيالاً على حاميتها" على حد قول ابن خلدون، وهو ما يجعلهم يستنكفون من سكنى المدينة والإقامة بها، وقد ترتب على ذلك أن أصبح أغلب عمران إفريقية والمغرب، أو أكثره، أو كله بدويًّا، فكانوا على حد قول ابن خلدون: " أهل خيام، وظواعن وقباطن وكنن في الجبال" [١] .

هذه هي مجمل أسباب قلة المدن والأمصار في بلاد المغرب العربي من خلال آراء ابن خلدون التي عبرت عنها بكلمة "فلسفة" وأزعم أنى على حق في ذلك ؛ فالرجل بالفعل صاحب فلسفة خاصة به في التاريخ والسياسة والاقتصاد والعمران [٢] .... وغير ذلك مما يمكن أن تكشف عنه البحوث في ميدان العلوم الإنسانية .

بيد أن من المفيد هنا الإشارة إلى أن فلسفة ابن خلدون وآرائه عن المدن والأمصار لا يمكن عزلها عما قاله الرجل عن العرب عامة وإنهم " أعرق في البداوة وأبعد عن الصنائع [٣] وأن الدين في أول الأمر كان مانعًا من المغالاة والإسراف في البنيان، وإنه يمضي الزمن وعندما غلبت ... " طبيعة الملك والترف، واستخدام

---

(١) ابن خلدون: مقدمة، ص ٣٥٧؛ والظعينة في المعنى الأقرب لسياق ابن خلدون، وطبقا لما جاء في لسان العرب، هو الهودج سواء أكانت فيه المرأة أو لم تكن، أما القباطي هو ما أسماه ابن منظور في مفرده قبطية ، وهو الثوب من ثياب مصر، رقيقة بيضاء، وكأنه منسوب إلى القبط وهم أهل مصر، ومنه حديث عمر رضى الله عنه " لا تلبسوا نساءكم القباطي فأنه إن لا يشف فإنه يصف ". أما الكنن، فقد جاء في اللسان عن الكن أنه البيت والجمع أكنان وأكنه وكنن، وجاء في التنزيل العزيز " وجعل لكم من الجبال أكنانا " القرآن الكريم سورة النحل من الآية رقم ٨١، والكن ما يرد الحر من الأبنية والمساكن، وغير ذلك كثير مما أورده ابن منظور. انظر ابن منظور : لسان العرب، ج ٤، ص ٢٧٤٨، ج ٥، ص ٣٥١٤، ٣٩٤٢ – ٣٩٤٣ مادة ظعن، قباطي، كنن على التوالي.

(٢) ليست هذه الكلمات من قبيل الكلمات المرسلة، فقد تحدث أ . عنان عن ابن خلدون بوصفه: فيلسوف التاريخ، وفيلسوف الاجتماع، والفيلسوف الجامع، وابن خلدون الاقتصادي، كما تحدث عنه المفكر الجزائري الراحل د. عبدالقادر جغلول بوصفه من قام بوضع المعالم الأولى لبناء علم الاجتماع. انظر. عنان: ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، ص ١٧٤ –١٩١ ضمن الفصل الرابع الموسم بـ "ابن خلدون والنقد الحديث"؛ عبدالقادر جغلول: الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون، ط ٤ دار الحداثة بيروت ١٩٨٧ . ص ١٠٥

(٣) ابن خلدون: مقدمة، ص ٣٥٨ .

العرب أمة الفرس وأخذوا عنهم الصنائع والمباني، ودعتهم إليها أحوال الدعة والترف، فحينئذ شيدوا المباني والمصانع" [١] .

وهو ما يعنى أن ابن خلدون هنا يُسلِّم بما يحدث من آثار مترتبة على احتكاك العرب بالفرس واختلاطهم بهم [٢]؛ وهذا يدفع إلى القول بأن اختلاط البربر بغيرهم على أرض المغرب قد يؤدي إلى نتائج متماثلة، وهو ما سوف يتم بيانه في سياق الحديث عن مدى صحة اجتهادات ابن خلدون وارتباطها بنشأة المدن والأمصار في أرض المغرب .

مدى صحة اجتهادات ابن خلدون في ضوء نشأة المدن والأمصار في المغرب العربي:

سوف يكون الحديث عن هذه الجزئية على امتداد عصور المغرب العربي التاريخية؛ بدءًا من القيروان في عصر الفتح حتى العصر المرابطي وبناء مدينة مراكش، انطلاقًا من فلسفة ابن خلدون وحديثه عن المدن والأمصار، وذلك للحكم على مدى صحة اجتهادات الرجل، وهو ما يمثل الجانب التطبيقي في بحثي هذا على النحو التالي :-

أولا : **في عصر الفتح** :

مدينة القيروان :-

ثمة دراسات تشير إلى أن مستشاري عقبة بن نافع قد أرادوا للمدينة أن تكون قريبة من البحر ليتم الجهاد والرباط، وأن عقبة – رغم ما عُرف عنه من تطرف في جرأته – لم يوافقهم على هذا، وتم الاتفاق على أن تكون المدينة بعيدة عن الساحل، خشية الأسطول البيزنطي، وكذلك غير متوغلة في الداخل خشية البربر، واختير

---

(١) ابن خلدون: المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٢) ثمة دراسات تشير إلى أن الفرس قد أسهموا في الحياة الإسلامية بعد إتمام فتح العراق وإيران، وإنهم "أي الفرس "أصبحوا رعايا على قدم المساواة مع العرب في العصر الراشدي، واستمر نشاطهم في العصر الأموي رغم ما شابه من تعصب للعرب. انظر. محمود إسماعيل: مغربيات دراسات جديدة، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب ١٩٧٧. ص ٨٨ ، ضمن بحث بعنوان " الفرس في إفريقية المغربية "

الموضع قريبًا من السبخة التي يمكن أن تكون صالحة لرعي الإبل فيها في أمان تام[١] .

وقد عبر صاحب الاستبصار عن المعنى السابق على لسان عقبة بن نافع قائلًا: " قربوها من السبخة، فإن أكثر دوابكم الإبل، نكون إبلكم على بابها في مراعيها آمنة من البربر" [٢].. وهكذا بُنيت المدينة في موقع استراتيجي أولا وقبل كل شيء،

---

(١) انظر :سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج١، ص ١٨٤؛ وثمة كتابات أخرى تشير إلى حسن اختيار عقبة لموقع القيروان، وأن تنظيم الفتح كان يستدعى إقامة المدينة قريبة من السفوح الصالحة للمرعى، وإنها في موضع متوسط بين الساحل والداخل. انظر: حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص١٤٣.

(٢) انظر: كاتب مراكشي مجهول: الاستبصار، ص ١١٤؛ هذا المعنى المذكور جاء التعبير عنه في المصادر التاريخية المبكرة من تاريخ المغرب، والتي لا يهم الاستطراد في ذكرها، فما بهم هنا رؤية ابن خلدون نفسه ومدى تطابقها مع الواقع التاريخ في الحديث عن المدن والأمصار في المغرب العربي، كما ورد ذكر المعنى اللغوي لكلمة القيروان، والهدف من بنائها في أن تكون عزًا للإسلام، بمعنى أن الهدف منها – في المقام الأول – كان نشر الإسلام وثقافته وتعاليمه. ويمكن الرجوع هنا في النقاط المذكورة إلى بعض المصادر التاريخية " على سبيل المثال ليس الحصر":-
ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله ت " ٢٥٧هـ/٨٧م " فتوح مصر وأخبارها، تحقيق وتقديم: محمد الحجيري، ط١ دار الفكر بيروت ١٩٩٦. ص ٣٢٩ – ٣٣٣ ؛ الرقيق القيرواني: أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم ت يعد سنة "٤١٥هـ/١٠٢٤م" تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: عبدالله العلى الزيدان، وعز الدين موسى، ط ١ دار الغرب إسلامي، بيروت ١٩٩. ص ٧–٨؛ المالكي: أبو بكر عبدالله بن محمد ت بعد سنة " ٤٦٠هـ/١٠٦٧م " كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ...، تحقيق: بشير البكوش ، مراجعة : محمد العروسي المطوي، ج١، ط٢ دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩٤ ص ١٠–١٢ ، الدباغ وابن ناجى: أبو زيد عبدالرحمن ت "٦٩٦هـ/١٢٩٦م"، وابو القاسم بن عيسى ت "٨٣٩هـ/١٤٣٥م"، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان "تصحيح وتعليق: إبراهيم شبوح، ج١ ط ٢ الخانجي ١٩٦٨. ص ١١–٢٣؛ ابن عذارى المراكشي، عاش أوائل ق " ٨هـ/١٤م " البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج١، تحقيق ومراجعة: ج . س كولان وإ. ليفى برفنسال، ط ٣ الدار العربية للكتاب، دار الثقافة ١٩٨٣ ص ١٩–٢٠ .

وما عدا ذلك من جوانب ترتبط بما كان في موقع المدينة من وحوش وهوام فإنه لا يهم رؤيتي المذكورة، ويمكن إحالة القارئ الكريم إليه [١].

ولعله من المفيد هنا ذكر ما جاء في كتابات نفر من المؤرخين المحدثين عن موقع القيروان الاستراتيجي، ودوافع ذلك البناء من خلال النقاط التالية : –

– البعد عن شواطئ البحر المتوسط لحماية ظهر الجيش الفاتح من مفاجآت الأسطول البيزنطي

– القرب من معاقل القبائل البربرية التي لم تدخل الإسلام بعد، ثم هناك رغبة صادقة من عقبة بن نافع في تأسيس مدينة إسلامية على نفس ما حدث في المشرق الإسلامي [٢] .

ومن المفيد هنا أيضًا – وحتى تكتمل الرؤية – مقارنة ما جاء في مدينة القيروان بما قاله ابن خلدون – رحمه الله تعالى – الذي أشار إلى أن الشعوب التي حكمت بلاد المغرب – قبل الإسلام – قد اقتصر تواجدها على الساحل دون منطقة الداخل ؛ وهذا ما خالفه العرب في بناء القيروان . فالمدينة كانت نحو الداخل قليلا، وابتعدت عن الساحل لأسباب سبق توضيحها، ثم إنها كانت نحو الداخل لحدوث حالة من الاحتكاك بين العرب وقبائل البربر، بما يعود أثره على اعتناقهم الإسلام والدخول فيه[٣]، وهذا يعني أن العرب خالفوا من كان قبلهم في بناء أول مدينة عربية على

---

(١) انظر: عفيفي محمود إبراهيم: الدلالات التاريخية للأساطير الخاصة باختطاط الحواضر المغربية في عصر الدويلات المستقلة "نموذج فاس" مجلة التاريخ والمستقبل، آداب المنيا عدد يناير ٢٠٠٠ص١١–١٤ .

(٢) انظر: الحبيب الجنحاني: القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، الدار التونسية للنشر ١٩٦٨. ص ٥٥– ٥٦؛ وثمة آراء تشير إلى أن خروج العرب إلى إفريقية كان الهدف منه نشر الإسلام وتبليغ الدعوة إليه سبحانه، وأن بناء المدينة كان الوسيلة إلى ذلك، وأنها " أي مدينة القيروان " كانت عزا للإسلام، مشيرًا في نفس الوقت إلى انقياد كثير من البربر إلى الإسلام عند رؤيتهم لما كان من عقبة بن نافع عند اختطاط المدينة على نحو ما سبق الإشارة إليه في بحث أستاذي أ. د. عفيفي محمود عن الدلالات التاريخية للأساطير.

انظر: محمد محمد زيتون : القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط دار المنار ١٩٨٨ ص ٧٢– ٧٣؛ عفيفي محمود: الدلالات التاريخية ...، ص ١٢– ١٣.

(٣) ثمة دراسات أشارت بوضوح إلى انقياد كثير من البربر للإسلام من خلال بناء القيروان إلى الداخل وقربها من البربر. انظر: زيتون : المرجع السابق، ص ٧٣ .

أرض المغرب، وهو ما يعني أيضًا أن ابن خلدون قد امتدح العرب، الذين انساحوا مع أهل البلاد تدريجيًّا واختلطوا بهم، دون الاقتصار على الساحل كما فعل من سبقهم.

أما عن الجزئية التالية المرتبطة بالحديث عن القيروان، فهي إقامتها في منطقة سبخة صالحة لرعى الإبل وقول ابن خلدون في هذا الشأن عن العرب إن لا همَ لهم في بناء مدنهم سوى مراعاة مراعي إبلهم [١]، وهو لا يعيب العرب في شيء من قريب أو بعيد ولا ينتقص من قدرهم، فقد كانوا في طور البداوة، وبدايات الموجات الأولى من الفتح الإسلامي الذي استمر ما يقرب من سبعين عامًا [٢]، وما كان ممنوعًا عليهم في الطور الأول أو البدايات الأولى، قد أصبح مسموحًا لهم عندما استقرت بهم الأحوال، وأعني به اللجوء إلى الساحل، وهو ما بدًا واضحا في إنشائهم لمدينة تونس وهو ما سوف يتم الحديث عنه في الجزئية التالية في إطار عصر الفتح.

مدينة تونس:

مدينة تونس ولدت مدينة بحرية قال عنها الإدريسي إنها: "في وسط جون خارج عن البحر "وأن لها" فم يتصل بالبحر وهو المسمى فم الوادي" وبينها وبين البحر ستة أميال على حد وصفه [٣].

---

(١) انظر: ابن خلدون: مقدمة، ص ٣٥٩ ؛ويمكن التوفيق هنا بين آراء ابن خلدون، وبين ما قالت به إحدى الدراسات عن النشأة العربية الخالصة لمدينة القيروان، وما يمكن تسميته بسُنة العرب الفاتحين في تخطيط المدن والأمصار، واختيار السهول والمنبسطات حفاظًا على ما يسمى بالمزاج العربي في نشأة المدن والأمصار، ومدى التشابه بين السهل المنبسط الذى بُنيت فيه القيروان، وبين مناخ شبه الجزيرة العربية، بما يرجح أن اختيار الموقع لم يكن اعتباطًا، بل كان لحكمة وسياسة ارتآهما عقبة بن نافع، وهو ما لا يخرج عنه ما سبق قوله من دوافع البناء، كما أنه لا يعيب العرب تلبية حاجاتهم البيئية في بناء المدن والأمصار طبقًا لما جاء في متن الدراسة في الجزئية المذكورة.
انظر: محمد العروسي المطوي: سيرة القيروان ورسالتها الدينية والثقافية في المغرب الإسلامي، الدار العربية للكتاب (ليبيا – تونس) ١٩٨١. ص ١٤– ١٥

(٢) استمر فتح العرب للمغرب مدة طويلة امتدت من سنة ٢٣هـ حتى٩٠هـ/٦٥٣– ٧٠٨م"
انظر: أحمد ابراهيم الشعراوي: دور العرب في بلاد المغرب والأندلس، ط ١ القاهرة ٢٠١٥. ص ١٦.

(٣) انظر: الشريف الإدريسي: ت "٥٤٨هـ/١١٥٤م" وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية " مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " نشر وتصحيح هنري بيرس، الجزائر ١٣٧٦هـ/=

وقد تحدث أ . د حسين مؤنس – رحمه الله – عن بناء تونس بما يشير إلى حتمية بناء المدينة انطلاقًا من كون إفريقية بلدًا بحريًا لا يستغني عن ثغور وأبواب على البحر، وأنه بعد تخريب قرطاجة كان لزامًا على " حسان بن النعمان" أن ينشيء لإفريقية ثغراً آخراً يحل محله[١].

ولست هنا بحاجة إلى ذكر التفاصيل التي فصَّلها البكري في حديثه عن المدينة[٢]، بقدر ما يهم أن مصر ساهمت بخبراتها البحرية في إنشاء مدينة تونس، عندما استعان حسان بن النعمان بما يقدر بألف أسرة قبطية ممن يجيدون صناعة السفن، وقام باستجلابهم إلى إفريقية، وهَم من عَمرَّوا دار صناعتها، في حين تم تكليف البربر بجلب الأخشاب من الداخل [٣].

وكان إنشاء المدينة يعنى انحسار قوة الروم البحرية أو على الأقل أصبح لدى العرب القدرة على مواجهة قوة الروم البحرية، وأنهم أصبحوا قادرين – بمضي الوقت – على أن يكونوا قوة بحرية كما كانوا قوة برية [٤] .

= ١٩٥٧م. ص ٨١؛ وجاء وصفها في كتابات جغرافية مبكرة أنها مدينة " على ساحل البحر وبها دار صناعة ".

انظر: اليعقوبي ت "٢٨٤هـ/٨٩٧م" وصف أفريقيا الشمالية "مأخوذة من كتاب البلدان" نشر وتصيح: هنري بيرس، الجزائر ١٩٦٠ ص ٩؛ والميل حوالى ٤٠٠٠ ذراع أو ١٨٤٨ مترا بالمقادير الحديثة. انظر: مقاييس وأوزان أهل زمان، islamonline net /archives؛ وما يعنيني هنا أنها مدينة على ساحر البحر كما قال اليعقوبي في كتابه البلدان .

(١) انظر: حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، المجلد الأول/ الجزء الأول، ١/١، ط١١ العصر الحديث للنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٩٢. ص ١٠٩، ١١٠؛ وجاء في كتابه المعالم أن المدينة أنشئت في موضع يقع إلى الجنوب الغربي من قرطاجة. انظر: مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط٢١ دار الرشاد ١٩٩٧. ص ٥٦.

(٢) انظر: البكري عبيد عبدالله بن عبدالعزيز "ت ٤٨٧هـ/١٠٩٧م" كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، باريس ١٩٦٥ ص ٣٩ حيث يتحدث عن المدينة وأبوابها ... وأنها دار علم وفقه.

(٣) انظر: سعد زغلول عبدالحميد: تاريخ المغرب العربي، ج١، ص ٢٣١، ٢٣٢، وغير ذلك كثير.

(٤) انظر: سعد زغلول: المرجع السابق، ج١، ص ٢٣٤ ، ٢٣٥.

ورغم أن كثيرًا من الكتابات الجغرافية [١]، فضلاً على كتابات المؤرخين[٢]، تتحدث عن مدينة تونس تفصيلًا؛ إلا إن المفيد هنا مقارنة ما قاله ابن خلدون عن العمران في إفريقية والمغرب إنه كان بدويًّا بما حدث على أرض الواقع التاريخي ومساهمة مصر ودورها الحضاري في بناء تونس من خلال الأسر القبطية التي تم الاستعانة بها في بناء المدينة، بما يشير إلى أن العمران في بعض الحالات – أو في قليل منها – لم يكن بدويًّا[٣] .

وإذا لم يكن هناك انتحال لمهنة الصناعة بين العرب والبربر؛ فإن وجود ألف أسرة قبطية كفيل بأن يؤدي إلى شيوع تعليم صناعي بين أوساط العرب والبربر، خاصة وأن المرويات التاريخية تشير إلى تكليف البربر بجلب الأخشاب من الداخل في صناعة السفن، وأن ذلك التقارب يمكنه أن يؤدي إلى التعلم في حد ذاته، على اعتبار أن الإنسان – وكما يقول ابن خلدون نفسه – مدنى بطبيعته [٤] . وهذا يعني أنه يؤثر ويتأثر، وهو استقراء يفرضه الواقع التاريخي، انطلاقًا من أن العلم يتم بالتعلم والممارسة والمشاهدة والاختلاط [٥] وهي جميعها جوانب حدثت على أرض الواقع

---

(١) انظر: على سبيل المثال. اليعقوبي: وصف إفريقيا، ص ٩؛ البكري: المغرب، ص ٣٩؛ الإدريسي، وصف إفريقيا ص ٨١، فضلًا على ما ذكرته كتب الجغرافيين والرحالة المتأخرين بما يؤدي إلى إسهاب لا حاجة للبحث فيه، ولعل من المفيد هنا الإشارة الى ما ذكره ياقوت في سبب بناء مدينة تونس، وأن حسانًا عندما دخل المدينة سأله الروم أن لا يدخل عليهم، ويضع عليهم خراجًا يقسِّطه عليهم، فأجابهم إلى ذلك " وكانت لهم سفن معدة ، فركبوها ونجوا وتركوا المدينة خالية "

انظر: ياقوت : شهاب الدين أبى عبدالله الحموي ت "٦٢٦هـ/ ١٢٣٨م" معجم البلدان، مج ٢، دار صادر بيروت دون تاريخ. ص ٦١ ضمن الحديث عن المدينة ص ٦١ – ٦٢

(٢) أقصد بكتابات المؤرخين هنا سواء أكانوا القدامى أم المحدثين على حد سواء .

(٣) استقراء يفرضه الواقع التاريخي، ومما أفضى إليّ به اجتهادي.

(٤) يقول ابن خلدون في هذا الشأن أن المجتمع الإنساني ضروري... وأن الإنسان مدنى بالطبع، ولا بد له من الاجتماع، انظر. ابن خلدون : مقدمة ، ص ٤١.

(٥) يكفى هنا الإشارة إلى ما ذكره ابن خلدون أن "التعلم والتعليم طبيعي في العمران البشرى" وهو ما يعني أيضًا أن النزوع إلى العلم والتعليم من الأمور الفطرية التي جبلت عليها النفس البشرية، كما إن ابن خلدون يربط ازدهار التعليم بازدهار العمران. انظر: ابن خلدون: مقدمة، ص ٤٢٩، أحمد صبحى منصور: مقدمة ابن خلدون، ص ٤٧٧.

التاريخي، وقد يكون من بينها ما يؤدي إلى جذب البربر لسكني المدن والابتعاد شيئاً فشيئًا عن الداخل .

وفضلًا على ذلك، فهل لي أن أقول مجتهداً أن بناء مدينة تونس يدحض فكرة نجاح العرب في التغلب على البسائط فقط، بدليل نجاحهم في إنشاء مدينة تونس، . وأن القيروان – كما يقول أ . د . مؤنس – كانت تكفي لمطالب الوافدين العرب في سنواتهم الأولى من خلال حاجاتهم إلى الحشائش لرعى الإبل والخيل[١]، وأن إنشاء تونس كان يعنى خطوة نحو مزيد من الكفاية لتحقيق مطالب الدولة ؛ بما يشير إلى نجاح العرب على السواحل كما نجحوا من قبل في الدواخل من خلال إنشاء القيروان، بما يتنافي مع ما كانت تظنه الكاهنة عن العرب إنهم لا يتغلبون إلا على البسائط، وإنهم أهل تخريب لا يمهم إلا الغنائم [٢] .

وعلى أية حال، فإن بناء مدينة تونس وتعميرها بعد ما نالها من تخريب من خلال مدينة قرطاجة القديمة[٣] لهو دليل على أن العرب لهم دورهم في التعمير والإنشاء، وأنهم ليسوا أهل انتهاب وسلب، ولم يكن من طبيعتهم التوحش كما قال ابن خلدون، متناسيا أن الحضارة الإسلامية لعبت دورًا مهمًّا في تهذيب الجبلة العربية.

ثانياً: عصر الدويلات المستقلة حتى قدوم الفاطميين:

أول ما يطالعنا في تلك الفترة من المدن والأمصار مدينة العباسية أو القصر القديم، وهناك مدنية رقادة وكلاهما من المدن التي أنشئت في ظل دولة الأغالبة السنية في إفريقية، وهى إحدى دول ثلاث تقاسمت المغرب العربي، وهى الدولة الرستمية الإباضية في المغرب الأوسط، ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى، فضلاً على إمارة بنى مدرار في سجلماسة وهي إمارة تدين بالمذهب الصفري [٤] .

---

(١) انظر: مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، مج١/ ج١، ص ١١١.

(٢) شخصية الكاهنة من الشخصيات المعروفة في تاريخ المغرب التي قد تختلط فيها الحقيقة بالأسطورة، بيد أنه لا يمكن إنكارها، وهى: دهيا أو دحيا بنت ماتيه ابن تبغان ملكة جبل أوراس، المنتمية إلى قبيلة جراوة من بدو زناته. وقد ذكر ابن خلدون عن هذه المرأة إنها كانت يهودية هي وأتباعها. انظر: في النقاط المذكورة تفصيلًا. الشعراوي: دور العرب ، ص ٤٠

(٣) انظر: مؤنس: تاريخ المغرب ، ١/١ ، ص ١٠٩.

(٤) يمكن القول في إطار الفكرة المذكورة إن دولة الأغالبة في إفريقية قد امتدت من سنة "١٨٤–٢٩٦هـ/٨٠٠–٩٠٨م" ثم كانت إمارة بنى واسول الصفرية أو بنى مدرار في سجلماسة"=

مدينة العباسية أو القصر القديم :-

وبداية يصدق على الفترة المذكورة – المتصدي للحديث عنها – ملاحظة ابن خلدون عن قلة المدن في تلك الفترة التي تمتد إلى ما يقرب أو يزيد قليلًا على قرن الزمن حتى قدوم الفاطميين .

وقد أورد البكري عن مدينة العباسية أو القصر القديم ما يفيد إنها بنيت بقبلي مدينة القيروان[١]، فيما يعني إنها إلى الداخل منها، وكان البناء على يد إبراهيم بن الأغلب في بداية حكمه لدولة الأغالبة [٢] وبعض المرويات التاريخية والجغرافية [٣] لا تعطى تفصيلًا عن طبيعة بناء المدينة، واكتفي النوع الثاني من المرويات المذكورة بما جاء في وصف المدينة قائلًا عنها بأنها .. " لم يبن أحكم منها ولا أحسن منظرًا، وبه حمامات كثيرة وفنادق وأسواق جمة ومواجل الماء، وإذا قحطت القيروان وفقد الماء في مواجلها انتقلوا الماء من مدينة القصر" [٤] ؛ وفي هذا ما يدل على أن البناء لم يكن

=١٤٠- ٢٩٧هـ/٧٥٧-٩٠٩م وحكمت دولة الأدارسة في فاس والمغرب الأقصى " ١٧٢-٣٠٥هـ/٧٨٨-٩١٧م" واستمرت الدويلات المذكورة أو الولايات المذكورة حتى مجيء الفاطميين بدءاً من عهد عبيد الله المهدى ٢٩٧هـ/٩٠٩م

انظر: سعد زغلول عبدالحميد : تاريخ المغرب العربي، ج٢، منشأة المعارف ١٩٧٩ ص ٢١؛ وانظر ايضًا: ما كتبه العالم الجليل أستاذي أ.د. محمد عيسى الحريري عن نسب الرستميين والبيت الرستمي ضمن كتابه الرائع: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس ١٦٠ – ٢١٦هـ . ط ٣، دار القلم، الكويت ١٩٨٧ ص ٧٣ – ٧٦. وانظر لصاحب الدراسة التقديم للظروف السياسية ضمن كتاب: العلم والتعليم في المغرب العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٢١ ص ١٦.

(١) انظر: البكري: كتاب المغرب، ص ٢٨ ، ٢٩.

(٢) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج٢، ص٣١ ويحدد أ. د سعد زغلول تاريخ بناء المدينة سنة" ١٨٤هـ /٨٠٠ م" وهى السنة التي تولى فيها إبراهيم بن الأغلب حكم دولة الأغالبة.

(٣) انظر: على سبيل المثال " من الكتابات التاريخية " ما ذكره ابن عذارى عن المدينة باقتضاب شديد ، وأن إبراهيم بن الأغلب شرع في بناء مدينة القصر القديم سنة " ١٨٥هـ/٨٠١م" وأن المدينة صارت دار الأمراء من بنى الأغلب، و.... "وكانت على ثلاثة أميال من القيروان" . انظر: ابن عذارى :البيان المغرب، ج ١، ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٤) الحميري: محمد بن عبدالمنعم ت "٨٦٦هـ/١٤٦١م" كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: احسان عباس، ط ٢ مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠ ص ٤٧٦، كما جاء عن القصر=

بدائيًا ولا عشوائيًا كما يذهب ابن خلدون في مجمل مروياته عن بناء المدن عند العرب .

وعلى أية حال، لقد أخذت مدينة القصر القديم اسم العباسية تيمناً بالخلافة العباسية [١]، بيد إن ما يهم هنا أيضا هو ما قاله ابن خلدون عن تغير طبيعة البناء عند العرب عقب اختلاطهم بالفرس [٢] واعتماد الدولة العباسية عليهم في نشأتها؛ بما يرجح أن إبراهيم بن الأغلب قد استفاد من دولة الخلافة في بنائه للمدينة، وأنها أمدته بما يحتاجه من أهل الصنائع والبناء من ذلك العنصر الفارسي، وأن نفرًا من أهل البلاد – سواء أكانوا من العرب الوافدين أم البربر – قد شاركوا في عملية البناء، بما يشير إلى دحض فكرة ابن خلدون عن ابتعاد العرب والبربر عن انتحالهما لمهنة الصناعة كما سبق القول، وأن الاستعانة بالعنصر الفارسي في البناء من خلال ما سبق استنباطه عن اعتماد الخلافة العباسية على العصر الفارسي في نشأتها يمكن أن يشيع تعلم الصنائع والحرف في بلاد المغرب بين أهل البلاد من البربر ومن العرب الوافدين، وفي الحديث عن دار صناعة تونس، ومشاركة الأسر القبطية في البناء ما يدل على وجاهة الفرضية المذكورة، بما يدل على أن تعلم الصنائع يأتي بالمشاركة والمشاهدة وهو ما حدث على أرض الواقع .

- **مدينة رقادة :**

أما عن المدينة الأخرى، هي مدينة رقادة، فقد قال عنها ياقوت في معجمه " ولم يكن بإفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيمًا وأرق تربة منها، ويقال إن من دخلها لا يزال مستبشراً من غير سبب [٣] ؛ وهي التي بنيت على أربعة أميال من قيروان إفريقية فيما يعنى أيضًا إنها إحدى ضواحي مدينة عقبة على حد قول أ . د . سعد زغلول. ومن المهم هنا القول بأنها كانت مدينة ذات مناخ طيب، وهو يخالف ما قاله ابن

=القديم، أو العباسية، في كتابات أخرى ما يشير إلى كثرة البساتين بها ، وأشجار التين، انظر: البكري : كتاب المغرب، ص ٢٩؛ ياقوت: معجم البلد ١، مج ٤ ، ص ٧٥ .

(١) انظر: سعد زغلول: المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٢.

(٢) انظر: ما سبق قوله عند الحديث عن آراء ابن خلدون، وتأثر العرب بالفرس واستخدام العرب لهم .

(٣) ياقوت: معجم البلدان، مج ٣، ص ٥٥.

خلدون بشأن تأسيس المدن في إفريقية والمغرب إنه لا يراعى فيها المناخ . ولا الموقع، وقد جاء في سبب تسمية المدينة – التي بناها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب سنة " ٢٦٣هـ/٨٧٦ م" أن من دخلها يطيب له المقام بها، ويغلب عليه النوم والرقود[١]. وفي هذا ما يعني أن ابن خلدون لم يكن محقًا في بعض ملاحظاته في وصفه بأن المدن في المغرب العربي لا يراعي فيها طبيعة الموقع واعتدال المناخ، كما إنه كان على حق في بعض جوانب أخرى، كما سبق القول.

مدينة تاهرت :

وفي ظل الدولة الرسمية، تم بناء مدينة تاهرت، وقد ورد ذكرها عند البكري تيهرت، والذي قال عنها إنها مدينة مسورة، مشيرًا إلى ما لها من أبواب وإنها ... "مدينة باردة، شديدة البرد، كثيرة الغيوم"[٢]، وقد أصبحت مركزًا للدولة الرسمية بدءًا من سنة "١٤٤هـ/٧٦١م" على يد عبدالرحمن رستم[٣] دون الدخول في تفاصيل تاريخية ودينية ومذهبية [٤]، فما يهم طبيعة البناء نسه. وقد بُنيت المدينة في سفح

---

(١) انظر: ياقوت: معجم، مج ٣، ص ٥٥؛ ولم يذكر ابن عذارى عن المدينة سوى قوله ... " وفى سنة ٢٦٣، ابتداء ابراهيم بن أحمد بن الأغلب بناء مدينة رقادة "، وثمة كتابات أخرى من المؤرخين المحدثين تحدثت عن المدينة، وأشارت إلى تفسيرات أو تفسير آخر في سبب التسمية، وهو ما لا تهتم به رؤيتي التطبيقية التي تبحث فقط في آراء ابن خلدون. انظر: ابن عذارى: البيان؛ ج١، ص ١١٧، سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج ٢، ص ١١٦ – ١١٩.

(٢) البكري: كتاب المغرب، ص ٦٦

(٣) عن شخصية " عبدالرحمن بن رستم وتأسيس مدينة تاهرت. انظر: ابن الصغير: مؤرخ الدولة الرستمية عاصر ق " ٣هـ/٩م" أخبار الأئمة الرسميين، تحقيق وتعليق: محمد ناصر وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٦. ص ٢١ –٢٢؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج٢، ص ٢٩، وتلقى بعض كتابات المؤرخين المحدثين أيضا الضوء حول شخصية عبدالرحمن بن رستم، وإنه ابتنى تاهرت مدينته الجديدة أعلى تاهرت القديمة، وجعلها في هيئة حصن، وأن المدينة تقع على هضبة بين الجبال كان يؤمنها من أخطار الأعداء، وأن الموقع كان ينيح لها وفرة من الماء ،ويفسح المجال لاشتغال أهلها بالرعي، وهم من البدو والرعاة، أو البتر الزناتيين ، وهذا يفسر قبول أهلها لمبادئ المذهب الإباضي. انظر: مؤنس: تاريخ المغرب ، مج١/ ج١، ص ٣٢٣

(٤) عن نشأة الدولة الرستمية، ونسب الرستميين والبيت الرستمى ومذهبها الإباضى يمكن الرجوع إلى عيسى الحريري : الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، ص ٧٣ – ٧٦؛ وتقديم صاحب=

جبل يسمى " قزول " حسب رواية الحميري، وعلى نهر كبير يأتيها من ناحية الغرب، ونهر آخر يجتمع حوله العيون لأراضيها وبساتينها [١]؛ وهو ما يعني أنها كانت بها مياه متدفقة وعيون جارية تدخل أكثر ديارهم، وما يترتب على ذلك من وجود بساتين وأشجار وفواكه .

وتشير كتابات المؤرخين المحدثين إلى أن بناء المدينة قد تم في أعلى منطقة جبلية على تلال منداس، وتوجه أنظارها نحو الداخل، وتدير ظهرها للبحر مشيراً إلى أن المنطقة التي بنيت فيها المدينة عرفت بثروتها الزراعية وكثرة مراعيها، وإنها كانت إقليماً للمرعى والإنتاج الحيواني[٢]، وخلاصة اجتهادي فيها أنها مدينة جبلية على سطح البحر[٣].

وتتفق طبيعة بناء المدينة بالشكل المذكور مع ما قاله ابن خلدون عن اهتمام العرب بتخطيط المدن بشكل يراعى فيه وجود المراعي لإبلهم ودوابهم؛ بيد إن وجود المياه فيها، وما يتبعه من أشجار وثمار وبساتين يدل على أن تخطيط البناء لم يكن عشوائيًّا وبدائيًّا.

كما إن الظروف السياسية قد تلعب دورًا مهمًّا في بناء المدينة كما هو الحال في مدينة تيهرت من خلال ما يحيط بها من إمارة سنية تتمثل في دولة الأغالبة،

=الدراسة للظروف السياسية والفكرية في المغرب العربي ضمن تقديمه للحديث عن التعليم. انظر: عادل يحيي: العلم والتعليم، ص ١٤ –١٥، ٣٢ – ٣٣

(١) انظر: الحميري: الروض المعطار، ص ١٢٦، ١٢٧، ولا يهم هنا ما جاء عن المدينة إنها كانت مدينتين كبيرتين أحدهما قديمة والأخرى محدثة حسبما قال الحميري ، وقد يكون من المفيد هنا أن الإباضية اجتمعت حول " عبدالرحمن بن رستم " ونزلوا موضع تاهرت اليوم ... " وهو غيضة " بما يشير إلى الموضع الذى يوجد فيه الماء و الشجر. انظر: ياقوت : معجم البلدان، مج ٢، ص ٧–٨، وانظر عن تاهرت أيضًا. مجهول: كتاب الاستبصار، ص ١٧٨

(٢) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج٢، ص ٢٩١، ٢٩٣.

(٣) لا يوجد تناقض هنا بين ما جاء بشأن المدينة إنها تقع على هضبة بين الجبال ، أو أنها تقع على أعلى منطقة جبلية على تلال منداس، وهو ما أفضى إليَّ به اجتهادي، وقد جاء في كتاب ابن الصغير، وفي حواشي التحقيق والتعليق ما يفيد أن الإباضية هم من بنوا مدينة تاهرت، وأن لفظة تيهرت أضبط من تاهرت، وأن المدينة تبعد عن الجزائر العاصمة بما يقدر الآن بحوالي ٤٣ كم .
انظر: ابن الصغير أخبار الأئمة الرسميتيين، ص ٢٨، ٢٩ وحاشية رقم (٢) ص ٢٨، ٢٩.

وأخرى شيعية وهى دولة الأدارسة؛ وهو ما يعني أن طبيعة الاختلاف المذهبي، وما يحيط بالدولة من أعداء قد يساهم في جعل موقع المدينة استراتيجيًا، ويسمح لها أن تعيش في أمان طبقًا لما أشار اليه أ. د سعد زغلول [١].

مدينة سجلماسة:-

هي إحدى المدن التي قامت في ظل إمارة بني مدرار – أو بنى واسول– ذات المذهب الصفري؛ وهي نمط من المدن يمكن أن يُقال عنها إنها مدينة صحراوية؛ طبقاً لما عرفها البكري بأنها في أول الصحراء، ولا يعرف في غريبها ولا قبليها عمران، بما يشير إلى أنها على حدود الصحراء [٢]

وقد بنيت المدينة سن "١٤٠هـ/٧٥٧م" على يد مدرار بن عبدالله ؛ والذى قيل عنه أنه كان رجلًا من أهل الحديث، وقيل عنه أيضًا أنه كان رجلًا حدادًا من أهل الأندلس، ومن أهل قرطبة تحديدًا، وأيًّا كان الاختلاف بشأن طبيعة الرجل ومهنته، فما يهم أنه من قام بالبناء، وسوّرها أبو المنصور بن أبى القاسم بن مدرار[٣].

بيد إن ما يهم هنا – وفي إطار رؤيتي التطبيقية عن فلسفة ابن خلدون – هو طبيعة الدور الذى لعبه اليهود في بناء مدينة سجلماسة، حيث تشير المصادر إلى ذلك الدور صراحة، وأن أهل سجلماسة قد قصَّروا .... " البناء عليهم خاصة أنهم خائفون أبدًا من أن يخون أحدهم المسلم فيهلكه، فهم ينصحونهم في البناء ويلازمون

---

(١) انظر: سعد زغلول : تاريخ المغرب، ج٢ ، ص ٢٩١ .

(٢) انظر: البكري: كتاب المغرب ...، ص ١٤٨؛ وثمة دراسات تشير إلى أن المدينة بُنيت على حدود الصحراء في بلاد السودان. انظر: عبدالرحمن بشير: اليهود في المغرب الإسلامي وإسبانيا المسيحية، ط ١ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠١٤م. ص ٥٠؛ وعن طبيعة إمارة بنى مدرار ومذهبها الصغرى يمكن الرجوع إلى ما كتبه صاحب الدراسة في تقديمه الظروف السياسية والفكرية ضمن كتاب: العلم والتعليم، ص ١٤، ٣١– ٣٣ .

(٣) انظر:. البكري: كتاب المغرب، ص ١٤٩، وعن مدينة سجلماسة وما ارتبط بها من أحداث تاريخية حتى وقوعها في أيدى الفاطميين يمكن الرجوع إلى .. كاتب مراكشي : كتاب الاستبصار، ص ٢٠٠ –٢٠٦؛ الحميري: كتاب الروض المعطار، ص ٣٠٥ – ٣٠٧ وغير ذلك كثير .

الحذقة، دون خروج لفرائض الصلوات، ولا لغير ذلك من ملازم العبادات، فتأتي حذقتهم موفرة سريعة " [١] .

وفي هذا ما يشير إلى مدى صدق ابن خلدون في حديثه عن العرب أو البربر على اعتبار أن اللاحقين اشبه الناس بالعرب، وأن كليهما – سواء أكانوا العرب أم البربر – يأنفون من الصنائع، أو انتحال مهنة الصناعة، وهو ما يفسر اقتصار حرفة البناء على اليهود فقط واستئثارهم بها؛ ولعل مرجع ذلك – حسبما تقول بذلك مروية صاحب الاستبصار – إلى أن اليهود يواصلون عملهم في البناء دون خروج إلى عبادات أو صلوات كما هو الحال عند المسلمين، وأن خدمتهم أو أدائهم لعملهم بهذا الشكل يؤدي إلى السرعة في الإنجاز، والتوفير في الوقت، هذا فضلاً على أن اليهود وهم يمارسون عملهم في البناء يشعرون بالخوف إذا ما حدثت منهم خيانة للمسلمين في أعمال البناء، فيكون ذلك سببًا في تعرضهم للهلاك جزاءً وفاقاً لخيانتهم [٢].

ومع التسليم بأن حرفة البناء قد اقتصر العمل بها على اليهود في بناء مدينة سجلماسة؛ فإن هذا قد يكون مناسبًا في وقت بناء المدينة فقط، حيث يشير صاحب الاستبصار إلى تبدل الأحوال على عهده، وفي إطار الفترة التي عاصرها وهي القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، من حيث التمازج والاختلاط بين اليهود ممن يحترفون حرفة البناء، وبين المسلمين من سكان أهل سجلماسة الأصليين، أو الوافدين، قائلًا في ذلك : –

"وهم الآن قد مازجوا المسلمين وداخلوهم" [٣]. وقد يكون في ذلك التمازج ما يشير إلى قيام نفر من أهل البلاد – الأصليين أو الوافدين – بالمشاركة في حرفة

---

(١) كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ٢٠٢ ؛ وينبغي الإشارة هنا إلى أن اليهود من العناصر القاطنة لبلاد المغرب منذ القدم، ومنذ انتشار اليهودية في المغرب في القرن الأول الميلادي على أيدى المهاجرين اليهود الذين فروا من فلسطين عقب اضطهاد الرومان لهم .

انظر: رضوان البارودي : أضواء على المسيحية والمسحيين في المغرب في العصر الإسلامي، دار الفكر العربي ١٩٩٠ ص٣؛ سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج١، ص ١٦؛ وعن التواجد اليهودي في المغرب عامة يمكن الرجوع إلى. عبدالرحمن بشير: اليهود في المغرب الإسلامي، ص ٥٣ –٦٠.

(٢) انظر: كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ٢٠٢

(٣) كاتب مراكشي: المصدر السابق، ص ٢٠٢.

البناء، بل يمكن استقراء أن كثيرًا من أهل البلاد – وخاصة ممن ينتمون إلى الطبقات الدنيا، وما فوقهم قليلًا – قد مارسوا تلك المهنة وتعلموها خاصة بعد ما يزيد على ثلاثة قرون من بناء مدينة سجلماسة حتى الفترة التي عاصرها صاحب الاستبصار، وقد يزيد هذا الاستقراء ثباتاً في ضوء القول بأن حرفة البناء ليست من المهن الحقيرة التي اختص بها اليهود في سجلماسة قياساً بما كانوا يعملونه فيما يسمى "بالكنافة"[١].

كما إن طبيعة الحضارة الإسلامية تحترم العمل اليدوي وتقدر قيمته ومدى الآثار المترتبة عليه سواء أكانت على الفرد أم على المجتمع، وهو ما أغفله ابن خلدون تمامًا، وهو ما يعنى أن ما كان يأنف منه العرب أو البربر في منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، لا يمكن دوام الأنفة منه طوال قرون سته أو ما فوق ذلك؛ فيما يعني أيضًا أن ابن خلدون قد أغفل – في غفلة، أو دون قصد منه – بيان أثر تعاليم الإسلام في الشخصية الإسلامية سواء أكانت من البربر أم العرب.

وفضلًا على ذلك، فإن وصف مدينة سجلماسة بما يشير إلى أنها ذات بساتين ومزارع، وإنها كثيرة النخيل والأعناب وعيون المياه[٢]؛ ما يدل على أن ذلك النمط من المدن الصحراوية لم يكن عشوائيًا أيضًا أسوة بما سبق قوله في المدن السابقة، خلافًا لما كان يقوله ابن خلدون عن العرب أنهم لا يراعون حسن اختيار موقع المدينة، أو طيب هوائها، أو وجود المياه والمزارع بها .. إلى غير ذلك مما سبق بيانه.

---

(١) ثمة دراسات تشير إلى أن اليهود قد فرض عليهم العمل في مهن حقيرة ، مثل الكنافة والبناء. انظر: عبدالرحمن بشير: اليهود في المغرب الإسلامي، ص ٥٠؛ والكنافة هنا مردها إلى مادة كنف في لسان العرب، وهي حظيرة تقام من خشب أو شجر لحماية الإبل من البرد، وفى العامية الدارجة في ريف مصر يطلق علي من يقوم بهذه المهنة " كلاف " والكنافة والكنافين تعطى هنا نفس المعنى، والحظيرة تسمى كنيفا . انظر: ابن منظور: لسان: مج ٥، ص ٣٩٤٠، ٣٩٤١ مادة كنف .

(٢) وصف الإدريسي مدينة سجلماسة بأنها .. " مقصد للوارد والصادر، كثيرة الخضر والجنات، رائعة البقاع والجهات، ولا حصن عليها، وإنما هي قصور وديار وعمارات متصلة على نهر كثير الماء يأتي من جهة المشرق من الصحراء ... مشيراً إلى أن مياهه تزداد في الصيف، مشبهاً ما يزرع فيها بما يزرعه فلاحو مصر.. انظر الإدريسي: وصف أفريقيا، ص ٣٧.

مدينة فاس:–

من أفضل المدن التي يمكن أن يكون الحديث عنها دحضًا لما ذهب إليه ابن خلدون في حديثه عن العقلية العربية في بناء المدن، وأن العرب لا يراعون مناخًا ولا موقعًا ولا هدف لهم سوى مرعى إبلهم . وقد اعتمد الأستاذ الكتاني في حديثه عن مدينة فاس على ما جاء في بعض الكتابات الجغرافية والتاريخية التي تشيد بالمدينة التي تحيطها المياه والشجر من جميع جهاتها، وإنها تستطيع أن تمد كافة المدن من حولها بما تحتاجه[١]؛ وهذا المعنى الأخير هو الذى عبر عنه عبدالواحد المراكشي في معجبه[٢]، بما يشير إلى أن المدينة كانت بمثابة ظهير جغرافي حيوي تمد المدن من حولها بما تحتاجه، وقد امتدحها ياقوت الحموي في معجمه قائلا عنها ..." وليس بالمغرب مدينة يتخللها الماء غيرها إلا غرناطة الأندلس[٣].

وتلقى كتابات نفر من المؤرخين المحدثين الضوء حول طبيعة المدينة التي بنيت – كما هو معلوم للباحثين – على يد الإمام إدريس الأصغر سنة "١٩٠هـ/ ٨٠٥م" على دفعتين؛ الأولى ابتداًء من سنة "١٩١هـ/٨٠٦ م" وهو الجزء الخاص بعدوة الأندلسيين الذي بنى على الضفة الشرقية لنهر فاس، ثم كانت الثانية في عام "١٩٣هـ/٨٠٨م" على الضفة المقابلة لنهر فاس وهي عدوة القرويين[٤].

---

(١) انظر: محمد المنتصر الكتاني : فاس عاصمة الأدارسة ورسائل أخرى، ط ٢ بيروت ١٩٧٢. ص ١٥؛ وقد أشار د . شبانه – رحمه الله – إلى ما كتبه المستشرق الفرنسي أ. بلاشير عن فاس في كتابات الجغرافيين العرب في العصور الوسطى ، وقد وقفت على ما كتبه أ. بلاشير في مقاله ضمن مجلة هسبيريس . انظر . محمد كمال شبانه : الدويلات الإسلامية في المغرب ، دراسة تاريخية حضارية ، القاهرة دون تاريخ ، ص ١٨ وحاشية رقم (١)؛
BLACHERE, R :FES CHEZ LES GEOGRAPHES ARABES DU MOYEN-AGE., HESPERIS., TOME XVIII., 1434 PP 41- 48

(٢) انظر: عبدالواحد المراكشي: محيى الدين أبى محمد ت " ٦٤٧ هـ /١٢٤٩ م . المعجب في تلخيص أخبار العرب، تحقيق: محمد سعيد العريان ، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٩٦٣ ص٤٤٣، ٤٤٤

(٣) ياقوت: معجم البلدان، مج٤، ص ٢٣٠ .

(٤) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، ج١٢، ص ٤٤٧ ، ٤٤٨؛ ثمة آراء تشير إلى أن تأسيس مدينة فاس يرجع إلى إدريس بن عبدالله ، وهو إدريس الأول أول مؤسس لفاس، لا ابنه، ومثل هذه الخلافات لا تهم في دراستي كثيراً، ولعل المرجح أن ادريس الأكبر هو أول مؤسس للمدينة، ثم شرع ابنه " ادريس الأصغر" في بناء المدينة على النحو المذكور.=

وقد تحدث ابن أبى زرع في مطلع كتابه عن مدينة فاس ؛ مشيرًا إلى أنها جمعت بين عذوبة الماء، واعتدال الهواء، وطيب التربة، وحسن الثمرة، وسعة الحرث وعظيم بركته ... معددًا ما لها من بساتين ورياض وأسواق وعيون وأنهار وجنات [١]، وهو وصف يشاركه فيه " الجزنائى " في حديثه عن مدينة فاس [٢] .

وليس هذا الوصف من قبيل النزعة التمجيدية التي قد يجدها الباحث في بعض كتب التاريخ المغربي، وقد يقول قائل: إن وصف المدينة على النحو المذكور، قد ينطبق على المدينة في ظل دولة بنى مرين في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي؛ إلا إن المدقق في طبيعة بناء المدينة منذ بدايتها يجد أنها لم تعدم هذه الصفات. فقد بنيت المدينة في أرض فسيحة معتدلة بين جبلين، ولم يكن الموضع الذى بُنيت فيه مهجورًا، بل كانت فيه مضارب لقبيلتين زناتيتين هما زواغة حول عدوة القرويين، وبنو يزغتن حول عدوة الأندلسيين[٣] .

وقد كان التفكير في بناء المدينة منصرفًا في البداية نحو سفح الجبل، ثم حدث أن أطاح سيل جارف بسور المدينة، وأخذ معه خيام العرب، وهو ما كان دافعًا للتفكير في بناء المدينة في المحاولة الثانية في منطقة "وادي سبو" وأن الإمام إدريس كان يخشى من فيضان النهر على فشل التجربة، كما إن الإمام جاء إلى مضارب القبيلتين، وأصلح ما كان بينهما من حروب ونزاعات، وهو ما يعنى أن المدينة لم تنشأ منعزلة عن قبائل البربر، ولم تكن بعيدة عنهم، هذا فضلًا على إنها جمعت بين القبائل العربية التي جاءت مع الإمام، وأهل ضاحية الربص من الأندلس، وهو ما يعطي مزية للعرب في بنائهم لمدينة فاس بما يؤدي إلى تعريب المدينة ونشر حضارة

= انظر: روجى لوطورنو: فاس قبل الحماية، ج١، ترجمة: محمد حجى ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ١٩٩٢، ص ٦٠ .

(١) انظر: ابن أبى زرع: أبو الحسن على ت "٧٢٦هـ/١٢١٥م". الأنيس لمطرب بروض القرطاس. في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٢، ص ٣٣؛ وانظر في ذلك الوصف أيضًا " روجى لوطورنو: فاس قبل الحماية، ج ١، ص ٦٢.

(٢) انظر: الجزنائى: ابو الحسن على من أهل ق ٨هـ/١٤م " جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبدالوهاب بن منصور، الرباط ١٩٦٧. ص ٣٣-٣٩.

(٣) انظر: سعد زغلول؛ المرجع السابق، ج ٢، ص ٤٤٥.

الإسلام بها، وإنها أصبحت بمرور الوقت قيروانًا جديدًا للمغرب الأقصى، أسوة بما فعله عقبة بن نافع في بناء مدينة القيروان [١] .

ويعنيني في هذا كله أن العقلية العربية كانت تدرك – أثناء بناء مدينة فاس – مخاطر البناء وما يحيط به من سيول أو فيضان، حتى استطاعت المدينة أن تجمع بين صفات خمس قال عنها الحكماء – طبقًا لما أورده صاحب الأنيس – أن أحسن مواضع المدن هي النهر الجاري، والمحرث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان [٢] .

وفي هذا كله، وفيما جاء عن مياه نهر فاس وفضائله وما يتخلله من عيون [٣]، ما يدحض فكر ابن خلدون في حديثه عن بناء العرب للمدن، هذا فضلًا على أن مدينة فاس، وهى قاعدة بلاد المغرب، لم تزل منذ تأسيسها ... " دار فقه وعلم وصلاح ودين [٤] " . وهو ما يضيف بعدًا آخرًا غفل عنه ابن خلدون وهو أن بناء المدن كان يتم تطبيقًا لتعاليم الإسلام وأن البناء كان بمثابة تكليف حضاري، وإذا ما تم البناء كانت الحاجة ماسة لنشر الإسلام وتعاليمه وعلومه في كافة جنبات المدينة؛ فيما يعنى أيضًا أن العقلية العربية لم تكن قاصرة على النحو الذي أراده لها ابن خلدون عفا الله تعالى عنه، وكان دعاء الإمام إدريس عندما عزم على بناء مدينة فاس تجسيدًا لذلك التوجه الحضاري قائلًا في ذلك .. " اللهم اجعلها دار علم وفقه يُتلى فيها كتابك، وتقام بها سنتك وحدودك، واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها."[٥].

---

(١) انظر: سعد زغلول: نفس المرجع، ج٢، ص ٤٤٤ – ٤٤٦؛ وثمة آراء تشير إلى عناصر السكان الأولين للمدينة من أمثال: البربر والعرب، واليهود والنصارى
انظر: لوطورنو: فاس، ج١، ص ٦٨ – ٧٣، وهو ما يؤدي إلى نشر حضارة الإسلام بين عناصر السكان في مدينة فاس من غير المسلمين

(٢) ابن أبى زرع: الأنيس، ص ٣٣.

(٣) انظر: ابن أبى زرع: المصدر السابق، ص ٣٤– ٣٥.

(٤) ابن ابى زرع: نفس المصدر، ص ٣٢ .

(٥) الجزنائى: جنى زهرة الآس، ص ٢٢؛ وهذا التوجه الحضاري – في رأيي – هو تنفيذ لتعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

مدن الفاطميين والصنهاجيين : –

آثرت أن يكون العنوان على هذا النحو تعبيرًا عن آخر جزئيات الرؤية التطبيقية في فلسفة ابن خلدون، استناداً إلى أن بنى زيري – وبني حماد أبناء عمومتهم – ممن خلفوا الفاطميين بعد رحيلهم عن المغرب؛ كانوا من قبائل صنهاجة، كما أن " يوسف بن تاشفين " أمير المسلمين في دولة المرابطين ينتمي – هو وقبائل المرابطين – إلى صنهاجة، وهو الذي شهد عهده بناء مدينة مراكش .

أما عن فترة الفاطميين بالمغرب، فقد دام حكمهم من خلال أربعة خلفاء وهم : المهدي، القائم، المنصور، المعز لدين الله الذي توجه الى غزو مصر، وهى فترة يمكن تقديرها فيما بين سنوات ٢٩٧ إلى ٣٦٢هـ/٩٠٩ – ٩٧٣م" [١] وهي الفترة التي تمثل الدورة المغربية في تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب، يبدأ بعدها عصر النيابة الفاطمية في المغرب[٢] من خلال إسناد المعز لدين الله الفاطمي ولاية إفريقية والمغرب إلى بلكين بن زيري وسماه يوسف بدلًا من بلكين، وكناه أبا الفتوح، ولقبه سيف الدولة .

وامتدت هذه النيابة أيضًا إلى الدولة الحمادية من خلال عقد المنصور بن بلكين لأخيه حماد حكم المغرب الأوسط، وهي الدولة التي امتد عمرها إلى ما يقرب من قرن ونصف، تعاقب على الحكم خلالها تسعة أمراء، كان آخرهم الأمير يحيى بن العزيز الحمادي سنة " ٥٤٧ هـ /١٥٢ م " [٣].

ثم أعقب ذلك – في إطار الفترة المبكرة من تاريخ دولة المرابطين – مجيء قبائل لمتونة إحدى قبائل صنهاجة التي ينتمي إليها المرابطون، وهم الذين آل أمرهم في نهاية الأمر – بعد عبدالله بن ياسين، ويحيى " عمر، وأبى بكر بن عمر – إلى يوسف بن تاشفين الذى قام بتأسيس مراكش كما سبق القول [٤] .

---

(١) انظر: لصاحب الدراسة تقديمه للظروف السياسية ضمن كتابه العلم والتعليم، ص ١٦ ، ١٧

(٢) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج ٣، ص ٢٨٤.

(٣) انظر: في الأحداث المذكورة . ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، مج ٦، ص ١٨٣، ٢٠٢ ص ١٨٣، ٢٠٢– ٢١٠؛ عبدالحليم عويس : دولة بنى حماد، ط ٢١ دار الصحوة، الوفاء ١٩٩١م. ص ١٠٩، ١١٢ – ١٦٣.

(٤) عن الأحداث الأولى لدولة المرابطين وارتباطها بالشخصيات المذكورة يمكن الرجوع إلى. البكري: كتاب المغرب، ص ١٦٤، ١٦٥؛ كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ٢٠٩.

وقد رأيت أن تكون هذه المقدمة السياسية الموجزة ضرورية للحديث عن المدن التي تم إنشاؤها في عصر الفاطميين، والصنهاجيين من بنى زيري، وبنى حماد، وقبائل المرابطين على النحو التالي : –

المهدية : –

إحدى أهم المدن التي بُنيت في عهد الخليفة الفاطمي عبدالله المهدي، وإليه نسبت، وجاء في كتب الجغرافية والرحلات إنها بينها وبين القيروان ما يقدر بـ " ستين ميلا " [١]. وقد أراد لها الخليفة المهدي أن تكون مدينة بحرية بعيدة عن الداخل، ووقع الاختيار على أن تكون في موقع شبه جزيرة يعرف بـ "جمة " فيما بين سوسة وصفاقس[٢]، وقد جاء في طبيعة شبه الجزيرة المذكورة إنها أشبه بكف متصلة بزند[٣]، وأن المياه تحيط بها شمالًا وجنوبًا وشرقًا، وتتصل بالبر من جهة الغرب من حيث يكون الدخول إليها [٤] .

وكان من أهم أهداف بناء مدينة المهدية مواجهة أعداء الداخل ممن يهددون أمن الدولة الفاطمية، كما هو الحال فيما يسمى بالثورة الزناتية وخروج أبي يزيد مخلد بن كيداد على الفاطميين [٥]، هذا فضلاً على أن المالكية في إفريقية لم يرق لهم المذهب الشيعي، ولا العصمة التي جاء بها خلفاء الفاطميين [٦].

ومن هنا كان خروج عبيد الله المهدي يرتاد لنفسه موضعًا، فوقع اختياره على موضع المدينة التي شرع في بنائها سنة " ٣٠٠هـ/٩١٢م" وقيل سنة

---

(١) انظر: البكري: كتاب المغرب، ص ٣١.

(٢) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج٣، ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٣) انظر: ياقوت : معجم البلدان ، مج ٥ ، ص ٢٢٩ – ٢٣١.

(٤) انظر: كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ١١٧، ١١٨؛ سعد زغلول : المرجع السابق، ص ٩٤.

(٥) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج٣، ص ٩٤؛ ولمزيد من أخبار أبى يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي يمكن الرجوع إلى: ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب ، ج١، ص ٢١٦ – ٢١٨.

(٦) رفض أهل إفريقية المساس بالمذهب السنى المالكي، وأنكروا القداسة التي أراد الخلفاء الفاطميون الفاطميون الظهور بها. انظر: مؤنس: تاريخ المغرب، مج ١، ج ١، ص ٤٧٨ .

"٣٠٣هـ/٩١٥م"[١] وقد جعلها الخليفة الفاطمي دارًا لمملكته، وحصنها بالسور المحكم، والأبواب الحديد، وجلب لها المياه من القرى المحيطة بها، وزودها بصهاريج المياه، وأمر بإقامة الدكاكين فيها، ورتب لها أرباب الحرف والمهن، وجعل لكل طائفة حي خاص بهم، وفي هذا كله ما يكشف عن فلسفة البناء عند العرب، ناهيك عن تحقيق هدفه في تحقيق الأمن للخلافة وآل بيته، وهو ما يفسر قوله عقب إتمام البناء.

"اليوم أمنت على الفاطميات"[٢]؛ وهو هدف لم يكن ضمن اهتمامات ابن خلدون في بيان أثر الظروف السياسية على بناء الحواضر والأمصار"، فجاء حديثه عن أسباب قلة الأمصار والمدن في المغرب العربي خاليًا عن بيان ذلك الأثر، ووقع فيما عاب فيه على المؤرخين من التعميم .

كما كان من أهم أهداف بناء مدينة المهدية هو أن تكون لها وجهة بحرية أيضًا، فكانت رباطًا فاطميًا يعيد إلى الأذهان – أكثر ما يعيد– بناء الشيخ الأمين لمدينة "تونس"، دونما إغفال لقيروان عقبه بن نافع[٣].

وكان من أهم أهداف تلك الوجهة البحرية لمدينة المهدية إما إقامة علاقات اقتصادية تجارية مع العالم الخارجي فيما وراء البحار، وإما القيام بدورها الجهادى على المستوى الرسمي والشعبي ضد الدولة البيزنطية في حوض البحر المتوسط، باعتبار أن منطقة السواحل تعد منطقة ثغور في المقام الأول.[٤]

---

(١) اختلفت الآراء حول سنة البناء كالعادة، ولعل المرجح لي أن البناء كان سنة ٣٠٠م/٩١٢م" وتم الانتهاء منه سنة "٣٠٥هـ/٩١٧م" وهو ما أدقق فيه مع أ . د مؤنس رحمه الله . انظر: حسين مؤنس : تاريخ المغرب، مج١/ ج١، ص ٤٨٥.

(٢) انظر: ياقوت: معجم، ج٥، ص ٢٢٩ – ٢٣١؛ الحميري : كتاب الروض، ص ٥٦١، ٥٦٢؛ التجاني: أبو عبدالله محمد. توفى بعد سنة "٧٠٨هـ/١٣٠٨م" رحلة التجاني، تقديم وتحقيق: حسن حسنى عبدالوهاب، الدار العربية للكتاب (ليبيا – تونس) ١٩٨١ ص٣٢٠ ، ٣٢١.

(٣) ذهب أ. د سعد زغلول – رحمه الله تعالى – إلى أن المهدية تُذكِّر بالقيروان، واجتهدت في التوضيح إنها تذكر، بـ " تونس " دونما إغفال للقيروان ، انظر: سعد زغلول : تاريخ المغرب، ج ٣، ص٩٥؛ والشيخ الأمين لقب لـ " حسان بن النعمان " ورد ذكره في بعض الكتب المتأخرة. انظر: مؤنس : فتح العرب للمغرب، ص ٠٢٣٦

(٤) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج٣، ص٩٤؛ وقد أفاض الإدريسي في بيان الجزئية المذكورة، مشيرًا إلى أن المهدية " مدينة لم تزل ذات إقلاع وحط للسفن الجهازية القاصدة إليها من بلاد الشرق والمغرب والأندلس وبلاد الروم وغيرها من البلاد .. وإليها تجلب البضائع الكثيرة بقناطير الأموال ... انظر. الإدريسي: وصف ، ص ٧٨.

ولعل من أهم الجوانب التي تكشف مدى تناقض ابن خلدون مع نفسه فيما يذكره عن البناء وفيما سبق ذكره، وفيما يقوله عن عناية الفاطميين بالأساطيل إلى أن انتهى الأمر بغلبة المسلمين على سواحل البحر المتوسط حتى لم تعد ... "تسبح للنصرانية فيه ألواح" على حد قول ابن خلدون [١] . ومن المعروف أن الخليفة عبدالله المهدي قد بني بالمهدية دارًا لصناعة السفن، وهو ما يشهد عليه قول ابن حماد: " وبنى دارًا للصناعة الموجودة فيها إلى اليوم[٢] " وفي هذا كله ما يشير إلى أن البناء عند المسلمين لم يكن ارتجالًا أو اعتباطًا في أغلبه، بل كان يسير وفقًا لخطة منظمة في بعضه أو كثير منه على الأقل، ووفقًا لمقتضيات الأوضاع السياسية للدولة .

كما إن في الحديث عن إحاطة المدينة بأبواب الحديد، وتسويرها وبناء صهارج المياه بها، وتنظيم أهل الحرف في أحيائها؛ ما يدل على تقدم فنون الصناعات في بلاد المغرب العربي، وإن لم يكن هذا على يد أبناء البلاد، فمن الطبيعي أن يكون على يد من جلبهم الفاطميون إلى البلاد ممن يجيدون الحرف والصناعات، وهذا يدل على أن حديث ابن خلدون عن عدم انتحال العرب للصناعة قد يكون في بداية أمرهم، وانشغالهم بالفتوحات الإسلامية، وأنهم تقدموا – فيما بعد – في الحرف والصناعات بفضل تعلمهم، واختلاطهم بمن يجيدون هذه المهن، والأمر نفسه ينطبق على البربر، فالنزوع إلى التعلم طبيعة متأصلة في النفس البشرية، استنادًا إلى قول ابن خلدون أن الإنسان مدنى بطبعه [٣] .

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ١، ص ٢٦٨، وقد أشار ابن خلدون إلى أن سفن الفاطميين كانت تغزو من المهدية جزيرة جنوة، وتنقلب بالظفر والغنيمة. انظر: ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون، كتاب العبر، مج ١، ص ٢٦٧.

(٢) ابن حماد: أخبار ملوك بني عبيد، ص ١٠؛ وبعض كتب الرحلات المتأخرة نسبيًّا تتحدث عن دار الصناعة التي أنشأها المهدي بما يشير إلى إنها " من عجائب الدنيا " التجاني : رحلة التجاني، ص ٣٢٢ – ٣٢٣ .

(٣) انظر: ابن خلدون : مقدمة ص ٤١ ؛ وجاء في موضع آخر تحت عنوان " في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشرى " وتحت عنوان " في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع "
انظر: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، كتاب العبر، مج ١، ص ٤٦٠، ٤٦١؛ وقد نظرت إلى الصنائع هنا على إنها من جملة العلوم، وأن هناك إمكانية لنقلها من جبل إلى جبل، وهو ما يعني أن النزوع إلى تعلم الصنعة، أو تعلم العلم والتعليم من الأمور الفطرية التي جبلت=

المسيلة :

من بلاد الزاب بالمغرب [١]، أورد البكري عنها إنها مدينة جليلة على نهر يسمى سهر، أسسها أبو القاسم إسماعيل بن عيد الله سنة " ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م، مشيراً إلى المتولي لبنائها كان " على بن حمدون الأندلسي" [٢]؛ وهي التي تسمى في كتابات أخرى باسم المحمدية، على اختلاف في سنة بنائها لا تهتم به الدراسة [٣]

وقد جاء عن المدينة نفسها إنها " في بسيط من الأرض، عليها سوران، بينهما جدول ماء جار يستدير بالمدينة، وله منافذ يسعى منها عند الحاجة، وللمدينة أسواق وحمامات وحولها بساتين كثيرة " [٤] .

كما تحدث عنها صاحب الاستبصار قائلًا عنها .. " وهى الآن عامرة آهلة، كثيرة الخصب، رخيصة السعر .... " ؛ مشيرًا إلى كثرة الأسواق والمتاجر بها بما يدل على أن من أمر ببناء المدينة كان ذا نظر وعقل[٥]، ويرجح ذلك ما أورده الحميري من كثرة النخيل والبساتين، وجداول المياه العذبة بالمدينة، فضلًا على التفاف قبائل البربر حولها، بما يشير إلى من أمر ببنائها كان ... "على نظر كبير[٦] " طبقا لما سبق استقرائه .

كما أورد أن حماد عن مدينة المسيلة ما يشير إلى إنها بلغت الغاية القصوى في العمارة والحضارة على عهد على بن حمدون وابنيه جعفر ويحيى، هذا فضلاً عما يمكن استقراؤه عن المدينة في حديثة عنها بما يرجح أنها كانت أشبه بمخزون

=عليها النفس البشرية، وهو ما يعنى أيضا أن حديث ابن خلدون عن عدم انتحال العرب أو البربر للصنائع ليس دقيقا .

(١) انظر: الحميري: الروض المعطار، ص ٥٥٨؛ وفى تفسير بلاد الزاب يمكن الرجوع إلى . كاتب مراكشي: الاستبصار ، ص ١٧١.

(٢) انظر: البكري: كتاب المغرب، ص ٥٩، ويبدو لي أنها بُنيت على يد القائم أبى القاسم ثاني خلفاء الفاطميين بالمغرب وكان وليًّا لعهد أبيه، ويمكن الرجوع في هذا الشأن الى جدول خلفاء الفاطميين بالمغرب وتوقيت حكمهم . انظر: مؤنس: تاريخ المغرب، مج ١، ج ١، ص ٤٤٨.

(٣) انظر: ابن حماد: اخبار ملوك بنى عبيد، ص ١٢ ، ١٣

(٤) البكري: كتاب المغرب، ص ٥٩.

(٥) انظر: كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ١٧١ ، ١٧٢.

(٦) الحميري: الروض المعطار، ص ٥٥٨.

استراتيجي للدولة الفاطمية، وإنها كانت تمد البلاد بما تحتاجه من سلع ومواد غذائية؛ إذ ما نقصت كمية المطر، وفي حالة سوء الحالة السياسية باشتداد فتنة أو ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد وخروجه على دولة الفاطميين بالمغرب. [١] .

كما أورد الإدريسي عن مدينة المسيلة ما يشير إلى تعدد قبائل البربر حولها، بما يرجح وجود حالة من التعايش السلمى بين كافة عناصر السكان في المغرب العربي، يمكنها أن تؤدي إلى تعريب البلاد، وانتشار الإسلام والثقافة العربية بين كافة الأجناس[٢] وهو الأمر الذي ازداد رسوخًا مع وجود الهجمة الهلالية إلى إفريقية والمغرب. [٣]

وفي هذا كله ما يدحض فكرة ابن خلدون عن طبيعة وعشوائية البناء عند العرب، هذا فضلًا على ما كان من إجماع حول طبيعة مدينة المسيلة، وإنها كانت عامرة بالتجار، والمزارع من أنواع شتى، فضلًا على تعدد الثروة الحيوانية، ووجود الأسماك بها [٤] بما يدل على بعد نظر من أمر ببناء المدينة طبقا لما سبق قوله، وفي هذا كله ما يدحض أقوال ابن خلدون عن طبيعة البناء عند العرب، فقد كانت المدينة تشبه ما يسمى الآن بـ " ظهير الميناء " في إمداداتها بما تحتاجه البلاد من حولها، خاصة في أوقات التأزم السياسي، وسوء أحوال البلاد، دون الدخول في تفاصيل بناء المدينة وأبوابها ... وغير ذلك من جوانب يمكن أن تهتم بها الدراسات الأثرية [٥]، فما يهم هنا هو بيان رؤية ابن خلدون، ومدى تطابقها مع الواقع التاريخي. التاريخي.

---

(١) انظر: ابن حماد: أخبار ملوك بنى عبيد، ص ١٢– ١٣ .

(٢) انظر: الإدريسي : وصف إفريقيا، ص ٥٩.

(٣) ثمة آراء تشير إلى أن الحضارة الإسلامية في المغرب عاشت مرحلة التكوين في ظل أحداث الفتح، ثم مرحلة الازدهار في ق "٣هـ/٩م"، ثم مرحلة الذروة في ق ٥هـ/١١م مع دخول الهلالية إلى بلاد المغرب، وكان ذلك بمثابة الفتح العربي الثاني، وفى ذكر الآراء المذكورة يمكن الرجوع إلى. عادل يحيى: انتشار الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ...، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، مج ٥٢، القاهرة ٢٠١٨ ص ١٨٢، ١٨٣ وحاشية رقم (١) في ص ١٨٢، ١٨٣، وهذا يعنى أن إقامة المدن كانت له فلسفته الدينية

(٤) انظر: الحميري: الروض، ص ٥٥٨.

(٥) ما ورد قوله أو ذكره هنا هو استقراء يعبر عن رأى الباحث ، وأفضى إلىَّ به اجتهادي .

مدينة صبرة "المنصورية": –

تنسب مدينة المنصورية إلى المنصور الفاطمي؛ وهو أبو العباس إسماعيل بن أبى القاسم، طبقًا لما ذكر اسمه ابن حماد في أخبار ملوك بنى عبيد؛ مشيراً إلى أن المنصور بنى تلك المدينة سنة "٣٣٤هـ/٩٤٥م" واستمر عليها الاسمان صبرة أو المنصورية إلى الآن، وصبرة أشهر [١].

وقد أوضح بن حماد في حديثه عن المدينة أن المنصور هو من أمر ببناء سورها بالطوابى، وجعل لها أربعة أبواب، بيد أن ما بهم رؤيتي هنا إنه نصَّب "عليها أبوابا ملبسة بالحديد" وإنه بنى بها القصور الشامخات، وجلب اليها الغرس البديعة، والمياه المنيعة، معددًا ما كان بها من قصور، ومختتمًا حديثه عنها بما أنشأه المنصور بالمدينة من مصانع ... "صنيعة كبيرة" [٢] على حد قوله.

ويبدو أن الأمر قد اختلط على ياقوت في معجمه عند حديثه عن المدينة المذكورة، فنسبها إلى "مناد بن بلكين"، ثم عاد في نهاية حديثه مشيرًا إلى ما قاله البكري عن صبرة إنها مدينة متصلة بالقيروان بناها إسماعيل بن أبى القاسم بن عبيد الله سنة "٣٣٧هـ/٩٤٨م"[٣] على اختلاف لما سبق ذكره من خلال ابن حماد في أخباره، وهي إحدى صعوبات الحديث عن المدن كما سبق القول، ويختم ياقوت حديثه

---

(١) انظر: ابن حماد: أخبار ملوك بنى عبيد، ص ٢٣

(٢) ابن حماد: المصدر السابق، ص ٢٤؛ كما تحدث المؤرخ والأثري التونسي الأستاذ زبيس عن صبرة أو المنصورية تفصيلًا في إحدى مقالاته :

CF. ZBISS, S. MOSTFA: MAHDIA ET SABRA – MANSORIYA., JOURNAL ASIATIQUE., TOM CCXLIV., ANNÉE 1956 PP. 84-92

(٣) انظر: ياقوت: معجم، ج٣، ص ٣٩١؛ ومناد بن بليكن لعله من ينتمى إلى بني مناد أهم ممثلي صنهاجه إفريقية أواخر ق ٣هـ/٩م، وأوائل ق ٤هـ/١٠م، ومن المعروف أن المعز اسند ولاية أفريقية والمغرب إلى بلكين بن زيري بن مناد، وسماه يوسف بدلًا من بلكين ، فهل يكون مناد المذكور هنا هو جد بلكين أو ابن بلكين ، فيكون اسمه مناد بن بلكين بنى زيري بن مناد ؟! . انظر في هذا الشأن ما قاله أ.د. سعد زغلول عن بعض التشابه وبنى مناد ، وبني زيري. انظر: سعد زغلول: تاريخ .المغرب، ج٣ ، ص ٢٩٢، ٢٩٣ والمرجح لي أنه ابنه .

عن المنصورية قائلًا إن المنصور قد استوطنها ... "وخلا أكثر أرض مدينة المهدية"(١).

وقد اختار المنصور لمدينته الضاحية الجنوبية على بعد نصف ميل من القيروان في مقابل رقادة الشمالية، وذلك عندما لاحقت تباشير نصره على أبى يزيد، ولعل هذا ما كان دافعًا إلى وصف المدينة بأنها تعبر عن النصر والفتح الإيجابي الذي شهده عهد المنصور، خلافًا لما كان من عهد الدفاع والصمود في الفكر الشيعي من خلال مدينة المهدية (٢).

وقد عهد المنصور إلى " قدام الخادم الصقلابي" بالبناء، وأمره ألا يتراخى فيه، وجعله واليًا عليها، وتدل التقنيات الأثرية في خرائب صبرة – أو المنصورة – على وجود بقايا من الحجر والرخام المنقوشين والزجاج الملون، وبقايا الرصف، وقوالب من الطوب، وطبقات من الجص(٣)، وفي ذلك ما يرجح مدى تقدم الصناعات والفنون في عهد الفاطميين القصير بالمغرب، ناهيك عن تنظيم المدن وما كان يستوجبه من إنشاء المسجد الجامع، وتنظيم الأحياء السكنية والأسواق (٤)؛ فيما يرجح أن بناء المدن كان يسير وفقاً لخطة ونظام متقن، كما إن الاستعانة بالخادم الصقلابي في البناء يرجح مدى مهارة الصقالبة في أعمال البناء والصناعات(٥)، وهذا يعيدني إلى ما

---

(١) ياقوت: معجم، ج ٣، ص ٣٩١، ٣٩٢ ؛ ويجعل ابن عذارى تاريخ إنشاء المدينة سنة ٣٣٦هـ/٩٤٧م" وذلك أثناء حديثه عنها . انظر: ابن عذارى: البيان، ج ١، ص ٢١٩ .

(٢) انظر: سعد زغلول: تاريخ المغرب، ج٣، ص ٢٠١.

(٣) انظر: سعد زغلول: المرجع السابق، ج٣، ص٢٠٢، ٢٠٣؛ وانظر عن مدينة صبره (المنصورية) وتنظيمها وبنائها وسورها وجلب المياه إليها. ابن حماد: أخبار، ص ٢٣، ٢٤، كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ١١٥؛ الحميري: الروض ص ٣٥٤.

(٤) أشار ابن عذارى باقتضاب إلى عدد أبواب المدينة، وأن المنصور نقل إليها ، أي إلى صبرة سوقة القيروان. انظر: ابن عذارى : البيان ، ج ١ ، ص ٢١٩.

(٥) من المعروف أن صقلية كان من توابع دولة بني الأغلب، وأن الفاطميين حرصوا على بسط نفوذهم على صقلية ، ومع بداية عهد أبي عبيد الله الشيعي تم جعل الحسن بن محمد بن أبى خنزير واليًا عليها، وما يهم من هذا كله أن الفاطميين استعانوا بالصقالبة في بناء المدن.
عن الفاطميين وصقلية. انظر: حسين مؤنس : تاريخ المغرب، مج ١، ج١ ، ص ٥٣٩–٥٥٠، أما الخادم الصقلابي المذكور في متن البحث، فإنه يشير إلى مصطلح الصقالبة وهم أشهر أنواع الرقيق الأبيض، وكلمة صقلب معناها عبد أو رقيق، فيما يعني إن هؤلاء العبيد كانوا=

سبق قوله عن دحض آراء ابن خلدون في حديثه عن طبيعة البناء في المغرب العربي، بما لا حاجة إلى تكراره.

مدينة أشير:–

ذكر الأستاذ العربي في حديثه عن عواصم بني زيري أن أشير بُنيت على قمة جبل يبلغ ارتفاعها حوالي ١٤٠٠ متر عن مستوى سطح البحر، وأن هذه المدينة تشرف على سهول التلال الغربية، ومنطقة بلاد القبائل الشرقية، وإنها مدينة ذات موقع منيع، ليس في تلك الأقطار أحصن منها على حد قول البكري [١].

وقد أورد ياقوت في معجمه أن زيري بن مناد الصناجي هو أول من عمَّر مدينة أشير، وإنه شرع في بنائها في سنة " ٣٢٤ هـ/ ٩٣٥ م " وأنه اختار لها موضعًا خاليًا، ليس به أحد، مع كثرة عيونه، وسعة فضائه وحسن منظره، وإنها جاء بالبنائين من المدن التي حولها وهي: المسيلة وطبنة وغيرهما، وأورد البكري أيضًا أن الذي سوَّرها، أو بني سورها هو بلكين يوسف بن زيري سنة " ٣٣٧هـ/٩٣٨م "، وخربَّها يوسف بن حماد بن زيري سنة " ٤٠٤هـ/١٠١٣م" [٢] .

=يجيدون القيام بأعمال البناء والإشراف عليه، ومن الطبيعي أن يتعلم منهم أهل البلاد أو الوافدين عليهم، وقد ذكر ابن حوقل الصقالبة على أنهم الخدم من سبى إفرنجة وجيليفية، وكانت تطلق على الأسرى والحصيان ، ثم أصبحت تطلق على جميع الأجانب الذين يعملون في البطانة وقصور الحكم . انظر: ابن حوقل : أبو القاسم محمد بن على ت "٣٢٢هـ/٩٣٤م" كتاب صورة الأرض منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت دون تاريخ ص ١٠٥، ١٠٦ ؛ أحمد مختار العبادي : الصقالبة في إسبانيا ، مدريد ١٩٥٣ ص ٧–١١؛ وقد جاء في سيرة الأستاذ جوذر ما يشير إلى استخدام مجموعة من الخدام الصقالبة في بلاط الفاطميين، ومنهم قيصر ومظفر ...، وذلك من خلال رسالة الخليفة المنصور الفاطمي. انظر: العزيزي: أبو على منصور، كاتب جوذر خادم المهدي، توفي أيام الحاكم بأمر الله. سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين، تقديم وتحقيق : محمد كامل حسين ، محمد عبدالهادي شعيرة، دار الفكر العربي، القاهرة ١٣٧٤هـ، ١٩٥٤ ص ٤١؛ كما جاء في الكتاب نفسه ما يشير إلى تقدم صناعة السيوف في عهد المنصور ذاته، وأنه أمر بصناعة سيوف خاصة بالمهدية، انظر: ص ١٥٩ من سيرة الأستاذ جوذر ضمن التعليقات، تعليق رقم ٤٠.

(١) انظر: اسماعيل العربي: عواصم بني زيري، ط ١ دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٤. ص١٥

(٢) انظر: ياقوت : معجم ، مج ١، ص ٢٠٢، ٢٠٣ ؛ وهو نفس ما ذكره البكري في حديثه عن مدينة "أشير" ص ٦٠ من كتاب المغرب، وربما كان من نقولات ياقوت عنه؛ وعرفت المدينة=

وبغض النظر عن تفاصيل الصراع بين بني زيري وأبناء عمومتهم بني حماد[١]؛ إلا إن ما بهم هنا هو أن زيري بن مناد قد شرع في جلب البنائين من مدن شتى في المغرب العربي لبناء مدينة أشير، بما يشير إلى صدق ما ذهبت إليه أن مهنة البناء كانت تجد من يعمل بها، سواء أكان من الوافدين ممن استعان بهم الفاطميون، أو من أهل البلاد ممن تعلموا هذه الحرف والصناعات بالاختلاط والاحتكاك، وأن البربر من صنهاجة بني زيري كانوا على درجة عالية من إتقان البناء وإحكامه وحصانته .

القلعة، عاصمة بني حماد الأولى : –

هي عاصمة بني حماد الأولى طبقًا لما جاء التعريف بها ضمن عواصم بني زيري، وقد أثنى عليها الإدريسي معددًا ما بها من قصور ومفاخر وخيرات وفواكه، مشيداً بموقعها .. "في سند جبل سامى العلو" صعب الارتقاء، وقد استدار سورها بجميع الجبل، ويسمى تاقربست[٢] .

وقلعة بني حماد هي نفسها قلعة أبى طويل، وإنها بنيت في سنة "٣٩٨هـ/١٠٠٧م" على سفح الجبل المذكور سابقًا [٣]؛ بما يشير إلى التفرد في البناء، فالبناء على سفوح الجبال أمر لا يقبل عليه إلا من أصبحت له الدراية والخبرة بأعمال البناء، فضلًا على ما أسهب فيه صاحب الاستبصار من عجائب البناء والصناعة في قلعة (حماد بن مناد) من خلال حديثه عن القصور المنيعة، متقنة الصناعة، عالية البناء، وما كان من المدينة من " صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق، يدخله ماء كثير من ماء مجلوب على بعد ... " [٤]

=في بعض كتابات أخرى بأشير زيري نسبة إلى بانيها. انظر: كاتب مراكشي: الاستبصار، ص١٧٠؛ الحميري: الروض، ص ٦٠.

(١) عن تفاصيل الصراع السياسي وخروج حماد بن زيري على باديس بن يوسف المنصور يمكن الرجوع إلى. ابن خلدون: تاريخ ، مج ٦، ص ٢٠٢. .

(٢) الإدريسي: وصف إفريقيا، ص ٥٩ .

(٣) انظر: إسماعيل العربي: عواصم بنى زيري، ص ٢٨.

(٤) كاتب مراكشي: الاستبصار، ص ١٦٨؛ وقد تحدث عنها كل من البكري وياقوت قائلين عنها..." وهي اليوم مقصد التجار، وبها تحل الرحال من العراق ومصر والشام، وسائر بلاد=

ومما يدل على تقدم الصناعة بقلعة بني حماد ما أورده صاحب الاستبصار أيضًا في قوله .. " وتصنع بمدينة قلعة حماه أكسية ليس لها مثيل في الجودة والرقة ... " وتضيف كتابات نفر من المؤرخين المحثين أن حمادًا عندما اختار موقع المدينة قصد إلى المسيلة وسوق حمزة، وأخذ من المدينتين ما يحتاج إليه من الصنائع والبنائين والنجارين وغير ذلك من ينتمون إلى مختلف الحرف، ثم شرع في البناء الذي استغرق العمل فيه نحو ثلاث سنوات " [١]

ويناقض ابن خلدون نفسه بين ما ذهب إليه في مقدمته وما بها من قوانين خلدونية، أو ما يسمى بلغة العلوم الإنسانية " التعميمات "، وبين ما يقوله في كتابه العبر عن اتساع العمارة والتمدن في مدينة قلعة بني حماد حتى إنه رحل اليها .." من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم، وأرباب الصنائع لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها " [٢]. فهذا التوسع والتبحر في العمارة والتمدن ما كان ليتم عند البربر بمعزل عن العرب الذي يأخذ عليهم استنكافهم عن العمل بالصناعة، وقياسًا على ما قاله ابن خلدون، فالبربر أشبه الناس بالعرب، وهو في هذا كله يخالف الحقيقة، هذا فضلاً على ما قاله عن المغلوب المولع بتقليد الغالب [٣]، وهو لا يعطي للغالب حقه، فكيف ينصف المغلوب ؟! وكلاهما – العرب أم البربر، الغالب والمغلوب – قد أنعم الله تعالى عليهما بحضارة تحث على العمل والتمدن، وما يجد المرء المسلم في تطبيقاتها عناء "

=المغرب .. " انظر: البكري : كتاب المغرب، ٥ ص ٤٩ ؛ ياقوت : معجم ، مج ٤ ص ٣٨٩ – ٣٩٠

(١) انظر: إسماعيل العربي: عواصم بنى زيري ، ص ٣٢ ؛ وسوق حمزة هي ما يسمى " البويرة حاليًا " وهي من مدن الجزائر الآن، أو المغرب الأوسط قديمًا، وقد جاء التعريف بها ضمن تقديم الأستاذ العربي لكتابه. انظر: إسماعيل العربي : المرجع السابق، ص ٦ ضمن تقديمة لكتابة، وورد ذكر سوق حمزة عند ابن خلدون " أهل حمزة " انظر: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٦، ص ٢٠٢ .

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مج ٦، ص ٢٠٢

(٣) أورد بن خلدون ذلك تحت عنوان " في أن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعارة وزيه، ونحلته وسائر أحواله وعوائده ". انظر: ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، مج ١، ص ١٥٥، ١٥٦ ، وهو الفصل (٢٣) من مقدمته ص ١٤٧– ١٤٨ .

بجايـــة :

يذكر عنها الإدريسي إنها مدينة على البحر، يحدها من جهة الشمال جبل مسيون؛ وهو جبل سامي العلو، صعب المرتقى، وفي هذا ما يعني أن مدينة بجاية (مدينة ساحلية). وقد تحدث عنها الإدريسي في عصره قائلًا في ذلك الشأن ..... " ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط، وعين بلاد بني حماد " مشيرًا في هذا إلى حركة التجارة بين أهل المدينة وبين تجار المغرب الأقصى " وتجار الصحراء والمشرق، وما يتبع ذلك من كثرة قوافلها وتعدد الصناعات والصنائع بها، ووجود دار لصناعة الأساطيل والسفن والمراكب بها لتوافر الأخشاب في أوديتها " [١] .

ومما يدل على تقدم الصناعات في مدينة بجاية ما كان يتوفر في جبالها من ... "الزفت والقطران والمعادن " التي تستخدم في شتى الصناعات، حتى إنه يقول إن بها "من الصناعات كل غريبة ولطيفة" [٢] على حد قول الإدريسي.

كانت بجاية عبارة عن ميناء قديم فقط، ثم بُنيت المدينة، وكان أول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري بن مناد بن بلكين في حدود سنة "٤٥٧هـ/١٠٦٤م" وتسمى أيضًا بالناصرية نسبة إلى بانيها، وقد وصفها ياقوت بأنها دار مملكة تركب فيها السفن، وتسافر إلى جميع الجهات [٣] ؛ وهو ما يشير إلى ازدهار حركة التجارة والصناعة بها في العصر الحمادي، طبقًا لما أفاض فيه الأستاذ

---

(١) انظر: الإدريسي : وصف أفريقيا ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) الإدريسي: المصدر السابق، ص ٦٣.

(٣) انظر: ياقوت: معجم البلدان، مج ١، ص ٢٣٩؛ وقد جاء عن بجاية في كتابات متأخرة إنها من تأسيس الفينقيين، أو الرومان، على اختلاف في ذلك الشأن، وهو ما يخرج عن نطاق دراستي، إذ أنني لا أبحث في الأصول القديمة للمدن، المهم أن الناصر الحمادي هو من جددها ودعاها الناصرية، ثم سميت بجاية باسم قبيلة بربرية تقطن حولها . انظر: ليون الإفريقي: الحسن بن محمد الوزان الفاسي توفي بعد عام " ٩٥٧هـ/١٠٥٥م " وصف إفريقيا، ج٢، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجى ومحمد الأخضر، ط ٢ دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣ ص٥٠؛ وحاشية رقم (١) من نفس الصفحة، وكالعادة هناك اختلاف في تاريخ تجديد المدينة أو نشأتها على يد الناصر الحمادي عما في متن دراستي، والمرجح ما جاء في المتن.

العربي في حديثه عن المدينة[١] ؛ بما يشير إلى أن ابن خلدون لم يكن صائبًا في نظرته عن البناء والمدن في بلاد المغرب العربي سواء أكانت من بناء العرب أم البربر، فقد كانت بجاية مدينة تتقدم فيها كافة الصناعات والأنشطة التجارية، وفي ذلك ما يدل على أن حركة البناء للمدن والأمصار في بلاد المغرب العربي لم تكن عشوائية كما أرادها ابن خلدون، بغض النظر عن طبيعة الصراع بين بني زيري وبن حماد أبناء عمومتهم وأثر ذلك على بناء المدينة، أو ما يفعله قبائل الهلالية عندما جعلوا من القلعة حسمًا هامدًا، فكان ولابد من التفكير في بناء "بجاية" كعاصمة جديدة. [٢]

مراكش :

أسسها يوسف بن تاشفين سنة "٤٥٩هـ/١٠٦٦م "وهي حاضرة بلاد المغرب ودار مملكتها، وهي مدينة عظيمة في بسيط من الأراضي، ويذهب صاحب الاستبصار إلى أن يوسف بن تاشفين بناها لزوجته زينب بنت إبراهيم النفزاوي[٣]؛ ويأتي ذلك خلافًا لما قال به الإدريسي أن يوسف بن تاشفين اشترى أرضها من أهل أغمات بجملة أموال، واختطها له ولبنى عمه، وإنها مدينة في وطأة من الأرض ليس حولها شيء من الجبال إلا جبل صغير يسمى " إيجليز"، مشيرًا إلى أن ذلك الجبل قد استخدم منه " قطع الحجر" الذي بنى من خلاله قصر أمير المسلمين "على بن يوسف بن ناشفين" [٤].

---

(١) انظر: العربي: عواصم ص ٥٧، ٦٤؛ ومن الكتابات المتأخرة التي وصفت قصور بجاية، وطبيعة العمران بها، ما جاء به مارمول كربخال فى وصف أفريقيا. انظر: مارمول كربخال: من رحالة ق ١٠هـ/١٦م إفريقيا، ج٢، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجى وآخرون، دار نشر المعرفة الرباط ١٩٨٩ ص ٣٧٦.

(٢) عن دور قبائل الهلالية في تخريب القلعة، والتفكير في بناء بجاية يمكن الرجوع إلى. إسماعيل العربي: عواصم، ص ٥٥.

(٣) انظر: كاتب مراكشي : الاستبصار، ص ٢٠٩.

(٤) الإدريسي: وصف أفريقيا، ص ٤٣؛ وانظر: عن مراكش أيضًا ياقوت: معجم، مج ٥، ص٩٤؛ وأغمات مدنيتان إحداهما تسمى " أغمات وريكة " والأخرى أغمات هيلانة ، وقد جاء التعريف بهما عند الإدريسي وغيره . انظر: الإدريسي: وصف، ص ٤٥، الحميري : الروض، ص ٤٦ وغير ذلك كثير.

وقد تم بناء المدينة بالطين والطوب والطوابي المقامة من التراب المستخدم من خلال جبل إيجيلز حسبما يفهم من سياق حديث الإدريسي عنها، مشيرًا إلى أن ماءها الذي يسقى به البساتين قد استخرج بصنيعة هندسية حسنة قام بها " عبيد الله بن يونس"، وهو الذى جاء إلى مراكش في صدر بنائها، وليس بها إلا بستان واحد، ثم قام بحفر بئر مربعة كبيرة التربيع، واحتفر من خلال ذلك البئر ساقية متصلة الحفر من أسفل إلى أعلى حتى وصل إلى البستان، وكثرت البساتين والجنات وعندما سار الناس على نهج "عبيد الله بن يونس" وهو ما كان سببًّا في ازدياد عمارة مراكش واتساعها، وقد ترتب على ذلك أن استحسن أمير المسلمين ما فعله الرجل حتى أغدق عليه وأعطاه ... "مالًا وأثوابًا وأكرم مثواه " [١]

وفي هذا، ما يشير إلى أن العقلية المغربية لم تقف مكتوفة الأيدي أمام تحديات البيئة، فاستخدمت من الجبال مواداً للبناء، ولم تنعدم فيهم الرؤى الهندسية، كما لم تنعدم في المغاربة الاستجابة لتحديات البيئة كما سبق القول. وجميع هذه الجوانب لم يدركها ابن خلدون جيدًا إن لم يكن قد أغفلها، فكان حديثه عن البناء وأسباب قلة المدن في المغرب العربي لا يتفق مع مدى تأثير الحضارة الإسلامية على الشخصية الإسلامية – سواء أكانت من العرب أم البربر– فيما أبدعوا فيه من بناءات.

(١) الإدريسي: وصف إفريقيا، ص ٤٤؛ وجاء عن مدينة مراكش في بعض كتب الرحالة المتأخرين بأنها مدينة عظيمة ... تقع في أحسن موقع بإفريقيا كلها... انظر: مارمول كربخال: إفريقيا، ج٢، ص ٤٦ – ٤٧ .

خلاصة الرؤية التطبيقية
" تقييم، تحليل، تعليق، نقد ... وكلمة ختام"

بالحديث عن مدينة مراكش، أكون قد انتهيت من آخر مدن الرؤية التطبيقية في دراستي هذه، ويطيب لي أن أذكر في هذا المقام ما أشار اليه أ. د محمود إسماعيل في قوله إنه لا يزال منهج ابن خلدون ورؤيته للتاريخ عمومًا، وتاريخ المغرب الإسلامي بوجه خاص أكثر قبولًا، بالقياس إلى من سبقه، وحتى من لحقه من المهتمين بالمغربيات إلى الوقت الحاضر [١] ؛ بيد إن هذا لا يمنع من إعمال العقل فيما ذهب اليه ابن خلدون في حديثه عن الأمصار والمدن في المغرب العربي، وأسباب قلتها، وهو حديث يساوي فيه بين العرب والبربر على حد سواء، ويمكن تفنيد آرائه وبيان أخطائه على النحو التالي:-

أولًا : أن ابن خلدون قلما ينصف العرب في حديثه عن الأمصار والمدن في المغرب العربي، كماة هو الحال في حديثه عن اقتصار الشعوب التي حكت بلاد المغرب – قبل الفتح الإسلامي – على السواحل فقط، فيما يعد من مميزات العرب التوغل في الدواخل، وهو مما سبق الإشارة إليه في ثنايا الحديث عن المدن.

ثانيًا : في إطار حديث ابن خلدون عن أسباب قلة المدن في المغرب العربي يشير إلى عدم انتحال العرب والبربر للصناعة على حد سواء، ويغفل أثر احتكاك العرب بالأمم السابقة، وعلى حد قول أ.د. طه حسين لم يقدر ابن خلدون التأثير الذي تحدثه العلائق بين الأمم المختلفة [٢] سواء أكان ذلك في الغالب أم المغلوب، فعلى أرض المغرب ظهرت وتعايشت أنماط مختلفة في بوتقة واحدة يأتي في مقدمتهم: العرب، البربر، الأقباط، اليهود، وعناصر فارسية أيضًا.

ثالثًا : يبدو أن ابن خلدون متناقضًا مع نفسه، فهو يعترف باستخدام العرب لأمة الفرس، وأن العرب بسبب احتكاكهم بالفرس قد شيدوا المباني والمصانع، واختلفت

---

(١) انظر: محمود إسماعيل: مغربيات، ص ٥.

(٢) طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تحليل ونقد، ترجمة: محمد عبدالله عنان، ط ١، مطبعة الاعتماد القاهرة ١٣٤٣هـ /١٩٢٥م . ص ١٠٤ .

أحوالهم في البناء عما كان سابقًا، ومع ذلك يغفل ابن خلدون أثر ذلك الاحتكاك على أرض المغرب .

رابعًا : أن حديث ابن خلدون عن الأمصار والمدن في المغرب العربي يدفعه إلى وصف العرب بأنهم لا يتغلبون إلا على البسائط، وإنهم لا يتغلبون على قطر إلا أصابه الخراب؛ وهو في هذا الشأن يستند إلى تخريب إفريقية على يد قبائل بني هلال وبني سليم، متناسيًا أن تلك القبائل هم قبائل من البدو والأعراب، ولم يتلقوا تربيةً ولا نظامًا، وإنهم فعلوا ذلك تنفيذاً لأوامر الخليفة الفاطمي في مصر الذي أراد أن ينتقم من أسرة بربرية كانت خاضعة له، ثم غدت خصمًا له، كما إنه يتناسبى موجات الفتح الإسلامي في فارس والشام ومصر والأندلس، وفي كافة جهات المغرب العربي، وأن تلك المناطق لم يتم تخريبها، كما أن وصايا الخلفاء والحكام لقادة الفتوحات كانت تحث على وجوب معاملة المغلوبين أحسن معاملة، وهو ماتناساه ابن خلدون [١] .

خامسًا : إن مسلك ابن خلدون في غمطه للعرب في إطار حديثه عن الأمصار والمدن في المغرب العربي إنما مرده إلى أثر الأمة الفارسية في تشويه العرب وتحقير آدابهم فيما يسمى بالشعوبية، فضلًا على الاستعانة بعناصر أخرى من غير العرب من الفرس والأتراك في ظل الدولة العباسية، وهو مما أعاد العرب إلى حياتهم البدوية الأولى، وابتعدوا عن أن يكون لهم تمثيل في شئون المسلمين السياسية، وأن جزءًا من حملة الرجل على العرب إنما مرده أيضًا إلى أن ابن خلدون عاش في ظل الأسر البربرية المجاهرة بعدائها للعرب، الذين خربوا إفريقية في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وفي الحقيقة هم قبائل من البدو والأعراب كما سبق القول[٢].

سادسًا : لعل أهم ما أفضى إليَّ به اجتهادي هنا هو أن ابن خلدون قد وقع في بعض الأخطاء التي عابها على بعض المؤرخين؛ فتشيع لمذهبه وفلسفته وما يؤمن به؛ وأغفل عن الهدف من الحضارة الإسلامية [٣] الوافدة إلى البيئة المغربية، وفي كل

---

(١) انظر: طه حسين : فلسفة ابن خلدون ، ص ١٠٢.

(٢) انظر: طه حسين : المرجع السابق ، ص ١٠١.

(٣) تعرض ابن خلدون في مقدمته إلى ذكر بعض الأخطاء التي يقع فيها المؤرخون، وذكر شيئًا من أسبابها، ولعل من أهم أسباب الوقوع في الخطأ، وفيما قاله ابن خلدون ويفيد في رؤيتي هذه،=

بيئة جديد يمكن أن تحل بها، فتحولها إلى بيئة إسلامية (أو عربية إسلامية). وفي هذا ما يدفع إلى القول بأن العرب " شادوا وعمروا" أينما رحلوا، وأينما حلوا تنفيذاً لتوجيهات حضارتهم، وتنفيذاً للتكليف القرآني في قوله سبحانه وتعالى" هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها"[١] وفي ذلك ما يعني أيضًا أن ابن خلدون لم يكن محقًا في غمطه للعرب، وإنهم نجحوا في السواحل كما نجحوا في البسائط والدواخل، وإنهم ليسوا أهل سلب وانتهاب كما وصفهم، كما أن بعض المدن التي بُنيت على أيدى البربر كانت تعبر عن حسن استغلالهم لموارد البيئة، ومدى التفاعل معها باقتدار، بل وربما استفاد البربر من تجارب العرب الوافدين في البناء، فأصبحت البيئة المغربية نسيجًا عربيًّا إسلاميًّا خالصًا بفعل أثر الحضارة الإسلامية الذى تغافل عنه ابن خلدون عفا الله عنه .

وفي نهاية ملامح هذه الرؤية، يمكنني القول مجتهدًا بأن العرب كانوا ولا يزالون، وسيبقون – إن شاء الله تعالى – أصحاب رسالة دينية وثقافية وتعليمية ترتبط بالإسلام ورسالته وحضارته، وإنهم سيبقون بخير ما داموا مدركين ملتزمين برسالتهم وأهميتها؛ فهم مادة الإسلام، وعلى أرضهم ولد الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى أكنافهم قامت الدعوة الإسلامية، وحملوا لواء الفتوحات الإسلامية في كافة بقاع العالم شرقًا وغربًا، وجاء في وصية "سيدنا عمر بن الخطاب – رضى الله تعالى عنه – عن

=ما قاله عن التشيع لرأى أو مذهب، والغفلة عن الهدف والمقصد من الخبر، وغير ذلك كثير مما أوردته دراسات متخصصة .

انظر: ابن خلدون: مقدمة، ص ٩، ١٠؛ تاريخ ابن خلدون، مج ١، ص ٩، ١٠؛ أحمد صبحى منصور: مقدمة ابن خلدون، ص ٧٤؛ وثمة آراء تشير إلى أن ابن خلدون قد وقع في حملة أخطاء أنكرها على غيره من المؤرخين، وكان الأولى به أن يلتزم بما دعا غيره إلى الالتزام به، لكنه لم يفعل هذا . انظر . فوزية صعب المهيدب: الدولة الأموية وموقف ابن خلدون مها، ط ١، مكتبة دار المعالم الثقافية، الإحساء، السعودية، ٢٠٠٥م، ص ٦٤؛ وليس هدفي في إطار رؤيتي هذه إحصاء أخطاء ابن خلدون، كما أنى لست أول من نبه من الباحثين على الأخطاء المذكورة ولن أكون آخرهم.

(١) القرآن الكريم ، سورة هود ، من الآية الكريمة رقم ٦١.

العرب أنهم مادة الإسلام كما سبق القول، وأوصى بهم خيرًا [١]، ولا أعني بذلك أن العرب هم سادة الإسلام، بل هم سدنته طبقًا لما قاله به الأستاذ الدكتور/ جمال حمدان في وصفه للعرب في إحدى مؤلفاته [٢]

كما آمل ألا يكون قد أصابني الشطط في إعمال العقل تجاه نقد فلسفة ابن خلدون في حديثه عن الأمصار والمدن ؛ ويكفي الرجل أن منحني شرف الحديث عنه، وإنه إذا كان صادقًا في شرح بعض جوانب التاريخ الإسلامي، فإنه يكون قاصرًا على أن يشرح كل ذلك التاريخ، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يفخر بأنه ظفر بوسيلة يشرح فيها كل التاريخ! على حد قول ما جاء في إحدى الدراسات الرائدة عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية [٣]

وسيبقى ابن خلدون – رحمه الله – علامه بارزة في تراثنا الفكري والإسلامي، سواء اتفقنا معه أو اختلفنا، ويكفي تقدير الغرب له، ومدى ما أسهم به في إطار الفكر والعلم[٤] ... فقط اسأل الله – سبحانه وتعالى– أن يعلمنا بما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وعليه – سبحانه وتعالى – قصد السبيل .

---

(١) انظر: ابن الجوزي: أبو الفرج عبدالرحمن بن على ت " ٥٩٧هـ/١٢٠٠م" مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ط ١ دار المنار ٢٠٠٠م ص ١٦٩، ١٧٠ في ذكر وصايا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وانظر في نفس المعنى. إبراهيم العدوى: تاريخ العالم الإسلامي، ج ١، عصر البناء والانطلاق، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة ١٩٨٢ ص ١١.

(٢) انظر: جمال حمدان: العالم الإسلامي المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ضمن مكتبة الأسرة ١٩٩٧ ، ص ٨٨.

(٣) طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، ص ١٠٤.

(٤) تكفى الإشارة هنا إلى ما قال به الأستاذ عنان عن تراث ابن خلدون ، وأن تراثه مازال يتبوأ مكانة عالية بين التراث العالمي ، وأن الغرب قد عكف على دراسة آثاره ودراسة كثير من البحوث النقدية عنه ، كما أن هناك من يشير إلى انتشار فلسفته ، أو ما اسماه بالخلدونية ، بين أوساط الأنتجلنسيا المغربية فى الستينات والسبعينات من القرن العشرين ، وبين فريق من المفكرين الأوربيين المتهمين بالعالم العربي .
انظر: عنان : ابن خلدون ،حياته وتراثه ، ص ٣ ؛ عبدالقادر جغلول : الإشكاليات التاريخية ... ، ص ٥ ؛ بيد أنني لا أوافق أ عنان – رحمه الله – فيما ذهب اليه في مقدمة كتابه السابق الذكر ، ص ٣ بما يشير إلى أن ابن خلدون يغمط حقه في الشرق ، فسيبقى ابن خلدون – رحمه الله تعالى – علامة بارزة في تاريخ الفكر الإسلامي .

مصادر ومراجع الدراسة

أولًا : القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف :

- القرآن الكريم، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف . المدينة المنورة ١٤١٦هـ
- الإمام البخاري: شيخ الحفاظ محمد بن إسماعيل ت " ٢٥٦هـ/٨٧٠م"
- صحيح البخاري، تحقيق : طه عبد الرؤف سعد، دار الاعتصام، القاهرة دون تاريخ

ثانيًا : كتابات ابن خلدون :-

- **ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد ت " ٨٠٨هـ/١٤٠٥م"**
- **مقدمة ابن خلدون، ط ١١ دار القلم بيروت ١٩٩٢**
- **تاريخ** ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مجلدات ١، ٦، ٧، ط ١ دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٣م

ثالثًا : المصادر التاريخية : -

ابن الأبار: أبو عبدالله محمد ت " ٦٥٨هـ/١٢٦٠م"

- كتاب الحلة السيراء، ج٢، تحقيق: حسين مؤنس، ط ٢ دار المعارف ١٩٨٥

البكري: أبو عبدالله بن عبدالعزيز ت "٤٨٧هـ/١٠٩٧م"

- كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، باريس ١٩٦٥ .

التجاني : أبو محمد عبدالله بن محمد بن أحمد : توفي بعد سنة " ٧١٧هـ/١٣١٧م"

- رحلة التجاني، تقديم وتحقيق : حسن حسني عبدالوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس ١٩٨١ .

الجزنائي: أبو الحسن على بن أهل ق "٨هـ/١٤م"

- جنى زهرة الأسى في بناء مدينة فاس، تحقيق: عبدالوهاب بن منصور، الرباط ١٩٦٧

ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن على ت " ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م

- مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ط١، دار المنار ٢٠٠٠

ابن حماد الصنهاجي : محمد بن على ت " ٦٢٨هـ/١٢٣٠ م "

- أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم، نشر: فاندرهايدن، باريس– الجزائر ١٩٢٧.

ابن حوقل: أبو القاسم محمد بن على ت " ٣٢٢هـ/٩٣٤م "

- كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت دون تاريخ
الحميري: أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم ت " ٨٦٦هـ/١٤٦١م"
- كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط٢ مؤسسة ناصر للثقافة ١٩٨٠
الخطيب : لسان الدين أبي عبدالله محمد ت " ٧٧٦هـ/١٣٧٤م "
- تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، ق ٣ من كتاب أعمال الأعلام . تحقيق : أحمد مختار العبادي، إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء ١٩٦٠
الدباغ وابن ناجى : أبو زيد عبدالرحمن ت " ٦٩٦هـ/١٢٩٦م " أبو القاسم بن عيسى ت " ٨٣٩ هـ /١٤٣٥ م "
- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، ج١، تصحيح وتحقيق : إبراهيم شبوح، ط٢ مكتبة الخانجي ١٩٦٨
الرقيق القيرواني : أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم توفي بعد سنة "٤٢٥هـ/١٠٣٣م
- تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: عبدالله العلى الزيدان وعز الدين موسى ط ١ دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٠م
ابن أبي زرع " أبو الحسن على بن عبدالله ت " ٧٢٦هـ/١٢٢٥م"
- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٣ .
الشريف الإدريسي: أبو عبدالله محمد بن عبدالله ت " ٥٦٠هـ/١٦١٤م"
- وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر وتصحيح، هنري بيريس الجزائر ١٩٥٧م
ابن الصغير : مؤرخ الدولة الرستمية عاصر ق " ٣هـ/٩م"
- أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق : محمد ناصر، وإبراهيم بجاز، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٦م
عبدالواحد المراكشي: محيى الدين أبى محمد ت " ٦٤٧هـ/١٢٤٩م "
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٣
ابن عذارى المراكشي : عاش أوائل ق "٨هـ/١٤م"

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج١، تحقيق ومراجعة : ج . س كولان وإليفي بروفنسال، ط٣، الدار العربية للكتاب، دار الثقافة ١٩٨٣
- البيان المغرب ...، ج٤، تحقيق ومراجعة : إحسان عباس، ط٣ الدار العربية للكتاب، دون تاريخ

العزيزي : أبو على منصور كاتب جوذر خادم المهدي توفي أيام الحاكم بأمر الله .

- سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين، تقديم وتحقيق : د . محمد كامل حسين، د. محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي القاهرة ١٩٥٤م كاتب مراكشي : من كُتَّاب ق " ٦هـ/١٢م"
- كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق : سعد زغلول عبدالحميد، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) بغداد – دار النشر المغربية ١٩٨٥

ليون الإفريقي: الحسن محمد الوزان الفاسي توفي بعد عام " ٩٥٧هـ/١٥٥٠م"

- وصف أفريقيا، ج٢، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط٢ دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣

مارمول كرنجال: من رحالة القرن "١٠هـ/١٦م"

- أفريقيا، ج٢، ترجمه عن الفرنسية : محمد حجي وآخرون، دار نشر المعرفة الرباط ١٩٨٨ – ١٩٨٩

المالكي: أبو بكر عبدالله بن محمد ت بعد سنة "٤٦٠هـ/١٠٦٧م"

- كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ...، تحقيق : بشير البكوش، مراجعة : محمد العروسي المطوي، ج١، ط ٢ دار الغرب الإسلامي، بيروت١٩٥٤م.

ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري " ٧١١هـ / ١٣١١ م "

- لسان العرب، مجلدات ٣، ٤، ٥، تحقيق : عبدالله العلى الكبير وآخرين، دار المعارف دون تاريخ

ياقوت الحموي : شهاب الدين أبي عبدالله ت "٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م"

- معجم البلدان، مجلدات ١، ٢، ٣، ٤، ٥، دار صادر بيروت دون تاريخ .

اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب ت " ٢٨٤ هـ /٨٩٧ م "

- وصف أفريقيا الشمالية، مأخوذة من كتاب البلدان، نشر وتصحيح : هترى بيريس، الجزائر ١٩٦٠.

رابعًا : المراجـــع العربيـــة :-

د. إبراهيم العدوي

- تاريخ العالم الإسلامي، ج١، عصر البناء والانطلاق، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة ١٩٨٢ .

د. أحمد إبراهيم الشعراوي

- دور العرب في بلاد المغرب والأندلس، ط ١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٥ م

د . أحمد صبحى منصور

- مقدمة ابن خلدون، دراسة أصولية تاريخية، دار الأمين، القاهرة ٢٠٠٣ م

د . أحمد مختار العبادي

- الصقالبة في إسبانيا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٥٣ .

اسماعيل العربي

- عواصم بني زيزي، ط١ دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٤

د . جمال حمدان

- العالم الإسلامي المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧

الحبيب الحنجاني

- القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، الدار التونسية للنشر ١٩٦٨

د . حسين مؤنس :

- فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية دون تاريخ .
- تاريخ المغرب وحضارته، المجلد الأول / الجزء الأول (١/١) ط ١ العصر الحديث للنشر والتوزيع بيروت ١٩٩٢ م
- معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط٢ دار الرشاد ١٩٩٧

د . سعد زغلول عبدالحميد :

- تاريخ المغرب العربي، ج١، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٩٥
- تاريخ المغرب العربي، ج ٢، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٩
- تاريخ المغرب العربي، ج ٣، منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٩٠

د. السيد عبدالعزيز سالم
- تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٨٢
د. طه حسين
- فلسفة ابن خلدون الاجتماعية، تحليل ونقد، ترجمه عن الفرنسية : محمد عبدالله عنان، ط ١ مطبعة الاعتماد القاهرة ١٩٢٥ م
د. عادل يحيى عبدالمنعم
- النقد الاجتماعي عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين " ق ٣ –٩ هـ/٩ –١٥م" الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٨ م
- العلم والتعليم في المغرب العربي من الفتح إلى نهاية دولة الموحدين، " ٢١ – ٦٦٨هـ/٦٤١ – ١٢٦٩م" الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٢١م
- انتشار الإسلام والثقافة العربية في إفريقية من خلال ما كتبه أبو بكر عبدالله بن محمد المالكي ... في كتابه رياض النفوس ...، المجلة التاريخية المصرية، مج٥٢، القاهرة ٢٠١٨ م
د . عبدالحليم عويس
- دولة بني حماد، ط٢ دار الصحوة، الوفاء ١٩٩١ م
د . عبدالرحمن بشير
- اليهود في المغرب الإسلامي وإسبانيا المسيحية، ط ١ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠١٤م
د. عبدالقادر جغلول
- الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماعي السياسي عند ابن خلدون، ط ٤ دار الحداثة بيروت ١٩٨٧
د. عفيفي محمود ابراهيم
- الدلالات التاريخية للأساطير الخاصة باختطاط الحواضر المغربية في عصر الدويلات المستقلة " أنموذج فاس " مجلة التاريخ والمستقبل آداب المنيا عدد يناير ٢٠٠٠

د. فوزية صعب المهيدب
- الدولة الأموية وموقف ابن خلدون منها، ط١ مكتبة دار المعالم الثقافية، الأحساء، السعودية ٢٠٠٥م

د. محمد عبدالله عنان :
- دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول / القسم الأول، ط ٣ مكتبة الخانجي ١٩٨٨
- ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، مؤسسة مختار، القاهرة ١٩٩١

د. محمد العروسي المطوي
- سيرة القيروان ورسالتها الدينية والثقافية في المغرب الإسلامي، الدار العربية للكتاب (ليبيا – تونس) ١٩٨١ .

د . محمد عيسى الحريري
- الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس (١٦٠ –١٩٦ هـ) ط٣ دار القلم، الكويت ١٩٨٧ .

د. محمد كمال شبانه
- الدويلات الإسلامية في المغرب، دراسة تاريخية حضارية، القاهرة، دون تاريخ .

د . محمد محمد زيتون
- القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، ط ١ دار المنار، القاهرة ١٩٨٨ .

محمود المنتصر الكتاني
- فاس عاصمة الأدراسة ورسائل أخرى، ط٢ بيروت ١٩٧٢

د . محمود إسماعيل
- مغربيات، دراسات جديدة، مطبعة فضالة، المحمدية المغرب ١٩٧٧

خامسًا : المراجع المترجمة، أو المُعربة:-

- روجى لوطورنو : فاس قبل الحماية، ج١، ترجمة محمد حجى ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ١٩٩٢.
- وليام سبنسر : المنجزات الإسلامية في تخطيط المدن من الوجهة التاريخية، ضمن أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، ج١، جامعة حلب ١٩٧٧ .

سادسًا : المراجع الأجنبية والمواقع الإلكترونية :

BLACHERE, R :

- FES CHEZ LES GEOGRAPHES ARABES DU MOYEN-AGE., HESPERIS., TOME XVIII., 1434 PP 41- 48

GEORGES MARCAIS:

-La Berberie Musulmane Et L'orient Au Moyen Age., par is 1946 .

ZBISS, S. MOSTFA:

-Mahdia Et Sabra - Mansouriya ., Journal Asiatique., Tom CCXLIV., Année 1956.

المواقع الإلكترونية :

Islamon Line net /Archives

- مقاييس وأوزان أهل زمان

التأثيرات المشرقية على فنون العمارة الأندلسية
(مسجد باب المردوم انموذجاً)

د. أحمد السيد حسين

مدرس منتدب بكلية الآداب جامعة دمياط

الملخص:

مثلت المساجد فى بلاد الاندلس جزءًا من أجزاء الفن المعماري في بلاد الأندلس فكان المسلمون حريصين على أن يبنوا القصور والقلاع والمدارس، وأن يجعلوا المساجد دعامة أولي لنشأة تلك المباني التي بنوها، فقد كانت رسالة المسجد رسالة مهمة في تلك الحصون والقلاع، ففيها تدار الاجتماعات السياسية والعسكرية

اهتمام الدولة الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة والأموية بالعلوم والمدنية كما اهتمت بالنواحي الدينية فكانت الحضارة الإسلامية حضارة تمزج بين العقل والروح، فامتازت عن كثير من الحضارات السابقة. فالإسلام دينٌ عالمي يحض على طلب العلم وعمارة الأرض لتنهض أممه وشعوبه.

حيث تنوعت مجالات الفنون والعلوم والعمارة طالما لا تخرج عن نطاق القواعد الإسلامية؛ لأن الحرية الفكرية كانت مقبولة تحت ظلال الإسلام، وامتدت هذه الحضارة القائمة بعدما أصبح لها مصارفها وروافدها لتشع على بلاد الغرب وطرقت أبوابه، وهذه البوابة تبرز إسهامات المسلمين في مجالات الحياة الإنسانية والاجتماعية والبيئية، خلال تاريخهم الطويل، وعصورهم المتلاحقة.

Abstract:

Mosques in Andalusia represented part of the parts of architecture in Andalusia, so Muslims were keen to build palaces, castles and schools, and to make mosques a primary pillar for the emergence of those buildings that they built. The mosque's message was an important message in those forts and castles, in which political and military meetings are conducted

The interest of the Islamic state in the era of the Rightly-Guided Caliphate and the Umayyad Caliphate in science and civil as it was concerned with religious aspects, so the Islamic civilization was a civilization that mixed between the mind and the spirit, so it was distinguished from many previous civilizations. Islam is a global religion that urges seeking knowledge and building the earth so that its nations and peoples may rise.

Where the fields of arts, sciences and architecture varied, as long as they did not go outside the scope of Islamic rules; Because intellectual freedom was accepted under the shadows of Islam, and this existing civilization expanded after it had its banks and tributaries to shine on the countries of the West and knocked on its doors, and this gate highlights the contributions of Muslims in the fields of human, social and environmental life, during their long history and their successive eras.

لا يعتبر الحديث عن الفن المعماري الأندلسي الذى تأثر بالفن المشرقي ترفاً فكرياً، ولا ثقافياً، ولكن ضرورة بحثية، نظراً لأن مثل هذه الموضوعات التي تؤكد على الهوية الإسلامية، وعلى التكامل بين المشرق والمغرب في التاريخ، وعلى عمق الشخصية الإسلامية، وتعدد روافدها الثقافية.

فإذا كانت الدراسات التاريخية قد تناولت دور المشرق في نشر الحضارة الإسلامية ودوره في العلاقات الدولية وأفسحت المجال لدراسة أعلام الفكر والدين، فإن ميادين الحضارة المادية المشرقية المتمثلة في العمارة، والفنون والتي عكست الجانب الفكري والثقافي والعقائدي.(١)

شكلت سمةً بارزةً في التطور الحضاري لبلاد الأندلس مستفيدة من موقعها الجغرافي بكونها مجالاً للتفاعل الحضاري، ولمرور العديد من التيارات الثقافية على مر العصور، فالأندلس قد تأثر بعمق هذه العلاقة، وأصبحت الفنون المعمارية للمشرق الإسلامي سمة فعليه في أسوار وأبواب هذه المدن وفي مساجدها التي تمثل تراث ذلك الفن الأندلسي منذ عصور الفتح الإسلامي الأولى (٢)

حتى صار اسم الحضارة الأندلسية، يذكر مقروناً بحضارة المشرق الإسلامي في كثير من الأحيان، ولأن الاشكال المطروحة في التصميمات المعمارية أبرزت التأثير المشرقي في الأندلس في موقعه الصحيح، بعيدا عن كل أشكال الغلو والمبالغة في تقديره.(٣)

وثمة بعض الإشكاليات التي اردنا أن نبحث عن توضيح الإجابات الخاصة بها من أجل معالجة ما تهدف إلية هذه الورقة البحثية .. منها:

---

(١) إسماعيل عثمان عثمان: تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، ١٩٩٣، ج، ص ٤٢.

(٢) جورج مارسيه: الفن الإسلامي، ترجمة عفيف بهنسي منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٦٨، ص ١٣٧.

(٣) عنان: الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٩٧، ص١٢١.

اولاً : ما أثر الهجرات المشرقية على العمارة الأندلسية؟
ثانياً : كيف تعددت فنون العمارة المشرقية في الأندلس؟
ثالثاً: كيف أظهرت المساجد الأندلسية فن العمارة المشرقية (مسجد المردود نموذجا) ؟

اذا نظرنا اولاً إلى الهجرة فهي عند علماء اللغة : بالكسر والضم، وهى اسم من هَجَرَ يهجر هجراً وهجراناُ، وبعد النظر في المعاني المختفة لمشتقاتها، وجدت أن الهجرة تأتى فى اللغة بعدة معان منها.

اولاً: المفارقة والترك، والتقاطع، والهجر ضد الوصل، وتكون مفارقة الإنسان غيرهُ إما بالبدن أو اللسان أو القلب، وترك ما يلزم لقولة تعالى (واهجروهن في المضاجع)[١] وسمي المهاجرون مع النبي لتركهم ديارهم والإلحاق به في المدينة[٢]

ثانيًا: الخروج والسير والانتقال وهى الخروج من ارض إلى ارض أخرى، لذا يقال لمن خرج مهاجراً للحبشة أو المدينة ذو الهجرتين، وأصل المهاجرة عند العرب خروج البدوي من باديته إلى المدن وانتقال الأفراد من مكان إلى اخر سعياً وراء الرزق[٣]

ثالثًا: الهذي والخلط: هجر المريض في كلامه إذا هذى وخلط [٤]

عرف العلماء اسم الهجرة اصطلاحاً : حيثُ تطلق كلمة الهجرة ويراد بها مضامين مختلفة، ويرجع سبب ذلك لاختلاف العلم الذى تدرس فيه أو

---

(١) (النساء) آية: ٣٤ – ٣٥.

(٢) الرازي: مختار الصحاح، ت محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٥، ج١، ص٧٠٥؛ ابن المنظور: لسان العرب، دار الصادر، بيروت، ٢٠١٠، ط١، ج٥، ص٢٥٠ .

(٣) الجوهري: الصحاح في اللغة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩، ط١، ج٢، ص٤١٦؛ ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ت عبد السلام محمد هارون، اتحاد الكتاب العرب، القاهرة، ٢٠٠٢، ج٦، ص٣٤.

(٤) الجوهري: مصدر سابق، ج٢، ص٤١٦؛ فيروز اباد: القاموس المحيط، دار الحديث القاهرة، ٢٠١٣، ج١، ص٦٣٧.

المعيار الذى عُرفت بناءً عليه في نفس العلم فالهجرة في علم السكان لها مفهوم وفي المصطلح الشرعي لها مفهوم اخر[١]

حيثُ تُحدُث الهجرات البشرية عندما تتحرَّك مجموعة أو أكثر من الناس من منطقة في العالم إلى أخرى، لأسباب مشتركة. والهجرات نوعان، إما اختيارية وإما اضطرارية، وتكون ضمن البلد الواحد من منطقة إلى أخرى، أو من الأرياف إلى المدن، أو ضمن القارة من بلدٍ إلى آخر، أو من قارة إلى أخرى[٢] .وللهجرة تأثير كبير على الإنسان والحضارة البشرية والكرة الأرضية. وبإلقاء الضوء على الهجرات الكبرى يصبح بإمكاننا أن نفهم بشكل أفضل مما يتيح لنا الوصول إلى أثر هذه النتائج على المجتمعات العمرانية وخاصة في بلاد الأندلس.[٣]

وقد مثلت هجرة المسلمين من أهل المشرق إلى بلاد الأندلس[٤] مركزاً للإشعاع الثقافي والحضاري، فاجتذبت العلماء والكتّاب والشعراء والفنانين والصناع المهرة. وقد اهتم الخلفاء والأمراء بنشر المدارس والجامعات (وأشهرها جامعة قرطبة)[٥]

---

(١) حماد شقفه وأخرون: دراسات في الجغرافية البشرية، مكتبة اليازجي، غزة، ٢٠٠٨، ص١١٥.

(٢) الهجرات الكبرى في التاريخ: مجلة القافلة، شركة أرامكو، السعودية، ٢٠١٦، ج٦٥، ص ص ٨١-٨٨.

(٣) الهجرات الكبرى في التاريخ: مجلة القافلة، ص ص٧٦-٧٨.

(٤) الأندلس: بلاد جَنوبِ إسبانيا، وهو الاسم الذِي أَطلقهُ العرب عَلَيْها حِينَ فَتَحوها ٩٢هـ/٧١١م، واسْتَقروا فِيها إلى غايةِ سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م أَهَم مدنها غرْناطة وإِشْبيلية وَقرْطبَة عَرَفَتِ الحضارة العرَبِية أَوجها في بلادِ الأندلسِ. انظر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت،١٩٨٤م، ج٤، ص١٩٥، ج٦، ص٢٧٩؛ القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ج٥، ص٢١٣؛ حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة الزهراء للإعلام العربي، ١ط،١٩٨٧، ص٧٧.

(٥) جامعة قرطبة : مثلت قرطبة قاطره العالم في العلم وقتها لما وجد بها من جامعة علمية من أشهر جامعات العالم وأكبر مراكزها العلمية المتواجدة في أوروبا، حيث كانت تدرس فيها العلوم المختلفة، وتخرج منها العديد من العلماء والأطباء أمثال الزهراوي والغافقي أحد مؤسسي طب العيون، وابن طفيل الفيلسوف والعالم العربي .انظر. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق =

وكان لوجود المسلمين في الأندلس أثر كبير خاصة على أخلاق الشعوب النصرانية فقد علموهم الكثير والكثير من أخلاق المسلمين وخاصة صفات التعامل المختلفة، مثل التسامح الذي هو أثمن صفات الأنسان، حيث بلغ حلم مسلمين الأندلس أن كانوا يسمحون لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية كمؤتمر أشبيليه(١) الذي عقد سنة١٦٦هـ/٧٨٢م، ومؤتمر قرطبة الذي عقد سنة٢٣٨هـ/٨٥٢م(٢)، وتعد كنائس النصارى الكثيرة التي بنوها أيام الحكم العربي من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم، فغدا اليهود والنصارى مساوين للمسلمين قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة(٣)

وكان الأثر الأكبر للهجرة واضحاً على المجتمع الأندلسي من خلال تطبيق رسالتهم الإنسانية في الحضارة فاستطاعوا في أقل من قرن أن يحيون الأراضي الميته، ويعمرون ما خرب من القرى والمدن، ويوثقوا العلاقات التجارية بالشعوب الأخرى، وشرعوا بدراسة العلوم المختلفة، وترجمة الكتب اليونانية واللاتينية، وإنشاء الجامعات التي ظلت وحدها ملجأ للثقافة في أوربا زمناً طويلا كما أخذت حضارة العرب تنهض في الأندلس منذ ارتقاء عبدالرحمن الأول العرش. (٤)

=أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ج٥، ص٢٣٥؛ جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ٢٠١٢، ج١، ص ٩٣.

(١) اشبيلية: هي قاعدة بلاد الأندلس وحاضرتها، ومدينة بها منارة في جامعها بناها يعقوب المنصور .انظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان، ج١، ص١٩٥.

(٢) مؤتمر قرطبة: عقده الأمير عبد الرحمن الثاني في قرطبة ضم جميع أساقفة الأندلس برئاسة مطران أشبيلية ريكا فريدو في عام ٢٣٧هـ/٨٥٢م. انظر: محمد بشير راضي: التفاعل الحضاري بين أهل الأندلس المسلمين والإسبان النصارى في القرون الوسطى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٥، ص ٨٨.

(٣) غوستان لوبون: حضارة العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر،٢٠١٤، ط١، ص٢٧٧.

(٤) عبد الرحمن الأول : ينتسب عبد الرحمن الناصر لدين الله إلى بني أمية التي أسست الخلافة الأموية التي حكمت الأقطار الإسلامية بين عامي ٤١هـ-١٣٢هـ/٦٦١- ٧٤٩م، حين=

أي منذ انفصالها عن الشرق سياسياً بإعلان إمارة قرطبة سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م[١]

ثانياً: كيف تعددت فنون العمارة المشرقية في الأندلس؟

في سنة (٩١هـ/٧٠٩م) أرسل موسى بن نصير[٢] عاملًا على إفريقيا فعزم على فتح الأندلس، وأرسل طارق بن زياد البربري[٣] الأصل لمباشرة الفتح أول الأمر، فعبر طارق ابن زياد البحر بقصد فتح الأندلس.[٤]

وقد كان الفاتحون من قبائل العرب المختلفة، فمنهم العدنانيون من هاشميين وأمويين، ومنهم اليمنيون كقبيلة كهلان والأزد، وانضم إلى هؤلاء في الفتح مصريون

=أسقطها العباسيون واستطاع أحد أجداد الناصر وهو عبد الرحمن بن معاوية أن يفر إلى الأندلس مؤسساً دولة جديدة مستقلة عن خلافة العباسيين في المشرق، فنسبه هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية. انظر: مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ت براهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٩، ج١، ص ص٩٩–١٠٠؛ ابن عذاري: البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٠، ص ص ٤٤–٤٦؛ عنان : دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهره،١٩٩٧، ج١، ص ٣٧٣.

(١) غوستان لوبون: حضارة العرب، ص ص ٢٧٠ – ٢٧٢.

(٢) موسى بن نصير: أبو عبد الرحمن موسى بن نصير(١٩– ٩٧هـ/٦٤٠ –٧١٦م) قائد عسكري عربي في عصر الدولة الأموية، شارك موسى في فتح قبرص في عهد الخليفة معاوية ابن أبي سفيان، ثم أصبح واليًا على إفريقية من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك، واستطاع ببراعة عسكرية أن ينهي نزعات البربر المتوالية للخروج على حكم الأمويين. انظر. عنان : مرجع سابق،ج١، ص٥٩.

(٣) طارق بن زياد قائد عسكري مسلم، قاد الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية خلال الفترة الممتدة بين عاميّ ٧١١ –٧١٨م بأمر من موسى بن نصير والي أفريقية في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك يُنسب إلى طارق بن زياد إنهاء حكم القوط الغربيين لإسبانيا. انظر الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢، ج٧، ص٣٣٠.

(٤) عبد الرحمن على الحجي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٨١، ط٢، ص٢٣.

وشاميون وعراقيون وجمع كبير من البربر. وقد امتزج هؤلاء جميعًا ببعض أهل البلاد من قوط وإسبانيين وغيرهم إما بالمصادفة أو بالمصاهرة. (١)

وقد ساد المجتمع الأندلسي عناصر أربعة:

- (١) العرب: وكانوا يحسون إحساسًا قويًّا بأرستقراطي تهم لغلبتهم على الإسبانيين والبربر وإدخالهم في الإسلام، وبلغتهم التي تفوق غيرها.
- (٢) البربر: وهم يشاركون العرب في البداوة والإسلام والعصبية القبلية والشجاعة؛ ولذلك وجد منهم العرب الأمرَّين عند فتحهم للمغرب.
- (٣) الإسبان: وهم مسيحيون كاثوليك، يرون أن البربر والعرب دخلاء عليهم وأنهم أحق بملك بلادهم.
- (٤) المسلمون المولَّدون من تزاوج العرب بالبربر، أو العرب بالإسبانيات والصقالبة، وكان لذلك سبب كبير، وهو أن الجيش الفاتح كان من الرجال النازحين من الشرق الذين قطعوا مسافات بعيدة حتى وصلوا إلى الأندلس، فكان طبيعيًّا ألا يرحل معهم عدد كبير من النساء، فاضطرتهم الحاجة إلى أن يتزوَّجوا من الإسبانيات أو من البربر ويستولدوهن. وقد خرج من هذا الازدواج بين عربي وبربرية، أو عربي وإسبانية جيل جديد مولَّد، يشبه ما كان في الشرق من تزاوج بين عربي وفارسية، وقد عرف المولدِون من النساء الإسبانيات بالذكاء والشجاعة والجمال، وكان لهم في تاريخ الأندلس تاريخ طويل.(٢)
- وكان لهذا المزيج البشرى من سكان الأندلس أثر كبير في تميز العمارة الإسلامية وتنوع اشكالها، واهتمامها بالنواحي الحياتية المختلفة، حيث ظهرت المباني الدينية من مساجد ومدارس وتكايا وزوايا ودور الصوفية، وأبنية مدنية

(١) احمد امين: ظهر الإسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت، ٢٠١٦، ج٣، ص٥.

(٢) احمد امين: المرجع السابق، ج٣، ص ص٥-٧.

كالدور والقصور، وأبنية عامة كالبيمارستانات والخانات (محطات استراحة المسافرين)، والحمامات والأسواق.(١)

كما ظهر الاهتمام بالحدائق والسبُل المائية على صعيد تخطيط المدن إضافة إلى العمارة العسكرية، وبُنيت القلاع والتحصينات والأربطة (قلاع دفاعية تقام على امتداد الشريط الساحلي).(٢)

لم يقتصر غنى العمارة الإسلامية على تنوع ماهيات الأبنية وموضوعاتها؛ بل تميزت بغنى مفرداتها وعناصرها المعمارية، فمن هذه العناصر القباب domes/cupolas والقبوات والعقود vaults بمختلف أشكالها (أنصاف الدائرية penannulars، والمدببة pointed arches، والحدوية horseshoe arches، والمفصصة multifoil ...)، والأقواس arches والمآذن minarets والمحاريب niches والأروقة porticos، والعناصر الانتقالية للقباب من مثلثات كروية pendentives ومقرنصات stalactites، والفراغات الداخلية المكشوفة، والعناصر المائية fountains فيها،(٣) والسُبل المائية الموزعة في أحياء المدن، والفسقيات (البحرات الداخلية)، والأواوين iwans (غرف جلوس ثلاثية الجدران تطل على الفناء)، وعناصر الزخرفة ornaments المختلفة. وبرز شأن الكتابة inscription العربية عنصرًا زخرفيّا في مختلف الأبنية ورمزاً من رموز الديانة الإسلامية، وهي لغة القرآن الكريم.(٤)

وقد ابتكر المسلمون أنواعاً من الآلات الميكانيكية لرفع الثقل الكبير بالجهد اليسير، أولجره منها ولو كانت الحجارة كبيرة ترفع إلى أعلى المبنى بحبال معلقة على

(١) عفيف بهنسي: خطاب الأصالة في الفن والعمارة، دار الشرق، دمشق، ٢٠٠٤، ص ٢١٣.

(٢) عمرو إسماعيل محمد: تخطيط المدن في العمارة الإسلامية فكر وفنون، وكالة الصحافة العربية، مصر، ٢٠١٩، ص ص١٢١-١٢٣.

(٣) هبة الحداد: مدخل إلى تطور فن عمارة النوافذ في تاريخ العمارة الإسلامية، مركز رويال اكلس للدراسات والابحاث، الكويت،٢٠١٥، ص ص ٢٣ -٢٥.

(٤) عفيف بهنسي: مرجع سابق، ص١١٥؛ جورج مارسيه، الفن الإسلامي، ص١٧٨.

مجموعة من البكرات بحيث يجرها ثور واحد، فيرفعها بسهولة إلى أعلى واستفاد المعماريون الأندلسيون من علم الكيمياء الذي تفوق فيه.(١)

المسلمون وطوروه، فصنعوا أنواعاً من الدهانات والأصباغ التي تتميز بالثبات والبريق، ومن المعروف أن العرب أول من استعمل الزجاج الكريستال الذي ابتكره العالم الأندلسي عباس بن فرناس سنة (٢٧٤هـ/٨٨٧م)(٢)، كما استعملوا في النوافذ الزجاج الملون والمعشق في أشكال هندسية في غاية من الحسن والجمال.(٣)

وأما المساجد فقد كانت جزءًا من أجزاء الفن المعماري في بلاد الأندلس فكان المسلمون حريصين على أن يبنوا القصور والقلاع والمدارس، وأن يجعلوا المساجد دعامة أولي لنشأة تلك المباني التي بنوها، فقد كانت رسالة المسجد رسالة مهمة في تلك الحصون والقلاع، ففيها تدار الاجتماعات السياسية والعسكرية ، وكان فيها من المرافق والملحقات ما كان مهماً لوجوده في هذه المباني الشاهقة.(٤)

وتعتبر المآذن من أهم المعالم الأندلسية الإسلامية، فهي تبدو وكأنها أذرع ممتدة بالدعاء والضراعة نحو السماء، فالمآذن تختلف في أشكالها وأنواعها حسب العصور

---

(١) ليفي بروفنسال: الأندلس، دائرة المعارف الإسلامية (كتاب الشعب) النسخة العربية، إعداد وتحرير إبراهيم زكي خورشيد وآخرون، القاهرة، مطبعة الشعب، ١٩٣٣م، ج٥، ص٣١٠؛ كمال السيد أبو مصطفي: تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين الموحدين، الإسكندرية: مطبعه الإشعاع، د/ت، ص١٠٩.

(٢) عباس بن فرناس: أبو القاسِم عبَاس بن فرناس بن وِرداس التاكِرني هو عالم مخترع موسوعي مسلم أندلسي ولد في رندة بالأندلس، في زمن الدولة الأموية في الأندلس، واشتهر بمحاولته الطيران انظر: سعيد المغربي الأندلسي: المغرب في حلى المغرب، ت شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٣ ،١٩٥٥، ج٢، ص١٣٢؛ عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج١، ص٥٠٥.

(٣) شريف عبد الرحمن جاه: لغز الماء في الاندلس، ترجمة زينب بنياية، هيئة أبو ظبى للسياحة والثقافة، الامارات، ط١، ٢٠١٤م، ص١٦٢.

(٤) المهدي رمضان البشير: فنون عمارة المساجد التاريخ والوظيفة، النقابة العامة لأعضاء هيئة التدريس الجامعي، ليبيا،٢٠١٥، ص ص ١٥–١٨.

والبلدان، فمنها المربع والمثمن والدائري، وكانت المآذن الأولى شبيهة بالمنارات الرومانية، وعندما أراد المعماريون المسلمون بناء مآذن أكثر ارتفاعاً ابتكروا المئذنة المتحورة التي تبدأ في القاعدة بأدوار مربعة، ثم تعلوها أدوار مثمنة، ثم علو الاسطوانة الدائرية.(١)

وكانت المآذن في بلاد الأندلس لها شيء من الخصوصية والجمال ، فكانت عالية البنيات واسعة من الداخل، بل كانت بعض المآذن كمئذنة جامع إشبيلية واسعة جداً من الداخل، فلا يوجد فيها سلالم إنما يوجد فيها طريق معبد يمكن للخيول والبغال والحمير أن تمر من خلاله لرفع ما يريد المسلمون رفعه إلى أعلى تلك المآذن.(٢)

وأما الأبراج الأندلسية فقد كانت تنقسم إلى قسمين ، أدنى مسمط وأعلى توجد فيه غرف يمكن أن يشغلها المدافعون، وفيها أماكن يمكن أن ترمى السهام من خلالها وكانت هذه الحصون والقلاع والأبراج ممتدة في الأراضي الأندلسية لتدل على ما كانت تشكله تلك الحصون والقلاع من حماية بالغة الأهمية للمدن الإسلامية، وكانت تشعل فيها النيران ليلاً ويوقد فيها الدخان نهاراً كعامل تنبيه للمسلمين من خطر محدق بهم. وقد جعل المرابطون في أسفل هذه الأبراج طرقاً متعرجة يمكن من خلالها أن يحاصروا العدو إذا دخلها، وكان يوضع فوق هذه الأبراج الزيت المغلي الذي يمكن من خلاله أن يصب على رأس العدو الذي يقف في الخارج وقد بنى المسلمون في الأندلس أكثر من (٤٠٠) قلعة لتكون شاهدة على التميز العسكري الذي عرف به المسلمون. (٣)

(١) المهدي رمضان البشير: فنون عمارة المساجد التاريخ والوظيفة ، ص١٢٣.
(٢) عنان: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانية والبرتغال، ص٤٥.
(٣) توفيق سلطان اليوزبكي: الحضارة العربيّة في الأندلس وأثرها في أوربا، مجلة آداب الرافدين، ٢٠٠٧، العدد ١٣، ص ص٩-٣٦.

ومن الطريف ما يذكر أن قلعة جابر إحدى القلاع الشهيرة الواقعة على حدود مدينة إشبيلية استخدمت أيضا كسجن يسجن فيه اصحاب التهم المختلفة، وهذا أحد الشعراء الذين سجنوا في هذا السجن يتغنى بسجنه، مبينا ما كانت عليه السجون من جمال حيث تقع بين الخضرة والماء ، فقال :

ألا يا سقى الرحمن قلعة جابر **** فكم لي فيها من ليال زواهر

محلي الذي ما زلت أشدو بذكره *** إذا ما شدا مغري بهند وساحر

فلله منها كل غصن وطائر ***** ولله فيها كل خد وناظر [١]

وقد كان للبعد الفكري أثر كبير في العمارة الإسلامية

حيث تزينت الأندلس بالمنشآت المعمارية ذات الشأن، وانقسم تاريخها إلى ثلاث مراحل معمارية، بدأت المرحلة الأولى بجامع قرطبة، الذي تم بناءه في القرن الثاني للهجرة/الثامن الميلادي، ويظهر ذلك باهتمام عبد الرحمن الداخل[٢]

بتنظيم قرطبة لتتلاءم مع مكانة الدولة وعظمتها، فجدد معانيها وشد مبانيها وحصُنها بالسور، وبنى قصر الإمارة، والمسجد الجامع ووسع فناءه، ثم بنى مدينة الرصافة وفقاً لفن العمارة الإسلامية[٣] في الشام سواءً في زخارفها المعمارية أو في بعض عناصر بنائها، وفي نظام عقودها، كما بنى قصر الرصافة[٤]

(١) عنان: مرجع سابق، ص٧١.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوطأ، مؤسسة الرسالة، بيروت،١٩٩٨، ط١، ص٢١١.

(٣) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ت إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨م، ج٢، ص١٥.

(٤) سيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧، ص٢٠٦.

احد مداخل مسجد قرطبة[١]

مئذنة مسجد قرطبة

(١) عبد العزيز الدولاتى: مسجد قرطبة وقصر الحمراء، دار الجنوب، تونس،١٩٧٧، ص١٤٣.

وقُيل أن قرطبة بوقتها كانت تحتوي على مئتي ألف قصر وستمائة مسجد وسبعمائة حمام، وكانت طرقها مرصوفة بالحجارة ومحفوفة بطوارين على الجانبين،(١) وكانت تُضاء في الليل حتى يقال إن المسافر كان يستطيع أن يسير على ضوء المصابيح وبين صفين من المباني مسافة عشرة أميال. (٢)

ولم يغفل الخلفاء والأمراء في بناء الجسور على الأنهار ومد قنوات مياه الشرب إلى المنازل والقصور والحمامات إضافة إلى الحدائق والمتنزهات التي تزينها برك الماء المتدفق. والحمامات إضافة إلى الحدائق والمتنزهات التي تزينها برك الماء المتدفق.(٣)

والمرحلة الثانية والتي تمثلت في منارة إشبيلية، التي أنشأها الموحدون في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر الميلادي. (٤)

حيث تمثل فيها فنون العمارة الإسلامية في شكل مئذنة مسجد إشبيلية الجامع فترة حكم المسلمين وقد بناها الخليفة المنصور أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن (ت ٥٩٥هـ/١١٩٩م)(٥) بطل معركة الأرك.(٦)

---

(١) مؤلف مجهول :وصف جديد لقرطبة، ص١٦٨؛ المقري : نفح الطيب ،ج١، ص ٥٤٠؛ عنان: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانية والبرتغال، ص ص ٢٣-٢٦؛ محمد عبد الوهاب خلاف: قرطبة الاسلامية في القرن الحادي عشر الميلادي – الخامس الهجري الحياة الاقتصادي والاجتماعية، مكتبة المهتدين، تونس، ١٩٨٤، ص٤٩ .

(٢) سيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ص ٢٠٥- ٢٠٨.

(٣) عمرو إسماعيل محمد: تخطيط المدن في العمارة الإسلامية فكر وفنون، ص ١٢٣.

(٤) سيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص٢٠٩.

(٥) ابو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور بالله أو اختصاراً: يعقوب الخليفة الموحد أو يعقوب المنصور سلطان وثالث خلفاء الموحدين ببلاد المغرب توفي٥٩٥هـ/١١٩٩م. انظر. عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص ص ٣٧٣-٣٧٨.

(٦) معركة الأرك: هي معركة وقعت في ١٨ يوليو ١١٩٥ بين قوات الموحدين بقيادة السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور وقوات ملك قشتالة ألفونسو الثامن. كان للمعركة دور كبير في توطيد حكم الموحدين في الأندلس، وتوسيع رقعة بلادهم فيها. انظر. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج٦، ص ٢٤٥؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٣٧؛ يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ج ٢، ص٨٤؛ وستاف لوبون: حضارة العرب، ص ٢٨٣.

وقد أزال النصارى الكرات التي كانت تسمى التفحات ووضعوا مكانها الصليب والجرس وذلك بعد سقوط إشبيلية وتحويل المئذنة إلى برج أجراس وهدم أجزاء كثيرة من المسجد وتحويله إلى كاتدرائية. وقد زيدت على المئذنة في عصر النهضة، وهكذا تبدو مئذنة إشبيلية الآن أو كما يسميها الإسبان الخيرالده [١]

الخيرالدة، منارة إشبيلية.[٢]

(١) سيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ص ٢٠٨.
(٢) محمد كرد على: غابر الأندلس وحاضرها، مؤسسة هنداوى للتعليم والثقافة، مصر،٢٠٢١، ص٨٣.

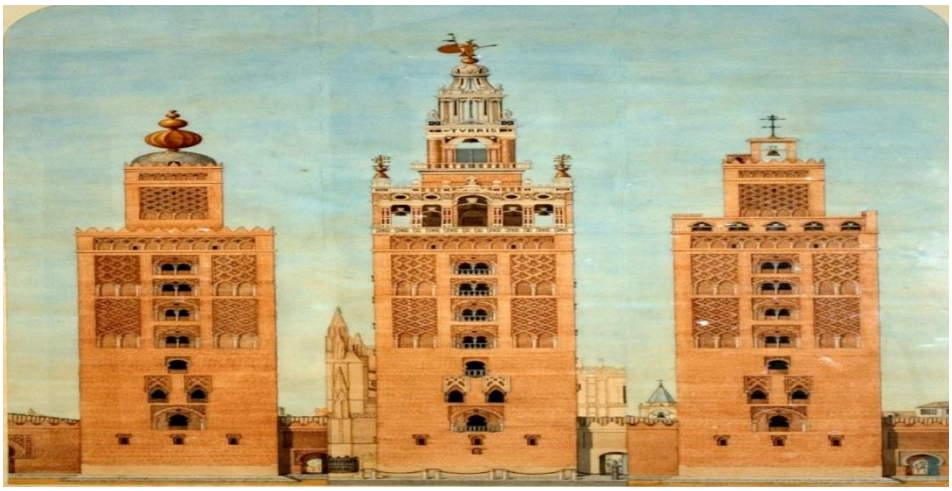

مراحل تغيير المئذنة لتكون برج أجراس الكتدرائية : العصر الإسلامي (يسار)، العصر المسيحي (يمين)، عصر النهضة (في الوسط) مراحل تغيير المئذنة لتكون برج أجراس الكتدرائية

بينما اشتملت الثالثة :

على قصر الحمراء في غرناطة، الذي شُيد في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر الميلادي، وكان بمثابة عنوان صريحًا لما انتهت إليه العمارة الأندلسية، من سِمات العمارة المغربية الإسلامية الواضحة في أبنية القصر.(١)

استخدام العناصر الزُخرفية الرقيقة في تنظيمات هندسية كزخارف السجاد، وكتابة الآيات القرآنية والأدعية، بل حتى بعض المدائح والأوصاف من نظم الشعراء كابن زمرك، وتحيط بها زخارف من الجص الملون الذي يكسو الجدران، وبلاطات القيشاني الملون ذات النقوش الهندسية، التي تغطي الأجزاء السفلى من الجدران.(٢)

---

(١) عنان: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانية والبرتغال ص ٣٩؛ عبد العزيز الدولاتي: مسجد قرطبة وقصر الحمراء، ص٢١٣.

(٢) عبد العزيز الدولاتي: مرجع سابق، ص٢١٥.

يعد مسجد قصر الحمراء من أكثر الآثار الإسلامية إبداعاً ويقع على أطراف جنوب مدينة مدريد، بناه الملك أبو عبد الله محمد الأول بن الأحمر [١] في القرن الـ١٠ في مملكة غرناطة على قمة تلة السبيكة، وكان ذو موقع استراتيجي يطل على كل أنحاء المدينة. استمر بناء المسجد أكثر من ١٥٠عاماً، وزينته الزخارف الدقيقة والآيات القرآنية والمدائح النبوية، كما ضمت جدرانه وأعمدته قصائد شعرية ترجع للعصر الذهبي للأندلس.[٢]

قيل أن القصر سُمي بالحمراء لأنه مشتق من بني الأحمر الذين كانوا يحكمون غرناطة، فيما قال مؤرخون آخرون أن الاسم يرجع إلى التربة الحمراء للتل الذي بُني عليه المسجد، وعلى أنقاض المسجد بنيت كنيسة سانتا ماريا.

مسجد قصر الحمراء (كنيسة سانتا ماريا حاليا) [٣]

(١) ابو عبد الله محمد الأول (٥٩٥-٦٧١) (١١٩٨-١٢٧٣) هو الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر بن الأحمر، المعروف بابن الأحمر، من بني نصر أو بني الأحمر المنحدرة من قبيلة الخزرج الأزدية القحطانية، مؤسس دولة بني نصر بالأندلس والسلالة الحاكمة فيها. حكم مملكة غرناطة بين عامي.(١٢٣٨- ١٢٧٣) انظر: ابن خلدون العبر، ج٤، ص١٧٠.

(٢) عنان، مرجع سابق، ص ص١٦٠-١٦٥.

(٣) عنان: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانية والبرتغال، ص٢٠٨.

ولم تقتصر العمارة في بلاد الأندلس على التشييد فقط وانما امتدت الى مجالات اخرى كما كان في غرناطة التي مثلت مركزاً لصياغة الذهب والفضة واستعمل الذهب في التزيين فطُلِيتْ به أبواب المساجد والقصور وقطع الأثاث، وما تزال صناعة التنزيل بخيوط الذهب على القصدير والنحاس والرصاص قائمة حتى اليوم في طليطلة وغيرها من المدن الإسبانية. (١)

وإذا كانت اللغة العربية وعلومها وفنون الكتابة (الخط العربي) من الأمور المهمة التي أدخلها العرب المسلمون إلى الأندلس فقد نقل هؤلاء معهم كذلك ذوقهم في تنسيق الحدائق ومعرفتهم بالنواعير وطرائق رفع المياه والتحكم فيها مازالت آثار ذلك على النهر الكبير في قرطبة)، كما نقل العرب معرفتهم في صناعة السلاح من سيوف وخناجر ومِدى بمقابضها ونصولها الغنية بالزخارف الإسلامية.(٢)

وكانت بلاطات الخلفاء والأمراء في الأندلس مركز إشعاع ثقافي حضاري، فاجتذبت العلماء والكتّاب والشعراء والفنانين والصناع المهرة. وقد اهتم الخلفاء والأمراء بنشر المدارس والجامعات (وأشهرها جامعة قرطبة) والمكتبات العامة (وأشهرها مكتبة الخليفة الحكم) وبناء الأسواق والمشافي والحمامات العامة وملاجئ الفقراء(٣)

مسجد باب المردوم (نموذجًا)

يقع مسجد باب المردوم في مدينة طليطلة التي تقع في وسط إسبانيا، عند مرتفع تحيط به أودية عميقة، تتدفق منها مياه نهر تاجة، التي تعلو مدينة طليطلة أو توليدو Toledo، التي أُنشئت في زمن الإغريق وازدهرت في عهد الرومان، وانتصرت

(١) طليطلة Toledo: مدينة بالأندلس بينها وبين قرطبة تسعُ مراحل وكانت عاصمة المملكة القوطية افتتحت من قبل طارق بن زياد (٩٢ هـ/٧١١م) ثم أصبحت بعد الفتح الإسلامي من أهم القواعد الإسلامية وهى أول قاعدة اندلسية هامة سقطت في أيدى النصارى. انظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان،ج٤، ص٣٩.

(٢) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة،ج١، ص ٩٣.

(٣) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج٥،ص٢٣٥؛ جرجي زيدان: مرجع سابق، ج١، ص ٩٣.

سياسيًا على سائر مدن الأندلس أيام الفتح الإسلامي، ولذلك تحتل هذه المدينة مكانه كبيره عند العرب، وتحظى باهتمام واسع لدى الباحثين في الأندلس حيث استمرت ما يقارب ٨٠٠ عام، فهي من أهم الشواهد التي تظهر الحضارة العربية والإسلامية في الأندلس، وما شهدته من ازدهار وتطور في شتى المجالات العلمية والفنية والمعمارية.(١)

نهر تاجة في طليطلة(٢)

ولهذه المدينة أهمية كبيرة من حيث تنوع المشهد الحضاري فيها، إذ يجد الباحث في أزقتها القديمة شوارع ضيقة مرصوفة بالحصى، وأزقة حادة تضم بين جنباتها موروثًا ثقافيًا ومعماريًا هائلًا، من بينها قلعة رومانية يعود تاريخها إلى ٢٠٠٠ عام، كما اتخذ القوطيون الغربيون من مدينة طليطلة عاصمة لهم في القرن السادس الميلادي، وكانت في العصور الوسطى بوتقة لانصهار المسلمين والمسيحيين واليهود، نتج عنه اندماج متناغم من تأثيرات الديانات الثلاث، إضافة إلى كونها عاصمة بني

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي إلى السقوط، ص ص ٧٨– ٧٩.

(٢) شريف عبد الرحمن جاه : لغز الماء في الأندلس، ص٦٣.

ذي النون[١]، وهم من ملوك الطوائف وإن من أبرز معالم العمران العربي المسلم في طليطلة مسجد باب المردوم.[٢]

موقع مسجد باب المردوم:

يقع في حي سان نيكولاس بمدينة طليطلة في الأندلس أمام أحد أبواب المدينة القديمة وهو باب المردوم وهى بوابة : يطلق بالإسبانية–Puerta Bab al) : Mardum) أو بوابة بالماردون بالإسبانية(Puerta de Valmardón : هي أحد المداخل الرئيسية في مدينة طليطلة في إسبانيا .تم بناءها في القرن العاشر، وربما تعد البوابةُ الأقدم في المدينة. ويقع على مقربة منها مسجد باب المردوم[٣]

وهي بوابة تدل على فن المعمار قديمًا. وقد استمدت وظيفتها من الجهة الأخرى لها والتي تحمل اسم بويرتا ديل سول أي بوابة الشمس. وربما كانت تحمل اسم المردوم، والذى مازال قائما، ويعرف هذا الجامع اليوم باسم باب مردوم Bib Mardom [٤]

(١) بنو ذي النون: نشأت في قبيله كندة الأندلسية، من أصول بربرية كانوا يخدمون الدولة العامرية وكان أحد أفراد عبد الرحمن بن ذي النون يتولى أمر مدينة شمنترية، فاستدعاه أهل طُلَيْطُلَة لتولى الحكم، وتسيير الأمور في عام (٤٢٧هـ/١٠٣٦م). انظر. ابن عزاري: البيان المغرب، ج٣، ص٢٧٦؛ ابن خلدون: العبر، ت خليل شحادة، دار الفكر، بيروت ط٢، ١٩٨٨م، ج٢، ص٣٢٧ .

(٢) نهر تَاجهTogo: ينبع من جبال البرت، وينصب في المحيط الأطلسي، وتقع عليه مدينة طُلَيْطُلَة، ولشبونة، هذا النهر يخرج من ناحية الجبال المتّصلة بالقلعة ومدينة طَلَبِيْرَة، انظر: الامير شيب ارسلان: الحلل السندسية في اخبار والاندلسية، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٩٣٦ج١، ص ٢٨؛ عنان: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، ص٤٧.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي إلى السقوط، ص٢٣٤.

(٤) عنان: الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال، ص ص٤٧–٤٨.

بوابة باب المردوم من الخارج

تاريخ بناء المسجد

بُنى المسجد في عصر الخلافة الأموية في الأندلس، في عصر ملوك الطوائف في عام ٣٩٠هـ/٩٩٩م[١]

يعلو واجهة جامع بابا لمردوم نقش كتابي تاريخي من قطع آجرية بارزة في إفريز يقع بين صفين من الأسنة البارزة من نفس المادة، تم اكتشافه في الوجهة الغربية للمسجد باب المردوم مكتوب عليها: "بسم الله الرحمن الرحيم أقام هذا المسجد أحمد بن حديدي من ماله ابتغاء ثواب الله فتم بعون الله على يد موسى بن على البناء وسعادة فتم في المحرم سنة تسعين وثلث مائة."[٢]

(١) باسيليو بابون مالدونادو: الفن الطليطلى الإسلامي والمدجن، ص ١٠٤.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي إلى السقوط، ص ص٢٢٨-٢٣٠.

الواجهة الرئيسية لمسجد باب المردوم.

ونجد أنه قد تم البناء لمسجد باب المردوم تحت إشراف المهندس موسي بن على، وتولى السيد أحمد بن حديدي سداد نفقات البناء من ماله الخاص. وأسرة بنى حديد أو بنى حديدي كانت أسرة مشهورة في طُلَيْطُلَة (١)

وكان أحمد بن حديدى المنفق على هذا المسجد من أحد أعيانها، وتولى الوزارة أيام إسماعيل بن ذي النون ملك طُلَيْطُلَة وقد اشتهر أمر ابن حديدي الذى قتل على يدي القادر بالله يحيى بن ذي النون ملك طُلَيْطُلَة (٤٦٧ – ٤٧٢هـ/١٠٧٥–١٠٧٩م). وهاجرت هذه الأسرة إلى مصر عقب سقوط طليطلة وقد تولى أحد أفرادها

(١) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص٢٣٠.

وهو مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد منصب قاضى الإسكندرية في العصر الفاطمي. (١)

وصف جامع باب المردوم:

يُعدُ مسجدُ باب المردوم نموذجاً لما كانت عليه المساجد في الأندلس في العصر الأموي. فعلى الرغم من صغر مساحة مسجد باب المردوم فإنه يُعْتَبُر أهمُ مسجدٍ في الأندلس بعد جامع قرطبة(٢)، لاحتفاظه بقباب تسعة، قائمة على الضلوع المتقاطعة، تمثل أولى مراحل التطور التي مرت بها قباب جامع قرطبة.

جامع قرطبة .. المسجد الجامع، من أهم آثار الحضارة الإسلامية في الأندلس، بناه عبد الرحمن الداخل(٣)

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي إلى السقوط ، ص٢٣١.

(٢) جامع قرطبة: يقع المسجد الجامع في قرطبة فوق بقعة صخرية تقع جنوبي غربي المدينة على مقربة من القنطرة العربية القديمة على نهر الوادي الكبير، وتحيط به الدروب الضيقة من جوانبه الأربعة. انظر: باسيليو بابون مالدونادو: قرطبة ومساجدها، ترجمة على منوفي، الامارات، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، ط١ ،٢٠١١، ص٧.

(٣) باسيليو بابون مالدونادو: المرجع السابق، ص ص ٧–٨.

ومسجد باب المردوم مسجد صغير لا يزيد طول ضلعه على ثمانية أمتار، وفي جنوبه بروز المحراب، وكان مربعًا من خارجه في الأصل، فلما حولوا المسجد إلى كنيسة بنوا جدارًا مستديرًا لينشئوا وراءه ما يحتاجه مصلب الكنيسة ومذبحها من غرف صغيرة. والمسجد في هيئته الأولى مربع تقوم كل من واجهاته على ثلاثة عقود ضخمة عالية من الحجر، بداخل كل منها باب أصغر على هيئة عقد مستدير، وهذه العقود تحمل فوقها صفًا من النوافذ عربية على هيئة بوابات زخرفية، ولا شك أنها كانت مغطاة بالزجاج على أيام حكم المسلمين لتفيض النور داخل المسجد، والآن تسد هذه النوافذ بألواح خشبية ذات فتحات مربعة تسمح بمرور الضوء إلى داخل المسجد.(١)

وكان للمسجد قبة صغيرة تقوم على أربعة أعمدة ضخمة في وسطه، وقد ازيلت القبة الآن، ولكن أجزاء السقف حولها مزينة بدعامات من الحجر المتقاطع، تدلنا على أن قبته كانت تشبه في هيئتها القباب الصغيرة التى توجد مثيلتها في جامع قرطبة. فإذا أفضيت إلى داخل المسجد وجدت صحنًا صغيرًا في وسطه الأعمدة الأربعة التي أشرنا إليها.(٢)

(١) محمد عبد الله عنان: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، ص١١٤.

(٢) ليفي بروفنسال: الأندلس، ص١٥٦.

وصف جامع باب المردوم:

يقول الدكتور السيد عبد العزيز سالم[١] في وصف مسجد باب المردوم: "والمسجد مربع الشكل على نظام الكنائس البيزنطية لا يتجاوز طول الجانب منه ثمانية أمتار، وقد شيدت جدرانه من الحجر الجراني والآجر وفقًا للأسلوب الذي اختصت به طليطلة.

ويتكون المسجد من ثلاثة رواقات طولية تقطعها ثلاثة أروقة عرضية بحيث يحدث من ذلك التقاطع تسعة أساطين، تفصل بينها أربعة أعمدة تيجانها قوطية قديمة، يتفرع منها اثنا عشر قوسا على شكل حدوة الفرس، ويعلو كل أسطوان من الأساطين التسعة قبة تتقاطع فيها الأقواس على نحو ما رأيناه في قباب قرطبة، والقبة الوسطى أكثر من القباب الأخرى ارتفاعا، ونظام التقبيب يقوم على تقاطع الضلوع المتجاوزة في صور مختلفة، منها ما يمثل شكلا رباعيًّا منحرفًا ذا أقطار، بحيث يبدو

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي إلى السقوط، دار النهضة العربية، ١٩٨٨م، ص٦٧.

كما لو كان قبوتين من الطراز القوطي إحداهما داخل الأخرى، ومنها ما يبدو على شكل مثمن، ومنها ما يقلد تقاطع القبة المخرمة الكبرى بجامع قرطبة.(١)

وتعرض قباب جامع باب المردوم تطورًا لقباب قرطبة نحو الزخرفة. أما واجهة المسجد الرئيسية وهي الواجهة الجنوبية الغربية، فتطل على الطريق المؤدي إلى باب مردوم بثلاثة عقود، وفي أعلاها النقش الكوفي.(٢) والقوس الأيمن من هذه الأقواس متجاوز على شكل حدوة الفرس، على مثال عقود جامع قرطبة. والقوس الأيسر مفصص أما الأوسط فمجدد، ويعلو الأقواس الثلاثة التي تعتبر أبوابا لبيت الصلاة، بائكة صماء من أقواس متقاطعة ويتوج هذه البائكة الزخرفية إفريز بداخله شبكة مخرمة من المعينات. أما الواجهة التي تطل على صحن المسجد فتتألف من ثلاثة عقود متجاوزة بمثابة أبواب، تعلوها ستة أقواس متجاوزة صماء يتناوب فيها اللونان

(١) علي أدهم: المعتمد بن عبَّاد، الإدارة العامة للثقافة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي القاهرة، مصر، ٢٠٠٠، ص ص ٩٦–٩٨.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ٦٨.

الأبيض والأحمر نتيجة لتعاقب قوالب الحجر والآجر على نظام أقواس جامع قرطبة."[١] يشبه شكل مسجد باب المردوم الهندسي مسجد بوفتاتة في سوسة، والذي تم بناؤه بين عامي ٢٢٣– ٢٢٦هـ/ ٨٣٨ –٨٤١م.

(١) سحر السيد عبد العزيز سالم: بحوث مشرقية ومغربية في التاريخ والحضارة الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٨، ص١٥٥.

ومسجد الأبواب الثلاثة في القيروان، والذي تم بناؤه عام ٢٥٢هـ/٨٦٦م، مما يؤكد استنباط الشكل من أسلوب ميز العصر الوسيط.

مسجد الأبواب الثلاث في القيروان[١]

كما أن هناك تشابه معماري يميز مسجد باب المردوم، يكمن في المسجد الجنائزي في طابا في مصر، والذي تم بناؤه عام ٣٣١هـ/ ٩٤٣م. وهناك أيضًا بناءان في مصر يحتويان على مزايا متشابهة، وهما مسجد القبلة الجنائزي وضريح "سبعة وسبعين واليًا" في أسوان (دمر عام ١٩٠١م). ويعتبر مسجد باب المردوم النموذج الأندلسي لنوع الأبنية تحت القبب.[٢]

مسجد باب المردوم معلم إسلامي

رغم أن الكثير من المعالم الإسلامية في طليطلة قد تم محوها من طرف ملوك قشتالة المتعاقبين، إلا أن هذا المسجد لايزال شاهداً على تاريخ المدينة المفقود بشكل فريد، وهو مسجد إسلامي بطراز عربي بحت، يفند الأساطير القشتالية من أنه كان مؤسسا على كنيسة قديمة، بدليل أنه في ٢٢ فبراير سنة ١٨٩٩م تم تدمير الحائط الخارجي الذي كان يغطي البناء الإسلامي، فتم اكتشاف كتابة عربية منقوشة على الواجهة الرئيسية للمسجد مؤكدة الهوية الإسلامية لمشيد هذه المعلمة الإسلامية.[٣]

---

(١) مسجد الأبواب الثلاثة: يعرف هذا المسجد الصغير أيضا باسم مسجد ابن خيرون، وقد بناه تاجر أندلسي مقيم بالقيروان، ويعد من أنذر المساجد التي وصلتنا من تلك الفترة. يتميز المسجد بواجهته ذات الأبواب الثلاثة التي تعلوها أقواس متجاوزة والتي تعد أقدم واجهة مزخرفة لمسجد بالعالم الإسلامي. يحتمل أنها تستمد أصولها من واجهة أبو فتاتة بسوسة (٢٢٤-٢٢٦هـ/٨٣٨-٨٤١م) حيث نجد لأول مرة ببلاد إفريقية كتابة كوفية ذات نقش بارز على شريط مائل: انظر. محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، ص ص ٧٦-٧٨.

(٢) محمد عبد الله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، ص ص ٥٦-٥٩

(٣) داليا راشد: مسجد باب المردوم، موقع أندلسي. ٢٠١٥/٠٣/٣٠

باب المردوم والنقش من الداخل.(١)

فبعد استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة فى سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م منح المسجد لفرسان القديس يوحنا،(٢) ثم تم تحويله إلى كنيسة نور المسيح، واليوم بعد تحويله إلى مزار سياحى، وأصبح اسمه "مسجد نور المسيح Mezquita Cristo de la Luz". بعد أن حوِّل المسجد إلى كنيسة، أضيفت إليه فى الجانب الشرفى حنية مدجنة، وأطلق عليه اسم سانتا كروث Santa Cruz، ووهبه ألفونسو الثامن لإحدى الجمعيات الدينية، ويسمى اليوم النصارى الكنيسة القائمة على أرباعه: "مسجد القديس نور المسيح "، وأشير هنا إلى الاحتفاظ بكلمة مسجد؛ حيث يدعي القشتاليون أن

(١) باسيليو بابون مالدونادو: كتاب الفن الإسلامي في الأندلس، علي إبراهيم منوفي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ص٢١٣ –٢١٦.

(٢) فرسان القديس يوحنا: بدا ظهروهم بعد ما حاصر سانشو راميرث ملك أراغون قونقة، وكاد أن ينتزعها لولا افتدائها بالمال من قبل أهلها. اضطر القادر للتنازل عن أموال وقلاع لصالح ألفونسو السادس ملك قشتالة لحمايته. وفي عام ٤٧٢ هـ، ثار أهل طليطلة على القادر، ففر إلى وبذة، واستدعى أهلها المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس لحكم المدينة، إلى أن أنجده ألفونسو السادس بجنوده ليستعيد المدينة بعد ١٠ أشهر. انظر. عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٢، ص ١٠٨.

ألفونسو السادس الذي أخذ طليطلة من يد المسلمين ذهب إلى مسجد "باب المردوم" فانحنى به فرسه، وجلس تحت حجارة يشع منها نور، فلما حمل الحجر وجد صورة ذات نور شديد تعود لفترة ما قبل الدخول الإسلامي للأندلس ٩٣ هـ/ ٧١١م. فسموه بهذا الاسم! ولاتزال الكثير من الحفريات جارية إلى يومنا بين أنقاض المسجد، غير أن الباحثين اجتمعوا على أنه لا أثر لكنيسة على أساساته.(١)

مسجد القديس المسيح ذو الأنوار من الداخل

(١) الشارقة غيث خوري: مسجد باب المردوم أثر طليطلة الشامخ، موقع الخليج ٢٠١٦/٠٥/٠٣.

الخاتمة وأهم ما توصل اليه من النتائج

توصل الباحث من خلال دراسته هذه لعدد من النتائج المهمة منها :

اولاً: اهتمام الدولة الإسلامية في عهد الخلافة الراشدة والأموية بالعلوم والمدنية كما اهتمت بالنواحي الدينية فكانت الحضارة الإسلامية حضارة تمزج بين العقل والروح، فامتازت عن كثير من الحضارات السابقة. فالإسلام دينٌ عالمي يحض على طلب العلم وعمارة الأرض لتنهض أممه وشعوبه.

ثانياً: تنوعت مجالات الفنون والعلوم والعمارة طالما لا تخرج عن نطاق القواعد الإسلامية؛ لأن الحرية الفكرية كانت مقبولة تحت ظلال الإسلام، وامتدت هذه الحضارة القائمة بعدما أصبح لها مصارفها وروافدها لتشع على بلاد الغرب وطرقت أبوابه، وهذه البوابة تبرز إسهامات المسلمين في مجالات الحياة الإنسانية والاجتماعية والبيئية، خلال تاريخهم الطويل، وعصورهم المتلاحقة.

ثالثاً: الامتزاج البشرى من سكان الأندلس كان له اثر كبير في تميز العمارة الإسلامية وتنوع اشكالها، واهتمامها بالنواحي الحياتية المختلفة، حيث ظهرت المباني الدينية من مساجد ومدارس وتكايا وزوايا ودور الصوفية، وأبنية مدنية كالدور والقصور، وأبنية عامة كالبيمارستانات والخانات (محطات استراحة المسافرين)، والحمامات والأسواق.

رابعا: مثل مسجد باب المردوم نموذجا للمساجد الصغيرة في الدولة الإسلامية والتي مثلت جمال الفن المعماري الإسلامي، ومازال شاهدا على تاريخ المدينة المفقودة بشكل فريد.

المصادر والمراجع

اولا: المصادر

ابن الاثير: على بن أحمد بن أبى الكرم (ت٦٣٠ هـ/١٢٢٣ م)

– الكامل في التاريخ، تحقيق أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م

الجوهري: بو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (٣٩٣هـ)

– الصحاح في اللغة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٩

ابن خلدون :

– تاريخ ابن خلدون، ت خليل شحادة، دار الفكر، بيروت ط٢، ١٩٨٨م

الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي(٧٤٨هـ/١٣٧٤م).

– سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوطأ، مؤسسة الرسالة، بيروت ،١٩٨٤.

الرازى : أبي الحسين احمد بن فارس بن حبيب (ت٣٩٥هـ/١٠٠٤م)

– مختار الصحاح، ت محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت ،١٩٩٥

ابن فارس: أبو الحسين أحمد القزويني الرازي (٣٩٥هـ – ١٠٠٤م)

– معجم مقاييس اللغة، ت عبد السلام محمد هارون، اتحاد الكتاب العرب، القاهرة، ٢٠٠٢

فيروز اباد: مجد الدين أبي طاهر الشيرازي الفيروز آبادي (ت٨١٧ هـ/١٤٠٨م)

– القاموس المحيط، دار الحديث القاهرة، ٢٠١٣

القلقشندي: أحمد بن على بن أبى اليمن (ت٨٢١هـ/١٤٨١م)

– صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م

المقري: شهاب ابن احمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م)

– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها ابن الخطيب ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٨٨ م

ابن المنظور: أبو الفضل الأفريقي المصري، (ت٧١١هـ/١٣١١م)

– لسان العرب، دار الصادر ،بيروت،٢٠١٠

ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت (ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م)

– معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤م

ثانياً: المراجع

احمد امين :

– ظهر الاسلام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بيروت، ٢٠١٦.

اسماعيل عثمان عثمان:

– تاريخ العمارة الاسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، ١٩٩٣.

جرجي زيدان :

– تاريخ التمدن الإسلامي ،مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ٢٠١٢.

جورج مارسيه:

– الفن الإسلامي، ترجمة عفيف بهنسي منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٦٨.

حسين مؤنس:

– أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة الزهراء للإعلام العربي، ١ط، ١٩٨٧

حماد شققه وأخرون :

– دراسات في الجغرافية البشرية، مكتبة اليازجي، غزة، ٢٠٠٨

خير الدين بن محمود الدمشقي الزركلي:

– الأعلام ،دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢

سيد عبد العزيز سالم:

– تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧.

شريف عبد الرحمن جاه :

– لغز الماء في الاندلس، ترجمة زينب بنياية، هيئة أبو ظبى للسياحة والثقافة، الامارات، ط١، ٢٠١٤.

عبد الرحمن علي الحجي:

– التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، القاهرة، دار الاعتصام، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨١م.

عفيف بهنسي:

– خطاب الأصالة في الفن والعمارة ، دار الشرق، دمشق، ٢٠٠٤.

عمرو إسماعيل محمد :
– تخطيط المدن في العمارة الإسلامية فكر وفنون، وكالة الصحافة العربية، مصر، ٢٠١٩.
غوستان لوبون:
– حضارة العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠١٤.
كمال السيد أبو مصطفي:
– تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين الموحدين، الإسكندرية: مطبعه الإشعاع، د/ت .
ليفي بروفنسال:
– الأندلس، دائرة المعارف الإسلامية (كتاب الشعب) النسخة العربية ، إعداد وتحرير، إبراهيم زكي خورشيد وآخرون، القاهرة، مطبعة الشعب، ١٩٣٣.
محمد عبد الله عنان:
– دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٩٧م .
– دولة الإسلام في الأندلس الهيئة المصرية العامة للكتاب المصري، مكتبة الأسرة، جمعية الرعاية المتكاملة، طبعة خاصة، القاهرة، ٢٠٠١م. ط٤
– الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٩٧.
المهدي رمضان البشير:
– فنون عمارة المساجد: التاريخ والوظيفة النقابة العامة لأعضاء هيئة التدريس الجامعي، ليبيا، ٢٠١٥ .
هبة الحداد :
– مدخل إلى تطور فن عمارة النوافذ في تاريخ العمارة الإسلامية، مركز رويال اكل للدراسات والابحاث ، الكويت ،٢٠١٥.
– الدوريات والابحاث :
توفيق سلطان اليوزبكي:
– الحضارة العربيّة في الأندلس وأثرها في أوربا، مجلة آداب الرافدين، ٢٠٠٧.
– الهجرات الكبرى فى التاريخ :مجلة القافلة ،شركة أرامكو، السعودية، ٢٠١٦.
الشارقة غيث خوري:
– مسجد باب المردوم أثر طليطلة الشامخ، موقع الخليج ٢٠١٦/٠٥/٠٣.

سلوكيات الدول والمجتمعات في مواجهة الأوبئة (دولتي المرابطين والموحدين في الأندلس ٤٨٤- ٦٦٨هـ/١٠٩٢- ١٢٦٩م أنموذجاً)

أ.م.د. يوسف عبدالحميد بن ناجي
أستاذ مساعد في التاريخ الاسلامي
كلية التربية الاساسية – الكويت

مستخلص:

إن سلامة المجتمع تعتمد على عدة عوامل طبيعية وبشرية فالطبيعية كالبيئة المحيطة به لابد وأن تكون سليمة خالية من الأوبئة التي تودي بحياة الإنسان، وإذا تلوثت هذه البيئة ببعض الأمراض فلابد للعنصر البشري من التدخل لإنقاذ الفرد والمجتمع من تفشي هذه الأوبئة وذلك من خلال بعض الإجراءات والسلوكيات التي تكون سببًا في سلامة الفرد والمجتمع بأسره وتختلف هذه السلوكيات والإجراءات من شخص لآخر بل من دولة لأخرى حسب رغبته في العلاج أم لا، إضافة إلى حسب قدرات كل دولة على مواجهة مثل هذه الأزمات وهذا ما سنتعرف عليه من خلال هذه الدراسة.

The safety of society depends on many natural and human factors, as the natural environment, like the surrounding environment, must be healthy and free from epidemics that kill a person's life, and if this environment is contaminated with some diseases, the human element must intervene to save the individual and society from the spread of these epidemics through some procedures and behaviors that It is a cause of the safety of the individual and the society as a whole, and these behaviors and procedures differ from person to person, but rather from country to country according to their desire for treatment or not, in addition to the capabilities of each country to face such crises, and this is what we will learn about through this study.

مقدمة:

يدور موضوع هذا البحث حول سلوكيات الدول والمجتمعات في مواجهة الأوبئة (دولتي المرابطين والموحدين في الأندلس[٤٨٤ـ٦٦٨هـ/١٠٩٢ـ١٢٦٩م] أنموذجا)، فمنذ فجر التاريخ والأوبئة تنشب مخالبها في جسد العالم كله، فقد مرت الكثير من الأمراض والأوبئة التي تفتك بحياة الإنسان وأودت بالعديد من البشر عبر التاريخ الإنساني كله، وبطبيعة الحال فقد نال المسلمين من ذلك البلاء الكثير، وسجل تاريخهم أحداثها ووقائعها وآثارها عبر مختلف العصور في مختلف دوله وأمصاره، وقد كان لهذه الأوبئة آثار مدمرة في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية، وقد اختلفت إجراءات الدولة وسلوكياتهم في مواجهة مثل هذه الأزمات.

إشكالية الدراسة:

إن هذا الموضوع من الموضوعات الهامة والمصيرية في حياة الإنسان، فقد يترتب عليه مصير بشرية وربما أمم بأكملها خاصة في تلك الفترة الحرجة، فالأوبئة نوعًا من أنواع التهديدات الخطيرة لأمن البشرية بأكملها، كما أنها تتحكم في سلوكيات الأمم وتعاملاتها، لذا تأتي أهمية هذه الدراسة لنتعرف على.

ـ نماذج من الأوبئة خلال عصري دولتي المرابطين والموحدين .

ـ السلوكيات والإجراءات التي اتبعتها دولتي المرابطين والموحدين لمواجهة هذه الأوبئة؟

حدود الدراسة:

تشمل المدة الزمنية لهذه الدراسة عصري دولتي المرابطين والموحدين في الأندلس [٤٨٤ـ٦٦٨هـ/١٠٩٢ـ١٢٦٩م]

منهج الدراسة.

هو المنهج الاستقرائي التحليلي القائم على جمع المعلومات وتحليلها ومقارنتها، ثم استخلاص النتائج.

أهداف وخطة الدراسة:

ـ شرح لأهم مصطلحات البحث (السلوكيات ـ الوباء ـ دولة المرابطين ـ دولة الموحدين)

ـ التعرف على بعض الأوبئة التي وقعت خلال عصري دولتي المرابطين والموحدين.

ـ التعرف على سلوكيات وإجراءات دولتي المرابطين والموحدين في مواجهة الأوبئة.

ـ التعرف على سلوكيات المجتمع الأندلسي في مواجهة الأوبئة.

شرح لأهم مصطلحات البحث (السلوكيات ــ الوباء ــ دولة المرابطين ــ دولة الموحدين)

أولًا: تعريف السلوك في علم النفس .

عرف علماء النفس السلوك من خلال عدة تعريفات ومفاهيم، ومنها أن السلوك هو حالة التفاعل الحاصل بين الكائن الحي وبيئته وعالمه الخارجي، وفي أغلب الأحيان يظهر السلوك على هيئة استجابات سلوكية مكتسبة ومتعلمة؛ من خلال تعلم الفرد بالتدريب والملاحظة والتعرض للخبرات المختلفة، ويُعرَّف السلوك كذلك بأنه مجموعة من الاستجابات التي تصدر عن الفرد تجاه المثيرات البيئية المختلفة؛ حيث تمثل البيئة جميع المؤثرات التي تدعم آلية ظهور السلوك(١).

من التعريفات الأخرى للسلوك: هو جميع أشكال الاستجابة الكلية التي تظهر عند الكائن الحي تجاه أي موقف يواجهه(٢).

---

(١) ليلى العجايب: مفهوم السلوك في علم النفس: مقال منشور بموقع موضوع.

(٢) طلعت منصور، وآخرون: أسس علم النفس العام ـ المكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ٢٠٠٣م ص٨، ٩.

ثانيا: تعريف الوباء.

الوباء لفظ عام يشمل كل مرض، ولذلك فإن كل طاعون وباء وليس كل وباء طاعون، وكذلك الأمراضُ العامة أعمُّ من الطاعون، فإنه واحد منها [١].

وقد عرفت منظمة الصحة العالمية الوباء بأنه حالة انتشار لمرض معين، حيث يكون عدد حالات الإصابة أكبر مما هو متوقع في مجتمع محدد أو مساحة جغرافية معينة أو موسم أو مدة زمنية[٢] .

نبذة عن دولتي المرابطين والموحدين في الأندلس.

أولا: دولة المرابطين في المغرب والأندلس (٤٤٨-٥٤١هـ/١٠٥٦-١١٤٧)

ماذا تعني كلمة المرابطين؟ وما أصلهم؟

تعني القيام باتخاذ خيامًا على ثغور المسلمين لحمايتها والدفاع عنها، ومن هنا أطلق عليهم اسم المرابطين، وينتسبون إلى قبيلة جدالة التي كانت تقطن جنوب موريتانيا، وكانت قد دخلت في الإسلام منذ قرون.

والمرابطون هم بربر أبناء صحراء من قبيلة لمتونة وهي فرع من صنهاجة، سموا بالمرابطين لأنهم تتلمذوا على يد عبد الله بن ياسين في الرباط الذي أنشأه للدرس والعبادة في صحراء المغرب. وكانوا يعرفون (بالملثمين) أيضًا. تولى أبو بكر بن عمر اللمتوني تنظيمهم والجهاد بهم، ففتح السوس والصامدة، وكان معه في الجيش ابن عمه يوسف بن تاشفين الذي ارتفع شأنه، فاضطر أبو بكر أن يتنازل له عن السلطة، وهو أول ملك بربري حكم المغرب (وكان جيشه خليطًا من جميع قبائل المغرب) ويقال أنه كان أعظم الحكام المسلمين في عصره.

---

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت ٧٥١هـ): زاد المعاد في هدي خير العباد: مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ مكتبة المنار الإسلامية ـ الكويت ـ الطبعة السابعة والعشرون ـ ١٤١٥هـ /١٩٩٤م، ج٤ ص٣٦، ٣٨.

(٢) علي الصلابي: كيف تعامل المسلمون مع الأوبئة وآثارها في مراحل تاريخهم: مقال منشور بموقع إسلام أون لاين بتاريخ ٢٠٢٠/٣/١٩م.

قيام دولة المرابطين في الأندلس (٤٨٤– ٥٤١هـ/١٠٩٢– ١٢٤٧م) بعد قيام دولة المرابطين بالمغرب وظهورهم على مسرح الأحداث كقوة عظمى حامية للمسلمين استنجد بهم المعتمد بن عباد حاكم أشبيليه في الأندلس ضد النصارى الإسبان، وكان حاكم دولة المرابطين في ذلك الوقت هو يوسف بن تاشفين(٤٥٣– ٥٠٠هـ/١٠٦١– ١١٠٦م). أعظم حكامهم على الإطلاق فزحف ابن تاشفين من فوره، والتقى بالنصارى بقيادة ملكهم الفونس السادس وهزمهم شر هزيمة في معركة الزلاقة الشهيرة عام (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) ثم عاد إلى المغرب مرة أخرى، وفي عام(٤٨٤هـ/١٠٩٢م) اشتد النزاع والصراع بين ملوك الطوائف بالأندلس واستنجد الناس بيوسف بن تاشفين لإنقاذهم من هذه الفوضى، فعبر إلى الأندلس مرة أخرى واستولى عليها ووحدها وأزال ملوك الطوائف الضعفاء، فأصبحت الأندلس ضمن دولة المرابطين، وامتدت دولته في المغرب من تونس شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، ومن البحر المتوسط شمالًا إلى حدود السودان جنوبًا، اختط مدينة مراكش، وجعلها عاصمة مملكته خلفه ابنه علي بن يوسف، فواصل جهاد والده وانتصر على نصارى الأسبان في موقعة أقليش عام (٥٠٢هـ/١١٠٨م) وهي أعظم موقعة بعد موقعة الزلاقة بعد ذلك أخذت الدولة تضعف وتضمحل، حتى قضى عليها الموحدون عام (٥٤١هـ/١٢٤٧م)[١] .

(١) المراكشي، محيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي (ت ٦٤٧هـ/١٢٤٥م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين: تحقيق/ الدكتور صلاح الدين الهواري ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ـ الطبعة: الأولى ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٦م صفحات متفرقة من ١٢٢، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس : مكتبة الخانجي ـ القاهرة الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ج٢ صفحات متفرقة، خليل إبراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: دار الكتاب الجديد المتحدة ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٠م ص٢٥١ـ٢٨٦.

وحكام دولة المرابطين على الترتيب كالآتي في الجدول:

جدول يوضح أسماء أمراء المرابطين في المغرب والأندلس في الفترة من (٤٣٤ـ٥٤١هـ / ١٠٤٢ـ١١٤٧م) [١]

الاسم	الهجري	الميلادي
يحيى بن عمر (مؤسس الدولة)	توفى عام ٤٤٨	١٠٥٦
أبو بكر بن عمر	٤٤٨-٤٥٣	١٠٥٦-١٠٦١
يوسف بن تاشفين	٤٥٣-٥٠٠	١٠٦١-١١٠٦
على بن يوسف	٥٠٠-٥٣٧	١١٠٦-١١٤٢
تاشفين بن على	٥٣٧-٥٣٩	١١٤٣-١١٤٥
إبراهيم بن تاشفين	٥٣٩	١١٤٥
إسحق بن على بن يوسف	٥٣٩-٥٤١	١١٤٥-١١٤٧

ثانيًا: دولة الموحدين في المغرب والأندلس (٥١٤-٦٦٨هـ/١١٢٠- ١٢٦٩م)

قامت دولة الموحدين على أنقاض دولة المرابطين وقد بدأت على يد محمد بن تومرت من قبيلة مصمودة، الذي ادعى أنه المهدي وأنه معصوم. وقد بدأ دعوته في أغمات، ودعا إلى إزالة دولة المرابطين بسبب ظلمهم وتعسفهم وتخليهم عن مبادئ الشريعة الإسلامية (حسب زعمه)، وكانت للموحدين فلسفة في الحكم قوامها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الزهد في الدنيا. خلف المهدي عبد المؤمن بن علي الذي قضى على دولة المرابطين سنة (٥٤١هـ/ ١١٤٧م)، واستطاع أن يخضع بلاد المغرب كلها تحت نفوذه، وتُوفي عام (٥٥٨هـ/١١٦٢م). وأبرز من جاء بعده يعقوب بن يوسف الذي انتصر على النصارى في الأندلس انتصارًا ساحقًا في معركة الأرك سنة (٥٩١هـ/١١٩٤م)، واستطاع إخضاع معظم بلاد الأندلس تحت راية الموحدين، ولكن الموحدين عادوا فهُزِموا في موقعة حصن العقاب سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م)، فهان

(١) زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي: ترجمة/ زكي محمد حسن، حسن أحمد محمود وآخرون ـ دار الرائد العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م ص١١٤.

بذلك أمرهم، ثم بدأت الدولة تضعف وتنهار بسبب الحروب الداخلية بين زعمائها في الفترة (٦٠٩ـ٦٦٨هـ/١٢١٢ـ١٢٦٩م) واستغل نصارى الإسبان ذلك، فاستولوا على معظم مدن الأندلس في هذه الفترة. ثم سقطت علي يد بني مرين[١].

جدول يوضح أسماء أمراء الموحدين في المغرب والأندلس في الفترة من (٥١٤-٦٦٨هـ/١١٢٠-١٢٦٩م)[٢]

الاسم	الهجري	الميلادي
محمد بن تومرت (المهدي)	٥١٤ـ٥٢٤	١١٢٠ـ١١٣٠
عبد المؤمن بن على الكومي	٥٢٤- ٥٥٨	١١٣٠ – ١١٦٣م
أبو يعقوب يوسف الأول	٥٥٨ – ٥٨٠	١١٦٣-١١٨٤
أبو يوسف يعقوب المنصور	٥٨٠ – ٥٩٥	١١٨٤-١١٩٩
أبو عبد الله محمد (الناصر)	٥٩٥ – ٦١٠	١١٩٩ـ١٢١٦
يوسف الثاني (المستنصر)	٦١٠ -٦٢٠	١٢١٦ ـ ١٢٢٤
أبو محمد عبد الواحد (المخلوع)	٦٢٠ ـ٦٢١	١٢٢٣ـ ١٢٢٤
أبو محمد عبد الله (العادل)	٦٢١- ٦٢٤	١٢٢٤ – ١٢٢٧
أبو العلاء إدريس (المأمون)	٦٢٦ -٦٣٠	١٢٢٩- ١٢٣٢
أبو محمد عبد الواحد (الرشيد)	٦٣٠ ـ٦٤٠	١٢٢٣ ـ ١٢٤٢
أبو الحسن على (السعيد)	٦٤٠- ٦٤٦	١٢٤٢- ١٢٤٨
أبو حفص عمر (المرتضى)	٦٤٦ ـ ٦٦٥هـ	١٢٤٨- ١٢٦٦
أبو العلا (الواثق)	٦٦٥- ٦٦٨	١٢٦٦- ١٢٦٩

(١) المراكشي: المعجب: صفحات متفرقة من ١٥٤، أحمد معمور العسيري: موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر ١٤١٧هـ/٩٦ – ٩٧م (فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض) الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م ص٢٥٢، عنان: دولة الإسلام في الأندلس: ج٣ صفحات متفرقة، محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار: تحقيق/علي الزواري، محمد محفوظ ـ دار الغرب الاسلامي ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ١٩٨٨م ج١ صفحات متفرقة من ص٤٥١.

(٢) زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة: ص١١٣.

أشهر الأوبئة خلال عصر دولتي المرابطين والموحدين في الأندلس:

تعاقبت الأوبئة التي أصابت البشرية عبر تاريخها الطويل، وبطبيعة الحال فقد نال أهل الأندلس خلال العصور الإسلامية وغيرها من ذلك البلاء الكثير، وسجل تاريخهم أحداثها ووقائعها وآثارها، فقد حدثت عدة أوبئة وأمراض جماعية سجلها التاريخ الإسلامي خلال عصري دولتي المرابطين والموحدين .

أولا: أشهر الأوبئة خلال عصر دولة المرابطين بالأندلس:

تشير بعض المصادر[١] إلى أن القحط ضرب بلاد المغرب والأندلس عام (٥٢٤هـ/١١٣٠م) مما كان سببًا في انتشار الأوبئة واستمر هذا الوباء حتى عام(٥٢٥هـ/١١٣١م).

وفي عام (٥٢٦هـ/١١٣٢م) عم الناس القحط وهاجمت أسراب الجراد المحاصيل الزراعية مما كان له تأثير سيء على أهل قرطبة حيث اشتدت المجاعة والوباء بالناس في قرطبة، وكثر الموتى وارتفعت الأسعار حتى بلغ مد القمح خمسة عشر ديناراً[٢].

ومن عام (٥٢٧هـ/١١٣٥م) وحتى عام (٥٣١هـ/١١٣٧م) استمرت المجاعات والأوبئة بسبب أكل الجراد لكل المحاصيل الزراعية[٣].

هذه هي أشهر الأوبئة التي ذكرها بعض المؤرخين خلال عصر المرابطين بالأندلس، وقد تبدو قليلة، ولعل ذلك يرجع إلى المصادر لم تسلط عليها الأضواء لقصر فترة المرابطين بالأندلس.

---

(١) ابن القطان المراكشي، أبو محمد حسن بن علي بن محمد الكتامي(ت بعد ٧٥٠هـ/١٣٤٩م): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان: دراسة وتحقيق/ محمود علي مكي ـ دار الغرب الإسلامي ـ الطبعة الأولى ١٩٩٠م ص٢١٧.

(٢) ابن القطان: نظم الجمان: ص٢٢٦، ٢٢٨، عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (١٢ – ١٤م): دار الطليعة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٨م ص٢١.

(٣) ابن القطان: نظم الجمان: ص٢٣٠، ٢٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٢.

ثانيًا: أشهر الأوبئة خلال عصر دولة الموحدين بالأندلس

أصاب الناس في عهد الموحدين الكثير من الكوارث منها القحط والمجاعات والأوبئة، منها على سبيل المثال الآتي:

في عام (٥٧١هـ/١١٧٦م) أصاب الناس وباءً شديداً وصفه ابن عذاري بقوله: " لم يعهد مثله فيما تقدم من الأزمنة قبله وانتهى عدد الأموات في كل يوم مائة إلى مائة وتسعين شخصا حتى إن الناس لا يستطيعون حملهم إلى الجامع للصلاة عليهم....."[١] .

ولعل هذا الوباء، الذي انتشر في بلاد المغرب والأندلس عام (٥٧١هـ/١١٧٦م) يعد أشد وباء عرفه عصر الموحدين، فقد كان له نتائج كارثية ولم يسلم منه أحد حتى أن أربعة أمراء من إخوة الخليفة يوسف بن يعقوب الموحدي ماتوا فيه، بينما كان يموت بسببه ما بين ١٠٠ و١٩٠ من عامة الناس في اليوم الواحد.

وفي عام (٦١٠هـ/١٢١٣م) ضرب بلاد المغرب والأندلس وباء شديد وصفه الناصري[٢] "بالوباء العظيم".

وفي عام (٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ضربت مجاعة شديدة مدينة سبتة حتى بلغ مد الشعير سبعة دراهم، وقد استمرت المجاعة واشتدت وانتشر الوباء في بعض المدن الأندلسية كغرناطة التي أصابها القحط والوباء عام (٦٣١هـ/١٢٣٢م)، وبسبب كثرة الأمطار التي أعقبت القحط تفشى الوباء واستمر إلى حدود عام (٦٣٥هـ/١٢٣٧م)[٣].

---

(١) أبو عبد الله محمد بن محمد ابن عذاري المراكشي (المتوفى: نحو ٦٩٥هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين): تحقيق/ محمد إبراهيم الكتاني وآخرون ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ لبنان، ودار الثقافة ـ الدار البيضاء ـ المغرب ـ الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م ص١٣٦.

(٢) الناصري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الدرعي الجعفري السلاوي (ت ١٣١٥هـ): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: تحقيق/ جعفر الناصري، محمد الناصري ـ دار الكتاب – الدار البيضاء ـ ج٢ ص٢٦٢.

(٣) عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية: ص٢٨.

هذه هي أشهر الأوبئة التي ذكرها بعض المؤرخين خلال عصر الموحدين بالأندلس.

ويلاحظ أن سبب تفشي هذه الأوبئة خلال عصري المرابطين والموحدين يتمثل في عدة عوامل منها ما يأتي:

١ـ حدوث القحط والمجاعات.

تتفشى الأوبئة أحيانا نتيجة لحدوث القحط المجاعات، ففي أوقات المجاعات تفرض على الناس نمطاً غذائيًا جديدًا في أغلبه غير خاضع لشروط الصحة، ويكون همهم الوحيد هو أن يسدوا رمقهم من الجوع، فيقتصر غذائهم آنذاك على أكل الحبوب المتعفنة والفاسدة من طول الاختزان، بالإضافة إلى أكلهم اللحوم الرديئة كلحم الجيف ولحوم مختلف الحيوانات(١).

٢ـ اضطراب المناخ وتغير فصول السنة.

لم تقتصر الآثار السلبية للتغيرات المناخية على حدوث المجاعات والفيضانات والكوارث فقط، وإنما تسببت أيضًا في حدوث أوبئة فتاكة هددت حياة الإنسان خلال عصري المرابطين والموحدين، وجعلته دائمًا عرضه لهذه الأمراض المفاجئة(٢).

٣ـ فساد الهواء والطعام.

يعد فساد الهواء في نظر أغلب الأطباء العامل الرئيسي المسئول عن حدوث الأوبئة بشكل عام، لأن الناس يشتركون جميعهم في استنشاقه، وعليه فإن فساده يعنى هلاكهم بالجملة(٣) وتحول الهواء وإحالته إلى الفساد سواء في الكيف أو في جوهره، ففساده في الكيف يكون بفساد كيفياته العرضية دون فساد الجوهر، أو تنقص على

(١) ابن زهر، أبي مروان عبد الملك بن زهر الأندلسي(ت٥٥٧هـ/١١٦٢م): التيسير في المداواة والتدبير: الرباط ـ أكاديمية المملكة المغربية ١٩٩١م ص ٤٥٩ .

(٢) ابن زهر: التيسير : ص٤٥٣ .

(٣) ابن زهر: نشاط والقوة والشفاء في الأغذية وهو كتاب الأغذية ، وضع حواشيه: محمد أمين الضناوي ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٨م ص١٢٦.

مقدارها الطبيعي، أما تغيره في الجوهر فيكون بفساد فصوله الجوهرية، وتعفنه وخروجه عن الطبيعة[١].

ولم يكن الهواء الفاسد العامل الرئيسي فقط المسبب في حدوث الجذام، وإنما تتسبب المياه

الفاسدة أيضاً في حدوث العديد من الأوبئة والحميات الدقيقة والأورام الخبيثة والجرب، وكذلك

الحصى في الكلى والمثانة؛ خاصة المياه الراكدة والمتغيرة حتى النتنة والمختلطة بالأقذار[٢]، وكذلك شرب المياه في بعض الأواني يكون في بعض الأحيان في نظر ابن زهر أحد مسببات الجذام؛ وهو الشرب في أنية النحاس والمداومة عليها[٣].

هذه بعض أسباب انتشار الأوبئة عامة وخلال عصري المرابطين والموحدين، لكن يلاحظ أن سبب انتشار الأوبئة خلال فترة البحث كان في الغالب بسبب حدوث المجاعات.

السلوكيات والإجراءات التي اتخذتها دولتي المرابطين والموحدين لمواجهة الأوبئة.

تختلف السلوكيات والإجراءات التي تتخذها الدول لمواجهة الأوبئة من بلد لآخر ومن عصر لآخر وربما ترجع إلى الحاكم نفسه ما إذا كان يريد المحافظة على شعبه والتخفيف عنهم، أم غير ذلك، وربما يرجع إلى استقرار الدولة وقوتها سياسيًا واقتصاديًا، وقدرتها على تحمل فاتورة ما تنفقه في مواجهة هذه الأوبئة من إقامة مستشفيات أو التخفيف عن العامة بتوزيع الطعام وغير ذلك أم لا، فلم يكن هناك خطط معينة من قبل أي دولة لمواجهة مثل هذه الأوبئة، خاصة أن معظم الإجراءات

---

(١) ابن خاتمة، أبي جعفر أحمد بن علي الأنصاري المريي الأندلسي (ت بعد٧٧٠هـ): تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، ضمن : ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف: تحقيق محمد حسن ـ المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون ٢٠١٣م ص ١٦٦.

(٢) ابن زهر: التيسير: ص ٤٥٣ .

(٣) ابن زهر: الأغذية: ص ١٢٢.

في الماضي كانت تتخذ بعد وقوع الكارثة، وسوف أتحدث عن بعض السلوكيات والإجراءات التي اتخذتها دولتي المرابطين والموحدين لمواجهة الأوبئة وتنقسم السلوكيات والإجراءات إلى قسمين:

أولاً: سلوكيات ودور الدولة في مواجهة الأوبئة.

١– تدخل الدولة لتخفيف الآثار السيئة الناتجة عن تفشي الأوبئة.

من الأمور التي يجب على الدولة القيام بها أثناء تفشي بعض الأوبئة التدخل للحد من بعض الآثار السيئة التي تخلفها هذه الجوائح، ويرى بعض الباحثين(١): أن هذا الأمر غير موجود ضمن أدوات البحث التي نتوفر عليها، وما تقدمه لنا المصادر لا يرتبط بتقديم مساعدة مباشرة للرعية، بل له علاقة بإحداث تعاون بين السلطة السياسية والرعية، والسعي وراء تجنيد هذه الأخيرة من أجل محاربة الجراد مثلا والذي انتشر في بلاد الأندلس خلال عصر المرابطين وبالتحديد خلال الفترة من (٥٢٧هـ/١١٣٥م) وحتى عام (٥٣١هـ/١١٣٧م) حيث استمرت المجاعات والأوبئة بسبب أكل الجراد لكل المحاصيل الزراعية(٢)، ويقضي على كلأ الماشية، هذا الأمر الذي دعا الأمير علي بن يوسف(٥٠٠ ـ٥٣٧هـ/١١٠٦ـ١١٤٢م) في إرسال رسالة إلى الرعية يحضهم على قتل الجراد(٣)، وهذا ما قد يوحي بأن ثمة تدابير كان الحكام يتخذونها لمواجهة هذه النكبات الطبيعية. ويمكن إدماج هذا التدبير ضمن "المعونة"، لأن هذا العمل عبارة عن إعانة بدنية أدتها الرعية للصالح العام بمشاركتها بحماس كبير في عملية إبادة الجراد(٤)، وكانت عمليات الإبادة تتم بمشاركة العامل نفسه، مثل ما قام به أحد مشاهير المجتمع السياسي المرابطي المنصور بن محمد بن الحاج

(١) عز الدين جسوس: الكوارث الطبيعية والأوبئة ومدى تأثيرها على العلاقة بين الرعاية والسلطة السياسية خلال حكم المرابطين: بحث منشور بمجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي عام ٢٠٠٢م ص٦٣، ٦٤.

(٢) ابن القطان: نظم الجمان: ص٢٣٠، ٢٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٢.

(٣) محمود علي مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين:، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ع ٧ و٨، ص ١٠٦، ١٠٩، ١٨٧، ١٩٢.

(٤) ابن القطان: نظم الجمان: ص٢٤٢.

ببلنسية حيث ترأس فئة أهل المدينة الذين خرجوا لإبادة الجراد. وربما نتيجة للكوارث التي كان يخلفها الجراد يقال إن ابن الحاج هذا شدد على أهل بلنسية في المساهمة في الإبادة(١).

٢– فرض الضرائب على الرعية.

كذلك من السلوكيات والاجراءات التي اتخذتها الدولة المرابطية لمواجهة تفشي الأوبئة هي فرض ضرائب أو جبايات على الرعية، فلا شك أن هذه الجوائح التي كانت تضرب البلاد وتحطم البنية الاقتصادية والمالية قد أثرت بشكل عميق على السلطة السياسية وعلى الرعية وعلى علاقتهما معا، فالحكام كان عليهم تمويل وتجهيز الحملات العسكرية بمؤنها وجندها وتحصيناتها وكان عليهم تدبير شؤون الاقتصاد لمواجهة هذه الجوائح التي كانت تهدم البنية الاقتصادية والمالية للدولة، ولم تكن الرعية والسلطة قادرتين على تحمل كل هذه المشاكل لمدة ثلاثين سنة موزعة على فترة الحكم المرابطي، مع استفحال الأمر عند سقوطهم، ولاشك أن الرعية باعتبار الوضعية الاقتصادية المتدهورة لم تستطع أن تفي بحاجيات الدولة من الضرائب، فأخذت تتذمر من النظام الجبائي الذي اشتط فيه الحكام بدون شك لسد العجز الحاصل في الميزانية. يقول بعض الباحثين: وإذا كان الأمر كذلك، فمن المفروض أن تحدث بعض الحركات الاحتجاجية أو بعض التوترات والفتن. إلا أن الأمر الغريب أننا لا نعثر على قلاقل وثورات قامت ضد السلطة السياسية للتنديد بالسياسة الجبائية. وما تتوفر عليه في هذا المجال هو ما حدث في سنة (٥٢٥هـ/١١٣١م) العام الثاني لجفاف دام ست سنوات، عندما رجمت رعية قرطبة قاضي الجماعة أبي عبد الله بن المناصف بسبب إشرافه على جمع ضريبة المعونة. وليس هناك من دليل أو أثر يفيد حدوث تصعيد في طريقة هذا الاحتجاج(٢).

أما عن تدخل دولة الموحدين للحد من بعض الآثار السيئة التي تخلفها هذه الجوائح، فتشير المصادر إلى أن الدولة في بعض الأحيان كانت تقوم باقتطاع

(١) جسوس: الكوارث الطبيعية والأوبئة: ص٦٣، ٦٤.
(٢) جسوس: نفسه: ص٦٩.

مجموعة من الرسوم الجبائية العينية من مداخيل الفلاحين وتجار المواد الغذائية وخزنها بقصد التصرف فيها عند الحاجة، وكان الهدف من هذه الإجراءات هو التخفيف من بؤس الناس والحيلولة دون وقوع اضطرابات تهدد وجودها(١) .

٣– إدخار الطعام وتخزينه.

يقول بعض الباحثين عن الادخار عند المرابطين: لم نعثر على إشارة لاستعمال إدخار أو مخزون خلال المجاعات والأوبئة لا من قبل السلطة السياسية ولا من قبل الرعية، وهذا ما قد يجعلنا نظن أنه لم تكن للدولة سياسة خاصة لمواجهة المجاعات والأوبئة، كما أن الرعية نفسها، وحسب ما نتوفر عليه من معلومات، لم يكن لها تفكير بهذا الاتجاه(٢).

أما دولة الموحدين فكانت تقوم في بعض الأحيان بادخار الطعام وإنشاء مخازن له للحاجة إليه عند نزول الكوارث، وقد ساعدت طبيعة بلاد الأندلس على ذلك، واهتم الأندلسيون بتهيئة المخازن والأهراء مستفيدين في ذلك من المميزات المناخية والتضاريسية لبلادهم، وذلك أن مطامير طليطلة ومخازن غرناطة وسرقسطة لا تتغير حنطتها ولا تتسوس على طول السنين يتوارثها الخلف عن السلف، وبفضل حنكة الأندلسيين، ومهارة صنعتهم في إعداد المؤن، وادخارها أن دامت فواكههم اليابسة عامة العام متعددة (٣).

أما عن ولاية مخازن الطعام ومستودعات الحبوب الرسمية في المغرب والأندلس، فقد كان يسند الإشراف عليها لعمال المدن وولاة الأقاليم، مع إبقاء الإشراف العام بيد الأمراء والخلفاء(٤)، وبقدر ما أغدق الخلفاء والسلاطين على ولاة المخازن، وتعهدوهم بالهبات والعطايا، بقدر ما تشددوا في معاقبة المتهاونين منهم في رعايتها.

---

(١) عبدالإله بنمليح: عرض كتاب "جوائع وأوبئة مغرب عهد الموحدين" للحسين بولقطيب: بحث منشور بمجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي عام ٢٠٠٢م ص١٢٦، ١٢٧.

(٢) جسوس: نفس المرجع: ص٧٠.

(٣) عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية: ص١٩٩، ٢٠٠.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب: قسم الموحدين ص٢٥٩.

سواء بواسطة رسائل تتضمن ضوابط تقنين التصرف في المستودعات الرسمية، مثلما جاء في رسالة العدل، التي بعث بها الخليفة عبد المومن الموحدي إلى ولاته قوله : «وإن ممن يسعى في نوع من أنواع الفساد.....، وتمتد أيديهم إلى المخازن هنالك فيعبثون فيها.....، ولا سبيل أن تنفذوا منها قليلاً ولا كثيراً إلا بعد استئذاننا وهذا أمر منا لكم»(١).

كما لم تتوان أجهزة الدولة في إنزال العقوبات بالمتهاونين من ولاة المستودعات، والمبالغة في نكاية المتورطين في نهبها من العمال والوزراء، وفي هذا الصدد أورد ابن عذاري: أن الخليفة أبا يعقوب يوسف الموحدي، تفقد المخازن عام (٥٧٩هـ/١١٨٣م)، وكان عام شدة وضيق، فلما فتحت المخازن لمساعدة الرعايا على تجاوز محنهم، وتكسير حاجز الغلاء الذي ألم بهم، ثبت للمخزن تعرض بعضها للنهب من طرف العمال، فبالغ الخليفة في محاسبتهم وأودعهم السجن بعدما استصفى أموالهم وأملاكهم(٢) .

وأخيرا فقد كان لمخازن الطعام دور حاسم في استمرار الدول، بتوفير المؤن للجيوش، وإغاثة الرعايا في الظروف الصعبة، وكذلك الصمود في وجه المجاعات والأوبئة.

كذلك من السلوكيات التي اتخذتها دولة الموحدين لمواجهة الأوبئة، هي إحصاء المنكوبين والمحرومين وفق مواصفات خاصة تسمح لهم من الاستفادة من أعطيات الدولة(٣).

وهذا السلوك لم نجده عند المرابطين، فلم نعثر على أعطيات منحتها الدولة للمنكوبين أو الفقراء وقت تفشي الأوبئة.

---

(١) ابن القطان: نظم الجمان: ص١٩٨، ١٩٩، الكوارث الطبيعية وأثرها ص٢٠٤.
(٢) البيان المغرب: ص١٥٨.
(٣) عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية: ص٢٥٤.

٤– التكافل الاجتماعي.

من السلوكيات التي قام بها حكام دولة الموحدين خلال حدوث الكوارث (الأوبئة والمجاعات) هو نظام التكافل الاجتماعي ففي (٥٦٦هـ/١١٧١م) قام الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف الأول (٥٥٨–٥٨٠هـ/ ١١٦٣ـ١١٨٤م) بالتصدق على الضعفاء والفقراء حتى عم الفضل والانعام ورحل عن الضعفاء الفقر والاعدام وتخيلوا الصدقة كأنها أحلام على حد تعبير ابن صاحب الصلاة(١).

وفي عام (٥٩١هـ/١١٧٥م) أثناء تفشي الوباء والمجاعة التي أصابت دولة الموحدين، حرص الخليفة المنصور الموحدي على أعمال البر والإحسان وأشرك معه الأولياء في توزيع الصدقات، وكان نصيب أحد الأولياء أربعمائة دينار، فقام بتوزيعها على مستحقيها من دون أن يحتفظ منها بشيء، وبالتالي أدرك الخليفة المنصور الموحدي أن العمل الخيري الظرفي رغم أهميته لا يقضي على آثار الكوارث ومضاعفاتها من بؤس وحرمان وفاقة ويتم وترمل وعجز دائم إلا بعناية مستديمة(٢).

وبعد عام (٦٠٩هـ/١٢١٢م) تتالت على بلاد المغرب والأندلس سلسلة من الكوارث الطبيعية، كان أشدها وقعاً تلك "المجاعة العظمى" التي انطلقت بوادرها منذ (٦١٤هـ/١٢١٧م)، وبلغت أوجها عام (٦١٦هـ/١٢١٩م) وأعقبها تفشي الأوبئة، إلى درجة أن نوائبها تركت بصمات واضحة في الذاكرة الشعبية، فأرخوا بها لأحداثهم حين دعوها "سنة وقليل"(٣). هذا الوضع المأساوي أملى على الخليفة المستنصر الموحدي ركوب مدها، مبدياً تضامناً حقيقياً مع المتضورين جوعاً لإرجاع هيبة الدولة، من خلال الإحسان للرعايا، وإمداد الأسواق بالمؤن الضرورية، وتقليص هامش المضاربات والاحتكار وغلاء الأسعار، "ذلك أنه لما علم ما حل بالمسلمين في بلاده من المجاهدة

(١) ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد (ت٥٩٤هـ/١١٩٨م): المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين: تحقيق/ عبد الهادي التازي ـ دار المغرب ١٩٨٧م ص٤٢١.

(٢) المراكشي: المعجب: ص٣٦٤، عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية: ص٢٥٦.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب: قسم الموحدين ص٢٦٧، عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية: ص٢٥٦.

في غلاء السعر والشدة أمر بفتح المخازن المعدة لاختزان الطعام، ففتحت للعامة وفرقت عليهم، فذكر أنها كانت بثمن للأقوياء وبغير ثمن للضعفاء، وبالجملة فإنه أصدق منها شيئاً كثيراً، وأعطى من الأموال عطاء جزيلاً فحسنت أحوال الناس بذلك»[١].

أما بالنسبة لدولة المرابطين: فلم تذكر المصادر المتاحة ما يشير إلى أي تعاضد اجتماعي خلال الظروف العصيبة .

٥– إنشاء البيمارستانات[٢] (المستشفيات).

عملت السلطة الحاكمة في عصر الموحدين على إقامة مؤسسات طبية لمداوة المرضى، وعلاجهم على نفقة الدولة، فوجد أصحاب الأمراض قدراً لا يستهان به من الرعاية الطبية خصوصًا في عصر الموحدين، فقد شهدت بلاد المغرب والأندلس نهضة طبية خلال هذا العصر، وقد تمثلت في بناء البيمارستانات التي أقيمت خلال هذا العصر؛ أما بالنسبة للمرابطين لم يرد ذكر لمستشفيات أنشأت طول فترة حكمهم[٣]، وكانت أول مستشفى هي تلك التي أنشأها المنصور الموحدي بمدينة مراكش[٤]، وكان المشفى بديع البناء، وعلى مستوى عال من حيث الإمكانيات الطبية والأدوية والأطباء المهرة، إذ يصفه المراكشي بقوله: " وبنى (أي المنصور الموحدي) وبنى بمدينة مراكش بيمارستانًا ما أظن أن في الدنيا مثله؛ وذلك أنه تخير ساحة

(١) ابن عذاري: البيان المغرب: قسم الموحدين ص٢٦٧، عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية: ص٢٥٧.

(٢) البيمارستان: كلمة فارسية الأصل مكونة من شقين هما : بيمار وتعنى عليلا وستان وتعنى دار أو مقر للمرضى ، وأول مشفى أنشأت في الإسلام كان عبارة عن خيمة أمر بها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لرفيدة الأسلمية في غزوة الخندق لإسعاف الجرحى (على بن عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة العربية الإسلامية: مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ١٩٨٨م، ص٨٠ .

(٣) حسن على حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين: مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٨٠م ص٤٠١ .

(٤) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستان في الإسلام : المطبعة الهاشمية ـ دمشق ـ١٩٣٩م ص٢٨٠.

فسيحة بأعدل موضع في البلد (أي أحسن موضع وأفضله)، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه؛ فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح؛ وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهًا كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسطه، إحداها رخام أبيض؛ ثم أمر له من الفُرُش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف، ويأتي فوق النعت. وأجرى له ثلاثين دينارًا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجًا عما جلب إليه من الأدوية. وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال؛ وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم، من جهاز الصيف والشتاء؛ فإذا نقه المريض(أي برئ وأفاق) فإن كان فقيرًا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل(أي ينفرد بتدبير أمره)، وإن كان غنيًّا دفع إليه ماله وترك وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله، يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت أهل بيت، يقول: كيف حالكم؟ وكيف القَوَمة(أي من قام على أهله: تولى أمرهم، وقام بنفقاتهم) عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج؛ لم يزل مستمرًّا على هذا إلى أن مات ـ رحمه الله ـ"[١].

أما في الأندلس: فقد أنشأ المنصور الموحدي قصرًا يسمى بقصر الفرح لعلاج المرضى في ضواحي مدينة إشبيلية، بناءً على نصيحة طبيبه الخاص أبي بكر بن زهر[٢].

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ص٢٠٩، ٢١٠، أحمد صالح عبد الغني: دور الدولة والمجتمع في مواجهة وباء الجذام في المغرب والأندلس في عصري المرابطين والموحدين: بحث منشور بمجلة كلية الآداب ـ جامعة حلوان، ص٩.

(٢) ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم (ت٦٦٨هـ/١٢٧٠م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء: تحقيق/ نزار رضا ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت: ص٥٢٣، أحمد صالح: دور الدولة والمجتمع في مواجهة وباء الجذام في المغرب والأندلس: ص١٠.

٦- العزل الصحي (الحجر الصحي):

نظرً لخطورة وباء الجذام، وسرعة انتشاره بين الناس، واتقاء العدوى خصصت الدولة الموحدية حارات للمصابين بالجذام خارج المدن كانت بمثابة الحجر الصحي لمرض الجذام، بما يعنى أن بناء هذه الحارات لم يكن أمرا عشوائيًا أو فوضوياً، ولكن بمنهج وخطة محكمة يحسب فيها الموقع واتجاه الريح ومصادر المياه وتصريفها اتقاء العدوى وشيوع المرض .

أما في الأندلس فلا يعرف على وجه الدقة متى بدأت عملية عزل المريض، لكن النصوص تشير إلى أن مدينة قرطبة أول المدن التي تخصص حارة للجذام(١).

كما وجد أيضًا إشارة حول العزل المنزلي لمريض الجذام، حيث أشار (المازوني) إلى قضية عزل إمام مسجد بمدينة مرسية أصيب بمرض الجذام عن الناس في داره، حتى لا يتأذوا منه، وذلك من خلال عرض لآراء الفقهاء الأوائل حول ذلك، والأهم من ذلك أنه بين رأيه بضرورة عزله عن الناس داخل داره حتى يبرأ (٢).

هذه بعض السلوكيات التي اتخذتها دولتي المرابطين والموحدين، إلا أن الأخيرة تفوقت في بعض السلوكيات والإجراءات في كافة النواحي الطبية والاجتماعية وتخزين الطعام والتكافل وغير ذلك من الأمور التي قد تساعد الدولة عند نزول الكوارث (الأوبئة والمجاعات).

ثانيًا: سلوكيات ودور المجتمع في مواجهة الأوبئة.

أما عن دور المجتمع في مواجهة الأوبئة فيمكن تقسيمه على النحو التالي:

١- سلوكيات ودور الطبقة العليا والأغنياء.

قام أبناء الطبقة العليا وأغنياء المسلمين في بلاد المغرب والأندلس خلال عصري المرابطين والموحدين بدورهم أثناء تفشي الأوبئة والمجاعات وذلك إدراكا

(١) أحمد صالح: دور الدولة والمجتمع في مواجهة وباء الجذام: ص٨.

(٢) المازوني، موسي بن عيسى المغيلي (ت ٨٨٣هـ): الدرر المكنونة في نوازل مزونة: المكتبة الوطنية ـ الجزائر ـ د.ت ج١ ص٢٦، أحمد صالح: دور الدولة والمجتمع في مواجهة وباء الجذام: ص٨.

لدورهم في المجتمع، فعملوا على تخفيف معاناة وآلام مرضى، وذلك من خلال الإنفاق على القائمين بعملهم في المجال الصحي وأماكن العزل، أو الأوقاف والأحباس التي أوقفها الأغنياء على معالجة المرضى، كما حرص الواقفون على دفع الصدقات على هؤلاء المرضى حتى يتمكنوا من مساعدتهم(١) .

وقد جاء في بعض المصادر أثناء تفشي بعض الأوبئة (الجذام): أن رجلاً من أهل غرناطة حبس غلة جنان على الجذامى، وقال في نصر المحبس: " وذلك لم يلحق أبدًا من عقب المحبس أو عقب عقبه"(٢). كما سئل ابن رشد (فيمن حبس على ابنه وعلى عقبه وعقب عقبه، فإن انقرضوا رجع الوقف إلى صاحبه أو إلى أقرب الناس إليه إن كان ميتًا، فإن انقرضوا ولم يكن للمحبس قرابة رجع إلى المرضى المجذومين والعميان بغرناطة سواء بينهم(٣).

أما عن إنفاق بعض الأغنياء على الفقراء، فتشير بعض الروايات إلى أن الفئات المعدمة من المجتمع لجأت خلال مجاعة ووباء (٥٣٥هـ/١١٤١م) إلى أحد الأغنياء المتصوفة حيث جمع هذا المتصوف "خلقًا كثيرًا من المساكين، فكان يقوم بمؤنتهم وينفق عليهم ما يصطاده من الحوت وغيره إلى أحضب الناس"(٤).

من خلال ما سبق يمكن القول: أن الأغنياء والفئات العليا من المجتمع كانت تستطيع الحصول على ما تسد به رمقها إما بواسطة إدخار مخزونها، أوبواسطة

---

(١) صالح: دور الدولة والمجتمع في مواجهة وباء الجذام: ص١٠.

(٢) الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت٩١٣هـ/١٥٠٨م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ١٩٨١م ج٩ ص١٧٣، صالح: مرجع سبق: ص١٠.

(٣) ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م): فتاوى ابن رشد: تحقيق/ المختار بن الطاهر التليلي ـ دار الغرب الإسلامي ١٩٨٧م ج١ ص٦٢٤، صالح: دور الدولة والمجتمع: ص١٠.

(٤) ابن الزيات، يوسف بن يحيى التادلي (ت٦٢٧هـ/١٢٣٠م): التشوف إلى رجال التصوف: تحقيق/ أحمد توفيق ـ منشورات كلية الآداب ـ الرباط ١٩٨٤م ص١٨٣، جسوس: الكوارث الطبيعية والأوبئة: ص٦٩.

أموالها التي تستطيع شراء ما تحتاجه بها، وكان منهم من يقوم بدوره في مسعدة الفقراء والمحتاجين أثناء تفشي الأوبئة والمجاعات، وكانت هناك طائفة أخرى بالتأكيد لا تعير للمساكين وللعامة اهتماما، ولعل هذا السلوك الأخير يتزايد عند استفحال أمر المجاعات والأوبئة.

٢ـ سلوكيات ودور الأطباء.

الطب هو الذي يبحث في بدن الإنسان من جهة ما يصح ويمرض وحفظ الصحة وإزالة المرض، ولذلك كان للطب والأطباء دور هام في مواجهة الأوبئة، فكانوا يقدمون العلاج اللازم للوقاية من الأمراض والأوبئة، كما كان الأطباء يقومون باتخاذ بعض التدابير العلاجية لمواجهة الأمراض والأوبئة منها منع المريض من ممارسة رياضة معينة أو تجنب كل ما يجهد المريض. كان هناك أيضا الطب الشعبي أو العلاج الشعبي الذي كان يمارسه العشابين نتيجة اكتسابهم الخبرة دون دراسة، وإنما اكتسبوها من ممارسة الاستطباب بناء على التجربة التي توارثوها جيل عن جيل، وأحيانا كانت تجدي نفعا وأحيانا كانت تخيب(١).

وقد حظي الطب والأطباء في بلاد المغرب والأندلس في عصري المرابطين والموحدين باحترام كبير من جانب السلطتين المرابطية والموحدية، وأولوا له عناية شديدة وعملوا على تشجيع الأطباء وترقيتهم(٢)، فشهد الطب تقدمًا تشهد به أسماء الأعلام المتألقة في حضارة المغرب والأندلس وأشهرها عائلة بني زهر التي تعتبر من نبلاء الأندلس، الذين اشتهروا بالجاه والتقوى(٣)، وكذلك اشتهرت بنبوغ أفرادها في الفقه والسياسة والطب من القرن الخامس إلى القرن السابع الهجري، فأنجبت أطباء تربعوا

(١) عامر حمود: الأمراض والأوبئة وأثرهما على الحياة الاجتماعية لبلاد المغرب العربي في العصور الإسلامية: بحث منشور بمجلة الجامعة العراقية ـ العدد١/٤١ ص٣٥٣.

(٢) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين: ص٤٠٢.

(٣) عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين: دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ١٩٨٨م، ص٤١٥، صالح: دور الدولة والمجتمع: ص١١.

على عرش الطب في الغرب الإسلامي[١]، خلال ستة أجيال متتابعة توارثت العلم الطبي في المغرب والأندلس، كما وصلوا إلى أرفع مناصب الإدارية كمنصب الوزارة[٢].

يأتي على رأس هذه الأسرة أبو العلاء زهر بن عبد الملك (ت٥٢٥هـ/١١٣٥م) وولده أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء (ت٥٥٧هـ/١١٦٢م) النابغة في الطب حتى ذاع ذكره في المغرب والأندلس، حتى لقب بشيخ الطب[٣]، وقد عمل طبيبًا لأمراء المرابطين، وقد علا قدره أيضًا لدي الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي (٥٣٧– ٥٥٨هـ/١١٤٣– ١١٦٢م) حيث كان طبيبة الخاص[٤].

تلك أمثلة قليلة على مدى ما حظي به الطب والأطباء من اهتمام وتقدير في الغرب الإسلامي خلال فترة الدراسة .

وقد مثل هذا التقدم الهائل للطب العصر الذهبي للأطباء في الغرب الإسلامي، وفتح الطريق لهؤلاء الأطباء المهرة المبدعون للقيام بأدوار هامة جداً في مواجهة وباء الجذام تمثلت في عدة إجراءات طبية لمواجهة هذه الجائحة وهي:

أولاً : الطب الوقائي :

يبدأ دور الأطباء في مواجهة الوباء بالطب الوقائي كقاعدة لحفظ صحة الناس قبل وقوع المرض وقد ذكرها ابن خاتمة الأندلسي[٥] في ستة أقسام يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

(١) نهاد عباس زينل: الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس: دار الكتب العلمية ـ بيروت ٢٠١٣م ص ١٥٨.
(٢) صالح: دور الدولة والمجتمع: ص١٢.
(٣) ابن زهر: التيسير: ص٣٨، ١٩٨، صالح: دور الدولة والمجتمع: ص١٢.
(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء: ص٥٢٠، صالح: دور الدولة والمجتمع: ص١٢.
(٥) تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد: ص١٠٢، صالح: دور الدولة والمجتمع: ص١٣.

أولاً: وضع الرياحين على فراش البيوت والمواظبة على استنشاق الهواء النقي، وتناول الليمون لأن لديه القدرة على مقاومة السموم، واستنشاق أزهار الورود والبنفسج يساعدوا على إمداد الجسم بالطاقة التي تساعده على مقاومة المرض.

ثانيًا: عدم التنقل بين الأماكن، في حالة حدوث وباء في بلد ما حتى لا يبذل جهدًا، ويضطر الإنسان إلى استنشاق كم أكبر من الهواء الملوث بالوباء، ويكون الإنسان عرضه لتلقي العدوى.

ثالثًا: ضرورة إتباع نظام غذائي يلاءم كل فصل من فصول السنة، ويكون موافقًا لأعمار الناس وأجناسهم، وذلك تجنبًا للوقوع في أمراض مختلفة، والتي تكون أهم أسبابها جهل الناس بالثقافة الصحية، ففصل الربيع مثلاً، هو الفصل الذي تكثر فيه الأمراض، رأى الأطباء فيه ضرورة الالتزام بالأغذية الخفيفة المعتدلة كالحنطة ولحم الجدي ولحم الماعز الصغير ولحم الدجاج والبيض، واجتناب أكل الأغذية الرطبة كاللبن والسمك وما هو مالح كالزيتون والسمك المملح، والالتزام بشم الروائح العطرة كالزعفران والعود والعنبر والمسك(١).

رابعًا: الابتعاد عن الأطعمة الثقيلة والغنية بالدهون كالعصايد والثرايد والأسفنج والكعك والمعجنات، والإقلاع عن اللحوم، وإن كان لابد فيجب طهيها جيدًا بخل الليمون، إضافة إلى تجنب الشبع بشكل مباشر.

خامسًا: تنظيم فترات النوم والاستيقاظ، بحيث يقتصر نوم المرء على فترات الليل فحسب، وفي أماكن جيدة التهوية.

سادسًا: ضرورة التخلص من فضلات الجسم بتناول المشروبات، وأيضًا بعمل الحجامة للتخلص من الدماء الفاسدة في الجسم، والاهتمام بالنظافة العامة بالإكثار من الاستحمام.

سابعًا: أن يعيش المرء في بيئة مليئة بالمسرات، وأن يبتعد عن المشاعر السلبية، وذلك بالقراءة وخاصة كتب التاريخ والفكاهات والأشعر الغزلية منها(٢).

---

(١) ابن زهر: التيسير ص٤٥٣، ٤٥٤، صالح: دور الدولة والمجتمع: ص١٤.
(٢) ابن خاتمة: مصدر سابق: ص ١٠٢، صالح: دور الدولة والمجتمع: ص١٤.

ثانيًا: العلاج بالأدوية :

كان العلاج يتم بطريقة تدريجية ابتداءً من الدواء المفرد، وهو ما يؤخذ من مصدره النباتي أو الحيواني أو المعدني دون خلطة مع دواء أخر(١).

ثالثا: التداوي بالأغذية :

تُعد التغذية من الأساليب الطبية الراقية في المعالجة الوقائية من الأمراض، إذ تميز الأطباء المسلمون بميلهم في العلاجات إلى الأغذية الدوائية أكثر منه إلى الأدوية الأخرى، إلا عند الاضطرار، لأنها تحافظ على الحياة البيولوجية للفرد، ومن ذلك عرفوا خواص الأغذية الضار منها والنافع، وعد الغذاء العنصر الأساسي الذي يرد إلى البدن صحته وينصح أبو الوليد بن رشد (ت٥٩٥هـ/١١٩٨م) باستخدام الأغذية الدوائية حيث كان الأطباء القدامى لا يعالجون إلا بالأغذية الدوائية(٢).

وفي نفس المعنى ينصح الرازي بأن كل علة وبائية يجب أن يكون" قانون علاجك فيها الطيوب والأطياب"(٣).

٣– سلوكيات ودور العامة.

للعامة أدوار رئيسية وهامة في مواجهة الكوارث الطبيعية كالأوبئة والمجاعات وغير ذلك بل يقع عليهم العبء الأكبر لأنهم هم الذين يتحملون الضرائب التي تفرض عليهم، ويصبرون على الجوع خلال حدوث المجاعات، ويعانون أشد العناء أثناء تفشي الأوبئة، لذا فإنهم يقومون بدورهم على أكمل وجه، وتختلف سلوكياتهم حسب طبقاتهم، ومن خلال السطور القادمة نتعرف على موقف العامة وسلوكياتهم أثناء تفشي الأوبئة مومن هذه السلوكيات ما يلي:

---

(١) ابن وافد، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى (ت ٤٦٦هـ/١٠٧٤م): الأدوية المفردة: إسبانيا ــ ١٩٩٥م ص١٧، صالح: دور الدولة والمجتمع: ص١٤.

(٢) ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م): رسائل ابن رشد الطبية: تحقيق/ جورج شحاتة ـ الهيئة العامة للكتاب ــ القاهرة ١٩٨٧م، ص٤٠٣.، صالح: دور الدولة والمجتمع: ص١٥.

(٣) الرازي، أبو بكر محمد بن يحيي بن زكريا (ت٣١١هـ/٩٢٣م): سر صناعة الطب: تحقيق/ خالد حربي ــ دار الثقافة العلمية ـ الإسكندرية، ص ١٠٨، صالح: دور الدولة والمجتمع: ص١٥.

١ـ التطوع لخدمة المرضى.

تقوم جماعات من العامة بالتطوع لمساعدة المرضى، والإشراف على رعايتهم داخل المستشفيات التي أقيمت لهم، اعتمادًا على ما تتلقاه من أهل الخير أو الدولة أو ريع ما يوقف على مساعدة المرضى من مال أو أرض أو عقار(١).

وفي بعض الأحيان نجد أن غالبية العامة اتخذت موقفًا سلبيًا من مرضى الجذام، ينم عن عدم فهم وإدراك لطبيعة المرض والمصابين به، فلم يكتفوا بالرهبة والاشمئزاز منهم، بل سعوا بين الحين والأخر للانتقام منهم، وطردهم بعيدًا في الصحراء اتقاءً للعدوى وخوفًا من الموت(٢) .

٢ـ التقرب إلى الأولياء والصالحين.

في بعض الأحيان يعتقد العامة أن سبب الأمراض قد يكون مسا من الجن أو عقابًا إلهيًا سلطة الله عليهم ليعاقبهم به، فإنهم رأوا في التقرب من الأولياء وطلب العلاج منهم الوسيلة الوحيدة والناجعة للتخلص من هذه الأمراض التي يعانون منها(٣).

٣ـ احتكار السلع (القمح والشعير).

في بعض الأحيان لجأ الفلاحون إلى إدخار بعض المحاصيل الزراعية كالقمح والشعير تحسبا للظروف الطارئة، في حين لجأ التجار إلى احتكارها لرفع سعرها(٤).

ولا شك أن هذا السلوك من الأمور السلبية التي لجأ إليها العامة من الفلاحين والتجار خلال تفشي الأوبئة في عصر الموحدين.

٤ـ اللجوء إلى أساليب غذائية مختلفة.

لجأ بعض العامة خلال تفشي الأوبئة والمجاعات إلى أساليب غذائية مختلفة من أجل البقاء على قيد الحياة، نتيجة للطوارئ التي تعيشها، وهذا السلوك عمل به جميع أفراد المجتمع. إلا أن الفرق بين الطبقتين يكمن في أن الفئات العليا كان

(١) الناصري: الاستقصا: ج٢ ص١٩٨.
(٢) صالح: دور الدولة والمجتمع: ص١١.
(٣) صالح: دور الدولة والمجتمع: ص١١.
(٤) عبدالإله بنمليح: عرض كتاب "جوائع وأوبئة مغرب عهد الموحدين: ص١٢٦.

بإمكانها الحصول على المواد الغذائية الجيدة بأموالها أو بما تبقى لها منها، زيادة على أنها هي التي تمتلك أكثر دواب المدينة من خيل وبغال وحمير، وهو ما لم تكن تستطيعه الفئات الدنيا التي كانت إما تهلك جوعا أو تقتات من الجلود والفئران والقطط واللحم البشري، ويؤدي اشتداد المجاعة أو الوباء إلى لجوء العامة والخاصة إلى نفس المواد الغذائية، إذ استوى في المحنة وفي الحصول على الغذاء الفقراء والأغنياء(١).

٥ـ الهجرة.

أدى انتشار هذه الأوبئة خلال عصري المرابطين والموحدين إلى هجرة العديد من السكان فرارًا من الأمراض، وتعد الهجرة من البادية إلى المدينة نتيجة عامة من نتائج الكوارث الطبيعية، ولا شك أن هذا السلوك تنتج عنه مشاكل كثيرة ترتبط بالتشرد والتسول وانتشار البغاء(٢).

٦ـ السطو والتعدي وقطع الطرق.

كان من السلوكيات السلبية التي ظهرت أثناء حدوث الكوارث (الأوبئة والمجاعات) ظاهرة السطو والتعدي والغصب وقطع الطرق، وهي ممارسات عدوانية انتفى بسببها التعايش داخل المجتمع في مراحل حرجة، استهدفت فيها مصادر عيش الإنسان سواء منها المنقولة أو الثابتة(٣).

ففي قرطبة شاعت عمليات السطو على ممتلكات الأحباس وأراضي الدولة في منعطفات تاريخية غلبت عليها الكوارث الطبيعية والفتن، فحاول الأمير المرابطي علي بن يوسف سنة (٥١٥هـ/١١٢١م) استرجاعها لكن الفتن المندلعة حالت دون تحقيق طموحه(٤).

وعلى إثر تعاقب كوارث القحط والجراد والمجاعة والوباء ببعض حواضر الأندلس إبان الأول من القرن السادس الهجري، عدت إشبيلية مسرحاً لأعمال السطو

(١) ابن عذاري: البيان المغرب: قسم الموحدين: ج٤ ص٣٨.
(٢) بنمليح: عرض كتاب "جوائع وأوبئة مغرب عهد الموحدين: ص١٢٦.
(٣) عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية: ص٧٨، ٧٩.
(٤) الونشريسي: المعيار المعرب: ج٩ ص٩١٣، عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية: ص٧٩.

المنظم، كما تزامنت الكوارث الطبيعية في المغرب والأندلس مع الفترة الحرجة من عمر الدولة المرابطية، وظهر الموحدين كعصبية فتية صاعدة، وفي خضم هذا المخاض نشطت حركة الغصب والتعدي، وتمركز اللصوص وقطاع السبل في أبواب المدن بالعدوتين وانقطع السفر والأسباب وكثر النهب وانقطعت الطرق. هذا النص عني يكشف تجليات انعدام التوازن الاجتماعي المتمثلة في تعذر الأسفار، وانقطاع سيل التجارة، وإخافة السبيل، وتزايد خطر اللصوصية(١).

والراجح أن عمليات الغصب والسطو اتخذت طابعاً أكثر حدة زمن القحوط والأوبئة والمجاعات في المغرب والأندلس عام (٥٤٣هـ/١١٤٨م)"، حيث تمركزت عصابات اللصوص، في المحاور الرئيسية التي كان يسلكها عادة المسافرون والتجار، مما أثار حفيظة الخليفة عبد المومن الموحدي، وصب جام غضبه على الطلبة والشيوخ وكافة الموحدين عن تقصيرهم في استتباب الأمن.

كما شدد الخليفة عبد المومن الموحدي على تعقب مرتكبي هذه الجرائم في ظروف الشدة، وفي مقدمتها سفك الدماء وانتهاك الحرمات، وفي حال وقوع بعض أهل الحرابة والتعدي في شراك السلطة القائمة ولاسيما في عهد قوتها فإنها تبالغ في التنكيل بهم إلى حد القتل، وفي هذا الصدد ذكر الوزير أبو الوليد إسماعيل بن حجاج الأعلم الإشبيلي أنه "رأى على نهر قرطبة ثلاثين نفساً مصلوبين من قطاع الطريق"(٢).

هذه كانت بعض سلوكيات العامة أثناء تفشي الأوبئة خلال عصر المرابطين والموحدين، ومن هنا يتبين أن لكلٍ دوره في مواجهة الأوبئة مؤسسات الدولة، الحاكم، المجتمع، الفرد، الطبيب، وكان الكل يقوم بدوره على حسب مقدرته.

---

(١) عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية: ص٨٠.

(٢) المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب: تحقيق/ إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى١٩٩٧م ج٣ ص٣١٦، عبد الهادي البياض: الكوارث الطبيعية: ص٧٨، ٧٩.

نتائج البحث

بعد إلقاء الضوء على هذا الموضوع: وهو سلوكيات الدول والمجتمعات في مواجهة الأوبئة (دولتي المرابطين والموحدين في الأندلس [٤٨٤-٦٦٨هـ/ ١٠٩٢-١٢٦٩م] أنموذجا) فإن الباحث قد توصل إلى بعض النتائج منها:

ـ أظهرت الدراسة أن للأوبئة أخطار كبيرة تصيب الأمم والشعوب فتهلكها، وتهدد أمن الدول وتؤذن بزوالها وإدبارها.

ـ كشفت الدراسة أن بلاد الأندلس قد تعرضت للكثير من الأوبئة خلال عصر دولتي المرابطين والموحدين، والتي فتكت بالكثير من الأرواح، وأدت إلى تزايد ثراء الطبقات العليا التي تضم أهل الدولة وكبار الأمراء والتجار بفعل احتكار السلع والمؤن.

ـ أثبت البحث أن إجراءات الدول لمواجهة الأوبئة تختلف من دولة لأخرى، ومن عصر لآخر، حسب قدرة الدول ورغبتها في التخفيف عن كاهل شعوبها أم لا.

ـ تختلف سلوكيات المجتمع في عصر الأوبئة فقد يلجأ الناس إلى ربهم لرفع البلاء، ويتعاون الناس فيما بينهم لخدمة المرضى وإطعام الفقراء، ورفع المعاناة عن بعض فئات المجتمع.

ـ أكد البحث على زيادة جرائم السرقة والزنا والقتل وقطع الطرق خلال فترة الدراسة.

ـ وجوب تجنب أماكن العدوى والالتزام بقواعد الحجر الصحي التي تحددها الحكومات والقوانين.

ـ وجوب الالتزام بإرشادات وتوجيهات الهيئات الطبية لأنها الأكثر معرفة ودراية بتفاصيل المرض وآثاره وذلك في كل بلد.

ـ وجوب التكافل والتعاون بين البشر للتغلب على هذا الوباء الخطير.

ـ أثبت البحث أن لكلٍ دوره في مواجهة الأوبئة مؤسسات الدولة، الحاكم، المجتمع، الفرد، العالم، الطبيب، وكان الكل يقوم بدوره على أكمل وجه.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

●ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ/١٢٧٠م):

١ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء : تحقيق/ نزار رضا ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت

●ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م):

٢ـ رسائل ابن رشد الطبية: تحقيق/ جورج شحاتة ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٧م.

٣ـ فتاوى ابن رشد: تحقيق/ المختار بن الطاهر التليلي ـ دار الغرب الإسلامي ١٩٨٧م.

●ابن خاتمة، أبي جعفر أحمد بن علي الأنصاري المريي الأندلسي (ت بعد٧٧٠هـ):

٤ـ تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، ضمن : ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف: تحقيق محمد حسن ـ المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون ٢٠١٣م.

●ابن زهر، أبي مروان عبد الملك بن زهر الأندلسي(ت٥٥٧هـ/١١٦٢م):

٥ـ التيسير في المداواة والتدبير: الرباط ـ أكاديمية المملكة المغربية ١٩٩١م.

٦ـ نشاط والقوة والشفاء في الأغذية وهو كتاب الأغذية ، وضع حواشيه: محمد أمين الضناوي ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٩٨م .

●ابن الزيات، يوسف بن يحيى التادلي (ت٦٢٧هـ/١٢٣٠م):

٧ـ التشوف إلى رجال التصوف: تحقيق/ أحمد توفيق ـ منشورات كلية الآداب ـ الرباط ١٩٨٤م.

●ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن محمد (ت٥٩٤هـ/١١٩٨م):

٨ـ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين: تحقيق/ عبد الهادي التازي ـ دار المغرب ١٩٨٧م.

●ابن عذاري، أبو عبد الله محمد بن محمد المراكشي (المتوفى: نحو ٦٩٥هـ):

٩ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين): تحقيق/ محمد إبراهيم الكتاني وآخرون ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ لبنان، ودار الثقافة – الدار البيضاء – المغرب – الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

●ابن القطان المراكشي، أبو محمد حسن بن علي بن محمد الكتامي (ت بعد ٧٥٠هـ/١٣٤٩م):

١٠ـ نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان: دراسة وتحقيق/ محمود علي مكي – دار الغرب الإسلامي – الطبعة الأولى ١٩٩٠م.

●ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت ٧٥١هـ):

١١ـ زاد المعاد في هدي خير العباد: مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ مكتبة المنار الإسلامية ـ الكويت ـ الطبعة السابعة والعشرون ـ ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

●الرازي، أبو بكر محمد بن يحيي بن زكريا (ت٣١١ هـ/٩٢٣م):

١٢ـ سر صناعة الطب: تحقيق/ خالد حربي – دار الثقافة العلمية – الإسكندرية.

●المازوني، موسي بن عيسى المغيلي (ت ٨٨٣ هـ):

١٣ـ الدرر المكنونة في نوازل مزونة: المكتبة الوطنية – الجزائر– د.ت

●المراكشي، محيي الدين عبد الواحد بن علي التميمي (ت ٦٤٧هـ/ ١٢٤٥م):

١٤ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين: تحقيق/ الدكتور صلاح الدين الهواري – المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.

●المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ):

١٥ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب: تحقيق/ إحسان عباس ـ دار صادرـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى١٩٩٧م .

●الناصري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد (ت ١٣١٥هـ):

١٦ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: تحقيق/ جعفر الناصري، محمد الناصري ـ دار الكتاب – الدار البيضاء .

●ابن وافد، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحيى (ت ٤٦٦هـ/١٠٧٤م):

١٧ـ الأدوية المفردة : إسبانيا ــ ١٩٩٥م.

●الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت٩١٣هـ/١٥٠٨م):

١٨ـ المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب ــ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ١٩٨١م.

ثانياً: المراجع

●أحمد صالح عبد الغني:

١٩ـ دور الدولة والمجتمع في مواجهة وباء الجذام في المغرب والأندلس في عصري

المرابطين والموحدين: بحث منشور بمجلة كلية الآداب ـ جامعة حلوان.

●أحمد عيسى:

٢٠ـ تاريخ البيمارستان في الإسلام: المطبعة الهاشمية ـ دمشق ـ١٩٣٩م.

●أحمد معمور العسيري:

٢١ـ موجز التاريخ الإسلامي منذ عهد آدم عليه السلام (تاريخ ما قبل الإسلام) إلى عصرنا الحاضر ١٤١٧هـ/٩٦ـ٩٧م (فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض) الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م

●حسن على حسن:

٢٢ـ الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين: مكتبة الخانجي ـ القاهرة ١٩٨٠م .

●خليل إبراهيم السامرائي وآخرون:

٢٣ـ تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس: دار الكتاب الجديد المتحدة ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٠م

●زامباور:

٢٤ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي: ترجمة/ زكي محمد حسن، حسن أحمد محمود وآخرون ـ دار الرائد العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

●طلعت منصور، وآخرون:

٢٥ـ أسس علم النفس العام ـ المكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ٢٠٠٣م .

●عامر حمود:

٢٦ـ الأمراض والأوبئة وأثرهما على الحياة الاجتماعية لبلاد المغرب العربي في العصور الإسلامية: بحث منشور بمجلة الجامعة العراقية ـ العدد١/٤١ .

●عبد الهادي البياض:

٢٧ـ الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (١٢ – ١٤م): دار الطليعة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٨م ص٢١.

● عبدالإله بنمليح:

٢٨ـ عرض كتاب "جوائع وأوبئة مغرب عهد الموحدين" للحسين بولقطيب: بحث منشور بمجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي عام ٢٠٠٢م.

●عز الدين جسوس:
٢٩ـ الكوارث الطبيعية والأوبئة ومدى تأثيرها على العلاقة بين الرعاية والسلطة السياسية خلال حكم المرابطين: بحث منشور بمجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي عام ٢٠٠٢م.
●عصمت دندش:
٣٠ـ الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين: دار الغرب الإسلامي ـ بيروت١٩٨٨م
●على بن عبد الله الدفاع :
٣١ـ رواد علم الطب في الحضارة العربية الإسلامية: مؤسسة الرسالة ـ بيروت١٩٨٨م .
●علي الصلابي:
٣٢ـ كيف تعامل المسلمون مع الأوبئة وآثارها في مراحل تاريخهم: مقال منشور بموقع إسلام أون لاين بتاريخ ٢٠٢٠/٣/١٩م.
●ليلى العجايب:
٣٣ـ مفهوم السلوك في علم النفس: مقال منشور بموقع موضوع.
●محمد عبد الله عنان:
٣٤ـ دولة الإسلام في الأندلس : مكتبة الخانجي ـ القاهرة الطبعة الرابعة ١٤١٧ هـ/١٩٩٧م
●محمود علي مكي:
٣٥ـ وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين:، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ع ٧ و٨.
●محمود مقديش:
٣٦ـ نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار: تحقيق/علي الزواري، محمد محفوظ ـ دار الغرب الاسلامي ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ١٩٨٨م .
●نهاد عباس زينل:
٣٧ـ الإنجازات العلمية للأطباء في الأندلس: دار الكتب العلمية ـ بيروت ٢٠١٣م.

اللاَلاَ في دولة سلاطين المماليك
(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

د. سمير بدر محمد
مدرس بقسم التاريخ والآثار
كلية الآداب – جامعة بنها

*ملخص:

اللالا مصطلح شائع في العصر المملوكي يطلق على مربي أبناء السلاطين، فقد دأب سلاطين المماليك على تربية أبنائهم وتعليمهم فنون الحرب والقتال، وانتدبوا لتلك المهمة أحد كبار الطواشية من ذوي الكفاءة وحسن السيرة، أصحاب المعرفة العلمية والعسكرية. وكان هؤلاء اللالات موضع ثقة السلطان، وتقلدوا أعلى المناصب في الدولة، ولم تقتصر وظيفة اللالا على فئة الطواشية بل تولاها العديد من الأمراء المماليك، وصاروا أهل الحل والعقد، وحازوا الثروة والجاه في الديار المصرية، ويشهد بذلك ما خلفوه من عمائر دينية ومدنية.

*كلمات مفتاحية: المماليك – الأمراء – الطواشي – اللالا – الوظائف – التربية.

*Abstract:

Al-lala is a term commonly used in the Mamluk era to refer to the educators of the sons of the sultans. The Mamluk sultans consistently raised their children and taught them the arts of war and combat, and assigned for this task senior eunuchs who show competence and good conduct, as well as scientific and military knowledge. The Lalas were in a position of the Sultan's trust, and held the highest positions in the state. The position of Al-Lala was not limited to eunuchs, but was assumed by many Mamluk princes, who became the owners of the administration and governance, and acquired wealth and prestige in the Egyptian country, while the religious and civil buildings they left behind stand as evidence.

*Key words:

Mamluks – princes – eunuchs – Al-lala – jobs – education.

مقدمة:

يواجه الباحث في تاريخ المماليك عددًا غير محدود من المصطلحات ذوات الأصول التركية والفارسية، وإحدى تلك المصطلحات هو **اللالا**، مربي أبناء السلاطين، الذي ورد ذكره عشرات المرات في مصادر هذا العصر، فجاء في تاريخ ابن الفرات (ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م) (٥) مرات، وعند المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م) في كتابه (السلوك لمعرفة دول الملوك) (٥٥) مرة، وأورده ابن قاضي شهبة (ت٨٥١هـ/١٤٤٧م) في تاريخه (١٦) مرة، وعند ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) (١٦) مرة: تسع مرات في (إنباء الغمر)، وخمس في (الدرر الكامنة)، وذكره ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م) (٧٢) مرة: تسع وأربعون في (النجوم الزاهرة)، وثلاث وعشرون في تراجم (المنهل الصافي)، وعند السخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٧م) في (الضوء اللامع) (١٧) مرة، أما ابن خليل الظاهري (ت٩٢٠هـ/١٥١٤م) فذكره في (نيل الأمل) (٢٣) مرة[١].

ومما سبق يبدو منطقيا أن وظيفة كتلك جديرة بالبحث والدراسة لما تمثله من أهمية سياسية باعتبار اللالا مربي السلاطين وموضع ثقتهم وصاحب النفوذ، وأهمية حضارية لما خلَّفهُ هؤلاء اللالات من عمائر دينية ومدنية أسهمت في صرح الحضارة الإسلامية بالديار المصرية، والتي ما تزال بعض آثارها قائمة حتى الآن وتحمل اسم اللالا، مثل: (جامع الطواشي) بباب الشعرية، و(جامع الجنابكية) بالمغربلين، و(مدرسة جوهر اللالا) بالدرب الأحمر، و(المدرسة السابقية) بالجمالية. وبالرغم من أهمية اللالا ودورهم فإن هذا الموضوع لم يلق اهتمامًا ولم تتناوله دراسة خاصة، مما دفع الباحث لاستجلاء تلك الوظيفة وسبر أغوارها، سيما وقد خلت كتب الدساتير المملوكية من الإشارة إليها كما سيأتي، فوجبت دراسة اللالا وتتبع نظمهم في دولة المماليك دولة الرسوم والنظم.

---

[١] هذه الأعداد من إحصاء الباحث وقابلة للزيادة.

والبحث الذي بين أيدينا يتناول وظيفة اللالا، وتعريفها اللغوي والإصطلاحي، ويبحث في أصولها التاريخية، ثم يدرس تطورها على امتداد دولتي المماليك البحرية والجركسية، ويتتبع رسوم اللالا ونظمهم، وذلك من خلال الوقوف على تراجم الطواشية والأمراء من اللالات، ويرصد أحوالهم، وعلاقتهم بالسلطة وأعيان الدولة، ويخلُص البحث إلى شروط اختيار اللالا ومهامهم، ويبرز مكانتهم والمهمات السياسية الخاصة التي انتُدبوا لأجلها في الداخل والخارج، وتُسجل الدراسة كذلك ثروات اللالا وأهم منشآتهم المعمارية، وأخيرًا يُخْتَتَم البحث بجدول عام لمن تقلد تلك الوظيفة، ويحلل أهم النتائج التي انتهى إليها البحث. كل ذلك وفقًا للمنهج التاريخي الإحصائي الذي يرصد المعلومات من خلال أوثق المصادر المملوكية المعاصرة، ثم ينظمها في صورة إحصائية للخروج بنتائج تتسم بالدقة والحداثة والمنهجية.

*** اللاَلاَ لغَةً واصطلاحًا:**

(اللاَلاَ) كلمة فارسية تأتي بمعنى: غلام، عبد، خادم، مربي[١]، وجاء في شفاء الغليل للخفاجي (ت١٠٦٩هـ/١٦٥٩م) أن اللالا كلمة معربة تعني "المربى من الخدم"[٢]، ويذكر الدكتور (حسن الباشا) أن هذه اللفظة الفارسية ظهرت على بعض الآثار العربية وتعني مربي الأطفال، وقد جرت العادة أن تُطلق على مربي أولاد الملوك والسلاطين، ويقال لالة ولالت والجمع لالات[٣].

---

(١) إبراهيم الدسوقي: المعجم الفارسي الكبير، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج٣، ص٢٥٧١.
– رؤوف سبهاني: المعجم الفضي (فارسي– عربي)، دار المحجة البيضاء، بيروت، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٥٩٦.

(٢) الخفاجي: شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل، تصحيح وتعليق محمد عبد المنعم، مطبعة الحرم الحسيني التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م، ص٢٣٤.

(٣) حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية، ١٩٦٥م، ج٢، ص٩٧٨، ٩٧٩.

أما عن المعنى الاصطلاحي: فاللالا وظيفة يتولاها أحد خدام القلعة من فئة الطواشية، وكان يقوم على تربية أبناء السلاطين، وهذه الوظيفة هي مرحلة من مراحل تنقل الطواشي في الخدمة حتى يصل إلى مرتبة مقدم المماليك السلطانية[١].

ويتضح من المعنى اللغوي أن اللالا المربي يكون من الخدم أو العبيد وليس من الأحرار، وهو ما يتماشى مع المعنى الاصطلاحي حيث كان الطواشي من طبقة العبيد الخصيان المعينين لخدمة بيوت السلطان وحريمه في قلعة الجبل بالقاهرة[٢]، واختُصّ عددٌ منهم بتربية المماليك السلطانية (الكتابية) في الطباق[٣]، وعلى امتداد عصر المماليك صار يتولى تلك الوظيفة الأحرار من الأمراء وكبار رجال الدولة في ضوء تطور وظيفة اللالا كما سنوضحه في حينه. وقبل أن نشرع في الحديث عن وظيفة اللالا في عصر المماليك فإن لنا أن نتساءل عن جذورها التاريخية، متى ظهرت وأين؟

---

[١] محمد العمايرة: المعجم العسكري المملوكي، دار كنوز المعرفة، عمان، ٢٠١٠م، ص٢٦٣.

– مقدم المماليك: هو الذي يقوم بالإشراف على تعليم مماليك السلطان والأمراء في الطباق التي تشبه المدارس الحربية. (محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٣٢٢).

[٢] محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص١٠٩.

– قلعة الجبل: هي أبرز منشئات صلاح الدين الأيوبي الحربية، شرع في بنائها سنة ٥٧٢هـ، وأتم وزيره بهاء الدين قراقوش العمل فيها سنة ٥٧٩هـ، وينسجم تخطيط القلعة مع طبيعة هضبة المقطم الحجرية التي شيدت عليها، فهي تتألف من ساحتين مربعتين تكاد تستقل إحداهما عن الأخرى. (عبد الرحمن زكي: قلاع العالم الإسلامي في العصر الوسيط، دارة الملك عبد العزيز، مج ٢، ع ١، الرياض، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٦م، ص ٨٣).

[٣] محمد العمايرة: المرجع السابق، ص٢٠٣.

– الطباق: جمع طبقة، وهي ثكنات الجند المماليك بقلعة الجبل من القاهرة، حيث كانت كل طبقة من هذه الطباق تضم مماليك مجلوبين من بلد واحد. (حسان حلاق وعباس صباغ: المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٩م، ص١٤٤).

*** الجذور التاريخية لوظيفة اللالا:**

عُرفت تلك الوظيفة في بعض الدويلات المستقلة في العصر العباسي والتي ترجع إلى أصول تركية، فظهرت عند السلاجقة[١]، وكان (مجاهد الدين بهروز ت٥٤٠هـ/١١٤٥م)[٢] لالا أولاد السلطان مسعود بن محمد ملك شاه (٥٢٧-٥٤٧هـ/١١٣٣-١١٥٢م)[٣] آخر حكام السلاجقة على بغداد[٤]، ووجِد اللالا أيضًا عند الدولة النورية في حلب[٥]. غير أن أول كتابة أثرية وصلتنا تحتوي على مصطلح اللالا ترجع إلى المحرم ٦٣٣هـ/سبتمبر ١٢٣٥م، وتشير إلى عمارة دار بأمر (جمال الدين فرخ اللالا الأتابك الملكي الغياثي) [٦].

---

[١] يرى أغلب المؤرخين أن أصل السلاجقة يرجع إلى الأتراك الغز الذين ظهروا في التاريخ كمجموعة تركية تابعة للإمبراطورية التركية في القرن السادس الميلادي، والسلاجقة أحد فروع هذه القبائل التركية الغزية، وتعرف قبيلتهم باسم (قنق) وهي إحدى قبائل الغز الأربعة والعشرين، وبدأ تحول السلاجقة إلى الإسلام منذ العقد الأخير من القرن الرابع الهجري. (محمد عبد العظيم أبو النصر: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ٢٩، ٣٠، ٣٧).

[٢] هو أبو الحسن بهروز بن عبد الله، ولي شحنة (شرطة) بغداد نيفا وثلاثين سنة، وله فيها آثار. (ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ج١٨، ص٤٦).

[٣] هو السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه، كان من أحسن السلاطين سيرة، توفي في رجب بهمدان، وكان موته إيذانا بنهاية البيت السلجوقي. (ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج٩، ص١٨٦).

[٤] الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ط٢، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج٣٩، ص٣١١.

[٥] ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج٤، ص١٨٢٥.

– المقصود بالدولة النورية: دولة الملك العادل نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي بن آقسنقر (٥٤١- ٥٦٩هـ)، انظر: أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق أحمد البيسومي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، (د.ت)، ج١، مقدمة المحقق ص ١١٤- ١١٧.

[٦] حسن الباشا: المرجع السابق، ج٢، ص٩٧٩.

– لم أقف على ترجمة الأتابك جمال الدين، ولم أصل لشيء عن الدار التي أمر بعمارتها.

ويقدم لنا ابن خلكان (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) في كتابه (وفيات الأعيان) ربطًا بين مصطلح اللالا والأتابك، فيقول في معرض حديثه عن الأتابك عماد الدين زنكي: "... ولذلك سمي أتابك، فإنه اللالا الذي يربي أولاد الملوك، فالأتا بالتركية هو الأب، وبك هو الأمير، وأتابك مركب من هذين المعنيين"[١]. ومما سبق يتأكد أن وظيفة اللالا كانت موجودة وشائعة قبل قيام دولة المماليك بنحو قرن من الزمان.

*** وظيفة اللالا وتطورها في دولة المماليك:**

يعد ابن شاهين الظاهري (ت٨٧٣هـ/١٤٦٨م) المصدر الوحيد الذي تناول بالشرح وظيفة اللالا في دولة المماليك، فذكر في الباب الخامس من كتابه (زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك) وتحت عنوان " في وصف أولاد الملوك ونظام الملك الشريف ...." ما نصه: " أما أولاد الملوك من السلطان إلى من يطلق عليه لفظ أمير، فولد السلطان يقال في حقه نجل المقام الشريف، والبقية يقال لهم الأسياد، ولهم اللالات يربونهم، وكان قديم الزمان لا يظهرونهم للناس حتى يجاوزوا سبع سنين، وكانت الطريقة أن يعلموهم الآداب، وكانت السلطنة والإمرة لا تخرج عنهم، حكى لي شخص من الثقاة يسمى (المعلم بركة البيطار) من أعيان (الحسينية) كان سنّه نحو مائة سنة أنه رأى مكانًا بالحسينية به نحو أربعين أميرًا من أولاد الملوك، والآن غالبهم مهمل .... ومن العادة القديمة أنه إذا تولى سلطان وكان للمتقدم أولاد فلابد من سجنهم مخافة طريان أمر، ورأيت بالطباق التي بالحوش المقدم ذكره قبل فصل الطاعون النازل في سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ما يزيد عن أربعين نفرًا من أولاد أولاد السلاطين السالفين، ثم بعد ذلك رأيت الملك الأشرف أبا النصر برسباي تغمده الله برحمته أطلقهم إلى حال سبيلهم، وكان ذلك منه سُنَّةً حسنة"[٢].

ومن خلال النص السابق نستنتج ما يلي:

---

[١] ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ج١، ص٣٦٥.

[٢] ابن شاهين الظاهري: كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، اعتنى بتصحيحه بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٣م، ص١١١، ١١٢.

١- كان يُرَّتبُ عددٌ من اللالات يتناسب مع أعداد الأمراء أبناء السلاطين، وكان لقب أولاد السلاطين السابقين يختلف عن لقب أبناء السلطان القائم في الحكم، فابن السلطان الحالي يلقب بـ (نجل المقام الشريف)، أما بقية أبناء السلاطين السابقين فيسمون بـ (الأسياد) وهؤلاء جميعًا في رتبة الأمراء.

٣- يظهر أن اللالات كانوا يُعيَّنون لأبناء السلاطين في سن مبكرة دون السابعة بلا شك، وهؤلاء الصبيان والغلمان يسهُل غرس القيم والمبادئ فيهم حتى تصبح عادات يتمسكون بها في الكِبر[١].

٤- يتضح من كلام ابن شاهين الظاهري أن اللالا لم يكن يُظهر أبناء السلاطين للعامة حتى يصلوا إلى سن السابعة وهو سن التمييز عند الفقهاء[٢]، ولكن هذا الأمر تغير في زمن ابن شاهين.

٥- حدد ابن شاهين دور اللالا في القيام على تربية أبناء السلاطين وتعليمهم الآداب، دون أن يذكر تفصيلات حول طبيعة تلك الآداب، وطرق تعليمها، ومناهجها، وكأنه أمر مستقر في دولة سلاطين المماليك ولا حاجة إلي ذكرها في كتابه المُختصر.

٥- ألمح المؤلف إلى أهمية وظيفة اللالا كمربي للأمراء أبناء السلاطين، إذ السلطنة والإمرة لا تخرج عن هؤلاء الأسياد، فبصلاحهم تصلح أحوال البلاد والعباد، ومن هنا يتأتى أهمية دور اللالا.

---

[١] يقول أبو العلاء المعري: هي العادات يجري الشيخ منها *** على شيم تعودها الصبيُ. رضوان القضماني: حقل الألفاظ الدالة على عمر الإنسان في لزوميات أبي العلاء المعري، مجلة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، سوريا، مج (٢٧)، ع (١)، ٢٠٠٥م، ص ٢١٠.

[٢] ابن القيم: تحفة المودود بأحكام المولود، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص٣٠٢.

٦- ينتقد ابن شاهين سياسة المماليك في عدم الاعتماد على الأمراء أبناء السلاطين السابقين الذين تربوا على يد اللالا بدافع الخوف من نزعات التمرد والعصيان فأغلبهم مهمل في زمانه.

٧- يظهر من النص أن مكان إقامة اللالات يكون في قلعة الجبل بالقرب من أبناء السلاطين السابقين حيث يمارسون شئون وظيفتهم التربوية.

٨- يُفهم من كلام ابن شاهين عدم رضاه عن نظام التربية الذي ينتهجه اللالات في زمانه، وأنه اختلف بالسلب عما كان الوضع عليه في العصر الأول لدولة سلاطين المماليك.

ولنا هنا وقفة حول أسباب عدم ذكر المصادر المملوكية لطبيعة وظيفة اللالا وبخاصة كتب الإنشاء ودساتير الرسوم والنظم، فلم يرد مصطلح اللالا في كتب: (التعريف بالمصطلح الشريف) لابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م) شيخ كتاب الدساتير في العصر المملوكي، كما لم يرد في (تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف) لابن ناظر الجيش (٧٨٦هـ/١٣٨٤م)، وكذا لم يرد (صبح الأعشى في كتابة الإنشا) للقلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، وأخيرًا لم يرد في (الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم) للسحماوي (ت ٨٦٨هـ/١٤٦٤م). ورغم تناول تلك المصادر لكثير من صغار الوظائف التي يقصُر خطرها عن وظيفة اللالا إلا أنها لم تأت حتى على ذكر المصطلح، ويبدو أن سبب ذلك خلو وظيفة اللالا من إنشاء التقاليد ورسوم الكتابة حيث كان اللالات من الطواشية (العبيد الخصيان) وليسوا من الأحرار، ويظهر أن طبيعة مهام اللالا كانت تتحدد وفقًا لرؤية السلطان حول نظام التربية التي يحب أن ينشأ عليه أبناؤه، وبذلك كانت تختلف باختلاف السلاطين.

وعلى أية حال؛ فسوف نتتبع تلك الوظيفة من خلال كتب التاريخ والتراجم المملوكية التي ورد فيها ذكر اللالات في سياق الأحداث، ونستطيع عن طريق

استنطاق تلك الحوادث التاريخية أن نلقي الضوء على أحوال اللالا ومكانتهم ونبرز دورهم في دولتي المماليك البحرية والجركسية[١].

*** رسوم اللالا ونظمهم:**

بداية يمكن لمن يبحث أحوال اللالات في دولة المماليك أن يفرق بجلاء بين نوعين مختلفين من اللالات، **النوع الأول: اللالا الطواشي المربي**، حيث كان الطواشية هم المسئولين عن الإشراف على تعليم المماليك في الطباق ومراقبة سلوكهم وتربيتهم[٢]، فينتخب السلطان من بينهم من يرتضيه ليكون لالا أبناءه، ومثال ذلك اختيار السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م) الطواشي صواب السهيلي لالا لولده (خضر) [٣]، وكانت له مكانة عند الظاهر وممن يشار إليهم في الدولة[٤]. وعين المنصور قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٧٩-١٢٩٠م) الأمير الطواشي

---

[١] قامت دولة المماليك البحرية على يد الأتراك القفجاق وظلوا يحكمون مصر وبلاد الشام نحو قرن وثلث (٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠- ١٣٨٢م)، ثم حلت محلها دولة المماليك الجراكسة أو البرجية (٧٨٤-٩٢٢هـ/ ١٣٨٢-١٥١٧م) وبذلك تكون دولة سلاطين المماليك بمصر والشام قد استمرت ثلاثة قرون إلا ربع تقريبا. (سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ١٧٧، ١٧٨).

[٢] كان المماليك الصغار يخضعون للإشراف الصارم من قبل طواشية الطباق الذين يطلق عليهم الأزِمّة وهو الموكل إليه حفظ المكان ومفردها زمام. (آسيا بنت سليمان: الطواشية ودورهم في دولة سلاطين المماليك، مجلة كلية الآداب، جامعة أسيوط، ع ٢٢، ٢٠٠٧م، ص٤٨).

[٣] هو الملك المسعود خضر بن الظاهر بيبرس، تملك الكرك بعد أخيه الملك السعيد بركة، ثم أُخرِج مع أخيه سلامش إلى بلاد الأشكري فأقام بها دهرًا، ثم عاد إلى مصر وظل بها حتى وفاته سنة ٧٠٨هـ، وكان من أحسن الرجال شكلا وعقلا. (الصفدي: الوافي بالوفي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج١٣، ص٢١٠).

[٤] ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تصحيح سالم الكرنكوي والسيد هاشم الندوي، دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م، ج٢، ص٢٠٨، ٢٠٩.

– ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م ، ج٦، ص٣٥٥.

(بلال المغيثي) لالا لولده الصالح علي[١]، وكان المغيثي معظمًا في الدولة يجلس فوق جميع الأمراء[٢]. ويعد تولي الطواشي تربية (لالا) أبناء السلطان من مراحل التدرج الوظيفي التي يصل بها الطواشي إلى تقدمة المماليك وهي قمة الهرم الوظيفي لجماعة الطواشية[٣].

أما **النوع الثاني: اللالا الأمير مدبر المملكة أو الوصي على السلطان الصغير**، فقد يولي صاحب الحل والعقد في الدولة أحد الأمراء ليكون لالة للسلطان، ومثال ذلك الأمير (أرغون الأحمدي) الخازندار[٤] الذي جعله الأمير الكبير (يلبغا العمري)[٥] لالا السلطان (الأشرف شعبان) لما أقامه في السلطنة في رمضان ٧٦٤هـ/ يونيو ١٣٦٣م[٦]، ولما توفي السلطان (المؤيد شيخ) في ٩ المحرم ٨٢٤هـ/ ١٤ يناير

---

[١] هو الملك الصالح علاء الدين علي بن الملك المنصور قلاوون، عهد إليه أبوه بتدبير الملك وخطب له بذلك، وكان من نجباء الأبناء، ثم مات في مرضه في شعبان سنة ٦٨٧هـ، وقيل إن أخاه الأشرف خليل حسده وسممه فمات. (ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، منشورات الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٣٩م، مج٨، ص٦٩، ٧٠).

[٢] الذهبي: المصدر السابق، ج٥٢، ص٣٩٦.

– المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج٣، ص١٦٨.

[٣] السيد الباز العريني: المماليك، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م، ص١١٧، ١١٨.

[٤] الخازندار: مصطلح مركب من "خزانة" العربية و"دار" الفارسية أي ممسك، وتعني ممسك الخزانة، وكان يطلق من العصر المملوكي على المتصدي لخزانة السلطان وهو بمثابة وزير لمالية السلطان. (حسن حلاق وعباس صباغ: المرجع السابق، ص٨٢).

[٥] هو الأمير سيف الدين يلبغا العمري الناصري، كان من مشتريات السلطان الناصر حسن فاعتقه وترقى حتى صار من كبار الأمراء، ولما تولى الأشرف شعبان كان صاحب الحل والعقد والولاية والعزل ثم قتل في ١٠ ربيع الآخر ٧٦٨هـ. (ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص ١٥٧– ١٦٢).

[٦] المقريزي: كتاب المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩١م، ج٢، ص٢٤، ٢٥.

– ابن حجر: الدرر، ج١، ص٣٥١.

١٤٢١م وأُقيم ابنه الصغير (المظفر أحمد) في السلطنة، وكان عمره سنة وثمانية أشهر استقر رأي كبار الأمراء على أن يكون الأمير (ططر) مدبر المملكة، وأُحضرت له خلعة جليلة باستقراره لالا السلطان الطفل وكافله، وكان ذلك في ١٠ المحرم ٨٢٤هـ/ ١٥ يناير ١٤٢١م[١]. وتذكر المصادر أن السلطان الظاهر ططر (٨٢٤هـ/ ١٨٢١م) لما اشتد به المرض وأحس بدنو أجله استدعى أعيان الدولة إلى القلعة في ٢ ذي الحجة ٨٢٤هـ/ ٢٨ نوفمبر ١٤٢١م ثم عهد إلى ابنه (محمد) بالسلطنة، وأن يكون الأمير (برسباي الدقماقي) لالا السلطان والمتكفل بتربيته، وحلف الأمراء على ذلك[٢]. ويبدو أن (الأمير اللالا مدبر المملكة) كان يقوم بتعيين طواشي كمربي للسلطان ويكتفي بالإشراف عليه لانشغاله بأمور السلطنة، ولا شك أن كلا النوعين يختلفان من حيث المهام والسلطة والنفوذ، وكذلك الرسوم والنظم كما سيأتي.

*** شروط اختيار اللالا:**

وإذا تطرقنا إلى شروط اختيار اللالا فيظهر أن سلاطين المماليك كانوا يميلون إلى تولية اللالا من الأمراء الطواشية، حيث اشتُهر هؤلاء /وبخاصة في دولة المماليك الأولى/ بالحزم والشدة والصرامة، بالإضافة إلى حبهم للبر والتقوى، وكان غالبية الطواشية من الأحباش والروم[٣]، ونرجح أن يكون بعض السلاطين يشترطون في لالا أولادهم أن يكون قد نشأ في طبقة الطواشية.

ويبدو كذلك أن الولاء والطاعة كانا في مقدمة تلك الشروط إذ لابد لمن يتصدر لتربية أبناء السلطان أن يكون مؤتمنًا على رعاية نجل المقام الشريف، وهو ما يتماشى

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة دار الكتب، القاهرة،١٩٧٢م، ج٤، ق٢، ص٥٦٣.
– ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط٢، تحقيق جمال محمد محرز وفهيم شلتوت، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١٤، ص١٦٩.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٤، ق٢، ص٥٨٧.
– ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٢٠٦.

(٣) علي سالم النباهين: نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٦٧.

مع سياسة ولاية الوظائف في دولة المماليك بصفة عامة، ويشير السخاوي إلى أن الأمير قطلوبغا الكركي (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م) ظل على ولائه لأستاذه الظاهر برقوق بعد خلعه من السلطنة (٥جمادى الآخر ٧٩١هـ/١٣٨٨م) وأقام معه بالكرك فحفظها له برقوق وقدمه لما عاد سلطانًا (١٤ صفر ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م) وجعله لالا ولده المقر الشريف (فرج)[١]، ويذكر ابن تغري بردي أن جانبك الأشرفي (ت٨٣١هـ/١٤٢٨م) كان أحد مماليك الأمير برسباي نائب طرابلس وأنه لازمه عندما حبس بقلعة المرقب[٢] بعد أن تخلى عنه جميع أعوانه، فلما أفرج عنه وآل أمره إلى سلطنة الديار المصرية قربه الملك الأشرف وظل يترقى عنده وجعله لالا ولده المقام الناصري (محمد)[٣]، رغم أنه كان يكتب كتابة ضعيفة، عاريًا لم يسبق له اشتغال، على حد قول أبي المحاسن[٤]، وهو ما يدل على أن شرط الولاء والطاعة كان يتقدم على ثقافة اللالا وعلمه. بل لقد زوّج السلطان الناصر محمد مملوكه أرغون العلائي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) من أم ولديه الصالح إسماعيل والكامل شعبان ثم جعله لالا أولاده[٥]، ليتأكد بذلك من حرص اللالا على تربية أولاده ورعايتهم.

ويأتي بعد الولاء حُسن السيرة وأن يكون اللالا على قدر من العلوم والآداب التي تؤهله للقيام بمهام وظيفته، ومن الأمثلة على ذلك:

---

[١] السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج٦، ٢٢٤.

[٢] بالفتح ثم السكون، وهي بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس. (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٥م، ج٥، ص ١٠٨).

[٣] ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٤، ص٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤.

[٤] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٤٩.

[٥] المقريزي: المقفى، ج٢، ص٢٥.

– شبل الدولة كافور (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م) لالا الملك المنصور علي بن أيبك فكان دينا عاقلا خيَّرا يحب العلم وأهله، ويعجبه سماعُ الحديث وروايته، حتى كتب عنه جماعة من الطلبة[١].

– صواب السهيلي (ت٧٠٦هـ/١٣٠٦م) لالا خضر بن الملك الظاهر بيبرس فكان أهل ثقة عاقلا دينا أمينا صاحب بر ومعروف[٢].

– أرغون العلائي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) لالا أنوك بن السلطان محمد بن قلاوون فكان جوادًا متلطفًا مع جميع الناس بالآدب والمداراة وإقامة منار الشرع، له صدقات ومعروف[٣].

– سودون الشيخوني (ت٧٩٨هـ/١٣٩٥م) لالا الملك الأشرف شعبان كان رجلا جيدا كثير المعروف والخير عديم الشر، له دين متين وعقل ويقين من محاسن الدهر يُضرب بجوده المثل[٤].

– قنقباي الألجائي (ت بعد ٧٩٦هـ/١٣٩٤م) لالا الناصري محمد بن برقوق فكان مُعظمًا في الدول وقورًا حشمًا[٥].

– قطلوبغا الكركي (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م) لالا الناصر فرج بن برقوق فكان حافظا للقرآن الكريم ويحسن القراءة بالألحان، محبا للعلماء يجتمع بهم ويحسن إليهم

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق إبراهيم الزيبق، دار الرسالة العالمية، دمشق، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ج٤، ص٢٧٠.
– الذهبي: المصدر السابق، ج٥١، ص ١٩٣.

(٢) ابن حجر: الدرر، ج٢، ص ٢٠٩.
– ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٦، ص٣٥٥.

(٣) المقريزي: المقفى، ج٢، ص٢٦.
– ابن حجر: الدرر، ج١، ص٣٥٣.

(٤) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٩، ج٢، ص٤٤٧.
– ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٦، ص ١٠٨، ١٠٩.
– الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ج١، ص٤٣٤.

(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي: ج٩، ص١٠٤.

ويتذاكرون عنده، حتى إن قاضي القضاة ابن حجر العسقلاني حضر مجلسا للحديث في داره[١]، وتضيف المصادر أنه كان ماهرًا في رمي النشاب[٢].

– صفي الدين جوهر (ت٨٤٢هـ/١٤٣٨م) لالا العزيز يوسف بن السلطان برسباي فيذكر ابن تغري بردي أنه كان من رؤساء الخدام حشمة ودينا وعقلا، كريما متجملا في ملبسه ومركبه، وكان يحب العلماء وأهل الصلاح ويكرمهم ويحسن إليهم[٣].

– لاجين الظاهري (ت٨٨٦هـ/١٤٨١م) لالا الفخري عثمان بن السلطان جقمق كان خيرا دينا عاقلا حشما أديبا عفيفا كثير العبادة، من الشجعان الفرسان، عارفًا بالفروسية والملاعيب، له قوة زائدة، خبيرا بأنواع من الصنائع من عمل اليد[٤].

ويتضح من عرض سير هؤلاء أنهم اتسموا جميعا بالديانة وحسن الخلق والميل إلى العلماء، وتباينوا في تحصيلهم للعلوم الشرعية والحربية. وخلافا لما سبق من حسن السيرة التي اتسم بها معظم اللالات نجد أن خشقدم الظاهري (ت٨٩٤هـ/١٤٨٩م) لالا عثمان بن السلطان جقمق كان ظالمًا سفيهًا غير مشكور في أفعاله[٥]، حتى إن الفخري عثمان كان كارهًا له[٦]، وقد وصفه ابن خليل الظاهري بقوله: "من أظلم عباد الله تعالى"[٧].

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج٢، ص٣٧٢، ج٣، ص٣٣.

(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٩، ص٧٩.
– السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص٢٢٤.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٥، ص٣٨.
– ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٤٦٦.

(٤) ابن خليل الظاهري: نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ٧، ص٢٩٧.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط٣، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤، ج٣، ص٢٥٩.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ج٣، ص١٧٦.

(٧) ابن خليل الظاهري: الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم، دراسة وتحقيق فرج محمد فرج، رسالة ماجستير، جامعة بنها، بنها، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، ج٤، ص٦٠.

ونشير إلى أن سن اللالا لم يكن شرطًا لتولي الوظيفة، كما لم يكن هناك سِنٌّ معينة لبقاء اللالا مع أبناء السلاطين، ولتوضيح هذا الأمر نقدم الجدول التالي الذي يرصد عمر اللالا عند ولايته، وكذلك السِنّ الذي يتعين فيه اللالا لأبناء السلطان ومدة بقائه معهم:

م	اللالا			ابن السلطان / السلطان			تاريخ الولاية			ملاحظات	المصدر
	الاسم	مولده	عمره عند ولايته	الاسم	مولده	عمره مع اللالا	من	إلى	مدة		
١	شبل الدولة كافور (ت ٦٨٤هـ)	بضع وستمائة تقريبا	٥٠ سنة تقريبا	الملك المنصور علي بن أيبك	٦٤٠ هـ	١٨ سنة	—	ذو القعدة ٦٥٧ هـ	—	توفي وقد نيف على الثمانين	الذهبي: تاريخ الإسلام ٥١/ ١٩٣؛ الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٠/ ١٦٠
٢	صواب السهيلي (ت ٧٠٦هـ)	بضع وستمائة تقريبا	فوق ٦٠ سنة	نجم الدين خضر بن الملك الظاهر بيبرس	٦٧٢ هـ	—	—	—	—	توفي وقد قارب على المائة	ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، ص٧٦؛ ابن حجر: الدرر ٢/ ٢٠٨، ٢٠٩
٣	حسام الدين بلال المغيثي (ت ٦٩٩هـ)	بضع وستمائة تقريبا	٦٠ سنة تقريبا	الملك الصالح علي بن المنصور قلاوون	٦٦٧ هـ	—	—	—	—	توفي وهو في العقد التاسع من عمره (التسعون)	ابن حبيب: تذكرة النبيه ١/ ١١٥
٤	أرغون العلائي (ت ٧٤٨هـ)	—	—	آنوك بن السلطان الناصر	٧٢٣ هـ	١٧ سنة	—	جمادى الآخرة ٧٤٠	—	—	ابن حجر: الدرر ١/ ٤١٨

م	اللالا			ابن السلطان / السلطان			تاريخ الولاية			ملاحظات	المصدر
	الاسم	مولده	عمره عند ولايته	الاسم	مولده	عمره مع اللالا	من	إلى	مدة		
				محمد بن قلاوون				هـ			
٥	طيبغا المحمدي (ت ٧٧١هـ)	—	—	آنوك بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون	٧٢٣ هـ	١٧ سنة	جمادى الآخرة ٧٤٠هـ	—	—	—	ابن حجر: الدرر ١/ ٤١٨
٦	عنبر السحرتي (ت ٧٤٩هـ)	—	—	الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون	٧٢٦ هـ	١٧ سنة تقريبا	كان في سنة ٧٤٣هـ	٧٤٦ هـ	أكثر من ٣ سنوات	—	ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠/ ٩٥
٧	أرغون الأحمدي (ت ٧٧٥هـ)	—	—	الأشرف شعبان بن حسين	٧٥٤ هـ	١٠الى ١٤ سنة	٢٣ رمضان ٧٦٤هـ	٢٢ ربيع الأول ٧٦٨ هـ	٣ سنوات ونصف تقريبا	—	ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٦/ ٢٣٣
٨	أقبغا الأحمدي الجلب (ت ٧٦٨هـ)	—	—	الأشرف شعبان بن حسين	٧٥٤ هـ	١٤ سنة	٢٢ ربيع الأول ٧٦٨هـ	٢٠ ربيع الآخر ٧٦٨ هـ	شهر	—	ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٦/ ٢٣٣
٩	أسنبغا القوصوني (ت ٧٧٦هـ)	—	—	الأشرف شعبان بن حسين	٧٥٤ هـ	١٤ سنة	٢٠ ربيع الآخر ٧٦٨هـ	—	—	—	ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٦/ ٢٣٣
١٠	سودون الشيخوني	—	فوق ٥٠	الأشرف شعبان بن	٧٥٤ هـ	١٥ سنة	—	٤ رجب	—	توفي بعدما شاخ	المقريزي: السلوك ج٣،

م	اللالا			ابن السلطان / السلطان			تاريخ الولاية			ملاحظات	المصدر
	الاسم	مولده	عمره عند ولايته	الاسم	مولده	عمره مع اللالا	من	إلى	مدة		
	(ت ٧٩٨هـ)		سنة ترجيحا	حسين				٧٦٩ هـ		وعلت سنه	ق٢، ص٨٦٥؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٦/ ٢٣٣
١١	أرغون الأحمدي (ت ٧٧٥هـ)	—	—	الأشرف شعبان بن حسين	٧٥٤ هـ	١٥ سنة	٤رجب ٧٦٩هـ	—	—	—	ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٦/ ٢٣٣
١٢	مقبل الكلبكي	—	—	المنصور علي بن شعبان	٧٧١ هـ تقريبا	٨ سنوات	—	٢٦ جمادى الآخر ٧٧٩ هـ	—	—	ابن حجر: إنباء الغمر ١/ ٢٣٢؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٨/ ٨٤
١٣	دينار الناصري	—	—	المنصور علي بن شعبان	٧٧١ هـ تقريبا	٨ سنوات	٢٦ جمادى الآخر ٧٧٩هـ	—	—	—	ابن حجر: إنباء الغمر ١/ ٢٣٢؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٨/ ٨٤

م	اللالا			ابن السلطان / السلطان			تاريخ الولاية			ملاحظات	المصدر
	الاسم	مولده	عمره عند ولايته	الاسم	مولده	عمره مع اللالا	من	إلى	مدة		
١٤	سيف الدين بوري الأحمدي	—	—	الملك الصالح المنصور حاجي	٧٧٤ هـ تقريبا	١٧ سنة	٣ رجب ٧٩١هـ	—	—	—	ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ٢٠٧
١٥	جوهر اليلبغاوي	—	—	الملك الصالح المنصور حاجي	٧٧٤ هـ تقريبا	١٧ سنة	—	٢٣ شعبان ٧٩١ هـ	—	—	ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ٢٠٧
١٦	يشبك الشعباني (ت ٨١٠هـ)	—	—	الناصر فرج بن برقوق	٧٩١ هـ	١٠ سنوات	٢٠ شوال ٨٠١هـ	—	—	—	ابن حجر: إنباء الغمر ٥٣٠/٢
١٧	قطلوبغا الكركي (ت ٨٠٩هـ)	—	كان شابا	الناصر فرج بن برقوق	٧٩١ هـ	١٠ سنوات	٢٠ شوال ٨٠١هـ	—	—	—	ابن حجر: إنباء الغمر ٥٣٠/٢؛ السخاوي: الضوء اللامع ٦/ ٢٢٤
١٨	شاهين الحسني السعدي الأشرفي (ت ٨٠٨هـ)	—	—	الناصر فرج بن برقوق	٧٩١ هـ	١٠ سنوات	١٢ ذو القعدة ٨٠١هـ	—	—	—	ابن حجر: إنباء الغمر ٥٣٠/٢
١٩	عبد اللطيف	—	—	الناصر فرج بن	٧٩١ هـ	١٠ سنوات	١٢ ذو القعدة	—	—	—	ابن حجر: إنباء الغمر

م	اللالا			ابن السلطان / السلطان			تاريخ الولاية			ملاحظات	المصدر
	الاسم	مولده	عمره عند ولايته	الاسم	مولده	عمره مع اللالا	من	إلى	مدة		
	الأشرفي (ت ٨٥٤هـ)			برقوق			٨٠١هـ				٥٣٠/٢
٢٠	بيبرس الصغير (ت ٨٠٨هـ)	—	كان شابا صغير السن	المنصور عبد العزيز بن برقوق	بعد سنة ٧٩٠ هـ	ناهز الاحتلام (١٣-١٤ سنة تقريبا)	٢٧ ربيع الأول ٨٠٨هـ	٥ جمادى الآخر ٨٠٨ هـ	٧٠ يوم تقريبا	صار مقدم ألف في صفر ٨٠٨هـ قبل أن تكمل لحيته (كناية عن صغر سنه)	ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٧/ ٢٧٢؛ النجوم الزاهرة ١٢/ ٣٢٤
٢١	ططر (ت ٨٢٤هـ)	—	—	الملك المظفر أحمد بن شيخ	٢ جمادى الاولى ٨٢٢ هـ	سنة و ٨ أشهر	١٠ المحرم ٨٢٤هـ	—	—	—	ابن حجر: إنباء الغمر ١٩٣/٣
٢٢	برسباي الدقماقي (ت ٨٤١هـ)	—	—	الصالح محمد بن ططر	٨١٤ هـ تقريبا	١٠ سنوات تقريبا	٢ ذو الحجة ٨٢٤هـ	—	—	—	تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨٩/١٠
٢٣	جانبك الأشرفي الدوادار (ت ٨٣١هـ)	٨٠٦ هـ تقريبا	٢٥ سنة تقريبا	المقام الناصري محمد بن السلطان الأشرف برسباي	٨٢٠ هـ تقريبا	١١ سنة تقريبا	—	٨٣١ هـ	—	توفي عن خمس وعشرين سنة تقريبا	السخاوي: الضوء اللامع ٧/ ١٥٠؛ وجيز الكلام ٢/ ٥٠١
٢٤	صفي الدين جوهر	٧٨٢ هـ تقريبا	فوق ٤٠ سنة	لا لا الناصري محمد ثم	٨٢٠ هـ/ ٨٢٧	٥ سنوات/ من عمر	٨٢٥هـ	ربيع الأول ٨٤٢	١٣ سنة تقريبا	توفي في سن الستين	ابن تغري بردي: النجوم

م	اللالا			ابن السلطان / السلطان			تاريخ الولاية			ملاحظات	المصدر
	الاسم	مولده	عمره عند ولايته	الاسم	مولده	عمره مع اللالا	من	إلى	مدة		
	الجلباني (ت ٨٤٢هـ)		تقريبا	الملك العزيز يوسف ابناء السلطان الأشرف برسباي	هـ	سنتين إلى ١٥ سنة		هـ		تخمينا	الزاهرة ١٥/ ٤٦٥؛ السخاوي: الضوء اللامع ٧/ ١٥٠، ١٠/ ٣٠٣
٢٥	لاجين الظاهري (ت ٨٨٦هـ)	بضع وتسعين وثمانمائة تقريبا	فوق ٤٥ سنة تخمينا	ابن السلطان الظاهر جقمق (الفخري عثمان)	٨٣٩ هـ	—	—	—	—	—	ابن خليل الظاهري: نيل الأمل ٧/ ٢٩٧، ٨/ ٥٦
٢٦	مثقال الخازندار	—	—	المقام الناصري محمد بن السلطان الأشرف إينال	٨٤٩ هـ تقريبا	١٤ سنة تقريبا	كان لالا في ذي القعدة ٨٦٣هـ	—	—	توفي وقد جاوز التسعين ظنا	السخاوي: الضوء اللامع ٧/ ١٤٨

ومن خلال الجدول السابق نلاحظ ما يلي:

أولًا: تنوع الفئات العمرية للالا من خلال رصد عمر تسعة من اللالات عند توليهم الوظيفة، فنجد اثنين منهم في العقد السادس ويزيد (٦٠ سنة) [١]، واثنين في العقد

[١] الجدول: م ٢، ٣.

الخامس ويزيد (٥٠ سنة) [١]، وآخرَينْ في العقد الرابع ويزيد (٤٠ سنة) [٢]، فيما كان ثلاثة منهم في سن الشباب (العقد الثاني ترجيحًا) [٣].

ثانيًا: اختلف سن أبناء السلاطين عند تعيين اللالا، فجاء أصغر سن رصده البحث (سنة وثمانية أشهر)[٤]، فيما بلغ أكبرهم عمرًا (سبع عشرة سنة)[٥]، وفي الجملة كان ستة منهم في الفئة العمرية من (سنة إلى ١٠ سنوات) [٦]، فيما كان ثمانية منهم في الفئة العمرية من (١١ إلى ٢٠ سنوات) [٧].

ثالثًا: نسجل بقاء اللالا مع السلطان حتى سن العشرين[٨]، وهو ما يؤكد إقامة اللالا مع السلاطين وأبنائهم حتى سن الشباب، ويكون دور اللالا في تلك المرحلة صاحب المشورة للسلطان وأحيانا يكون مدبرًا لأمور المملكة.

رابعًا: في ضوء المصادر وصل الباحث إلى خمس حالات تحدد فيها مدة إقامة اللالا مع أبناء السلاطين، اثنتان ما بين ثلاث إلى أربع سنوات[٩]، وحالتان ما بين ثلاثين إلى سبعين يومًا[١٠]، وحالة واحدة ظل فيها اللالا ما يقارب ثلاث عشرة سنة[١١]، ويظهر أن مدة بقاء اللالا كانت تختلف تبعًا لرؤية السلطان وكذلك السمات الشخصية للالا وهو ما سيتضح عند الحديث عن مهام اللالا ومكانتهم.

---

[١] الجدول: م ١، ١٠.
[٢] الجدول: م ٢٤، ٢٥.
[٣] الجدول: م ١٧، ٢٠، ٢٣.
[٤] الجدول: م ٢١.
[٥] الجدول: م ٦، ١٤.
[٦] الجدول: م ٧، ١٢، ١٦، ٢١، ٢٢، ٢٤.
[٧] الجدول: م ١، ٤، ٦، ٨، ١٤، ٢٠، ٢٣، ٢٦.
[٨] الجدول: م ٦.
[٩] الجدول: م ٦، ٧.
[١٠] الجدول: م ٨، ٢٠.
[١١] الجدول: م ٢٤.

*** مهام اللالا:**

لم تتعرض المصادر المملوكية لمهام اللالا ونظام تربيتهم لأبناء السلاطين كما ذكرنا آنفا، ويرى الدكتور السيد الباز العريني أن نظام تربية أبناء السلاطين الذي يقوم على يد اللالا لم يكن يختلف عن منهاج تعليم المماليك الكتابية[١] في الطباق، غير أن تعليمهم كان يتم في مكتب خاص في قصر السلطان بالقلعة[٢]. ويستدل على ذلك ذلك بأن بعض المماليك الكتابية قد تربوا مع أبناء السلاطين، فنجد أن ابن السلطان الظاهر بيبرس (السعيد بركة) قد تربى معه الأمير سيف الدين كوندك الساقي في المكتب، ولما تسلطن السعيد بركة نال عنده مكانة كبيرة[٣]، وكان الأمير أرغون الدوادار (ت٧٣١هـ/١٣٣١م) من مشتريات السلطان المنصور قلاوون فرباه مع ولده الناصر محمد[٤]، وقد حصّل أرغون قدرًا كبيرا من العلوم فسمع صحيح البخاري وكتبه وكتبه بخطه الحسن، وبرع في الفقه وأصوله، وأُذن له في الإفتاء والتدريس[٥]. وقد اهتم السلطان الناصر حسن بمملوكه بزلار بن عبد الله العمري (ت٧٩١هـ/١٣٨٨م) فرباه مع أولاده وكتب الخط المنسوب[٦] وأتقن الفروسية وأنواع الملاعيب[٧]. وقد تربى

---

(١) هم المماليك الذين كانوا يدخلون الطباق ويسكنونها ويتعلمون بها الكتابة ولذا سموا بالكتابية أو مماليك الطباق. (محمد قنديل البقلي: المرجع السابق، ص٣٣٠).

(٢) السيد الباز العريني: المرجع السابق، ص٩٥.

(٣) العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ج٢، ص١٨٨.

(٤) ابن حجر: الدرر ، ج١، ص٣٥١.

(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢، ص٣٠٦.

(٦) هو الخط الموزون الذي تنتسب حروفه إلى بعض بنسب هندسية، وترجع تسمية هذا الخط إلى الوزير ابن مقلة الذي ابتكر القوانين والقواعد لكل حرف من حروف الخط العربي زيادة على سابقيه. (هلال ناجي: ابن مقلة خطاطًا وأديبًا وإنسانًا "مع تحقيق رسالته في الخط والقلم"، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩١م، ص٢٢، ٢٣).

(٧) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ص٣٦١.

تربى (يلخجا من مامش) [١] مع الأمير عبد العزيز ابن السلطان الظاهر برقوق، وكان قد جُلب صغيرا إلى مصر مع أبويه، فاشتراهم السلطان برقوق وأنعم بهم على ابنه عبد العزيز "وتربى الولد مع الولد" على حد وصف السخاوي[٢]. ولم يذكر المؤرخون شيئا عن هوية لالا (السعيد بركة) بن السلطان الظاهر بيبرس وكذلك لالا أبناء السلطان الناصر حسن. وقد حظي أولئك المماليك الذين لم يلتحقوا بالطباق السلطانية بتربية خاصة مع أبناء السلاطين، مما أدى إلى سرعة ترقيتهم في الوظائف والرتب[٣]. والرتب[٣].

أما عن نظام التربية التي نشأ عليها المماليك الكتابية في الطباق، والذي نرجح أنه جوهر النظام نفسه الذي اتبعه اللالا في تربية أبناء السلاطين، فلم تذكر المصادر المعاصرة تفصيلا وافيا لهذا النظام ومنهجيته[٤]، غير أن المقريزي أشار إلى الخطوط الخطوط العريضة لنظم تعليم المماليك في الطباق، والتي تتلخص في حفظ أجزاء من القرآن الكريم وتعلم الخط وآداب الشريعة والصلوات والأذكار، حتى إذا بلغ الصبي سن البلوغ أخذ في تعلم فنون الحروب من رمي السهام ولعب الرمح وغير ذلك[٥].

ونلمح من خلال حادثة وقعت لأبناء السلطان الأشرف شعبان بن حسين إحدى مهام اللالا وهي حماية أبناء السلطان من أي خطر يحدق بهم، فجاء في حوادث الثالث من ذي القعدة سنة ٧٧٨هـ/ ١٤ مارس ١٣٧٧م أن بعض الأمراء وجماعة من المماليك السلطانية اتفقوا على تولية ابن السلطان الصغير علي بن شعبان، فهجموا

---

(١) الأمير سيف الدين يلخجا بن عبد الله بن مامش، صار خاصكيا ثم ساقيا للناصر فرج بن برقوق، ثم حظي عند المؤيد شيخ المحمودي، وتأمر في سلطنة الأشرف برسباي، وتولى نيابة غزة في سلطنة الظاهر جقمق، وتوفي بها سنة ٨٥٠هـ. (ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١٢، ص١٨٠، ١٨١).

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٩١.

(٣) علي سالم النباهين: المرجع السابق، ص١٦٤.

(٤) ـــــــــــــــ: المرجع نفسه، ص ١٧٢.

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٣٧٢.

على القلعة وسألوا الزمام[١] أن يسلمهم الأمير عليًا حتى يسلطنوه فوقف لهم الأمير جلبان لالا أولاد السلطان والأمير أقبغا جركس اللالا ورفضوا تسليمه خوفًا عليه، فما أخذوه إلا عنوة وتسلطن بعد أبيه ولُقب بالسلطان المنصور علي في نفس اليوم[٢]. وقد ذكر ابن حجر في ترجمته للأمير أرغون الأحمدي اللالا (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م) أن الأمير الكبير يلبغا العمري لما تسلطن الأشرف شعبان عينه في خدمة السلطان وتربيته[٣]، فيما يذكر المقريزي أنه أقامه لالا السلطان[٤]، ونستدل بذلك على أن مهمة اللالا كانت القيام على خدمة السلطان الصغير وتربيته.

ونسوق هنا حادثة توضح مهام اللالا ومراقبة السلاطين لعملهم ومحاسبتهم عند التقصير في حق أبنائهم، فيذكر المقريزي في حوادث جمادى الآخر ٧٤٠هـ/ ديسمبر ١٣٣٩م أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤١م) لما علم بشغف ابنه (أنوك) بإحدى المغنيات شق عليه ذلك وأمر بمنع حضور المغاني، فاحتال الأمير (أنوك) حتى أتته سرًا وانشغل بها عن زوجته، ودبر هو ومماليكه ما يشغل به بال السلطان، ولما وصل خبر ذلك للسلطان استدعى ولده (أنوك) وهّم بقتله بالسيف، وغضب على الأمير أرغون العلائي لالاه وعزله وأقام مكانه طيبغا المجدي[٥]. ومن خلال الحادثة السابقة يتبين لنا ما يلي:

١- كان اللالا مسئولا عن ضبط سلوكيات أبناء السلطان والأخذ على أيديهم عند الخروج عن الآداب والأخلاق.

---

[١] من فئات الخدام في القلعة، ويسمى الزمام دار أو زمام الأدر الشريفة، ومهمته الإشراف على البيوت السلطانية ومراقبة تعليم المماليك في الطباق، وعادة ما يكون من أمراء الطبلخانات. (محمد العمايرة: المعجم العسكري، ص١٥٣).

[٢] المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٢٧٦.
- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٧٢.

[٣] ابن حجر: الدرر، ج١، ص٣٥١.

[٤] المقريزي: المقفى، ج٢، ص٢٤، ٢٥.

[٥] المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٩٢.

٢- يظل اللالا مع ابن السلطان حتى سن الشباب وحتى الزواج، فقد كان عمر الأمير (أنوك) في تلك الواقعة (١٧ سنة) حيث كان مولده في رجب ٧٢٣هـ/ يوليو ١٣٢٣م[١].

٣- في بعض الأحيان كان اللالا يتساهل مع أبناء السلاطين رغبة في إرضائهم ليظل مقبولا عند الأسياد وإن جاء ذلك على حساب تفريطه في مهام وظيفته.

٤- كانت عين السلطان ترصد اللالا وتراقبه فيما جل وصغر، ليتأكد السلطان أن لالة ولده يقوم بمهامه على أكمل وجه، وكان يعاقب بالعزل إن حاد.

ولنا أن نتساءل حول رسوم اللالا، هل كانت تكتب لهم تقاليد عند ولاية الوظيفة، وهل كانوا يمنحون خلعًا خاصة من السلطان؟ والإجابة عن الشق الأول لا خلاف فيه حيث لم يكن يكتب إلا لعدد معين من أرباب الوظائف ليس فيهم اللالا كما تنص دساتير الإنشاء في دولة المماليك[٢]، أما بخصوص الخلعة فقد أورد المقريزي في ثلاث حالات مختلفة لفظة "خلع عليه" عند تعيين اللالا[٣]، ويذكر ابن تغري بردي عند حديثه عن الأيام الأولى في سلطنة المظفر أحمد بن المؤيد شيخ (المحرم٨٢٤- شعبان٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) ما نصه: " أحضرت خلعة جليلة للأمير ططر فلبسها باستقراره لالا السلطان الملك المظفر أحمد وكافل المملكة ومدبرها"[٤]، ولا نستبعد أن ينعم السلطان على اللالا بخلعة تتناسب مع قربه منه ونفوذه الطاغي على السلطان في بعض الأحيان.

*** مكانة اللالا ونفوذه:**

اكتسب اللالا مكانة متميزة لوجوده في قلعة الجبل حيث مركز الحكم ومقر إقامة السلطان باعتباره مربي أبنائه ومحل ثقته، أو حتى لالا السلطان نفسه، ومن خلال

---

[١] ابن حجر: الدرر، ج١، ص٤١٨.

[٢] انظر: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٢م، ج٩، ص٢٥٤.

[٣] المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص١٣٩، ٢٥٥؛ ج٤، ق١، ص٢.

[٤] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٦٩.

مطالعة تراجم هؤلاء يمكن استجلاء المكانة الرفيعة التي حظي بها اللالا ومدى تحكم بعضهم في كافة أمور الدولة، فيذكر المقريزي أن السلطان المنصور قلاوون كان إذا رأى الطواشي بلال المغيثي لالا ولده يقول: "أنا كنت أحمل شارموزة[١] هذا الطواشي حسام الدين كلما دخل إلى السلطان الملك الصالح"[٢]. ويسوق ابن تغري بردي هذا النص للدلالة على استبداد اللالا عنبر السحرتي الطواشي بأمور الدولة في سلطنة الصالح إسماعيل (٧٤٣-٧٤٦هـ/ ١٣٤٢-١٣٤٥م) فيقول: "واستولى الخدام والطواشية في أيامه على أحوال الدولة، وعظم أمرهم بتحكم كبيرهم عنبر السحرتي لالاة السلطان، واقتنى عنبر السحرتي البُزَاَة والسناقر، وصار يركب إلى المطعم ويتصيد بثياب الحرير المزركشة، واتخذ له كفا للصيد مرصعا بالجوهر، وعمل له خاصكية وخداما ومماليك تركب في خدمته، حتى ثقل أمره على أكابر أمراء الدولة، فإنه أكثر من شراء الأملاك والتجارة والبضائع، كل ذلك لكونه لالا السلطان، وأفرد له ميدانًا يلعب فيه بالكرة، وتصدى لقضاء الأشغال وقصده الناس فصارت الإقطاعات والرزق والوظائف لا تُقضى إلا بالخدام والنساء"[٣]. وجاء في كتاب السلوك أن السلطان (الصالح إسماعيل) كان يخشى من لالته الأمير أرغون العلائي ولا يتجاسر أن يبسط يده بالعطاء لجاريته (اتفاق) فصار ينعم عليها بكل نفيس من الجواهر سرا[٤]. وكان السلطان الأشرف شعبان مقربا من لالته (قديد القلمطائي) حتى أن (قديدًا) لما رزق بغلام قام السلطان بتسميته (عمر)[٥]. أما الأمير (يشبك الشعباني) لالا السلطان (الناصر فرج) فقد صار مدبر الدولة وبيديه أمور الولاية والعزل[٦]، ولما

---

(١) سرمُوزِه: كلمة فارسية تعني جرمق أو جرموق. (إبراهيم الدسوقي: المرجع السابق، ج٢، ص ١٥٦٩)، والجرمق: خف صغير يُلبس فوق الخف. (ابن منظور: لسان العرب، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م ، ج١٠، ص٣٥).

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص١٦٨. والمقصود الملك الصالح نجم الدين أيوب.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٩٧.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٦٦٢، ٦٦٣.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص١١٣.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٣٠٣.

ولما حدثت ثورة الأمير (تنم)[١] بالشام واشترط للصلح مع السلطان أن يُسلمه (يشبك الشعباني) رفض (الناصر فرج) وقال: "أنا ما أسلم لالتي لأحد"[٢]، ونظرا لمكانة الأتابكي (يشبك الشعباني) اللالا ألّفَ (فيروز الرومي) – خادم نائب الإسكندرية (خليل بن عرام) – كتابًا يذكر فيه ما وقع له مع السلطان (الناصر فرج)[٣]، وصرح ابن تغري بردي بأن الملك (الناصر فرج) كان يميل إلى (يشبك) و(قطلوبغا الكركي) "لأن كل واحد منهما كان لالته"[٤]. وفي ترجمة الأمير (جانبك الأشرفي) ما نصه: "ثم "ثم جعله الملك الأشرف لالا لولده المقام الناصري محمد، فزادت حرمته بذلك وعظم وضخم، ونالته السعادة، وأخذ يقتني من كل شيء أحسنه، حتى جمع من الأموال والخيول والتحف ما يستحى من ذلك كثرة، وكثر ترداد أعيان الدولة إليه، وخضع إليه كل متكبر، ولان له كل متجبر"[٥].

ونشير إلى أنه في بعض الأحيان كانت صلة اللالا بالسلطان نقمة عليه، فنجد أن نائب السلطنة (قطز) لما خلع الملك (المنصور علي بن أيبك) في ٢٨ ذي القعدة ٦٥٧هـ/ ١٦ نوفمبر ١٢٥٩م اعتقله وأخاه وأمه ومعهم الطواشي (شبل الدولة كافور) لالا المنصور[٦]. وقد تعرض لذلك (مثقال الجمالي) لالا (حاجي) ابن السلطان (الأشرف شعبان) وزمام الدور السلطانية، حيث قبض عليه الأتابكي (برقوق

---

[١] هو سيف الدين تنم الحسني الظاهري، من مماليك الظاهر برقوق ترقى حتى صار من مقدمي الألوف وتولى نيابة دمشق في سلطنة برقوق وابنه الناصر فرج، ثم خرج على الناصر فرج في سنة ٨٠٢هـ وحدث بينهما قتال انتهى بمقتل الأمير تنم، وكان أمير جليلًا فارسا خيرًا مهابًا. (ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص١١٩؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٤، ص١٦٨–١٧٤).

[٢] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٢٠٥، ٢٠٦.

[٣] السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص١٧٦.

[٤] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٢، ص ٢٩٢.

[٥] ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٤، ص٢٣٤.

[٦] ابن دقماق: نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، تحقيق سمير طبارة، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ٢٥٣، ٢٥٤.

الظاهري) في صفر ٧٨١هـ/ مايو١٣٧٩م وسأله عن ذخائر (الأشرف شعبان)، فدّل عليها بعدما تعرض مرارًا للتهديد والعقوبة والضرب [١].

ولا شك أن بعض أعيان الدولة قد استخدموا نفوذ اللالا ومكانته لتقلد المناصب الإدارية المختلفة، ونضرب هنا بعض الأمثلة على ذلك، فقد سعى قاضي القضاة عز الدين ابن جماعة[٢] (ت٧٦٧هـ/١٣٦٦م) لدى الأمير (أرغون العلائي) اللالا من أجل عودته إلى نظر بعض الأوقاف[٣]، وكذلك نُقل ابن زنبور[٤] (ت٧٥٥هـ/١٣٥٤م) ناظر الدولة إلى نظر الخاص السلطاني وأضيف إليه نظر الجيش بعناية أرغون اللالا[٥]، كما استقر علاء الدين ابن الأطروش[٦] محتسبًا لدمشق في رجب ٧٤٤هـ/نوفمبر١٣٤٣م بوساطة أرغون اللالا أيضًا[٧]. وجاء في حوادث جمادى الآخر ٧٤٧هـ/ سبتمبر١٣٤٦م خبر القبض على أقطوان متولي الأهراء[٨] وناظر

---

[١] ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص١٩١.
– ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣٩٠.

[٢] هو عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم الكناني الحموي، ولي قضاء الديار المصرية في جمادى الآخر سنة ٧٣٨هـ، وسار فيه سيرة حسنة، وصنف في الفقه والسيرة والأدب. (ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص ٢٤٣– ٢٤٦).

[٣] المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٦٢٤.

[٤] هو الوزير علم الدين عبد الله بن أحمد، كان في بداية أمره كاتبا ثم أخذ يترقى حتى اجتمع له من الوظائف ما لم يجتمع لأحد، فكان ناظر الخاص وناظر الجيش ووزير الدولة، ثم انتهى أمره بالعقوبة والمصادرة. (الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق علي أبو زيد وأخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م ، ج٢، ص٦٥٢– ٦٥٥).

[٥] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٨٢.

[٦] هو علي بن إبراهيم بن أسد الحنفي المصري، ولي حسبة دمشق والقاهرة وقضاء العسكر، اشتهر بالسعي على الوظائف، ومات بالقاهرة سنة ٧٥٨هـ. (ابن حجر: الدرر، ج٣، ص٣، ٤).

[٧] المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٦٥٣.

[٨] هي مخازن الغلال والأعلاف التي يتم تخزين هذه المواد فيها لتزويد الشونة السلطانية منها، وتوزيعها على أفراد الجيش، ولا تفتح هذه المخازن إلا عند الضرورة. (محمد العمايرة: المعجم العسكري، ص٥١).

الحرمين حيث كان قد استخدم نفوذ استاذه الطواشي (شجاع الدين) اللالا فاجتمع له خمس عشرة وظيفة، وبَعُد صيته واشتدت حرمته على حد وصف المقريزي[١]. أما (صفي الدين جوهر الجلباني) لالا أبناء السلطان الأشرف برسباي فقد تحدث مع السلطان لأجل تولية الطواشي (جوهر القنقبائي)[٢] منصب الخازندارية فتم له ذلك في في ذي الحجة ٨٣١هـ/سبتمبر ١٤٢٨م[٣]، ونال (جوهر القنقبائي) من الحرمة والوجاهة والاختصاص بالسلطان برسباي ما لم ينله خادم وكل ذلك بوساطة جوهر اللالا حتى إنه كان يعرف بين الخدام بـ(أخي اللالا) [٤]. كما تدخل جوهر اللالا في تعيين شيخ الخانقاة[٥] الأشرفية في رمضان ٨٣٣هـ/ مايو١٤٣٠م[٦]، وقد اتصل مثقال الظاهري بجوهر اللالا حتى قربه للسلطان الظاهر جقمق وعينه رسولًا إلى ملك الحبشة ثم ولاه تقدمة المماليك[٧]. ولمزيد اعتناء الأشرف برسباي بالأمير (جانبك الدوادار) لالا ولده المقام الناصري (محمد) كثر تردد أكابر الدولة إليه، وقصده الناس من الأقطار لقضاء حوائجهم[٨]، حتى قال فيه ابن حجر العسقلاني[٩]:

---

[١] المقريزي: السلوك، ج٢، ق٣، ص٧١٦.

[٢] جوهر القنقبائي الطواشي الحبشي الخازندار والزمام بالباب السلطاني، كان من عبيد الأمير قنقباي الجركسي، اتصل بالملك الأشرف برسباي بواسطة جوهر اللالا وترقى عنده، وكذلك في زمن الظاهر جقمق، وكانت وفاته في شعبان سنة ٨٤٤هـ. (ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، ص١٦٧، ١٦٨).

[٣] ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤، ص١٦٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٨٢.

[٤] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٣٢٢.

[٥] الخانقاه: أو الخانكاه معناها الدار التي يختلي فيها الصوفية للعبادة والزهد والبعد عن الناس. (إبراهيم الكيلاني: مصطلحات تاريخية مستعملة في العصور الثلاثة الأيوبي والمملوكي والعثماني، مجلة التراث العربي،ع ٤٩، دمشق، ربيع الثاني ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ص٤٤).

[٦] الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص١٩٥.
– ابن خليل الظاهري: نيل الأمل، ج٤، ص٢٨٤.

[٧] السخاوي: الضوء اللامع، ج٦، ص٢٣٩.

[٨] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص١٤٨، ١٤٩.

[٩] السخاوي: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق بشار عواد وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٢، ص٥٠١.

الـدُّوَيْدار قال لـي ٠٠٠ أنـا أَقْضِـي مَآرِبَك
قُمْ زِنِ المالَ قلتُ: لا ٠٠٠ حَفِظَ اللهُ جَـانِبَكْ

وللتأكيد على مكانة اللالا وعلو منزلته نقدم ثلاثة جداول للاستدلال على أن تلك الوظيفة كانت سببًا في ارتفاع شأن متوليها وزيادة ثرواته وارتقائه في كبرى المناصب. فالجدول الأول يوضح الوظائف التي تقلدها اللالات بعد توليهم تربية أولاد السلاطين، ويتناول الجدول الثاني المهمات الخاصة التي انتُدب لأجلها اللالات باعتبارهم موضع ثقة السلطان، فيما يرصد الجدول الثالث ثروات اللالا وأهم العمائر التي أنشأها هؤلاء في عصر المماليك الذي يعد العصر الذهبي للعمارة الإسلامية في مصر.

(١) جدول الوظائف التي تولاها اللالا

م	اللالا	الوظيفة السابقة	الوظائف اللاحقة	المصدر
١	شبل الدولة كافور (ت٦٨٤هـ)	–	خازندار قلعة دمشق– نائب قلعة دمشق	الصفدي: الوافي بالوفيات ٢٤/ ٢٣٤، ٢٣٥
٢	صواب السهيلي (ت٧٠٦هـ)	–	نائب الكرك	ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٦/ ٣٥٥
٣	طيبغا المحمدي (ت٧٧١هـ)	–	والي القاهرة– نائب حماة– أستادار[١]– الحاجب	الصفدي: الوافي بالوفيات ٩/ ١٧٩، ١٦/ ٢٩٣؛ المقريزي: السلوك ج٢، ق٣، ص٥٦٤؛ ابن خليل الظاهري: نيل الأمل ١/ ١٣٩

[١] بكسر الهمزة: هو متولي قبض المال السلطاني وصرفه، وأصله فارسي من كلمتين، إستذ: الأخذ، ودار: ممسك، فيكون المعنى المتولي للأخذ. (محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، ص ١٥).

(١) جدول الوظائف التي تولاها اللالا				
م	اللالا	الوظيفة السابقة	الوظائف اللاحقة	المصدر
٤	أرغون العلائي (ت٧٤٨هـ)	أمير طبلخاناة[٢]– رأس نوبة الجمدارية[٣]	مقدم ألف[١]– مدبر الدولة– ناظر المارستان المنصوري	المقريزي: المقفى ٢/٢٥، ٢٦
٥	عنبر السحرتي (ت٧٤٩هـ)	–	شيخ الخدام بالحرم النبوي + مقدم المماليك	ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٧٩
٦	أرغون الأحمدي (ت ٧٧٥هـ)	خازندار	أستادار– خازندار كبير– رأس نوبة صغير– مقدم ألف– أمير مجلس[٤]– رأس نوبة كبير– نائب الإسكندرية	المقريزي: المقفى ٢/ ٢٤، ٢٥
٧	أقبغا الأحمدي الجلب (ت٧٦٨هـ)	مقدم ألف	الأمير الكبير[٥]	ابن حجر: الدرر ١/ ٣٩١؛ ابن تغري

[١] أعلى رتب الجيش المملوكي، يحق لصاحبها أن يكون في خدمته مائة مملوك كحد أدنى، ويكون قائدا على ألف جندي في وقت الحرب. (محمد العمايرة: المعجم العسكري، ص٤٩).

[٢] ثاني رتب الجيش المملوكي، وكان أصحاب هذه الرتبة تضرب على أبوابهم الطبول للاحترام والتبجيل، ولا تضرب الطبول إلا لأمير يرأس أكثر من أربعين فارسا، وهي كلمة فارسية من مقطعين أحدهما عربي وهي "طبل" والآخر فارسي وهي "خاناة" بمعنى الدار. (ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م، ج٣، ص٢٨٧؛ محمد العمايرة: المعجم العسكري، ص٤٦).

[٣] أحد الأمراء المكلفين بالإشراف على فئة الجمدارية من المماليك السلطانية في وقوفها للخدمة السلطانية، ويساعده في هذه المهمة سبعة من رءوس النوب، والجمدار هو المكلف بالوقوف في الخدمة السلطانية وإمساك ما يؤمر بإمساكه من الثياب ونحوها. (محمد العمايرة: المعجم العسكري، ص٩١، ١٣٩).

[٤] هو الذي يتحدث على الأطباء والكحالين ومن شاكلهم، ولا يكون إلا واحدا. (محمد قنديل البقلي: المرجع السابق، ص٥٠).

[٥] أطلقت هذه التسمية على أتابك العسكر حين تحول هذا المنصب إلى وظيفة منذ تولاها الأمير شيخون العمري سنة ٧٥٦هـ. (محمد العمايرة: المعجم العسكري، ص٤٨).

(١) جدول الوظائف التي تولاها اللالا				
م	اللالا	الوظيفة السابقة	الوظائف اللاحقة	المصدر
				بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ٣٣، ٣٥
٨	سودون الشيخوني (ت٧٩٨هـ)	أمير طبلخاناة	حاجب– مقدم ألف– حاجب كبير– حاجب الحجاب– نائب السلطنة بالديار المصرية	ابن دقماق: الجوهر الثمين ٢/ ٢٣١؛ ابن حجر: إنباء الغمر ١/ ١٥٦، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٥٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ٢٠٩، ٢١٣، ٢٢٧
٩	سيف الدين قديد القلمطائي (ت٨٠١هـ)	–	نائب الإسكندرية– نائب الكرك– حاجب ثالث– شاد الأوقاف بمصر والقاهرة– مقدم ألف	ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة ٣/ ١٠٦، ٤٢٤؛ ابن حجر: إنباء الغمر ١/ ٥٠٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ٣٧١؛ ١٢/ ٢٣، ٢٤
١٠	سابق الدين مثقال الجمالي (ت٧٩١هـ)	ساقي خوند والدة الملك الأشرف	جمدار+ ساقي+ لالا– شاد الأحواش السلطانية[1]– زمام الأدر السلطانية– مقدم المماليك	ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات مج٩، ج١، ص١٧٦، ١٧٧؛ ابن خليل الظاهري: نيل الأمل ١/ ٣٩٣، ٢/ ٥٩
١١	سيف الدين بوري الأحمدي	خازندار	–	المقريزي: السلوك ج٣، ق١، ص٢١٥

[1] أحد وظائف الطواشية يكلف أحدهم بمتابعة ما يحتاج إلى صيانة في القلعة والحفاظ على أمور نظافتها وإصلاح مجاري المياه فيها. (محمد العمايرة: المعجم العسكري، ص١٧٦).

(١) جدول الوظائف التي تولاها اللالا				
م	اللالا	الوظيفة السابقة	الوظائف اللاحقة	المصدر
١٢	قنقباي الألجائي (ت بعد٧٩٦هـ)	أمير طبلخاناة	مقدم ألف	ابن تغري بردي: المنهل ٩/ ١٠٤
١٣	يشبك الشعباني (ت٨١٠هـ)	خازندار– مقدم ألف	الدوادار الكبير[١]– مشير الدولة– أتابك العساكر	المقريزي: السلوك ج٤، ق١، ص٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/ ٧٨، ١٧٠، ٢١٢، ٢٤٨
١٤	قطلوبغا الكركي (ت٨٠٩هـ)	أحد الخاصكية [٣] ثم أمير عشرة	شاد الشراب خاناه[٢]– مقدم ألف	ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٩/ ٧٨، ٧٩؛ السخاوي: الضوء اللامع ٦/ ٢٢٤
١٥	شاهين الحسني السعدي الأشرفي (ت ٨٠٨هـ)	جمدار	ناظر الخانقاة البيبرسية– رأس نوبة الجمدارية	المقريزي: السلوك ج٤، ق١، ص٤٣؛ ابن حجر: إنباء الغمر ٢/ ٢٦٧
١٦	بيبرس الصغير (ت٨٠٨هـ)	الدوادار– مقدم ألف	ــ	ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/ ٣٢٤؛ الصيرفي: نزهة

(١) أحد الأمراء المقدمين يرأس الأعمال الإدارية في البلاط المملوكي، وقد ارتفع شأن صاحب هذا المنصب في أواخر العصر المملوكي، وأصل الكلمة (دواة دار: أي حامل الدواة). (حسان حلاق وعباس صباغ: المرجع السابق، ص٩٤).

(٢) هو أحد الأمراء يكون الأمين على الشرابخاناه، وهي مخزن الشراب وتحتوي على أدوات الشراب النفيسة، وكذلك تشمل أنواعا مختلفة من المشروبات والحلوى والسكر والأدوية والعقاقير. (محمد قنديل البقلي: المرجع السابق، ص١٩٦).

(٣) فئة من المماليك السلطانية يختارها السلطان عند توليه الحكم، ويكلفها بمهام خاصة، وتكون ملازمة للسلطان في مواكبه وأسفاره، وكانوا يترقون في رتب الجيش بصورة سريعة. (محمد العمايرة: المعجم العسكري، ص١١٠، ١١١).

(١) جدول الوظائف التي تولاها اللالا				
م	اللالا	الوظيفة السابقة	الوظائف اللاحقة	المصدر
				النفوس ٢/ ٢١٢
١٧	ططر (ت٨٢٤هـ)	رأس نوبة النوب– أمير مجلس	خلع السلطان وتولى السلطنة	ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ص١٤٤– ١٤٦
١٨	برسباي الدقماقي (ت٨٤١هـ)	ساقي– نائب طرابلس– مقدم ألف– الدوادار الكبير	خلع السلطان وتولى السلطنة	ابن تغري بردي: مورد اللطافة، ص١٤٨– ١٥٣
١٩	جانبك الأشرفي الدوادار(٨٣١هـ)	طبلخاناة– خازندار– الدوادار الثاني	–	المقريزي: درر العقود ١/ ٨٧١، ٥٧٢؛ ابن حجر: إنباء الغمر ٣/ ٤٠٨
٢٠	صفي الدين جوهر الجلباني (ت٨٤٢هـ)	–	زمام الدار السلطاني ومن مقدمي الألوف	المقريزي: السلوك ج٤، ق٣، ص١١٤٨، ١١٩؛ ابن حجر: إنباء الغمر ٤/ ١٢٢
٢١	لاجين الظاهري (ت٨٨٦هـ)	أحد الخاصكية ثم أمير عشرة	زردكاش[١]– شاد الشربخاناه– مقدم ألف– كاشف الجسور بالبهنساوية– أمير مجلس	السخاوي: الضوء اللامع ٦/ ٢٣٢، ٢٣٣؛ ابن خليل الظاهري: الروض الباسم ٤/ ١٥٢؛ نيل الأمل ٧/ ٢٩٧
٢٢	خشقدم الظاهري (ت٨٩٤هـ)	–	رأس نوبة السقاة– شاد السواقي– رأس نوبة الجمدارية– الوزير– خازندار– زمام	السخاوي: الضوء اللامع ٣/ ١٧٦

[١] الزردكاش: المسئول عن صنع السلاح وصيانته. (محمد أحمد دهمان: المرجع السابق، ص ٨٦).

ومن خلال الجدول السابق يتضح ما يلي:

١- نجد أن كل اللالات ارتقوا في وظائفهم اللاحقة إلى مستويات عليا في مناصب الدولة.

٢- خمسة من هؤلاء اللالات تقلدوا مناصب النيابة والولاية في مصر وبلاد الشام[١].

٣- اثنان من اللالات جمعوا مع وظيفة اللالا بعض المناصب في وقت واحد، وهو ما يدل على قوة اللالا واتساع دائرة نفوذه[٢].

٤- اثنان من اللالا قاموا بخلع السلاطين الصغار بعد فترة قصيرة وتقلدوا السلطنة، فقد قام الأمير (ططر) لالا السلطان (المظفر أحمد بن شيخ) بخلعه بعد سبعة أشهر وعشرين يومًا قضاها في السلطنة، وتولى الحكم في ٢٩ شعبان ٨٢٤هـ/ ٢٩ أغسطس ١٤٢١م، وكذلك قام الأمير (برسباي الدقماقي اللالا) بخلع السلطان (الصالح محمد بن ططر) بعد أن قضى في الحكم ثلاثة أشهر وأربعة عشر يومًا، وتسلطن في ٨ ربيع الآخر ٨٢٥هـ/ ١أبريل ١٤٢٢م.

٥- كثير من الوظائف السابقة للالا واللاحقة كانت تختص بوظائف أرباب السيوف التي بحضرة السلطان[٣]، وهو أمر طبيعي لارتباط عمل اللالا بمقر إقامة السلطان.

(٢) جدول المهمات الخاصة للالا					
م	اللالا	السلطان	المهمات الخاصة	التاريخ	المصدر
١	حسام الدين بلال المغيثي (ت٦٩٩هـ)	المنصور قلاوون	ندبه السلطان للتفاوض مع مؤنسة خاتون صاحبة الدار القطبية لشرائها منها، وقد أقيم مكانها البيمارستان المنصوري	٦٨٢هـ	المقريزي: المواعظ والإعتبار ٤/ ٢٧٠

(١) الجدول: م ١، ٢، ٣، ٦، ٩.

(٢) الجدول: م ١٠، ٢٠.

(٣) راجع: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص ص ١٧- ٢٤.

(٢) جدول المهمات الخاصة للالا					
م	اللالا	السلطان	المهمات الخاصة	التاريخ	المصدر
٢	طيبغا المحمدي (ت٧٧١هـ)	الناصر حسن	رسم له السلطان بالسفر في تجريدة إلى البلاد الشامية	١٠ جمادى الأول ٧٤٨هـ	المقريزي: السلوك ج٢، ق٣، ص٧٣٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠/ ١٦١
			شارك مع بعض الأمراء في خلع السلطان الناصر حسن وسلطنة أخيه الصالح صالح بن محمد بن قلاوون	جمادى الآخر ٧٥٢هـ	المقريزي: السلوك ج٢، ق٣، ص٨٤١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠/ ٢٣٠، ٢٣١
٣	عنبر السحرتي (ت٧٤٩هـ)	الناصر أحمد بن قلاوون	رسم السلطان له أن ينتقل بالمماليك السلطانية من الخليل إلى غزة باعتباره مقدم المماليك	ذو الحجة ٧٤٢هـ	ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠/ ٦٧، ٦٨
٤	سودون الشيخوني (ت٧٩٨هـ)	الأشرف شعبان بن حسين	أمره السلطان بالخروج مع جميع ذرية قلاوون من إخوته وبني أعمامهم إلى مدينة الكرك فسجنوا بها، وتولى سودون التحفظ عليهم	شعبان ٧٧٨هـ	ابن قاضي شهبة: المصدر السابق ٣/ ٥٠٩؛ ابن حجر: إنباء الغمر ١/ ١٢٨

(٢) جدول المهمات الخاصة للالا				
م	اللالا	السلطان	المهمات الخاصة	التاريخ	المصدر
٥	سيف الدين قديد القلمطائي (ت٨٠١هـ)	الظاهر برقوق	بعثه السلطان مع الامير بكتمر العلائي رسولًا إلى طقتمش خان[1]	٧٨٨هـ	ابن حجر: إنباء الغمر ١/ ٣١٢
			خرج أميرا على الحاج	٧٩٧هـ	ابن حجر: إنباء الغمر ١/ ٤٨٦
٦	طيبغا الجمالي الصفوي (ت٧٧٩هـ)	المنصور علي بن شعبان	خرج على رأس تجريدة إلى ناحية أطفيح لقتال العربان المفسدين	رجب ٧٧٩هـ	ابن إياس: بدائع الزهور ج١، ق٢، ص٢١٥، ٢١٦
٧	سيف الدين بوري الأحمدي	الأشرف شعبان	أُخرج على البريد لإحضار الأمير أيدمر الدوادار	المحرم ٧٧٥هـ	المقريزي: السلوك ج٣، ق١، ص٢١٥
٨	قطلوبغا الكركي (ت٨٠٩هـ)	الظاهر برقوق	جعله السلطان من الأوصياء على تركته بعد وفاته	٧ شوال ٨٠١هـ	المقريزي: السلوك، ج٣، ق٢، ص٩٧٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/ ١٠٤
		الناصر فرج	أرسله السلطان مبعوثًا إلى الأمير سودون طاز يأمره بالعودة إلى إقطاعه وإمرته بمصر شرط ألا يقيم الفتنة، وإن أراد أن يختار من نيابات الشام ما شاء	الإثنين ٢٠ صفر ٨٠٥هـ	ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/ ٢٩٣
			بعثه السلطان مع أخويه المنصور عبد العزيز	صفر ٨٠٩هـ	ابن حجر: إنباء الغمر ٢/ ٣٥٢؛

[1] ملك القفجاق وسلطان بلاد الدشت وتركستان وهو من سلالة جنكيز خان، قتل على يد التتار سنة ٧٩٨هـ. (ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص١٩، ٤٧١، ٥١٨).

(٢) جدول المهمات الخاصة للالا				
م	اللالا	السلطان	المهمات الخاصة	التاريخ	المصدر
			وإبراهيم ليحتفظ عليهما بالإسكندرية		ابن تغري بردي: مورد اللطافة ٢/ ١٢٦
٩	شاهين الحسني السعدي الأشرفي (ت ٨٠٨هـ)	الناصر فرج	أرسله السلطان بخلعة ولاية القاهرة للأمير شهاب الدين أحمد بن عمر بن الزين	ربيع الأول ٨٠٢هـ	المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص٩٨٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/ ١٩٢
		المنصور عبد العزيز	توجه إلى الشام مع عشرة سرج لطلب الأميرين جكم من عوض نائب حلب وشيخ نائب الشام	السبت ٢١ جمادى الأولى ٨٠٨هـ	المقريزي: السلوك، ج٤، ق١، ص٦؛ ابن الصيرفي: نزهة النفوس ٢/ ١٥٧
١٠	عبد اللطيف الأشرفي (ت٨٥٤هـ)	الناصر فرج	قدم القاهرة بخبر المغول بعد فراره من أسر تيمورلنك، ففرح السلطان بلالته وأنعم عليه	ربيع الأول ٨٠٤هـ	ابن قاضي شهبة: المصدر السابق ٤/ ٢٥٨
			أرسله السلطان إلى الشام لاستدعاء الأمير سودون الحمزاوي نائب صفد	ربيع الأول ٨٠٥هـ	المقريزي: السلوك، ج٣، ق٣، ص١٠٩٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/ ٢٩٥
١١	جانبك الأشرفي الدوادار(٨٣١هـ)	الأشرف برسباي	أرسله السلطان إلى بلاد الشام بتقاليد النواب	المحرم ٨٢٦هـ	السخاوي: الضوء اللامع ٣/ ٥٤

(٢) جدول المهمات الخاصة للالا				
م	اللالا	السلطان	المهمات الخاصة	التاريخ	المصدر
١٢	لاجين الظاهري (ت٨٨٦هـ)	المنصور عثمان	أرسل السلطان مع لالته لاجين مهر فاطمة ابنة الأمير الكبير إينال العلائي التي خطبها السلطان	الاثنين ٣ صفر ٨٥٧هـ	البقاعي: إظهر العصر ١/ ٣٠٠، ٣٠١
		الأشرف قايتباي	عينه السلطان للخروج بصحبة ٢٠٠ من الجند السلطاني للتصدي للعربان المفسدين بإقليم البحيرة	الخميس ٤ ذو القعدة ٨٧٢هـ	ابن الصيرفي: انباء الهصر، ص ٣، ٩؛ ابن خليل الظاهري: الروض الباسم ٣/ ٢٦٢
			أمير على محمل الحج سنة ٨٨٠هـ	٨٨٠هـ	السخاوي: الضوء اللامع ٦/ ٢٣٣
١٣	خشقدم الظاهري (ت٨٩٤هـ)	الأشرف إينال	نزل من القلعة في طلب القضاة الأربعة بأمر السلطان وهو على فراش مرضه حتى يولى ابنه أحمد وليًا للعهد	الأربعاء ١٤ جمادى الأول ٨٦٥هـ	ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٦/ ٢١٨

ومن خلال الجدول السابق يتضح ما يلي:

١- أغلب تلك المهمات الخاصة كانت ذات طبيعة سياسية وعسكرية تتمثل في الخروج في التجاريد والسفارات، أو الاحتفاظ على بعض أبناء السلاطين السابقين في الإسكندرية أو إحدى قلاع الشام.

٢- عشر من تلك المهمات كانت تتعلق بأمور خاصة تتعلق ببلاد الشام، وتتطلب السفر خارج الديار المصرية.

٣- اثنتان من تلك المهمات كانت تختص بإمرة محمل الحج.

٤- اثنتان من تلك المهمات اتصلت بأمور الوصاية على تركة السلطان وولاية العهد.

٥- إحدى المهمات كانت ذات جانب اجتماعي تتعلق بحمل المهر إلى عروس السلطان.

٦- كل المهمات الخاصة تشهد بثقة السلطان في اللالا وقدراته السياسية والعسكرية.

(٣) جدول ثروات اللالا وعمائرهم

م	اللالا	ثروته	منشآته	المصدر
١	صواب السهيلي (ت٧٠٦هـ)	كان كثير المال صاحب بر ومعروف	–	ابن حجر: الدرر ٢/ ٢٠٩
٢	حسام الدين بلال المغيثي (ت٦٩٩هـ)	صاحب أموال طائلة وغلمان	فندق بلال المغيثي بين خط حمام خشيبة وحارة العدوية	الذهبي: المصدر السابق ٥٢/ ٣٩٦؛ المقريزي: المواعظ والإعتبار ٣/ ١٦٨
٣	أرغون العلائي (ت٧٤٨هـ)	كثرت إقطاعاته وأملاكه وأمواله، أنعم في سنة واحدة بمائتين وثلاثين فرسًا وأربعين ألف دينار	أنشأ السبيل وكُتّاب السبيل أعلى باب المارستان المنصوري ووقف عليهما أرضًا، وأنشأ خانقاة العلائي بالقرافة	الصفدي: أعيان العصر ١/ ٤٥٦، ٤٥٧؛ المقريزي: المقفى ٢/ ٢٦؛ ابن حجر: الدرر ١/ ٣٥٣
٤	عنبر السحرتي (ت٧٤٩هـ)	أكثر من شراء الأملاك والتجارة في البضائع	أنشأ جامع بجزيرة الفيل وهو جامع الطواشي الذي يعرف به الشارع ، وجاء في اللوحة التأسيسية للجامع أنه أنشئ سنة ٧٤٣هـ، ولا يزال موجودا وتقام فيه الشعائر بقسم باب الشعرية بالقاهرة	المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤/ ١٣٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٠٧ (حاشية٨)، ١٠/ ٩٧؛ علي مبارك: الخطط ٣/ ٧٥
٥	سابق الدين مثقال الجمالي	كان كثير المال فقد صودر وأخذ منه	عمر المدرسة المشهورة بالقاهرة والتي تعرف	ابن حجر: إنباء الغمر ١/ ١٣٢، ٣٨٨؛ علي

(٣) جدول ثروات اللالا وعمائرهم				
م	اللالا	ثروته	منشآته	المصدر
	(ت٧٩١هـ)	١٠٠ ألف دينار في ٨ ذي القعدة ٧٧٨هـ	بـ(المدرسة السابقية بالجمالية)[١]، وتعرف أيضا بجامع درب قرمز، وكان بها درس للشافعية، وجعل بها خزانة كتب وكتابًا يقرأ فيه أيتام المسلمين، وبنى بينها وبين داره التي تعرف بقصر سابق الدين حوض ماء للسبيل. والمدرسة مربعة الشكل يبلغ طولها ٢١م × ٢٠م ، وهي من المدارس المعلقة إذ يُصعد إليها بواسطة سبع درجات نصف دائرية، ويتوسط المدرسة صحن مربع الشكل وتحيط به الأواوين من جهاته الأربع	مبارك: الخطط ٤/ ٧٦،؛ سعاد ماهر: مساجد مصر ٣/ ٣٢٥، ٣٢٦
٦	شاهين الحسني السعدي الأشرفي (ت ٨٠٨هـ)	–	مدرسة الحسنية: على باب الاسباط في بيت المقدس	العليمي: الأنس الجليل ٢/ ٤٠
٧	عبد اللطيف الأشرفي (ت٨٥٤هـ)	–	جامع عبد اللطيف الطواشي يشرف على بركة الفهادة في حارة الفقراء، بالقرب من حدرة الكماجيين	المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤/ ١٤٦؛ السخاوي: الضوء اللامع ٤/ ٣٤١
٨	جانبك الأشرفي	جمع الكثير من	عمر مدرسة بخط القربيين	ابن تغري بردي: المنهل

[١] أسهمت هذه المدرسة في نشر المذهب الشافعي في دولة المماليك لأن الأمير مثقال قرر فيها درسا للفقهاء الشافعية وجعل بها خزانة كتب وكتاب، للمزيد راجع: أحمد ممدوح وآخران: مدرسة الأمير مثقال (المدرسة السابقية)، مجلة اتحاد الجامعات العربية للسياحة والضيافة، مج ١٣، ع ٣، ديسمبر ٢٠١٦م، ج٢، ص ص ٣٣– ٥٢.

(٣) جدول ثروات اللالا وعمائرهم				
م	اللالا	ثروته	منشآته	المصدر
	الدوادار (ت ٨٣١هـ)	الأموال والخيول والتحف، وله عدة رباع وقياسر وضياع، وخلف أموالا طائلة، وبلغ جهاز ابنته ما يزيد على ٥٠ ألف دينار	خارج باب زويلة ووقف عليها عدة رباع وقياسر وضياع، وتعرف ايضًا بجامع جانبك وبداخله ضريح منشئه وبه سبيل يملاء من النيل	الصافي ٤/ ٢٣٢–٢٣٥؛ علي مبارك: الخطط ٤/ ٧٢
٩	صفي الدين جوهر الجلباني (ت ٨٤٢هـ)	كثر ماله وتزايدت عظمته، وترك أوقافا على منشآته وعلى الحرمين الشريفين	صاحب المدرسة (مدرسة جوهر اللالا)[١] والدار بالمصنع بالقرب من قلعة الجبل، وهي بحارة درب اللبانة في جنوب شرق القاهرة، تبلغ مساحتها ١٨٧م²، لم يعثر الأثريون على النص التأسيسي لها، ولذا اعتمدوا على التاريخ الوارد في حجة الوقف سنة ٨٣٣هـ، وخصص لها عدة أوقاف منها أرض بالجيزة ووكالة وساقية، ووكالتان احداهما يباع فيها المخلل والأخرى كانت مطبخًا، وأنشأ بجوارها مكتبًا وسبيلًا وحمامًا، وقد ورد في وقفيته أن يرتب في الكتاب عشرة أيتام ويصرف لكل منهم خمسين نصفا من	ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٥/ ٣٧؛ النجوم الزاهرة ١٥/ ٤٦٥، ٤٦٦؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ٢/ ٨٥، ١٠٤، ٤/ ٧٦، ٦/ ٥٩؛ سعاد ماهر: مساجد مصر ٤/ ١٢١

[١] للمزيد حول مدرسة جوهر اللالا، راجع: ليلي كامل محمد: مدرسة جوهر اللالا (٨٣٣هـ/١٤٣٠م) دراسة أثرية معمارية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٣م.

(٣) جدول ثروات اللالا وعمائرهم				
م	اللالا	ثروته	منشآته	المصدر
			الفلوس شهريًا، وللمؤدب مائتان، وشرط أن يعطى لمن يختم القرآن من الأيتام ٥٠٠ درهم فضة، وكان بها ضريح تعلوه قبة دفن بها جوهر اللالا	
١٠	لاجين الظاهري (ت٨٨٦هـ)	–	عمر جامعا بالجسر الأعظم بالقرب من الكبش على بركة الفيل سنة ٨٥٤هـ وأوقف عليه أوقافًا جمة[١]، ويقع المسجد في ميدان السيدة زينب حاليا، ويعتبر من المساجد القليلة النادرة التي بنيت في عصر الجراكسة قائمة على الأروقة بدلا من الإيوانات، وهو مسجد صغير الحجم تبلغ مساحته (٢٥×٢١) مترًا، ويتكون من صحن مكشوف مساحته (٦×٩) متر تنخفض أرضيته عن باقي الأروقة، ويحيط به الأروقة من جميع الجهات، وبه ضريح وله منارة ومطهرة وبئر، ومن وقفه منزل وثمانية دكاكين بجواره	السخاوي: الضوء اللامع ٦/ ٢٣٢، ٢٣٣؛ علي مبارك: الخطط ٥/ ٩٨؛ سعاد ماهر: مساجد مصر ٤/ ١٧٣، ١٧٤، ١٧٦، ١٧٧

[١] جاء في التبر المسبوك أن أول جمعة أقيمت في هذا الجامع في ٢ شوال سنة ٨٥٢هـ .(السخاوي: التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق لبيبة إبراهيم وآخر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج٢، ص٩٨).

(٣) جدول ثروات اللالا وعمائرهم				
م	اللالا	ثروته	منشآته	المصدر
١١	خشقدم الظاهري (ت٨٩٤هـ)	–	عمل جامعًا في درب الرملة، وهو جامع خشقدم الأحمدي بشارع درب الحصر من خط الخليفة، وبه إيوانان ومنبر ودكة تبليغ، وفي لوحته التأسيسية تاريخ ٨٧٠هـ، وله مطهرة ومنارة. كما جدد خشقدم زاوية أقطاي تحت القلعة وبنى بها بيوتا، وحفر هناك بئرا في الحجر	السخاوي: الضوء اللامع ٣/ ١٧٦؛ علي مبارك: الخطط ٤/ ١٠٧

ومن خلال الجدول السابق يتضح ما يلي:

١- تنوعت ثروات اللالا بين الأموال، والتجارات، والوكالات، والرَّبَاع[١]، والقيساريات[٢]، والخيول، والتحف.

٢- يبدو أن وظيفة اللالا لم يكن لها راتب خاص لمن يتقلدها، وإنما كان الطواشي اللالا يتقاضى الجوامك[٣] كغيره من الطواشية، والراجح أن جامكية اللالا كانت تزيد

---

[١] بكسر الراء مشددة وفتح الباء ممدودة، والمفرد رَبْع، هي المساكن تُبنى فوق الحوانيت في الأسواق والفنادق والخانات يسكنها العوام. (محمد عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٢٤١).

[٢] بكسر القاف ممدودة، أو فتحها مع سكون الياء، وفتح السين ممدودة، والمفرد قيسارية، هي سوق التجارة في مدينة من المدن. (محمد عمارة: المرجع السابق، ص٢٧٢).

[٣] الجامكية: مصطلح شائع في العالم الإسلامي يرادف كلمة الراتب، ومعناها ذلك الجزء من الراتب المنتظم الذي يمنح في هيئة ملبوس أو قماش، ثم استعمل المصطلح من بعد أيام المماليك بمعنى الجزء من الراتب الذي يمنح نقدا. (عبد الإله نبهان: عطية الرحمن في صحة إرصاد الجوامك والأطيان لعيسى بن عيسى الصفتي البحري، مجلة التراث العربي، ع ١٨، دمشق، يناير ١٩٨٥م، ص٦٢).

عددا ونوعا بعد توليه تلك الوظيفة التي تستتبع قربه من السلطان، وتكون بابًا لثراء اللالا وهيمنته على كثير من أمور الولاية والعزل.

٣- أوقف اللالا بعض أموالهم على عمائرهم الدينية ووضعوا في حُجَج أوقافهم نظامًا دقيقًا للإنفاق على تلك العمائر وإدارتها وفقًا لشروط الواقف.

٤- اتسعت دائرة أوقاف اللالا لتشمل أوقافًا على الحرمين الشريفين مثلما فعل جوهر اللالا، وكذلك أوقف دينار اللالا الأشرفي رزقه على جامع المارداني[١].

٥- اشتملت عمائر اللالا على العمائر الدينية والمدنية فنجد هناك الجامع والمدرسة والخانقاة والكُتاب وكذلك الحمامات والأسبلة والأضرحة والوكالات والدكاكين.

٦- اهتم اللالا بالإنفاق على أعمال الإصلاح والترميم لبعض العمائر القائمة، كما أوقفوا عليها الأوقاف، ومثال ذلك ما فعله أرغون العلائي اللالا بالمارستان المنصوري[٢]، كما جدد خشقدم الظاهري زاوية قطاي.

٧- نجد أن كل العمائر التي أنشأها اللالا كانت في القاهرة (عدا المدرسة الحسنية) حيث مركز الحكم الذي يقيم بها السلطان ومعه اللالا في خدمته.

٨- بلغ عدد ما تم حصره من منشآت اللالا: (٤) جوامع، (٣) المدرسة الجامع، (١) مدرسة، (١) خانقاة، (٣) وكالة، (١) فنادق، (٣) أضرحة، (٤) سبيل، (٣) كُتاب، (١) حمام، (٨) دكان.

---

[١] ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٣٨٠.

– جامع المارداني يقع خارج باب زويلة، بلغت تكلفة بنائه نحو ١٥ ألف دينار، وأقيمت أول خطبة فيه يوم الجمعة ١٤ رمضان ٧٤٠هـ. (المقريزي: المواعظ والإعتبار، ج٤، ص١٠٩).

[٢] يعد أشهر البيمارستانات ف العصر المملوكي أنشأه المنصور قلاوون في منطقة بين القصرين، وتولى الأمير علم الدين سنجر الإشراف على عمارته، فأنجزت عمارته على أحسن ما يكون في ١١ شهر في سنة ٦٨٣هـ. للمزيد راجع: (حياة ناصر الحجي: البيمارستان المنصوري منذ تأسيسه وحتى نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مج ٨، ع ٢٩، الكويت، ١٩٨٨م، ص ٦- ٣٥).

*** جدول اللالات في دولة المماليك:**

ونقدم الآن جدولًا إجماليًا لمن تولى وظيفة اللالا، وهو ما انتهى إليه البحث من خلال تتبع هؤلاء اللالات في مصادر العصر المملوكي:

م	اللالا	الجنس	الرتبة العسكرية/ الإمرة	ابن السلطان / السلطان	تاريخ الولاية			نهاية الخدمة	المصدر
					من	إلى	مدة		
١	شبل الدولة كافور (ت٦٨٤هـ)	حبشي	طواشي	الملك المنصور علي بن أيبك	ـــ	ذو القعدة ٦٥٧هـ	ـــ	قبض واعتقال	ابن دقماق: نزهة الآنام، ص٢٥٤؛ المقريزي:السلوك ج١ ق٢ ص٤١٨
٢	صواب السهيلي (ت٧٠٦هـ)	حبشي	طواشي	نجم الدين خضر بن الملك الظاهر بيبرس	ـــ	ـــ	ـــ	ـــ	المقريزي: السلوك ج٢ ق١ص٣١؛ ابن حجر: الدرر الكامنة ٢/ ٢٠٨، ٢٠٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨/ ٢٢٥
٣	حسام الدين بلال المغيثي (ت٦٩٩هـ)	حبشي	طواشي	الملك الصالح علي بن المنصور قلاوون	ـــ	ـــ	ـــ	ـــ	الصفدي: أعيان العصر ٢/ ٤٢؛ ابن دقماق: نزهة الآنام، ص٢٥٤؛ المقريزي: السلوك، ج١، ق٣، ص٦٨٧
٤	أرغون العلائي (ت٧٤٨هـ)	ـــ	طبلخاناة	أنوك بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون	ـــ	جمادى الآخرة ٧٤٠هـ	ـــ	ـــ	المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٩٢
٥	طيبغا المحمدي (ت٧٧١هـ)	ـــ	طبلخاناة	أنوك بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون	جمادى الآخرة ٧٤٠هـ	ـــ	ـــ	ـــ	ابن أيبك: كنز الدرر ٩/ ٣٦٦؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٩٢
٦	أرغون العلائي (ت٧٤٨هـ)	ـــ	طبلخاناة	الصالح إسماعيل والكامل شعبان	ـــ	ـــ	ـــ	ـــ	المقريزي:السلوك ج٢ ق٣ ص٧٥٦، ابن حجر: الدرر الكامنة ١/ ٣٥٣؛ ابن خليل

م	اللالا	الجنس	الرتبة العسكرية/ الإمرة	ابن السلطان / السلطان	تاريخ الولاية			نهاية الخدمة	المصدر
					من	إلى	مدة		
									الظاهري: نيل الأمل ١/ ١٤٨
٧	عنبر السحرتي (ت٧٤٩هـ)	حبشي	طبلخاناة (طواشي)	الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون	كان في سنة ٧٤٣هـ	٧٤٦هـ	أكثر من ٣ سنوات	قبض عليه لما تسلطن المظفر حاجي	المقريزي:السلوك ج٢ ق٣ ص٦٥٤، ٦٧٩، ٧١٤، ٧٩٧؛ ابن حجر: الدرر الكامنة ٣/ ١٩٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠/ ٩٧، ٢٤١
٨	أرغون الأحمدي (ت ٧٧٥هـ)	—	طبلخاناة	الأشرف شعبان بن حسين	٢٣ رمضان ٧٦٤هـ	٢٢ ربيع الأول ٧٦٨هـ	٣ سنوات ونصف تقريبا	نفي إلى الشام	المقريزي:السلوك ج٣ ق١ ص٨٤، ابن حجر: الدرر الكامنة ١/ ٣٥١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ٣٥
٩	أقبغا الأحمدي الجلب (ت٧٦٨هـ)	—	أمير مائة	الأشرف شعبان بن حسين	٢٢ ربيع الأول ٧٦٨هـ	٢٠ ربيع الآخر ٧٦٨هـ	شهر	استقر أمير كبير	المقريزي:السلوك ج٣ ق١ ص١٢٩، ابن حجر: الدرر الكامنة ١/ ٣٩١، ٣٩٢
١٠	أسنبغا القوصوني (ت٧٧٦هـ)	تركي	طبلخاناة	الأشرف شعبان بن حسين	٢٠ ربيع الآخر ٧٦٨هـ	—	—	—	المقريزي:السلوك ج٣ ق١ ص١٣٩، ٢٤٣؛ ابن حجر: إنباء الغمر ١/ ٧٧؛ ابن خليل الظاهري: نيل الأمل ٢/ ٧١
١١	سودون الشيخوني (ت٧٩٨هـ)	—	طبلخاناة	الأشرف شعبان بن حسين	—	٤رجب ٧٦٩هـ	—	—	المقريزي:السلوك ج٣ ق١ ص١٥٧، ١٥٨؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٦/ ١٠٤- ١٠٩؛ ابن خليل الظاهري: نيل الأمل ١/ ٣٥٨
١٢	أرغون الأحمدي (ت ٧٧٥هـ)	—	طبلخاناة ثم مائة	الأشرف شعبان بن	٤رجب ٧٦٩هـ	—	—	—	المقريزي:السلوك ج٣ ق١ ص١٥٧، ١٥٨،

م	اللالا	الجنس	الرتبة العسكرية/ الإمرة	ابن السلطان / السلطان	تاريخ الولاية			نهاية الخدمة	المصدر
					من	إلى	مدة		
				حسين					١٦١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ٥٥؛ ابن خليل الظاهري: نيل الأمل ٢/ ١٤، ٦٢
١٣	سيف الدين قديد القلمطائي (ت٨٠١هـ)	—	—	الأشرف شعبان بن حسين	—	—	—	—	السخاوي: التبر المسبوك ٤/ ٥٣؛ الضوء اللامع ٦/ ١١٣، ٢١٤
١٤	طيبغا الجمالي الصفوي (ت٧٧٩هـ)	—	طبلخاناة	إخوة السلطان الأشرف شعبان بن حسين	٢٩ شعبان ٧٧٧	—	—	سجن في الإسكندرية سنة ٧٧٨هـ	المقريزي:السلوك ج٣ ق١ ص٢٥١، ٢٥٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ١٥٠، ١٥١؛ ابن إياس: بدائع الزهور ج١ ق٢ ص٢١٥، ٢١٦
١٥	الأمير جلبان	—	—	أولاد السلطان الأشرف شعبان	كان متوليا في ذي القعدة ٧٧٨هـ	—	—	—	المقريزي: السلوك، ج٣، ق١، ص٢٧٦؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٦/ ٢٤٣؛ ـــــ: النجوم الزاهرة ١١/ ٧٢
١٦	أقبغا جركس	—	—	أولاد السلطان الأشرف شعبان	كان متوليا في ذي القعدة ٧٧٨هـ	—	—	—	
١٧	سابق الدين مثقال الجمالي (ت٧٩١هـ)	حبشي	طواشي	أمير حاج بن السلطان الأشرف شعبان	٧٧٤هـ	—	—	نقل إلى شد الاحواش السلطانية	ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات مج٩ ، ج١، ص١٧٦، ١٧٧؛ المقريزي: السلوك ج٣، ق٢، ص٦٨٧؛ ابن حجر: إنباء الغمر ١/ ٣٨٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ٣٩٠
١٨	مقبل الكلبكي	—	طواشي	المنصور		٢٦	—	نفي	المقريزي:السلوك

م	اللالا	الجنس	الرتبة العسكرية/ الإمرة	ابن السلطان / السلطان	تاريخ الولاية			نهاية الخدمة	المصدر
					من	إلى	مدة		
				علي بن شعبان		جمادى الآخر ٧٧٩هـ			ج٣ ق١ ص٣١٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ١٦١
١٩	دينار الناصري	حبشي	طواشي	المنصور علي بن شعبان	٢٦ جمادى الآخر ٧٧٩هـ	—	—	—	المقريزي:السلوك ج٣ ق١ ص٣١٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ١٦١
٢٠	سيف الدين بوري الأحمدي	—	طبلخاناة	الملك الصالح المنصور حاجي	٣ رجب ٧٩١هـ	—	—	—	ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات مج٩ ، ج١، ص١١٠،٩٧، ١١١؛ المقريزي:السلوك ج٣، ق١، ص٢١٥، ٣٣٨؛ ج٣ ق٢ ص٦٢٤، ٦٣٦
٢١	جوهر اليلبغاوي	حبشي	طواشي	الملك الصالح المنصور حاجي	—	٢٣ شعبان ٧٩١هـ	—	قبض	ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٩، ج١، ص١٢٧؛ المقريزي:السلوك ج٣ ق٢ ص٦٤٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ٣٤١
٢٢	قنقباي الألجائي (ت بعد٧٩٦هـ)	جركسي	طواشي/ طبلخاناة	الناصري محمد بن برقوق	—	—	—	—	المقريزي: السلوك ج٤ ق٣ ص١٢٣٤؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٩/ ١٠٤
٢٣	يشبك الشعباني (ت٨١٠هـ)	—	مائة	الناصر فرج بن برقوق	٢٠ شوال ٨٠١هـ	—	—	—	المقريزي:السلوك ج٣ ق٣ ص٩٦٢؛ السخاوي: الضوء اللامع ١٠/ ٢٧٨، ٢٧٩

م	اللالا	الجنس	الرتبة العسكرية/ الإمرة	ابن السلطان / السلطان	تاريخ الولاية			نهاية الخدمة	المصدر
					من	إلى	مدة		
٢٤	قطلوبغا الكركي (ت٨٠٩هـ)	—	عشرة ثم مائة	الناصر فرج بن برقوق	٢٠ شوال ٨٠١هـ	—	—	—	المقريزي:السلوك ج٣ ق٣ ص٩٦٢؛ ابن تغري بردي:المنهل الصافي ٩/ ٧٨، ٧٩؛ النجوم الزاهرة ١٢/ ١٧٣
٢٥	شاهين الحسني السعدي الأشرفي (ت ٨٠٨هـ)	—	طواشي	الناصر فرج بن برقوق	١٢ ذو القعدة ٨٠١هـ	—	—	—	المقريزي:السلوك ج٣ ق٣ ص٩٦٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/ ١٧٨؛ السخاوي: الضوء اللامع ٣/ ٢٩٥
٢٦	عبد اللطيف الأشرفي (ت٨٥٤هـ)	—	طواشي	الناصر فرج بن برقوق	١٢ ذو القعدة ٨٠١هـ	—	—	—	المقريزي:السلوك ج٣ ق٣ ص٩٦٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٢/ ١٧٨
٢٧	بيبرس الصغير (ت٨٠٨هـ)	—	مائة	المنصور عبد العزيز بن برقوق	٢٧ ربيع الأول ٨٠٨هـ	٥ جمادى الآخر ٨٠٨هـ	٧٠ يوم تقريبا	—	المقريزي:السلوك ج٤ ق١ ص٢؛ ابن حجر: إنباء الغمر ٢/ ٣١٩؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٣/ ٤٨٤؛ الصيرفي: نزهة النفوس ٢/ ٢١٢
٢٨	ططر (ت٨٢٤هـ)	جركسي	مائة	الملك المظفر أحمد	١٠ المحرم ٨٢٤هـ	٢٩ شعبان ٨٢٤هـ	٧ أشهر ونصف	—	المقريزي:السلوك ج٤ ق٢ ص٥٦٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٤/ ١٦٩
٢٩	برسباي الدقماقي (ت٨٤١هـ)	جركسي	مائة	الصالح محمد بن ططر	٢ ذو الحجة ٨٢٤هـ	٨ ربيع الآخر ٨٢٥هـ	٤ أشهر	—	المقريزي:السلوك ج٤ ق٢ ص٥٨٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٤/ ٢٠٦

م	اللالا	الجنس	الرتبة العسكرية/ الإمرة	ابن السلطان / السلطان	تاريخ الولاية			نهاية الخدمة	المصدر
					من	إلى	مدة		
٣٠	جانبك الأشرفي الدوادار(ت٨٣١هـ)	جركسي	طبلخاناة	المقام الناصري محمد بن السلطان الأشرف برسباي		٨٣١هـ	—	وفاة	ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٤/ ٢٣٢- ٢٣٥
٣١	صفي الدين جوهر الجلباني (ت٨٤٢هـ)	حبشي	طواشي	لا لا الناصري محمد ثم الملك العزيز يوسف ابناء السلطان الأشرف برسباي	٨٢٥هـ	ربيع الأول ٨٤٢هـ	١٣ سنة تقريبا	ترقى حتى صار زمام الدار السلطاني ثم قبض عليه الظاهر جقمق بعدما تسلطن	ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٤/ ٣٢٢؛ ١٥/ ٢٦١، ٤٦٥، ٤٦٦
٣٢	لاجين الظاهري (ت٨٨٦هـ)	جركسي	عشرة	ابن السلطان الظاهر جقمق (الفخري عثمان)	—	—	—	—	السخاوي: الضوء اللامع ٦/ ٢٣٢، ٢٣٣؛ ابن خليل الظاهري: نيل الأمل ٥/ ٢٦٦؛ ٦/ ٣٠٠
٣٣	خشقدم الظاهري (ت٨٩٤هـ)	رومي	طواشي	ابن السلطان الظاهر جقمق (الفخري عثمان)	—	—	—	—	السخاوي: الضوء اللامع ٣/ ١٧٦، ١٧٧
٣٤	مثقال الخازندار	حبشي	طواشي	المقام الناصري محمد بن السلطان الأشرف إينال	كان لالا في ذي القعدة ٨٦٣هـ	—	—	—	البقاعي: إظهار العصر، ق٣، ص٩١

ومن خلال الجدول السابق نستنتج ما يلي:

١- بلغ عدد ما وصل إليه البحث من اللالات (٣٢) بعد حذف من تكررت ولايته للوظيفة.

٢- جاء الطواشي شبل الدولة كافور أول لالا في دولة المماليك، وكان لالا السلطان المنصور علي بن أيبك ثاني ملوك الترك في الديار المصرية. فيما كان الطواشي مثقال الخازندار لالا المقام الناصري محمد بن السلطان الأشرف إينال آخر لالا في دولة المماليك وفق ما انتهى إليه البحث.

٣- تنوعت جنسيات اللالا فنجد أكثرهم من الأتراك والجراكسة وقلة من الروم، فيما كان تسعة منهم من الأحباش[١]، وكان الأحباش يأتون في الغالب على شكل هدايا من الحبشة واليمن[٢].

٤- اختلفت الرتب العسكرية للالا، فهناك ستة من مقدمي الألوف[٣]، وثمانية من الأمراء الطبلخانات[٤]، واثنان من الأمراء العشرات[٥]، وأربعة عشر من الطواشية[٦]، ونشير إلى أن بعض هؤلاء الطواشية كانوا من الطبلخانات[٧]، فيما لم نعلم رتب ثلاثة من اللالات[٨].

٥- بلغ عدد اللالات في دولة المماليك البحرية (١٨) بنسبة (٥٣%) من العدد الإجمالي، فيما كان (١٣) منهم في دولة المماليك الجركسية بنسبة (٤٧%).

٦- نلاحظ أن أكثر السلاطين الذين تعين لهم اللالات كان السلطان الأشرف شعبان، فقد عين له خمسة لالات[٩]، منهم الأمير أرغون الأحمدي اللالا الذي تولى الوظيفة مرتين، فقد عُزل في المرة الأولى في ٢٠ جمادى الآخر ٧٦٨هـ/٢١ فبراير ١٣٦٧م

---

(١) الجدول: م ١، ٢، ٣، ٧، ١٧، ١٩، ٢١، ٣١، ٣٤.

(٢) محمد العمايرة: الجيش في العصر المملوكي الثاني (٧٨٤-٩٢٣هـ)، كنوز المعرفة ، عمان، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص٨٦.

(٣) الجدول: م ٩، ١٢، ٢٣، ٢٧، ٢٨، ٢٩.

(٤) الجدول: م ٤، ٥، ٨، ١٠، ١١، ١٤، ٢٠، ٣٠.

(٥) الجدول: م ٢٤، ٣٢.

(٦) الجدول: م ١، ٢، ٣، ٧، ١٧، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٣١، ٣٣، ٣٤.

(٧) الجدول: م ٧، ٢٢.

(٨) الجدول: م ١٣، ١٥، ١٦.

(٩) الجدول: م ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣.

ثم أُعيد مرة ثانية في ٤ رجب ٧٦٩هـ/ ٢٤ فبراير١٣٦٨م، وكان الأشرف شعبان في العاشرة من عمره لما تولى السلطنة في ١٥ شعبان ٧٦٤هـ/ ٣٠ مايو ١٣٦٣م.

٧- رصد البحث أن أكثر اللالات كانوا في الفترة التي حكم فيها أبناء الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده، والتي تُقدر بـ (٤٣ سنة و٥ أشهر ونصف تقريبا)، وقد بلغ عدد هؤلاء اللالات (١٥)[١]، وإذا أضفنا إليهم ثلاثة[٢] تولوا في سلطنة الناصر محمد يصبح عدد اللالات في بيت الناصر محمد بن قلاوون فقط (١٨) بنسبة (٥٣%) من العدد الإجمالي، ولا شك أن صغر سن السلاطين في تلك الفترة، بالإضافة إلى كثرة عددهم هو سبب ازدياد عدد اللالات، فقد تعاقب على الحكم منهم ١٣ سلطانًا، ثمانية من أبناء الناصر محمد وخمسة من أحفاده[٣].

٨- بلغت نسبة اللالات الذين عُينوا للسلاطين القائمين بالحكم (١٦) [٤]، وبقية العدد (١٨) يخص اللالات الذين تولوا تربية أبناء السلاطين وإخوانهم[٥].

٩- أربع حالات عُين فيها اللالات لأكثر من ابن أو أخ للسلطان[٦]، بحيث يتولى فرد فرد واحد من اللالات أمر تربية عدد من أبناء السلطان أو إخوانه.

١٠- حالتان يُعين فيهما اثنان من اللالا معًا للسلطان[٧]، وكلاهما تخص السلطان الناصر فرج بن برقوق، وفي إحدى الحالات صرح ابن قاضي شهبة أنه استقر الأمير

---

[١] الجدول: م (من ٧ حتى ٢١).

[٢] الجدول: م ٤، ٥، ٦.

[٣] محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م، ص ٥٣.

[٤] الجدول: م ١، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ٢٠، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩.

[٥] الجدول: م ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢١، ٢٢، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٣، ٣٤.

[٦] الجدول: م ٤، ٦، ٨، ١٢.

[٧] الجدول: م ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦.

يشبك الشعباني الخازندار لالا السلطان والأمير قطلوبغا الكركي لالا ثاني[١]، ولم يتكرر هذا الأمر قبل الناصر فرج ولا بعده.

١١- نسجل أن بعض نهايات خدمة اللالا كانت عقوبات تنوعت بين السجن[٢] والنفي[٣]، ويظهر أن خلع السلطان القائم وتولية غيره كانت سببًا في إنزال العقوبة بلالا السلطان المعزول.

---

[١] ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٤م، ج٤، ص٢٠.

[٢] الجدول: م ١، ٧، ١٤، ٢٠.

[٣] الجدول: م ٨، ١٨.

خاتمة

وفي ختام البحث نخلص إلى ما يلي:

– اتخذ سلاطين المماليك اللالا منذ بداية الدولة وظل هذا المصطلح يتردد حتى العقد السادس من القرن التاسع الهجري.

– لم تتعرض المصادر المعاصرة لطبيعة عمل اللالا بصورة مباشرة، وخلت من ذكر شروط اختيارهم، ولم تصرح كذلك بمهامهم، غير أننا نلمح ذلك من خلال التنقيب في الحوادث التاريخية ذات الصلة باللالا، ومن مطالعة تراجم الأعيان التي تزخر بهم مصادر هذا العصر.

– تتبع أحوال اللالا وعلاقاتهم في دولتي المماليك البحرية والبرجية أسهم في فهم تطور تلك الوظيفة على امتداد العصر المملوكي.

– رصد البحث أهم شروط اختيار اللالا المتمثلة في الولاء والطاعة، والكفاءة وحسن السيرة، والإلمام ببعض المعارف والعلوم وفنون الحرب.

– فضل سلاطين المماليك تعيين اللالات في سن الكهولة والشيخوخة طلبًا لرجاحة العقل وسلامة المنطق وتوافر الخبرة، كما تولى بعض الشباب لأسباب تتعلق بكفاءتهم وقربهم من السلطان.

– تولى وظيفة اللالا كثير من الطواشية الأحباش، كما تولاها الأمراء من الأتراك والجراكسة، فلم تكن حكرًا على جنس بعينه، ولا رتبة عسكرية بعينها.

– كانت أبرز مهام اللالا القيام على خدمة ابن السلطان / أو السلطان الصغير / وتربيته، وحمايته، وبذل النصح والمشورة إذا تطلب الأمر.

– عَظُم نفوذ اللالا وكثرت ثرواتهم في الغالب لصلاتهم بالسلطة وكبار أعيان الدولة، وللسمات الشخصية التي تميز بها كثيرون منهم، مثل: العقل والحشمة، والهيبة والوقار، والحنكة والخبرة، وفي بعض الأحيان كان اللالا مدبرًا لأمور المملكة وصاحب الحل والعقد.

– يظل نفوذ اللالا يتزايد مع السلاطين الصغار، ولا يكاد يُسمع لهم ذكر في عهود السلاطين البالغين الأقوياء باستثناء بعض حالات اللالا وثيقي الصلة بالسلطان.

– يظهر أن سبب اختفاء ذكر اللالات في النصف قرن الأخير(تقريبا) من عمر دولة المماليك يرجع إلى غياب فكرة توريث السلطان الحكم لأبنائه، وكذلك لاشتعال الصراع بين أمراء المماليك، ولضعف روابط الأستاذية والخجداشية (الزمالة) وقدوم هؤلاء المماليك كبارًا وعدم تربيتهم في الطباق كما جرت العادة في دولة المماليك البحرية.

– لا تزال بعض منشآت اللالا قائمة في قاهرة المعز، تشهد بما كان لهؤلاء اللالات من دور ونفوذ في الجانب السياسي والحضاري في عصر سلاطين المماليك.

جدول (١)

جدول بأسماء سلاطين دولة المماليك الأولى (البحرية)[١].

سلاطين دولة المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)						
م	السلطان	فترة الحكم		مدة الولاية		
		من	إلى	يوم	شهر	سنة
١	شجر الدر	١٠صفر٦٤٨هـ/١٢٥٠م	ربيع الأول٦٤٨هـ/١٢٥٠م	٢٠	١	—
٢	المعز أيبك التركماني	٣٠ربيع الأول٦٤٨هـ/١٢٥٠م	١٤ربيع الأول٦٥٥هـ/١٢٥٨م	٢٧	١٠	٦
٣	المنصور علي بن أيبك	٢٦ربيع الأول٦٥٥هـ/١٢٥٧م	٢٨ذي القعدة٦٥٧هـ/١٢٥٨م	٣	٨	٢
٤	المظفر سيف الدين قطز	١٤ذي القعدة٦٥٧هـ/١٢٥٧م	١٥ذي القعدة٦٥٨هـ/١٢٥٨-١٢٦٠م	١	—	١
٥	الظاهر ركن الدين بيبرس	١٥ذي القعدة٦٥٨هـ/١٢٦٠م	٢٧محرم٦٧٦هـ/١٢٧٧م	—	—	١٨
٦	السعيد بركة خان بن بيبرس	٢٦صفر٦٧٦هـ/١٢٧٧م	١٠ربيع الآخر٦٧٨هـ/١٢٧٩م	—	١	٢
٧	العادل سلامش بن بيبرس	٧ربيع الآخر٦٧٨هـ/١٢٧٩م	٢٠رجب٦٧٨هـ/١٢٧٩م	٦	٣	—
٨	المنصور سيف الدين قلاوون	٢٠رجب٦٧٨هـ/١٢٧٩م	٦ذي القعدة٦٨٩هـ/١٢٩٠م	١٥	٣	١١
٩	الأشرف خليل بن قلاوون	٧ذي القعدة٦٨٩هـ/١٢٩٠م	١٢محرم٦٩٣هـ/١٢٩٣م	٤	٢	٣
١٠	الناصر محمد بن قلاوون	١٦محرم٦٩٣هـ/١٢٩٣م	١١محرم٦٩٤هـ/١٢٩٤م	٢٧	١١	—
١١	العادل زين الدين كتبغا	١١محرم٦٩٤هـ/١٢٩٤م	١٨محرم٦٩٦هـ/١٢٩٦م	١٧	—	٢
١٢	المنصور حسام الدين لاجين	٢٧محرم٦٩٦هـ/١٢٩٦م	٢١ربيع الآخر٦٩٨هـ/١٢٩٨م	—	٣	٢
مكرر	سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية	٦جمادى الأول٦٩٨هـ/١٢٩٨م	رمضان٧٠٨هـ/١٣٠٨م	١٩	٥	١٠

[١] البيومي إسماعيل: النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٣٦٥ – ٣٦٨.

سلاطين دولة المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)						
م	السلطان	فترة الحكم		مدة الولاية		
		من	إلى	يوم	شهر	سنة
١٣	المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير	١٣شوال٧٠٨هـ/١٣٠٨م	١٦رمضان٧٠٩هـ/١٣٠٩م	٣	١١	—
مكرر	سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة	٢شوال٧٠٩هـ/١٣٠٩م	٢١ذي الحجة٧٤١هـ/١٣٤١م	١٩	٢	٣٢
١٤	المنصور أبو بكر بن محمد بن قلاوون	٢١ذي الحجة٧٤١هـ/١٣٤١م	٢٠صفر٧٤٢هـ/١٣٤١م	—	٢	—
١٥	الأشرف كجك بن محمد بن قلاوون	٢١صفر٧٤٢هـ/١٣٤١م	١شعبان٧٤٢هـ/١٣٤١م	١٠	٥	—
١٦	الناصر أحمد بن محمد بن قلاوون	١٠شوال٧٤٢هـ/١٣٤٢م	٢١محرم٧٤٣هـ/١٣٤٢م	٢٣	٣	—
١٧	الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون	٢٧محرم٧٤٣هـ/١٣٤٢م	٤ربيع الآخر٧٤٦هـ/١٣٤٥م	٢٨	١	٣
١٨	الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون	٤ربيع الآخر٧٤٦هـ/١٣٤٥م	١جمادى الآخر٧٤٧هـ/١٣٤٦م	٢٨	١	١
١٩	المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون	١جمادى الآخر٧٤٧هـ/١٣٤٦م	١٢رمضان٧٤٨هـ/١٣٤٧م	١٤	٣	١
٢٠	الناصر حسن بن محمد بن قلاوون	١٤رمضان ٧٤٨هـ/١٣٤٧م	٢٤جمادى الآخر٧٥٢هـ/١٣٥١م	١٠	٩	٣
٢١	الصالح صلاح الدين صالح بن محمد بن قلاوون	٢٨جمادى الآخر٧٥٢هـ/١٣٥١م	٢شوال٧٥٥هـ/١٣٥٤م	١٤	٣	٣
مكرر	سلطنة الناصر حسن الثانية	٢شوال٧٥٥هـ/١٣٥٤م	٩جمادى الأولى٧٦٢هـ/١٣٦١م	٧	٧	٦
٢٢	المنصور محمد بن حاجي بن محمد بن قلاوون	٩جمادى الأولى٧٦٢هـ/١٣٦١م	١٥شعبان٧٦٤هـ/١٣٦٣م	٥	٣	٢
٢٣	الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون	١٥شعبان٧٦٤هـ/١٣٦٣م	٥ذي القعدة٧٧٨هـ/١٣٧٦م	١٥	٢	١٤
٢٤	المنصور علي بن	٣ذي	٢٣صفر٧٨٣هـ/١٣٨١م	٢٠	٣	٥

سلاطين دولة المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)						
م	السلطان	فترة الحكم		مدة الولاية		
		من	إلى	يوم	شهر	سنة
	شعبان بن حسين	القعدة٧٧٨هـ/١٣٧٦م				
٢٥	الصالح حاجي بن شعبان بن حسين	٢٤صفر٧٨٣هـ/١٣٨١م	١٩رمضان٧٨٤هـ/١٣٨٢م	٢٥	٦	١

جدول (٢)

جدول بأسماء سلاطين دولة المماليك الثانية (الجراكسة)[١].

سلاطين دولة المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)						
م	السلطان	فترة الحكم		مدة الولاية		
		من	إلى	يوم	شهر	سنة
١	الظاهر برقوق بن أنص	١٩رمضان٧٨٤هـ/١٣٨٢م	٥جمادى الآخر٧٩١هـ/١٣٨٨م	١٧	٨	٦
مكرر	سلطنة الصالح حاجي الثانية	جمادى الآخر٧٩١هـ/١٣٨٨م	صفر٧٩٢هـ/١٣٨٩م	١٦	٨	—
مكرر	سلطنة الظاهر برقوق الثانية	١٤صفر٧٩٢هـ/١٣٨٩م	١٥شوال٨٠١هـ/١٣٩٨م	١	٨	٩
٢	الناصر فرج بن برقوق	١٥شوال٨٠١هـ/١٣٩٨م	٢٥ربيع الأول٨٠٨هـ/١٤٠٥م	١٠	٥	٦
٣	المنصور عبد العزيز بن برقوق	٢٦ربيع الأول٨٠٨هـ/١٤٠٥	جمادى الآخر٨٠٨هـ/١٤٠٥م	١٠	٢	—
مكرر	سلطنة الناصر فرج الثانية	٥جمادى الآخر٨٠٨هـ/١٤٠٥م	١٦صفر٨١٥هـ/١٤١٢م	—	١٠	٦
٥	الخليفة المستعين بالله العباسي	٥محرم٨١٥هـ/١٤١٢م	١شعبان٨١٥هـ/١٤١٢م	٤	٧	—
٦	المؤيد شيخ المحمودي	١شعبان٨١٥هـ/١٤١٢م	٨محرم٨٢٤هـ/١٤٢١م	٤	٥	٨
٧	المظفر أحمد بن شيخ	٨محرم٨٢٤هـ/١٤٢١م	٢٩شعبان٨٢٤هـ/١٤٢١م	٢٠	٧	—

[١] البيومي إسماعيل: المرجع السابق، ص٣٦٧ – ٣٧٣.

سلاطين دولة المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)						
م	السلطان	فترة الحكم		مدة الولاية		
		من	إلى	يوم	شهر	سنة
٨	الظاهر ططر الظاهري	٢٩شعبان٨٢٤هـ/١٤٢١م	٢٤ذي الحجة٨٢٤هـ/١٤٢١م	٢	٣	—
٩	الصالح محمد بن ططر	٢٤ذي الحجة٨٢٤هـ/١٤٢١م	٨ربيع الآخر٨٢٥هـ/١٤٢٢م	١٤	٣	—
١٠	الأشرف برسباي الدقماقي	٨ربيع الآخر٨٢٥هـ/١٤٢٢م	١٣ذي الحجة٨٤١هـ/١٤٣٧م	٥	٨	١٦
١١	العزيز يوسف بن برسباي	١٣ذي الحجة٨٤١هـ/١٤٣٧م	١٩ربيع الأول٨٤٢هـ/١٤٣٨م	٦	٣	—
١٢	الظاهر جقمق الظاهري	١٩ربيع الأول٨٤٢هـ/١٤٣٨م	٣صفر٨٥٧هـ/١٤٥٣م	٢	١٠	١٤
١٣	المنصور عثمان بن جقمق	١١محرم٨٥٧هـ/١٤٥٣م	٥ربيع الأول٨٥٧هـ/١٤٥٣م	١٣	١	—
١٤	الأشرف إينال العلائي	٨ربيع الأول٨٥٧هـ/١٤٥٣م	١٥جمادى الأولى٨٦٥هـ/١٤٦٠م	٧	٢	٨
١٥	المؤيد أحمد بن إينال	١٤جمادى الأولى٨٦٥هـ/١٤٦٠م	١٨رمضان٨٦٥هـ/١٤٦٠م	٣	٤	—
١٦	الظاهر خشقدم الناصري	١٩رمضان٨٦٥هـ/١٤٦٠م	١٠ربيع الأول٨٧٢هـ/١٤٦٧م	٢١	٥	٦
١٧	الظاهر يلباي الإينالي	١٠ربيع الأول٨٧٢هـ/١٤٦٧م	٧جمادى الأولى٨٧٢هـ/١٤٦٧م	٢٦	١	—
١٨	الظاهر تمربغا الظاهري	٧جمادى الأولى٨٧٢هـ/١٤٦٧م	٦رجب٨٧٢هـ/١٤٦٧م	٢٩	١	—
١٩	الأشرف قايتباي المحمودي	٦رجب٨٧٢هـ/١٤٦٧م	٢١ذي القعدة٩٠١هـ/١٤٩٦م	١٥	٤	٢٩
٢٠	الناصر محمد بن قايتباي	٢٦ذي القعدة٩٠١هـ/١٤٩٦م	١٥ربيع الأولى٩٠٢هـ/١٤٩٧م	١٩	٣	—
٢١	قانصوه خمسمائة	٢٨جمادى الأولى٩٠٢هـ/١٤٩٧م	١جمادى الآخر٩٠٢هـ/١٤٩٧م	٣	—	—
مكرر	سلطنة الناصر محمد بن قايتباي الثانية	٩٠٢هـ/١٤٩٧م	٩٠٤هـ/١٤٩٨م	—	—	٢
٢٢	الظاهر قانصوه الأشرفي	١٧ربيع الأول٩٠٤هـ/١٤٩٨م	٢٩ذي القعدة٩٠٥هـ/١٤٩٩م	١٢	٨	١

سلاطين دولة المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٢هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)						
م	السلطان	فترة الحكم		مدة الولاية		
		من	إلى	يوم	شهر	سنة
٢٣	الأشرف جانبلاط	٢ذي الحجة٩٠٥هـ/١٤٩٩م	١٨جمادى الآخر٩٠٦هـ/١٥٠٠م	٦	٦	—
٢٤	العادل طومان باي	١٨جمادى الآخر٩٠٦هـ/١٥٠٠م	١شوال٩٠٦هـ/١٥٠١م	١٣	٣	—
٢٥	الأشرف قانصوه الغوري	١شوال٩٠٦هـ/١٥٠١م	٩٢٢هـ/١٥١٦م	—	—	١٦
مكرر	الأشرف طومان باي	٩٢٢هـ/١٥١٦م	٩٢٣هـ/١٥١٧م	—	—	١

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

(١) ابن الأثير (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م): عز الدين أبو الحسن علي
– "الكامل في التاريخ"، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
(٢) ابن إياس (ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م): أبو البركات محمد بن أحمد
– "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، تحقيق محمد مصطفى، الجزء الأول، القسم الثاني، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣؛ الجزء الثالث، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤.
(٣) ابن أيبك (ت٧٣٦هـ/١٣٣٦م): أبو بكر عبد الله بن أيبك الدواداري
– "كنز الدرر وجامع الغرر"، الجزء التاسع، تحقيق هانس روبرت رويمر، المعهد الألماني للآثار، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٠م.
(٤) البقاعي (ت٨٨٥هـ/١٤٨١م): برهان الدين إبراهيم بن عمر
– "إظهار العصر لأسرار أهل العصر"، دراسة وتحقيق محمد سالم العوفي، الرياض، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
(٥) ابن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م): أبو المحاسن جمال الدين يوسف
– "المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي"، الهيئة العامة للكتاب ودار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، في ثلاثة عشر جزءًا، تحقيق محمد محمد أمين: الجزء الأول والثاني، ١٩٨٤م؛ الجزء الرابع، ١٩٨٦م؛ الجزء السادس، ١٩٩٠م؛ الجزء السابع، ١٩٩٣م؛ الجزء الثامن، ١٩٩٩م؛ الجزء التاسع، ٢٠٠٢م؛ الجزء الثاني عشر، ٢٠٠٦م؛ تحقيق نبيل محمد عبد العزيز: الجزء الثالث، ١٩٨٥م؛ الجزء الخامس، ١٩٨٨م.
(٦) ـــــ: " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، ط٢، (ج١٤) تحقيق جمال محمد محرز وفهيم شلتوت، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
(٧) ـــــ: "مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة"، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٧م.

(٨) ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ/١٢٠١م): أبو الفرج عبد الرحمن بن علي
– "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م
(٩) ابن حبيب (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م): الحسن بن عمر
– "تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه"، تحقيق محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٦م.
(١٠) ابن حجر (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م): شهاب الدين أحمد بن علي
– "إنباء الغمر بأنباء العمر"، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
(١١) ـــــ: "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة"، تصحيح سالم الكرنكوي والسيد هاشم الندوي، دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م.
(١٢) ـــــ: "رفع الإصر عن قضاة مصر"، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
(١٣) الخفاجي (ت١٠٦٩هـ/١٣٥٩م): شهاب الدين أحمد الخفاجي
– "شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل"، تصحيح وتعليق محمد عبد المنعم، مطبعة الحرم الحسيني التجارية الكبرى، القاهرة، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.
(١٤) ابن خلكان (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م): شمس الدين أحمد بن محمد
– "وفيات الأعيان"، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
(١٥) ابن خليل الظاهري (ت٩٢٠هـ/١٥١٤م): زين الدين عبد الباسط بن خليل
– "الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم"، دراسة وتحقيق فرج محمد فرج، رسالة ماجستير، جامعة بنها، بنها، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
(١٦) ـــــ: "نيل الأمل في ذيل الدول"، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
(١٧) ابن دقماق (ت٨٠٩هـ/١٤٠٧م): صارم الدين إبراهيم بن محمد
– "الجوهر الثمين في سيرة الخلفاء والملوك والسلاطين"، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، جامعة أم القرى، كلية الشريعة الإسلامية، مركز البحث العلمي واحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ١٩٨٢م.

(١٨) ـــــ: "نزهة الأنام في تاريخ الإسلام"، تحقيق سمير طبارة، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
(١٩) الذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م): شمس الدين محمد بن أحمد
– "تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام"، ط٢، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
(٢٠) سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م): يوسف بن عبد الله
– "مرآة الزمان في تواريخ الأعيان"، تحقيق إبراهيم الزيبق، دار الرسالة العالمية، دمشق، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.
(٢١) السخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٧م): شمس الدين محمد بن عبد الرحمن
– "التبر المسبوك في ذيل السلوك"، تحقيق لبيبة إبراهيم وآخر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
(٢٢) ـــــ: "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع"، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
(٢٣) ـــــ: "وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام"، تحقيق بشار عواد وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
(٢٤) أبو شامة (ت٦٦٥هـ/١٢٦٧م): شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل
– "عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية"، تحقيق أحمد البيسومي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، (د.ت).
(٢٥) ابن شاهين الظاهري (ت٨٧٣هـ/١٤٦٩م): غرس الدين خليل بن شاهين
– "كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك"، اعتنى بتصحيحه بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٨٩٣م.
(٢٦) الصفدي (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م): صلاح الدين خليل بن أيبك
– "أعيان العصر وأعوان النصر"، تحقيق علي أبو زيد وأخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
(٢٧) ـــــ: "الوافي بالوفي بالوفيات"، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

(٢٨) الصيرفي (٩٠٠هـ/١٤٩٥م): علي بن داوود الجوهري
– "إنباء الهصر بأنباء العصر"، تحقيق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م.
(٢٩) ـــــ: "نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان"، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، الجزء الأول، ١٩٧٠م؛ الجزء الثاني، ١٩٧١م؛ الجزء الثالث، ١٩٧٣م.
(٣٠) ابن العديم (ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م): كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله
– "بغية الطلب في تاريخ حلب"، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
(٣١) العليمي (ت٩٢٧هـ/١٥٢١م): مجير الدين عبد الرحمن بن محمد
– "الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل"، تحقيق عدنان يونس، مكتبة دنديس، فلسطين، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
(٣٢) عز الدين ابن شداد (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م): عز الدين محمد بن علي
– "تاريخ الملك الظاهر"، باعتناء أحمد حطيط، فرانز شتايز للنشر، فسبادن، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
(٣٣) العيني (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م): بدر الدين محمود بن أحمد
– "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان "عصر سلاطين المماليك الجزء الثاني"، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
(٣٤) ابن الفرات (ت٨٠٧هـ/١٤٠٥م): ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم
– "تاريخ ابن الفرات"، منشورات الجامعة الأمريكية، بيروت، المجلد الثامن، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، ١٩٣٩م؛ المجلد التاسع، الجزء الأول، تحقيق قسطنطين زريق، ١٩٣٦م؛ المجلد التاسع، الجزء الثاني، تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، ١٩٣٨م.
(٣٥) ابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م): شهاب الدين أحمد بن يحيى
– "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٠م.

(٣٦) ابن قاضي شهبة (ت٨٥١هـ/١٤٤٧م): تقي الدين أبي بكر بن أحمد
– "تاريخ ابن قاضي شهبة"، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٤م.
(٣٧) القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م): شهاب الدين أحمد بن علي
– "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٢م.
(٣٨) ابن القيم (ت٧٥١هـ/١٣٥٠م): شمس الدين محمد بن أبي بكر
– "تحفة المودود بأحكام المولود"، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
(٣٩) المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م): تقي الدين أحمد بن علي
– "درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة"، تحقيق محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
(٤٠) ـــــ: "السلوك لمعرفة دول الملوك"، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مطبعة دار الكتب، القاهرة، أربعة أجزاء في اثنتي عشرة قسمًا:
– الجزء الأول، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القسم الأول، ط٢، ١٩٥٦م، القسم الثاني، ١٩٣٦م، القسم الثالث، ١٩٥٧م.
– الجزء الثاني، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القسم الأول، ١٩٤١م، القسم الثاني، ١٩٤٢م، القسم الثالث، ١٩٥٨م.
– الجزء الثالث، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القسمين الأول والثاني، ١٩٧٠م، القسم الثالث، ١٩٧١م.
– الجزء الرابع، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القسمين الأول والثاني، ١٩٧٢م، القسم الثالث، ١٩٧٣م.
(٤١) ـــــ: "كتاب المقفى الكبير"، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
(٤٢) ـــــ: " المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار"، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

(٤٣) ابن منظور (ت٧١١هـ/١٣١١م): جمال الدين محمد بن مكرم
– "لسان العرب"، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
(٤٤) ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م): شهاب الدين ياقوت بن عبد الله
– "معجم البلدان"، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٥م.

ثانيًا: المراجع العربية :

(٤٥)إبراهيم الدسوقي:
– "المعجم الفارسي الكبير"، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
(٤٦) البيومي إسماعيل:
– "النظم المالية في مصر والشام زمن سلاطين المماليك"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م.
(٤٧) السيد الباز العريني:
– "المماليك"، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.
(٤٨) حسان حلاق وعباس صباغ:
– "المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية"، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٩م.
(٤٩) حسن الباشا:
– "الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية"، دار النهضة العربية، ١٩٦٥م.
(٥٠) رؤوف سبهاني:
– "المعجم الفضي (فارسي– عربي)"، دار المحجة البيضاء، بيروت، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
(٥١) سعاد ماهر:
– "مساجد مصر وأولياؤها الصالحون"، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٠م.
(٥٢) سعيدعبد الفتاح عاشور:
– "الأيوبيون والمماليك في مصر والشام"، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦م.
(٥٣) علي سالم النباهين:

– "نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر"، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١م.

(٥٤) علي مبارك:

– "الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة"، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، القاهرة، ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م.

(٥٥) محمد أحمد دهمان:

– "معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي"، دار الفكر، دمشق، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٥٦) محمد العمايرة:

– "الجيش في العصر المملوكي الثاني (٧٨٤–٩٢٣هـ)"، كنوز المعرفة ، عمان، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

(٥٧) ـــــ: "المعجم العسكري المملوكي"، دار كنوز المعرفة، عمان، ٢٠١٠م.

(٥٨) محمد جمال الدين سرور:

– "دولة بني قلاوون الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص"، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧م.

(٥٩) محمد عبد العظيم أبو النصر:

– "السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري"، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠١م.

(٦٠) محمد عمارة:

– "قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية"، دار الشروق، القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

(٦١) محمد قنديل البقلي:

– "مصطلحات صبح الأعشى"، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م.

(٦٢) هلال ناجي:

– "ابن مقلة خطاطًا وأديبًا وانسانًا "مع تحقيق رسالته في الخط والقلم"، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩١م.

ثالثًا: البحوث والرسائل العلمية:

(٦٣) إبراهيم الكيلاني:
– "مصطلحات تاريخية مستعملة في العصور الثلاثة الأيوبي والمملوكي والعثماني"، مجلة التراث العربي،ع ٤٩، دمشق، ربيع الثاني ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
(٦٤) أحمد ممدوح وآخران:
– "مدرسة الأمير مثقال (المدرسة السابقية)"، مجلة اتحاد الجامعات العربية للسياحة والضيافة، مج ١٣، ع ٣، ج٢، ديسمبر ٢٠١٦م.
(٦٥) آسيا بنت سليمان:
– "الطواشية ودورهم في دولة سلاطين المماليك"، مجلة كلية الآداب، جامعة أسيوط، ع ٢٢، ٢٠٠٧م.
(٦٦) حياة ناصر الحجي:
– "البيمارستان المنصوري منذ تأسيسه وحتى نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مج ٨، ع ٢٩، الكويت، ١٩٨٨م.
(٦٧) رضوان القضماني:
– "حقل الألفاظ الدالة على عمر الإنسان في لزوميات أبي العلاء المعري"، مجلة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، سوريا، مج (٢٧)، ع (١)، ٢٠٠٥م.
(٦٨) عبد الإله نبهان:
– "عطية الرحمن في صحة إرصاد الجوامك والأطيان لعيسى بن عيسى الصفتي البحري"، مجلة التراث العربي، ع ١٨، دمشق، يناير ١٩٨٥م.
(٦٩) عبد الرحمن زكي:
– " قلاع العالم الإسلامي في العصر الوسيط"، دارة الملك عبد العزيز، مج ٢، ع ١، الرياض، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٦م.
(٧٠) ليلي كامل محمد:
– "مدرسة جوهر اللالا (٨٣٣هـ/١٤٣٠م) دراسة أثرية معمارية"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٣م.

بعض مظاهر العمران في المغرب في العصر المريني
(٦٦٨- ٨٦٩هـ/ ١٢٦٩- ١٤٦٥م)
"دراسة تاريخية"

أماني محمد محمد قطب
مدرس بكلية الآداب – جامعة أسيوط

ملخص:

يتناول البحث بعض مظاهر العمران في المغرب في العصر المريني والعوامل التي أثرت في أشكال العمارة المرينية، وأهمها عامل التأثير الأندلسي وعوامل قوته من أصالة وإبداع وتنوع، وكذلك التعاون السياسي والحضاري بين الجانبين المغربي والأندلسي، ثم يعرض لمظاهر العمران التي ازدهرت في العصر المريني ومنها العمارة المدنية كالمدن والقصور، والدينية كالمساجد، والثقافية كالمدارس والعسكرية كالأبراج والأبواب وبعض المنشآت الأخرى كالسقايات والبيمارستنات(المشافي).ثم يذيل بأهم النتائج التي خلص إليها البحث وبعض الأشكال التي توضح متن البحث.

Abstract

The study focuses on some aspects of urbanization in Morocco during the Marinid era. It elaborates on the factors that affected the Marinid architecture, especially the originality, innovativeness, and diversity of the Andalusian influences, as well as the political and cultural cooperation between Morocco and Andalusia. Furthermore, the study touches upon some urban semblances that came to prominence in the Marinid era, most notably the civil architecture, represented in cities and palaces, religious architecture, as in mosques, cultural architecture, such as schools, military architecture, as in towers and doors, and other foundations such as sabils (public drinking fountains) and hospitals. Finally, the research is concluded with the most important results and some figures relevant to its content.

مقدمة :

يعد تاريخ العمارة شكلًا من أشكال الدراسات التاريخية التي لا يمكن تدلسيها؛ حيث ارتبطت العمارة بالإنسان ارتباطًا وثيقًا بوصفها عملًا لازمًا له ومعبرًا عن ثقافته، فعبر التاريخ تتكون حضارات وأمم تسعى لتمييز هويتها، وتصيغ تلك الشعوب حضارتها في مبانٍ تعكس ثقافتها ورقيها، ومدى تفاعلها مع مكونات البيئة المحيطة، ولفظ العمارة مأخوذ من التعمير، ويقال: عَمَّرَ الله بك منزلك، يعمره عمارة، وأعمره: جعله آهلًا[١].

ويرجع ازدهار العمارة إلى عدة أسباب؛ منها رغبة الإنسان الخالدة في البقاء التي تدفعه لترك آثار تخبر اللاحقين عنه، وربما كانت المنافسة هي الدافع وراء تشييد المباني العظمى في الحضارات المختلفة، فمما لا شك فيه، أن المباني الضخمة والتصميمات الفريدة كانت مجالًا قويًّا للتنافس بين الشعوب، وثمة دافع قوي لازدهار العمارة عبر التاريخ الإنساني، وهو قوة الدافع الديني، فمن الواضح أن العمارة الدينية المتمثلة في المعابد قديمًا ثم الكنائس والمساجد هي الأكثر فخامة وبقاء إلى الآن، ثم تأت القصور في المرتبة الثانية.

وتعكس العمارة كافة الجوانب الحضارية في حياة الأمم؛ فمنها نأخذ مدى تقدم العلوم الهندسية والفلكلية، وكذلك الصناعات ابتداءً من صناعة الطوب والأحجار المستخدمة في البناء وانتهاءً بفنون التزيين والنقش كالزليج وغيرها، كما تعكس المباني العملاقة مدي التطور الذي طال صناعة أدوات البناء، وتوضح مدى استقرار الحالة الاقتصادية والسياسية للشعوب، فمن المعروف أنه لا استقرار وعمارة دون رخاء اقتصادي واستقرار سياسي، فالعمارة هي الفيصل بين الحياة البدائية المتمثلة في الرعي والتنقل والاستقرار المصاحب للبناء.

ومن الجدير بالذكر أن العمارة تراث إنساني مشترك، فلا يخفى على أحد مدى التأثر بين الحضارات المختلفة بفنون العمارة لدى بعضها البعض، وإن كان بعضها تميز بطراز فريد، فيعزى للآخر تطوير هذا الطراز والإضافة إليه. وخير مثال على

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، ط٣، بيروت، ١٩٩٣م، ج٤، ص٦٠٤.

ذلك مجموعة الدول التي قامت في العالم الإسلامي، وبخاصة التي جمعها التقارب المكاني والوحدة السياسية في آن واحد، وتعد الأندلس والمغرب من أوضح الأمثلة في تلك الحالة؛ حيث شهد كل منهما دولًا متعاقبة حاولت تخليد ذكراها بمجموعة من المباني الدينية والمدنية، ولا يخفى على الدارس لحضارة بلاد الأندلس والمغرب حالة التشابه والتقارب في عمارة كلا الجانبين. ويتناول البحث قضية التأثير والتأثر بين الجانبين الأندلسي والمغربي في مجال العمارة، وأيهما أسبق في التأثير على الآخر، وينتهي بعدة نتائج، ثم يُذَيَّل بمجموعة من الأشكال التي توضح متن البحث.

ونظرًا لأهمية الفترة المرينية في تاريخ بلاد المغرب، فقد تناول الباحثون في دراسات كثيرة جوانبها السياسية والحضارية، وتسلط الدراسة الضوء على الجانب العمراني والعوامل المؤثرة فيه والنفقات التي خصصها سلاطين بني مرين لهذا الجانب.

- **بعض العوامل المؤثرة في العمارة العصر المريني:**
- **القرب المكاني من الأندلس:**

إن موقع العدوتين المغربية والأندلسية (خريطة١) فرض حالة من التمازج الحضاري بين الأندلس والمغرب الأقصى؛ فمن الناحية الجغرافية، يعد المغرب الأقصى أقرب بلاد العالم الإسلامي للأندلس، فبإمكان الواقف على روابي طنجة بالمغرب رؤية أرض الأندلس بالعين المجردة [١].

وانعكس ذلك التقارب المكاني على كثير من مسميات الأماكن في المغرب، حيث نجد مدينة فاس عاصمة المغرب نفسها تنقسم إلى عدوتين تسمى إحداهما بعدوة الأندلسيين[٢].

ومن الجدير بالذكر أن هناك صدى كبيرًا لكل الأحداث السياسية التي وقعت في المغرب على الأندلس، فقد كان إتمام فتح المغرب هو إشارة البدء للتوجه إلى الأندلس؛ حيث انطلق الجيش الإسلامي بقيادة طارق بن زياد ليطأ المسلمون أرض

---

(١) عبد العاطي محمد الورفلي: أوراق أندلسية، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، ١٩٩٠م، ص ٦.

(٢) البكري: المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٢م،ج٢، ص ٧٩٥.

الأندلس لأول مرة، وتشير بعض الروايات التاريخية إلى أن ذلك التوجه كان بإيعاز من ليليان حاكم مدينة سبتة المغربية[١].

كما كان لوجود دولة الفاطميين في المغرب عامة دور في توجيه أنظار بني أمية في الأندلس إلى المغرب، وبلغ الأمر ذروته في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م)[٢] الذي مد نفوذه الفعلي إلى المغرب، وبايعته كثير من القبائل، وخُطِبَ له على المنابر من تاهرت إلى طنجة عدا سجلماسة[٣]، وحرصت القوى المناوئة للفاطميين في المغرب على إرسال أخبار الصراع معهم إلى الأندلس، وكان البلاط الأموي يستقبلها ببالغ الفرح، حيث تواصل أبو اليزيد مخلد بن كيداد[٤] مع الخليفة الناصر، ودخل تحت الطاعة الاسمية له، وبالغ الناصر في إكرام

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،١٩٩٥م. ص٢٣٢.

(٢) **عبد الرحمن الناصر**: أشهر وأول خلفاء بني أمية في الأندلس، وثامن من حكم منهم، بلغ حكمه خمسين عامًا وستة أشهر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١ م)، وبلغت الدولة الأموية في عهده أقصى اتساع لها، وهو أول من تلقب بأمير المؤمنين، وحول الإمارة إلى خلافة، وكان عهده من ألمع العصور؛ ازدهرت فيه العلوم والآداب، وقصده الشعراء والعلماء. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج٦، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، ط٢، بيروت، ١٩٨٨م، ج٤، ص١٥٦؛ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس،ج١، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٩٠م، ص ٦٩٦.

(٣) الناصري (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري السلاوي، ت: ١٣١٥هـ/١٨٧٩م): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد الناصري وجعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، د-ت، ج١، ص٢٥٢.

(٤) **أبو يزيد** مخلد بن كيداد اليفرني الملقب بصاحب الحمار، قام بأخطر الثورات التي تعرضت لها الدولة الفاطمية بالمغرب، وهو ثائر خارجي نكاري المذهب، كان أبوه يتاجر في بلاد السودان، استمرت ثورته فيما بين سنتي ٣٣٢-٣٣٦هـ، وكادت ثورته أن تذهب بدولة الفاطميين بالمغرب. ابن عذاري: البيان المغرب،ج٢، ص٢١٢-٢١٧؛ ابن خلدون: العبر، ج٦، ص١٣٨؛ إحسان عباس: مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، مجلة الأصالة، عدد ٤١، ص ٢٥.

رسل أبي اليزيد، رغم أن الأخير على المذهب الخارجي المخالف لمذهب الأمويين في الأندلس[١].

واستمرت عملية التأثير والتأثر حتى توجت بالتوحيد الكامل في عهد المرابطين ثم الموحدين؛ إذ كان اشتداد حركة الاسترداد المسيحي وراء استنجاد الأندلسيين بإخوتهم في الدين والجوار من المرابطين القوة الصاعدة في المغرب في ذلك الوقت، واستمر التمازج في عهد الموحدين الذين عدوا أنفسهم الورثة الشرعيين للإرث المرابطي.

وكان لواقعة العقاب في (٦٠٩هـ/١٢١٢م)[٢] التي حدثت في الأندلس صداها في المغرب؛ إذ كانت هزيمة الموحدين في معاركهم في الأندلس بداية النهاية لإمبراطورية الموحدين، وبسقوط الموحدين وتقاسم ممتلكاتهم[٣] بدأ عصر جديد بين الأندلس والمغرب أخذ شكل التعاون المتوازي أكثر منه صراعًا لفرض السيطرة.

---

(١) ابن عذاري (المراكشي، ت:٦٩٥هـ /١٢٩٥م): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣، ط٣، ج٢، ص ٢١٢-٢١٧.

(٢) معركة العقاب(٦٠٩سنة هـ/١٢١٢م) دارت هذه المعركة بين الموحدين بقيادة الناصر الموحدي، وبين الجيش المسيحي الإسباني بقيادة ألفونسوا الثامن بموضع يعرف في المصادر العربية باسم العقاب نسبة إلى حصن قديم ينسب إلى الأمويين وفي المصادر الإسبانية las navas de tolosa الذي يعني الوديان الفسيحة، وانتهت بانتصار الإسبان وكانت بداية النهاية للدولة الموحدية والوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية للاستزاده انظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٢، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٣) مع ضعف الخلافة الموحدية بدأت عدة قوى محلية في الانفراد بمناطق حكمها، وكانت أبرز القوى التي تقاسمت الإرث الموحدي دولة بني حفص بتونس (٦٢٦هـ/١٢٢٩م – ٩٨١هـ/١٥٧٣م)، ودولة بني زيان بتلمسان (٦٣٣هـ/١٢٣٥م- ٩٥٧هـ /١٥٥٠م)، ودولة بني مرين بالمغرب الأقصى (٦٦٨هـ/١٢٦٩م –٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م)، ودولة بني نصر في الأندلس (٦٣٥هـ / ١٢٣٨م–٨٩٧هـ/١٤٩٢م)، واستمر هذا التقسيم لبلاد المغرب زهاء ثلاثة قرون.

كما أخذت العلاقات بين المغرب والأندلس في العصر المريني طابع التعاون؛ حيث أدرك كلا الجانبين أنهما ليسا بحاجة إلى الصراع، كما كانت المعطيات التاريخية لتلك المرحلة تفرض ذلك الشكل من أشكال العلاقة، فبني مرين مشغولون بفرض سيطرتهم على بلاد المغرب وإحياء المجد الموحدي، كما كان بنو نصر منشغلين بالصراع مع الممالك النصرانية التي حاصرتهم، ويلاحظ هذه المرة أن تدخل المغرب لإنقاذ الموقف في الأندلس كان للمساعدة وليس التصدر للمشهد برمته كما فعل المرابطون.

ولا يمكن التشكيك في نوايا بني مرين في الجهاد في الأندلس؛ فقد جاز أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ/١٢٥٨-١٢٨٦م)، جيوشه للأندلس أربع مرات متواليات[١]، الجواز الأول (٦٧٤هـ/١٢٧٥م)، وقد كان بناء على طلب مباشر من سلطان بني الأحمر لمواجهة أطماع ألفونسو العاشر ملك قشتالة، وعبرت قوات أبي يوسف للجانب الأندلسي، وتمكنت من هزيمة القوات المسيحية في إستجة[٢]، وقتل قائد جيشهم، وأُرْسِل رأسه إلى ابن الأحمر[٣]؛ تعبيراً عن التضامن الإسلامي بين الدولتين[٤]. أما الجواز الثانى عام (٦٧٦هـ/١٢٧٧م) فقد كان هدفه أيضًا إرباك

---

(١) عبدالعزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية،١٩٨٢م، ص٧٨٩؛ كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط٥، بيروت، ١٩٦٨م، ص٣٣٣.

(٢) **إستجة**: مدينة أندلسية مشهورة بالقرب من قرطبة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، ج١، ص١٧٤.

(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق: عبد الوهاب منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص٣٢١: ص٣٢٥؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص ٢٥٠: ص٢٧٦، أبو رحاب: المدارس المغربية في العصر المريني (دراسة آثارية معمارية)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط١، الإسكندرية، ٢٠١١م ، ص ٤٩

(٤) عبد الرحمن العجلان: التضامن الإسلامي في الأندلس وأثره في تحقيق قوة المسلمين، بحث نشر في ندوة "الأندلس الدرس والتاريخ" بكلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مارس ١٩٩٥م، ص٤٠.

الجانب الإسباني، والإغارة على بعض الحصون[١]، وعلى الرغم من أن الجواز الأول والثاني ليعقوب كانا للدفاع عن ما تبقى للمسلمين من ثغور في الأندلس،[٢] فإن الجواز الثالث (٦٨١هـ/١٢٨٢م) والرابع اختلفت دوافعهما، فقد كانا لتأديب ابن ملك قشتالة الذي كان حليفًا للسلطان النصري، بينما كان أبوه حليفًا لأبي يوسف يعقوب، ولم يلبث يعقوب أن توفي بالجزيرة الخضراء سنة (٦٨٥هـ/١٢٨٦م).[٣]

وتبين خلال مرحلة الجهاد المريني في الأندلس أن غرناطة ليست جادة بمد يد التعاون لمواجهة الخطر الإسباني، وإن كان المعتمد ابن عباد[٤] سمح للمرابطين بالسيطرة على الأندلس حتى لا يعيدها دار كفر[٥]، فإن البيت الغرناطي حاز تلك الخيبة، وبعد أن أدرك سلاطين بني مرين النوايا الحقيقية لملوك غرناطة وجهوا جهودهم للمغرب[٦]، وتراجع التعاون السياسي، ولكن انتعش التواصل الحضاري بين الجانبين، وكان الهجرات إلى المغرب أبرز ملامحه.

---

(١) محمد أبو رحاب: المدارس المغربية، ص٥١.

(٢) محمد زروق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين ١٦ –١٧، مطابع أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١م، ص ٤٠.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٣٢١: ص٣٢٥؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص ٢٥٠: ص٢٧٦؛ ابن القاضي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، ج٢، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م، ص ص٥٥٦، ٥٥٨؛ أبو رحاب: المدارس المغربية في العصر المريني، ص ٤٩.

(٤) أبو القاسم الملقب بالمعتمد صاحب إشبيلية وأحد ملوك الطوائف فى الأندلس كان أديبا شاعرًا وهو الذي استنجد بالمرابطين بعد أن رأى خطرًا حقيقيًّا يهدد الوجود الإسلامى فى الأندلس بعد سقوط طليطله فى يد الفونسو السادس ملك قشتاله سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) وانتهت حياته معزولاً بأغمات سنة (٤٨٨هـ/١١٩٥م)انظر: الضبى :بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق لجنة إحياء التراث ،دار الكتاب العربى ،القاهرة ،١٩٦٧م ،ص ١١٨

(٥) ابن عذاري: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق د/سهيل زكار، وأ/ عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٧٩م، ص٤٥.

(٦) محمد الشريف: تاريخ المغرب المريني وحضارته، مطبعة الهداية، تطوان، ٢٠١١م، ص ٤١.

- **الهجرات المتبادلة**:

كانت الهجرات المتبادلة بين بلاد المغرب والأندلس من أهم العوامل المؤثرة في التواصل الحضاري بين الجانبين؛ إذ كانت الجيوش تعبر من المغرب للجواز إلى الأندلس والدفاع عنه، وكانت الهجرات الأندلسية تأت إلى المغرب هربًا من المد النصراني في الأندلس أو هربًا من الحكام.

وكانت أولى الهجرات الملموسة التي جاءت إلى المغرب تلك التي جاءت عقب ثورة أهل الربض[١] والشدة المفرطة التي واجه بها الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢١م) ثورة أهل الربض حتى نُسبت إليه، فصار يُعرف بالحكم الربضي.

والجدير بالذكر هنا أن أهل الربض الذين نكَّل بهم الحكم، وغادروا الأندلس، كانوا من الحرفيين والصناع بالإضافة إلى مجموعة من الفقهاء، مما يشير إلى مهارتهم ومدى تأثيرهم، وقد كانت مدينة فاس الوجهة الأولى لهؤلاء المهاجرين، وتصادف وقت هجرتهم مع شروع إدريس الثاني (١٨٦-٢١٣هـ/٨٠٢-٨٢٨م) – المؤسس الفعلي لدولة الأدارسة (١٧٢-٣٧٥هـ/٧٨٨-٩٨٥م) في بناء مدينة فاس، وعندما شيد إدريس المدينتين الصغريتين اللتين تكونت منهما فاس بعد ذلك، ونتيجة لكثرة الأندلسيين الموجودين في إحدى العدوتين، سميت إحداهما بعدوة الأندلسيين[٢].

---

(١) ثورة الربض أو هيج الربض ٢٠٢هـ/٨١٧م: هي إحدى الثورات ذات الطبيعة الخاصة التي كادت أن تعصف بالحكم بن هشام (٨٠- ٢٠٦هـ /٧٩٦-٨٢٢م) وكان الفقهاء والعامة هم عماد هذه الثورة وهو ما أضفى طبيعة خاصة عليها؛ والسبب المعلن لها كان تعدي أحد الجنود على أحد الصناع، وكادت الثورة أن تعصف بالحكم الأموى في الأندلس ولكن الحكم استخدم وسائل في غاية القسوة حتي يستطيع السيطرة على الثورة، واستطاع ذلك بالفعل وطرد أهل الربض من الأندلس، وكان لذلك بالغ الأثر الحضاري على الأماكن التي هاجر لها أهل الربض، وآثر نفسية على شخصية الحكم حتى وفاته. ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٢، ص ٧٧.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٧٢.

وكانت العلاقة طردية بين حركة الاسترداد المسيحي وهجرة الأندلسيين وتفرقهم في أنحاء العالم الإسلامي وبالأخص بلاد المغرب، ويلاحظ أن وتيرة الهجرة كانت تزداد عقب الوقائع التي هزم فيها المسلمون؛ حيث هاجرت كثير من العناصر الأندلسية عقب موقعة العقاب ٦٠٩هـ/١٢١٢م[١]، ولم يمض غير ٢٤ عامًا حتى سقطت قرطبة، وهاجر جمع كبير من أهلها إلى المغرب، وقد توزع هؤلاء في بلاد المغرب.

وأعقب نهاية دولة المسلمين في الأندلس هجرة جماعية للمسلمين من الأندلس الذين توجهوا إلى جميع أنحاء العالم الإسلامي وبالأخص بلاد المغرب.

عوامل تأثير العمارة الأندلسية على العمارة المغربية في العصر المريني:

ترجع أصول العمارة الإسلامية في الأندلس إلى عصر الأمويين البناة العظام الذين أحيوا الدولة الأموية مرة أخرى في الأندلس، ودفعهم حنينهم إلى دمشق لإنشاء القصور والبساتين التي تذكرهم بها[٢].

ولم يقتصر تأثير العمارة الأندلسية على بلاد المغرب، بل امتد تأثيرها بشكل واضح على العمارة المسيحية نفسها؛ فكانت القصور الملكية في الممالك النصرانية نماذج من القصور الملكية الأندلسية؛ وكان أثر الفن المعماري الأندلسي قوًّيا في الكنائس ذاتها؛ ففي كثير من الكنائس الإسبانية والبرتغالية تُلاحظ ملامح المسجد ظاهرة في عقودها وأروقتها، كما أقيمت أبراج كثير من الكنائس المشهورة على نمط المنارة الإسلامية[٣].

---

(١) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، لبنان، ج٣،ص٢٤١.

(٢) محمد عبد المنعم الجمل: قصور الحمراء ديوان العمارة والنقوش العربية، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية ٢٠٠٤م، ص ٢٧.

(٣) أنور محمود زناتي: العمارة الأندلسية ودورها في التواصل الثقافي بين الشعوب ٩٢ – ٨٩٧هـ/ ٧١١ –١٤٩٢م، مجلة كلية الدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة نواكشوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عدد ٢٩ لسنة ٢٠١٨م، ص ص ١٠٤–١٣١.

وقد أدرك حكام المغرب كفاءة العناصر الأندلسية في مختلف المجالات، فجبلوا الصناع ومهندسي البناء من الأندلس للإشراف على مشروعاتهم العمرانية الكبرى[١].

وقد تميزت العمارة الأندلسية بالتنوع على كافة الأصعدة، سواء أكان ذلك في المواد المستخدمة أم الأشكال؛ فقد استعمل المزخرفون الأندلسيون الحجر، والرخام، والفسيفساء، والخزف، والقيشاني، والبلاط القرميدي، والآجر المطلي، واُستخِدم النوعان الأخيران في النواتئ التزيينية في المآذن[٢].

كما تنوعت الأشكال أيضًا؛ حيث استخدمت الأقواس نصف الدائرية، أو على شكل حدوة الحصان، والأقواس المدورة الفصوص في أكثر الأبنية، وخاصة في أروقة جامع قرطبة، وقد طورت هذه الأقواس، وتعددت أشكالها في عصر المرابطين والموحدين[٣].

وتنوع شكل الأقواس المفصصة؛ فكان منها المشجّر والمقرنص، واستُعمِلت فيها الأحجار الملونة بالتناوب، وخاصة الأحمر والأصفر، أو الأحمر والأبيض، واتُبِع الأسلوب نفسه في مدينة الزاهرة، ولكن بروز النحت فيها كان قليلًا (شكل٢)، وفي زخارفها عناصر مستمدة من الفنون القديمة كحبات اللؤلؤ، والحلزون، وحلية القلب، وأوراق الشجر[٤].

كما كان للخط العربي دور مهم في زخرفة المباني المدنية والدينية، وخاصة مسجد قرطبة. وقد استعمل فيها الخط الكوفي البسيط أو المشجر، كما انتقلت إلى الأندلس الكتابة الفاطمية من إفريقية، وقد انتقل الخط الأندلسي إلى المغرب في العصر المريني، واستعمل في المخاطبات، وكذلك النقش على المنشآت العمرانية، وقد

---

(١) آمال العمري وآخرون: التأثيرات الأندلسية على العمارة والفنون المغربية من العصر المرابطين حتى نهاية العصر المريني "٨٦٩ – ٤٦٢ هـ/١٠٦٩–١٤٦٤ م": نظرة عامة في ضوء المصادر والشواهد الأثرية، مجلة كلية الآداب، جامعة أسيوط، عدد خاص، ٢٠١٦م، ص ص ١–٢٠.

(2) www.marefa.org

(3) www.marefa.org

(4) www.marefa.org

برر ابن خلدون ذلك بقوله: "وحصل في دولة بني مرين من بعد ذلك بالمغرب الأقصى لون من الخط الأندلسي لقرب جرارهم، وسقوط من خرج منهم إلى فاس قريبًا واستعمالهم إياهم سائر الدولة"[١] .

ولما اختار عبد الرحمن الداخل قرطبة عاصمة له، ظهرت في زخارف المباني الأندلسية الزخارف النباتية المتداخلة التي عرفتها دمشق قبلها سعف النخل (مراوح النخيل)، وورق الكرمة وأغصانها، والإضافات الملحقة به.[٢]

وكانت الزخرفة تغطي المساحة المطلوبة بكثافة كبيرة، وذلك من مميزات الفن العربي الإسلامي الذي عرف في أوربا باسم الأرابسك. وتضاف إلى العناصر الزخرفية النباتية في الأندلس الأشكال الإنسانية والحيوانية، وخاصة تلك الذي نصبت على الأحواض الرخامية في القصور في القرنين الثالث والرابع الهجريين (العاشر والحادي عشر الميلاديين)، ولكن القرن الخامس للهجرة شهد انقطاعًا جليًّا في هذه العناصر لتعارضها مع فكر الموحدين واعتقادهم. كما راج استخدام الزخارف الجصية في المباني الأندلسية التي بلغت قمتها في قصر الحمراء.[٣]

وقد عُرفت العناصر الأندلسية التي هاجرت إلى أنحاء العالم الإسلامي بالمهارة والدقة في جميع المجالات، وبالأخص مجال العمارة، وثمة نص أورده المقري لابد من ذكره يبرز تأثير هؤلاء المهاجرين على المناطق التي استقروا فيها، إذ قال: " ولما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المبيرة تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العدوة مع بلاد إفريقية، فأما أهل البادية، فمالوا

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج ١، ص ٥٢٩.

(2)https://www.marefa.org/%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%85%D8%A7%D8%B1%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%86%D8%AF%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A9

(3)https://www.marefa.org/%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%85%D8%A7%D8%B1%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%86%D8%AF%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A9

في البوادي إلى ما اعتادوه، وداخلوا أهلها، وشاركوهم فيها، فاستنبطوا المياه، وغرسوا الأشجار، وأحدثوا الأرحي الطاحنة بالماء وغير ذلك، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، فشرفت بلادهم، وصلحت أمورهم، وكثرت مستغلاتهم، وعمتهم الخيرات، فهم أشبه الناس باليونانيين فيما ذكرت، ولأن اليونانيين سكنوا الأندلس، فورثوا عنهم ذلك، وأما أهل الحواضر، فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء، والكتاب، والعمال، وجباة الأموال، والمستعملون في أمور المملكة، ولا يستعمل بلدي ما وجد أندلسي، وأما أهل الصنائع، فإنهم فاقوا أهل البلاد، وقطعوا معاشهم، وأخملوا أعمالهم، وصيروهم أتباعًا لهم، ومتصرفين بين أيديهم، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يميلون به النفوس إليهم، ويصير الذكر لهم، قال: ولا يدفع هذا عنهم إلا جاهل أو مبطل، انتهى[١].

ولابد أن مهارة العناصر الأندلسية وإتقانها لعملها كانت وراء التأثيرات الأندلسية على العمارة المغربية في مختلف العصور وحتى عصر بني مرين.

ويستخلص من البحث أنه كان هناك عملية تأثير وتأثر بين المغرب والأندلس، ورغم التأثير الواضح للعمارة الأندلسية، فإن المغرب طور بعض ملامح العمارة الأندلسية، واختص بأسلوب معماري يدمج بين الطابع الأندلسي والطابع المغربي.

– بعض مظاهر العمران في المغرب المريني.

ارتبط نظام الحكم المريني بالعمارة؛ حيث كان سلاطين بني مرين يباشرون أعمالهم في تسيير شئون الدولة في مجالس أعدت عمارتها خصيصًا للأغراض المختلفة، حيث كان مجلس الفصل ينعقد في قبة مخصصة بالقصر[٢] الملكي بفاس

---

(١) المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م، ج٣، ص١٥٢.

(٢) السلطان أبو الحسن على بن عثمان بن يعقوب(٧٣١-٧٤٩هـ/١٣٣١-١٣٤٩م):هو أعظم سلاطين بنى مرين ، وأوسعهم ذكراً، وقد خلف والده أبا سعيد عقب وفاته مباشرة ، وارتبط اسمه بمحاولات عديدة لتوحيد بلاد المغرب تحت إدارته مركزية واحدة.) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٣٩.

الجديد للنظر في القضايا المهمة، بينما مجلس الخاص ينعقد في قبة أخرى، أما مجلس العرض المخصص لاستعراض الجيش واستقبال الوفود فكان مقره برج الذهب بأحد البساتين خارج فاس الجديد، كما أسس السلطان أبو الحسن قبة العدل للفصل في الشكاوى المختلفة، أما سقائف الترس والنصل[١]، فهي أعمال عمرانية أنشئت للأغراض العسكرية.

علاوة على ذلك، اشتهر سلاطين بني مرين بشغفهم بالبناء والتعمير؛ فإلى هؤلاء السلاطين يرجع الفضل في بعث روح البناء والتعمير من جديد في بلاد المغرب، بعدما أصيبت البلاد بحالة من الانكماش العمراني والمعماري منذ وفاة يعقوب المنصور الموحدي يعقوب المنصور (٥٨٠ –٥٩٥هـ/١١٨٤– ١١٩٩م)[٢] ، واستمرت قرابة قرن من الزمان لم تعرف البلاد خلالها منشآت معمارية بارزة، ثم ازدانت بلاد المغرب في عصر بنى مرين بعمائر متنوعة؛ فمن المنشآت الدينية أقاموا مجموعة رائعة من المساجد، والمدارس، ومكاتب تعليم الصبيان، وخزائن الكتب والزوايا، كذلك اهتموا بالمنشآت المدنية؛ فشيدوا المدن، والقصور، والدور، والبيمارستانات، والفنادق، والأسواق، والحمامات، والقناطر، والسقايات، كل ذلك إلى جانب المنشآت الحربية كالقصاب، والربط، والحصون، والأسوار[٣].

ومن أهم مظاهر العمران في العصر المريني:

١- العمارة الدينية

المساجد:

شيد المرينيون عدة مساجد في مختلف أنحاء المغرب الأقصى والأوسط، وإن كانت هذه المساجد قد فقدت صفة كبر المساحة التي عرفت بها العمارة الموحدية؛ فبدت صغيرة الحجم، رقيقة البنية، إلا أنها احتفظت بالعناصر التخطيطية التقليدية في

---

(١) ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٣هـ.، ج١، ص ١٧٦.

(٢) من أهم خلفاء الدولة الموحدية وهو صاحب واقعة الأرك المشهورة في الأندلس ٥٩١هـ/١١٩٤م. عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٢٠٦.

(٣) أبو رحاب: المدارس، ص٤١، ص ٨٣.

المساجد المغربية كالصحن المكشوف، والأروقة المتجهة عمودياً على جدار القبلة، وعقود حدوة الفرس المرتكزة على الدعائم المربعة والمستطيلة[١]، ومن أهم هذه المساجد:

المسجد الجامع بفاس الجديد:

يقع هذا المسجد بالقرب من القصر الملكي الذي يتصل بالجامع بواسطة فتحة باب تفضي إلى رواق القبلة، وقد أنشئ هذا المسجد على يد أبي يوسف يعقوب في شهر رمضان عام (٦٧٧هـ/١٢٧٨م) [٢]، واستخدم في بنائه أسرى الأسبان إلى جانب العمال المغاربة، وهذا ما جعل عمارته يزدوج فيها – إلى حد ما – الفن المغربي بالإسباني[٣]، وتولى أمر الأشراف على عمارته أبو عبد الله بن عبد الكريم الحدودي، ووالي مكناس أبو علي الأزرق، ويبدو أن الأول كان مشرفاً على التصميمات، بينما أشرف الثاني بحكم وظيفته على النفقات، حيث إنها كانت من مداخيل معصرة مكناس[٤]، **(شكل ١)**.

وقد قام بعض سلاطين بنى مرين بإدخال إصلاحات على هذا المسجد؛ ففي عام (٧٩٧هـ/١٣٩٤م) قام السلطان أبو فارس عبد العزيز (٧٩٦– ٧٩٩ هـ/١٣٩٣–١٣٩٦م) بعمل إصلاحات بهذا المسجد، انصبت فيما يبدو على الناحية الزخرفية[٥].

وقد مثل هذا المسجد قمة التمازج بين العمارة الإسبانية والعمارة المغاربية؛ حيث أشرف فنيًّا على بنائه الصانع الأندلسي الرصاع، وإن كان المظهر الخارجي للجامع فيه امتزاج جمع بين النموذجين الأندلس والمغربي، فإن داخل المسجد كان قريبًا إلى

---

(١) أبو رحاب: المدارس، ص ٨٦.

(٢) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م ، ص١٦٢؛ أبورحاب: المدارس، ص٨٦.

(٣) للاستزاده في هذا الموضوع انظر: أحمد الكامون، هشام السقلي: التأثير المورسكي في المغرب، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية، وجدة، ٢٠١٠م، ص٩١.

(٤) عثمان إسماعيل: تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩٣م .ج٤، ص ١٢٤، أبو رحاب: المدارس، ص٨٦.

(٥) أبو رحاب: المدارس، ص٨٧.

حد كبير من جامع قرطبة، حيث كانت الثريا المعلقة داخل المسجد المتكونة من ثلاثة أجزاء تشبه مثيلتها في جامع قرطبة، وقد بلغ ارتفاع قاعدة هذه الثريا ٠,٢٥م، وتكونت من اثنتي عشرة حشوة زخرفية، يتوسَّط كلاً منها عقد مفصص يرتكز في الجانبين على دعامتين، وتملأ كل المساحة تشبيكة مخرمة من التفريعات والتوريقات والأوراق الكأسية، كما كان جانبي كل حشوة من هذه الحشوات الاثنتي عشرة أشرطة كتابية بالخط اللين، نقرأ فيها بعض العبارات الدعائية الرائقة، مثل: (الملك لله)، (العزة لله)، (العزة لله وحده)، (الحمد لله وحده)، (الشكر لله وحده)، (اليمن والإقبال)، (الغبطة المتصلة)، وهذه العبارات ممّا انتشر تداوله على العمارة وفنون بلاد الأندلس والمغرب خلال العصور الإسلامية المتعاقبة منذ عهد الخلافة بقرطبة (٣١٦ – ٤٢٢هـ / ٩١٢ – ١٠٣٠م)، إلا أنها كانت أكثر انتشارًا من ذي قبل في فنون وعمائر العصر المريني[١] (شكل٢).

الجامع الكبير بالمنصورة:

اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ إنشاء هذا الجامع؛ إذ يذكر ابن أبي زرع في سياق حديثه عن حوادث عام (٧٠١هـ/١٣٠٢م) أن السلطان أبا يعقوب يوسف[٢] قام بتشييد تلمسان الجديدة: "وبنى بها الحمامات العظيمة، والفنادق والمارستانات، وجامعًا كبيرًا للخطبة، أقامه على الصهريج الكبير، وبنى به منارًا عظيمًا، وجعل على رأسه تفافيح من ذهب بسبعمائة دينار"، وذكر في موضع آخر أنه شيده في عام

---

(١) رامي ربيع: ثريا الجامع الكبير بفاس الجديد: تحفة فنية فريدة من العصر المريني، مجلة مدارات ونقوش – العدد ١٢

https://jbhsc.ae/wp-content/uploads/2020/09/magazine-187acf79156119506210381861.jpg

(٢) **أبو يعقوب يوسف ابن عبد الحق (٦٨٥– ٧٠٦هـ/١٢٨٦-١٣٠٧م)** :ولي بعد وفاة والده بالجزيرة الخضراء، وابتدأ عهده بالتنازل عن أملاك أبيه في الأندلس لبنى الأحمر، أما في المغرب فقد خاض أبويوسف الكثير من المعارك ضد القوى المناوئة له، كتمرد بنى إدريس بجبال ورغة، كما غزا عرب الصحراء، وبنى رياح، وبنى زغبة، والكثير ممن ناوئ الدولة المرينية في المغرب في عهده. ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٣٧٤: ص٣٨٠، ابن خلدون: العبر، ج٧، ص ٢٩٤.

(٧٠٠هـ/١٣٠١م)، بينما ذكر كل من ابن خلدون والناصري أن أبا يعقوب يوسف شيد جامع المنصورة في عام (٧٠٢هـ/١٣٠٣م)، وهناك رأي يرجح أن إتمام إنشاء هذا الجامع كان في عام (٧٣٧هـ/١٣٣٧م) في عهد السلطان أبي الحسن المريني[١].

ويرى أحد الباحثين أنه يمكن القول إن الشروع في بناء المسجد كان في عام (٧٠٠هـ/١٣٠١م)، واكتمل العمل به في عام (٧٠٢هـ/١٣٠٣م)، حيث ذكر أبو زرع أن أبا يعقوب يوسف أقام الخطبة فيه في هذا التوقيت، بينما اقتصرت أعمال أبي الحسن على تجديد هذا المسجد في عام (٧٣٧هـ/١٣٣٧م) في جملة تجديده لمنشآت مدينة المنصورة بعد أن خربها بنو عبد الواد[٢].

المسجد الجامع بتازة:

شيد الخليفة عبد المؤمن الموحدي مسجد مدينة تازة الجامع (٥٢٩هـ/١١٣٥م) ليكون معهدًا لنشر المذهب الموحدي بجانب دوره كمسجد للعبادة، ويقع هذا المسجد في تازة العليا بالزاوية الشمالية الغربية من المدينة، وقد أضاف السلطان أبو يعقوب يوسف المريني إصلاحات جوهرية، بلغت تكلفتها وفقًا لما ذكره ابن أبي زرع ثمانية آلاف دينار ذهبي[٣].

مسجد سيدي بومدين بالعباد:

يعد هذا المسجد ثاني المساجد المرينية بالمغرب الأوسط، وقد شيده السلطان أبو الحسن في عام (٧٣٩هـ/١٣٣٩م) ببلدة العباد القريبة من تلمسان كملحق لضريح سيدي بو مدين، ذلك الصوفي الأندلسي الكبير أبو مدين شعيب بن الحسن المتوفى (٥٩٤هـ/١١٩٧م) [٤].

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٤٠٨؛ ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٦٢؛ الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد الناصري وجعفر الناصري، ج٣، دار الكتاب، الدار البيضاء، د–ت. ج٣، ص٨٠؛ أبو رحاب: المدارس، ص٩٠.

(٢) أبو رحاب: المدارس، ص٩٠.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٤٠٩.

(٤) هو شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني أبو مدين، أشهر متصوفة المغرب على الإطلاق، أصله من الأندلس، أقام بفاس، وسكن بجاية، وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور، وتوفي بتلمسان، دفن بالعباد خارج تلمسان، للمزيد انظر: ابن الزيات: التشوف=

جامع الحمراء بفاس الجديد:

شيد هذا المسجد على يد أحد سلاطين بني مرين، ولكن يصعب تحديده على وجه التأكيد، وقد اختلفت آراء الباحثين في هذا الصدد؛ فيرى البعض أنه نتيجة للتشابه الكبير بين هذا المسجد ومسجد العباد الذي شيده السلطان أبو الحسن (٧٣٩هـ/١٣٣٩م)، يمكن القول إنهما من تصميم معمار واحد، ولحاكم واهد، وهو أبو الحسن المريني[١].

في حين أرجع بعض الباحثين[٢] نسبة هذا المسجد إلى السلطان أبي عنان فارس (٧٤٩-٧٥٩هـ/١٣٤٨-١٣٥٧م)؛ استنادًا إلى ما ذكره ابن بطوطة في رحلته عند الحديث عن هذا السلطان، حيث ذكر "من أعظم حسناته – أيده الله – عمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء دار ملكه العلي، وهو الذي امتاز بالحسن وإتقان البناء، وإشراق النور وبديع الترتيب"[٣].

الزوايـــا:

إن الدعائم الأساسية لقيام الزاوية[٤] لم تخرج عن ضرورات الحياة الفعلية، فالزاوية ظلت منذ ظهورها مركزًا لإطعام الطعام، وقد حولت هذه الوضعية الزاوية إلى

=إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، ط٢، الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ص٣١٩.

(١) أبو رحاب: المدارس، ص٩٣.

(٢) المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م، ص٣٠.

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،تحقيق كرم البستانى ،دار النفائس ،بيروت ،١٩٩٧م.ص٦٦٤.

(٤) كلمة زاوية مشتقة من الفعل انزوى، بمعنى اتخذ ركنًا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبّد، كما يطلق على الزوايا لفظ: الخوانق، وهي جمع خانكاه. كلمة فارسيّة تعني بيت، وأصلها خانقاه، وهي الموضع الذي يأكل فيه الملك، وقيل لفظ زاوية مشتق من زوى، ويقصد به: زوى، زُويا، زيا الشيء، أي جمع الشيء وقبضه، كما تعني الركن، ويطلق هذا اللفظ في شمال إفريقيا على مجموعة من الأبنية ذات طابع ديني: غرفة للصلاة، ضريح لأحد المرابطين أو ولي من الأشراف تعلوه قبة، غرفة قصرت على تلاوة القرآن، مدرسة لتحفيظ القرآن، غرفة مخصصة لضيوف الزاوية والحجاج=

مؤسسة اجتماعية، لرعاية المحتاج، وعابر السبيل، فكان من ضروريات هذه الوظيفة أن تكون لها أملاك خاصة بها، أو محبسة عليها، تستثمرها للوفاء بهذه الالتزامات، ولتغطية الخدمات المجانية، لتتوسع في الحصول على الصدقات، والهبات، والزيارات، وكان المغرب المريني يستعمل كلمة الزاوية للدلالة على مؤسسات إحسانية، تشيد بأرباض المدن أو في الفلوات، برسم استقبال الواردين عليها، لإيوائهم والقيام بضيافتهم، وذلك ما شرحه ابن مرزوق في هذه الفقرة: "والظاهر أن الزوايا عندنا بالمغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاجين من القاصدين"[١].

ولم تقتصر الزوايا في تشكيل مؤسستها على وظيفة الإطعام، بل ثمة وظائف أخرى أسهمت بدورها في تقوية رصيدها الرمزي، فالزاوية هي في الأصل مركز للتعليم والوعظ، وقبلها كان الرباط أداة لتصحيح العقيدة والدفاع عن الملة الإسلامية ضد كل أشكال الانحراف الديني، وبوصف الزاوية شكلًا متطورا للرباط، فقد تحولت العملية التعليمية البسيطة إلى ممارسة تعليمية دينية محكمة وفق شروط أكثر وضوحًا، فتمكنت الزاوية من مقروءاتها، وموادها المدروسة، وفقهائها المقدمين للتحصيل، كما استقطبت المتعلمين من كل الآفاق موفرة لهم شروط التعليم والإقامة[٢].

وثمة ملاحظة تكاد تكون مهمة أن تاريخ ظهور الزوايا بالمغرب كمؤسسة بالمعنى الصوفي غير معروف بالتحديد قبل القرن السابع الهجري، فقد ظهرت بمبادرة

=والمسافرين، وغرف للطلبة، ويلحق بالزاوية عادة مقبرة تشمل قبور أولئك الذين أوصوا في حياتهم أن يدفنوا بها"، ويمكن تعريفها أيضا بأنها مدرسة دينية، ودار لضيافة الأغراب، وتعد مراكز لشيوخ الطرق الصوفيّة، مخصّصة للعلم، والثقافة العربيّة الإسلامية في مراحل الدراسة. ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٤٥١؛ ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق: أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، ط٢، الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ص٥؛ الحسين أسكان: تاريخ التعليم في المغرب خلال العصر الوسيط (١-٩هـ/٧-١٥م)، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ٢٠٠٤م، ص٨٨.

(١) المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، تحقيق د .ماريا خيسوس بغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،١٩٨١م.ص٤١٣.

(٢) الحسين أسكان: تاريخ التعليم بالمغرب فى العصر الوسيط، ص ٥.

الرعية أول الأمر، ثم تبنى المخزن المريني الحاكم هذه المبادرة، وهكذا لم تظهر الزوايا الرسمية لإطعام وإيواء المسافرين إلا منذ العقد التاسع من القرن السابع الهجري على يد المخزن المريني، وكانت أقدم الزوايا المرينية هي زاوية تافرطست التي بنيت سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م) على قبر الأمير عبد الحق المتوفي سنة(٦١٤هـ/١٢١٧م)، والمشيدة على نهر سبو، وحبس عليها مدخول أرض فلاحية تعادل مساحتها؛ لإطعام أبناء السبيل على الدوام، وأسست بعد ذلك زوايا أخرى بكثير من المدن، منها زاويتان بمكناسة، أسسهما السلطان أبو الحسن، الأولى عندما كان وليًّا للعهد، والثانية بعد انفراده بالحكم، أما الزوايا التي أسسها السلطان أبو عنان فمنها زاوية بضاحية مدينة سلا، وهي معروفة بزاوية النساك، والزاوية المتوكلية، وزاوية أخرى بمدينة سبتة[١].

وتعد الزاوية المتوكلية أشهر الزوايا التي أسست في العصر المريني، وتسمى المتوكلية نسبة إلى مؤسسها أبي عنان المريني الملقب بالمتوكل على الله الذي أسسها عام (٧٥٤هـ/١٣٥٣م)، ثم صارت تعرف بدار الضيفان نسبة إلى وظيفتها الإحسانية، وقد اندثرت الزاوية في القرن(١١هـ/١٧م)[٢]، إلا إن النميري يحتفظ بوصفها الدقيق في رحلته فيض العباب، فهي: "شامخة البناء، منفسحة الساحة، مبيضة المظهر، ... وقابله – في الشمال– قبة سامقة ازدوج فيها الحسن الباطن مع الجمال الظاهر، ويدور بالزاوية – من جهاتها الأربعة– مباحات بديعة الاختراع، متقابلة الأشكال والأوضاع، قامت أساطينه كأنها عرائس تجلى، وكسيت أرضها من الصنائع حللا، وقد امتدّ من الجامع إلى القبة صهريج بديع الطول والعرض، ينتصب على حافتيه أسدان مصوران من الصفر، ليقذف – من أفواههما– الماء النازل للصهريج... وفي كل ركن من أركان الزاوية باب ينفذ إلى دار بديعة البناء، متناسبة الأجزاء، مكتملة

(١) المرجع نفسه، ص٨٨.

(٢) المنونى: ورقات عن حضارة المرينيين، ص ٦٧.

المنافع، إلا الباب الواقع في الشمال الغربي، فإنه يؤدي إلى دار وضوء مستوفية المرافق"[١].

وقد ظهرت ملامح العمارة الأندلسية في أغلب زوايا المغرب الإسلامي حيث جرت عادة الحكام في الاستعانة بعرفاء البناء الأندلسيين لإتمام مشروعاتهم العمرانية[٢]. وكان جامع قرطبة هو النموذج المحتذى به في تصميم أغلب مساجد الغرب الإسلامي فلا يقل أهمية عن الجامع الكبير في دمشق أو الجامع الكبير في القيروان[٣].

العمارة المدنية:

المدن:

تعددت أنواع وأدوار المدن التي بناها المرينيون؛ فهناك مدن بلغت من العظمة والفخامة مبلغًا عظيمًا، وقصدها التجار وطلاب العلم من جميع الآفاق، كمدينة المنصورة المرينية، وفاس الجديد، وهناك قصبات، أو قرى صغرى تطورت فيما بعد إلى مدن بكامل مرافقها، كقصبة تطوان التي بناها السلطان يوسف سنة (٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، وشالة الحديثة التي تم بناء أسوارها وبابها الأكبر في عهد أبي سعيد (٧٣٩هـ/١٣٣٨م)، وقلعة كرسيف، وقصبة العرائش التي تم بناؤها سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٨م)، كما توجد قرى أو مدن شيدوها، ولم تكتمل لأسباب سياسية أو اقتصادية[٤].

---

(١) النميري: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، ط١، بيروت، ١٩٩٠م. ص ص ٤٧–٤٩.

(٢) حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٣٧٥.

(٣) جورج مارسيه: الفن الإسلامي، ترجمة: عبلة عبد الرازق ، مراجعة:عاطف عبد السلام، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٦م، ص١٤٣.

(٤) إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثه، الدار البيضاء، ١٩٧٨م، ج٢، ص ١٥٤.

فاس الجديد:

تقسيم المدينة:

أهم ما تركه بنو مرين على الإطلاق دار ملكهم ومقر حكمهم، وبحسب العمري، فهي عبارة عن ثلاث مدن موازية لفاس البالي على ضفة الوادي المعروف بوادي الجوهر[١] وهي كالآتي:

١- المدينة البيضاء:

قد اختطها أبو يوسف يعقوب[٢] عام (٦٧٤هـ/١٢٧٥م)لتكون دارًا لملكه ومكانًا لسكني حاشيته، وجمع لها البنائين والصناع، ونزلها بحاشيته وذويه، واختطوا بها الدور والمنازل، وأجرى فيها المياه إلى قصوره[٣]، ثم أضاف إليها الأسواق من باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة سنة (٦٧٩هـ/١٢٨٠م)، وامتد عمرانها من شمالي ربض النصارى إلى ضفة النهر، وتقع أول عمارة فاس الجديدة قبالة آخر عمارة فاس العتيقة[٤].

أسوار فاس الجديد:

كانت مدينة فاس الجديد تتمتع بازدواجية السور الذي يحيط بها، ويلبي رغبة أكيدة لدى مشيدي المدينة في تحصينها الجيد؛ ضمانًا لمنعتها ضد أي عدوان خارجي، وقد قارن العمري بين حصانة وأسوار كل من فاس القديم وفاس الجديد، وتوصل إلى ما يأتي: "وتزيد فاس الجديد على فاس العتيقة في الحصانة والمنعة

---

(١) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج٤، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرون، مركز زايد للتراث، الإمارات، ٢٠٠١م، ج٤، ص١٧٧.

(٢) أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ/١٢٥٨-١٢٨٦م): يعد عهد أبي يوسف البداية الحقيقية لدولة بني مرين، فهو المؤسس الفعلى لها؛ وذلك لعدة أسباب ؛فقد استطاع القضاء على دولة الموحدين نهائيًا. ابن أبى زرع :الذخيرة السنية ،ص ٩٠، ص ٩٨؛ ابن خلدون : العبر، ج ٧، ص ٢٤١

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٥٨.

(٤) العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص١٧٧.

والعتيقة بسور واحد من الحجارة، والجديدة بسورين من الطين المفرغ بالقالب من التراب، والرمل، والكلس المضروب، وهو أشد من الحجر، ولا تعمل فيه المجانيق، ولا تؤثر فيه"[١]، ويعزو صاحب الذخيرة السنية[٢] تأسيس أسوار فاس الجديد إلى مؤسس المدينة السلطان أبي يوسف يعقوب، ويرى بعض الباحثين أن التشييد إنما يخص السور الداخلي، بينما السور الثاني الخارجي كان كله أو معظمه من تأسيس سلاطين آخرين جاءوا بعده[٣].

الأبواب :

كان للأبواب خلال العصور الوسطى وظائف عسكرية واضحة، فهي تضم أهم نقاط الحراسة فيها، ولم تعرض معظم المصادر التقليدية لأبواب فاس الجديد، عدا ابن الأحمر[٤] الذي ذكر منها ثلاثة، هي: باب القنطرة، وباب عيون صنهاجة، وباب السبع، بينما ذكر بعض الباحثين أربعة أبواب لفاس الجديد، هي: باب عيون صنهاجة الذي عرف في الوقت الحالي بباب السمارين، وباب القنطرة الذي أصبح يسمى بباب الوادي، ثم باب الجياف شرق باب السمارين، وباب السبع وهو باب المكينة حالياً[٥].

المنصورة (تلمسان الجديدة):

كانت مدينة المنصورة المرينية مدينة عسكرية في بدايتها؛ لأن الظروف التي تحكمت في تأسيسها كانت ظروفاً عسكرية[٦]، حيث غزا السلطان أبو يعقوب يوسف تلمسان سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م وحاصرها مدة ١٦يومًا منصبًا عليها المنجنيق، ثم انسحب منها وكرر الغزو مرات كثيرة في سنى ٦٩٤هـ/١٢٩٤م،٦٩٥هـ/١٢٩٥م، ٦٩٦هـ/١٢٩٦م، ٦٩٧هـ/١٢٩٧م، ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، وكانت الحملة الخامسة و"الأخيرة"

---

(١) المصدر نفسه، ج٤، ص ١٧٨.
(٢) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٩٥.
(٣) المنونى: ورقات عن حضارة المرينيين، ص٤٩.
(٤) ابن الأحمر: روضة النسرين، ص٢٠.
(٥) المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، ص٤٦.
(٦) عبد العزيز لعرج: مدينة المنصورة المرينية بتلمسان (دراسة تاريخية أثرية في عمرانها وعمارتها وفنونها)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٦١.

هي أطول حملاته التي تخللها الحصار الطويل، وشهد بناء مدينة تلمسان، ولم ينته الحصار إلا بمقتل السلطان نفسه على يد أحد مواليه، وكان طبيعيًّا أن تحظى مدينة المنصورة بعناية سلاطين بني مرين واهتمامهم، وهي العاصمة الجديدة لدولتهم، فجمعت مدينة المنصورة بين خصائص المدن العسكرية وخصائص المدن الحضارية، حيث شيد أبو يوسف مجموعة المنشآت الحضارية سجلها ابن خلدون بقوله: "واختط بمكان فسطاط المعسكر قصرًا لسكناه، واتخذ به مسجدًا لمصلاه، وأدار عليها السور، وأمر الناس بالبناء فبنوا الدور الواسعة، والمنازل الرحيبة، والقصور الأنيقة، واتخذوا البساتين، وأجروا المياه. ثم أمر بإدارة السور سياجا على ذلك سنة اثنتين وسبعمائة، وصيرها مصرًا، فكانت من أعظم الأمصار والمدن، وأحفلها اتساع خطة، وكثرة عمران ونفاق أسواق، واحتفال بناء وتشييد منعة. وأمر باتخاذ الحمامات والمارستان، وابتنى مسجدًا جامعًا، وشيد له مئذنة رفيعة، فكان من أحفل مساجد الأمصار وأعظمها، وسماها المنصورة، واستبحر عمرانها، ونفقت أسواقها، ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق، فكانت إحدى مدائن المغرب"[١]. وأسس السلطان أبو الحسن مجموعة عمرانية ومعمارية بحي العباد العلوي اشتملت على مدرسة، ومسجد، وضريح، وحمام، وقصر، كما شيد داخل تلمسان الزيانية مرافق كثيرة، كقنوات توصيل المياه، وقناطر، وجسور في مواضع متعددة من المدينة؛ تسهيلاً لحركة السكان وتنقلاتهم[٢].

قصبة تطوان:

بنيت في عهد أبى يعقوب يوسف سنة (٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، وكان بناء القصبة يهدف إلى حصار سبتة أو الأخذ بمخنقها، كما ذكر عبر ابن خلدون[٣]، والاستيلاء عليها شأن طريقة بني مرين في حصار المدن الأخرى، كالجزيرة الخضراء[٤]، وتلمسان التي بنوا حولها المنصورة. وقد ظلت تطوان عامرة لنحو قرن من الزمان،

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٩٣.

(٢) عبد العزيز لعرج: مدينة المنصورة المرينية، ص٦٩.

(٣) العبر، ج٧، ص٣١٤.

(٤) الجزيرة الخضراء مدينة أمام سَبْتَة من برّ الأندلس الجنوبيّ، تقع في منطقة قادس، على بُعْد ستة أميال إلى الغرب من جبل طارق، وقد أعاد المسلمون تأسيسها سنة (٩٥ هـ/ ٧١٣م) الإدريسى :نزهة المشتاق ،ج٢،ص٥٣٩.

حتى أصبحت من المراكز الأولى لحركة الجهاد البحرى بالمغرب، وفي سنة (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) استولى عليها الأسبان، فهجرها سكانها وخربها الغزاة الجدد، ويعود تاريخ تطوان وقصبتها الأولى إلى وقت طويل قبل هذا التاريخ، فقد ذكرها البكري مراراً في الجزء الخاص بشمال إفريقيا[١].

القصور :

ورد الكثير من الإشارات التاريخية تتعلق بإنشاء سلاطين بنى مرين للقصور، في كلا المغربين الأقصى والأوسط والأندلس، غير أن هذا القصور لم يتبق منه إلا آثار قليلة؛ نظرًا لتعرض هذه العمائر للتعدّى والتدمير، ولكونها لاتحظى بالحرمة التي تتمتع بها العمائر الدينية[٢]، كما ذكر ابن خلدون أن الناس في عصر السلطان أبي الربيع سليمان (٧٠٨-٧١٠هـ/١٣٠٨-١٣١٠م) تنافسوا في البناء "واتخذوا القصور المشيدة بالصخر، والرخام، وزخرفوها بالزليج والنقوش" [٣]، ومن أهم القصور التي أسسها بنو مرين:

١- القصر الملكي بفاس الجديد:

حفلت فاس الجديد بكثير من المنشآت الفخمة التي تليق بدار ملك سلاطين بني مرين، وأولها القصر الملكي، وكان عالي البناء، ويشتمل على قبات عليا ضخمة، وغرف مرتفعة، ومجالس سلطانية، ويصف العمري قبة ذلك القصر بقوله: "وبداخله القبة المعروفة بقبة الرّضا، وهي قبة عظيمة الارتفاع، خارقة الاتّساع، وقدّامها بركة ممتدة، بها مركب لاتساعها وكبرها، وخلفها بركة أخرى مثلها، بها مركب آخر لاتساعها وكبرها، ومساحة البركتين واحدة، والقبة العظمى بينهما، وفي نهاية كلّ بركة قبة لطيفة المقدار، وفي جميع جدر القباب شبابيك مطلة، والبستان حافّ بالجميع، وهو بستان جليل منوّع بصفوف الأشجار والغراس على اختلافها"[٤].

---

(١) البكري: المسالك والممالك، ج٢، ص٦٦٨.
(٢) أبو رحاب: المدارس، ص١١١.
(٣) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٨٢.
(٤) العمري: مسالك الأبصار، ج٤، ص ١٧٢.

٢-قصر أبي فير (بفاس الجديد):

ذكره ابن الخطيب في معرض حديثة عن حريق شب بالبلد الجديد بقوله: "فاصْطَلَمت القصر المعروف بأبي فير مطرح الأموال المجموعة، ... المشتملة دُوره وزواياه على الكثير من عُدد المُلك، وآلات الحركات، وأجرام المنشآت، وثمين السلع من اللَّك، والنَّيلج، والعاج، والأبنوس، والصندل، وَشِبْهه"[١].

٣- قصر العباد (بتلمسان الجديدة):

يُعد قصر العباد ثاني قصور بني مرين في تلمسان، وقد شيد هذا القصر السلطان أبو الحسن المريني في الفترة بين ٧٤٦ و ٧٤٩هـ/١٣٤٥و١٣٤٨م . وبخلاف القصر الأول، قصر النصر أو الفتح[٢]، فقد حافظ قصر العباد على جزء من عمارته، وجزء من زخرفته، وكان هذا المبنى الأثري يشكل مجمعًا يتكون من ثلاث مجموعات بنائية تتوزع على ثلاث ساحات[٣].

الدور:

فضلا عن القصور، كانت هناك بعض الدور الخاصة التي أسسها السلاطين كالدار التي أمر ببنائها السلطان أبو الحسن المريني حيث رسم للبنائين، على كاغد، صورة الدار التي قرر بناءها للأميرة التونسية عزونة ابنة السلطان أبي بكر لما كانت في طريقها إلى المغرب مع خطابها له على ما يرويه ابن مرزوق في كتابه المسند حيث قال: "علىّ بأرباب الصناعات من البنائين، والنجارين، والجباسين، والزليجيين، والرخامين، والقنويين، والدهانين والحدادين، والصفارين... وقال لهم أريد دارًا تشتمل على أربع قباب مختلفة، ودويرتين تتصلان بها منقوشة الجدران بالصناعات المختلفة بالجبس، والزليج، ..... ونقش ساحة الدار وفرشها زليجًا ورخامًا، بما فيها من

---

(١) نفاضة الجراب، ص٨٩، المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، ص٥٥.

(٢) عبد العزيز لعرج: مدينة المنصورة المرينية، ص٩٢.

Charles BROSSELARD: " Les inscriptions arabes de Tlemcen, Revue Africaine, 1859, 2ème edit., Alger: OPU, 1984,p122..

(3) Rachid Bourouiba: L'art Musulman en Algérie, Societe Nationale d'Édition et de Diffusion, 1972,p55.

طيافير الرخام، والسواري، والنجارة في السقف مختلفة باختلاف القبب بالصناعات المعروفة عندهم، المشتركة المدهونة، والأبواب بالصناعات المؤلفة، والخزائن، والحلية في جميع ذلك من النحاس المموه بالذهب والحديد المقصدر"[١].

البيمارستانات:

تعد البيمارستانات إحدى المظاهر الطبية التي أظهرت التفوق العلمي والعملي الذي برع فيه المسلمون، ووصلوا بها إلى درجة متقدمة من التطور الحضاري، والتقدم العلمي، وكانت الأهداف والغايات التي تنشدها رسالة البيمارستانات نبيلة وسامية، لا يقصد من ورائها إلا خدمة الإنسان، والمجتمع دون أي ثمن أو مقابل، لا فرق في ذلك بين الغني والفقير، والحاضر والبادي، والمسافر والمقيم، ولم تكن مهمة البيمارستانات مقصورة على مداواة المرضى فحسب، بل كانت في الوقت نفسه دُورًا للرعاية الاجتماعية، ومعاهد علمية لتعليم الطب والصيدلة، حيث تُلَقى فيها الدروس النظرية إلى جانب التطبيقات العملية، إضافة إلى أنَّ هذه البيمارستانات في ذلك العصر كانت منظَّمة تنظيمًا مثاليًا، من جميع النواحي المتصلة بها، سواء من ناحية اختيار الموقع، والتصميم، والبناء، والتموين، والإدارة، أو من ناحية أنظمتها العلاجية، والإدارية، والمالية، وتطورت هذه البيمارستانات حتى أصبحت مؤسسات طبية، وجامعات، ومراكز تعليمية في آن واحد، تُلَقى فيها الدروس العلمية والنظرية، إلى جانب دورها الأساس الذي قامت من أجله ألا وهو العلاج والمداواة[٢].

وقد ازدهرت البيمارستانات في عصر الدولة المرينية ازدهارًا كبيراً؛ فتعددت أنواعها، فكان منها من هو خاص بعلاج الأمراض العقلية والجذام، ومنها ما هو عام لجميع الأمراض، كما لم يقتصر وجودها على العاصمة فقط، بل في مختلف مدن المغرب، إذ حرصت السلطة المرينية – منذ نشأتها – على إصلاح البيمارستانات القديمة وإنشاء أخرى جديدة، حيث أورد ابن أبي زرع أن يعقوب بن عبد الحق: "لما

---

(١) ابن مرزوق: المسند، ص٤٠٠.

(٢) البشير بنجلون: تاريخ البيمارستانات بالمغرب، المجلة الصحية المغربية، العدد ٣، الرباط، ٢٠١٢م، ص٣٢.

استقام له الأمر صنع المارستان للمرضى والمجانين، وأجرى عليهم النفقات، وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية والأشربة، وأمر الأطباء بتفقد أحوالهم كل يوم غدوة وعشية، وأجرى على الجذامى ..... والفقراء مالاً معلوماً يأخذونه في كل شهر من جزية اليهود"[١]، وقد استمر الاهتمام بالجانب الصحي طوال فترة حكمهم، وهذا ما أكده الحسن الوزان عند قوله: "يوجد بفاس مارستانات عديدة لا تقل حسناً عن المدارس ... وكان الغرباء قديماً يعطون السكن بها لمدة ثلاثة أيام، ويوجد عدد كبير من البيمارستانات خارج أبواب المدينة لا تقل جمالاً عن التي في داخلها"، وكان الإشراف الإداري العام على البيمارستان مرتبطاً بناظر يشرف على إدارة الأموال والأوقاف المخصصة له، وعلى سلامة مبانيه، وحسن سير العمل فيه، وكان في كل بيمارستان عدد من الأطباء المهرة الذين أسهموا بجهودهم في تطور الطب، يساعدهم في عملهم الفراشون، والقومة لخدمة المرضى، وللقيام بأعمال النظافة، وأضاف الوزان: "أن البيمارستانات تتوفر على كل ما يحتاج إليه من كتاب، وممرضين، وحراس، وطباخين، وغيرهم ممن يهتمون بالمرضى، ويتقاضى كل واحد من هؤلاء المستخدمين أجرًا حسنًا من مال الأوقاف"[٢].

مارستان سيدي فرج (شكل٤):

هو أشهر البيمارستانات المرينية على الإطلاق، أسس على يد السلطان أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق عقب توليه الملك سنة (٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)، وعهد مؤسسه بإدارته إلى أشهر الأطباء، وأوقف عليه الحبوس الكثيرة من العقار للصرف عليه وحفظه، ولما عظم أمر البيمارستان، واتسعت أعماله، أدخل عليه السلطان أبو عنان فارس (٧٤٩-٧٥٩هـ/١٣٤٨-١٣٥٧م) زيادات عظمى، وقد جاء ذكر هذا البيمارستان في سلوة الأنفاس: "أنه بالقرب من سوق العطارين وسوق الحنا بفاس، مكان يقيم به المرضى الذين بعقولهم مرض، وهم المجانين، ويسمى ذلك المكان سيدي فرج على أنه لم يدفن به أي شخص كان يسمى بهذا الاسم، وليس به

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٩٨.

(٢) الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ، ترجمة د. محمد حجي، و د. محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان،١٩٨٣م، ص ص ٢٢٧-٢٢٨.

قبر، وإنما بنى هذا المكان أحد السلاطين ليضم مرضى المسلمين الذين لا ملجأ لهم أو مأوى يأوون إليه، وقيل إنه سُمِّي "سيدى فرج" لأن المرضى كانوا يجدون فيه ما يفرج كربهم، وقد حبست عليه الحبوس التي كانت تصرف غلتها عليه"[١]، وقيل إنه سُمِّي بذلك؛ لأن شخصًا من بني الأحمر يسمى فرج الخزرجي تولى رئاسة البيمارستان فنسب إليه، وليس في مدخل البيمارستان شيء يستوقف النظر، ويحيط به جدار أبيض، وعليه باب عال مغطى بالحديد شأنه كسائر أبواب المدينة مقفل على الدوام، ولا يفتح إلا قليلا[٢]. وقد تغيرت وظيفة هذا البيمارستان في الوقت الحالي، حيث حولته وزارة الأوقاف المغربية، إلى سوق – قيسارية – مزود بالدكاكين، وعوضته ببناية أخرى بناحية سيدي أبي جيدة بفاس البالي[٣]. وبالإضافة إلى فاس، توزعت البيمارستانات المرينية في مدن مغربية أخرى غير فاس منها:

مكناس: وبها مارستان من تأسيس السلطان أبي عنان أيضًا، ومازالت بنايته قائمة في حي الحمام الجديد، يميزها باب لطيف، نقش به كتابة بالخط الثلث توضح اسم المؤسس وبانيها، واشتملت على قسمين: الأول كان – فيما يظهر – مخصصًا لعلاج المرضى، ويتكون من طابقين، بكل منهما حجرات صغرى، ويتوسط ساحة الطابق الأسفل مربع به صهريج صغير، أما القسم الثاني: فكان موقعه شرق البناية الأولى في طابق واحد مقسم إلى بيوت مخصصة لإقامة المعتوهين[٤].

الرباط: ويعزى تأسيس بيمارستان الرباط للسلطان المريني عبد العزيز الأول، ومازالت بنايته حالياً في مقابلة باب الجامع الكبير من الناحية الغربية[٥].

تازة: كان بداخلها بيمارستان مرينى حسب اللوحة الرخامية لوقف السلطان أبي عنان عليه، فضلاً عن أحد أجزاء الحوالة الحبسية للمدينة نفسها، وهي تحتفظ بفقرة صغيرة تقول: "نصف أشجار عرصة المارستان"[٦].

---

(١) الكتاني: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق عبد الله الكامل الكتاني وآخرون، دار الثقافة، الدار البيضاء، ٢٠٠٤م،ج٣، ص١٥٥.
(٢) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات، ص٢٨٤.
(٣) أبو رحاب: المدارس، ص١١٦.
(٤) محمد المنوني: دور الأوقاف المغربية، ص٣٣.
(٥) المرجع نفسه، ص٣٣.
(٦) المرجع نفسه، ص٣٥.

سلا: وبها المستشفى العناني نسبة إلى السلطان أبي عنان المريني، وكان موقعه بالبناية المعروفة بفندق أسكور في حي باب إحساين في بناء حفيل، يشتمل على بيوت كثيرة، بعضها لفحص المرضى، وباقيها للمعتوهين، وبقي منه بابه شاهدًا على حسن بنائه، تعلوه كتابة تشتمل على اسم بانيه أبي عنان، وعلى تسميته بالمارستان، مكتوب ذلك في زليج أسود ملصق على تاج الباب[١].

آسفي: أشار لسان الدين ابن الخطيب إلى مستشفى آسفي خلال حديثه عن هذه المدينة، وقال عن ناظره: «وتردد به إلى صاحب السوق، ومقيم رسم المارستان الشيخ الحاج أبو الضياء منير بن أحمد بن محمد بن منير الهاشمي الجزيري»[٢]، وقد كانت زيارة ابن الخطيب لآسفي عام(٧٦١هـ/١٣٦٠م)، حيث وجد المارستان قائما دون أن يذكر مؤسسه، على أن البعض يرجح أن يكون من تأسيس أبي عنان.

وممن عمل بمستشفيات فاس في العصر المريني "أبو فارس عبد العزيز بن محمد القروي" الذي يُعد من مشايخ أعلام فاس وصلحائها، و"أبو القاسم بن أبي بكر القريشي المالقي ثم الغرناطي" نزيل فاس الذي شغل ناظرا بالمستشفى في عهد أبي عنان من سنة ٧٥٤ هـ إلى حين وفاته سنة (٧٥٧ هـ / ١٣٥٦م)[٣].

الفنادق:

أدت الحركة التجارية النشطة من وإلى موانى بلاد المغرب والأندلس إلى ظهور الحاجة لأماكن يأوي إليها التجار والوافدون من عمال وغيرهم، ولاسيما في الظروف الجوية السيئة التي تلزم بعض التجار البقاء في الموانى لعدة شهور، كما أن التجار حال وصولهم للبلاد التي يتجارون فيها، كانوا يحتاجون وبشدة لخدمة الفنادق لإنزال بضائعهم فيها؛ لغرض احتساب ما عليها من ضرائب من قبل موظفي الميناء التابعين للمحتسب أولاً، ولتأمينها من السرقة ثانياً[٤].

---

(١) محمد المنوني: دور الأوقاف المغربية، ص٣٥.

(٢) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص١١.

(٣) السعيد لمليح: مؤسسة الأوقاف وأهميتها الفكرية، ص١٢.

(٤) خليل خلف الجبوري: معالم من الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس (الفنادق أنموذجاً)، دورية كان التاريخية، العدد الثامن عشر، ديسمبر ٢٠١٢م، ص٥٧.

ويطلق مصطلح فندق في المغرب على نوعين من المنشآت، يتشابهان في التكوين المعماري، ولكنهما يختلفان من حيث الموقع والوظيفة، يوجد النوع الأول على طرق المدينة، وعلى الطرق التي تربط بين المدن، ويستعمل لإيواء المسافرين والعابرين بدوابهم، وهو شبيه بالخانات في المشرق الإسلامي، وقد وزعت هذه الفنادق على مسافات ثابته يعلمها المسافرون، تقدر باثني عشر ميلاً[١]، أما النوع الثاني: فيوجد بداخل المدن، وهو معد– فضلاً عن الإيواء– لتخزين البضائع ولمختلف الحاجيات الصناعية والتجارية، حيث تتحول حجرات وغرف الفندق إلى مخازن للغلال والفواكه والسلع، ومعامل للصناعات اليدوية، مع ملاحظة أنه قلما يتعايش التجار والصناع في فندق واحد، فكل حجرات وغرف الفندق يستغلها إما تجار أو صناع[٢].

وقد عرف المغرب الفنادق بنوعيها قبل عصر بني مرين، فقد ذكر ابن أبي زرع في سياق حديثه عن مرافق مدينة فاس في عهد الموحدين: أن بها من الفنادق المعدة للتجار والمسافرين والغرباء أربعمائة وسبعة وستين فندقا"[٣].

وفي العصر المريني كان للعلاقات السياسية والمعاهدات التجارية في الخارج أثر كبير في نمو تجارة المغرب الخارجية، حيث أقبل التجار الأجانب من مختلف أقطار أوربا– كجمهوريات إيطاليا، وفرنسا، والبرتغال وإسبانيا– إلى المغرب، وشجعهم على التعامل معه انتشار الأمن والطمأنينة – خاصة في الفترة الأولى من العصر المريني – وحاجتهم إلى منتجات المغرب، ورغبة المرينيين في الحصول على مختلف أنواع الأسلحة والسلع التي تحتاجها البلاد، إلى جانب تعدد المراسي والموانى كميناء سبتة، ومرسى أنفا "الدار البيضاء"، ومرسى طنجة، ومرسى غساسة وغيرها[٤].

---

(١) وحدة قياس مسافة تعادل ١٨٤٨ مترًا. وهبة الزحيلي: الفقه الإسلامي وأدلته (الشامل للأدلة الشرعية والآراء المذهبية وأهم النظريات الفقهية وتحقيق الأحاديث النبوية وتخريجها)، ج١، دار الفكر، دمشق، د–ت، ص١٤٢.

(٢) محمد السيد أبو رحاب: الآثار الإسلامية بالمغرب الأقصى في العصرين المريني والسعدي (دراسات وبحوث)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠١٥م، ص ص ٧–٤٧.

(٣) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٤٨.

(٤) أبو رحاب: الآثار الإسلامية بالمغرب الأقصى في العصرين المريني والسعدي (دراسات وبحوث)، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠١٥م، ص ٧–٤٧.

وتتكون الفنادق المرينية بشكل عام من صحن أوسط مكشوف، تتوسطه فسقية من الرخام، ويحيط بهذا الصحن ممرات، أو أروقة مسقوفة، وزعت خلفها مجموعة من الحجرات والغرف، موزعة في الغالب على ثلاثة مستويات "طوابق"، مع وجود ميضأة، وافتراض وجود وحدات خدمية أخرى بالدور الأرضي كمخازن للبضائع واصطبلات للدواب[١]، وفي العادة يخلو الفندق من أي منفذ لتجنب السرقات، وكانت غرفة الفندقي (صاحب الفندق) تقع في الطابق الأعلى، ومزودة بنافذة تطل على الباب الرئيس، ليتمكن من أن يشاهد الداخل والخارج[٢].

الحمامات العامة:

انتشرت الحمامات في العصر المريني انتشاراً كبيراً بالتوازي مع النهضة العمرانية الكبرى التى حققها سلاطين بني مرين، كما تدل على ذلك إشارات المؤرخين، فيذكر الأنصاري أن بمدينة سبتة وحدها اثنين وعشرين حماماً، ويذكر الوزان أن مدينة فاس وحدها تتوفر على مائة حمام، ويرجع الاهتمام بهذه الحمامات إلى أن معظمها كان: "ملكاً للمساجد والمدارس، تؤدي لها كراء مرتفعاً يبلغ المائة، والمائة وخمسين مثقالاً، أو أقل، أو أكثر بحسب حجم المكان" [٣].

تكوين الحمامات المرينية:

من خلال وصف الحسن الوزان للحمامات المرينية في سياق حديثه عن حمامات فاس، يتبين أنها تمتعت بالشروط كافة التي ذكرها العلماء، حيث ذكر أنها: "جيدة البناء، حسنة الصيانة، بعضها كبير، وبعضها صغير، وكلها على شكل واحد؛ أي أن في كل واحد منها ثلاث حجرات، أو بالأحرى ثلاث قاعات، وفى خارج هذه القاعات الصغيرة غرف صغيرة مرتفعة قليلاً، يصعد إليها بخمس درجات أو ست،

---

(١) المرجع نفسه، ص ص ٧-٤٧.

(٢) خليل خلف الجبوري: معالم من الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس (الفنادق أنموذجاً)، دورية كان التاريخية، العدد الثامن عشر، ديسمبر ٢٠١٢م، ص٥٨.

(٣) الأنصاري: اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة، ط٢، الرباط، ١٩٨٣م، ص٣٨.

حيث يخلع الناس ثيابهم، ويتركونها هناك، وفي وسط القاعات صهاريج على شكل أحواض، إلا إنها كبيرة جدًّا"(١).

ثم يستطرد في حديثه، فيذكر صفات القاعات الثلاثة التي يشتمل عليها الحمام بقوله: "وإذا أراد أحدهم أن يستحم في أحد هذه الحمامات، دخل من أول باب إلى قاعة باردة، فيها صهريج لتبريد الماء إذا كان ساخنًا جدًا، ومن ثم نفذ من باب ثان إلى قاعة ثانية أشد حرارة بقليل، حيث يقوم الخدم بغسل جسمه، وتنظيفه، ومن هنا يدخل إلى قاعة ثالثة شديدة الحرارة، حيث يوجد مرجل محكم البناء يسخن فيه الماء"(٢).

وقد كان من بين هذه الحمامات ما هو مخصص للنساء، فضلاً عن وجود بعض الحمامات المشتركة التى تتقاسم فيها النساء والرجال الاستحمام خلال فترتين منفصلتين، كما ذكر الوزان: "وللنساء كذلك حماماتهن الخاصة، إلا إن الكثير منها يستعمل للرجال والنساء، للرجال أوقات معينة بين الساعة الثالثة والرابعة عشرة، أو أكثر أو أقل بحسب الفصول، ويخصص باقي الوقت للنساء، فإذا دخلن الحمام مد حبل على عرض الباب للإشعار بذلك حتى لا يدخله رجل، وإذا أراد أحدهم أن يقول شيئاً لزوجته فعليه أن ينادي إحدى مستخدمات الحمام، وهن زنجيات لتقوم بمهمة التبليغ"(٣).

وإلى جانب الحمامات العامة، كانت بعض الدور تشتمل على حمامات خاصة، فقد ذكر العمرى "وغالب أغنيائهم – يقصد أهل فاس – يعملون لهم حمامات في بيوتهم؛ أنفة من الدخول مع عامة الناس"(٤)، وذكر الأنصاري أن: "بكل دار من سبتة حمام ومسجد إلا القليل، ولقد كان بمنزلنا حامين اثنان ومسجد"(٥)، غير أنه لم يتبق من الحمامات المرينية سوى نماذج قليلة جدًّا، ربما لتعرض مثل هذه المنشآت للمياه بصفة مستمرة(٦).

---

(١) وصف إفريقيا، ج١، ص٢٣٠.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٩.
(٣) الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ص٢٣٠.
(٤) مسالك الأبصار، ج٥، ص١٤٠.
(٥) اختصار الأخبار، ص٣٨.
(٦) أبو رحاب: المدارس، ص١٢٠.

القناطر والسقايات:

لاقت المنشآت المائية اهتمامًا بالغًا في العصر المريني؛ حيث شيدت عشرات من القناطر – وجددت أخرى – منها قنطرة وادي النجاة، وقنطرة ماريج على يد أبي يوسف يعقوب (٦٨٠هـ/١٢٨١م)، وعلى إثر السيل الذي اجتاح فاس سنة (٧٢٥هـ/١٣٢٥م)، قام أبو سعيد عثمان بتجديد بناء عدد من القناطر في العام نفسه، كقنطرة أبي طوبة، وقنطرة باب السلسلة التي تعرف بقنطرة الطرافين، وبقنطرة سيدي العواد، وقنطرة الصباغين التي تعرف بقنطرة الخراشفيين، وأنشأ أبو الحسن علي قناطر وادي رادات، وقنطرة بني بسيل، وقنطرة الوادي داخل فاس[١].

السقايات :

عرفت السقايات في المغرب كمورد لشرب الإنسان والدواب، وكانت تعد من المنشآت الخيرية المهمة التي حرص السلاطين على تشييدها في مختلف الأماكن الآهلة بالسكان، وقد أشار الأنصاري إلى توفر مدينة سبتة على خمس وعشرين سقاية، بعضها معد لسقي الإنسان وبعضها لسقي الدواب[٢].

وقد احتفظت السقايات المرينية بهندسة خاصة تميزها عن نظيراتها المرابطية والموحدية؛ فتبنى في شكل صهاريج صغيرة نسبيًّا، مستطيلة وقليلة العرض، وتزين واجهتها بالفسيفساء الدقيقة، فضلًا عن زخرفتها وسقفها بالنقش المحفور أحيانًا– في الجص الخشب[٣].

وبحسب بعض الحوالات الحبسية، تأكد مرينية الكثير من السقايات الموجودة في فاس وغيرها من مدن المغرب الأقصى، ففي فاس سقاية ابن حيون، أول حي المحفية، ثم سقاية سوق العطارين بجوار موضع مستشفى فرج، وهذه تتوجها كتابة تذكر أن الآمر بإنشائها هو عبد الحق آخر سلاطين بني مرين على يد وزيره أبي زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي، وكَمُلَ تشييدُها وفُجِّرَ ماؤها أول جمادى الأولى

---

(١) المرجع نفسه، ص١٢٠.

(٢) الأنصاري: اختصار الأخبار، ص٣٩.

(٣) محمد المنوني: دور الأوقاف المغربية في عصر بني مرين، ص٣٣.

(٨٤٠هـ/١٤٣٦م)، ثم اختفت وجددت سنة (١٠٩٠هـ/ ١٦٨٠م) [١]،ويوجد في بعض الحولات الحبسية ذكر لأسماء هذه السقايات بمدينة فاس:

- سقاية رحبة صفاح العدوة.
- سقاية حارة قيس.
- سقاية تغر (كذا) بالفخارين.
- فيض نقير الصباغين.
- فيض ماء سقاية البليدة.
- فيض سقاية غدير الجوزاء. [٢]

أما مكناس، ففيها سقاية المستشفى العناني عن يسار مدخله في حي حمام الجديد، ويرجح أنها من آثار أبي عنان باني المستشفى، ثم سبيل السويقة، ويعرف بسقاية سبعة عنابب تلميحًا لعدد أنابيبها، وكانت تعرف قديمًا بالسقاية الكبرى، وسقاية الجمعة: وهي مبنية في قاعة عريضة مستطيلة، يغطيها سقف عالٍ محمول على ثلاثة أساطين، ومازالت تحتفظ بأثر الفن المريني في زليج واجهتها، وفي زخرفة سقفها الخشبي بالنقش، ضمن الحوالة الحبسية للمساجد الصغار بمكناس[٣].

وفي الرباط، سقاية المارستان العزيزي بالسويقة، وقد اندرجت بقعتها ضمن بناية كبرى حديثة، مكانها الآن مكتبة المعارف، وذلك خلال الثمانينيات الهجرية الأخيرة، وقد أثبت مرينية هذه السقاية[٤].

وقد ضرب السلطان أبو الحسن الرقم القياسي في تجهيز المغرب بالسقايات، وذلك ما لاحظه علي ابن فرحون المدني حين زار المغرب، فسجل :"ما مررت في بلاد المغرب بسقاية، ولا مصنع من المصانع التي يعسر فيها تناول المياه للشرب

([١]) المرجع نفسه، ص٣٣.
([٢]) المرجع نفسه، ص٣٣.
([٣]) المرجع نفسه، ص٣٣.
([٤]) المرجع نفسه، ص٣٣.

والوضوء، فسألت عنها إلا وجدتها من إنشاء السلطان أبي الحسن رحمه الله"، ويزكي ابن مرزوق هذه الشهادة قائلا: "وصدق، فإن أكثر السقايات المعدة للاستسقاء وشرب الدواب بفاس وبلاد المغرب، معظمها من بنائه" (١).

العمارة العسكرية:

شكلت مسألة التحصينات خلال العهد المريني نقطة بارزة في سياسيتهم الدفاعية؛ فانتشرت التحصينات على طول البلاد، وتم ترميم كثير من المنشآت العسكرية، وتشييد أخرى، فاهتموا ببناء قلاع ساحلية لمواجهة القرصنة الأوربية، حيث شيدوا أربعة حصون شاهقة بسبتة، ومجموعة من القلاع الممتدة من أسفي إلى مدينة الجزائر، كما حصنوا جبل طارق، و بنوا قصبة تطوان، وقلعة دبدو وغيرها. وتعد قصبة شالة مثالًا حيًّا في مجال التحصين واختيار الموضع الجغرافي بإطلالتها على وادي أبي رقراق؛ جعلها تؤمن الأراضي المجاورة للوادي، وتميزت القصبة بإحاطتها بالأسوار ذات الأبراج، بلغ عددها اثنين وعشرين برجًا للمراقبة موزعة على طول الأسوار، وقد شيدت لأغراض دفاعية محضة، حيث اتخذت الأسوار شكلًا مخمس الأضلاع غير منتظم (شكل٤)، وتميزت بالارتفاع، وباب ضخم كسيت واجهته من الداخل والخارج بحجارة منحوتة. ومثال آخر بمدينة سلا التي أحاطها المرينيون بأسوار خاصة في الواجهة الغربية في عهد يعقوب بن عبد الحق، كما ذكر أبي زرع: "فلما خرج النصارا عنها بنا عليها السور الغربي الذي يقابل الوادي؛ لأنها كانت لا أسوار لها من تلك الجهة ... فسار في بنائه، فبناه من أول دار الصناعة إلى البحر"(٢)، ومن أهم التحصينات التي قام المرينيون ببنائها في سلا باب المريسة؛ أي باب المرسى الصغير، ويبلغ بروز برجيه ٢.٢٠ متر، وعرضهما ٣.٥٠ أمتار، ويتوسطهما قوس كبير منكسر الاستدارة، تصل فتحته إلى حوالي ٩ أمتار، وترتفع

(١) ابن مرزوق: المسند، ص٤١٧.
(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص ٣٠١.

قمته إلى ٩.٦٠ أمتار (شكل٥)[١]، وليس هناك شك أنه كان هناك تأثيرات أندلسية في مجال العمارة العسكرية المرينية، وقد صمم التحصينات الدفاعية المرينية بسلا هو المهندس المعماري الأندلسي المعلم "محمد بن علي الإشبيلي" الذي كان كما وصف الناصري: "من العارفين بالحيل الهندسية، ومن أهل المهارة في نقل الأجرام، ورفع الأثقال، بصيرًا باتخاذ الآلات الحربية الجافية"[٢].

خاتمة : **خلص البحث إلى عدة نتائج منها**:

١- ازدهرت فنون العمارة والبناء في العصر المريني وتنوعت ما بين عمارة مدنية متمثلة في القصور والمدن، والعمارة الدينية المتمثلة في المساجد وغيرها من مجالات العمارة كالمدارس والبيمارستنات والسقايات والفنادق والتحصينات الكبرى.

٢- كانت المؤثرات الأندلسية من أقوى المؤثرات على أشكال وفنون العمارة في العصر المريني.

٣- توصي الدراسة بأن يولى الباحثين جوانب العمارة المرينية بالمزيد من الدراسة والبحث.

(١) https://al3omk.com/553281.html

(٢) الناصري: الاستقصا، ج٣،ص٢٢.

الملاحـــق

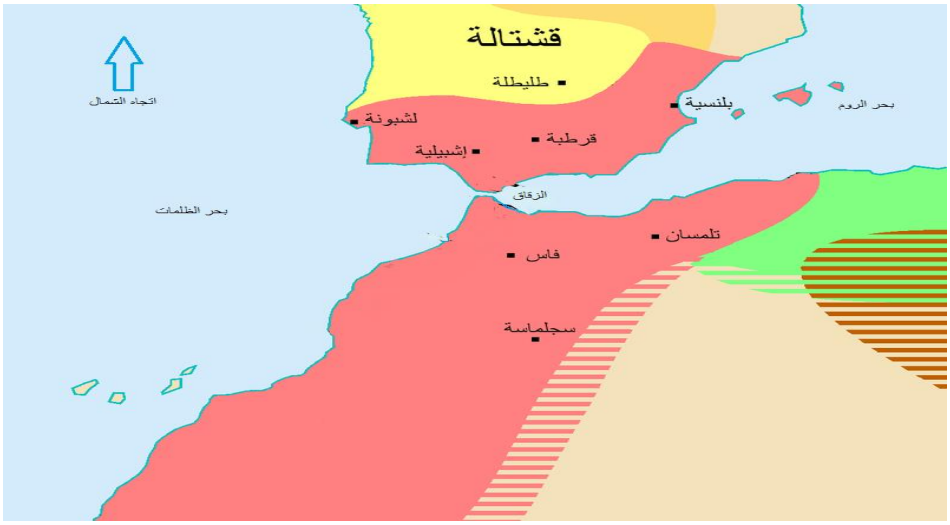

خريطة(١) التقارب بين المغرب والأندلس

https://ar.wikipedia.org/wiki

شكل (١)الجامع الكبير بفاس

https://jbhsc.ae/wp-content/uploads/2020/09/magazine-187acf791561195062103818 61.jpg

(شكل ٢) ثريا الجامع الكبير بفاس
https://jbhsc.ae/wp-content/uploads/2020/09/magazine-187acf791561195062103818 61.jpg

شكل(٣) مارستان سيدي فرج
http://www.al-anssar-world.com/Portail/2015/4194

شكل(٤)تحصينات شالة

https://www.mamlakapress.com

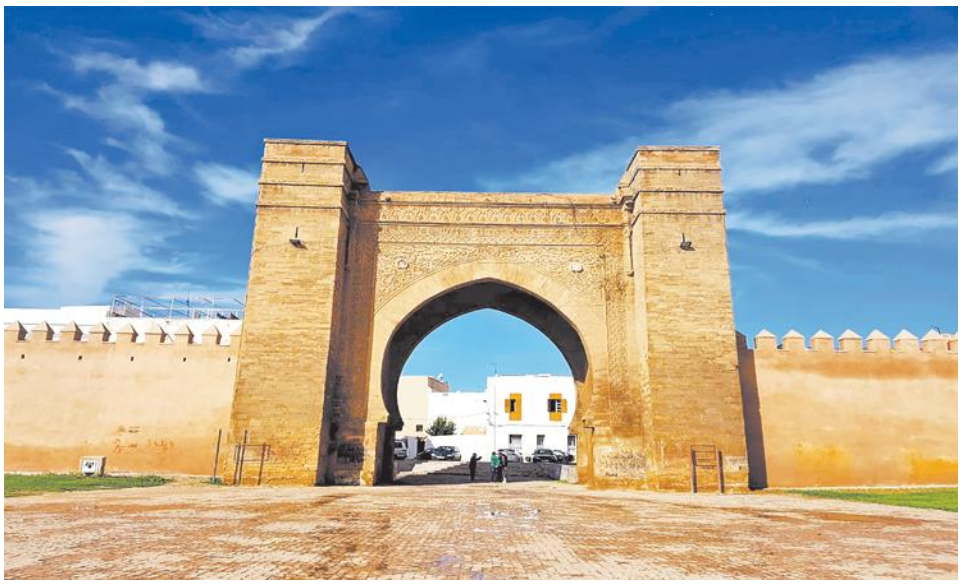

شكل (٥) باب المريسة بسلا

https://alittihad.info

عمارة مدينة الدرعية من خلال كتابات وليام فيسي
" William Facey"
١١٥٧-١٣٣٦هـ/١٧٤٤-١٩١٧م

أ.د/ أحلام علي أحمد أبوقايد
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
بجامعة أم القرى

ملخص :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ..

فإن البناء العمراني سمة من سمات التقدم الحضاري في المدن والدول على مر العصور. في بحثنا هذا سنتطرق إلى هذا البناء لعاصمة الدولة السعودية الأولى مدينة الدرعية التي ازدهرت في فترة تلك الدولة وأصبحت تضاهي بتطورها المعماري مدن أخرى كبرى وعواصم لدول سياسية ذات شأن كبير .

ولكن ذكرنا للدرعية وبنائها وعمارتها من خلال كتابات وليام فيسي في كتابه (الدرعية والدولة السعودية الأولى) .

وقد تم تقسيم هذا البحث الموسوم (عمارة مدينة الدرعية من خلال كتابات وليام فيسي "William Facey" ١١٥٧-١٣٣٦هـ/١٧٤٤-١٩١٧م) إلى التالي:

التمهيد: أشكال العمارة في نجد قبل ظهور الدرعية .

١- صعود مركز الدرعية في شبه الجزيرة العربية .

٢- مستوطنات الدرعية وتطوراتها الحضارية من وجهة نظر وليام فيسي .

٣- البناء العمراني للدرعية العاصمة .

الخاتمة – الملاحق – والنتائج – التوصيات – قائمة المصادر والمراجع .

أرجو من الله العلي القدير التوفيق والسداد في كتابة البحث وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . هذا وبالله العون والسداد ،،،

Abstract:

Praise be to Allah, Lord of the Worlds, prayers and peace be upon the most honorable prophet and messengers, our master Muhammad, all his family and companions.

Urban construction is one of civilized progress features in cities and countries over eras. In this research, we will address this construction of the capital of the first Saudi state, the city of Diriyah, which flourished during the period of that state and became comparable in its architectural development to other major cities and capitals of great importance political states.

But we mentioned Diriyah and its construction and architecture through the writings of William facey in his book(Diriyah and the First Saudi State).

The current research entitled (Diriyah City's architecture through William Facey, writings (1157-1336H / 1744-1917G), has been divided into:

Preface: Architectural Forms in Najd before the emergence of Diriyah.

1. The prominence of Diriyah center in the Arabian Peninsula.
2. Diriyah settlements and their civilizational developments from William Facey's point of view of
3. Urban construction of the capital Diriyah.

Conclusion-Appendices-Findings-Recommendations-List of Sources and References.

I pray God Almighty for success

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين..

فإن البناء العمراني سمة من سمات التقدم الحضاري في المدن والدول على مر الأزمان، وفي بحثنا هذا سوف نتطرق إلى هذا البناء لعاصمة الدولة السعودية الأولى مدينة الدرعية التي ازدهرت في فترة تلك الدولة وأصبحت تضاهي بتطورها المعماري مدن أخرى كبرى وعواصم لدول سياسية ذات شأن كبير.

ولكن ذكرنا للدرعية وبنائها وعمارتها من خلال كتابات وليام فيسي في كتابه (الدرعية والدولة السعودية الأولى).

ووليام فيسي (William Facey) هذا هو مدير مركز لندن للدراسات العربية والمؤرخ المختص في منطقة شبه الجزيرة العربية، وقد قدم سلسلة من المؤلفات التي تؤرخ لمناطق المملكة ومن ذلك كما ذكرنا سابقا كتابه (الدرعية والدولة السعودية الأولى) الصادر من مؤسسة التراث برعاية الشيخ عبد الله بن سعد الراشد والذي يعد من المؤلفات التاريخية التي استعرضت مدينة الدرعية وتاريخها وحياة الناس الذين عاشوا فيها والمجتمع الذي ازدهر في ظل الدعوة الإصلاحية، كما تضمن الكتاب وصفا كاملاً للدرعية مدعمة بصور فوتوغرافية لمواقع متنوعة. يتصدر الكتاب تقديمًا لرئيس مؤسسة التراث صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز – يحفظهما الله– أشار فيه إلى أن مدينة الدرعية تحتل مكانة خاصة في تاريخ المملكة العربية السعودية، ولذلك فقد ظلت رمزًا للأصالة والتراث. ثم أعقب ذلك تمهيدًا للشيخ عبدالله الراشد مبرزًا فيه مكانة الدرعية التاريخية التي تعد المحطة الأولى للدولة السعودية، والمنطلق الذي أشرقت من أصالته المملكة على يد الملك عبد العزيز– يرحمه الله– لتكون محط اهتمام أبنائه من بعده الذين قدموا لها كل دعم وعناية.

ذكر وليام فيسي في المقدمة ص٢٠ أن الآثار المتبقية في مدينة الدرعية

التي كانت عاصمة الدولة السعودية الأولى بمثابة الرمز الأثري الرئيس، إضافة إلى أن أهمية الدرعية المعنوية تتعدى بكثير أهميتها المادية بوصفها مدينة نجدية تقليدية؛ وذلك لأنها تمثل في ظل الأئمة الأوائل من آل سعود والمصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب – يرحمه الله– مجتمعًا إسلاميًّا حقق نجاحًا يفوق ما أحرزه أي مجتمع إسلامي.

يحتوي الكتاب على ٢٢٤ صفحة موزعة على اثني عشر فصلًا، تناول فيها الطبيعة الجغرافية والمناخية للدرعية والمستوطنين من البدو الرحل، وأساليب البناء والصيانة فيها، وبداية تأسيسها، مستعرضًا أيضًا دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب – يرحمه الله– وتكوينها الأولى هناك والحملات التي شنها العثمانيون على الدرعية في فترة من الفترات. وتأتي أهمية كتابات وليام فيسي من خلال النقاط التالية:

- أن الدرعية مدينة ذات أهمية معنوية تتعدى أهميتها المادية .
- أن كتاب وليام فيسي (الدرعية والدولة السعودية الأولى) من الكتب شديدة الأهمية التي حفظت للمطلعين والباحثين من خلال فصوله ومباحثه الكثير من تاريخ هذه المدينة والعاصمة الأولى للدولة السعودية الأولى .
- أن كتاب وليام فيسي(الدرعية والدولة السعودية الأولى) تناول من خلال الاثنى عشر فصلاً الطبيعة الجغرافية والمناخية للدرعية والمستوطنين من البدو الرحل، وأساليب البناء والصيانة فيها، وبداية تأسيسها .

كما تم استعراض دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب – يرحمه الله– والتكوين الأولى لهذه المدينة والحملات التي شنها العثمانيون بعد ذلك لمحاولة إنهاء وجود الدولة السعودية الأولى .

وقد تم تقسيم هذا البحث الموسوم (عمارة مدينة الدرعية من خلال كتابات "وليام فيسي" William Facey ١١٥٧-١٣٣٦هـ/١٧٤٤-١٩١٧م) إلى التالي :

التمهيد : أشكال العمارة في نجد قبل ظهور الدرعية.

١- صعود مركز الدرعية في شبه الجزيرة العربية .

٢- مستوطنات الدرعية وتطوراتها الحضارية من وجهة نظر وليام فيسي.

٣- البناء العمراني للدرعية العاصمة.

الخاتمة – الملاحق – والنتائج– والتوصيات.

الكلمات المفتاحية للبحث: عمارة مدينة الدرعية – وليام فيسي– مستوطنات الدرعية – عمارة شبه الجزيرة العربية .

أرجو من الله العلي القدير التوفيق والسداد في كتابة البحث وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ. د/ أحلام علي أحمد أبوقايد

التمهيد:

أشكال العمارة في نجد[١] قبل ظهور الدرعية[٢]:

من المعلوم الطبيعة الصحراوية التي تتميز بها منطقة نجد، ولذلك فالبناء الطيني هو الأنسب لتلك البيئة الصحراوية ذات المناخ القاري حيث حرارة الشمس وقلة الأمطار[٣]. لما يتميز به الطين من برودة في الصيف ودفء في الشتاء[٤].

وتقوم العمارة في نجد قبل ظهور الدرعية العاصمة المزدهرة للدولة السعودية الأولى[٥] وحاضرة نجد في ذلك الوقت، على مكونين رئيسين هما الطين وشجرة[٦]

---

(١) نجد: إحدى أقاليم شبه الجزيرة العربية التاريخية وأكبرها مساحة، وهي موطن تاريخي لنشأة المملكة العربية السعودية ومن قبلها الدولة السعودية في فترتها الأولى والثانية. انظر: عويضة الجهني، نجد قبل حركة الإصلاح السلفية، ط١(الرياض: اثيكابرس بالتعاون مع دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م)، ص ص ٢٧-٣١.

(٢) الدرعية: تقع في إقليم العارض باليمامة وتتبع إداريًّا منطقة الرياض وهي العاصمة الأولى للدولة السعودية في فترتها الأولى وظلت كذلك حتى دمرت على يد جنود محمد علي باشا. انظر: عثمان الصالح الصوينع، العاصمة التاريخية للدعوة للسلفية الدرعية، ط١(الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، ص ص ٢٠-٢٢. انظر ملحق رقم (١٣) ص ٣١٨ .

(٣) عثمان بن عبد الله ابن بشر النجدي الحنبلي، عنوان المجد في تاريخ نجد، حققه وعلق عليه عبدالرحمن بن عبد اللطيف بن عبدالله آل الشيخ، ج١، ط٤(الرياض: مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص ص ٧٢-٧٣.

(٤) سليمان بن صالح الدخيل النجدي، البحث عن أعراب نجد وما يتعلق بهم، تحقيق مهدي عبد المحسن النجم، د.ط (د.م: الدار العربية للموسوعات، د.ت)، ص ص ١٢- ١٣.

(٥) الدولة السعودية الأولى: قامت في نجد من شبه الجزيرة العربية بعد الاتفاق الشهير بين الإمام محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب واستمرت قائمة وممتدة حتى تم إنهاؤها على يد جيوش الدولة العثمانية.انظر: أمين سعيد، تاريخ الدولة السعودية،ج١،د.ط (د.م: دار الكتاب العربي، د.ت)، ص ٥٥.

(٦) شجرة الأثل: الأثل أو النضار أو الفاروق أو الطرفاء نوع من النباتات تنتشر في غرب آسيا واليمن وبلدان حوض المتوسط. انظر: محمديان كوخردي محمد، المعجم الكبير، ج١، =

الأثل. حيث تم الحصول على الطين من حواف الأودية، وتبدأ العمارة بأن يقوم الشتاد (المهندس) الذي يخطط الأرض بعمل الأساسات المبدئية لشكل البناء المراد إنجازه(١)، وهذا يكون في المباني الكبيرة داخل البلدان وممن يمتلك أصحابها مبالغ مادية كبيرة تمكنهم من التوسع في البناء في ذلك العصر الذي كانت فيه سبل الحياة صعبة وطرقها غير متوفرة(٢).

أما المباني الصغيرة ومباني بعض ملاك المزارع، فيقوم أصحابها بخطها حسب رغبته وإمكانياته المادية(٣).

عمومًا، فقد كانت العمارة في نجد قبل فترة الدراسة وحتى خلالها على ثلاثة أنواع:

١- العروق : ويكون بتخمير الطين بالماء من الليل، وعند الصباح الباكر، يقوم رجل مختص وقوي البنية بخلط الطين مع التبن، فيحرك الخلطة ويقبلها حتى تكون لزجه ومتماسكة وجاهزة(٤)، وبعدها يقوم مجموعة من العمال بعمل كور متعددة من ذلك الطين، حيث يتم مناولتها بعد الانتهاء من مرحلة الكور للشتاد أو المهندس الذي يبدأ البنيان من الأرض أو (الساس)، فيضرب هذه الكور بقوة لتتماسك مع بعضها البعض، وهكذا حتى يكتمل البنيان(٥).

=

د.ط (القاهرة: مجمع اللغة العربية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)، ص ص ٤١٢، ٤١٥.

(١) محمد شاكر الألوسي، تاريخ نجد، تحقيق وتعليق محمد بهجة الأثري، د.ط (القاهرة: دار الرواق، د.ت)، ص ص ١٥- ١٧.

(٢) سليمان الدخيل، البحث عن أعراب نجد، ص ص ٢٤- ٢٥.

(٣) محمد الألوسي، تاريخ نجد، ص ص ٢٩- ٣٢.

(٤) سليمان بن صالح الخراشي، تاريخ نجد من خلال كتاب الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ط١ (الرياض: الدار العربية للموسوعات، د.ت)، ص ص ٢٤ – ٢٧.

(٥) أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث، ط١(بيروت: دار الجيش، د.ت)، ص ص ٣٣-٣٥.

وحقيقة هذه النوع من البناء يتميز بقوته وتحمله لهذا يحرص سكان الحواضر أو المدن على بناء الأسوار والمباني العالية بهذه الطريقة لضمان تماسكها واستمرار بقائها في أصعب الظروف(١).

٢- اللبن: وذلك بعد تخمير الطين وخلطها مع التبن، ويوضع في قالب خشبي يسمى (الملبق)، وبعد جفاف اللبن داخل تلك القوالب الخشبية يقوم الشتاد أو المهندس بعمل الأساسات للمنزل أو البناء بطريقة العروق ثم يصف فوقه اللبن بعضها فوق بعض مثل البلوك المعروف الآن(٢)، ويتم سد الثغرات والألصاق بواسطة الطين الحي(٣).

وهذا النوع من البناء يتميز بسرعة الإنجاز، حيث يتم تلبسيها بعد اكتمال البناء بما يسمونه بلهجة المنطقة (التشبيع) (٤).

٣- أما النوع الثالث من البناء، فهو مبسط جدًّا ولا يحتاج إلى مهارة كبيرة بل يقوم جميع العمال بوضع الحجارة وبينه الطين لتتماسك، وهو يستخدم عند الفئة ذات القدرات المالية الضعيفة والمتدنية(٥). وجرت العادات أن يستخدم نفس طريقة البناء هذه في أحواش البهائم أيضًا (٦).

وفي هذا النوع من البناء، يوضع ساكف للباب، وهو عبارة عن خشبتين أو ثلاث من الأثل بعرض الباب لحماية الباب من التصدع والسقوط مع تغيير

---

(١) عثمان بن بشر، عنوان المجد، ج١، ص ص ٧٥- ٧٧.
(٢) أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث، ص ص ٤٠-٤٢.
(٣) عثمان الصوينع، العاصمة التاريخية، ص ص ٢٤- ٢٥.
(٤) سليمان الدخيل، البحث عن أعراب نجد، ص ص ٥٥- ٥٧.
(٥) حسين حسني، مذكرات ضابط عثماني في نجد – الأوضاع العامة في منطقة نجد-، ترجمة وتعليق سهيل صابان، ط١(بيروت: دار الكتب، د.ت)، ص ص ٢٠-٢٢.
(٦) حسين عارف الزغول، مواد البناء، ط١(بيروت: دارة مجدلاوي، د.ت)، ص ص ١٢- ١٥.
١٥.

الأجواء والعوامل المناخية[١].

ثم تأتي بعدها مرحلة (التحنيك أو الحناك) وهو وضع الخشب (الأثل) للسقف، حيث توضع بشكل متوازن مع الحرص على وجود ميول إلى أحد الجهات تحسبًا لنزول الأمطار[٢]. وفوقها توضع العسبان – مفردها عسيب وهو غصن النخلة– ثم يوضع من فوقها الطين القاسي بشكل متكامل ومتساوٍ، وبعدها بيوم توضع طبقة أخرى من الطين الناعم مع الحرص على تركيب المثعب– المزراب– لضمان خروج المطر من السطح[٣].

وأخيرًا، يوضع الماء والتمرير عليه بأرجلهم وأقصد بهم العمال حتى يتلاحم جيدًا وتسمى هذه العملية (التنعيل) [٤].

وبعد هذه المرحلة، يقومون بعمل سترة للسطح تسمى(الحجا)، ويكون ارتفاعها كافيًا لستر الأسرة عن الجيران[٥]، حيث كانت معظم الأسر تستخدم الطابة– السطح– للنوم في فصل الصيف؛ نظرًا للحرارة الشديدة في المنطقة والبرودة النسبية للأسطح في فترات المساء ووقت بزوغ الفجر[٦].

أما العناصر المعمارية في العمارة النجدية، فتمثلت في ثلاثة عناصر رئيسة هي:

١– عناصر البنية المعمارية التي تكون المبنى مثل الأسقف والحوائط والعقود[٧].

---

(١) عبد الله الصالح العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ط١(الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٢م)، ص ص ٧٥ – ٧٧.

(٢) إبراهيم بن عيسى، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، ط١(الرياض: دار اليمامة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، ص ص ٤٠ – ٤٥.

(٣) حسين الزغول، مواد البناء، ص ص ٢٤– ٢٥.

(٤) حسين حسني، مذكرات ضابط عثماني في نجد، ص ص ٢٤– ٢٥.

(٥) أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث، ص ص ٤٥– ٤٩.

(٦) سليمان الدخيل، البحث عن إعراب نجد، ص ص ٥٩ – ٦٢.

(٧) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ٨٠ – ٨٥.

٢- العناصر الزخرفية مثل الفرجات: وهي مثلثات غائرة متساوية الأضلاع[١]. والطاف هي مثلثات مستوية رؤوسها البارزة للأسفل[٢].

٣- عناصر ونقوش معمارية على الأبواب والنوافذ[٣].

وبالنسبة إلى أقسام البيوت النجدية قبل وخلال فترة الدراسة.

فهي كالتالي :

١- القهوة وجمعها قهاوي وتسمى أيضًا الدكة أو الديوانية كما يطلق عليها اليوم. وتعتبر من أهم أجزاء البيت النجدي بشكل خاص والبيت العربي بشكل عام[٤].

٢- الليوان وهو عبارة عن رواق ملاصق للقهوة ويفضل في معظم الأحيان بنائه في جهة الشمال حيث هبوب الهواء ويستخدم للجلوس فيه وقت الصيف[٥].

٣- الخابية غرفة صغيرة خلف الديوانية – القهوة – وتعتبر مستودع للحطب وفي بعض الأحيان يكون فيها باب صغير لداخل البيت [٦].

٤- الموقد أو المطبخ ويكون في أحد زواياه حوض للحطب وأوتار لتعليق الأدوات وكذلك رفوف وشنطة حديد للأواني المنزلية على أن لا يخلو من فتحات في السقف لضمان خروج الدخان وقت الطبخ وإشعال الحطب[٧].

٥- الصفة وجمعها صفاف وهي غرف بدون نوافذ إلا فتحتين في الأعلى وتسد تلك الفتحات في فصل الشتاء وعادة ما تستخدم للنوم [٨].

---

(١) محمد الألوسي، تاريخ نجد، ص ص ٣٩ – ٤٢.
(٢) حسين حسني، مذكرات ضابط عثماني في نجد، ص ص ٢٥- ٢٩.
(٣) حسين الزغول، مواد البناء، ص ص ٢٩ – ٣٢.
(٤) أمين سعيد، تاريخ الدولة السعودية، ج١، ص ص ٥٦- ٥٩.
(٥) أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث، ص ص ٥٢- ٥٤.
(٦) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص٤٥-٤٩.
(٧) حسين الزغول، مواد البناء، ص ص ٣٥- ٤٢.
(٨) حسين حسني، مذكرات ضابط عثماني في نجد، ص ص ٣٢-٣٥.

٦- الحوش ويسمونها سكان المنطقة الحوى أو القوع ويتميز بوجود نخلة أو نخلتين وربما منطقة مخصصة لأنعامهم حسب اقتدار الأسرة[١]. وعادة ما يكون للبيت النجدي بابين بابان: للقهوة لدخول الضيوف، والآخر في الحوش لدخول بقية أفراد الأسرة خاصة النساء[٢].

٧- الدهليز وهو ممر مفتوح بين غرفتين أو أكثر[٣]

٨- الكنيف غرفة صغيرة لقضاء الحاجة وتبنى بالعادة في أطراف البيت[٤].

٩- الأبواب وكما ذكرنا سابقًا يستخدم لصفها خشب الأثل لقوته ومقاومته للظروف المناخية المختلفة[٥].

١٠- الطُرمة عبارة عن بناء صغير على شكل مخروطي وفي أسفله فتحات تكون فوق الباب لمعرفة من يقف خلفه من الخارج[٦].

وعمومًا، هناك اختلافات نسبية بين كل بلدة وأخرى في طرق البناء وتقسيمات الغرف الداخلية في نجد.

---

(١) حسين الزغول، مواد البناء، ص ص ٤٢- ٤٣.
(٢) أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث، ص ص ٥٥-٥٩.
(٣) أمين سعيد، تاريخ الدولة السعودية، ج١، ص ص ٥٩- ٦٢.
(٤) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ٥٢- ٥٤.
(٥) حسين الزغول، مواد البناء، ص ص ٤٥- ٤٩.
(٦) أمين سعيد، تاريخ الدولة السعودية، ج١، ص ص ٦٢- ٦٥.

المبحث الأول : صعود مركز الدرعية في شبه الجزيرة العربية:

صارت الدرعية بفضل جهود الأمام محمد بن سعود[١] واتفاقه الشهير– اتفاق الدرعية – أو الميثاق كما يطلق عليه وليام فيسي[٢] (William Facey)، سنة ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب[٣] مركز الدعوة الإصلاحية السلفية المتحمسة التي غيرت مجرى تاريخ شبه الجزيرة العربية الحديث[٤].

ونقلا عن كتاباته أي وليام فيسي في كتابه (الدرعية والدولة السعودية الأولى) واصفًا أقوال المعاصرين الأوربيين عن تزايد نفوذ الدرعية على حد رأيهم مايلي:(اعتبر المراقبون الأوربيون المعاصرون من أمثال نيبور[٥] (Nebuhr) وبريدجز[٦] (Brydges) وبوركهارت[٧] (Burckhardt) أن عقيدة الدعوة الجديدة

---

(١) الإمام محمد بن سعود: بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع بن ربيعة المريدي، إمام ومؤسس الدولة السعودية الأولى، توفي في عام ١١٧٩هـ/١٧٦٥م. انظر: إسماعيل بن سعد بن عتيق، أعلامنا في سجل التاريخ(٢) الإمام محمد بن سعود،ط١(الرياض: دار الهداية، د.ت)، ص ١٦.

(٢) وليام فيسي: مدير مركز لندن للدراسات العربية. انظر: وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ط١(لندن: مركز لندن للدراسات العربية، د.ت)، ص ص ٢٢– ٢٣.

(٣) محمد بن عبد الوهاب: ولد في العيينة عام ١١١٥هـ/١٧٠٣م لأسرة علمية، وهو مجدد العصر الحديث وقد ألف العديد من المؤلفات وتوفي عام١٢٠٦هـ/١٧٩١م. انظر:سليمان بن عبد الرحمن الحقيل، حياة محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته، ط١(د.م: د.ن، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)، ص ٢٠–٢٢.

(٤) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ٥٥– ٥٦.

(٥) نيبور: كاريس الألماني الأصل والذي عمل في خدمة الدولة الدنماركية، وقد اشترك في رحلة كان هدفها كتابة تقرير علمي واجتماعي شامل عن شبه الجزيرة العربية. انظر: عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية١٥٠٠– ١٨٤٠م، ج١، ط١(د.م: دار الساقي، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م)، ص ص ٧٢–٧٥.

(٦) بريدجز:هارفور جوتز اهتم جدًا بخدمة شركة الهند الشرقية الإنجليزية وتعلم العديد من اللغات الشرقية. من أهم مؤلفاته (موجز لتاريخ الوهابي). انظر:أحلام علي أحمد أبوقايد، الدولة السعودية الأولى من خلال كتابات الرحالة والمستشرقين البريطانيين عرض وتحليل ونقد، ط١(القاهرة: شركة دار المدبولي، ١٤٤٣هـ/٢٠٢١م)، ص ص ١٦٥–١٧٦.

(٧) بوركهارت: رحالة ومؤرخ سويسري ادعى الإسلام وأطلق على نفسه إبراهيم بن عبد الله، توفي سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٧م.انظر: يوهان بوركهارت، رحلة من مكة إلى المدينة،ط١(د. م: د. ن، د. ت)، ص ٢٢.

الجديدة لم تكن أكثر من المبادئ الأساسية للإسلام، ولكن الطريقة التي اختارتها الدعوة لنشر رسالتها كانت هي التي أدت إلى نشوء الذعر وسوء الفهم لدى البعض) [١].

وحقيقة، فهذا الأمر لايمكن تطبيقه على الإصلاح والمناداة بالحق وضرورة العودة إلى ماكان عليه السلف الصالح والذي تضافرت جهود الإمام محمد بن سعود مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب لتطبيقها في نجد بشكل عام مما أفزع الحكومة البريطانية وباتت تترقب المستجدات في الدرعية والحق أن العلماء واتباع الدولة السعودية الأولى كانوا حريصين على دحض تهمة الانحراف عن الإسلام بالمجادلة للبرهنة على نقاء العقيدة السلفية[٢].

ولكن كما جاء على لسان وليام فيسي في نفس الكتاب بموضع آخر: (أن الخطر الذي شكلته الدرعية ببساطة في التهديد الناجم عن السعي التقليدي للاستحواذ على السلطة أو التهديد الذي تشكله عشيرة تسعى للإطاحة بأخرى)[٣].

ولاغرابة في مثل ذلك الرأي الذي يشكل فيسي دفاعًا عن مصالح حكومته في المنطقة. فمن المعلوم أنه كما زاد اتساع حدود الدرعية وتصاعدت قوتها معنى ذلك أنه أصبح يهدد الأطماع التوسعية، وهو ما تحلم به حكومة التاج البريطاني وتسعى بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة لتنفيذه [٤].

وقد وطدت الدرعية مكانتها في نجد، مع أواخر عام ١١٩٥هـ/١٧٨٠هـ إلى الحد الذي استطاعت معه أن تحول أنظارها بثقة إلى خارج نجد[٥]، فقد انتشرت

---

(١) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ٧٥–٧٧.
(٢) عثمان الصوينع، العاصمة التاريخية، ص ص ٣٩–٤٢.
(٣) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١٠٥–١٠٦.
(٤) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ٥٥– ٥٧.
(٥) عبد الله الصالح العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية، ج١،ط١٧(الرياض: د.ن، =

العدالة وتعزز النظام العام فيها في ظل حكم الإمام محمد بن سعود ومن بعده ابنه الإمام عبد العزيز[١] وحفيده الإمام سعود[٢] الكبير كما أطلق عليه، وباتت الدرعية هي البوتقة أو المحور التي جرت فيها محاولات التطبيق العملي للدعوة على الصعيدين السياسي والاجتماعي[٣].

ونظرًا للاهتمام الشديد من حكومة التاج البريطاني في الهند[٤] بما يجري بالدرعية وصعود مركزها الملاحظ في شبه الجزيرة العربية بشكل عام ونجد بشكل خاص حرص رئيس الوكالة البريطاني كما يصف فيسي والمدعو صموئيل مانستي[٥] (Samuel Manesty)) على إيفاد جون لويس[٦] رينود (John

---

=

١٤٣٥هـ/٢٠١٤م)، ص ص ٦٩-٧٢.

(١) الإمام عبد العزيز: ابن محمد بن سعود ثاني أئمة الدولة السعودية الأولى، ولد عام ١١٣٣هـ/١٧٢١م وتولى الحكم بعد وفاة والده، قتل اغتيالاً على يد أحد الشيعة في عام ١٢١٨هـ/١٨٠٣م عن عمر يناهز الثلاثة والثمانين عامًا. انظر: منير العجلاني، تاريخ البلاد العربية السعودية، ج٢،ط١(الرياض: د. ن، د.ت)، ص ص ١٠٢-١٢٤.

(٢) الإمام سعود بن عبد العزيز: أو كما يطلق عليه الإمام سعود الكبير، اتسعت الدولة السعودية الأولى في عهده اتساع كبير، وتوفي في عام ١٢٢٩هـ/١٨١٤م. انظر: محمد بن سعد الشويعر، نشأة الدولة السعودية، ط١(الرياض: العبيكان، د.ت)، ص ص ١٩-٢٠.

(٣) أمين سعيد، تاريخ الدولة السعودية، ج١، ص ص ٧٢-٧٥.

(٤) الهند: رسميًا جمهورية الهند بلد في جنوب آسيا، تعد ثاني أكبر دولة من حيث السكان وسابع أكبر دولة من حيث المساحة. انظر: عتيق أنور صديقي، تاريخ الهند ثقافتها وفنونها الجميلة، ترجمة حبيب الله خان، ط١(د.م: مؤسسة الفكر العربي، د.ت)، ص ص ٢٢-٢٥.

(٥) صموئيل مانستي: وكيل الشركة التجارية لشركة الهند الشرقية البريطانية في البصرة ثم في الكويت، وهو الذي كلف بعثة رينود لمقابلة الإمام عبد العزيز في الدرعية. انظر: عبد الله الصالح العثيمين، العلاقات بين الدولة السعودية الأولى والكويت، ط٢(الرياض: د.ن،١٤١١هـ/١٩٩٠م)، ص ص٢٥-٢٧.

(٦) جون لويس رينود: مساعد القنصل البريطاني في البصرة بوصفه أول مبعوث سياسي يرسل

=

(Lewis Reinaud إلى الدرعية للوقوف بأم عينيه على أبرز المستجدات فيها من تطورات عسكرية وحضارية وخلافه[١].

وقد وصل رينود إلى هناك بين عام (١٢٠٨-١٢١٠هـ / ١٧٩٣-١٧٩٥م) وقال في مضمون وصفه لهذه المدينة الزاهرة : «الدرعية مدينة صغيرة، ولكنها مبنية بناءً جميلاً على الطرف العربي، وموقعها يجعلها مكانًا صحيًّا للمعيشة. ويوجد في جوارها العديد من التلال المزروعة زراعة جيدة، والمنطقة كلها تروى من نهر صغير، ويجد المرء هنا بعض الفاكهة مثل العنب والتين وغيرهما، التي سمعت أن جميع السكان يأكلون منها قبل نضوجها»[٢].

ومن خلال ما أوضحه فيسي عن انطباعات رينود وتفاصيل زيارته للدرعية يتضح أنها كانت مدينة حضرية متطورة أخذه بأسباب المعيشة الحديثة ما أمكنها إلى ذلك سبيل على حسب مقتضيات الفترة التاريخية التي ظهرت فيها[٣].

ولكن السؤال الذي يبادر الباحث لما لم تذكر تفاصيل تلك الرحلة في كتب المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة من أمثال ابن غنام وابن بشر وابن عيسى وخلافهم ؟

وكما هو معلوم فقد تبوأت الدرعية صدارة طريق الحجاج إلى مكة المكرمة[٤]

=

إلى نجد لمقابلة الإمام عبد العزيز في الدرعية. انظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ط١(القاهرة: دار المعارف، د.ت)، ص ص ٧٢-٧٥.

(١) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١٠٥-١٠٧.

(٢) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١٠٥-١٠٧.

(٣) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ١٠٩-١١٠.

(٤) مكة المكرمة: المدينة المقدسة وبها المسجد الحرام والكعبة المشرفة قبلة المسلمين ومهو أفئدتهم، وكما هو معلوم فلها العديد من الأسماء المذكورة في القرآن الكريم كبكة- وأم القرى- والبلد الأمين- والبيت العتيق وغيرها الكثير. انظر: ابن ظهيرة القريشي =

ولهذا امتد سلطانها إلى عدد من قرى وادي حنيفة[١] وتحقق من خلالها الكثير من النجاحات وعلا شأنها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي[٢]. ونشطت في ربوعها الحركة العلمية. وغدت منارة للعلم ومقصدًا للعلماء وتقاطر التجار على أسواقها ونشطت فيها الحركة التجارية والاقتصادية، وظلت الدرعية أشهر مدينة في وادي حنيفة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين[٣].

ومع نمو الدولة السعودية الأولى واتساع رقعتها كانت قاعدتها الدرعية تنمو وتتسع وتزدهر حتى أصبحت قبلة لطلاب العلم، وملتقى للتجار والشخصيات الكبيرة من جهات كثيرة [٤].

ومن ناحية التطورات العسكرية فيها والبناء من هذا الجانب، فإن المصادر لم تشر إلى إقامة أسوار أو تحصينات قوية للدرعية في الفترة المبكرة التي تلت المبايعة– اتفاقية الدرعية السابقة الذكر– بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب، وربما كان من أسباب ذلك أن قادتها حينذاك كانوا يحاربون أمراء

=

المخزومي، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف(الباب السادس في نشأة مكة وفضلها وحكم مجاورتها)،ط١(د.م: مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ١٣٤٠هـ/١٩٢١م)، ص ١٠٤-١١٢.

(١) وادي حنيفة: يقع في منطقة العارض في نجد وسط المملكة العربية السعودية منطقة الرياض حاليًا وعلى ضفافه استوطنت منذ القدم قبائل متحضرة عملت بالزراعة والتجارة وبصقل الحرف اليدوية الأخرى. انظر: عبد الله الراشد، الاستيطان في وادي حنيفة من القرن الأول حتى منتصف القرن التاسع الهجري دراسة أثرية، د.ط (الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م)،ص ص ٢٥-٢٧. انظر الملحق رقم (٩-١٠) ٣١٥.

(٢) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ١١٢- ١١٥.

(٣) أمين سعيد، تاريخ الدولة السعودية، ج١، ص ص ٥٩-٧٢.

(٤) عثمان الصوينع، العاصمة التاريخية، ص ص ٩٩-١٠٢.

البلدان النجدية القريبة منها، ولم يكن لدى أولئك الأمراء من القوة العسكرية ما يستدعي إنشاء تحصينات جديدة(١).

لكن ما أن بدأت القوة التي هي أكبر حجمًا وغير النجدية في محاربتها حتى بذل قادتها جهودًا كبيرة لعمل التحصينات التي رأوها لازمة لحمايتها(٢).

قال ابن غنام(٣) في كتابه (روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعدد غزوات ذوي الإسلام) وهو يتحدث عن بناء أول سورين في الدرعية في عام ١١٧٣هـ/١٧٥٨م: «وقام عبد العزيز– حرسه الله تعالى – بالجد والاجتهاد، وشمر ساعده في البناء والاستعداد، فبنى على الدرعية سورين منفردين بالبروج، خشية التسور والعروج»(٤).

ومما تم إيراده يتضح أن بناء الأسوار كان في نهاية عهد الإمام محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية الأولى، ولكن الذي قام بالبناء ابنه عبد العزيز حينما كان هو المسؤول في عهد أبيه عن الأمور العسكرية(٥).

وكما يقول فيسي في كتابه :(أن بناء الأسوار لم يقتصر على إحاطة مساكن

---

(١) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ١٤٤–١٤٥.

(٢) أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث، ص ص ٥٤– ٦٩.

(٣) ابن غنام: حسين بن أبي بكر ولد في بلدة الميزر بالأحساء، ولم تذكر لنا المصادر سنة ولادته، وهو أحد فقهاء الأحساء، درس وتتلمذ على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، توفي بالدرعية في شهر ذي الحجة سنة ١٢٢٥هـ/١٨١١م. انظر: مؤلف مجهول، العقد الثمين في شرح أصول الدين، د.ط (د. م: د. ن ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م)، ص ص ٤٠٠–٤٠٢.

(٤) حسين بن غنام، تاريخ نجد المسمى روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعدد غزوات ذوي الإسلام، حرره وحققه ناصر الدين الأسد، قابله على أصوله عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ج١،ط١(الرياض: وزارة المعارف، د.ت)، ص ص ٧٢–٧٣.

(٥) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ١١٠– ١١٥.

البلدة، بل أن بعض المزارع في الدرعية كانت تحيط بها أسوار مستقلة)[١].

وهذا الوصف من فيسي يؤكد أنه نقله من أحد الرحالة الأوربيين الذين مروا بالبلدة ودخلوا إلى داخل ضواحي الدرعية، ولعل الأمر كان بعد تدمير وانقضاء عهد الدولة السعودية الأولى ووقوف أولئك الرحالة على ما تبقى من أطلالها وشواهدها[٢].

وكانت المواد التي تعمل منها الأسوار والأبراج كما تم إيراده في التمهيد سابقًا هي المواد المحلية التي تعمل منها المساكن، وهي الطين والحجارة وخشب الأثل وجريد النخل وسعفه والجص[٣].

ولكن المعلوم أن العادة جرت بأن يتعاون السكان جميعًا لبناء الأسوار، فالذي يستطيع العمل بيده قام به، والذي لديه مال أنفق منه لاستئجار من يقوم بالعمل[٤].

ومن شبه المؤكد أن الذين قاموا ونفذوا بناء أول سورين في الدرعية وأبراجهما بكل تفصيلاتهما كانوا نجديين كون أن الدولة لم يمتد نفوذها ويتسع ذلك الاتساع الذي لفت الأنظار إليها إلا في عهد الإمام عبد العزيز بن محمد[٥].

وقد استمر تصاعد دور الدرعية ونجاحاتها حتى وفاة الإمام سعود الكبير وتسلم زمام الأمور ابنه الإمام عبد الله بن سعود[٦].

---

(١) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١١٢– ١١٥.
(٢) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ١١٥– ١١٦.
(٣) حسين الزغول، مواد البناء، ص ص ٢٩–٣٢.
(٤) أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث، ص ص ٥٢– ٥٤.
(٥) عثمان الصوينع، العاصمة التاريخية، ص ص ١٠٥–١٠٧.
(٦) عبد الله بن سعود: آخر أئمة الدولة السعودية الأولى والحاكم الخامس من أسرة آل سعود وأمير الدرعية واجه حملات كبرى من الدولة العثمانية بقيادة والي مصر محمد علي باشا والتي انتهت باستسلامه رغم كل الجهود التي بذلها وأعدم سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٨م . انظر: منير العجلاني،عهد الإمام عبد الله بن سعود، ج٤ ط١ (الرياض: دار الشبل، =

المبحث الثاني :

مستوطنات الدرعية وتطوراتها الحضارية من وجهة نظر وليام فيسي:

يرى فيسي أنه لا ينطبق اسم الدرعية على مستوطنة واحدة فحسب، بل هو حسب رأيه اسم واحة واسعة تضم منطقة يستطونها أهلها ويمارسون فيها الزراعة وهي تقوم على جانبي جزء من وادي حنيفة الذي يمتد لمسافة ثمانية كيلومترات[١]، وكانت الحدود الشمالية للواحة هي قريتي العلب [٢]والعودة الواقعتين وسط النخيل على ضفة الوادي الغربية. وعلى الضفة الشرقية عند ارتفاع أقل من هاتين القريتين[٣]، قامت مستوطنة غصيبة[٤] الكبيرة مقابل رافد البليدة[٥]. وعند هذا الموقع، ينعطف وادي حنيفة باتجاه الشرق، وكانت ضفته اليسرى بعد غصيبة في اتجاه نزول الوادي وتحتلها مجموعة من المستوطنات الزراعية المتتالية والممتدة إلى ما بعد حافة الطريف[٦] الذي يرتفع إلى الضفة المقابلة[٧]. وإحدى هذه

=

١٤١٤هـ/١٩٩٣م) ص ١٤٢. انظر ملحق رقم (٢) ص ٣١٢ .

(١) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١١٢– ١١٥.

(٢) العلب والعودة: قريتان صغيرتان على ضفاف وادي العلب وتتبع الدرعية. انظر: عبد الله بن عبد الرحمن العقيل، مدن المملكة العربية السعودية، ط١(الرياض: الفرزدق، د.ت)،ص ص ٧٥–٧٧. انظر الملحق رقم (١١) ص ٣١٦ .

(٣) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١١٢– ١٢٥.

(٤) غصيبة: تقع في منتهى الطرف الشمالي لحدود الدرعية. انظر: عبد الله العقيل، مدن المملكة، ص ٧٩– ٨٢.

(٥) البليدة: رافد من روافد الدرعية. انظر: عبد الله العقيل، مدن المملكة، ص ص ٤٢–٤٣.

(٦) الطريف: أحد أهم المواقع السياسية والجغرافية في المملكة العربية السعودية منذ نشأة الدولة السعودية الأولى يقع في قلب شبه الجزيرة العربية تحديدًا في الدرعية شمال غرب الرياض إذا كان الحي أول عاصمة لأسرة آل سعود. انظر: فيصل بن بندر، حي الطريف مركز ثقافي سياحي والتطوير يضعه في مصاف المدن التراثية العالمية، صحيفة الوطن، ٢ صفر ١٤٣٦هـ الموافق ٢٤ نوفمبر ٢٠١٥م، ص٧. انظر الملحق رقم(٣) ص ٣١٢ .

(٧) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١٢٦– ١٢٧. انظر الملحق رقم (٥) ص٣١٣.

المستوطنات مستوطنة مميزة تقوم في مواجهة الطريف مباشرة، وهي البجيري[١] التي كان يسكنها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وعائلته وتلاميذه[٢].

وقد ذكر المؤرخ المحلى ابن بشر[٣] أسماء بعض القرى الأخرى، فبالإضافة فبالإضافة إلى الطريف وغصيبة والبجيري، ذكر ابن بشر السهل والظهيرة وسلوى والنقيب والسريحة[٤].

ينعطف الوادي بعد مروره شرق الطريف انعطافًا حادًّا إلى الجنوب الغربي بمحاذاة جبل القرين[٥]. ويحد الجانب الجنوبي من منحدر الطريف رافد كبير هو شعيب صفار[٦] الذي يلتقي مع وادي حنيفة عند نقطة يقع في مواجهتها ممر ينحدر من جرف القرين ويعرف باسم نزلة الناصرية[٧]. وكان الطريق الرئيس إلى

---

(١) البجيري: يعد أحد أهم المواقع السياحية في محافظة الدرعية، وتقع شمال مدينة الرياض وقد كان سكانا للشيخ محمد بن عبد الوهاب وأسرته إضافة إلى طلبة العلم. انظر:عبدالله العقيل، مدن المملكة، ص ص ١٥– ١٧.

(٢) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١٢٤ – ١٢٥.

(٣) ابن بشر: عثمان بن بشر المؤرخ والأديب المعاصر لقيام الدولة السعودية الأولى والثانية وقد ألف عددًا كبيرًا من الكتب المهمة أشهرها مصنفه (عنوان المجد في تاريخ نجد) انظر: عبد الكريم بن حمد بن إبراهيم الحقيل، معجم مؤرخي الجزيرة العربية في العصر الحديث، ج١، ط١ (الرياض: د. ن، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م) ، ص ١٤، وأحلام علي أحمد أبوقايد، عثمان بن بشر وكتابه عنوان المجد في تاريخ نجد ١٢١٠–١٢٩٠هـ/ ١٧٩٥–١٨٧٣م، ط١(القاهرة: شركة المدبولي، ١٤٤٣هـ/٢٠٢١م)، ص ص ١٤٢–١٤٣.

(٤) السهل والظهيرة وسلوى والنقيب والسريحة: أحياء وأماكن وقصور أثرية داخل الدرعية التاريخية. انظر: وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١٢٥– ١٢٧.

(٥) جبل القرين: مرتفع جبلي يقع شمال غرب سيهات بمحافظة القطيف من المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية. انظر: موسوعة أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية،ج٢، ط١(الرياض: دارة الملك عبد العزيز، د.ت)، ص ص ١٢٥–١٢٧.

(٦) شعيب صفار: أحد روافد وادي حنيفة ويبدأ من ثنايا خاشر جهة الغرب. انظر: موسوعة أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية، ج٢، ص ٤١٢.

(٧) الناصرية: تنزل على الوادي وحي الطوالع. انظر موسوعة أسماء الأماكن في المملكة =

الرياض[١]. وعلى الضفة الشرقية بعد الممر مباشرة، تقع منطقة المليبيد[٢] الزراعية الخصبة الواسعة، وهي أقصى أراضي الواحة إلى الجنوب[٣].

وقد اتخذت أسرة آل سعود الحاكمة من موقع الطريف المحمي حماية طبيعية مركز لحكمهم، وذلك في عصر أوج قوة الدرعية في القرن الثاني عشر مطلع القرن الثالث عشر الهجري (الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلادي) [٤].

وتنامي قوتهم وازدهارهم طوروها بقصور ضخمة وغيرها من المباني. ومنطقة الطريف هي الموقع الذي يراه زوار الدرعية اليوم[٥].

وقد بنيت قصور الأئمة والأمراء الرائعة بأسلوب معماري متميز، ويدل على ما تمتعوا به من ثقة وتميز، ولكن اليوم لم يبق منها سوى أطلال وآثار بعد أن تم التخلي عن هذه القصور في الفترة من (١٢٣٣-١٢٣٦هـ/١٨١٨-١٨٢١م)، وكانت حسبما وصفها فليبي(Philby) [٦] في عام ١٣٣٦هـ/١٩١٧م أفضل الآثار

=

العربية السعودية، ج٢، ص ٢١٢.

(١) الرياض: عاصمة المملكة العربية السعودية وأكبر مدنها وثالث أكبر عاصمة عربية من حيث عدد السكان وتقع وسط شبه الجزيرة العربية في هضبة نجد. انظر: عبد الله العقيل، مدن المملكة، ص ص ٢٤-٢٥.

(٢) الملبيد: يقع في الجهة المقابلة لمصب وادي صفار بوادي حنيفة وذلك في أسفل الدرعية من جهة الجنوب باتجاه عرقة. انظر: عبد الله بن محمد المطوع، مجتمع الدرعية في عهد الدولة السعودية الأولى، بحوث الجمعية التاريخية السعودية، الإصدار ١٤، محرم ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ص ٣٧- ٤٨. انظر الملحق رقم (٦) ص ٣١٣ .

(٣) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١١٢- ١١٥.

(٤) عبد الله المطوع، مجتمع الدرعية في عهد الدولة السعودية الأولى، ص ص ٤٢-٤٥.

(٥) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ١٢٤-١٢٧.

(٦) فليبي: هاري سانت جون بريدجر فليبي ويعرف أيضًا باسم جون فليبي أو الشيخ عبد الله وهو ضابط استخبارات بمكتب المستعمرات البريطانية لعب دورًا محوريًّا فيها. انظر:

=

في كل البلاد[١].

وبجانب القصور والمباني شيد الأئمة أيضًا سورًا لحماية وتحصين الواحة باسرها، وأقاموا له أبراجًا على مسافات متباعدة[٢]، حيث امتد بمحاذات المرتفعات الواقعة على جانبي الوادي[٣]. وقد تم إعادة بناء هذا السور الدفاعي حديثًا، وصار اليوم من أقوى التذكارات بالمدى الذي بلغه الاستيطان في الدرعية[٤].

ويشير ابن بشر بشيء من التفصيل إلى فناء محصن له أبراج وبوابات أقيم في ظهرة سمحان[٥]. وإلى الحصن المقام في غصيبة المجاورة وقد قدر لهما أن يلعبا دورًا مهمًّا في الحصار الذي وقع سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م [٦].

ولنقارن بين وصف فيسي لمستوطنات الدرعية كما أطلق عليها على الرغم من أن هذه الكلمة (المستوطنات) لا تنطبق على طرق العمارة في شبه الجزيرة العربية، فمن المعلوم أن هذه الكلمة لا يمكن تطبيقها إلا على البناء الاستحواذي الإجباري الذي تم اغتصابه من قبل اليهود في الأراضي العربية في فلسطين.

ولنعود لموضوعنا في مقارنة وصف فيسي بوصف آخر لعالمين فرنسيين في القرن الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي، هما الجغرافي جومارد[٧]

=

نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص ص ٩٩-١٠٤.

(١) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١٢٤-١٢٧.

(٢) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١٢٢- ١٢٥.

(٣) عثمان الصوينع، العاصمة التاريخية، ص ص ٧٥ – ٧٧.

(٤) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ١٢٢-١٢٥.

(٥) ظهرة سمحان: آخر باب قاتل عنده الإمام عبد الله بن سعود قبل أن يسلم نفسه للجند العثمانيين حقنًا لدماء أهل البلد. انظر: أمين سعيد، تاريخ الدولة السعودية،ج١، ص ص ١١٢-١١٥.

(٦) عثمان بن بشر، عنوان المجد، ج١، ص ص ٢٢٥-٢٢٧.

(٧) جومارد: أدم فراسو جومارد كان رسام الخرائط الفرنسي ومهندس الآثار وكان محررًا لكتاب وصف مصر. وقد أشرف على البعثة التربوية الثقافية التي أرسلت من فرنسا إلى مصر من

=

(Jomard) والمؤرخ منجان[١] (Mengin)، بجمع معلومات من بعض النجديين الموجودين في القاهرة[٢] ومن شهود عيان شاركوا في حصار الدرعية[٣]، ومن هذه المعلومات استطاعوا تقدير عدد سكان الدرعية من الراشدين بحوالي ١٢,٠٠٠ نسمة ووصفوها بأنها كانت عبارة عن مستوطنات متفرقة بأنحاء الواحة، حيث قالوا: «ضمت الدرعية خمس مدن صغيرة، وكانت كل واحدة منها محاطة بسور محصن له أبراج متباعدة، وإلى جانب ذلك كان هناك حصن قوي جيد للدفاع عن الحي المعروف باسم غصيبة إضافة إلى الطريف، وكل منهما كان يقع بجوار جبل. وقد عاش عبد الله بن سعود في الطريف، ولم يكن يفصل بين السهل والطريف سوى مجرى وادي حنيفة، وامتدت قصور الطريف عبر البساتين، ولم يكن لدى سكانها أية تحصينات للدفاع عن أنفسهم، ولذلك فإنهم اعتادوا الانسحاب إلى مواقع أخرى في المدينة كلما تعرضوا للحصار»[٤].

كما ذكر الكاتب الفرنسي كورنسيه[٥] (Corancez) الذي كان مسؤولا تابعا

=

قبل محمد علي والي مصر. انظر: ديفيد جورج هوجارت، اختراق الجزيرة العربية، تعريب محمد شلبي، ط١(لبنان، دار البيان، د.ت)، ص ص٧٢– ٧٥.

(١) منجان: أومانجان، وهو فيلكس مانجان مؤرخ فرنسي في عهد نابليون، له عدة كتب عن مصر أيام محمد علي باشا وعن شبه الجزيرة العربية. انظر: ديفيد هوجارت، اختراق الجزيرة العربية، ص ٦٩–٧٢.

(٢) القاهرة: عاصمة جمهورية مصر العربية وأكبر وأهم مدنها على الاطلاق وتعد أكبر مدينة عربية من حيث عدد السكان والمساحة وتحتل المركز الثاني في أفريقيا. انظر: عبد الرحمن زكي، القاهرة تاريخها وآثارها (٩٦٩–١٨٢٥م) من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ، ط١(القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م)، ص ص ٣٨٨.

(٣) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١٢٤– ١٢٥.

(٤) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١١٢–١٢٥.

(٥) كورنسيه: لم أجد ترجمه له.

للحكومة الفرنسية في حلب[١] ونشر كتابا عن السلفيين في عام ١٢٢٥هـ/ ١٨١٠م، «أن الدرعية كانت تتكون من مستوطنتين رئيسيتين على الأقل، هما الطريف حيث سكن آل سعود، والبجيري على الضفة المقابلة من وادي حنيفة، حيث كان يعيش المصلح الديني. وتضم البجيري ثمانية وعشرين مسجدًا وثلاثين كُتابًا. وموقعها مقابل الطريف تمامًا يجعلها على ما يبدو جزءًا من أو في جوار السهل الذي ذكره منجان وسادلير[٢] (Sudleir)، ولايذكر كورنسيه حي غصيبة القديمة المهمة، كما لايذكر أيا من المستوطنات الأخرى[٣].

أشار كورنسيه إلى أن الدرعية كانت مبنية من الحجر، إلا إنه أعقب ذلك بتقدير عدد المنازل فيها بحوالي ألفين وخمس مئة بيت ووصفها عن صواب هذه المرة، وبأنها مبنية من الحجر والطوب اللبن. كما ذكر أسواق الدرعية، وأنه لم يكن بها أي مقاهي عامة، وهي ملاحظة فرنسية متوقعة، لما للفرنسيين من ولع بالمقاهي[٤].

ويقول كورنسيه كذلك أن الدرعية لم يكن بها حمامات عامة وأن المدينة لم تكن محصنة، وتبدو هاتان الملاحظتان غريبتين بالنظر إلى الآثار الباقية من

---

(١) حلب: مدينة في سوريا ومركز محافظة حلب التي تعد أكبر المحافظات السورية من ناحية تعداد السكان. انظر: عبد الله يوركي حلاق، حلبيات، ط١(حلب: د.ن، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ص ٣٥-٣٦.

(٢) سادلير: أو الكابتن جورج فورستر سادلير ضابط الجيش المكلف بالقيام بالحملة والمهمة السياسية إلى شبه الجزيرة العربية للتأكد من نهاية الدولة السعودية الأولى والالتقاء بإبراهيم باشا هناك. انظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص ص ١٠٤-١٠٧.

(٣) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١٤٤-١٤٥. انظر ملحق رقم(١٢) ص٣١٧ .

(٤) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١١٢- ١١٥.

تحصينات معقدة ومن مبنى الحمام العام المعروف[١]، إلا إنه من الممكن أن يكون كلامه هذا ناجم عن أن التحصينات كانت أقل تطورًا بكثير عندما زارها قبل تهديد حملة إبراهيم باشا[٢]، وأن الحمامات بنيت أيضًا في مرحلة لاحقة من تاريخ المدينة إبان حكم الإمام سعود الكبير أو الإمام عبد الله[٣].

ويخلص كورنسيه إلى معلومات لا جدال فيها مفادها أن وادي حنيفة كان يمر عبر المستوطنة وكانت هناك بساتين تحيط بها من جميع الجهات تنمو فيها أشجار النخيل والمشمش والخوخ والبطيخ والقمح والشعير والذرة[٤].

ويخبرنا ابن بشر أن سكان الدرعية اعتادوا السكن في بيوت غير مرتفعة وتتألف من غرف عديدة تحيط بفناء مركزي، وقد ملك السكان الكثير من الأثاث، حتى أن الفقراء كانوا يملكون بعض السجاد. ولم يستعمل عامة الناس الأَسرة في حين استخدم الحكام الأَسرة الخشبية. وكانت أغطية الأَسرة عادة من الصوف أو كانت أحيانًا محشوة بالقطن. وكانت الصحون تصنع من النحاس والأكواب من الخشب. وكان من عاداتهم أن يفرشوا وجباتهم على الأرض على قطعة حصير دائرية كبيرة، وكان الرجال والنساء يأكلون منفصلين[٥].

ويؤكد ابن بشر أنه كان بالدرعية نشاط تجاري مزدهر، حيث يقول أن الناس

---

(١) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ٧٥-٧٧.

(٢) إبراهيم باشا: بن محمد علي باشا الابن الأكبر لوالي مصر محمد علي باشا، نصب كقائم على العرش نيابة عن أبيه، وقاد الحملة العسكرية إلى وسط شبه الجزيرة العربية للقضاء على الدولة السعودية الأولى. انظر: فاطمة بنت حسين القحطاني، حملة إبراهيم باشا على الدرعية وسقوطها، ط١(الرياض: دارة الملك عبد العزيز ١٤٣١هـ/٢٠١٠م)، ص ص ٧٢- ٨٩.

(٣) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١٢٤- ١٢٥.

(٤) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ٧٢- ٩٤.

(٥) عثمان بن بشر، عنوان المجد،ج١، ص ص ٢٤٤-٢٤٥.

كانوا يكسبون معيشة طيبة من التجارة مع البلدان المجاورة، فيصدرون الخيول والجمال والتمور ويستوردون الأقمشة والحرير والنحاس والأسلحة والبن. وسافر تجارها إلى الشام ومصر واليمن وإيران وتركيا، ولم تكن البضائع تخزن في مستودعات بل في بيوت التجار(١).

ويكمل فيسي بقوله : «وكان من آثار ازدهار الدرعية التجاري أن أسعار المنازل فيها كانت أعلى من الأسعار في بقية أنحاء نجد بحوالي ثلاثة أضعاف إلى عشرين ضعفًا، كما إن زيادة السكان أدت إلى ازدهار البناء، وبالتالي، حدث نقص في الأخشاب. وفي الوقت الذي امتلك فيه العديد من الناس مزارع وبساتين، فإن ابن بشر يخبرنا بأنه كان في الدرعية حرفيون متخصصون، مثل صناع السيوف والخناجر والحراب وصناع السروج والنجارين وصناع الحلى والخياطين، كما كانت الأسلحة النارية أيضًا تصنع في الدرعية، والأرجح أنها كانت تستورد ثم تعدل لتتناسب مع النمط المحلي المطلوب، وكذلك كان يتم إنتاج نوع جيد من البارود(٢).

وهكذا يتضح من خلال وصف وليام فيسي لمستوطنات الدرعية كما أطلق عليها ومقارنتها بغيرها من كتابات رحالة أوربيين تم إيرادهم في ثنايا المبحث ووصفها من خلال كتابات ابن بشر أن بعض تلك المشاهدات والكتابات فيها اختلاف أو تباين أو تقارب في الآراء حسب ما جاء في مدوناتهم وهذا ينطبق بالتأكيد على أسلوب الكاتب وهدف ما يورده أو يوصفه ومن ثم كذلك وقت زيارته أو تسجيله للحدث وهدفه ومدى تعصبه وانتمائه لبلده أو حكومته كل ذلك بالتأكيد يعطينا انطباعًا عامًا يمكن أن نستنتج به الهدف الحقيقي من تلك الروايات.

---

(١) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ٢١٢– ٢١٥.
(٢) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ٢١٥– ٢١٦.

المبحث الثالث:

البناء العمراني للدرعية العاصمة:

كان لعلو مكانة الدرعية آثاره الاقتصادية العميقة، فمجتمعها الذي اعتاد حياة الكفاف القائمة على الزراعة، وأبناؤه الذين عاشوا تقليديًّا على الاكتفاء الذاتي تطوروا بسرعة إلى اقتصاد نقدي وظهر عدد لابأس به من المهنيين الاختصاصيين الذين ينتجون لتلبية الاستهلاك المحلي والتصدير، وكانت فئات واسعة من الناس تعمل كامل الوقت في شؤون بيت الحكم، وفي الحرس الشخصي للحاكم وفي التعليم الديني، وكلها نشاطات غير منتجة نشأ عنها طلب قوي على الواردات فالدرعية مثل العيينة[١] من قبلها والرياض من بعدها لم تعد تنتمي إلى النموذج المعهود في المستوطنات النجدية[٢].

وكما يوضح وليام فيسي، فليس هناك أي سجل مصور للدرعية في أوجها ولا نعرف على وجه اليقين كيف كان شكل مبانيها قبل أن تتحول إلى أنقاض، ولكن إعادة بناء بعضها مثل قصر سعد[٣]، وقصر ناصر[٤]، وبرج فيصل[٥]، وأسوار الطريف، تعد محاولات جيدة لإعادة هذه الإنشاءات إلى حالتها الأولى،

---

(١) العيينة: قرية تقع على وادي حنيفة في منطقة العارض بوسط نجد تبعد حوالي ٣٥كم عن مدينة الرياض وتشكل مع جارتها الجبيلة مركز العيينة والجبيلة التابع لمحافظة الدرعية. انظر: عبد الله العقيل، مدن المملكة العربية السعودية، ص ص١٢٢–١٢٥.

(٢) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ٢١٤–٢١٥.

(٣) قصر سعد: يعد أحد أهم القصور الواقعة في حي الطريف بالدرعية. انظر: عثمان الصوينع، العاصمة التاريخية، ص ص ١٢٧ –١٢٨. انظر الملحق رقم (١) ص٣١١، والملحق رقم (٤) ص ٣١٢ .

(٤) قصر ناصر: أو كما يعرف بجامع الناصر. انظر: عثمان الصوينع، العاصمة التاريخية، ص ٨٩.

(٥) برج فيصل: أيضًا يعتبر من بقايا آثار الدرعية. انظر:عثمان الصوينع، العاصمة التاريخية، ص ص٦٢– ٦٣.

وربما تكون قد استعادت بفضل هذا الجهد مظهرها الأصلي[١].

ويوضح لنا كما يقول فيسي سجل الصور التي تم التقاطها لحسن الحظ، في مطلع القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) موضحًا مجريات الحياة اليومية في نجد مجتمعًا لم يتغير إلا تغيرًا طفيفًا عبر مئات السنين[٢].

وعن طريق تجميع بعض هذه الصور القديمة ومزجها مع صور التقطت لبعض مواقع الطريف في عصرنا الحالي، مع الاعتناء أشد العناية بالأوصاف التي ذكرها المعاصرون، فإننا نستطيع أن نعيد تكوين صورة تمثل قرب مشاهد الحياة اليومية في الدرعية[٣].

وتتكون الدرعية من عدة أحياء رئيسة هي :

١- حي الطريف: ويقع فوق الجبل الجنوبي الغربي من منطقة الدرعية، محاط بالسور الأثري القديم ويشرف من علو على باقي المدينة وفيه قصور (آل سعود)[٤].

٢- حي غصيبة : وهو الحي الرئيس للدرعية القديمة وقاعدة الدرعية حتى عام ١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م[٥].

٣- حي البجيري: ويقع على الضفة الشرقية من وادي حنيفه به مسجد الشيخ محمد بن عبد الوهاب –يرحمه الله– ومدرسته وبيته[٦].

٤- حي السريحة: ويقع شمال البجيري وكان يضم بيوت الأعيان والوجهاء بالمدينة.

---

(١) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١١٤- ١١٥.
(٢) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ٢١٤- ٢١٥.
(٣) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١٢٢-١٢٤.
(٤) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ١٢٢- ١٢٤.
(٥) عثمان الصوينع، العاصمة التاريخية، ص ص ١٦٥-١٦٧.
(٦) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ١٣٥-١٣٧.

وهناك أحياء تاريخية أخرى[١] مثل : الظهيرة والطرفية والعودة والبليدة[٢].

ويضم حي الطريف عددًا من الأبنية الرائعة التي تشهد على قدرة المهندس المحلي وبراعته الهندسية والبنائية، وتمثل نموذجًا حيًّا لأسلوب البناء ومادته في هذه الفترة التاريخية من حياة الدولة[٣].

ويحيط بالحي سور كبير عليه عدد من الأبراج الضخمة للمراقبة، كما يضم العديد من القصور التي شيدت في عهد الدولة السعودية الأولى، مثل: قصر سلوى الذي وضع لبنته الأولى الإمام محمد بن سعود وقام ببنائه كبير البنائين (ابن حزيم) [٤] ويقع في منطقة سلوى. وكان سكنًا للأمير، ومنه تدار شؤون الدولة حتى حتى أصبح قصرًا للحكم، وتعاقب عليه عدد من الأئمة مما أحدث فيه الكثير من التعديلات والإضافات بما يتماشى مع الحاجة الحاضرة في كل عهد[٥]. وهناك مسجد وسبالة موضى[٦]، وبيت المال، وغيرها من المباني الطينية الضخمة والعالية التي يقل مثيلها في المنطقة وتوضح بل هي شاهد عيان على مدى التطور الحضاري الذي وصلت إليه تلك البلدة والتي كانت عاصمة للدولة السعودية الأولى[٧].

وهناك أيضًا قصر الضيافة، والحمام البخاري، ومرافق أخرى، تدل على

---

(١) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ٢١٥– ٢١٧.
(٢) عثمان الصوينع، العاصمة التاريخية، ص ص ١٧٠–١٧٢.
(٣) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ١٣٩–١٤٢.
(٤) ابن حزيم: لم أجد ترجمه له.
(٥) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ١٤٥–١٤٧.
(٦) سبالة موضي: تقع على الحافة الشرقية لإحدى المناطق السكنية الرئيسة في حي الطريف شرق قصر سلوى وجنوب بيت المال. انظر: عثمان الصوينع، العاصمة التاريخية، ص ص١٤٥–١٤٧.
(٧) عبد الله العثيمين، الدرعية نشأة وتطورًا، ص ص ٧٩–٨٢.

مدى ما وصلت إليه العاصمة الدرعية من تطور في هذا التاريخ(١).

وكما يضيف فيسي: فقد بلغت الدرعية في عهد الإمام سعود الكبير أوج مجدها وعظمتها، رافق ذلك رخاء مادي وتقدم حضاري، فأقيمت منشآت أو مستوطنات معمارية حضارية لا تقوى على إنشائها إلا دول مستقرة سياسيًّا، وتتمتع برخاء اقتصادي وارتفاع في المستوى الثقافي(٢).

ومن تلك الآثار البنائية في وقت مشاهدتي لها بمرأى العين المسجد الجامع بحي الطريف، والسوق، والمدرجات التعليمية(٣).

ورغم أن عهد الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود الذي استمر قرابة أربعين عاما تميز بالأمن والرخاء، إلا إن ميله للزهد جعل كثير من المؤرخين يرجحون أن كثير من هذه المنشآت والبناء الحضاري أقيم في الدرعية أبان فترة ابنه الإمام سعود الكبير(٤).

وهكذا يتضح من خلال ماتم سرده من آراء وليام فيسي أن الرحالة الأوربيين بهروا من التطورات الحضارية التي مر بها البناء العمراني في الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى، رغم أن كثير منهم تمت زيارته للبلدة بعد انقضاء فترة الدولة بزمن ليس باليسير.

---

(١) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ١٢٢-١٢٧.

(٢) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ٢١٤- ٢١٥. انظر الملحق رقم(٧) ص ٣١٤ .

(٣) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ٢٢١. انظر الملحق رقم(٨) ص ٣١٤. ٣١٤.

(٤) وليام فيسي، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ص ص ٩٤-٩٥.

الخاتمة :

أثبتت الدراسات والوقائع التاريخية الأهمية الكبيرة التي تميزت بها مدينة الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى والتي استقطبت في فترة من الفترات أنظار القاصي والداني لما حققت من انتصارات أرهبت الأعداء وأخافت الدول الاستعمارية الطامعة فيمن حولها من مناطق الخليج العربي. لذا قامت بإرسال الرحالة والبعوث لتلك المنطقة قبل سقوطها وحتى بعده ومن أولئك وليام فيسي والذي تناول البناء العمراني لتلك البلدة وتحدث بإسهاب عن مجتمعها ومن ثم الحملات العثمانية عليها بقيادة محمد علي باشا والتي أدت إلى نهايتها ومن خلال ذلك يمكن استخلاص النتائج التالية:

١- أن كتاب وليام فيسي من المؤلفات التاريخية التي استعرضت مدينة الدرعية وتاريخها وحياة الناس الذين عاشوا فيها.

٢- تضمن وصفا كاملاً للدرعية مدعما بالصور الفوتوغرافية لمواقع متنوعة.

٣- أن البناء العمراني في نجد قبل قيام الدرعية وحتى بعد قيامها اعتمد على مكونين رئيسين هما الطين وشجرة الأثل.

٤- تناول فيسي بعمق وتركيز رؤية ووجهة نظر في مستوطنات الدرعية وتطوراتها الحضارية، وقد تم مقارنة تلك الرؤية مع عالمين فرنسيين في القرن الثالث عشر الهجري والتاسع عشر الميلادي هما الجغرافي جومارد والمؤرخ منجان.

٥- يعود سبب الاهتمام الذي أنصب على الدرعية من أولئك الرحالة والمستشرقين إلى عقيدة التوحيد التي عمل على إحيائها من جديد الشيخ محمد بن عبد الوهاب واتفاقه المشهور مع إمام الدرعية الإمام محمد بن سعود.

٦- وصول رحلة رينود، وخلاصة وصف المدينة ومعرفة أبرز الاستحكامات الحربية فيها.

٧- بداية بناء الأسوار في الدرعية والحرص على تحصينها عائد لقوتها وتركيز الهجوم الخارجي عليها.

٨- وصف وليام فيسي لمستوطنات الدرعية كما أطلق عليها ومقارنتها بأقوال الأوربيين والمؤرخين المحليين.

٩- إيراد أهم مباني الدرعية من أمثال برج فيصل والطريف وسلوى وغيرها.

أما أهم التوصيات :

١- كما يظهر لنا جليًّا من خلال رؤية المملكة ٢٠٣٠ مدى الاهتمام الكبير بإعادة بناء إحياء الدرعية لضمها إلى المدن العالمية الأثرية .

٢- فتح باب الزيارات الميدانية لطلاب العلم لهذه المدينة الحضرية لاستحضار آفاق تعريفية لها بمدى التقدم والفخر بدولتنا العريقة والضاربة القدم في التاريخ.

٣- تكثيف عمل البحوث وأوراق العمل والورش المقدمة للمجتمع لربطهم بهذا الأرث التاريخي العريق .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

الملاحق :

صورة رقم (١) قصر الأمير سعد بن سعود بن عبد العزيز، أحد أبناء الإمام سعود الكبير بن عبد العزيز بن محمد آل سعود، ثالث أئمة الدولة السعودية الأولى، وليام فيسي (الدرعية والدولة السعودية الأولى) ص ١١٢

صورة رقم (٢) الدرعية التاريخية وتصوير للهدم الذي جرى فيها من جراء القصف عليها في حملة إبراهيم باشا، وليام فيسي (الدرعية والدولة السعودية الأولى) ، ص ١٢٥ .

صورة رقم (٣) حي الطريف بالدرعية التاريخية من الأعلى، وليام فيسي (الدرعية والدولة السعودية الأولى) ص ٢١٤

صورة رقم (٤) قصر الأمير سعد من جانب آخر . وليام فيسي (الدرعية والدولة السعودية الأولى) ص ٢٠٢

صورة رقم (٥) صورة نادرة لحي الطريف بالدرعية. وليام فيسي (الدرعية والدولة السعودية الأولى) ص ١٢٥

صورة رقم (٦) إحدى القصور بمنطقة الدرعية . وليام فيسي (الدرعية والدولة السعودية الأولى) ص ٢٢٢

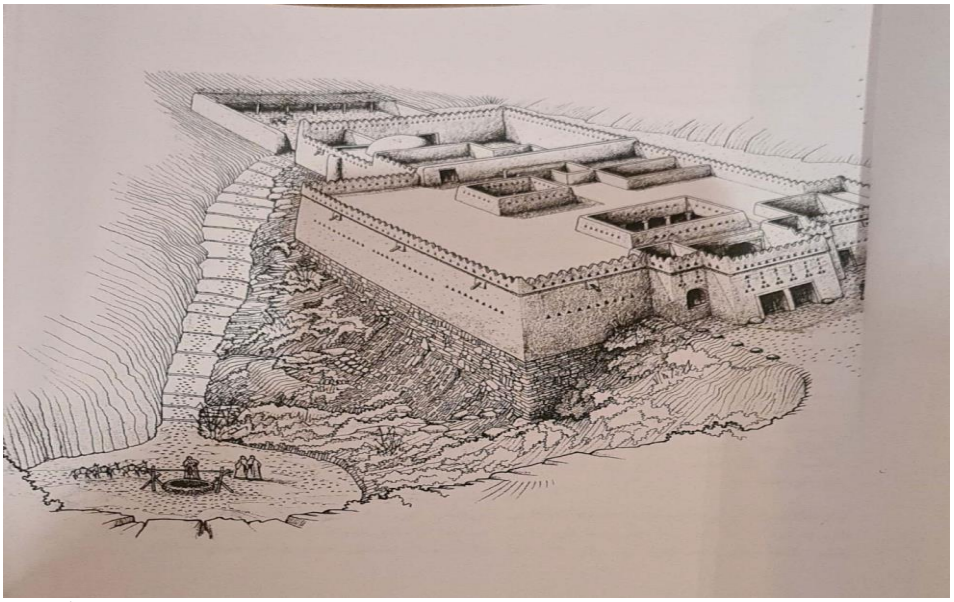

صورة رقم (٧) وصف وليام فيسي من خلال الرسم التخيلي لاستحكمات أسوار الدرعية. وليام فيسي (الدرعية والدولة السعودية الأولى) ص ١١٢

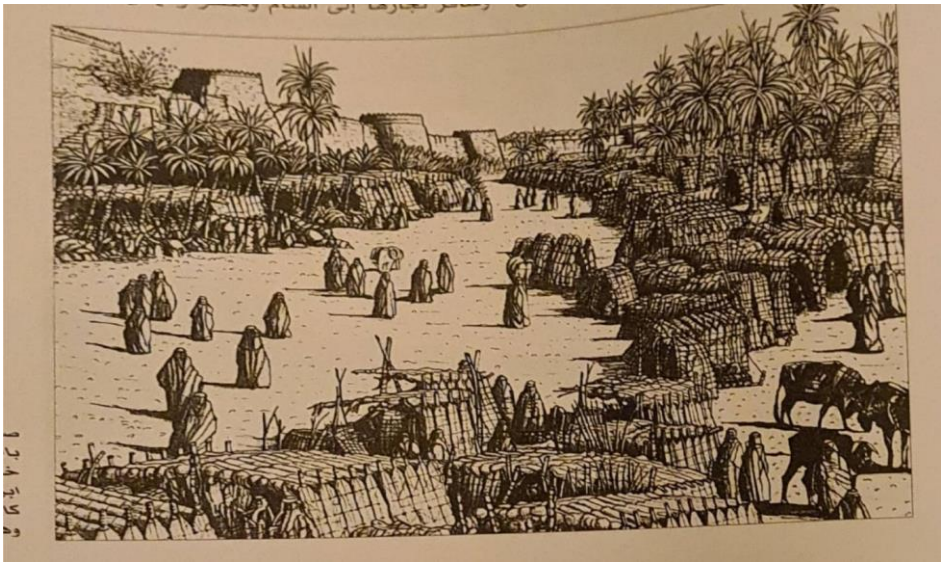

صورة رقم (٨) وصف وليام فيسي لأحد أسواق الدرعية وليام فيسي(الدرعية والدولة السعودية الأولى) ص٢٢٥

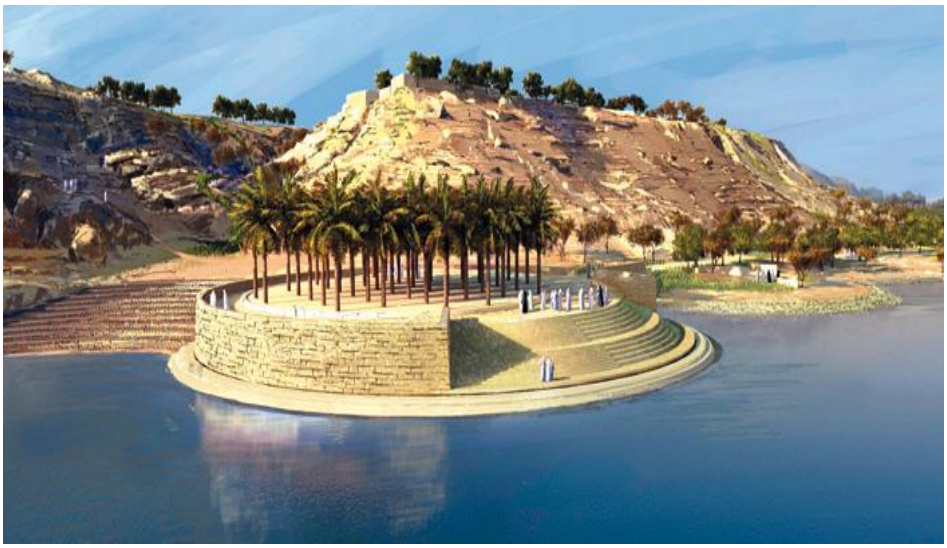

صورة رقم (٩) منتزه وادي حنيفة بالدرعية حاصل على ٣ جوائز عالمية آخرها جائزة الأغا

صورة رقم (١٠) سد وادي حنيفة: يقع السد في بطن وادي حنيفة؛ حيث يحجز المياه المتدفقة من الشمال. وأُنشئَ سد وادي حنيفة في عهد الملك سعود

صورة رقم (١١) سد "العلب" بالدرعية – جريدة الرياض بتاريخ ١٢محرم ١٤٣٠هـ العدد (١٤٨٠٩)

صورة رقم (١٢) دكات الدرعية القديمة جريدة الرياض ٦ جمادى الأولى ١٤٣١هـ العدد (١٥٢٧٥)

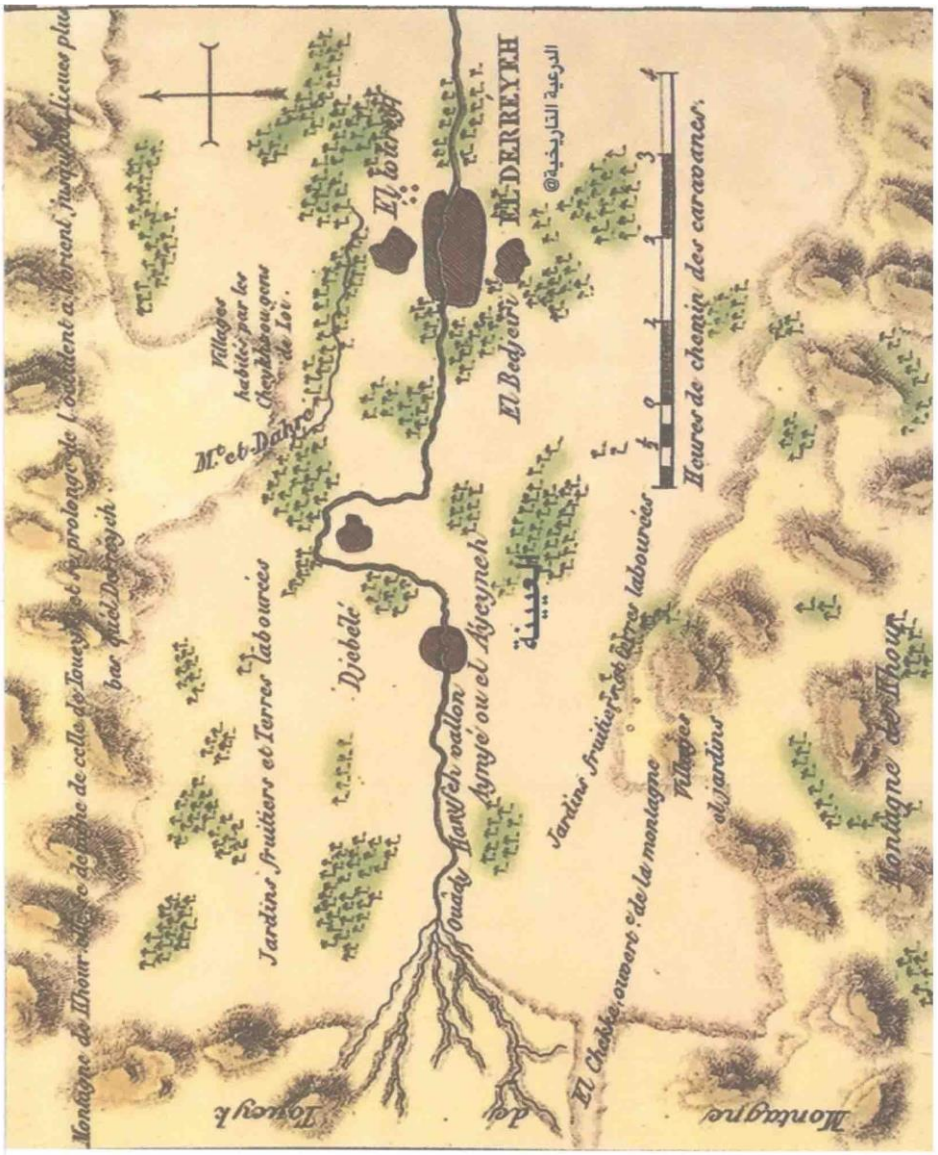

صورة رقم (١٣) خريطة لمدينة الدرعية ، وليام فيسي
(الدرعية والدولة السعودية الأولى) ص ١٢٩ .

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً : المصادر : -

- ابن بشر: عثمان بن عبد الله النجدي الحنبلي، عنوان المجد في تاريخ نجد، حققه وعلق عليه عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ، ج١، ط٤(الرياض: مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).
- ابن عيسى: إبراهيم، تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد، ط١(الرياض: دار اليمامة ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م).
- الألوسي: محمود شاكر، تاريخ نجد، تحقيق وتعليق محمد بهجة الأثري، د. ط (القاهرة: دار الرواق، د.ت).
- الريحاني: أمين، تاريخ نجد الحديث، ط١(بيروت: دار الجيش، د.ت).
- سعيد: أمين، تاريخ الدولة السعودية، ج١ :د.ط (د. م: دار الكتاب العربي، د.ت).
- بن غنام: حسين، تاريخ نجد المسمى روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعدد غزوات ذوي الإسلام، حرره وحققه ناصر الدين الأسد، قابله على أصوله عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ج١،ط١(الرياض: وزارة المعارف، د.ت).
- المخزومي: ابن ظهيرة القريشي، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف (الباب السادس في نشأة مكة وفضلها وحكم مجاورتها)،ط١(د.م: مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ١٣٤٠هـ/١٩٢١م).
- مؤلف مجهول، العقد الثمين في شرح أصول الدين، د. ط (د. م: د. ن، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م).
- النجدي: سليمان بن صالح الدخيل، البحث عن أعراب نجد وما يتعلق بهم، تحقيق مهدي عبد المحسن النجم، د.ط (د.م: الدار العربية للموسوعات، د.ت).

ثانياً : المراجع العربية : -

- إبراهيم: عبد العزيز عبد الغني، روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية ١٥٠٠–١٨٤٠م، ج١، ط١(د.م : د.ن، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م) .
- أبوقايد: أحلام علي أحمد، الدولة السعودية الأولى من خلال كتابات الرحالة والمستشرقين البريطانيين عرض وتحليل ونقد، ط١(القاهرة: شركة دار المدبولي، ١٤٤٣هـ/٢٠٢١م).
- ـــــــــــــــ، عثمان بن بشر وكتابه عنوان المجد في تاريخ نجد ١٢١٠–١٢٩٠هـ/١٧٩٥–١٨٧٣م، ط١(القاهرة: شركة دار المدبولي، ١٤٤٣هـ/٢٠٢١م) .
- الجهني : عويضة، نجد قبل حركة الإصلاح السلفية، ط١(الرياض: اثيكابرس بالتعاون مع دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).
- حسني : حسين، مذكرات ضابط عثماني في نجد– الأوضاع العامة في منطقة نجد–، ترجمة وتعليق سهيل صابان، ط١ (بيروت: دار الكتب، د.ت).
- الحقيل: سليمان بن عبد الرحمن، حياة محمد بن عبد الوهاب وحقيقة دعوته، ط١(د. م : د. ن، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- الحقيل : عبد الكريم بن حمد بن إبراهيم، معجم مؤرخي الجزيرة العربية في العصر الحديث، ج١،ط١(الرياض: د. ن، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).
- حلاق: عبد الله يوركي، حلبيات، ط١(حلب، د. ن، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م).
- الخراشي: سليمان بن صالح، تاريخ نجد من خلال كتاب الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ط١(الرياض: الدار العربية للموسوعات، د.ت).
- الراشد: عبد الله، الاستيطان في وادي حنيفة من القرن الأول حتى منتصف القرن التاسع الهجري دراسة أثرية، د.ط (الرياض : مطابع الفرزدق، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).
- الزغول: حسين عارف، مواد البناء، ط١(بيروت: دار مجد لاوي، د.ت).

- زكي: عبد الرحمن، القاهرة تاريخها وآثارها (٩٦٩-١٨٢٥م) من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ ، ط١(القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م).
- الشويعر: محمد بن سعد، نشأة الدولة السعودية، ط١(الرياض: العبيكان، د.ت).
- صديقي : عتيق أنور، تاريخ الهند ثقافتها وفنونها الجميلة، ترجمة حبيب الله خان، ط١ (د.م : مؤسسة الفكر العربي، د.ت).
- الصوينع: عثمان الصالح، العاصمة التاريخية للدعوة السلفية الدرعية، ط١(الرياض: مطابع الفرزدق، ١٤٢٠هم١٩٩٩م).
- بن عتيق: إسماعيل بن سعد، اعلامنا في سجل التاريخ (٢) الإمام محمد بن سعود، ط١(الرياض: دار الهدية، د.ت).
- العثيمين: عبد الله الصالح، تاريخ المملكة العربية السعودية، ج١، ط١٧ (الرياض: د.ن، ١٤٣٥هـ /٢٠١٤م).
- ـــــــ، الدرعية نشأة وتطورًا، ط١(الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٤هـ/٢٠١٢م).
- ـــــــ، العلاقات بين الدولة السعودية الأولى والكويت، ط٢ (الرياض: د.ن، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).
- العجلاني: منير، تاريخ البلاد العربية السعودية، ج٢، ط١(الرياض: د.ن، د.ت).
- ـــــــ، عهد الإمام عبد الله بن سعود ج٤، ط٢(الرياض: دار الشبل، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م).
- العقيل: عبد الله بن عبد الرحمن، مدن المملكة العربية السعودية، ط١(الرياض: الفرزدق، د.ت).
- العقيقي : نجيب، المستشرقون، ج١، ط١(القاهرة: دار المعارف، د.ت).

- القحطاني : فاطمة بنت حسين، حملة إبراهيم باشا على الدرعية وسقوطها، ط١(الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م).
- محمد : محمديان كوخردي: المعجم الكبير، ج١، د.ط (القاهرة: مجمع اللغة العربية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).
- موسوعة أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية، ج٢،ط١(الرياض: دارة الملك عبد العزيز، د. ت).

ثالثاً : **المراجع المعربة**:-

- بوركهارت : يوهان، رحلة من مكة إلى المدينة، ط١(د.م: د. ن، د.ت).
- فيسي: وليام، الدرعية والدولة السعودية الأولى، ط١(لندن: مركز لندن للدراسات العربية، د.ت).
- هوجارت: ديفيد جورج، اختراق الجزيرة العربية، تعريب محمد شلبي،ط١(لبنان: دار البيان، د.ت).

رابعاً : **الدوريات والصحف** :-

- بن بندر: فيصل، حي الطريف مركز ثقافي سياحي والتطوير يضعه في مصاف المدن التراثية العالمية، صحيفة الوطن، ٢ صفر ١٤٣٦هـ الموافق ٢٤ نوفمبر ٢٠١٥م.
- المطوع : عبد الله بن محمد، مجتمع الدرعية في عهد الدولة السعودية الأولى، بحوث الجمعية التاريخية السعودية، الإصدار ١٤، محرم ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

الطباعة في مكة المكرمة خلال الفترة
(١٣٠٠ - ١٣٧٣هـ/ ١٨٨٣-١٩٥٣م)

أ.م.د. سحر على محمد دعدع
أستاذ مشارك في التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
جامعة أم القرى– مكة المكرمة

الملخص:

يعتبر موضوع الدراسة من الموضوعات التاريخية الحضارية التي تخدم الباحث التاريخي والمثقف والقارئ العادي وغيرهم.

وفي الحقيقة، إن طباعة المطبوعات المختلفة تعتبر من مظاهر الحضارة والرقي المجتمعي، ووسيلة من وسائل التقدم والتحرك الفكري والثقافي، ومن خلالها تقاس مدى تطور الهوية الفكرية والثقافية في كل مكان وزمان في المجتمعات.

وبالرغم من ظهور الطباعة متأخرة بشكل عام في مدينة مكة المكرمة، وقلة إمكانيتها وتجهيزها، وخاصة في العهد العثماني، والعهد الحجازي الهاشمي، إلا إنها عكست مدى رغبة أهل مكة المكرمة بالعمل على تطوير الناحية الفكرية والثقافية والعلمية عندهم، وخاصة في فترة الدراسة العلمية المحددة لهذا البحث العلمي، وظهر خلالها طباعة الكتب والمطبوعات الدينية، والعلمية، والثقافية التي تعكس مدى ما حظيت بها مكة المكرمة آنذاك.

وهكذا، أخذت الطباعة والمطبوعات بالتطور البطيء، والتدريجي بما يخدم العملية الدينية، والثقافية، والتعليمية في العهدين العثماني والحجاز الهاشمي.

ولكن وضع الطباعة والمطبوعات أخذ يتطور بشكلٍ متسارع وبخطوات ثابته ومدروسة قانونيًّا وإداريًّا وواضحة للعيان، وذلك في عهد الملك عبد العزيز، الذي دخل

مكة المكرمة عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م ، وبدأ بالعمل علي كيفية تطوير الطباعة والمطبوعات، وتمثل ذلك بإصدار أوامر ملكية عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م توضح بشكل جلي كيفية تنظيم الطباعة والمطبوعات إداريًّا وماليًّا، وخاصة تنظيم إصدارات الدوريات الشهرية والصحف والمجلات، وعدم طباعة أية مادة علمية (دينية، ثقافية، تعليمية) إلا بموافقة الحكومة، ولتشجيع وزيادة طباعة الكتب الدينية في مكة المكرمة أصدر الملك عبدالعزيز قراراً يعفي فيه ورق طباعة الكتب الدينية من الرسوم الجمركية، مما زاد من طباعة الكتب الدينية التي يستفيد منها جميع المسلمين داخل مكة المكرمة وخارجها.

وهكذا، نلاحظ أن العهد السعودي حقق أهدافاً إيجابية عملت على تطوير وتنظيم الطباعة والمطبوعات بما يخدم الجميع.

الكلمات المفتاحية: الطباعة–المطبوعات – المطابع – أهمية الطباعة – المطبعة الميرية – نظام المطابع.

Abstract

The subject of the study is one of the historical and civilized topics that serve the historical researcher, the intellectual, the ordinary reader, and others alike.

The printing of various publications is one of the manifestations of civilization and societal advancement, and a mean of progress, intellectual, and cultural movement, through which the cultural and intellectual extent of identify development in the societies can be measured whenever and wherever.

Despite the late printing appearance in general in the city of Makkah, and its limited capacity and equipment, especially in the Ottoman as well as the Hijazi Hashemite eras, it reflected however the extent of Makka people desire to work on developing their intellectual, cultural, and scientific sides, especially during the period of scientific study of this research, where the religious, scientific, and cultural revolution emerged in printing of publications that Makkah Al-Mukarramah enjoyed then.

Thus, printing and publications took a slow and gradual development serving the religious, cultural, and educational process in the Ottoman and the Hashemite Hijaz eras.

However, during the reign of King Abdul Aziz, who ruled Makkah in 1343 AH/1924 AD, the situation of printing and publications began to develop rapidly and with visible, steady steps that were legally and administratively considered. King Abdul Aziz began working on how to develop printing and publications, which was manifested by issuing royal decrees, in 1347 AH /1928 AD, explicitly illustrate organizing printing and publications administratively and financially, especially the issuance of

monthly periodicals, newspapers, and magazines, as well as banning printing any scientific material (religious, cultural, educational) unless approved by the government. And to encourage and increase the printing of religious books in Makkah Al-Mukarramah, King Abdulaziz issued a resolution exempting religious books from customs duties, which increased the printing of religious books that benefit all Muslims inside and outside Makkah.

Thus, we note that the Saudi Covenant has achieved positive goals and worked to develop and organize printing and publications for the benefit of all.

Keywords: printing – printing presses – publications – al-miriya printing press – printing system.

المقدمة

تعتبر الطباعة مظهرًا من مظاهر الحضارة والرقي المجتمعي، ووسيلة من وسائل التحرك الفكري والثقافي، ومن خلالها يقاس مدى تطور الهوية الفكرية والثقافية في كل زمان ومكان في المجتمعات.

وقد شهدت مكة المكرمة حراكًا علميًا كبيرًا منذ ظهور الإسلام استمرت عبر العصور الإسلامية المختلفة، وكان الحرم المكي الشريف عبارة عن جامعة لنشر العلوم الإسلامية، ومما لا شك فيه أن الظروف الثقافية في مكة المكرمة اقترنت بالمكانة الدينية والعلمية للحرم المكي الشريف، مما جعلها مركزًا من مراكز النور ومشعلاً من مشاعل التنوير، لذلك كانت ملاذًا مهمًّا للعلماء وطلاب العلم والمجاورين من مختلف مناطق العالم الإسلامي. هذا كله جعل الحركة الفكرية والدينية والعلمية لا تتوقف طيلة تاريخ البلد الحرام.

وهذه النهضة العلمية والفكرية التي شهدتها مكة المكرمة طيلة تاريخها، كانت نتيجة تفاعل بين المسجد الحرام والعلماء من أبنائها والعلماء القادمين إليها من دول العالم الإسلامي، بالإضافة إلى طلبة العلم، والذي أدى بطبيعة الحال إلى كثرة الإنتاج العلمي فيها، مما جعل العلماء يألفون العديد من الكتب، فكان لابد من طباعة هذه الكتب، فكانوا يحرصون على طباعة هذه الكتب خارج مكة المكرمة بسبب عدم وجود مطابع فيها، وخاصة في القاهرة والهند ولبنان.

دخول الطباعة في مكة المكرمة أدى إلى تنشيط حركة التأليف، لذلك حرصْتُ في هذه الدراسة العلمية التركيز على تطور **الطباعة في مكة المكرمة خلال الفترة ١٣٠٠-١٣٧٣هـ/١٨٨٣-١٩٥٣م**، لمعرفة بداية ظهور الطباعة فيها، ومراحل التطور التي مرت بها الطباعة حتى نهاية عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود طيب الله ثراه.

مشكلة الدراسة العلمية:

تتمثل مشكلة الدراسة في السؤال الرئيس التالي:

ما هي المراحل التطويرية التي مرت بها الطباعة في مكة المكرمة منذ البداية وحتى نهاية عهد الملك عبد العزيز آل سعود طيب الله ثراه.

ويتفرع من هذا السؤال مجموعة من الأسئلة الفرعية، وهي:

- بداية الطباعة في مكة المكرمة؟
- تطور الطباعة في مكة المكرمة في العصر الهاشمي؟
- ما هي المراحل التطورية التي مرت بها الطباعة في مكة المكرمة في عهد الملك عبد العزيز آل سعود طيب الله ثراه؟

حدود الدراسة الزمانية: منذ عام ١٣٠٠-١٣٧٣هـ/١٨٨٣-١٩٥٣م.

حدود الدراسة المكانية: مكة المكرمة

أهمية البحث: تتمثل أهمية الدراسة العلمية في النقاط التالية:

- تعتبر هذا الدراسة العلمية إضافة جديدة في مجال الطباعة، وخاصة في مكة المكرمة.
- تمثل الدراسة العلمية أحد المصادر التي يمكن لأي باحث علمي اللجوء إليها، وخاصة في هذا المجال، حيث تعتبر المصادر في هذا المجال قليلة جدًّا.

أهداف الدراسة العلمية:

- التعرف على الطباعة في مكة المكرمة في العهد العثماني.
- التعرف على الطباعة في مكة المكرمة في العهد الهاشمي.
- التعرف على المراحل التطويرية للطباعة في مكة المكرمة في عهد الملك عبد العزيز طيب الله ثراه.

الدراسات السابقة:

- سليم: فريق صبري، **تاريخ الطباعة في الحجاز ١٨٨٣-١٩٢٤م**، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة بابل- كلية التربية للعلوم الإنسانية، مجلد ٢٨، عدد خاص، ٢٠٢١م.
- الشامخ: محمد عبد الرحمن، **ظهور الطباعة في بلاد الحرمين**، مجلة دارة الملك عبد العزيز، مجلد٤، العدد٤، ١٩٧٨م.

وقد تحدثت الدراستان عن تاريخ الطباعة في الحجاز منذ ظهورها وحتى عهد الملك عبد العزيز، وقد اختلفت دراستي عنها بوجود عدد من الوثائق التي تؤكد ظهور الطباعة في مكة المكرمة، وتطورها إلى عهد الملك عبد العزيز، بالإضافة إلى التركيز على الناحية التحليلية للمادة العلمية في البحث.

وقدِ احتوت الدراسة العلمية على:

المقدمة: فيها بيان لأهمية الدراسة العلمية.

التمهيد: الطباعة في مكة المكرمة قبيل فترة الدراسة.

المبحث الأول: الطباعة في مكة المكرمة خلال العصر العثماني.

المبحث الثاني: الطباعة في مكة المكرمة خلال العصر الهاشمي.

المبحث الثالث: الطباعة في مكة المكرمة خلال عهد الملك عبد العزيز آل سعود.

الخاتمة: أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة العلمية.

التمهيد: الطباعة في مكة المكرمة قبيل فترة الدراسة.

دخلت الحجاز تحت سيطرة العثمانيين سلميًّا عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م. واستبقى السلطان سليم الأول(١) نظام الحكم – الشرافة– السائد في إقليم الحجاز(٢). وبمقتضى هذا النظام يتولى الحكم أحد الأشراف، ويلقب باسم شريف مكة المكرمة وأميرها (٣).

لم تترك الدولة العثمانية منطقة الحجاز دون سيطرة، فقد استحدثت في جدة سنجقية (٤)، يقيم فيها والٍ كان يطلق عليه في أغلب الأحيان سنجق(٥)، وبعد خروج

---

(١) **سليم الأول:** هو سليم بن أبي يزيد بن محمد بن مراد، ولد في أماسية عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، وأصبح سلطاناً وعمره ٤٦ سنة، وكان السلطان سليم سلطاناً جبارًا قوي البطش، كثير السفك، وكان شديد اليقظة والتحفظ. يحب مطالعة التواريخ، وأخبار الملوك، وله نظم بالفارسية، والرومية، والعربية. استطاع ضم بلاد الشام والحجاز ومصر، وانتهت الدولة المملوكية على يديه. مرض وعجز الأطباء عن علاجه، مات في أدرنه عام ٩٢٦هـ/١٥١٩م، ودفن بجوار قبر أبيه السلطان أبي يزيد خان في أدرنه. الغزي: نجم الدين محمد بن محمد، **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، وضع حواشيه: خليل المنصور، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ١/٢٩٠-٢٩٢.

(٢) ششة: نوال سراج محمد، **الحجاز تحت حكم محمد علي باشا ١٢٢٦-١٢٥٦هـ/١٨١١-١٨٤٠م**، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤١٠هـ، ص٣٣.

(٣) الصواف: العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز، ص ٤٨؛ عمر: عمر عبد العزيز، **تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢م)**، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت، ص٩٧.

(٤) من الملاحظ على نائب جدة في العصر العثماني أنه كان يلقب بلقب سنجق، فيقال: " سنجق جدة " ويطلق على نيابة جدة " سنجقية جدة " وكلمة سنجق مصطلح تاريخي عثماني يطلق على نائب المنطقة الصغيرة الأقل من الولاية وتكون أحيانًا جزءًا من الولاية، وسنجق كلمة تركية معناها بالعربية العلم، وتطلق على الوالي أو النائب. كما تطلق أيضاً على المنطقة التي يحكمها، فيقال: " سنجق جدة " أي نائبها. ششة: نوال سراج: **جدة في مطلع القرن العاشر الهجري "السادس عشر الميلادي"**، ط١، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٦٨.

(٥) **سنجق:** هو الحاكم المدني لمركز إداري هو دون الولاية وفوق القضاء. المحامي: محمد فريد بك، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق: إحسان حقي، ط١، بيروت، دار النفائس، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، حاشية (٢)، ص٥٢٢.

قوات محمد علي باشا[١] من منطقة الحجاز سمي بوالي جدة بمرتبة وزير، ثم ما لبثوا أن نقلوا مقره إلى مكة المكرمة ولقبوه باسم والي الحجاز وكانت رتبته باشا[٢].

وخلال فترة حكم الدولة العثمانية للحجاز نشطت الحياة الثقافية والفكرية؛ وأصبحت قوية جدًّا، على الرغم من وجود حلقات العلم في المسجد الحرام، وكذلك وجود مدارس في مكة المكرمة قامت بدورها منذ عهدي الدولتين الأيوبية والمملوكية، إلا إن السلاطين العثمانيين وضعوا بصماتهم في زيادة نشاط الحركة العلمية في مكة المكرمة وذلك بإنشاء عدد من المدارس، على يد ولاتهم[٣] فيها، بالإضافة إلى المكتبات والتي أثرت الساحة الثقافية في الحجاز. وقد شهدت منطقة الحجاز عامة، ومكة المكرمة خاصة نهضة علمية وفكرية كبيرة نتيجة الدور الكبير الذي قام به المسجد الحرام من خلال حلقاته العلمية، الذي أدى إلى تفاعل فيه بين العلماء من

---

(١) **محمد علي باشا:** هو محمد علي باشا بن إبراهيم أغا بن علي، مؤسس آخر دولة ملكية بمصر، ألباني الأصل. ولد عام ١١٨٣هـ /١٧٦٩م، توفي والده وهو مازال في مرحلة الطفولة، فاعتنى به عمه طوسون إلى أن توفي، فتبناه أحد أصدقاء والده، وعمل على رعايته، فتعلم الفروسية واللعب بالسيف، التحق بالخدمة العسكرية في الجيش، وعندما بلغ الثلاثين من عمره انضم إلى الجيش مرة أخرى. انتقل إلى مصر عام ١٢١٦هـ/١٨٠١م كمعاون لرئيس كتيبة قولة مع الجيش الذي جاء لإجلاء الفرنسيين، وبقي في مصر؛ ونظرًا لتميزه فقد رقي إلى عدة مناصب فأصبح نائباً للسلطان العثماني، ثم والياً على مصر في عام ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م، حيث بدأ مهامه، كوالٍ بالقضاء على المماليك في مذبحة القلعة الشهيرة عام ١٢٢٦هـ/١٨١١م، كما قام بالقضاء على الإنجليز في معركة رشيد. شهد عصره الكثير من الإنجازات والإصلاحات في مختلف المجالات. توفي عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م، ودفن بالقاهرة. الزركلي: خير الدين، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء العرب والمستعربين والمستشرقين**، ط١٥، بيروت، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م، ٦/٢٩٨-٢٩٩.

(٢) ديدبية: شارل، **رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م**، ترجمها: محمد خير البقاعي، الرياض، دار الفيصل الثقافية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص١٩٧.

(٣) وقد كان الوالي ذا شخصية مهمة وله دور إداري كبير في الحجاز وله مهام وواجبات، وله الصلاحيات المطلقة التي آلت إليه، فكان هو المرجع الذي يأمر وينهى، وهو محور التحكم في كافة تفاصيل الشؤون الإدارية الداخلية والخارجية المتعلقة بأمور الحجاز. فنجد كثيراً من الإصلاحات التي في الحجاز تمت على يد هؤلاء الولاة. لمزيد من التفاصيل انظر دعدع: سحر علي محمد، **ولاة الحجاز في العصر العثماني في الفترة (٩٢٣-١٢٨٧هـ/١٥١٧-١٨٧٠م) دراسة تاريخية حضارية**، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ص١١١.

أهلها والعلماء المجاورين فيها من أقطار العالم الإسلامي، وكذلك طلبة العلم الذين يفدون إليها من شتى أقطار العالم الإسلامي للتدارس في هذه الحلقات العلمية؛ وبسبب هذا التفاعل، أصبحت هناك غزارة في الإنتاج العلمي، والذي جعل العلماء يألفون العديد من الكتب، فكان لابد من طباعة هذه الكتب، فكانوا يحرصون على طباعة هذه الكتب خارج مكة المكرمة، وخاصة في مصر، وهذا ما أكد عليه سنوك عندما قال:" وقبل أن تبدأ المطبعة العمل في مكة كانت معظم المطبوعات العامة تأتي من القاهرة، وفي القاهرة أيضاً كانت تطبع مؤلفات كتّاب مكة، وخاصة الكتب ذات الطابع الديني"(١).

ولم تكن مصر وحدها وجهًا لعلماء مكة المكرمة في طباعة المؤلفات، بل تجاوز المنطقة العربية لتصل إلى الهند وإندونيسيا، وكانت كتب دينية، مثل كتاب (مختصر تاريخ الشيخ عثمان بن سند البصري المسمى بمطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود) وطبع في بومباي في الهند عام ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م، وكتاب (القول المجدي في الرد على عبد الله ين عبد الرحمن السندي) لمحمد سعيد بن محمد سالم بابصيل(٢)، وطبع في باتافيا بإندونيسيا عام ١٣٠٩هـ/١٨٩١م(٣).

ومن خلال ما سبق يتضح غزارة الإنتاج العلمي لعلماء مكة المكرمة وحرصهم على طباعة مؤلفاتهم، حتى وإن كانت خارج مكة المكرمة.

---

(١) هورخرونية: ك: سنوك، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، ترجمة: علي عودة الشيخ، طبعة المئوية، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ٢/٤٨٠.

(٢) **محمد سعيد بن محمد سالم بابصيل:** ولد في مكة المكرمة، ونشأ بها وتلقى العلم عن علماء المسجد الحرام، أجيز له التدريس في المسجد الحرام، عَين أمين فتوى فاكتسب خبرة وتجربة، فأسند إليه منصب الإفتاء، سافر إلى صنعاء للتوسط بين الترك وإمام اليمن في إزالة أسباب الخلاف. توفي يوم الخميس ٢٣ربيع الثاني عام ١٣٣٠هـ/١٩١١م. عبد الجبار: عمر، **سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة**، ط٢، جدة، تهامة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٢٤٤.

(٣) جنيد: يحيى محمود، **الطباعة في شبة الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر الميلادي (١٢٩٧-١٣١٧هـ)**، ط١، الرياض، دار أجا، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٢٦؛ طاشكندي: عباس بن صالح، **الطباعة في المملكة العربية السعودية ١٣٠٠-١٤١٩هـ**، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص١٩؛ سليم: فريق صبري، **تاريخ الطباعة في الحجاز ١٨٨٣-١٩٢٤م**، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة بابل- كلية التربية للعلوم الإنسانية، مجلد ٢٨، عدد خاص، ٢٠٢١م، ص٧.

المبحث الأول: الطباعة في مكة المكرمة خلال العصر العثماني (١٣٠٠-١٣٣٤هـ/ ١٨٨٣-١٩١٥م)

حرصت الدولة العثمانية على إنشاء مطبعة في كل ولاية من ولاياتها، وهذا ما نصت عليه المادة التاسعة من نظام الولايات الصادرة في سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م، والذي يقضي بتأسيس مطبعة حكومية في كل ولاية من ولايات الدولة، وتكون تحت إدارة مدير إدارة وإشراف مكتوبجي[١] الولاية، وهو المسؤول عن تحريرات المواد الرسمية وغير الرسمية من خلال المطبعة[٢].

كما قام مفتي الشافعية في المدينة المنورة السيد جعفر البرزنجي[٣] سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م بإرسال طلب إلى الباب العالي بتأسيس مطبعة في المدينة المنورة، تقوم بطباعة الكتب والرسائل بدلاً من إرسالها إلى إستانبول [٤].

---

(١) **مكتوبجي:** مصطلح كان يطلق في العهد العثماني للدلالة على أمين سر الولاية، والمسؤول عن تحريرات الولاية، والمكاتبات الرسمية، والإشراف على مطبعة الولاية، وإصدار السالنامة، وهي الجريدة الرسمية للولاية، والإشراف على نشر فرمانات وأوامر وتعليمات الحكومة العثمانية في صحف الولاية. حلاق: حسان وصباغ: عباس، **المعجم الجامع في المصطلحات العثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية والأيوبية والمملوكية**، ط١، بيروت، دار النهضة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٢١٣.

(٢) نوفل: نوفل أفندي نعمة الله، **الدستور**، مراجعة: خليل أفندي الخوري، بيروت، المطبعة السورية، ١٣٠١هـ، ١/٣٨٣.

(٣) **جعفر البرزنجي:** جعفر بن إسماعيل بن زين العابدين البرزنجي، قاضي من أعيان المدينة المنورة. له اشتغال بالتأريخ والأدب. كان يحسن مع العربية التركية والفارسية والكردية. ولد ونشأ في السليمانية في العراق، وكان أبوه رحل اليها، من المدينة عند مهاجمة محمد علي باشا للحجاز، وسافر جعفر إلى مصر، فدخل الأزهر. وعاد مع أبيه إلى المدينة المنورة عام ١٢٧١هـ/١٨٥٤م وأكمل فيها دراسته. وتصدر للفتوى والتدريس بعد وفاة أبيه ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م وسافر إلى إستانبول، فعين قاضياً لصنعاء، فأقام فيها ست سنوات، وعاد الى المدينة مستعفياً. ودعي للقضاء بسيواس في تركيا عام ١٣٠٧هـ/١٨٨٨م فأقام عامين، وعاد إلى المدينة مفتياً ومدرّساً إلى أن توفي فيها. له عدد من المؤلفات. الزركلي: الأعلام، ٢/١٢.

(٤) صابان: سهيل، **مداخل بعض أعلام الجزيرة العربية في الأرشيف العثماني**، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٤١.

ولكن تأخر ظهور الطباعة في ولاية الحجاز، ويعود ذلك كما أشار أحد الباحثين إلى الشعور بعدم الحاجة إليها، بسبب سهولة اتصال أهل الحجاز بالدول المجاورة، وخاصة مصر والتي طُبعت فيها الكثير من كتب علماء الحجاز [١]، كذلك عدم اهتمام الولاة في ولاية الحجاز بذلك.

مطبعة الولاية (المطبعة الميرية) في مكة المكرمة:

ظهرت الطباعة في مكة المكرمة على يد واليها العثماني في ذلك الوقت عثمان نوري باشا[٢]، فقد قام بإنشاء مطبعة الولاية عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م، التي تعتبر أول مطبعة أسست في إقليم الحجاز، وكانت تسمى المطبعة الميرية، وسميت بعد ذلك مطبعة الحكومة. وكانت تقع مقابلة لمبنى الحميدية[٣] من

(١) جنيد: الطباعة في شبة الجزيرة العربية، ص ٢٢-٢٣.

(٢) **عثمان نوري باشا:** هو ابن أمير آلاي أحمد شكري بيك ولد عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م، وتخرج من مدرسة الحربية عام ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م برتبة يوز باشا، وفي عام١٢٨٨هـ/١٨٧١م أصبح بكباشي، وفي عام١٢٩٢هـ/١٨٧٥م أصبح قائمقام، وفي عام١٢٩٤هـ/١٨٧٧م أصبح أمير آلاي للمشاة، وفي عام ١٢٩٨هـ/١٨٨١م لواء الرديف وقائد الحجاز برتبة فريق، وفي عام ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م أسندت إليه ولاية الحجاز بالإضافة إلى وظيفته السابقة. وفي عام ١٣٠١هـ/١٨٨٣م أصبح مشير، وفي عام ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م أصبح والي حلب، وفي عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م أصبح والي اليمن، ثم استقال من ولاية اليمن، وفي عام ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م والي سورية، وفي عام ١٣٠٩هـ/١٨٩١م أصبح والياً للحجاز للمرة الثانية، وفي عام ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م أصبح والياً لحلب مرة ثانية، وفي عام ١٣١١هـ/١٨٩٣م والياً لسوريه مرة ثانية، وفي عام ١٣١٤هـ/١٨٩٦م انفصل من الوظيفة. وتوفي في رمضان عام ١٣١٦هـ/١٨٩٨م، ودفن في قروجة أحمد بإستانبول. دعدع: سحر علي محمد، **والي الحجاز عثمان نوري باشا ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م ١٣٠٩هـ-١٨٩١م وإصلاحاته في مكة المكرمة دراسة تاريخية حضارية**، مجلة كلية الآداب، جامعة الزقازيق، العدد ٦٥، يونيو ٢٠١٣م، ص٩٥.

(٣) **مبنى الحميدية:** أنشأ الوالي عثمان نوري باشا عام ١٣٠٢هـ /١٨٨٥م مقراً للحكومة العثمانية في مكة المكرمة في الساحة الأميرية أمام باب الوداع بجانب التكية المصرية مقابل الحرم المكي الشريف. وكان هذا البناء فخمًا محكمًا لا نظير له في سائر الولايات العثمانية، وقد بنى ليكون نموذجًا مصغرًا من مقر القيادة العسكرية في إستانبول. وقد ضم الطابق العلوي منها عددًا من الدوائر الحكومية ومرافقها، وإدارة الحرم الشريف، ودوائر الفرقة السلطانية. وأطلق على هذا الطابق الحميدية نسبة للسلطان العثماني في ذلك الوقت عبد الحميد الثاني. وفي الدور=

الناحية الجنوبية [١].

صدر الأمر بإنشائها من الحجر على طابقين، وقد تم إنشاء هذه المطبعة على **ثلاث مراحل:**

- **مرحلة التأسيس:** تم استيراد مطبعة صغيرة تدار بالقدم.
- **المرحلة الثانية:** أرسلت الدولة في عام ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م **مكنة متوسطة** مقاسها ٨٢ × ٥٧ سم من فيينا، ذات عجلة واحدة مزودة بكمية من الحروف العربية والتركية والفارسية والهندية، ولغة أهل جاوه.
- **المرحلة الثالثة:** بعد ذلك بعدة سنوات قامت الدولة العثمانية بتزويدها **بالمكنة الثالثة** عبارة عن آلة طباعة حجرية مقاسها ٥٠ × ٧٠ سم، وذلك لطبع كل أنواع الكتب الدينية وغير الدينية، وإرسالها إلى كل البلاد الإسلامية. وبعد عام من بنائها طبع بها تقويم الحجاز السنوي باللغة العربية والتركية[٢].

=الأرضي منه مقر للجند النظامية، وأخرى للشرطة، وإدارة للأوقاف، وكذا للمعارف، وكتابة العدل، والمحكمة المستعجلة. وقد أنفق على هذا المقر الحكومي ١٢ ألف ليرة عثمانية، وفي الوقت ذاته صدر أمر سلطاني بأن تجلب جميع المفروشات اللازمة لهذا المبنى من الهند هدية من السلطان عبد الحميد الثاني. وقد أزيلت الحميدية في التوسعة السعودية الأولى للمسجد الحرام عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٧م. الحضراوي: أحمد بن محمد، **تاج تواريخ البشر**، مخطوط بمكتبة مكة المكرمة، رقم ١٢٢، تاريخ، ق٤١٨؛ **سالنامة ولاية الحجاز ١٣٠٣هـ**، ص ١٢٩– ١٣٠.

(١) المكي: محمد الأمين، **خدمات العثمانيين في الحرمين الشريفين ومناسك الحج**، تحقيق: ماجدة مخلوف، ط٢، القاهرة، دار الأفاق العربية، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ٢٠٧/٥؛ المغربي: محمد علي، **أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة وبعض القرون الماضية**، ط٢، جدة، مطابع دار البلاد، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ١٢٩/٣.

(٢) المكي: خدمات العثمانيين في الحرمين، ص٢٤ ؛ الكردي: محمد طاهر، **التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم**، ط١، بيروت، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ٢٠٧/٥؛ الشامخ: محمد عبد الرحمن، **ظهور الطباعة في بلاد الحرمين**، مجلة دارة الملك عبد العزيز، مجلد٤، العدد٤، ١٩٧٨م، ص٣٩؛ الشامخ: محمد عبد الرحمن، **نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية**، ط١، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص١٢؛ يوسف: عماد عبد العزيز، **الحجاز في العهد العثماني١٨٧٦–١٩١٨**، بغداد، شركة الوراق للنشر المحدودة، ٢٠١١م، ص٩٢.

وفي ١٦ شعبان ١٣٠٤هـ/٩ مايو ١٨٨٧م أرسل مجلس إدارة ولاية الحجاز إلى نظارة المالية في إسطنبول بطلب الموافقة على صرف مبلغ من المال وقدره ثلاثمائة وأربعة آلاف قرش، من أجل إتمام إنشاء مطبعة الحكومة في مكة المكرمة. وقد وضح مجلس الإدارة في ولاية الحجاز بأن الخزينة المحلية أرسلت إلى ولاية الحجاز حوالة مالية من أجل إنشاء هذه المطبعة، ولكن تم تخفيض مبلغ الحوالة إلى ستمائة كسر ألف قرش(١). وهذا يدل دلالة واضحة على محدودية إمكانيات المطبعة.

ولم يستمر هذا الوضع طويلاً، فقد بدأ الضعف والتدهور يصيب المطبعة الميرية في مكة المكرمة، وذلك بسبب تلف بعض تجهيزاتها، وعدم وجود دعم ورعاية من قبل الحكومة العثمانية، وهذا ما أورده الشامخ بعد ترجمته لتقرير محرر الجريدة الرسمية "حجاز" عام ١٣٢٨هـ/١٩١٠م، يوضح ما أصاب المطبعة من إهمال ووهن بعد وفاة مؤسسها الوالي عثمان نوري باشا فقال: " إن مطبعتنا التي هي أحد التذكارات المهمة المتروكة للولاية من طرف المرحوم عثمان باشا الوالي الأسبق من حين تاريخ تأسيسها وبنائها وانفكاك الوالي المشار إليه من هنا لم تكن مظهراً للمعاونة بصورة ما، وكذلك من تطاول الأيادي والتدني والانحطاط المستحيل تعيين درجاته فيها، اليوم هي في طرز وموقع موجب لحزن أرباب الوجدان. منذ كم يوم زار أحد الذوات الذي كان في وقته قد طبع في هذه المطبعة بعض مؤلفاته، عند زيارته لها وجد قسماً من الماكنات جاءت إلى حالة ستكون ساقطة من الاستعمال، ووجد أكثر حروفها التي ما مر عليها التجديد من مدة مديدة في درجة قريبة لعدم الاستعمال، فلما رآها بهذه الحالة خرج منها متأسفاً محزوناً في حالة البكاء، وبذلك زاد حزناً عليها. إن هذه المطبعة المعروضة للخراب بأيدي الاستبداد لما رأت في هذه الأيام أن الأماكن والمؤسسات الأميرية وشعبات الولاية قد صارت مظهراً للإصلاحيات المفيدة بنتائج

(١) وثيقة رقم ١٤١٨/٨٧، رقم السجل (١١٦٧٦٣)، جهة الإصدار: الداخلية، التصنيف DH.MKTK، بتاريخ ١٦شعبان ١٣٠٤هـ/٢٧ إبريل ١٣١٣ (رومي) الموافق ٩ مايو ١٨٨٧م، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، الوثائق العثمانية. انظر الملحق رقم (١).

التفحصات والتدقيقات الكبيرة قامت تسعى بتقبيل يد الإصلاح الممدودة بالموفقية إلى كل الأطراف بشوق وجداني"[١].

التشكيل الإداري والفني للمطبعة:

ذكرت سالنامة الحجاز الصادرة عام ١٣٠١هـ/١٨٨٣م إلى التشكيل الإداري والفني لمطبعة الولاية وقد بلغت (١٠) موظفين[٢]. أما في عام ١٣٠٥هـ/١٨٨٧م، فقد حدث تطور في التشكيل الإداري والفني للمطبعة، حيث بلغ عدد العاملين (٢٨) موظفاً توزعت مسئولياتهم ما بين (إداريين، ومصححي الكتب العربية، ومصححي الكتب الجاوية، وفني الصف، المساعدوين الإداريين والكتبة، والمجلدين). وبلغ عدد العاملين في المطبعة عام ١٣٠٩هـ/١٨٩١م (٢٢) موظفاً على النحو التالي: (مدير المطبعة، مصححو الكتب العربية، مصححو الكتب الجاوية، عمال الصف والجمع والتجليد، وعمال الخدمات العامة)[٣].

ونلاحظ مما سبق أن المطبعة ورغم محدودية إمكانياتها كانت تسير وفق نظام إداري وفني فيه تحديد للمسئوليات الإدارية والفنية والتحريرية.

مطبوعات المطبعة الميرية:

طبعت مطبعة الولاية خلال المرحلة الأولى العديد من الأعمال أبرزها ما يلي:

١. طباعة سالنامة الحجاز أو " حجاز ولايتي سالنامة سي"، ويعتبر أول مطبوع دوري يصدر في منطقة الحجاز، وهي التقويم الرسمي السنوي لولاية الحجاز، ويحوي على معلومات وإحصائيات عن مختلف نواحي الحياة في ولاية الحجاز، وصدر باللغة التركية ابتداء من العام ١٣٠١هـ/١٨٨٣م، واستمر يصدر على

(١) الشامخ: نشأة الصحافة، ص ١٣-١٤؛ الشامخ: ظهور الطباعة في بلاد الحرمين، ص٣٩-٤٠.

(٢) سالنامة ولاية الحجاز، ١٣٠١هـ، ص٨٩؛ الشامخ: نشأة الصحافة، ص١٤؛ طاشكندي: الطباعة في المملكة العربية السعودية، ص٣٩.

(٣) الشامخ: ظهور الطباعة في بلاد الحرمين، ص٤٠.

فترات، وانتهى بصدور العدد الخامس منه والذي صدر عام ١٣٠٩هـ/١٨٩١م، ثم توقف بعد ذلك(١).

٢. طباعة عدد من الأعمال الثقافية من المؤلفات الأدبية والدينية والتراثية باللغات العربية والتركية والجاوية والملايوية والأردية. وقد بلغ ما طبعته مطبعة الولاية منذ تأسيسها حتى نهاية عهد السلطان عبد الحميد الثاني (٢) قرابة ٢٣٩عنواناً.

٣. طباعة الجريدة الأسبوعية "حجاز"، وتعتبر أول جريدة أسبوعية تصدر في الحجاز، وقد صدر منها العدد الأول في ٨ شعبان عام ١٣٢٦هـ/ ٣ نوفمبر عام ١٩٠٨م، واستمرت في الصدور مدة سبع سنوات متواصلة، وكانت تطبع في أربع صفحات، وتوقفت بخروج العثمانيين من الحجاز.

طباعة جريدة " شمس الحقيقة"، ونسختها التركية "شمس حقيقت"(٣).

مطبعة شمس الحقيقة:

كانت جريدة شمس الحقيقة في بداية أمرها تطبع في مطبعة الميرية، وقد صدر منها أول عدد بتاريخ ١٩٠٩/٢/١٦م، كما طبعت منها النسخة التركية (شمس

---

(١) الشامخ: ظهور الطباعة في بلاد الحرمين، ص٤٠؛ يوسف: الحجاز قي العهد العثماني، ص٩٣؛ طاشكندي: الطباعة في المملكة، ص٤٢-٤٣؛ وزارة الإعلام: **الصحافة في المملكة العربية السعودية**، ط١، وزارة الإعلام/ الإعلام الداخلي، إدارة النشر، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٥.

(٢) **عبد الحميد الثاني**: ولد السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م، وهو ابن السلطان عبد المجيد الأول (١٢٥٥-١٢٧٨هـ/١٨٣٩-١٨٦١م). بويع بالسلطنة عام١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، وخلع عام١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، توفي عام١٣٣٦هـ/١٩١٨م. حليم: إبراهيم بك، **تاريخ الدولة العثمانية العلية (التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية)**، ط١، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص٣٧١-٣٧٢

(٣) الشامخ: ظهور الطباعة في بلاد الحرمين، ص٤٢-٤٤؛ وزارة الإعلام: الصحافة، ص٦؛ طاشكندي: الطباعة في المملكة العربية السعودية، ص٤٦-٦٥؛ الخالدي: دايل بن علي، **الإدارة العثمانية وأنظمتها في الحجاز في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م)**، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٥هـ /٢٠١٤م، ص٣٧٠-٣٧١.

حقيقت)، وقد توقفت عن الصدور بعد عدة أشهر، وكان آخر عدد تم طباعته في المطبعة الميرية العدد الثاني والعشرين والذي كان بتاريخ ٢١شعبان عام ١٣٢٧هـ /٧ سبتمبر عام ١٩٠٩م. وقد كانت الجريدة قد نوهت وأشارت في أحد أعدادها على عزمها لشراء مطبعة خاصة بها، وفعلاً وصلت المطبعة لمكة المكرمة عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م عن طريق شركة تجارية خاصة، واستمرت الجريدة في الصدور حتى نهاية عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، وتوقفت بعدها(١).

مطبعة الترقي الماجدية:

تعتبر هذه المطبعة أول مطبعة أهلية في مكة المكرمة، فقد أسسها محمد ماجد الكردي(٢) في عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، بعد أن اشترى مطبعة شمس الحقيقة من جريدة شمس الحقيقة، وجعل مكانها في داره في الفلق(٣).

---

(١) الشامخ: نشأة الصحافة، ص١٩؛ طاشكندي: الطباعة في المملكة العربية السعودية، ص٨٢؛ سليم: تاريخ الطباعة في الحجاز، ص١١، ١٣.

(٢) **محمد ماجد الكردي:** يعد الشيخ محمد بن ماجد بن صالح كردي، أحد وجهاء مكة المكرمة، وأحد النخب الوطنية في الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري، ولد في مكة المكرمة عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م، وتلقى تعليمه على أيدي عدد من علمائها، وحفظ القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره، وكان شغوفاً بعالم الكتب والمعرفة حريصًا على نشر العلوم والمعارف، حتى إنه عمل على جمع عدد من الكتب والمخطوطات، حتى جمع مكتبة كبيرة جدًّا، حتى قيل أنها أكبر وأغنى مكتبة خاصة في مكة المكرمة أطلق عليها اسم المكتبة الماجدية وفي أوائل العهد السعودي عين مديراً للمعارف تقديراً لمكانته العلمية، ثم أسندت إليه مديرية الأوقاف العامة بمكة المكرمة، ويذكر أن في عهده تم إرسال أول بعثة علميه من أبناء المملكة للدراسة في معاهد مصر ومدارسها، ومع تعدد مهامه ومشاغله إلا إنه وصف من قبل معاصريه أنه سخر منزله أيضاً لخدمة رواد العلم، توفي في صعيد عرفات في اليوم التاسع من ذي الحجة عام ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م، وهو في لباس الإحرام مع حجاج بيت الله الحرام، ودفن حاجاً ملبياً في عرفات، وكان عمره خمس وخمسين عاماً. الزركلي: الأعلام، ٢٣٨/٧؛ المغربي: **أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري**، ط٢، جدة، تهامة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ٣٤١/١-٣٤٤؛ جريدة الرياض: العدد ١٧٢٣٨، الجمعة ٢٠ ذي القعدة عام ١٤٣٦هـ/٤ سبتمبر ٢٠٠٥م.

(٣) الشامخ: نشأة الصحافة، ص٢٠. **الفلق:** حارة صغيرة متوسطة بين ثلاث حارات: الشامية والقرارة والنقا، سميت بالفلق لأن ابن الزبير ﷺ ضربه أبوه حتى فلقه فسهل الطريق بالجبل. أبكر: عبد الله محمد، **صور من تراث مكة المكرمة في القرن الرابع عشر**، ط٢، دمشق، منار للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٤١٤ – ٤١٥.

ففي تاريخ ١٨ محرم ١٣٢٤هـ/٢٨ يونيو ١٨٩٦م أرسل محمد ماجد كردي طلب إلى الجناب العالي بشأن إعطاء رخصة لافتتاح مطبعة " ترقي" في مكة المكرمة، وأنه أرسل مبلغ مالي قدره ٢٠٠ قرش عن طريق سكة حديد الحجاز، وقد أصدر السلطان العثماني بالموافقة وأمر بإرسال الرخصة باسم محمد ماجد كردي إلى ولاية الحجاز، وإرسال جواب إلى نظارة الداخلية بشأن صرف مبلغ مالي وقدره ٢ ليرا مختوم بختم الولاية إلى محمد ماجد الكردي(١).

وقد أسس الكردي مطبعته من ثلاث مطابع "إحداها مطبعة حجرية عظيمة كلفته مبالغ طائلة جدًّا وتطبع بها الخرائط الملونة المتنوعة، ومن ضمن ما طبع بها خريطة جزيرة العرب بالألوان. ومعها مطبعتان حرفيتان هامتان"(٢).

وقد وصف معاصري ماجد الكردي المطبعة الماجدية في عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م، فقد وصف رشدي ملحس المطبعة بقوله:" أنها كانت مجهزة بماكنات كبيرة". كما ذكر سعيد عبد المقصود بأن الشيخ الكردي قد " زودها بأدوات كثيرة وأنفق عليها أموالاً باهظة سعياً وراء تحسين هذا الفن وانتشاره"(٣). وذكر المغربي أن الكردي استورد مطبعة من الخارج لدعم المطبعة التي اشتراها من جريدة شمس الحقيقة(٤).

ويتضح مما سبق أنه رغم محدودية الإمكانيات في المطابع لكنها أدت دورًا كبيرًا في حركة الحياة الثقافية في الحجاز عامة، وفي مكة المكرمة خاصة؛ إذ إنها أصدرت العديد من المؤلفات والكتب التي كانت تعكس ثقافة تلك الفترة الزمنية، بالإضافة إلى طباعة المطبوعات الحكومية من أوراق وسالنامات وصحف سواء باللغة العربية أو التركية.

---

(١) وثيقة رقم ٢٧٣٥/٧٠، رقم السجل ١١٨٨٨١، التصنيف الأصلي DH.MKTK، تاريخ ١٨ محرم ١٣٢٤هـ/٢٨ كانون الثاني ١٣٢٤(رومي) الموافق ٢٨ يونيو ١٨٩٦م، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، الوثائق العثمانية. انظر الملحق رقم (١).

(٢) العامودي: محمد سعيد، **المكتبة الماجدية بمكة المشرفة**، مجلة المنهل، عدد ١٠ شوال ١٣٦٥هـ/ سبتمبر ١٩٤٦م، ص٤٧٦.

(٣) نقلاً عن الشامخ: نشأة الصحافة، ص٢٠.

(٤) المغربي: أعلام الحجاز، ٣٤٢/١.

المبحث الثاني: الطباعة في مكة المكرمة خلال العصر الهاشمي (١٣٣٤هـ-١٣٤٣هـ /١٩١٦-١٩٢٤م)

بعد قيام الثورة العربية الكبرى [١] في الحجاز وإعلان الشريف الحسين بن علي[٢] قيام مملكة الحجاز في عام ١٣٣٤هـ/١٩١٦م، وبعد الانتهاء من الحرب

---

(١) **الثورة العربية الكبرى:** هي ثورة عربية مسلحة ضد الدولة العثمانية، بدأت في الحجاز، حينما أعلن الشريف الحسين بن عن قيام الثورة بإطلاق طلقة واحدة من بندقيته، وذلك قبل فجر يوم التاسع من شعبان ١٣٣٤هـ/١٩١٦م في مكة المكرمة. واستطاع إخراج العثمانيين من الحجاز، وامتدت الثورة حتى وصلت بلاد الشام، وتمكن من إسقاط الحكم العثماني فيها، وفي العراق. هدفت الثورة، إجلاء العثمانيين من الحجاز، وإقامة دولة عربية، أو اتحاد دول عربية يشمل شبه الجزيرة العربية نجد والحجاز على وجه الخصوص وبلاد الشام .تمكن جيش الثورة العربية الكبرى، من تحقيق انتصارات عسكرية، وهزم الجيش العثماني، في مرحلة ما بعد الانتصار العسكري للثورة، ثم اتجه الرأي لإقامة اتحاد أو تحالف دول عربية بدلاً من دولة عربية واحدة، يتولى رئاستها الهاشميون، فيكون الشريف الحسين بن علي ملكًا لنجد والحجاز، وقد زالت مملكته في الحجاز عام١٤٤٣هـ/١٩٢٦م على يد الملك عبد العزيز طيب الله ثراه. **مذكرات تحسين علي ١٨٩٠–١٩٧٠**، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤، ص٢٨؛ الحسني: محمد بن علي، **تاريخ الثورة العربية الكبرى**، ط١، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ٢٠١٣م، ٢٦٢/٢.

(٢) **الشريف الحسين بن علي:** هو الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون، يرجع نسبه إلى أبي نمي ابن بركات الحسنيُّ الهاشمي، آخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين. ولد في الآستانة عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م، وكان أبوه قد نفي إليها. وانتقل معه إلى مكة المكرمة، وعمره ثلاث سنوات. تأدب وتفقه ونظم الشعر الملحون، ومارس ركوب الخيل وصيد الضواري. وأحبه عمه الشريف عبد الله باشا، أمير مكة المكرمة، فوجهه للقيام بعدة مهمات حربية. ومات أبوه وعمه، وآلت إمارة مكة المكرمة إلى عمه الثاني عون الرفيق، فلم يتحمل عمه هذا تدخله في شئون الإمارة، وكانت تابعة للدولة العثمانية، فطلب إبعاده من الحجاز، فنفي إلى الآستانة عام ١٣٠٩هـ/١٨٩١م، وأقام فيها إلى أن توفي عون الرفيق، ثم عمه الثالث الشريف عبد الإله، فعين أميراً لمكة المكرمة عام ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، وفي عام ١٣٣٤هـ/١٩١٦م أعلن عن الثورة العربية الكبرى، وتم له إخراج العثمانيين من الحجاز، استطاع أن يسيطر على بلاد الشام، وأصبح ملكاً لمملكة الحجاز، وفي عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م=

العالمية الأولى(١٩١٤-١٩١٨م)، وبعد أن هدأت الأوضاع السياسية قليلاً، بدأ الشريف الحسين بن علي يلتفت نحو المطبعة الميرية بعد أن آلت إلى حكومته.

اتخذ الشريف الحسين بن علي من المطبعة الميرية مطبعة رسمية لمملكة الحجاز، خصصها لطباعة الأوراق الحكومية، وصحيفة القبلة، هذا وقد أمر الشريف الحسين بن علي بشراء مطبعة "تيب توب" من محلات ديكنسون بالقاهرة، لطباعة جريدة القبلة خصيصاً[١].

أهم مطبوعات المطبعة في العهد الهاشمي:

- **جريدة القبلة:** تعتبر صحيفة المملكة الرسمية، وتعتبر صحيفة دينية سياسية اجتماعية واقتصادية وفكرية وثقافية، كانت تصدر يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، كما كانت ترسل عبر البحر للعالم الخارجي. وتعد جريدة القبلة هي جريدة الدولة الرسمية والناطق الرسمي باسمها، واستمرت الجريدة بالصدور مدة تزيد عن ثمان سنوات بعدد أربع صفحات للعدد الواحد. وقد صدر منها العدد الأول بتاريخ ١٥ شوال عام ١٣٣٤هـ /١٩١٥م، وقد اتخذت الجريدة من الآية الكريمة ﴿وَمَا جَعَلنَا القِبْلَةَ الَتِي كُنتَ عَلَيْهَا إلا لِنَعْلَمَ مَن يَتبِعُ الرَّسُول مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾[٢]، شعاراً لها. وكان آخر أعدادها العَدد (٨٢٣)، ثم انقطع صدورها في الخامس والعشرين من شهر صفر عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، وهو يوم انتهاء الحكم الهاشمي في الحجاز[٣]. ولقد تناولت جريدة " القبلة" مواضيع مختلفة: السياسية، والدينية،

=خرج من مكة المكرمة إلى جدة بعد أن استطاع الملك عبد العزيز يرحمه الله من الدخول إلى الطائف ومنها إلى مكة المكرمة، وخرج الشريف الحسين من جدة إلى جزيرة قبرص عام ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م، وأقام فيها ست سنين، ثم مرض فأذن له الإنجليز بالعودة إلى عمان. مكث معتلاً ستة أشهر وأياماً، ووافته المنية عام ١٣٥٠هـ/١٩٣١م، فحمل إلى القدس ودفن فيها. جارشلي: إسماعيل حقي، **مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني**، ترجمة: خليل علي مراد، ط١، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٢٢٨-٢٣٣.

(١) العموش: أنس نايف، **مكة المكرمة عاصمة مملكة الحجاز في العهد الهاشمي**، ط١، عمّان، مركز التوثيق الملكي الأردني الهاشمي، ٢٠٢٠م، ص٢٠٥.

(٢) سورة البقرة: آية ١٤٣.

(٣) طاشكندي: الطباعة في المملكة العربية السعودية، ص٧٨؛ العموش: مكة المكرمة عاصمة مملكة الحجاز، ص٢٠٥-٢١٤.

والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية، والثقافية، كما حددت هدفها "بخدمة الإسلام والعرب"(١).

- **مجلة جرول الزراعية:** تعد المجلة الأولى في الحجاز فقد صدرت في مكة المكرمة بتاريخ ١رجب ١٣٣٨هـ/ ٢١ مارس١٩٢٠م، ويعمل على تحريرها طلاب المدرسة الزراعية، وكانت عبارة عن مجلة فنية زراعية، تجارية، صناعية، تهتم بالزراعة، والأرض، ونشر الوعي الزراعي. وقد كان اهتمام المجلة في الزراعة، والثروة الحيوانية، والعلوم الطبيعية، والطقس. وقد بلغ عدد صفحاتها في العدد الأول (٣٠) صفحة، أما العددان الثاني والثالث فقل بلغ كل منهما إلى (٣٢) صفحة. كانت تصدر في أول أسبوع من كل شهر، وبلغ اشتراكها ٥٠ قرشاً، وتوقفت عن الصدور في نفس العام (٢).
- **التقويم الحجازي**
- **إمساكية رمضان** (٣).
- كما تم طباعة بعض الكتب فيها مثل كتاب " الوسيلة المرعية لمعرفة الأوقات الشرعية" لخليفة النبهاني(٤)، وكتاب " الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن" لعبد العزيز الكناني(٥).

ونلاحظ مما سبق أن المطبعة قللت في طباعة الكتب المختلفة، ويعود ذلك لضعف الدعم المادي والرعاية وقلة الموارد الاقتصادية للبلاد، فلم تعد المطبعة قادرة على طباعة الأعمال والمؤلفات مثلما كانت في السابق.

---

(١) العموش: مكة المكرمة عاصمة مملكة الحجاز، ص٢٠٨.

(٢) الشامخ: نشأة الصحافة، ص١٢٧-١٢٩؛ العموش: مكة المكرمة عاصمة مملكة الحجاز، ص٢١٦.

(٣) المرجع السابق: ص٢٠٤.

(٤) **خليفة النبهاني:** هو خليفة بن حمد النبهاني المالكي المكي (ت١٣٦٢هـ/١٩٤٣م)، تلقى علومه في مكة المكرمة، وتخصص في علمي الفلك والميقات. المرعشلي: يوسف، **نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر**، ط١، بيروت، دار المعرفة، ٢٠٠٦م، ص ٤٠٩.

(٥) الكناني: هو أبو الحسن عبد العزيز الكناني المكي، (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م)، فقيه، مناظر، كان أحد تلاميذ الإمام الشافعي. العموش: مكة المكرمة عاصمة مملكة الحجاز، هامش(٣)، ص٢٠٤.

المبحث الثالث: الطباعة في مكة المكرمة في عهد الملك عبد العزيز (١٣٤٣-١٣٧٣هـ /١٩٢٤-١٩٥٣م)

دخلت مكة المكرمة تحت حكم الملك عبد العزيز[١] طيب الله ثراه عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، وبعد أن استتب الأمر للملك عبد العزيز في توحيد البلاد سعى إلى ترسيخ بنيتها السياسية والثقافية، وذلك عن طريق تطوير التجهيزات والآلات القائمة، وتفعيلها بما يتلاءم مع إمكانية وحاجة البلاد.

وقد صدر عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م أمر ملكي بالموافقة على أول نظام للمطابع والمطبوعات، والذي صدر الأمر في أربعة أبواب، تخصص الباب الأول بالتعريفات، والباب الثاني تحدث عن نظام المطابع وضوابط أدائها، وجاء الباب الثالث لتنظيم إصدار الدوريات سواء الصحف أو المجلات أو النشرات الدورية، وتناول الباب الرابع والأخير التوزيع والتسويق كافة وضوابط التعامل بها[٢].

أما المواد المذكورة في النظام والمنظمة للمطابع فهي على النحو التالي:

"**المادة الثالثة:** على كل من يريد فتح مطبعة أن يستحصل على رخصة من الحكومة.

---

(١) **الملك عبد العزيز:** هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، ولد في الرياض عام ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، وكانت الفترة من أشد الفترات صراعاً في منطقة نجد والتي أدت في نهاية المطاف إلى سقوط الدولة السعودية الثانية ١٣٠٨هـ/١٨٩١م، عاش فترة في الكويت مع والده وأسرته، وقد لديه إصرار كبير في استرداد ملك أبائه وأجداده، واستطاع استرداد الرياض ٥ شوال ١٣١٩هـ/ ١٥ يناير ١٩٠٢م، وقد تمكن من توحيد المملكة العربية السعودية في ١٣٥١هـ/ ٢٣ سبتمبر ١٩٣٢م، توفي بالطائف في الثاني من ربيع الأول ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م، ودفن في مقبرة العود بالرياض. الزركلي: خير الدين، **شبة الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز**، ط١، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٢م، ١/٥٥-٥٦؛ عطار: أحمد عبد الغفور، **صقر الجزيرة**، ط٢، جدة، المؤسسة العربية، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ١/٢٢-٢٣.

(٢) جريدة أم القرى: نظام المطابع والمطبوعات، السنة ٥، العدد ٢٢٦، ص٣؛ جريدة أم القرى: نظام المطابع والمطبوعات، سنة٥، العدد ٢٢٧، ص٣؛ القحطاني: منى قائد آل ثابته، **التنظيمات الداخلية في مكة المكرمة بعد دخول الملك عبد العزيز آل سعود (١٣٤٣-١٣٥١هـ/١٩٢٤-١٩٣٢م)**، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص٣٧٠.

المادة الرابعة: على من يريد الحصول على رخصة بفتح مطبعة أن يقدم طلباً إلى الحكومة يبين فيه اسمه شهرته ومحل إقامته وأسماء شركائه ومحلات إقامتهم وغير ذلك من التفاصيل التي قد تطلبها منه الحكومة من وقت لآخر، وأن يقدم ضمانة نقدية قدرها خمسون جنيهاً[١] إلى صندوق الحكومة.

المادة الخامسة: يجب على صاحب أو أصحاب المطبعة حين الانتقال من محل إلى آخر إبلاغ الحكومة بذلك، كما إنه في حين انتقال ملكية المطبعة من شخص إلى آخر سواء كان ذلك بالبيع أو الشراء أو الأرث، يجب على الصاحب الجديد أو الورثة أو وصيهم أن يقدموا البيان المطلوب طبقاً للمادة الرابعة.

المادة السادسة: الذين يفتحون مطابع من دون استحصال رخصة سابقة بذلك ويشرعون في إجراء عملية الطبع في مطابعهم تقفلها الحكومة وتغرمهم بدفع جزاء نقدي قدروه خمسون جنيهاً.

المادة السابعة: على أصحاب المطابع الموجودة حالياً أن يقوموا بتقديم البيان المطلوب واستحصال الرخصة طبقاً للنصوص المذكورة أعلاه في خلال شهر من تاريخ نشر هذا النظام.

المادة الثامنة: على صاحب المطبعة أو مديرها أن يقدم قبل التوزيع من كل ما يطبعه من المطبوعات الآتية، وهي:

١. الكتب بأنواعها بما فيها الكراريس.
٢. الصحف والمنشورات بأنواعها.
٣. المجلات والنشرات الدورية بأنواعها.

---

(١) **الجنية:** هو الجنية الإنجليزي وكان هذا النقد يرد إلى أسواق البلاد شأنه شأن باقي العملات الإنجليزية التي ترد عن طريق الهند أهم المستعمرات البريطانية آنذاك. عرف باسم جنيه جورج؛ نسبةً إلى الإمبراطور جورج الخامس، وعرف محليًّا بجنيه أبو خيال؛ بسبب وجود صورة رجل يمتطي حصاناً على ظهره، ولقي رواجًا كبيرًا؛ لأنه ضُرب من الذهب، وكان نقيَاً وثابت الوزن. ولأن هذا النقد مضروب من معدن الذهب فقد لقي رواجاً كبيراً بين سكان البلاد. مؤسسة النقد العربي السعودي، **مؤسسة النقد العربي السعودي إصداراتها من النقود، ومقتنياتها من النقود القديمة والإسلامية**، الرياض، مؤسسة النقد العربي السعودي، ١٤١١هـ.

فالمطبوعات المذكورة في البند الأول تقدم منها نسختان إلى كل من النيابة العامة وإدارتي المطبوعات والمعارف، والمطبوعات المذكورة في البندين الثاني والثالث تقدم منها نسختان إلى كل من النيابة العامة وإدارة المطبوعات. وعلى كل لا يجوز لصاحب مطبعة أن يباشر في طبع المطبوعات المذكورة في البند (١) ولا الأخرى إذا كان الفرق بين مدة صدورها أكثر من شهر إلا بإذن سابق من الحكومة.

المادة التاسعة: لا يجوز طبع المصاحف الشريفة وكتب الأحاديث النبوية وكتب العقائد إلا برخصة من الحكومة.

المادة العاشرة: يجب أن يوضع اسم المطبعة على كل نشرة أو كتاب أو مجلة تطبع فيها، ويستثنى من ذلك الأوراق المتعلقة بالأمور الذاتية أو الحكومية.

المادة الحادية عشرة: كل مخالف لأحد النصوص السابقة (ماعدا المذكورة في المادة السادسة) يجازى بدفع غرامة نقدية من جنيه واحد إلى عشرة جنيهات، وإذا تكررت يضاعف الجزاء"[١]. ومما يدل على عناية واهتمام الملك عبد العزيز رحمه الله بتنشيط حركة الطباعة والنشر، وافقت الحكومة في ٢٧ جماد الآخرة ١٣٥١هـ/٢٨ أكتوبر ١٩٣٢م على قرار مجلس الشورى رقم (٦٦٢) بتاريخ ١٣ من شهر ذي القعدة ١٣٥٠هـ/٢١ مارس١٩٣٢م بإعفاء ورق طباعة الكتب الدينية من الرسوم الجمركية[٢].

أهم المطابع في عهد الملك عبد العزيز:

- **مطبعة أم القرى:** دخلت المطبعة الميرية مرحلتها الثالثة، وتم تغيير مسماها إلى " مطبعة أم القرى"، واعتبرت هي المطبعة الحكومية الرسمية للمملكة

(١) جريدة أم القرى: **نظام المطابع والمطبوعات**، السنة ٥، العدد ٢٢٦، ص٣؛ جريدة أم القرى: **نظام المطابع والمطبوعات**، سنة٥، العدد ٢٢٧، ص٣.

(٢) الشامخ: محمد عبد الرحمن، **الصحافة في الحجاز ١٩٠٨-١٩٤١ دراسة نصوص**، ط١، بيروت، دار الأمانة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص٢٥٩-٢٦٠؛ القحطاني: التنظيمات الداخلية، ص٣٧٠.

العربية السعودية[١]، وفي ٢٠ رجب ١٣٤٦هـ/١٣ يناير ١٩٢٨م قررت الحكومة استيراد مطبعة جديدة وكبيرة من الطراز الحديث، وتكون مجهزة بأحسن الآلات والأدوات لقوم بطباعة جميع طلبات الحكومة والدوائر الرسمية عوضاً عن المطبعة القديمة والتي مضى عليها أكثر من أربعين سنة في ذلك الوقت[٢]. وأُضيف إليها عددًا من المطابع الصغيرة، لتنشيط دورها في الطباعة، كما قدمت لها الحكومة دعم من عدة نواحي أهمها:

- تعاقد الحكومة عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م مع مصباح طباره[٣] من سوريا، لتدريب بعض الموظفين السعوديين على عمل الطوابع وأعمال الحفر.
- كما قامت وزارة المالية السعودية عام ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م بإنشاء قسم خاص بالوزارة للمطابع للاهتمام بالمطابع والعمل على تطويرها.

---

(١) حكم آل سعود تاريخيًّا في نجد ومناطق واسعة من الجزيرة العربية أكثر من مرة، فقد تأسست الدولة السعودية الأولى على يد الإمام محمد بن سعود في عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، في إمارة الدرعية، وظلت حتى قاد إبراهيم باشا بحملة للقضاء عليها عام ١٢٣٣هـ /١٨١٨م، ويطلق على تلك المرحلة" الدولة السعودية الأولى، ولم يطول الوقت حتى تمكن الإمام تركي بن عبد الله بن محمد من إقامة أمارة جديدة في نجد واتخذ الرياض عاصمة لها، واستمرت حتى عام ١٣٠٨هـ/١٨٩١م حتى انتزع آل رشيد حكام إمارة حائل الحكم من آل سعود وتسمى تلك المرحلة بـ"الدولة السعودية الثانية". وفي عام ١٣١٩هـ/١٩٠٢م تمكن عبد العزيز بن عبدالرحمن من استرداد حكم مدينة الرياض من أيداي آل رشيد، ثم بدأ في التوسع في السيطرة الكاملة على منطقة نجد في عام ١٣٤٠هـ/١٩٢١م وتسمت بسلطنة نجد، وأطلق عليه سلطان نجد، ثم سار متوجهاً إلى الحجاز واستطاع دخولها وضمها إلى سلطنته عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م، وتسمت مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها، وبعدها بعام غيّر لقبه من سلطان نجد إلى ملك نجد، وظلت بذلك الاسم حتى وحد عبد العزيز جميع المناطق التي يسيطر عليها في كيان واحد، وكان ذلك في ٢١ جماد الأولى ١٣٥١هـ/٢٣ سبتمبر ١٩٣٢م وأُعلن اسمها "المملكة العربية السعودية. جريدة ام القرى: العدد ٤٠٦، ٢٨ جماد الأولى ١٣٥١هـ/٢٣ سبتمبر ١٩٣٢م؛ ولمزيد من التفاصيل انظر الزركلي: شبة الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز.

(٢) جريدة أم القري: العدد ١٦١، السنة الرابعة، ٢٠ رجب ١٣٤٦هـ/١٣ يناير ١٩٢٨م، ص١.

(٣) **مصباح طبارة:** لم أجد له ترجمة فيما تيسر لي من مصادر.

- تعاقدت الحكومة السعودية عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م مع أحد المهندسين من الخارج وبعض الفنيين في صف الحروف وزودتهم الأدوات اللازمة والآلات، وكلفتهم بتدريب عدد من الموظفين على فنون الطباعة.
- خصصت وزارة المالية مبلغاً من المال يصرف أمانة (مكافأة) للذين يتعلمون فنون الطباعة في مطبعة أم القرى، والهدف من ذلك تجهيز المطبعة بالكفاءات البشرية الوطنية المؤهلة.
- استوردت الحكومة عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م عدد من مكنات الطباعة الحديثة بمقاسات مختلفة تشتغل بالكهرباء بدلاً من اليد، وهذا يعد نقلة نوعية لتطوير الإمكانيات في مطبعة أم القرى.
- أنشأت الحكومة في عام ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م في المطبعة قسمًا خاصًّا بالتجليد، وجهزته بجميع الأدوات والمستلزمات اللازمة لتجليد المطبوعات [١]. وفي نفس العام أعلنت مطبعة أم القرى افتتاح قسمًا جديدًا لتعليم فن الطبع على المكنات، وتعيين رواتب شهرية للمتعلمين مساعدة وتنشيطاً لهم، وقد اشترطت لمن يريد الانتساب: أن يجيد القراءة والكتابة، وأن لا يزيد عمره عن خمس وعشرين سنة[٢]. كما أعلنت المطبعة في نهاية نفس العام على أنها افتتحت شعباً جديدة لتعليم فن صف الحروف والطبع والتجليد في هذه الأقسام وتحت إدارتها، وحباً في تشجيع هذا الفن فسوف تدفع الإدارة اعانات شهرية للمتعلمين مساعدة لهم وترغيباً في تعلم هذا الفن[٣].
- وفي ١٣٥٧/١/١٤هـ الموافق ١٩٣٨م صدر أمر ملكي بارتباط مطبعة أم القرى بوزارة المالية[٤]. وفي نفس العام ابتعثت الحكومة عدد سبعة مواطنين إلى مطبعة

(١) جريدة أم القرى: العدد ٦٧٥، السنة الربعة عشر، ٨ رمضان ١٣٥٦هـ/١٢نوفمبر١٩٧م، ص٤.
(٢) جريدة أم القرى: العدد ٦٤٥، السنة الثالثة عشر، ٥ صفر١٣٤٥٦هـ/١٦إبريل ١٩٣٧م، ص٨.
(٣) جريدة أم القرى: العدد ٦٩٠، السنة الربعة عشر، ٢٥ ذي الحجة ١٣٥٦هـ/٢٥ فبراير ١٩٣٨م، ص٧. انظر الملحق رقم (٢).
(٤) وثيقة رقم ٩١٩، رقم السجل ٢٩٢٩٩، تاريخ ١٣٥٧/٤/٣هـ، المجموعة تبوك، رقم الملف ١٧، الرقم ٠٥٢٢٧، الرياض، دارة الملك عبد العزيز. انظر الملحق رقم (١).

بولاق بالقاهرة للتخصص دراسة الطباعة، وفي عام ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م انتدبت مطبعة أم القرى عدد شخص للالتحاق ببعثتها الموجودة في مصر لتعليم فن الطباعة(١)، وقد عادت هذه البعثة إلى أرض الوطن بعد انتهائها من تعلم فن الطباعة في شهر شعبان عام ١٣٥٨هـ/سبتمبر عام ١٩٣٩م(٢).

وقد كانت مطبعة أم القرى محورًا أساسيًّا لحركة الطباعة وتموين الدوائر الحكومية بمستلزماتها، كما كانت ولازالت تقوم بطباعة جريدة أم القرى والذي صدر منها العدد الأول بتاريخ ١٥ جمادى الأولى عام١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، كجريدة رسمية للبلاد، وهي صحيفة أسبوعية، كما قامت المطبعة بطباعة تقويم أم القرى السنوي والطوابع وأوراق الدمغة، والمناهج الدراسية، وكذلك المطبوعات الحكومية والنظم واللوائح والتعليمات الخاصة بالوزارات والمصالح الحكومية، بالإضافة إلى الكتب التي تطبع للتسويق التجاري، والكتب التي تطبع على نفقة الملك عبد العزيز الخاصة(٣). كما صدر إعلان في صحيفة أم القرى في أكثر من عدد عن استعداد المطبعة في طباعة الأوراق التجارية والبطاقات والكواشين والكتب بأسعار معتدلة(٤).

(١) جريدة أم القرى: العدد ٧١٩، السنة الخامسة عشر، ٢٢ رجب ١٣٥٧هـ/١٦ سبتمبر ١٩٣٨م، ص٤؛ جريدة أم القرى: العدد ٧٤٩، السنة الخامسة عشر، ١ ربيع الأول ١٣٥٨هـ/٢١ إبريل ١٩٣٩م، ص٤؛ جريدة صوت الحجاز: العدد٣٢٤، السنة السابعة، ١٩ رجب ١٣٥٧هـ/١٣ سبتمبر ١٩٣٨م، ص٢.

(٢) جريدة أم القرى: العدد ٧٧٠، السنة السادسة عشر، ١ شعبان ١٣٥٨هـ/١٥ سبتمبر ١٩٣٩م، ص٤؛ جريدة أم القرى: العدد٧٧١، السنة السادسة عشر، ٨ شعبان ١٣٥٨هـ/٢٣ سبتمبر ١٩٣٩م، ص٥.

(٣) طاشكندي: الطباعة في المملكة العربية السعودية، ص١٧٦؛ الشقير: عبد الرحمن بن عبد الله: **طباعة الكتب ووقفها عند الملك عبد العزيز دراسة تحليلية وقائمة ببليوجرافية**، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٤هـ، ص٨٠.

(٤) جريدة أم القرى: العدد ١٠٧، السنة الثالثة، ٢٥ جمادي الثانية، ١٣٤٥هـ/٣١ ديسمبر١٩٢٦م، ص٤؛ جريدة أم القرى: العدد ١٠٩، السنة الثالثة، ١٠ رجب ١٣٤٥هـ/١٤ يناير ١٩٢٧م، ص٤. انظر الملحق رقم (٢).

- **المطبعة السلفية:**

وهي مطبعة تأسست في مكة المكرمة عام ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م، واتخذت من حارة الشبيكة[١] مقرًّا لها، وكانت شراكة بين محمد صالح نصيف[٢]، وعبد الفتاح قتلان[٣]، وقد تمكنا من شراء مطبعة مجلة دار المنار من السيد محمد رشيد رضا[٤]، وتم تصديرها وشحنها إلى مكة المكرمة عام ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م، وهي مطبعة قديمة كانت تدار باليد، ولكنها قامت بدور كبير في الطباعة، فكان من أهم إصدارات المطبعة جريدة صوت الحجاز، والذي صدر العدد الأول منها في المطبعة السلفية بتاريخ ٢٧ ذي القعدة عام ١٣٥٠هـ/٤ إبريل ١٩٣٢م والذي استمر صدورها حتى

---

(١) **حارة الشبيكة:** حي كبير من أحياء مكة المكرمة يمتد من المسجد الحرام غرباً إلى ربع الحفائر، وشمالاً إلى حارة الباب. وهي من أعرق أحياء مكة المكرمة، ولها مقبرة قديمة مهجورة بطرفها الغربي ملاصقة للجسر الكبير الذي أقيم ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، وتم إزالة حي الشبيكة في عام ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م لصالح توسعة المسجد الحرام. البلادي: عاتق بن غيث، **معجم معالم الحجاز**، ط٢، مكة المكرمة، دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ٥/١٨.

(٢) **محمد صالح نصيف:** ولد بمدينة جدة في عام ١٣١٠هـ/١٨٩٢م، عين في العهد السعودي عضوا بمجلس الشورى عن مدينة جدة، وأنتقل بأسرته إلى مكة المكرمة، كان رائداً ما رواد الصحافة في الحجاز؛ لأنه من السابقين في إصدار الصحف في الحجاز، اختير لرئاسة ماليات وجمارك جيزان في عهد وزير المالية الأسبق الشيخ عبد الله السليمان، وانتقل إلى هناك عدة سنوات، ثم عاد إلى الحجاز. توفي رحمه الله عام ١٣٩١هـ/١٩٧١م في مدينة جدة عن عمر يناهز الواحد والثمانين عاماً. المغربي: أعلام الحجاز، ١/٢٧٦-٢٨٦.

(٣) عبد الفتاح قتلان: عمل مديراً للمطبعة السلفية ومكتبتها في مكة المكرمة في عهد الملك عبد العزيز. السماري: فهد بن عبد الله، **مكتبة الملك عبد العزيز آل سعود الخاصة**، الرياض دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص١١

(٤) **محمد رشيد رضا:** هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة المنار، وأحد رجال الإصلاح الإسلامي. من الكتّاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير. ولد ونشأ في القلمون، وتعلم فيها وفي طرابلس، وتنسك، ونظم الشعر في صباه، وكتب في بعض الصحف، ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٧م فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ على يده. ثم أصدر مجلة المنار لبث آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي. أنشأ مدرسة الدعوة والإرشاد. توفي عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م، ودفن في القاهرة. الزركلي: الأعلام، ٦/١٢٦.

الخامس من شهر محرم عام ١٣٥٤هـ /١٩٣٥م، كما كان لها دور في طباعة عدد من المؤلفات وكتب الدعوة السلفية، بالإضافة إلى طباعة مستلزمات الطلاب والتجار من الدفاتر واللوازم الطباعية. وقد طرأ عليها عدد من التحسينات حيث زودت المطبعة ببعض من الآلات تم استيرادها من مصر، وبعض الأدوات والمستلزمات الإضافية، كما زودت بكمية من حروف الطباعة بأحجام مختلفة ونماذج متعددة، كما تم إنشاء وحدة متكاملة للتجليد جهزتها بالأدوات والمواد اللازمة لذلك(١).

ونلاحظ مما سبق الدور الكبير التي قامت به المطبعة السلفية في الطباعة منذ إنشائها، متوليه طباعة صحيفة صوت الحجاز، والعديد من كتب الدعوة السلفية، والأعمال الأدبية المختلفة، والتاريخية، مما كان له الأثر في إثراء الساحة الثقافية والفكرية ليس في الحجاز فقط، بل شتى أقطار العالم الإسلامي، والذي يعكس مدى ما وصلت إليه الحياة الثقافية والفكرية في مكة المكرمة في ذلك الوقت.

- **المطبعة العربية:**

تأسست في مكة المكرمة عام ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م على يد مؤسسها الشيخ محمد سرور الصبان(٢)، وتعتبر المطبعة الأولى في شبة الجزيرة العربية التي تأسست

---

(١) طاشكندي: الطباعة في المملكة العربية السعودية، ص١٨٢-١٩٢؛ القحطاني: التنظيمات الداخلية، ص٣٦٩-٣٧٠.

(٢) **محمد سرور الصبان:** ولد في مدينة جدة عام ١٣١٦هـ/١٨٩٨م، وتعلم في مكة المكرمة، ثم في مكتب صادق بمدينة جدة، بعد ان انتقل غليها والده بحكم إداراته لأعمال اسرة الصبان. في أوائل العهد السعودي كان موظفاً بأمانة العاصمة بمكة المكرمة، كما كانت له مكتبة لبيع الكتب يعمل فيها مع أخوه، أسندت إليه إدارة شركة القناعة للسيارات في مكة المكرمة، كما وقع عليه الاختيار ليتولى إدارة قسم التحريرات في وزارة المالية، ثم أسند إليه منصب مدير عام وزارة المالية، وفي عهد الملك سعود عين وزيراً للمالية، وبعد ذلك أسندت إليه الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي. توفي بالقاهرة أثر نوبة قلبية بتاريخ ٢ ذي الحجة عام ١٣٩١هـ/١٩٧١م، وأرسلت الدولة طائرة خاصة لنقل جثمانه من القاهرة إلى مكة المكرمة حيث صلى عليه في المسجد الحرام ودفن بمقبرة المعلاة. المغربي: أعلام الحجاز، ١/٢٤٤-٢٢٥٢؛ المعلمي: عبدالله بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم، **أعلام المكيين من القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر**، ط١، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٢/٦٠٣-٦٠٤.

من قبل شركة عامة هي الشركة العربية للطبع والنشر، فقد قام مؤسسها بالاتفاق مع الشيخ محمد صالح نصيف على شراء المطبعة القديمة التي تأسست بها المطبعة السلفية، وعلى شراء امتياز إصدار جريدة صوت الحجاز، كما قامت المطبعة العربية بطباعة عدد من الكتب السلفية(١).

وفي عام ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م تم شراء مطبعة جديدة، وتم وضعها في الدور السفلي لمقر إدارة الشركة في حي الشامية(٢). وفي نفس العام أعلنت المطبعة العربية عن استعداد لطباعة المطبوعات التجارية كالسندات والكواشين وجوابات وظروف وكروت وبطاقات بأسعار متهاودة(٣).

كما استمرت مطبعة الترقي الماجدية الأهلية والتي تأسست عام ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، قبل دخول الملك عبد العزيز إلى مكة المكرمة، في طباعة الكتب الدينية والأعمال الأدبية، بعد أن جرى عليها عدد من التحسينات في الأجهزة والإدارة(٤).

وهكذا نلاحظ مدى التطور الذي وصلت إليه الطباعة في عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود يرحمه الله، وخاصة بعد الأمر الملكي الذي صدر به نظام المطابع والمطبوعات، والذي كان له الأثر في تحسين مستوى الطباعة، بالإضافة إلى العناية والدعم المستمر من قبل الملك عبد العزيز للمطابع.

---

(١) طاشكندي: الطباعة في المملكة العربية السعودية، ص١٩١.

(٢) جريدة صوت الحجاز: العدد ٢٦١، السنة السادسة، ٦ربيع الثاني ١٣٥٦هـ/١٥ يونية ١٩٣٥م، ص٢.

(٣) جريدة أم القرى: العدد ٦٥٧، السنة الثالثة عشر، ١ جمادى الأولى ١٣٥٦هـ/٩ يوليه ١٩٣٧م، ص٨.

(٤) الزركلي: خير الدين، **شبة الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز**، ط٤، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ٣/١٠٢٣-١٠٢٤؛ القحطاني: التنظيمات الداخلية، ص٣٧٠.

الخاتمة

وخلال هذه الدراسة العلمية المعنونة بـ" **الطباعة في مكة المكرمة خلال الفترة١٣٠٠-١٣٧٣هـ/١٨٨٣-١٩٥٣م)**، يتبلور لنا مدى بداية ظهور الطباعة في مكة المكرمة العاصمة المقدسة للمسلمين وتطورها حتى نهاية عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود.

ويتضح لنا من خلال الدراسة العلمية أن الطباعة بدأت منذ العهد العثماني، ولكن كان ظهورها متأخر عن بقية البلاد العربية، ويعود ذلك لعدم اهتمام الحكام والمسؤولين الذين حكموا الحجاز في تلك الفترة. وبناء على ذلك بدأ العلماء وغيرهم بطباعة مؤلفاتهم في القاهرة وبلاد الشام والبلدان الإسلامية الأخرى.

وكان واضحًا أن المطبعة الميرية في بدايتها كانت متطورة من حيث التجهيزات ومهارة العاملين فيها؛ وذلك لأنها كانت تسير وفق نظام إداري وفني جيد، ورغم ظهور الطباعة في مكة المكرمة، فقد استمر العلماء في طباعة مؤلفاتهم في البلدان العربية المجاورة، وهذا يدل على غزارة الإنتاج العلمي، وعدم استطاعة المطبعة الميرية من استيعاب هذه الغزارة العلمية.

ويتضح لنا من هذه الدراسة أن العهد الهاشمي قد اهتم بالطباعة، واتخذ من المطبعة الميرية مطبعة رسمية لمملكة الحجاز، وصدر منها جريدة القبلة والتي تعد الجريدة الرسمية للدولة في العهد الهاشمي، بالإضافة إلى طباعة عدد من المؤلفات، ومع هذا لم تأتي المطبعة الميرية بثمارها المرجوه ويعود ذلك إلى قلة اهتمام الحكام، وكذلك ضعف الموارد الاقتصادية في مملكة الحجاز الهاشمية في فترة الدراسة.

وفي الحقيقة أن الطباعة والمطابع قد حققت في مكة المكرمة إثراء في الحياة الدينية والثقافية والفكرية في مكة المكرمة، بل مهد ذلك إلى انتشار الثقافة والفكر المتميز إلى جميع البلدان العربية والإسلامية.

ويتضح لنا من الدراسة العلمية أن التطور والإبداع الحقيقي للطباعة والمطبوعات في مكة المكرمة بدأت تتضح رؤيته في عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي دخل مكة المكرمة عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، حيث بدأ بالعمل على توفير المطابع المتطورة، وإصدار المراسيم الملكية التي تنظم الطباعة والمطبوعات مما أدى إلى ازدياد النشاط الثقافي والديني والتعليمي في مكة المكرمة خاصة، والحجاز عامة، وأدى ذلك إلى الزيادة في إنتاج الكتب العلمية والثقافية والدينية.

الملاحـق

ملحق رقم (١) الوثائق

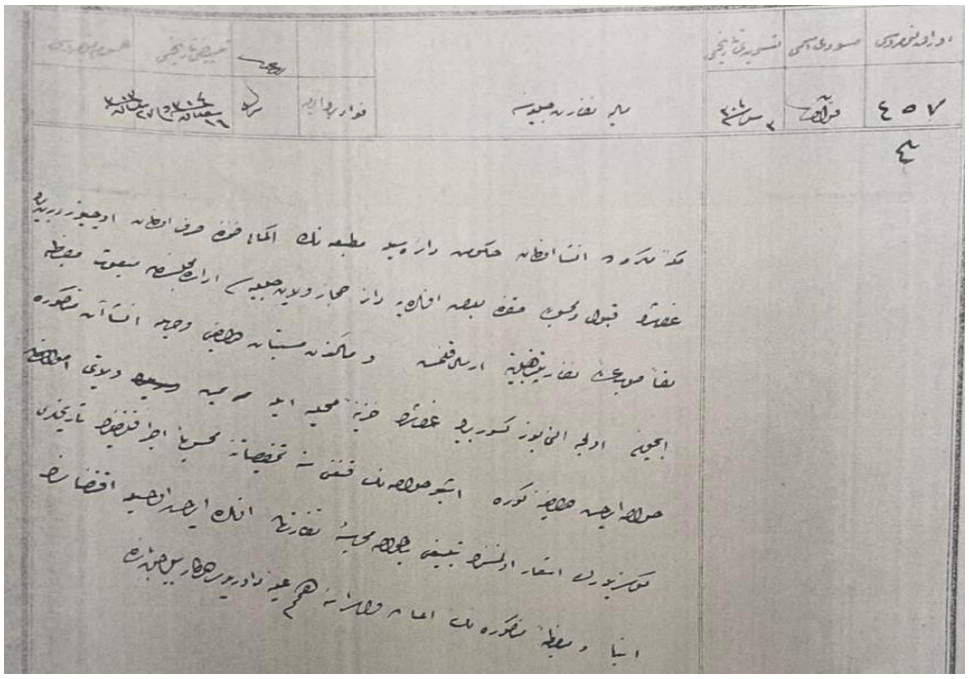

- **وثيقة رقم ١٤١٨/٨٧، رقم السجل (١١٦٧٦٣)، جهة الإصدار: الداخلية، التصنيف DH.MKTK، بتاريخ ١٦شعبان ١٣٠٤هـ/٢٧ ابريل ١٣١٣ (رومي) الموافق ٩ مايو ١٨٨٧م، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، الوثائق العثمانية.**

نظارت المالية الجليلة

أرسل مجلس إدارة ولاية الحجاز إلى نظارت المالية مضبطة بشأن الموافقة على صرف مبلغ مالي وقدره ثلاثمائة وأربعة آلاف قرش من أجل إتمام إنشاء مطبعة حكومية في مكة المكرمة. كما وضح مجلس الإدارة في هذه المضبطة بأن الخزينة المحلية أرسلت إلى ولاية الحجاز حوالة مالية من أجل إنشاء هذه المطبعة، ولكن تم تخفيض مبلغ هذه الحوالة إلى ستمائة كسر ألف قرش.

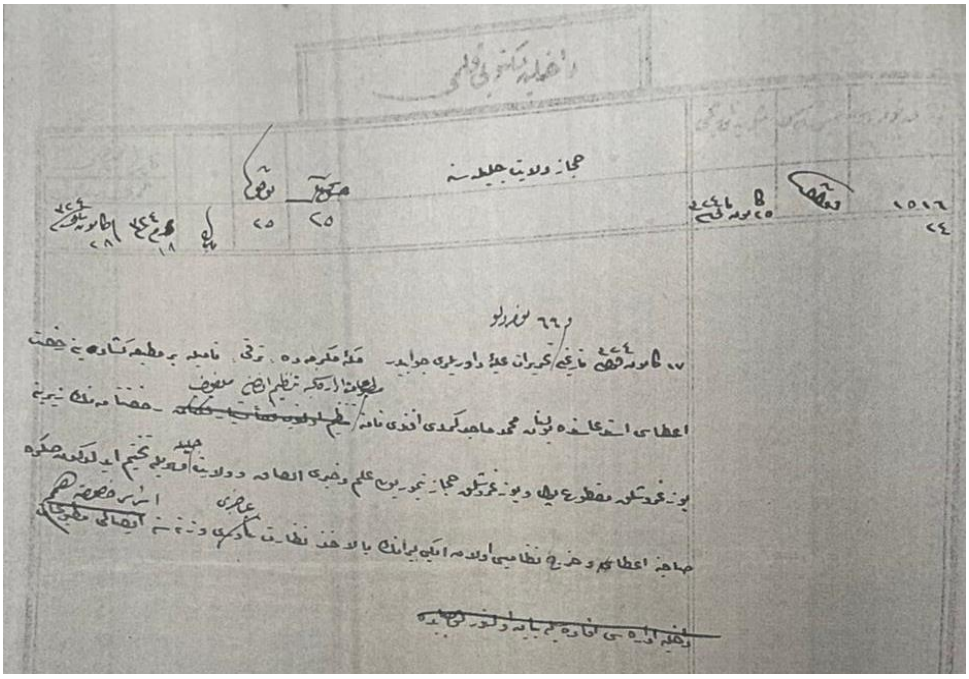

- وثيقة رقم ٢٧٣٥/٧٠، رقم السجل ١١٨٨٨١، التصنيف الأصلي DH.MKTK، تاريخ ١٨ محرم ١٣٢٤هـ/٢٨ كانون الثاني ١٣٢٤(رومي) الموافق ٢٨ يونيو ١٨٩٦م، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، الوثائق العثمانية.

قلم الرسائل الداخلي رقم الأوراق:١٥١٦

تاريخ التسجيل: ١٨ محرم ١٣٢٤هـ/ ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٣٢٤هـ

ولاية الحجاز الجليلة

وكان نص الرد بشأن التحريات رقم ٦٦ وتاريخ ١٧ كانون الأول (ديسمبر)١٣٢٤هـ كالآتي: أرسال الرخصة التي نظمتها إدارة المطبوعات باسم محمد ماجد كردي أفندي الذي قدم عرضحال بشأن إعطاء رخصة لافتتاح مطبعة "ترقي" في مكة المكرمة وأرسال مبلغ مالي وقدره ٢٠٠ قرش عن طريق سكة حديد الحجاز، وبضرورة صرف مبلغ مالي مختوم بختم الولاية وقدره ٢ ليرا من نظارت المالية وأعطاها إلى محمد ماجد كردي.

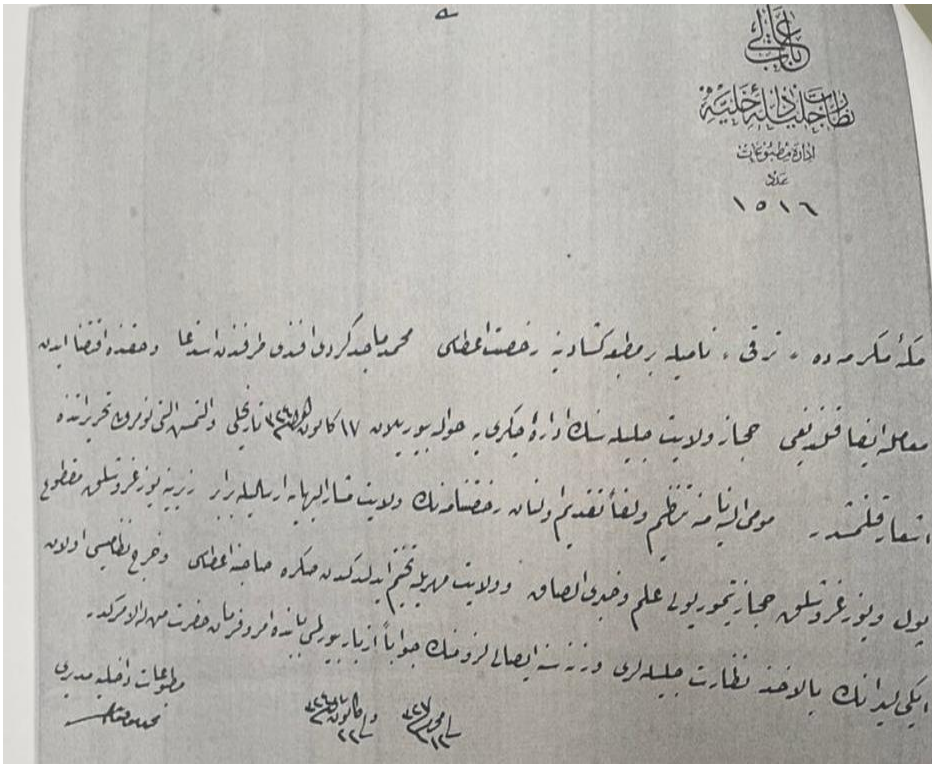

- وثيقة رقم ٢٧٣٥/٧٠، رقم السجل ١١٨٨٨١، التصنيف الأصلي DH.MKTK، تاريخ ١٨ محرم ١٣٢٤هـ/٢٢ كانون الثاني ١٣٢٤(رومي) الموافق ٢٨ يونيو ١٨٩٦م، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، الوثائق العثمانية.

الباب العالي
نظارت الداخلية الجليلة
إدارة المطبوعات
عدد: ١٥١٦

قد أشارت التحريات رقم ٦٦ التي أجريت في ١٧ كانون الأول (ديسمبر) ثم أرسلت إلى ولاية الحجاز بشأن وجوب النظر في العرضحال المقدم من قبل محمد ماجد كردي فيما يخص أعطاء رخصة لافتتاح مطبعة "ترقي" في مكة المكرمة. وقد ذكر في هذه التحريات بأن من ضرورة صرف مبلغ مالي وقدره ٢٠٠ قرش عن طريق سك حديد الحجاز مع إرسال الرخصة باسم محمد ماجد كردي إلى ولاية الحجاز. وقد أصدر ولي النعم (السلطان العثماني) أمر وفرمان بضرورة إرسال جواب إلى نظارت الداخلية بشأن صرف مبلغ مالي وقدره ٢ ليرا مختوم بختم الولاية إلى محمج ماجد كردي.

١٢/محرم ١٣٢٧هـ ٢٢كانون الثاني (يناير) ١٣٢٤هـ

مدير إدارة المطبوعات
محمد توفيق

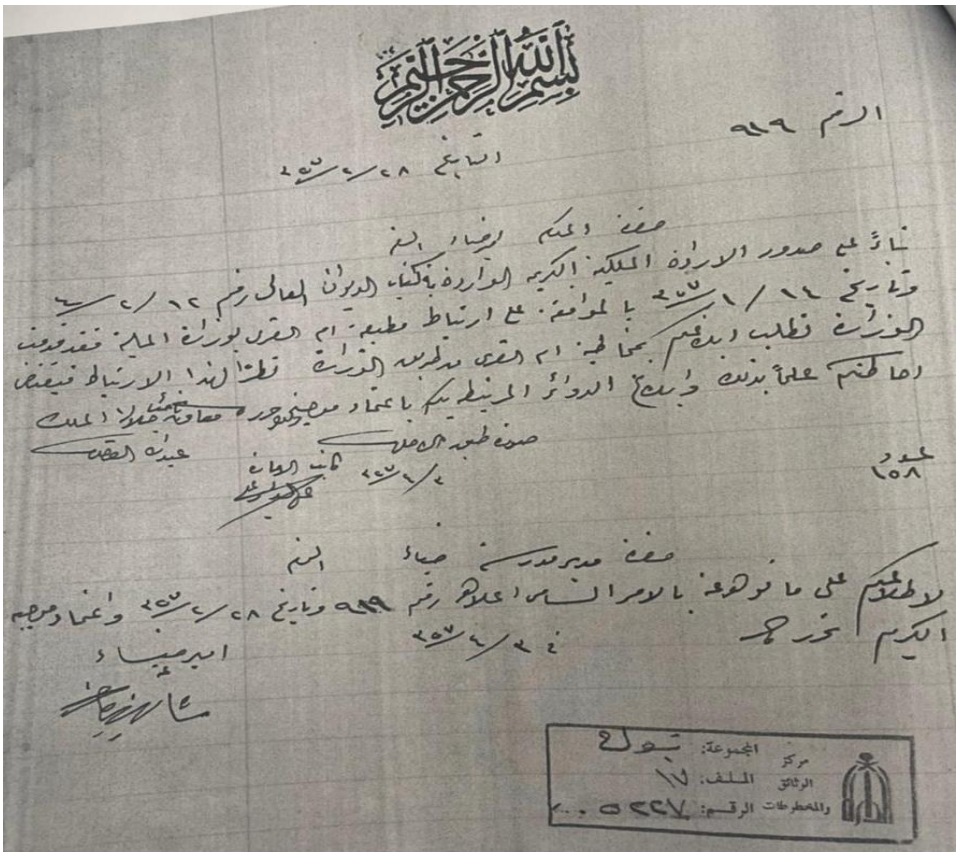

- وثيقة رقم ٩١٩، رقم السجل ٢٩٢٩٩، تاريخ ١٣٥٧/٤/٣هـ، المجموعة تبوك، رقم الملف ١٧، الرقم ٠٥٢٢٧، الرياض، دارة الملك عبد العزيز.

ملحق رقم (٢) الصحف

متاعب جلالة الملك ابن السعود

في الحجاز

٣

هذا الرجل الذي تريدون ان تؤلفوا بينه وبين الناس هو رجل مخلوق من طينة الغرور ولا يعرف ابن يميل أمع أمته وقومه أم مع غروره وحرصه فهو اسم لا ينصرف .

الحجازي – بحث صاحب نداء الشعب العراق عن الحجاز وان اهله ضربوا من المدنية بسهم وذاقوا حلو الحضارة فلا يمكن لنجد ان تحسن ادارة الحجاز

اريد ان اسأل قبل ان ابين هل من مانع ان استفهم من صاحب نداء الشعب عن علمه باحوال هذه الديار المباركة و على فرض انه وآها وجابها وحفظ في نفسه اخلاق اهلها وحالة مجتمعهم فهل من نير اذا اثبت ما اجمله عن حالة الحجاز ليتسنى لمن يهمهم امر العرب والمسلمين ان يتثبتوا الامر من غير شبهة ولا عماية .

سيدي اتردد على الحجاز من سنة ١٣٢٦ هجرية حتى هذا اليوم وقد رأيت مدنه وحضره وباديته وتصفحت بعض تواريخه فحصل عندي بطريقة البحث ما يأتي : يبدو العصر الراهي للعباسيين ترك الحجاز بل صار حالة على كاهل كل دولة اسلامية تدعي الخلافة فكان اهل الحجاز كلا على الامم الاسلامية ، هذا وقد اهملت الحكومات الاسلامية امر الحجاز حتى ابتدأ الناس عنه فاقترت الجليل على الشارب حتى وصل الحجاز الى الحالات الآتية ، قامت السبل وكان الحاج يقتل طمعاً في اطماره البالية ، خلت القرى ، عم اذى البدوي ، لم يبق الا اهل المدن محاصرين بها ان رحمهم البداة اخذوا اخوة واوصلوهم من بلد لاخرى وان لم يرحموهم بقوا لا يقدرون على الخروج من بيوتهم : فهل اذا وصل الامن الى هذه الدرجة والحالة الى ما وصفت هل تبقى في الحجاز قهوة وحضارة يضرب بها بسهم .

اما حالة الحجاز من اول الحرب العامة حتى سقوط جدة الاخير فهو ما يأتي ، تخريب العامر ، ابادة المائل الى الخراب ، احراق الناس بالضرائب وجبايتها الاموال بغير مسوغ شرعي وترك الامر فوضى في البادية ، تسليط بعض الناس على ضعفاء الاهالي واهمال الامن والعمران والتعليم والدين وكل شيء .

فسكومة الحجاز اليوم مع قلة موادها ومع وصول البلاد الى حالة من الخراب والفقر لا يمكن ادراك كنهها فقد قامت بالواجب عليها فاصلحت السبل والمدن والبراري والقفار وبذلت في سبيل ذلك كل ما تقدر عليه ، فلم تبخل برجال ولا بمال وقد سهر الجميع على دوام هذه النعمة حتى هذه الساعة . فاهم شيء مع السيل الذي يذهب من جبال الحجاز حتى البحر لما صادفت عاقلاً يعوق السائل في سفره اللهم الا حر البلاد او برودها ولو اقتربت من البحر الاحمر توصلت الى نجد ثم ساحل البحر العماني في خليج العجم من غير ان يعترك خوف لذلك اذا طمع النجديون على وأيسكم يحكم الحجاز فاعلم اهل له فقد اقاموا الصلاة وآتوا الزكوة وامنوا الناس على ارواحهم واعراضهم واموالهم واصروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وأمنوا السبل وبدأوا يعلمون البادية الدين الحنيف ويواسون فقراء القبائل فهم بررة بأبناء جنسهم ، اشداء على المنافقين رحماء بالمؤمنين ، فهل على قد الكم عمل صاحب العرش الهاشمي شيئاً من هذا وهل عمل النجديين هو ما تسمونه سوء المذاهب ؟

اما مسألة استلحاق العتيبة وممبان وتبوك والدورة بشرق الاردن فلا دخل للنجديين فيها فسلمها عند الشريف عبدالله والشريف على وجلالة والدهما فهل يوجد دليل على استلحاق ذلك برضاء عاهل نجد ؟ كلا ثم كلا .

اما متاعب السلطان ابن السعود فهي ليست كما وصلت اليكم متأخرة بل هي كما يأتي .

انكم تقولون :

ان متاعب السلطان النجدي لا شك عظيمة ولقد كان في غنى عنها ... الخ .

ونحن نقول ان كل متاعب السلطان الملك هي ناشئة من عدم اتحاد العرب لعمل الخير ودفع الشر والجهر بالقول الصحيح وتمييز الخبيث من الطيب فقد اكبر الناس امر قبيلة بني مالك الى ذكرتم نشوب القتال بينها وبين جيوش جلالة الملك والحقيقة انه لم ينشب قتال قط ولم تجهز عليهم ثلاث حملات ، بل جل ما في الامر ان قوم اخواهم هواهم فاستكبروا ثم لما رأوا القوة قاهرة على ارجائهم للاطريق تابوا وانابوا واتوا جيوشاً مختارين ، طائعين لم يحاربوا ولا حوربوا فمن ابن اتي المتبرون بهذه الخرافات الملفقة وعلى كل قبيلة بني مالك موجودة فاذا اراد اي انسان كشف الحقيقة فهو قادر على ان يذهب بنفسه ويتحقق ما اقوله .

اما فاسد وزهران وقبائلهما فهي بحمد الله اطوع من البنان ، اما استيلاء جيوش الامام يحيى على البرك فهذا نبأ مختلق يفتريه المنافقون بغية ان ينفسوا عن صدورهم ما حوته من حسد ومنافقين فاليرك هي لم تزل تخفق عليها علم الحجاز ونجد فلا اختلاف بين القطر الحجازي و اليماني ولا سابقة عداوة بين البادئين بل المودة والولاء على ارفع ما وصلا اليهما في كل زمن .

اما قرار محمد بن عايض وذهابه الى عسير فالاجدر باصاحب الخبر ان يذهب ويراه في مكة

اما قول رواة الاخبار المفتقة من ان النجديين مستأجرون من معاونة جلالة الملك وذبه عن المصريين :

فهل يقول هذا عاقل من النجديين او غيرهم مع علم جميع الناس ان همة جلالته كانت في تلك الحادثة هي فوق ما يتصوره البشر فقد غامر بنفسه واولاده ولعله في سبيل منع الفتنة وتعمل ما لا يحمله الا الاتقياء من البشر في سبيل السلم والامن في هذه الحادثة واضعاً رضاء مولاه امامه قبل كل شيء .

ولا نعلم ان في النجديين او غيرهم من يقدر ان ينكر اتباع الامام عبد العزيز للكتاب والسنة ولا ان ينكر على اهل نجد والحجاز ولمحتا نعما بذلك فالامور والحق تخالف الواقع والمتعارف هي مردودة والسكوت المهين في نجد هو اكبر دليل على ما نقول .

اما مسألة فيصل الدويش وتمهيده المدينة ففي من المضحكات التي يلذ لي ان أجاوب عنها فانا اليوم في المدينة المنورة ولا ارى غير وفود المشائر من جميع اقطار نجد والحجاز ، والقوافل ترد الى المدينة حاملة البر والتمر والسمن والتجارة بازدهارها لا يعارضها معارض والدويش رجل مسلم مؤمن مطيع يأتمر باسم امامه فاطاعة الدويش وكل من في نجد من المسلمين هي اطاعة فرضها الله عليهم لاولي الامر لا دخل فيها للامور الدنيوية فحكم كذب الناس في الماضي والحاضر ويكذبون في المستقبل حراً باتجاه اخبار جديدة ويتمنى ذلك وما الله بغافل عما يعمل الظالمون .

اما مسئلة شهوة الفتح فجلالة الملك كما قدمنا لم يشته الفتح ولكنه اجبر عليه ولا غرابة ان يرأس العرب في قلب الجزيرة عربي سليم لا غبار على عرو يته رجل يطيع الله ورسوله يرى نفسه خادماً لدينه وامته فهل تضر الاوضاع البدوية مع النية الصالحة والدين الوقاد والالمعية والنبوغ العربي وحب الخير والعلم والتعليم؟ هذا ما قدرت ان اذكره فهل انا ان تترك مالا يصح ونحقق لنكتب ما هو واقع على الاقل والله يتولانا بعنايته ويلهمنا الاخلاص والصبر وقه عاقبة الامور .

خادم العلم

سليمان ضياء الدين

إعلان

جلبنا كميات من البنزين جنس حال ونحن مستعدون لبيع السندوق بسعر مئة واربعة قروش مصرية اذا كانت الكمية المطلوبة من صندوق الى خمسين وبسعر خمسة وتسعين قرشاً مصرياً اذا كانت الكمية تزيد عن الخمسين .

جلاتلي هنكي وشركاهم (سودان)

ليمتد بجدة

معاملة ام القرى

مستعدة لطبع الاوراق التجارية والبطاقات والكواشين والكتب وغيرها باسعار معتدلة فمن يجرب مرة واحدة يجد ما يسره

جدول التوقيت في بلد الله الحرام

باعتبار عرض مكة – وجدة – والطائف

للشيخ عليفه بن محمد الفهاتي

	الجمعة	السبت	الاحد	الاثنين	الثلاثاء	الاربعاء	الخميس
	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠
طلوع الشمس	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠
	١١	١١	١١	١١	١١	١١	١١
	٥٥	٤٤	٤٤	٤٣	٤٢	٤١	٤٠
الظهر	١٢	١٢	١٢	١٢	١١	١١	١١
	١	١	١	١	٥٩	٥٨	٥٧
العصر	٤	٤	٤	٤	٤	٤	٤
	٢٠	٢٠	٢٠	٢٠	٢٠	٢٠	٢٠
المغرب	٦	٦	٦	٦	٦	٦	٦
	٣٦	٣٦	٣٥	٣٥	٣٤	٣٤	٣٣
العشاء	٧	٧	٧	٧	٧	٧	٧
	٣٦	٣٦	٣٥	٣٥	٣٤	٣٤	٣٣
طلوع الشمس	٤٧	٤٧	٤٧	٤٧	٤٧	٤٧	٤٧
	٩	٩	٩	٩	٩	٩	٩

أم القرى

جريدة عربية اسلامية

تصدر مرة في الاسبوع

المراسلات

تكون باسم ادارة الجريدة

العنوان التلغرافي « ام القرى »

الاشتراك

ثلاثة عشر ديناً عثمانية في اعداد سوريا والعراق

من جزيرة العرب

وفي اقطار ستة عشر ديناً عثمانية

وثمن النسخة قرش

جريدة أم القرى: العدد ١٠٧، السنة الثالثة، ٢٥ جمادي الثانية، ١٣٤٥هـ/٣١ ديسمبر ١٩٢٦م، ص ٤

التعليم فى مطبعة أم القرى

تعلن مطبعة أم القرى انها قد فتحت شعبا جديدة لتعليم فن صف الحروف والطبع والتجليد فى هذه الاقسام بادارتها ، وحبا فى تشجيع هذا الفن فسوف تدفع الادارة اعانات شهريه للمتعلمين تصعيداً لهم وترغيبا فى انتشار هذه الفنون التى تمد العامل الاول فى تعميم الثقافه وتوسيع دائرتها فعلى الراغبين الالتحاق فى هذه الشعب او بعضها مراجعة الاداره حتى يوم ١٥ محرم ٣٥٧ للاطلاع على الشروط الموضوعة لذلك

تبرعات لدار الايتام

تبرع لدار الايتام حضرات الآتى بيانهم ، وان الدار لتسجل لحضراتهم جزيل شكرها على ارجيتهم جزاهم الله عنها خير الجزاء :

١٠٠ ربيه هندى من الحاج على محمد حج اعظمكرى بواسطة حضرة رئيس معلوف الهنود الشيخ عبد الرحمن مظهر ، و ٥٠ من يوسف ولد ابادهورجى واله ، و ٥٠ من محمد سيج عمر ولد ابادهورجى واله ، و ٢٠ من زوجه حاجى محمد موسى سا كن ضلع ، و ١٠ من قاسم راج سودى افريقيا و ١٠ من شيخ عبد الحميد بزاز لاردشلع ، و ٤ من ابو الحسنات ساكن لاردشلع و ٢ من احمد دين بات و ٢ من شاه دين ، و ٤٠ من رسول بى بى صويه عبار و ٢٥ من داكتر محمد سنبارة الله خان ، و ٥ من صالحه خاتون بى بى ، و ٥ من غلام مرتضى فيضل اباذى ، و ١ من فضل الرحمن

و ٢٥ قرش مصرى من محمد عثمان سليمان و ٣ ريال عربى من حافظ حسن ، و ٣ من الدكتور محمد خير السيع ، و ٢ من عبد الجبار

من الحاج رفيع الدين الدهلوى ٢٠٠ ربيه هندى بصرفة شمس الحق الدهلوى ، من نور محمد صاحب ٢٥ ، من أنيس الحق خان ضلع كله ١٠ ، من محمد الياس حسين ١٠ ، من محمد امين سنغفورة واله ١٠ من محمد أمان شاه ٢ من محمد حسين ١ من فاعل خير ١ من محمد أشواق الله دهلوى ٣٩ قرش نيكل من المذكور ايضا ١٠ ربيات هندى ومن والدة حافظ محمد يحيى ١٠ ومن شاه اكرام الدين ١٠ ومن بى بى حسنى ٥ ومن زوجة ميرولايت على صاحب ٥ ومن سعد الدين ٥ ومن غلام محمد حسين ٥ ومن فيض خان ٤ ومن الحاج عبد الحميد ثابت ٣٠ قرش مصرى ومن الحاج محمد احمد المطار ٢ جنيه من مصرى من الحاج عبد القادر الكيلانى ١١ ½ ريال عربى من محمد محمود الشاتى ١٠ من فاعل خير ٦ من محمد شوق دهلوى ٣ من محمد عاص ١ من على ابو الفتوح الشيخ سالم ١

٢٠ جنيه مصرى ورق من سعادة الفريق على فهمى باشا وعائلته

١٠ ربابى هندى من الحاج تاج احمد خان الحيدر أبادى ، و ١٠ من محمد علم هندى ستسان ، و ١٠ محمد موسى قصب لاردشلع ، و ٢ محمد حنيف قصب لاردشلع ٢ من امين بخش لاهور ١ من الحاجه بانه بى بى فيروز بور

٢ جنيه مصرى من الحاج يونس حسين الطرابلسي من اسكندرية

١٠ ربيه هندى من الحاج ميراج دين امرث سر بنجاب ٥ عبد الحميد لارى كورك بور ٤ عبد العزيز

نقطات

ووجد بتاريخ ١/١٢/٥٦ خرج باطنه امتعة وسلم للحاجة فاطمه احمد عرفه من حجاج ابراهيم فقه

ووجد فى ٩ منه بعرفه شنطه جلد باطنها كتاب فقه ومرآة وفرطه وقلمين كتابه وقزازة دواء وسلمت لصاحبها عبد الله بن حسن السقاط .

وفى ٤ منه وجد خريج باطنه امتعة وسلم للحاج عطيه بن على المصرى من حجاج عباس مداح

وفى ٩ منه وجد بعرفة شنطه جلد باطنها امتعة وسلمت لذواد وفا

وفى ٨ منه وجد صره باطنها تسعة سبح ثلاث خشب عند باب ابراهيم وسلمت لصاحبها محمد الشير من حجاج السبجي .

وفى ٤ منه وجد بقهوة المعلم ابره حملات جمل تحتوى على امتعة متنوعة وسلمت لاصحابها بكر شرف

ووجدت شنطتين جلد باطنها امتعة وسلمت لفاطمه فهمى عاصم وتابعتها حياة محمد بواسطة نايبها محمد ابو زيد .

عثر أمير الشميسي على ربطة داخلها جملة أشياء من امتعة وملابس وأوانى وخلافه ، تبين انها من امتعة الحجاج القادمة بين بحرة والشميسي ، وقد وقد ارسلت الى دائرة شرطة جدة فحفظت بها الى ان راجعها الحاج حسين عبد المتعال من حجاج الوكيل درويش رقام فسلمت اليه بموجب سند بعد تقديم الاوصاف اللازمة عنها .

وعثر السائق عمر شعيب على ربطة فى طريق جدة تحتوى على جملة اشياء بين امتعة وأوانى وحاجيات مختلفة وقد سلمها الى شرطة جدة فحفظت لديها الى ان راجعها الحاج موسر على البنقالى وقدم الاوصاف اللازمة عنها فسلمت اليه بموجب سند .

فقد ختم

بما ان ختمى فقد منى بتاريخ ١ ذى الحجة سنه ١٣٥٦ ولم يكن على دين لاحد فكل سند يظهر مبصوما باختام المذكور يعد مزورا وللاعلان حرر

على بن الحسين الحارث

تقويم أم القرى

لعام ١٣٥٧

تقويم أم القرى يحتوى على التواريخ المختلفة والتوافيت المتنوعة وعلى قطع ادبية وتاريخيه وفكاهية وغيرها من الفوائد

اطلبوه من مكتبة عبد العزيز سرزا بباب السلام

وفي جدة من الشيخ محمود بقنور

وفي المدينة من الاستاذ عبد القدوس الانصارى

وفي ينبع من الشيخ عبد الله محسن زارع .

قيمة النسخة من الورق الابيض ريال عربى ومن الاصفر ريال الاربع .

انتهزوا الفرصة فان النسخ المطبوعه محدوده

وحى الصحراء

صفحة من الأدب العصرى فى الحجاز

كتب مقدمته الكاتب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل بك

كتاب وحى الصحراء يقع فيما يقرب من خمسمائة صفحة وهو مزين بالرسوم يكشف لك عن صفحة كانت مستورة عن الادب الحجازى الحديث .

بالملاحك على كتاب «وحى الصحراء» تدرك مبلغ ما وصلت اليه الثقافة الحجازية فى نهضتها الحديثة

النسخ المطبوعة محدودة اطلبوه من :

مكتبة مصطفى مير و بباب السلام بمكة ، والاستاذ عبد القدوس الانصارى بالمدينة ، والشيخ محمد أنيس جمجوم بجدة .

قيمة النسخة الواحدة ثلاثة ريالات عربية ،

اغتنموا الفرصة قبل فواتها

هل تحب

—١— ان تقف على ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه

—٢— وترى مآخذ الائمة المجتهدين وطريق استنباطهم

—٣— وتدرس الفقه من ينبوعه الاصلى الفياض

—٤— وتأخذ فى وقت قصير ماحوته بطون مئات من المجلدات

فأقرأ كتاب المسوى

من احاديث الموطأ

ظوطأ أصح كتب الحديث واوجزها تلقاه الامام مالك عن علماء المدينة محط الدين فى ذلك الوقت والمسوى شرح جمع على ايجازه بين دقة الاستنباط وطرقه و بين ماجنح اليه الائمة الاربعة المجتهدون من الفقه مبينا عن الطرق التى اتبعها كل واحد منهم فى الاخذ من الحديث

« للامام ولى الله الدهلوى صاحب حجة الله البالغة »

يقع الكتاب فى جزءين يادر باقتناءه ثمنه ثلاثة ريالات

اطلبه من باب السلام — دكان مصطفى مير و المكتبى

٤—٤

جريدة أم القرى: العدد ٦٩٠، السنة الربعة عشر، ٢٥ ذي الحجة ١٣٥٦هـ/٢٥ فبراير ١٩٣٨م، ص٧.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق

- وثيقة رقم ٢٧٣٥/٧٠، رقم السجل ١١٨٨٨١، التصنيف الأصلي DH.MKTK، تاريخ ١٨ محرم ١٣٢٤هـ/٢٢ كانون الثاني ١٣٢٤(رومي) الموافق ٢٨ يونيو ١٨٩٦م، الرياض، دارة الملك عبدالعزيز، الوثائق العثمانية.
- وثيقة رقم ١٤١٨/٨٧، رقم السجل (١١٦٧٦٣)، جهة الإصدار: الداخلية، التصنيف DH.MKTK، بتاريخ ١٦شعبان ١٣٠٤هـ/٢٧ ابريل ١٣١٣(رومي) الموافق ٩ مايو ١٨٨٧م، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، الوثائق العثمانية.
- وثيقة رقم ٩١٩، رقم السجل ٢٩٢٩٩، تاريخ ١٣٥٧/٤/٣هـ، المجموعة تبوك، رقم الملف ١٧، الرقم ٠٥٢٢٧، الرياض، دارة الملك عبد العزيز.

ثانياً: المخطوطات

- الحضراوي: أحمد بن محمد، **تاج تواريخ البشر**، مخطوط بمكتبة مكة المكرمة، رقم ١٢٢، تاريخ.

ثالثاً: المصادر

- الغزي: نجم الدين محمد بن محمد، **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، وضع حواشيه: خليل المنصور، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- الكردي: محمد طاهر، **التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم**، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، ط١، بيروت، دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- المحامي: محمد فريد بك، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق: إحسان حقي، ط١، بيروت، دار النفائس، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- المكي: محمد الأمين، **خدمات العثمانيين في الحرمين الشريفين ومناسك الحج**، تحقيق: ماجدة مخلوف، ط٢، القاهرة، دار الأفاق العربية، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

رابعاً: المراجع

- أبكر: عبد الله محمد، **صور من تراث مكة المكرمة في القرن الرابع عشر**، ط٢، دمشق، منار للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

- البلادي: عاتق بن غيث، **معجم معالم الحجاز**، ط٢، مكة المكرمة، دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- جنيد: يحيى محمود، **الطباعة في شبة الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر الميلادي (١٢٩٧-١٣١٧هـ)**، ط١، الرياض، دار أجا، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- الحسني: محمد بن علي، **تاريخ الثورة العربية الكبرى**، ط١، بيرت/لبنان، الدار العربية للموسوعات، ٢٠١٣م.
- حلاق: حسان وصباغ: عباس، **المعجم الجامع في المصطلحات العثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية والأيوبية والمملوكية**، ط١، بيروت، دار النهضة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- حليم: إبراهيم بك، **تاريخ الدولة العثمانية العلية (التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية)**، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت/لبنان، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- الخالدي: دايل بن علي، **الإدارة العثمانية وأنظمتها في الحجاز في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣-١٣٢٧هـ/١٨٧٦-١٩٠٩م)**، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
- الزركلي: خير الدين، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء العرب والمستعربين والمستشرقين**، ط١٥، بيروت، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.
- الزركلي: خير الدين، **شبة الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز**، ط١، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٢م.
  - **شبة الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز**، ط٤، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- **سالنامة ولاية الحجاز ١٣٠٣هـ.**
- السماري: فهد بن عبد الله، **مكتبة الملك عبد العزيز آل سعود الخاصة**، الرياض دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- الشامخ: محمد عبد الرحمن، **الصحافة في الحجاز ١٩٠٨-١٩٤١ دراسة نصوص**، ط١، بيروت، دار الأمانة، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
  - **نشأة الصحافة في المملكة العربية السعودية**، ط١، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- ششة: نوال سراج: **جدة في مطلع القرن العاشر الهجري "السادس عشر الميلادي"**، ط١، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعي، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- الشقير: عبد الرحمن بن عبد الله: **طباعة الكتب ووقفها عند الملك عبد العزيز دراسة تحليلية وقائمة ببليوجرافية**، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٤هـ.
- صابان: سهيل، **مداخل بعض أعلام الجزيرة العربية في الأرشيف العثماني**، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- الصواف: العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز، ص ٤٨؛ عمر: عمر عبد العزيز، **تاريخ المشرق العربي (١٥١٦–١٩٢٢م)**، د.ط، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت.
- طاشكندي: عباس بن صالح، **الطباعة في المملكة العربية السعودية ١٣٠٠–١٤١٩هـ**، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
- عبد الجبار: عمر، **سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة**، ط٢، جدة، تهامة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- عطار: أحمد عبد الغفور، **صقر الجزيرة**، ط٢، جدة، المؤسسة العربية، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
- العموش: أنس نايف، **مكة المكرمة عاصمة مملكة الحجاز في العهد الهاشمي**، ط١، عمّان، مركز التوثيق الملكي الأردني الهاشمي، ٢٠٢٠م.
- القحطاني: منى قائد آل ثابته، **التنظيمات الداخلية في مكة المكرمة بعد دخول الملك عبد العزيز آل سعود (١٣٤٣–١٣٥١هـ/١٩٢٤–١٩٣٢م)**، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- **مذكرات تحسين علي ١٨٩٠–١٩٧٠**، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤.
- المرعشلي: يوسف، **نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر**، ط١، بيروت، دار المعرفة، ٢٠٠٦م.

- المعلمي: عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم، **أعلام المكيين من القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر**، ط١، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- المغربي: محمد علي، **أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة وبعض القرون الماضية**، ط٢، جدة، مطابع دار البلاد، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- وزارة الإعلام: **الصحافة في المملكة العربية السعودية**، ط١، وزارة الإعلام/ الإعلام الداخلي، إدارة النشر، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- يوسف: عماد عبد العزيز، **الحجاز في العهد العثماني ١٨٧٦–١٩١٨**، بغداد، شركة الوراق للنشر المحدودة، ٢٠١١م.

خامساً: الأبحاث والدراسات

- دعدع: سحر علي محمد، **والي الحجاز عثمان نوري باشا ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م ١٣٠٩هـ–١٨٩١م وإصلاحاته في مكة المكرمة دراسة تاريخية حضارية**، مجلة كلية الآداب، جامعة الزقازيق، العدد ٦٥، يونيو ٢٠١٣م.
- **ولاة الحجاز في العصر العثماني في الفترة (٩٢٣–١٢٨٧هـ /١٥١٧–١٨٧٠م) دراسة تاريخية حضارية**، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى.
- سليم: فريق صبري، **تاريخ الطباعة في الحجاز ١٨٨٣–١٩٢٤م**، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة بابل– كلية التربية للعلوم الإنسانية، مجلد ٢٨، عدد خاص، ٢٠٢١م.
- الشامخ: محمد عبد الرحمن، **ظهور الطباعة في بلاد الحرمين**، مجلة دارة الملك عبد العزيز، مجلد٤، العدد٤، ١٩٧٨م.
- ششة: نوال سراج محمد، **الحجاز تحت حكم محمد علي باشا ١٢٢٦–١٢٥٦هـ/ ١٨١١–١٨٤٠م**، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤١٠هـ.

سادساً: الكتب المترجمة والرحلات

- جارشلي: إسماعيل حقي، **مكة المكرمة وأمراؤها في العهد العثماني**، ترجمة: خليل علي مراد، ط١، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

- ديدبية: شارل، **رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م**، ترجمها: محمد خير البقاعي، الرياض، دار الفيصل الثقافية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- نوفل: نوفل أفندي نعمة الله، **الدستور**، مراجعة: خليل أفندي الخوري، بيروت، المطبعة السورية، ١٣٠١هـ.
- هورخرونية: ك: سنوك، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، ترجمة: علي عودة الشيخ، طبعة المئوية، الرياض، دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

سابعاً: **الصحف والمجلات**

- جريدة الرياض: العدد ١٧٢٣٨، الجمعة ٢٠ ذي القعدة عام ١٤٣٦هـ/٤ سبتمبر ٢٠٠٥م.
- جريدة أم القرى: العدد ١٠٧، السنة الثالثة، ٢٥ جمادي الثانية، ١٣٤٥هـ/٣١ ديسمبر ١٩٢٦م.
- جريدة أم القرى: العدد ١٠٩، السنة الثالثة، ١٠ رجب ١٣٤٥هـ/١٤ يناير ١٩٢٧م.
- جريدة ام القرى: العدد ٤٠٦، ٢٨ جماد الأولى ١٣٥١هـ/٢٣ سبتمبر ١٩٣٢م.
- جريدة أم القرى: العدد ٦٥٧، السنة الثالثة عشر، ١ جمادى الأولى ١٣٥٦هـ/٩ يوليه ١٩٣٧م.
- جريدة أم القرى: العدد ٦٩٠، السنة الرابعة عشر، ٢٥ ذي الحجة ١٣٥٦هـ/٢٥ فبراير ١٩٣٨م.
- جريدة أم القرى: العدد ٧١٩، السنة الخامسة عشر، ٢٢ رجب ١٣٥٧هـ/١٦ سبتمبر ١٩٣٨م.
- جريدة أم القرى: العدد ٧٧٠، السنة السادسة عشر، ١ شعبان ١٣٥٨هـ/١٥ سبتمبر ١٩٣٩م.
- جريدة أم القرى: العدد٧٤٩، السنة الخامسة عشر، ١ ربيع الأول ١٣٥٨هـ/٢١ إبريل ١٩٣٩م.

- جريدة أم القرى: العدد٧٧١، السنة السادسة عشر، ٨ شعبان ١٣٥٨هـ/٢٣ سبتمبر ١٩٣٩م.
- جريدة أم القرى: نظام المطابع والمطبوعات، السنة ٥، العدد ٢٢٦.
- جريدة أم القرى: نظام المطابع والمطبوعات، سنة٥، العدد ٢٢٧.
- جريدة صوت الحجاز: العدد٢٦١، السنة السادسة، ٦ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ/١٥ يونيه ١٩٣٥م.
- جريدة صوت الحجاز: العدد٣٢٤، السنة السابعة، ١٩ رجب ١٣٥٧هـ/١٣ سبتمبر ١٩٣٨م.
- العامودي: محمد سعيد، **المكتبة الماجدية بمكة المشرفة**، مجلة المنهل، عدد ١٠ شوال ١٣٦٥هـ/سبتمبر ١٩٤٦م.

ضم القنفذة تحت حكم الملك عبدالعزيز آل سعود
- رحمه الله - عام (١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م)
(دراسة تاريخية)

الباحثة: صـــافيه مشبب آل هويدي

ملخـــص البحث:

تبحث هذه الدراسة في الأحداث التاريخية الفعلية لضم بلاد القنفذة تحت حكم الملك عبدالعزيز آل سعود –طيب الله ثراه– في الفترة الزمنية عام (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م) وإيضاح نبذة سياسية عن ما سبق ذلك من أحداث ومعاهدات، وقد اتبعت الباحثة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي الذي يقوم بجمع المعلومات والروايات التاريخية من خلال الرجوع إلى المصادر والمراجع وتحليلها بشكل موضوعي بما يخدم موضوع الدراسة، وهدفت هذه الدراسة إلى التعرف على المواقع الجيوستراتيجي للقنفذة، وكذلك التعرف إلى التاريخ السياسي لضم القنفذة إلى متصرفية عسير عام (١٢٨٩هـ/١٨٧٢م)، ومن ثم فصلها عن عسير في عام (١٣١٣هـ– ١٨٩٥م)، وإعادتها إلى تبعية ولاية مكة المكرمة، وكذلك التعرف على الجانب السياسي التاريخي للقنفذة بشكل مبسط في عهد الأتراك والأشراف والعسيريين والقوى الإدريسية والاطلاع على معاهدة الإدارسة عام (١٣٣٨هـ/١٩١٩م) ومعاهدة مكة عام (١٣٤٥هـ/١٩٢٦م) مع الملك عبدالعزيز. واستجابة لمتطلبات البحث، فقد تم تقسيمه إلى فصلين: تناول **الفصل الأول** الأهمية الجيواستراتيجية للقنفذة من حيث الموقع ولأهمية الاقتصادية والعسكرية، كذلك سيتطرق الفصل عن القنفذة بين التبعية لبلاد عسير وتبعيتها لمكة المكرمة ثم القنفذة بين متصرف عسير ومحمد الإدريسي، وأما **الفصل الثاني**، فسوف يتحدث انضمام القنفذة تحت حكم الملك عبدالعزيز آل سعود –رحمه الله– .، وتضمن البحث خاتمة تضمنت خلاصة لأهم نتائج الدراسة.

Research Abstract

This study specifically deals with the actual historical events of the annexation of Al-Qunfudhah under the rule of King Abdulaziz Al Saud. May God have mercy on him - in the time period (1343 AH / 1924 AD) with a clarification of the political view of previous events and treaties. The researcher adopted the historical analytical descriptive approach, which relies heavily on extracting information and historical narratives by referring to sources and references and analyzing them objectively to serve the subject of the study. This study deals with research in determining the geostrategic locations of Al-Qunfudhah in addition to identifying the political history of the annexation of Al-Qunfudhah to the Asir Governorate in (1289AH/1872 AD) and then separating it from Asir in the year (1313 AH), which was then returned to the subordination of the state of Makkah, and largely Enough, to get acquainted with the political and historical aspect of Qunfudhah simply during the era of the Turks, Al-Ashraf, Al-Asiris and Idrisids, as well as taking note of the Idarsah treaty in (1338 AH/1919 AD) and the treatment of Mecca in (1345 AH/1926 AD) under the rule of King Abdul Aziz. In the matter of responding to research requirements, it was dichotomous into two chapters. The first chapter dealt with the geopolitical importance of Al-Qunfudhah in terms of location, economic importance, and military power. This chapter will also discuss Al-Qunfudah between the subordination of Asir and then to Mecca, and then within the horizons of Al-Qunfudah between the Mutasarrif of Asir and Muhammad Al-Idrisi, and the second chapter will atone for the inclusion of the surah. Al-Qunfudah during the reign of King Abdulaziz Al Saud, may God have mercy on him, and in the end the research included a conclusion that included a summary of the most important results of the study and its appendices .

مقدمة

تعتبر القنفذة إحدى أكبر محافظات منطقة مكة المكرمة حالياً، و قد بقيت القنفذة في القرون السابقة تتأرجح في إدارتها بين الأتراك والأشراف والعسيريين والقوى الإدريسية، ولم تستقر على حال واحد حتى ما اندرجت منطقة القنفذة بشكل مباشر بعد امتداد الحكم السعودي إلى كل من عسير (١٣٣٨هـ/١٩١٩م) والحجاز (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م)، حيث أوجد الملك عبدالعزيز – طيب الله ثراه – لها نظام إداري ومالي بعيد عما كانت تعاني من صراعات ونزاعات، وهذا ما سوف تلقي عليه الضوء الباحثة من خلال دراسة القنفذة عشية دخولها تحت حكم الملك عبدالعزيز في عام (١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م) بدراسة تاريخية وثائقية، وذلك تحت عنوان " **ضم القنفذة تحت حكم الملك عبدالعزيز آل سعود – رحمه الله – عام (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م)**" وفيما يلي نوضح ما يلي:

أسباب اختار الموضوع :

١– القنفذة أحد أهم مدن المملكة العربية السعودية سياسيًّا و اقتصاديًّا وتجاريًّا

٢– إظهار الأحداث التاريخية الفعلية التي سبقت ضم الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله للقنفذة .

أهمية الدراسة :

تكمن أهمية الدراسة في تسليط الضوء على ما يلي :

١– ضم القنفذة إلى متصرفية عسير عام (١٢٨٩هـ/١٨٧٢م)

٢– فصل القنفذة عن عسير في عام (١٣١٣هـ – ١٨٩٥م) وإعادتها إلى تبعية ولاية مكة المكرمة.

٣– توضيح أحداث ضم القنفذة للملك عبدالعزيز آل سعود، لتصبح جزاء من بلاد المملكة العربية السعودية يسودها النظام والاستقرار .

أهدف الدراسة:

١– التعرف على الجانب السياسي التاريخي للقنفذة بشكل مبسط في عهد الأتراك والأشراف والعسيريين والقوى الإدريسية.

٢–الاطلاع على معاهدة الأدارسة عام (١٣٣٨هـ /١٩١٩م) ومعاهدة مكة عام (١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م) مع الملك عبدالعزيز .

مشكلة الدراسة :

قلة المصادر والمراجع التي كتبت عن القنفذة، فمازالت جهود الباحثين والمهتمين بتاريخ الحديث والمعاصر بعيدة عن بلاد القنفذة .

حدود الدراسة :

ركزت الدراسة على الفترة الزمنية الموجهة للباحثة من استاذ المقرر بدراسة القنفذة عشية دخولها تحت حكم الملك عبدالعزيز في عام (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م) .

منهجية الدراسة :

ستقوم الباحثة بالاعتماد على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي حيث يقوم بجمع المعلومات والروايات التاريخية من خلال الرجوع إلى المصادر والمراجع وتحليلها بشكل موضوعي بما يخدم موضوع الدراسة.

الدراسات السابقة :

١. **النعمي: هاشم بن سعيد، تاريخ عسير في الماضي والحاضر، ن.ط، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م .**

كتاب تاريخي يتناول تاريخ عسير الماضي والحاضر، وقد قسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام تناول فيها الكاتب حالة الإقليم الجغرافية، وأهم مدنها وأشهر قبائله، وتناول كذلك أحوال أهله الاجتماعية وتقاليدهم الوطنية وعادتهم القبلية وحالتهم السياسية .واستفادت الباحثة من هذا الكتاب معلومات ذكرت في التدخل التركي في القنفذة، وأيضًا الاتفاقات التي حدثت بين الإدريسي والملك عبدالعزيز – رحمه الله – .

٢. **جريس: غيثان، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق١٠–١٥هـ/ ق١٦–٢١م) دراسة تاريخية حضارية، ط١، مطابع الحميضي،١٤٣٢هـ / ٢٠١١م.**

كتاب تاريخي يحتوي على دراسة تاريخية حضارية عن بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق١٠– ١٥هـ/ ق١٦–٢١م)، وقد قسم الكتاب إلى ثمانية أقسام تناول فيها

الكاتب للقنفذة جغرافيًّا وبشريًّا والأوضاع السياسية والإدارية في منطقة القنفذة خلال خمسة قرون، وكذلك القنفذة في عيون الرحالة المسلمين وغير المسلمين وفهرس وثائق وبحوث غير منشورة عن القنفذة في مكتبة الدكتور وتناول القنفذة، كما سمع عنها ورآها ثم خاتمة ومصادر ومراجع وملاحق.

واستفادت الباحثة من هذا الكتاب في التعرف على تاريخ بلاد القنفذة السياسي والحضاري، وأخذ صورة كافية عن موضع الدراسة .

تقسيمات الدراسة :

قسم البحث إلى ما يلي : مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة وملحق.

يتناول الفصل الأول نبذة عن تاريخ القنفذة السياسي والأهمية التاريخية والسياسية للقنفذة، وسيتحدث عن القنفذة بين التبعية لبلاد عسير وتبعيتها لمكة المكرمة ثم القنفذة بين متصرف عسير ومحمد الإدريسي.

أما الفصل الثاني: فسوف يتحدث انضمام القنفذة تحت حكم الملك عبدالعزيز آل سعود – رحمه الله – .

تمهيـد

تقع مدينة القنفذة على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر، وكان يشكل موقعها قبل التوسعة العمرانية مثلثاً قاعدته على حافة الشاطئ ورأسه مفرقي وادي هارون المتفرع من وادي قنونا، وتبعد مدينة القنفذة عن مكة المكرمة (٣٤٤ كم) برًّا، كما تبعد عن مدينة جدة (٣٢٠ كم) جوًّا و(٣٣ كم) برًّا، وهي تقع تحديدًا عند نقطة تقاطع خط طول (٥,٤١) درجة شرقاً بدائرة عرض (١٩،٨) درجة شمالاً[١].

وتتميز بوقوعها على مرسى بحري طبيعي يتميز بشاطئ هادئ بجواره جزيرة قريبة جدًّا من الشاطئ، وهناك من يكثر الاعتقاد أن ذلك المرسى كان مستخدمًا من قبل أن تقوم حوله مدينة القنفذة. وقد أطلق اسم القنفذة المعروف حاليًا منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي حيث جاء اسمها صريحًا في حادثة مقتل قاضي مكة أبي السعود بن ظهيرة غريقاً في القنفذة بأمر من الشريف بركات عندما علم بخيانته، وكان ذلك في يوم الأحد (٢/١٢/٩٠٧م)[٢].

وقد اتخذت آنذاك قاعدة لتنفيذ العمليات الحربية والسياسية حينذاك إضافة إلى تبعيتها للحجاز، كما ورد ذكرها في سنة (٩٠٨هـ/١٥٠٢م)، حيث خرج الشريف بركات من مكة المكرمة إلى ساحل القنفذة.[٣] وقد تأخرت القنفذة عمرانيًّا واقتصاديًّا في النصف الأول من القرن العاشر بسبب التهديد البرتغالي لسواحل البحر الأحمر بالجزيرة العربية، غير أن سرعان ما عاد إليها نشاطها، فسميت **(ببندر القنفذة)** ومما

---

[١] الموسوعة الإلكترونية لجغرافية بلاد المملكة العربية السعودية http://www.kapl.org.sa/details.aspx?id=42#.WP7QfWfYrIU.

[٢] ورود ذكر القنفذة في كتاب "**غاية الأماني في أخبار القطر اليماني**" ليحيى بن الحسين حيث أشار إلى حادثة خروج الشريف بركات بن محمد من مكة المكرمة إلى ساحل القنفذة سنة (٩٨٠هـ)، وهذه الإشارة تدل على أن القنفذة، قد أصبحت موجودة قبل هذا التاريخ وقد ذكر البلادي بأن نواة القنفذة كانت موجودة قبل عام (٩٨٠هـ)، إلا إنها لم تظهر بمسماها الحالي إلا في القرن التاسع الهجري .

[٣] جريس:غيثان، **بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق١٠-١٥هـ/ ق١٦-٢١م) دراسة تاريخية حضارية**، ط١، مطابع الحميضي،١٤٣٢هـ/٢٠١١م. ص١٠٦.

تجدر الإشارة إليه هو قوة الاتصال بين القنفذة ومكة، وذلك حينما استخدم رضوان أغا الوسائط النقلية الموجودة في القنفذة والقادمة من جدة والمدينة، والتي تم من خلالها تنظيف مخلفات السيل الذي أدى إلى سقوط بعض جدران الكعبة، وكان ذلك التكليف من قبل والي مصر في القرن الحادي عشر سنة (١٠٣٩هـ/١٦٢٩م)، ومما يؤكد تبعية القنفذة للحجاز خلال القرن الحادي عشر الهجري، ترجمة القاضي عبدالواحد الأنصاري التي جاء فيها أنه ((**كان رئيس القنفذة وما والاها من أرض الحجاز لا تصدر أمورها إلا عن رأيه**)).

وينبغي أن ندرك أن القنفذة تستمد نفوذها السياسي والإداري من أمراء مكة المكرمة، حيث كانت تابعة لهم منذ نشأتها، وهذا الامر ينطبق على بلدة القنفذة نفسها، وأما ما يخص المنطقة بمفهومها الواسع، فالأجزاء الداخلية منها والنواحي البعيدة عن الموانئ الرئيسة مثل : **(دوقة، والقنفذة، وحلي، والبرك)** كانت تأتمر في الدرجة الأولى برأي شيوخها وأعيانها، وكان يغلب عليها فقدان الأمن وانتشار الفوضى في أوطانها، وإذا كان هناك اتصالات وتحالفات بين أمراء مكة وسكان هذه البلاد، فغالباً عن طريق الشيوخ والأعيان فقط .[١]

وقد دخلت القنفذة تحت ولاية شريف مكة المكرمة مع بداية تسلم السلطان العثماني سليم الأول زمام السلطنة عام (٩٢٢هـ) وإقراره لشريف مكة بالولاية على مكة المكرمة في تلك السنة، وعندما بدأ محمد علي باشا حملاته على بلاد عسير استعمل القنفذة، كميناء يرسل جيوشه إليه عبر البحر من مصر الى ميناء القنفذة ومنها تنطلق حملاته البرية عام (١٢٢٩هـ/١٨١١م).

حيث لم تتمكن قوات محمد علي باشا، التي توجهت إلى القنفذة، من احتلالها؛ بسبب استبسال القائد السّعودي الأمير طامي بن شعيب المتحمي، واستيلائه على آبار الماء، فاضطر قائد الحملة إلى إخلاء الثغر، وفي عام (١٢٣١هـ/١٨١٦م) في

---

[١] جريس:غيثان، **صفحات من تاريخ عسير**، ج١،ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م،ص٩٤.

"معركة بسل" استولى محمد علي على بلاد عسير، وقضى على الأمير طامي بن شعيب، وامتد نفوذه شمالاً حتى سيطر على بلاد القنفذة.

وقد عانت القنفذة في مطلع القرن الرابع عشر الكثير من المتاعب بسبب التطاحن الحربي بين تصارع القوى المحلية كأشراف مكة والسيد الإدريسي داخليًا، وكالعثمانيين وإيطاليا وبريطانيا خارجيًا وبسبب الدور الخطير الذي لعبه موقعها في الحياة السياسية والحربية إبان تلك المرحلة الزمنية كونها بقيت قاعدة بحرية لحملات الدولة العثمانية وحلفائها من أشراف مكة المكرمة في الحروب والغزوات التي شنت على بلاد عسير، وخاصة في أيام النزاع الذي نشب بين السيد الإدريسي وبين العثمانيين بواسطة والي عسير سليمان شفيق باشا.

وقد قامت الدولة العثمانية بعد القضاء على مراكز آل عائض الرئيسة في أبها وما حولها عام (١٢٨٩هـ/١٨٧٢م)، وسيطروا على أبها وقاموا بإنشاء ادارة مركزية في عسير اطلق عليها اسم **(متصرفية عسير)**، وضمت القنفذة إلى متصرفية عسير في ذلك العام والتي أصبحت تتبعها المنطقة الممتدة من زهران والقنفذة شمالًا إلى جازان وظهران الجنوب في بلاد قحطان جنوبًا حوالي نصف قرن من الزمن (١٢٨٩هـ– ١٣٣٧هـ/ ١٨٧٢م –١٩١٨م).

وهناك من يذكر أنها عادت، ففصلت القنفذة عن عسير في عام (١٣١٣هـ – ١٨٩٥م)، وأعادتها إلى تبعية ولاية مكة المكرمة . وقد نجد إشارة للـ (أ.د / غيثان بن جريس) أستاذ التاريخ بجامعة الملك خالد، إلى أمر مهم هنا، فقد ذكر أن الأمور المالية في منطقة القنفذة كانت تتبع مالية أبها وبخاصة في الفترة (٩٥– ١٣٦٢هـ/٤٠– ١٩٤٣م). وهنا لا نستطيع بالتحديد تعيين تاريخ دقيق، لذلك ولكن على الأغلب هو (١٣١٣هـ – ١٨٩٥م) .

الفصل الأول

نبذة عن تاريخ القنفذة السياسي

المبحث الأول: الأهمية التاريخية والسياسية للقنفذة :

لقد كان لموقع القنفذة على مصب وادي قنونا في البحر الأحمر أهمية خاصة، حيث مكنها هذا الموقع من أن تلعب دورًا تاريخيًّا بارزًا، وقد كان لذلك الأمر أهمية خاصة إبان سلطة الأشراف في مكة في عهد الدولة العثمانية، وقد استفادت الدولة العثمانية فوائد كبيرة من استعمال موقع القنفذة الاستراتيجي كمركز مهم لشن الحملات التركية في زمن الحروب التي قامت ضد سراة عسير في أيام حملات محمد علي باشا ثم في أيام الدولة الإدريسية في صبيا، وأخيرا في الحرب العالمية الأولى.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه المدينة قد تعرضت للكثير من المحن والمتاعب وخاصة في زمن حملات محمد علي باشا على عسير ومن ثم، تلا ذلك حملة الشريف حسين باشا بأمر من الدولة التركية لفك الحصار الذي ضربه السيد الإدريسي على سليمان شفيق باشا "متصرف عسير" في أبها، ولكن قد زالت كل تلك المحن والمتاعب عندما دخلت القنفذة تحت السيادة السعودية في عهد الملك المؤسس عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود طيب الله ثراه.

ولعلنا نذكر أهميتها بنقاط رئيسة بارزة :

١– القنفذة بوابة اقتصادية رئيسة والتي منها وإليها تصدُر ويرد معظم التجارات والسلع المختلفة التي عرفتها تهامة والسراة الممتدة من منطقة عسير جنوباً إلى منطقة الباحة شمالاً.

٢– تعتبر القنفذة قاعدة أساسية للحملات والصراعات الداخلية التي تقع بين أشراف مكة أو ضد قوات معادية تأتي من جنوب منطقة القنفذة (اليمن وبلاد جازان وعسير).

٣– ميناء مهم لقوافل الحجاج، حيث يعتبر منفذًا رئيسًا لأرض الحرمين يدخل منه حجاج جنوب جزيرة العرب وحجاج جنوب شرق آسيا مثل (الهند)[١]

---

[١] المرجع السابق: بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق١٠_١٥هـ / ق١٦_٢١م) دراسة تاريخية حضارية. ص٣٣– ٣٤.

المبحث الثاني: القنفذة بين التبعية لبلاد عسير وتبعيتها لمكة المكرمة :

أرادت الدولة العثمانية أن تخضع بلاد عسير تحت سيطرتها خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري، ففي عام (١٢٢٩هـ- ١٨١٤م)، نزلت قوات محمد علي باشا في ميناء القنفذة وعاثت فيها فسادًا، فكانت تقطع رؤوس أهلها ثم تقطع آذانهم وترسلها إلى مصر دليلا على انتصارها في عسير، وقد تصدى الأمير طامي بن شعيب المتحمي لهذه الحملات وقد قامت معركة بين رجال طامي وبين قوات محمد علي بعد أن سيطر طامي على موارد المياه في الآبار، وعندما حاولت قوات محمد علي الوصول إليها بالقوة حدثت معركة فاصلة انتهت بهزيمة قوات محمد على هزيمة ساحقة إذ لم ينج من قوات محمد علي إلا القليل وحاول محمد علي تلافي الهزيمة وأرسل فرقة من الخيالة لنجدة القوة المهزومة إلا إن فرقة النجدة هُزمت هي الأخرى[١] .

وقد أثرت تلك الهزيمة في موقف محمد علي فقام ببعض المصالحات مع أهالي الحجاز عامة وعقد محالفات مع قبائلها.[٢] مما دفعه إلى القيام بقيادة حملة كبرى **(معركة بسل)**[٣] وقضاء على الأمير طامي بن شعيب، وقد تولى الإمارة في عسير "محمد أحمد المتحمي" إلا إن الأمر لم يستقر لمحمد علي، فبمجرد عودته إلى مصر، ثارت عسير بقيادة "محمد أحمد المتحمي" الذي قام بطرد الأتراك الذين خلفهم محمد علي فيها فقام محافظ مكة حسني باشا بإرسال قوتين إلى عسير إحداهما جاءت عن طريق القنفذة تحت زعامة "جمعة أغا" الذي كان هدفه إعادة بلاد عسير تحت نفوذ الدولة العثمانية.[٤]

---

[١] صحيفة عكاظ، **بعد أن قطع الجيش رؤوس وآذان أهلها وأرسلها لمصر، القنفذة تطيح بقوات محمد علي باشا وتشهد هزيمتها للمرة الثانية**، أحمد علي الكناني، السبت ٨/رجب/١٤٢٩هـ السبت ١٢ يوليو ٢٠٠٨.

[٢] المرجع نفسه .

[٣] العنزي: منال بنت محمد الرشيد، **مدينة صبيا في عهد أسرة آل خيرات (١١٤١-١٢٦٤هـ/١٧٢٨-١٨٤٧م)**، جامعة ام القرى، مكة المكرمة، (رسالة ماجستير منشورة)، ١٤٢٨- ١٤٢٩هـ/٢٠٠٧- ٢٠٠٨م، ص٢٠.

[٤] عسيري: علي أحمد عيسى، **عسير من (١٢٤٩- ١٢٨٩هـ/١٨٣٣- ١٨٧٢م)**، الرياض، ١٤٠٤هـ، ص١٣٠- ١٣١.

وبعد جلاء جيوش محمد علي عن أرض الحجاز وعسير، قامت بعض الفتن في عسير في عام (١٢٦٥هـ – ١٨٤٩م)، قام "محمد بن عون" بتسيير ابنه عبد الله الذي قام بإصلاح الأمور في عسير وعقد صلحا مع أهلها ثم سار "محمد ابن عون" على رأس جيش إلى اليمن وفتح مدنها واحتل صنعاء ورتب الأمور بالشكل الذي أراده العثمانيون.

وقد ذكر عند (أ.د/ غيثان جريس) أن الشريف عبدالله بن عون كان يسعى دائماً إلى إشعال نار الفتنة بين العثمانيين والعسيرين. وقد بقيت بلاد القنفذة ميداناً للصراع بين الطرفين، وكان ذلك في سنة (١٢٦٥هـ – ١٨٤٩م)، وبذلك خرجت القنفذة وبلاد عسير من سلطة محمد علي باشا المباشرة ودخلت القنفذة تحت التبعية المباشرة لشريف مكة، وبقيت عسير تحت التبعية المباشرة للدولة العثمانية إلى أن نقض الصلح ابن عائض أمير عسير في عام (١٢٨٩هـ – ١٨٧٢م) .[١]

وبعد عام (١٣٨٩هـ–١٩٦٩م) استقر الحكم العثماني في عسير إلى عام (١٣٣٧هـ – ١٩١٩م) أي ما يقرب من (٤٨) سنة، حيث أقيم للحكم العثماني إدارة في عسير أطلق عليها اسم "**متصرفية**" واتخذت من مدينة أبها مقرًّا لها، وتقرر أن يتبع تلك المتصرفية ستة مراكز هي: (جيزان ومركزها صبيا)، و (محايل ومنطقة رجال المع ومركزها الشعبين)، و (بلاد رجال الحجر ومركزها النماص)، و(بلاد غامد وزهران ومركزها رغدان) والقنفذة وكل مركز من هذه المراكز يسمى قائم مقامية وجميعها تراجع المتصرف في أبها وهو يراجع الوالي العثماني المقيم في اليمن أو الحجاز، وأحيًانا كان يراجع السلطان في استانبول.

وقد عادت القنفذة الى ولاية شريف مكة بعد أن التحقت بمتصرفية عسير عام (١٢٨٩هـ –١٨٧٢م) وذلك في عام (١٣١٣هـ –١٨٩٥م)، حيث لم تدم في تبعيتها لمتصرفية عسير إلا أربعة وعشرين عامًا فقط، حيث تم تعيين الشريف " شنبر أميراً" على القنفذة من قبل أمير مكة آنذاك الشريف "عون الرفيق" .

[١] مسفر: عبدالله بن علي، **السراج المنير في سيرة امراء عسير**، مؤسسة الرسالة، د.ت، ص١٠٥.

المبحث الثالث: القنفذة بين متصرف عسير و محمد الإدريسي :

استولى محمد الإدريسي على بلاد صبيا ونواحيها في الفترة التي أصبح "سليمان شفيق باشا" حاكماً لعسير عام (١٢٢٦هـ/١٩٠٨م) وبدأ نفوذه يتزايد،[١] وصار متصرف عسير (سليمان شفيق) يخشاه ويحذر الأتراك من تنامي قوته، ومن ثم أقنع العثمانيين بإرسال قوة إلى عسير وجازان كي توقف الإدريسي عن التوسع لو فكر القيام بثورة ضدها فأرسلوا قوة قوامها (٣٠٠٠) مقاتل نزلت في ميناء القنفذة، وكانت رغبة متصرف عسير لو أنها قدمت إلى ميناء جازان حتى تكون قريبة من نشاطات الإدريسي السياسية ولكن الإدريسي استطاع أن يقنع الأتراك بعدم جدوى الحملة التي استقرت في القنفذة وعدم صحة ما ذكر عن طموحاته وخطورتها على العثمانيين. وفي عام (١٣٢٩هـ–١٩١١م) قام "محمد بن علي الإدريسي" بحصر متصرف لواء عسير سليمان باشا لمدة عشرة أشهر، فانتدبت الدولة العثمانية شريف مكة حسين بن علي باشا لفك الحصار عن سليمان باشا فوصل حسين باشا إلى القنفذة عن طريق البر وقابلته قوة تركية عن طريق البحر، وقد نقل لنا تفاصيل تلك الرحلة في " مذكرات سليمان شفيق باشا "[٢] وإن من المناسب ونحن نتحدث عن دور السيد محمد الإدريسي أن نشير إلى الدور الإيطالي[٣] الذي من خلاله تم الاتفاق بين إيطاليا وبين السيد الإدريسي في صبيا بمساعدته واعترفت له بالسيادة على تهامة من القنفذة شمالا حتى ميناء اللحية جنوبًا وتعهدت بحمايته من أي اعتداء خارجي وذلك لمساعدته بضرب القوات العثمانية على الساحل الشرقي المقابل لجزيرة سواكن وهو ساحل القنفذة طبعًا.

---

(١) شاكر: محمود، **شبة جزيرة العرب (عسير)**، ط، المكتبة الإسلامية، بيروت، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص ٢٣٨– ٢٣٩.

(٢) العقيلي، محمد بن أحمد، **مذكرات سليمان شفيق باشا (متصرف عسير)**، ص٧١.

(٣) للمزيد عن هذا الدور انظر: الوجيه، عبدالرحمن محمد حمود، **عسير في النزاع (السعودي–اليمني)**، ص٤٨.

وبالفعل تم ذلك، فقامت البوارج الإيطالية بضرب السفن العثمانية بالقرب من ميناء القنفذة، مثل (ميناء القحمة، وميدي، والبرك، والحديدة)،[١] حيث تعرضت السفن العثمانية لضرب البوارج الإيطالية لها ولا تزال بقايا السفن العثمانية غارقة في البحر بالقرب من القنفذة إلى يومنا هذا منذ عام (١٣٢٧هـ- ١٩٠٩م)؛ وذلك لأن الحرب العالمية الأولى عندما اندلعت نيرانها وتكالبت فيها الأعداء وتقاطعت المصالح، أوجدت الكثير من التداخلات السياسية.

وبعد انقطاع العلاقات فجأة بين الإدريسي وإيطاليا والتي قد يكون بسبب تخلي إيطاليا عن مساعدة الإدريسي جعله يعقد صداقة مع بريطانيا كي تحميه وتدافع عنه وإبرام معاهدة رسمية معها عام (١٣٣٤هـ/١٩١٥م) وجددت عام (١٣٣٦هـ/١٩١٧م).[٢]

وقد نجح الإدريسي في استيلاء على القنفذة بمساعدة بريطانيا مما تسبب مشكلة بينه وبين الشريف حسين عُرفت هذه المشكلة بأزمة القنفذة، وقد قرر الشريف حسين أن يستولي على القنفذة بأي طريقة سلماً أو حرباً فأخطر بريطانيا بذلك، وهدد بوقف عملياته ضد العثمانيين إن لم تستجب بريطانيا لطلبه، وهنا وجدت بريطانيا نفسها في ورطة. حيث عرضت على الإدريسي رغبة الحسين في استعادة القنفذة سلمًا أو حربًا وأنها لا تؤيد الحرب وعرضت على الإدريسي أن يجلي قواته من القنفذة ذلك عام (١٣٣٤هـ/١٩١٥م) وقد رفض الإدريسي ذلك الأمر وأصر على موقفه متحديًا الشريف حسين باشا، لكن مارست بريطانيا ضغوطها عليه انتهت بتسليم القنفذة للشريف حسين باشا وخروج القوات الإدريسية منها.[٣]

---

[١] للمزيد انظر: البركاتي، شرف عبدالمحسن، **الرحلة اليمانية للشريف حسين بن علي**، الوراق للنشر، ص١١٢- ١١٧.

[٢] النعمي: هاشم بن سعيد، **تاريخ عسير في الماضي والحاضر**، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص٣٢٤.

[٣] للمزيد انظر: العقيلي، محمد بن أحمد، **مذكرات سليمان شفيق باشا (متصرف عسير)**، ط١، نادي أبها الأدبي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ص٥٠-٧٣.

الفصل الثاني

القنفذة تحت حكم الملك عبدالعزيز آل سعود - رحمه الله- .

المبحث الأول: انضمام القنفذة تحت حكم الملك عبدالعزيز آل سعود- رحمه الله-:

أصبح الإدريسي بين عدة قوى محلية ترغب في السيطرة على بلاد تهامة، فإمام اليمن يرى أنها جزء من بلاده، والأشراف في مكة يعتبرون تهامة حتى بلاد القنفذة وما جاورها جزءًا من الحجاز، وآل عائض في عسير يرون أنها تتبع إمارتهم في أبها.[١]

عندئذ قام محمد الإدريسي بمكاتبة الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود وعقد معاهدة صداقة بينهما عام (١٣٣٨هـ/١٩١٩م)، وتم ترسيم الحدود بين الطرفين ثم توفي بعد ذلك السيد محمد الإدريسي عام (١٣٤١هـ/١٩٢٢م) وخلفه في السلطة نجله علي بن محمد، فثار عليه سكان تهامة وبايعوا عمه الحسن بن علي الإدريسي.

ومما لاشك فيه ان كان هناك توتر أصاب العلاقات بين الشريف حسين والملك عبد العزيز عندما منع الأول أهل نجد من الحج لأسباب سياسية، فقرر الملك عبد العزيز دخول مكة للحج ولو بالقوة، وتم ذلك وتنازل الملك حسين عن الملك لأكبر أنجاله الملك علي الذي انتقل إلى جده وحاصره الملك عبد العزيز، وأقام معسكرًا لذلك الغرض في أبرق الرغامة شرق جده إلى أن سلم الملك علي جدة وتنازل عن الملك ورحل بعد أن ضمن الملك عبد العزيز سلامته وحقوق وأملاك الأشراف الخاصة في مكة.

في هذه الأثناء، كان يدرك الملك عبد العزيز أهمية ميناء القنفذة، وقد ذكر فؤاد حمزة صاحب مصنف "قلب جزيرة العرب" أن الملك عبد العزيز أنفذ نجله فيصل على رأس قوة كبيرة من الإخوان في شهر شوال (١٣٤٠هـ) يونيو (١٩٩٢م).

---

[١] مرجع سابق، **شبه جزيرة العرب (عسير)**، ص٢٤٥.

وتمكن من فتح حرملة حصن ابن عائض الحصين وشتت شمل قوات بن عائض .. إلى أن قال: ((وتم بذلك الاستيلاء على منطقة عسير السراة حتى حدود اليمن من الجنوب وحدود الإدريسي من الغرب حتى القنفذة وديار غامد وزهران في الشمال)).

واستمرت سيطرة الملك عبد العزيز تسير بالتدريج إلى أن تمت محاصرة الشريف علي بن الأمير حسين باشا في جدة بعد أن دخلت القوات السعودية أرض الحجاز، وعندما كان الملك عبد العزيز معسكرًا في ابرق الرغامة، أرسل وفدًا من عسير برئاسة محمد بن عجاج وتركي بن ماضي لاستلام على ميناء القنفذة من الشريف عبد الله بن حمزة والي القنفذة من قبل شريف مكة، ولم يلق الوفد أي مقاومة تذكر، حيث سلم الشريف عبد الله بن حمزة بالأمر الواقع وغادر القنفذة دون أن يتعرض لأي إيذاء بعد أن سلم كل ما بعهدته ورحل في غرة ربيع الثاني (١٣٤٣هـ-١٩٢٤م).

وفي عام (١٣٤٥هـ/١٩٢٦م) عقدت معاهدة بمكة المكرمة بين الملك عبدالعزيز آل سعود والسيد الحسن الإدريسي بمقتضاها تنازل الإدريسي عن كافة شؤون إمارته لابن سعود،[١] الذي نصبه حاكمًا عليها من قبله، وأمر بتشكيل مجلس شورى لمساعدته ينتخب رجاله من أهل الحل والعقد على أن تكون الأحكام والحدود الصادرة منه طبقاً للشرع الشريف، وأما الجوانب الخارجية والحفاظ على حدود البلاد، فكانت من اختصاص الملك عبدالعزيز –رحمه الله– .

وعلى الرغم مما بذله ابن سعود للسيد الحسن الإدريسي من مساعدات مادية ومعنوية، فقد عجزت حكومته المحلية عن إدارة الأمور وجباية الأموال، فاضطر الإدريسي في (١٧ جمادى الأول) عام (١٣٤٩هـ/١٩٣٠م)[٢] إلى التنازل عن إمارته، ورفع برقية إلى ابن سعود قال فيها: "**وتقرر بموافقتنا ورضانا إسناد البلاد وماليتها إلى عهد جلالتكم**"[٣] ولكن الحسن الإدريسي لم يستقر على هذا القرار، وأعلن

---

[١] مرجع سابق: **تاريخ عسير في الماضي والحاضر**، ص٣٧٣– ٣٧٥.

[٢] المرجع السابق، السراج المنير في سيرة أعلام عسير،ص١١٥.

[٣] المرجع نفسه :ص١١٦.

العصيان على الملك عبدالعزيز آل سعود في صيف (١٣٥١هـ/١٩٣٢م)[١] فتصدت له القوات السعودية، واستعادة زمام الأمور، وهرب الإدريسي مع عائلته إلى اليمن، وبقي هناك حتى عفا عنه الملك عبدالعزيز، ثم عاد وعائلته كي يعيشوا تحت رعاية الملك عبدالعزيز.

فهكذا، كانت سياسة الملك عبد العزيز، فهو لم يكن يبحث عن التنكيل وسفك الدماء بل كان يبحث عن الصفح وحفظ الحقوق وإرساء قواعد الشرعية الصحيحة؛ لأنه كان يسعى إلى بناء كيان، ولم يكن يبحث عن تيجان وصولجان، وقد تم تعيين محمد بن عجاج أميرًا على القنفذة وعين تركي بن محمد بن ماضي وكيلا للمالية.

كما قد ذكر برواية أخرى أن أول أمير عين للقنفذة في عهد الملك عبد العزيز كان اسمه مساعد بن سويلم وليس محمد بن عجاج، ويذكر أيضًا أنه كان عبدالله بن حمزة الفعر.

وقد أصبح ميناء القنفذة ميناء سعوديًا في (١٣٤٣/٧/١٤هـ – ١٩٢٥/٢/٨م)[٢] وفي نفس الوقت طلب الملك عبد العزيز إرسال المواد الغذائية من ميناء القنفذة للجيش السعودي الذي يحاصر جده وقال الملك عبد العزيز كلمته الشهيرة: "**ميناء القنفذة هو ميناء الوطن**" وقد كان يوجد في ميناء القنفذة اكبر أسطول تجاري يبلغ عدد سفنه (١٢) سفينة تجارية تقدر حمولة الواحدة منها بألف طرد من المنتجات المحلية .

---

[١]المرجع السابق،عسير في النزاع (السعودي_اليمني)،ص١٠٩.

الخاتمـة

بعد الانتهاء من الدراسة، بالإمكان التوقف عند بعض النتائج المهمة التي توصلت إليها، ومنها ما يلي :

١–أطلق اسم القنفذة المعروف حالياً منذ القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي، حيث جاء اسمها صريحًا في حادثة مقتل قاضي مكة أبي السعود بن ظهيرة غريقاً في القنفذة بأمر من الشريف بركات عندما علم بخيانته تاريخ (٩٠٧/١٢/٢م) .

٢–تأخرت القنفذة عمرانيًّا واقتصاديًّا في النصف الأول من القرن العاشر؛ بسبب التهديد البرتغالي لسواحل البحر الأحمر بالجزيرة العربية، غير إن سرعان ما عاد إليها نشاطها فسميت (ببندر القنفذة) .

٣–القنفذة تستمد نفوذها السياسي والإداري من أمراء مكة المكرمة، حيث كانت تابعة لهم منذ نشأتها، وهذا الأمر ينطبق على بلدة القنفذة نفسها، وأما ما يخص المنطقة بمفهومها الواسع، فالأجزاء الداخلية منها والنواحي البعيدة عن الموانئ الرئيسة مثل: (دوقة، والقنفذة، وحلي، والبرك) كانت تأتمر في الدرجة الأولى برأي شيوخها وأعيانها .

٤–قامت الدولة العثمانية بعد القضاء على مراكز آل عائض الرئيسة في أبها وما حولها عام (١٢٨٩هـ/١٨٧٢م) وسيطروا على أبها، وقاموا بإنشاء إدارة مركزية في عسير أطلق عليها اسم (متصرفية عسير) وضمت القنفذة إلى متصرفية عسير في ذلك العام .

٥–ففصلت القنفذة عن عسير في عام (١٣١٣هـ – ١٨٩٥م) وأعادتها إلى تبعية ولاية مكة المكرمة .

٦–يعد موقع القنفذة على مصب وادي قنونا في البحر الأحمر ذا أهمية خاصة، حيث مكنها هذا الموقع من أن تلعب دورًا تاريخيًّا بارزًا، وقد كان لذلك الأمر أهمية خاصة إبان سلطة الأشراف في مكة في عهد الدولة العثمانية وتعتبر ميناء مهم لقوافل

الحجاج، حيث يعتبر منفذاً رئيسًا لأرض الحرمين يدخل منه حجاج جنوب جزيرة العرب وحجاج جنوب شرق آسيا مثل (الهند).

٧- استولى محمد الإدريسي على بلاد صبيا ونواحيها في الفترة التي أصبح "سليمان شفيق باشا" حاكماً لعسير عام (١٢٢٦هـ / ١٩٠٨م) .

٨- مارست بريطانيا ضغوطها على لإدريسي، وانتهت بتسليم القنفذة للشريف حسين باشا وخروج القوات الإدريسية منها عام (١٣٣٤هـ / ١٩١٥م) .

٩- قام محمد الإدريسي بمكاتبة الإمام عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود وعقد معاهدة صداقة بينهما عام (١٣٣٨هـ/١٩١٩م) وتم ترسيم الحدود بين الطرفين .

١٠- تم في عام (١٣٤٥هـ/١٩٢٦م)، عقدت معاهدة بمكة المكرمة بين الملك عبدالعزيز آل سعود والسيد الحسن الإدريسي بمقتضاها تنازل الإدريسي عن كافة شؤون إمارته لابن سعود .

١١- الحسن الإدريسي أعلن العصيان على الملك عبدالعزيز آل سعود في صيف (١٣٥١هـ/١٩٣٢م)، فتصدت له القوات السعودية، واستعادة زمام الأمور، وهرب الادريسي مع عائلته إلى اليمن، وبقي هناك حتى عفا عنه الملك عبدالعزيز ثم عاد وعائلته كي يعيشوا تحت رعاية الملك عبدالعزيز .

١٢- اندرجت منطقة القنفذة بشكل مباشر بعد امتداد الحكم السعودي إلى كل من عسير (١٣٣٨هـ/١٩١٩م) والحجاز (١٣٤٣هـ/١٩٢٤م)، حيث أوجد الملك عبدالعزيز – طيب الله ثراه – لها نظام إداري ومالي بعيد عما كانت تعاني من صراعات ونزاعات .

١٣- أصبح ميناء القنفذة ميناء سعوديًّا في (١٣٤٣/٧/١٤هـ- ١٩٢٥/٢/٨م) وأصبح يرسل منه المواد الغذائية من ميناء القنفذة للجيش السعودي الذي يحاصر جدة.

المصادر والمراجع

أولاً: المراجع العربية :

١- البركاتي، شرف عبدالمحسن، الرحلة اليمانية للشريف حسين بن علي ،الوراق للنشر، د.ت .

٢- جريس: غيثان، بلاد القنفذة خلال خمسة قرون (ق١٠-١٥هـ / ق١٦-٢١م) دراسة تاريخية حضارية، ط١، مطابع الحميضي، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م .

٣- جريس: غيثان، صفحات من تاريخ عسير، ج١، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٤- الوجيه، عبدالرحمن محمد حمود، عسير في النزاع (السعودي- اليمني) د.ت.

٥- عسيري: علي أحمد عيسى، عسير من (١٢٤٩-١٢٨٩هـ/ ١٨٣٣-١٨٧٢م)، الرياض، ١٤٠٤هـ .

٦- مسفر: عبدالله بن علي، السراج المنير في سيرة أمراء عسير، مؤسسة الرسالة، د.ت.

٧- العنزي: منال بنت محمد الرشيد، مدينة صبيا في عهد أسرة آل خيرات (١١٤١- ١٢٦٤هـ /١٧٢٨- ١٨٤٧م)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٨-١٤٢٩هـ/٢٠٠٧- ٢٠٠٨م.

٨- شاكر: محمود، شبة جزيرة العرب (عسير)، ط١، المكتبة الإسلامية، بيروت، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

٩- العقيلي، محمد بن أحمد، مذكرات سليمان شفيق باشا (متصرف عسير) ،د.ت.

١٠- العقيلي، محمد بن أحمد، مذكرات سليمان شفيق باشا (متصرف عسير)، ط١، نادي أبها الأدبي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

١١- النعمي: هاشم بن سعيد، تاريخ عسير في الماضي والحاضر، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م .

ثانياً: الدوريات والمجلات والصحف:

١- صحيفة عكاظ، بعد أن قطع الجيش رؤوس وآذان أهلها وأرسلها لمصر، القنفذة تطيح بقوات محمد علي باشا وتشهد هزيمتها للمرة الثانية، أحمد علي الكناني، السبت ٨ رجب ١٤٢٩هـ/ السبت ١٢ يوليو ٢٠٠٨م.

ثالثاً: المواقع الإلكترونية :

١ – الموسوعة الإلكترونية لجغرافية بلاد المملكة العربية السعودية
http://www.kapl.org.sa/details.aspx?id=42#.WP7QfWfYrl U

زيارة الملك البريطاني جورج السادس لاتحاد جنوب أفريقيا سنة ١٩٤٧

(قراءة في أبعادها السياسية من منظور الخارجية البريطانية والمصرية)

أ.د. أحمد عبد الدايم محمد حسين
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الدراسات الأفريقية العليا
جامعة القاهرة

حظى اتحاد جنوب أفريقيا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بمكانة خاصة لدى المسئولين البريطانيين، حيث كان التطرف في الجزع من قبل العناصر البيضاء، الأفريكانرية والإنجليزية، قد دفع بالخلافات بينهما إلى حافة الهاوية. فلم يكن التفاوت بين العناصر المسيطرة على الاتحاد، قد فرض تقسيماته الحزبية والأيديولوجية بطريقة فجة إلا مع نهاية سنة ١٩٤٦ وبداية سنة ١٩٤٧. وساعد على هذا موقف السلطة المحلية بقيادة الجنرال سمتس، الذي كان لا يعير اهتمامًا للممارسات التي تجري على الأرض، وتنذر بكارثة بين الطرفين. فكان لا يقيم وزنًا لواقع الخلافات التي تدفع بتلك العناصر للتصادم فيما بينها؛ اعتقادًا في مكانته الدولية التي وصل إليها، واستنادًا على السلطات البريطانية المؤيدة لتوجهاته. لذا، كانت زيارة العائلة المالكة البريطانية، بقيادة الملك جورج السادس وزوجته وابنتيه، إلى جنوب أفريقيا وبقائهم هناك لأكثر من شهرين، منذ ١٧ فبراير وحتى ٢٤ أبريل سنة ١٩٤٧، ضرورية ومهمة لرأب الصدع الذي حدث بين العناصر البيضاء، واستعادة مكانة الأسرة البريطانية في قلوب رعاياها من الطرفين، والحفاظ على مكانتها لدى بقية العناصر التي تقطن الجنوب الأفريقي البريطاني ككل. فالزيارة الملكية لم تقتصر على اتحاد جنوب أفريقيا فقط، بل امتدت لزيارة محميات الباسوتولاند وسوزيلاند وبتشوانالاند وروديسيا الشمالية والجنوبية.

وتتبع أهمية هذا الموضوع من ثلاثة اعتبارات رئيسة: **أولها:** أن زيارة الملك جورج السادس وعائلته قد تمت في ظروف محلية وإقليمية ودولية صعبة للغاية. وهو الأمر الذي لفت نظر القنصلية الملكية المصرية بكيب تاون بجنوب أفريقيا إلى توقيت الزيارة وأهدافها، فأرسلت

لمسئوليها في القاهرة تقارير بشأنها، لتخبرهم بطبيعتها وبرنامجها، وتعامل القائمين عليها، ثانيها: أن الزيارة الملكية لجنوب أفريقيا كانت ضرورية ومهمة في هذا التوقيت لرأب الصدع الذي حدث بين العناصر البيضاء من ناحية، وبين العناصر غير البيضاء والسلطة الحاكمة من ناحية أخرى. فقد كانت منطقة الجنوب أفريقي ككل، تئن بالخلافات والصراعات، وتسودها أجواء ما بعد الحرب العالمية الثانية الرافضة للحكم البريطاني في كل المستعمرات، ثالثها: أن اهتمام الخارجية البريطانية بالزيارة كان طبيعيًا، بحكم تبعية جنوب أفريقيا لبريطانيا، وبحكم شخصية الزائر وعائلته، ومردود الزيارة على بريطانيا نفسها. أما الأمر الغريب والمدهش، فيتمثل في متابعة الخارجية المصرية لها. فيبدو أن طريقة تعامل الأسرة المالكة البريطانية مع الخلافات القائمة بين العناصر البيضاء هناك، وإدارتها لملف الأمن الاستعماري في منطقة الجنوب الأفريقي بطريقة مميزة، قد فرض على القنصلية المصرية بكيب تاون ضرورة تسليط الضوء على طريقة جديدة وناعمة في إدارة الخلافات، وكيفية إدارتها في مصر نفسها. وإلقاء الضوء أيضًا على طريقة التعامل البريطانية مع خلافاتها الاستعمارية بعد استعداد الهند للاستقلال، وقيام مصر برفع قضيتها أمام الأمم المتحدة، وتصعيد مطالبها في الاستقلال ووحدة وادي النيل. وبالتالي، فإن سنة ١٩٤٧، تحتاج لفهم خاص بالظروف المحيطة ببريطانيا في كل مستعمراتها، وداخل بريطانيا نفسها.

لكم هو مدهش أن تعتمد في الدراسة على أكثر من أرشيف وثائقي، لكن الأكثر دهشة هو التناقض المحير الذي يجده الباحث خلالها. صحيح أن المعلومات الواردة عبر تلك الأرشيفات تبني المادة العلمية بشكل قوي وممتاز، لكن الصحيح أيضًا أن هذه التناقضات قد تجعل الباحث أكثر حيرة في التفسير والتحليل. حيث تعتمد الدراسة على وثائق الخارجية البريطانية والمصرية بصفة رئيسة، تلك الوثائق التي تتبعت الزيارة منذ الإعلان عنها سنة ١٩٤٦ وحتى نهايتها في أبريل ١٩٤٧. ناهيك عن الأرشيف البصري، ممثلًا فى الصور والأفلام التي تم تسجيلها خلال الزيارة، وأرشيف الطوابع والعملات التي تم صكها خصيصًا للاحتفاء بالزائرين. لكن تأتي دراستنا للموضوع عبر مراسلات الخارجية البريطانية والمصرية؛ لأنها لم تكن بهدف

تسجيل الزيارة وبرنامجها فحسب، بل كانت قراءة مميزة لمفهوم الأمن الاستعماري أيضًا. لذا، فإن طريقة تعامل الأسرة المالكة مع الخلافات القائمة بين العناصر البيضاء هناك، وإدارتها لملف الأمن الاستعماري في منطقة الجنوب الأفريقي، استوجب منا مزيد من الدراسة والفحص والتمحيص. وعلى هذا، سنقوم بتقسيم الدراسة إلى ثمانية محاور رئيسة: **أولها:** علاقة اتحاد جنوب أفريقيا ببريطانيا قبل سنة ١٩٤٧، **ثانيها:** الإعلان عن الزيارة الملكية ودوافعها الإستراتيجية والسياسية، **ثالثها:** تأمين الملك جورج السادس والعائلة الملكية، **رابعها:** برنامج الزيارة وأبعاده السياسية. **خامسها:** الموقف السياسي من الزيارة وانعكاساته على الأمن الاستعماري . **سادسها:** زيارة الملك جورج السادس إلى المحميات البريطانية وأبعادها السياسية، **سابعها:** موقف الصحافة الجنوب أفريقية من الزيارة. **ثامنها:** أثر الزيارة على الأمن الاستعماري.

المحور الأول: علاقة اتحاد جنوب أفريقيا ببريطانيا قبل عام ١٩٤٧:

لكي نتعرف على زيارة الملك البريطاني جورج السادس♥ وزوجته إليزابيث♥ وابنتيه؛ الأميرة إليزابيث♥، والأميرة مارجريت♥، فلابد أن نتعرف في البداية على العلاقة التي تربط جنوب أفريقيا ببريطانيا، والسياق السياسي الذي تمت فيه الزيارة. وفي هذا الإطار، وجب علينا النظر في أربعة أمور: الأمر الأول: نشأة العلاقة بين جنوب أفريقيا وبريطانيا قبل تكوين الاتحاد سنة ١٩١٠. فمنذ الاحتلال الهولندي للكيب سنة ١٦٥٢، ومرورًا بالاحتلال البريطاني الأول لرأس الرجاء الصالح سنة ١٧٩٥، ثم خروجها منه عام ١٨٠٣، لم تثبت أقدام بريطانيا في مستعمرة الكيب إلا بعد استرجاعها سنة ١٨٠٦. لكن ظل الاحتلال يمثل أبعادًا إستراتيجية فقط، للحفاظ على خطوط مواصلاتها مع الهند، أكثر منه استغلالًا للمنطقة، وطمعًا في خيراتها. ولم تتغير تلك النظرة إلا في عام ١٨٢٠، حينما قررت الحكومة البريطانية إرسال ٥٠٠٠ بريطاني للاستيطان هناك، فحينها بدأ التوسع في نواحي جنوب أفريقيا ككل [١]. وانتهى الأمر بعد هجرة البوير إلى المناطق الشمالية منها إلى انقسام جنوب أفريقيا في خمسينيات القرن ١٩ إلى أربع مستعمرات رئيسة: اثنتين للبوير هما: الترنسفال

والأورنج الحرة. واثنتين للإنجليز، مستعمرة الرأس وناتال. وتطور الأمر بعد اكتشاف الذهب سنة ١٨٦٧، إلى السيطرة البريطانية الكاملة على كافة أنحاء جنوب أفريقيا بعد حرب البوير. تلك الحرب التي استمرت بين البريطانيين والأفريكانرز منذ سنة ١٨٩٩ وحتى سنة ١٩٠٢. وكانت هزيمة البوير خلالها قد دفعت ببريطانيا المنتصرة، للسير في طريق اتحاد جنوب أفريقيا منذ سنة ١٩٠٥، ليعلن رسميًّا سنة ١٩١٠. هذا الاتحاد الذي ظل قائمًا حتى سنة ١٩٦١، حينما استقلت جنوب أفريقيا عن بريطانيا، وأصبحت جمهورية مستقلة [٢].

الأمر الثانى: أن رابطة الكمنولث البريطاني هي التي تحكم العلاقة بين الطرفين منذ سنة ١٩١٠م وحتى سنة ١٩٦١. حيث كانت رابطة الكمنولث هي التي تحكم العلاقة بين بريطانيا واتحاد جنوب أفريقيا منذ تكوين الاتحاد سنة ١٩١٠، وحتى توقيت الزيارة الملكية سنة ١٩٤٧، بل استمرت حتى سنة ١٩٦١، عندما انفصلت جنوب أفريقيا عن الكمنولث، وأصبحت جمهورية مستقلة. وإذا تتبعنا تطور العلاقة الدستورية بين البلدين بعد إنشاء الاتحاد، فسنجد أن أول دار لصك العملة قد تأسست في الاتحاد سنة ١٩٢٥، تبعها تقديم مشروع قانون للبرلمان لإيجاد علم وجنسية خاصة بجنوب أفريقيا فى ٢٥ مايو ١٩٢٦. ثم صدر قرار بإحالة جميع المسائل المتعلقة بعلاقات الاتحاد مع بريطانيا إلى لجنة يرأسها اللورد بلفور. تلك اللجنة التي نص بيانها في أكتوبر سنة ١٩٢٦ على أن علاقة بريطانيا بدول الدمينون هي علاقة بين مجتمعات مستقلة داخل الإمبراطورية البريطانية. وأنها متساوية في الوضع، ولا يخضع أي منها للآخر. وبالتالي، أعطى إعلان بلفور الضوء الأخضر لإنشاء إدارة جنوب أفريقيا للشئون الخارجية، تلك التي تولى أمرها هيرتزوج في الأول من يونيو سنة ١٩٢٧. وتبع ذلك تعيين السفراء، وتأسيس شبكة من المكاتب التجارية في أوروبا وشمال أفريقيا. وفي نفس السياق، جاء المؤتمر الملكي لسنة ١٩٣٠ مقدمة لصدور قانون ويستمنستر سنة ١٩٣١، ذلك المؤتمر الذي أعطى السلطة المطلقة لدول الدمينون في الدخول في اتفاقيات مع الدول الأجنبية، وأعطى مزيدًا من الاستقلال لاتحاد جنوب أفريقيا فيما بعد [٣].

وعلى هذا، فإن الملك البريطاني كان هو الرئيس الأعلى لاتحاد جنوب أفريقيا♥. وبالتالي، ظلت قيادة البحرية والقوات المسلحة تأتمر بأمر الملك أو ممثله. هذا بالاضافة إلى تبعية برلمان الاتحاد بمجلسيه، الشيوخ والنواب، للملك. وبالتالي وجب عليه المشاركة في افتتاحه، وهو لم يحدث حتى سنة ١٩٤٧. حيث سيطلب من الملك خلال الزيارة الملكية في تلك السنة افتتاح البرلمان لأول مرة في تاريخ الاتحاد. وكان صدور قانون المهام التنفيذية الملكية والأختام في سنة ١٩٣٤، قد جعل الملك يستمر في ممارسة سلطاته التنفيذية عبر الاتحاد، لكنه ظل يتصرف بناء على مشورة وزراء اتحاد جنوب أفريقيا. حيث أصبح تعيين الحاكم العام يتم بمشورة بين الملك ووزراء الاتحاد، بعد أن كان يتم بمشورة بين الملك ومجلس وزراء بريطانيا، وليس الاتحاد. وبناء عليه، اختير لأول مرة مواطن من جنوب أفريقيا، وهو باتريك دنكان، ليكون حاكمًا عامًّا. وعند وفاته سنة ١٩٤٢ عين جيدون براند فان زيل♥ حاكمًا عامًّا، وهو من مواليد جنوب أفريقيا ويتحدث الأفريكانية. وبالتالي، صار الحاكم العام لا يمثل الملك فقط، ولكن يمثل حكومة الاتحاد أيضًا [٤].

من هنا، فإنه عند اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩، وقفت دولة اتحاد جنوب أفريقيا إلي جانب بريطانيا تطبيقًا لنظام "الدومنيون" وقانون وستمنستر، بالرغم من معارضة بعض السياسيين الذين فضلوا أن تبقى بلادهم على الحياد. فحارب الاتحاد ضد ألمانيا النازية وإيطاليا واليابان، وشاركت قواته البرية والجوية في المعارك التي دارت في إيطاليا والبلقان ومدغشقر وشرق أفريقيا وشمالها، بما فيها معركة العلمين.

الأمر الثالث: أن الحكومات التي حكمت الاتحاد منذ تأسيسه، وحتى زيارة الملك جورج السادس، كانت أفريكانرية متعاونة مع الإنجليز. فحين نجحت العناصر البريطانية في السيطرة على مقدرات جنوب أفريقيا، وتوحيد مستعمرات جنوب أفريقيا الهولندية، الترانسفال والأورونج الحرة، والبريطانية، الرأس وناتال، تحت مسمى اتحاد جنوب أفريقيا سنة ١٩١٠، تركت للعناصر الأفريكانرية لتدير الشئون السياسية للاتحاد، فى حين هيمنت العناصر البريطانية على النواحي الاقتصادية تمامًا [٥]. وعلى هذا، فإنه منذ تولى حزب جنوب أفريقيا السلطة سنة ١٩١٠، ومرورًا بحكومة الميثاق في الفترة من ١٩٢٤–١٩٣٤، لم تكن هناك رغبة في الانفصال عن بريطانيا إلا

من خلال مجموعات صغيرة، ظهرت أثناء فترة التمرد الأفريكانرى في بداية الحرب العالمية الأولى، ثم خلال الحرب العالمية الثانية. لكن تعهدت حكومة الميثاق منذ وصولها للحكم سنة ١٩٢٤ بمواجهة الرأسمالية الاحتكارية من قبل المستوطنين البريطانيين. ثم راحت حكومة الحزب المتحد برئاسة هيرتزوج تمضى قدمًا في تلك المواجهة بعد انتخابات سنة ١٩٣٣. غير أن الصراع بين الناطقين بالأفريكانرية والناطقين بالإنجليزية بات على أشده خلال تلك الفترة. حيث واجهت تلك الحكومة مشكلتين: أولهما، أن الأفريكانرز اعتبروا أن تصاعد الاتجاهات الاشتراكية والنازية والفاشية في مناطق عديدة من العالم، حلًا بديلًا لمشاكلهم مع المستوطنيين البريطانيين، فمالوا إلي النازي عند اندلاع الحرب العالمية الثانية. وهو الأمر الذي دعا حكومة الجنرال سمتس♥، التي تولت زمام الأمور خلال فترة الحرب، بأن تنحاز لبريطانيا وتشاركها في جبهات القتال، وفي نفس الوقت حاولت الانصهار مع القوى الأفريكانرية المحلية في بناء هوية ثقافية أفريكانرية للاتحاد. ثانيهما: تسبب تقارب العناصر غير البيضاء، في تصعيد المواجهة مع البيض عقب انتهاء الحرب، وعودة المشاركين فيها من تلك العناصر[٦].

الأمر الرابع: أن غالبية الذي يسكنون جنوب أفريقيا يدينون بالولاء للتاج البريطاني. فالاتحاد متعدد العناصر، يسكنه البيض الناطقون بالإنجليزية، وهؤلاء جاءوا مع الاحتلال البريطاني للكيب سنة ١٨٠٦. ويسكنه البيض الناطقون بالأفريكانرية، وهؤلاء هم خليط من الهولنديين والفرنسيين والألمان والبلجيك[٧]. وهناك الأفريقيون، وهم أصحاب الأرض الأصليون. وهناك الملونون، وهؤلاء كانوا من نتاج اختلاط الأوروبيين بكل من الهوتنتوت والبوشمن والأندونسيين والملاويين المنفيين ورقيق غرب أفريقيا المهجرين للمستعمرة الهولندية منذ احتلالها سنة ١٦٥٢. وشكل هؤلاء المخلطون عنصرًا سكانيًا متميزًا عن الأفريقيين والأفريكانرز[٨]. وهناك الاَسيويون، وهم اندونسيون وملاويون[٩]، وفدوا لجنوب أفريقيا في عصر المستعمرة الهولندية، إلي أن قام الإنجليز بجلب الهنود عام ١٨٦٠، لزراعة القطن وقصب السكر في ناتال، ثم انتشروا فيما بعد فى كافة أنحاء جنوب أفريقيا بعد اتحادها سنة ١٩١٠[١٠]. وإذا نظرنا لموقف هؤلاء من بريطانيا وجدنا أن غالبيتهم يدينون بالولاء للتاج البريطاني، وبالتالي، ستدرك كيف كان ترحيب غالبية هؤلاء بالزيارة الملكية وحماسهم لها.

المحور الثاني: الإعلان عن الزيارة الملكية ودوافعها الإستراتيجية والسياسية:

من المؤكد أنه لا يمكن فهم الزيارة إلا بفهم سياقها الزمني والمكاني. لذا، فإن فهم ظروف المستعمرات الجنوب أفريقية، والحاجة إلى تأمينها لصالح بريطانيا، واستقرار أوضاع البيض هناك، لهو أمر في غاية الأهمية. وفي هذا الاطار، تعد رسالة السير بارينج تحت عنوان "الزيارة الملكية للاتحاد"، إلي الفيكونت أديسون فى٢١ مارس ١٩٤٦، بمثابة أول وثيقة رسمية وقعت بين أيدينا، تتحدث عن اعتزام الملك جورج السادس زيارة اتحاد جنوب أفريقيا بصحبة عائلته في بداية سنة ١٩٤٧. وباعتبارها أول وثيقة تتحدث عن الزيارة، فلا يمكن أن نأخذ منها معلومة الإعلان عن الزيارة فقط. بل وجب علينا أن نرى من خلالها تأثير هذا الإعلان على سكان جنوب أفريقيا. فقد أشادت بحماسة أنصار الحكومة في جميع أنحاء الاتحاد لهذا الاعلان. واعتبرته أنه جاء فى التوقيت المناسب، في وقت يواجه فيه الاتحاد مشاكل دولية ومحلية شغلت اهتمام جنوب أفريقيا كثيرًا. وقالت " بأن هذا الإعلان يأتي في إطار الدعم البريطاني لجنوب أفريقيا البريطانية، وأن الزيارة سمنتح الاتحاد الشرف العظيم، وأن يشعر سكان الاتحاد بهذا، لذا فإنهم يتطلعون بسرور للزيارة ويترقبونها، لإبراز المحبة لجميع أفراد العائلة المالكة، وإظهار الترحيب العفوي والصادق لها. وأنهم سيعبرون عن تفانيهم وولائهم للأسرة الحاكمة، خاصة، وأنهم معجبون بالعمل الذي قاموا به في بريطانيا خلال الحرب العالمية الثانية". وأضافت الوثيقة "بأن الصحف المؤيدة للحكومة قد أعلنت بأن الاستعدادات قد بدأت بالفعل في عدد من المدن، لجعل إقامة أصحاب الجلالة سعيدة، وبأنهم يرحبون بمرافقة الأميرات لوالديهم في الرحلة. وأن العديد من الصحف والجماهير قد أعربوا عن أملهم في قيام صاحب الجلالة بافتتاح الدورة البرلمانية لعام ١٩٤٧، وأن يقوم رئيس الوزراء بطرح تلك الرغبة في مجلس النواب يوم ٢٢ مارس، وبأنهم سيدعون الملك لافتتاح البرلمان" [١١]. وعلى هذا بدا وكأن جنوب أفريقيا على قلب رجل واحد في الترحيب بالملك وعائلته، وأنهم يتمنون أن يأتي هذا اليوم الموعود للزيارة، ليعبروا عن هذا الترحيب.

بيد إن هذا الترحيب يظهر نقيضه تمامًا في ختام الرسالة السابقة، حيث أخبرتنا بوجود جبهات رافضة لتلك الزيارة أيضًا. فذكرت بأن الوطنيين الأفريكانرز راحوا يعبرون من خلال صحافتهم عن نيتهم بالترحيب بالأسرة الحاكمة ومجاملتها، باعتباره تقليدًا للناطقين بالأفريكانية، ولكنهم طالبوا أتباعهم بأن يكون هذا الترحيب دون حماس. وقالت بأنه على الرغم من أنهم يعتبرون الملك كرمز للرابطة الإمبراطورية التي تعهدوا بكسرها، إلا إنهم يتمنون له طيب الإقامة في جنوب أفريقيا، وبأنهم لا ينون إظهار أي إثارة خلال الزيارة. لكن الرسالة قدمت لنا أسباب رفض تلك الجبهة للزيارة، وأنها سياسية. فقالت " بأنهم يعتبرون غريمهم الجنرال سمتس هو الذي رتب للزيارة في بداية سنة ١٩٤٧، كخطوة سياسية لصالحه، بحيث لا تكون البلاد بعيدة عن الانتخابات العامة المقبلة. على أمل أن يمكنه هذا من بناء شعور بريطاني للناطقين بالإنجليزية، يوجههم لصالحه في الانتخابات القادمة" (١٢). وعلى هذا، نحن أمام زيارة مسيسة في نظر هؤلاء المعارضين منذ البداية، وهو الأمر الذي يوجب علينا النظر في دوافعها وأهدافها. لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل اقتصرت دوافع الزيارة على الأسباب السياسية فقط؟ أم أن هناك أسبابًا اقتصادية واجتماعية وثقافية قد دفعت إليها؟

من المؤكد أن درجة التوتر بين المجتمعات التي تعيش فى اتحاد جنوب أفريقيا قد بلغت مداها، لذا لم تكن الزيارة الملكية لاتحاد جنوب أفريقيا مجرد زيارة ترفيهيه عادية، بل كان غرضها سياسيًّا من الدرجة الأولى. فكان لا ينفع معها أي تدخلات محلية لإنقاذ الموقف، خصوصًا وأن وتيرة المشاكل التى كانت تواجه بريطانيا فى الشرق الأوسط والهند فى سنة ١٩٤٦ أجبرتها على وجوب الاحتفاظ بجنوب أفريقيا بكل الطرق. صحيح أن رئيس الوزراء سمتس كان يدفع باتجاه الزيارة، إلا أن الملكية البريطانية كانت تهدف من ورائها إلى تلطيف الأجواء بين العناصر البيضاء وضمان ولائها. وحتى نتبين مفهوم الأمن الاستعماري للزيارة سنتعرف على طبيعة التوتر بين تلك المجتمعات لحظة الزيارة، ونتتبع دوافع الزيارة وأهدافها، لنرى كيف حاولت بريطانيا من خلالها تحقيق أمنها الاستعماري بشتى الطرق، ونختزلها في دوافع ستة:

الدافع الأول: تأمين بقاء سمتس في السلطة: كان التصور البريطاني بأن بقاء هذا الرجل في السلطة سيضمن لهم البقاء في جنوب أفريقيا. وربما يكون تعبير الرافضين لها والمطالبين بالانفصال عنها، قد ظهر في كراهيتهم لإعادة انتخاب سمتس المؤيد لبريطانيا. وإذا ما نظرنا إلى الوثيقة المؤرخة بـ ٢١ مارس ١٩٤٦، لوجدنا أن المعارضين للرجل يرددون نغمة وقوف بريطانيا بجوار رجلها في جنوب أفريقيا ، وأن سمتس نفسه هو الذي رتب للزيارة الملكية لتكون في سنة ١٩٤٧، أي قريبة من انتخابات سنة ١٩٤٨، ليضمن وقوف الناطقين بالإنجليزية معه، وتأييده في تلك الانتخابات [١٣]. وفي نفس السياق أوضحت لنا إحدى وثائق القنصلية المصرية بتاريخ ٦ مارس ١٩٤٧، هذا الأمر وأكدته. فحين قالت " كل هذا يدعونا إلى التفكير في أن المرشال سمتس رمى من دعوته للعائلة المالكة لزيارة جنوب أفريقيا تدعيم مركزة الشخصي، وتعريف الشعب بالعائلة المالكة، وما قد يكتسبه من الالتفاف حول العرش، وما قد تجنيه جنوب أفريقيا من الارتكاز على سند الإمبراطورية البريطانية ومبلغ قوتها"، فهذا يعني أن الرجل هو الذي خطط للزيارة لتحقيق مصالحه الشخصية. وربما كان قولها بأنه " سعى إلى إقناع الأفريكانرز المتعصبين ضد الإنجليز بأنهم مخطئون في وجهة نظرهم"، يعني أنه رتب مع الزوار الملكيين لتحقيق هذا الهدف. لكنها حين تقول " بأنه إذا أخذنا هذا كمقياس لما قد تتمخض عنه الانتخابات القادمة، فإن مركز المارشال سمتس يأخذ في الانحدار" [١٤]، فإنها تقطع بأن تعضيد الملكية للرجل في الانتخابات كان هدفًا بريطانيًّا رئيسًا. وربما كان الاعتقاد بأن الملك وعائلته قد ذهبوا إلى جنوب أفريقيا سنة ١٩٤٧، لدعم رئيس وزراء اتحاد جنوب أفريقيا في الانتخابات، حيث كان يأمل في تحقيق مكاسب سياسية من ورائها، هو السبب الرئيس في إتخاذ موقف من الزيارة. فما قيل من أن حكومة جنوب أفريقيا قد طلبت من الملك بمصافحة البيض فقط، لا يشير ببيان اختلافات المعارضة مع الرجل حول حقوق سيعطيها لصالح الأفريقيين، بل لاقترابه من الإنجليز وإيمانه برابطة الكمنولث.

وجدير بالذكر، إن إحدى تقارير القنصلية الملكية المصرية بمدينة الكيب تورد لنا بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٤٧ أسبابًا أخرى، فتقول " بأن مشكلة التفرقة العنصرية قد تسببت في وجود مشكلات داخلية اجتماعية واجهت حكومة سمتس. مما تسبب في قيام الحكومة بوضع عدد من اللوائح والقوانين، حيث وضعت لكل مقاطعة نظمًا تلائم حالتها، من حيث عدد الفئات التي تعيش فيها، فالحال في الترانسفال غيره في الكيب غيره في الناتال، غيره في مقاطعة الأورونج الحرة، وهو الأمر الذي أثار احتجاجات مستمرة" (١٥). ولعل تعليق إحدى وثائقها " بأن الرأى العام يرى أن حزب سمتس سيلقى لطمة قوية، ربما لن يحتملها، وربما انضمت بعض العناصر الإنجليزية من الذين يحنقون على اليهود للأحزاب المعارضة"، يشير بأن المعارضة المنظمة ضد المارشال اَخذه في القوة في وقت يواجه فيه الرجل مشاكل داخلية وخارجية عديدة. ففي الوقت الذى يعمل فيه على الارتباط بعجلة الإمبراطورية البريطانية، يود منافسوه الانفصال عنها في أول فرصة. ولذلك يخشون من تكاثر هجرة العناصر الإنجليزية إلي هذه الديار. بل تعتمد الوثيقة على تحليل مالان، رئيس الحزب الوطني المتطهر وزعيم المعارضة الرئيس، لشخصية سمتس، حيث ذكر بأن الإنجليز هم الذين على رفع شأن سمتس زمن الحرب العالمية الثانية، لكنه فقد كثيرًا من مكانته الدولية بعد اختفاء تشرشل ورزفلت". مضيفًة " بأنه يعتمد في الداخل على حزب لا يؤلف بين أعضائه سوى المصالح الشخصية، وهو مؤلف من عناصر غريبة عن بعضها لا يوجد تماسك بينها" (١٦).

ولا نتركنا القنصلية المصرية دون فهم لأسباب التعضيد البريطاني للجنرال سمتس، لكنها تركز على بعدها الداخلي، فتقول " بأن تعضيده للعنصر اليهودي، حتى قيل أن قوانين الهجرة وضعت بشكل يلائمهم، قد جعلت الألسنة تلوك بإشاعات مغرضة ضد المارشال، وأن هذا سيكون له أثره في الانتخابات بالتاكيد". وهذا يعني أن الرجل كان مستهدفًا بالشائعات التي تؤثر على مستقبله السياسي في الحكم. لكن إضافتها " بأن تخبط الحكومة في سياستها حيال الملونين والهنود، وعدم استقرارها في سياسة مراقبة الأسعار، وتحديد الاستهلاك بالبطاقات، وأنها كانت مهزلة مكشوفة ساعدت الحزب المعارض على تسديد سهام طعنه"، يعني أن أسبابًا أخرى ستقلل

من شعبية سمتس لصالح الداعين للانفصال عن بريطانيا وتكوين جمهورية مستقلة. ولعل تناولها لقصة البطاقات التموينية وما حدث فيها، يشرح المشاكل التي كانت تواجه الرجل. فحين تقول " بأن قصة البطاقات تتلخص في أن الحكومة أنشات مصلحة على رأسها مدير عام للمواد الغذائية، سافر بين مقاطعة وأخرى، وجاب آفاق البلاد، وأدلى بكثير من المعلومات، فتمخض مجهوده عن الشروع في توزيع بطاقات لتحديد الاستهلاك في بعض مواد غذائية لم يفصح عنها، وبعد مضى عام، قاموا بتوزيع هذه البطاقات على جميع أفراد الشعب، ولكننا لا نزال نترقب معرفة المواد المراد تحديد استهلاكها، وما قد يقدر لكل شخص، ومتى يتم تطبيق ذلك" (١٧)، يعنى أن الأحوال الداخلية لم تكن في صالح الرجل تمامًا.

وربما كانت إضافتها، والمعتقد أن هذه السياسة قد أفلست ومن الصعب تطبيقها اليوم، إذ لم تأت بنتيجة سوى قيام مصلحة جديدة، وصرف مهايا ومرتبات أغدقت على المتولين لأمرها، وإذا اعتبرنا أن مثل هذه الأمور كنقاط ضعف ضد الحكومة القائمة، وهي في الواقع مما لا تخلو منها أية حكومة في الوقت الحاضر، فإن كثيرًا من الناس يتوقعون انتصارًا للحزب الأفريكاني في المعركة الانتخابية القادمة"، فهذا يعني أن كل التوقعات قبل الزيارة كانت لا تصب في مصلحة الرجل. ولعل تفسيرها "إذا قدرنا أن حزب سمتس ما هو إلا مجموع أفراد اتفقت بين أغلبهم المصالح المادية، ولا يسود بينهم توافق روحي بخلاف الحزب الأفريكاني القائم على مثل أعلى مهم"، فهذا يعني أن فرص فوز الحزب الوطني المتطهر بالانتخابات كانت واضحة. لكن حين تقول" بأن كل هذا حدى بكثير من الممولين اليهود إلى اتخاذ الحيطة من الآن لدفع غائلة الاضطهاد الذي قد ينزل بهم إذا ما قدر للحزب الأفريكانى النجاح، فعمدوا إلى توطيد مراكز مالية لهم فى المستعمرات البريطانية المجاورة مثل أوغندا وروديسيا وكينيا، وعلينا أن نقدر حساب بعد النظر لليهود، والذين يشتمون رائحة الانقلابات السياسية من مدى بعيد، ورغم كل هذه الوقائع وما يستنبطونه منها، فإننا لا نساير هذا الرأي بدون تحفظ "، يعني أن أنصار الرجل قد بدءوا يفكرون في الهروب من الميدان إلي جهات أخرى. وعلى هذا، فإنها حين تقول" ونعتقد أن الحزب

الأفريكاني ولاشك سيصادف نجاحًا نسبيًّا في الانتخابات القادمة، يكسب مقاعد إضافية في البرلمان لن تتعدى الأغلبية لحزب المارشال، إلا إذا حدث ما ليس في الحسبان باختفاء المارشال نفسه من الميدان لأى سبب طارئ، وتفكك حزبه لعدم التماسك بين أجزائه، إذ إنه مرتكز على شخصية المرشال الفذة وكفاءته الممتازة، وليس لخلفه المستر هوفماير قوة الزعامة" (١٨)، فإن هذا يعد قطعًا منها بأن هذه الفرص الموجودة لسمتس كانت تحتاج لدعم خارجي يستغل تلك الأبعاد، ويرجح فوز الرجل في انتخابات سنة ١٩٤٨.

ففي الأشهر السابقة على تحرك الأسرة الحاكمة إليها، كان هناك تراجع مؤسف في مكانة الجنرال سمتس، تلك التي كان يتمتع بها كحليف شجاع وجندي من جنود الدولة. حيث تم اختبار هذا الأمر ليس فقط في الحرب العالمية الأولى والثانية، ولكن في مقاومته للمتمردين أيضًا. فسمتس حصل على احترام دولي باعتباره واحدًا من المهندسين المؤسسين لعصبة الأمم المتحدة. غير أن شكوى حكومة الهند إلى الأمم المتحدة ضد معاملة الهنود في الاتحاد، والمهارة التي بدت في متابعة الشكوى في الجمعية، قد ركزت الاهتمام على الصعيد الاجتماعي والأحوال العنصرية في جنوب أفريقيا، وجعلت هذا المجتمع الدولي ينظر للفيلد مارشال سمتس باعتباره مجرمًا في قفص الاتهام. حيث اعتبر هو وحكومته كدعاة للتمييز العنصري ضد الأمم التي حاربت من أجل الرأي الحر، وكان هذا يلقى تنديدًا داخل الولايات المتحدة الأمريكية وخارجها. حيث فشل سمتس في منع اعتماد توصية سلبية من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة، على الرغم من دعم الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة، مما أثر على سمعته في جنوب أفريقيا وخارجها. وعلى إثر ذلك، كان لا يزال خائر القوى رغم النجاحات التي حققها. فبالاستماع إلي مساجلات بعض أعضاء الوفد الهندي فى الجمعية العامة للأمم المتحدة، ورؤية العيون للصور الانسانية المنشورة عن الزنوج الذي يعانون من سوء التغذية في الأحياء الفقيرة في جوهانسبرج، نزلت مكانة الرجلة إلى الحضيض(١٩)، وبالتالي كان المطلوب ترتيب زيارة بريطانية لدعم رجلها محليًّا ودوليًّا.

الدافع الثاني:تخفيف حدة التوتر بين الأحزاب البيضاء: فمنذ أن رُفعت ورقة القومية المتطرفة في جنوب أفريقيا سنة ١٩٤٠، بهدف إعادة إحياء الجمهورية الأفريكانرية التى سعوا لتحقيقها منذ قيام الاتحاد [٢٠]، قامت جماعات أفريكانرية شبه عسكرية، كأصحاب القمصان الرمادية Greyshirts، فحظيت على دعم ضمني من بعض أعضاء الحكومة. بل هاجمت تلك الجماعات الشيوعيين واليساريين، وكانوا يسعون لإقامة الجبهة الشعبية البيضاء [٢١]. وكانت منظمة الأوسيوا براندواج♥ Ossewa Brandwag، والتى يتزعمها الدكتور فان رينزبرج أمين سر وزارة العدل سابقًا والمدير السابق لأقليم الأورنج، من أكثر المنظمات تطرفًا [٢٢]. في حين تشكلت رابطة الأخوة الأفريكانرز التي انشغلت بمسألة الفقراء البيض [٢٣]. وفي هذا الإطار، يشير تقرير القنصلية المصرية المؤرخ بـ ٢٩ يوليو ١٩٤٦ بأن جنوب أفريقيا تعج بحركات وهيئات تعود في تكوينها إلي النازية. وخير مثال لذلك قيام الحكومة بمنع حركة القمصان الرمادية من التظاهر أمام دار البلدية، مستندة إلى قانون المظاهرات، ونفس الأمر تم مع منظمة الأوسيوا براندواج. حيث كان حزب الأفريكارز، وهو غير حزب الوطنيين، يصر على إنشاء نظام جديد. فتكاتفت جميع هذه المنظمات مع الحزب الوطني لإسقاط حكومة سمتس في الانتخابات القادمة؛ وذلك من أجل إقامة حكومة لديها مُثل سياسية عليا، وربما لإعلان الانفصال عن إنجلترا. وأوضح مثال لذلك حركة الجمهوريين الذين يؤمنون بتلك الفكرة، لكن كانت تنقصهم الحنكة السياسية، وعدم اتساع الأفق في نظرتهم الدولية، وتغلب روح التعصب الديني والعنصري في برامجهم [٢٤].

ووصل الصراع بين الحزب الوطن♥ والحزب الاتحادي♥ إلي مداه بعد الحرب العالمية الثانية. حيث استغل الحزب الوطني المتطهر أن ٤١% من الأفريكانرز كانوا من أصحاب الياقات الزرقاء Blue Collar [٢٥]، وأن هذا الارتفاع في أعداد الفقراء محصور في الأفريكانرز فقط، وأن مشكلة ارتفاع أسعار المساكن، ونقص بعض السلع مثل السكر والصابون وارتفاع تكاليف المعيشة، مستشرية بينهم [٢٦]. وبالتالي، كان ترك الصراعات تنتشر في جنوب أفريقيا، يعني أن بريطانيا ستفقد جنوب أفريقيا في الدخول معها فى أى ترتيبات تتعلق بالدفاع عن الشرق

الأوسط، بعد أن أصبح القاعدة الرئيسة للبريطانيين ضد تمدد الاتحاد السوفيتي إلي مستعمراتها الأفريقية [٢٧].وكان هذا التدافع والصدام يعرض الأمن الاستعماري في جنوب أفريقيا إلي الخطر. وكان من الطبيعي أن تحدث تدخلات خارجية لإنقاذ الموقف، فكانت الزيارة الملكية.

وخطاب القنصل العام االمصري بمدينة الكيب إلي وكيل وزارة الخارجية في ٣٠ مايو ١٩٤٦ يشير إلي اختلاف الأحزاب البيضاء حول كل شيء في جنوب أفريقيا. وهذا يدلل على جو التوتر الذي كان سائدًا قبل الزيارة. فالحزب الوطني كان يختلف مع الحزب الاتحادي مع حزب الدمنيون مع حزب العمال [٢٨]. بل شهدت الفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية حركة حزبية أسفرت عن زيادة حدة الصراع السياسي بين الأحزاب، خصوصًا ما بين الحزب الاتحادي الحاكم وبين الحزب الوطني [٢٩]. فقد بدأت بوادر انشقاق الحزب الاتحادي نفسه منذ سنة ١٩٤٣، كما حدث انخفاض في شعبيته. وكان هذا يعكس لبريطانيا شعورًا بعدم الاطمئنان [٣٠]. وبالتالي، كان لابد من التحرك.

وكان توجس البيض في الزيادة السكانية لغير البيض قد فرض اللجوء لسياسة الهجرة. حيث يشير تقرير ٢٩ يوليو ١٩٤٦ " بأن حكومة الاتحاد شرعت في توجيه الدعوة إلي إنجلترا وفرنسا وهولندا وبلجيكا والدانمرك والنرويج واليونان لإختيار عدد من الأيتام للإقامة في جنوب أفريقيا، وربما يصل عددهم إلي ٥ آلاف نسمة. وأنهم سيحددون لكل دولة عددًا معينًا، ولأهالي الاتحاد البيض أن يثبتوا ما يشاءون من الأطفال إذا وافقت دولهم الأصلية على ذلك. وعينت لجنة للسفر لتلك البلدان لانتقاء الأطفال، والتأكد من سلامتهم عقليًّا وجسمانيًّا" [٣١]. ويؤكد هذا ما ذكره تقرير القنصل العام المصري بتاريخ ٥ أبريل ١٩٤٧، بأنه حينما نشر إحصاء سنة ١٩٤٦ تبين أن عدد سكان الاتحاد قد بلغ ١١٢٥٨٨٥٨، منهم ٢٣٣٥٤٦٠ أوروبيًّا، و ٧٧٣٥٨٠٩ أفريقيًّا و٢٨٢٥٣٩ آسيويًّا، و٩٠٥٠٥٠ ملونًا، فحدثت ضجة كبيرة في جنوب أفريقيا. فلجأت الحكومة لتشجيع هجرة الأوربيين إليها؛ وذلك لأن الإجراءات المحلية بتشجيع الإكثار من النسل بتحقيق ضمانات اجتماعية واقتصادية للمتزوج ودفع إعانات إضافية للمعيل، لم تؤت أوكلها. لهذا نشرت

الحكومة سنة ١٩٤٧ دعاية كبيرة لتشجيع الهجرة، وأوفدت لجانًا في مختلف أنحاء أوروبا لانتقاء نوع المهاجرين المرغوب في جلبهم. غير أن التقرير يفيدنا بأن الأفريكانرز كانوا لا يرغبون في سياسة الهجرة التي دعت لها الحكومة؛ لأنها ستساعد على مجئ عناصر إنجليزية جديدة، أو عناصر أخرى أقرب إلي التفاهم مع العنصر الإنجليزي كاليونانيين والإيطاليين، ممن يعززون حزب المرشال سمتس. ولذلك، سعوا إلي استدراج عدد من الهولنديين، وهو ما كان يصعب تحقيقه في تلك الفترة نظرًا لحاجة هولندا الماسة لأيدي أبنائها العاملة. ناهيك عن خشيتهم من قدوم اليهود، فقاموا بمظاهرات ضد هذا الأمر. ورغم الاختلافات الموجودة بين الأحزاب البيضاء إلا إنهم كانوا لا يتفقون على جلب أكبر عدد ممكن من المهاجرين البيض للسيطرة على العناصر الأخرى من الهنود والملونيين (٣٢).

وتشير إحدى الوثائق المصرية بأن الانتخابات البرلمانية لسنة ١٩٤٣ كانت كسبًا للحزب المعارض، حيث كانت سيطرة اليهود الناطقين بالإنجليزية على اقتصاديات البلاد، قد جعلت الشعب يميل إلى التخلص من حكم سمتس والمجيئ بحكم مالان. وفى هذا الإطار، فإن الإشارة "بأن انضمام السيد هافنجا، رئيس حزب الافريكانرز، مع الدكتور مالان رئيس الحزب الوطنى ورئيس المعارضة في البرلمان، لمعارضة سمتس ودخول الانتخابات جنبًا إلى جنب"، كان نقطة الخطر الحقيقية في الموضوع، فهافنجا شخصية مهمة، فانضمامة إلي جانب مالان يعني تمدد الانفرط في المنظومة القائمة. ففي نفس السياق تشير الوثيقة بأن الرجلين، مالان وهافنجا، قد أرسلا الدعوات إلى الأحزاب المعارضة للانضمام إليهم لإسقاط الحكم القائم. وهذه الأحزاب هي الأوسيوا براندواج والعهد الجديد، وكلها من العناصر الأفريكانية، وتميل إلى توجهات نازية، ولا تخفى من أغراضها شيئًا، حيث تدعو إلى الجمهورية صراحة. وهي أحزاب قومية غير ممثلة في البرلمان، وكانت موضع ريبة وضغط شديد في زمن الحرب (٣٣). وهذا يعني أن تدخلًا خارجيًا يجب أن يتم في تلك اللحظة، فكانت الزيارة الملكية جزءًا من الحل.

الدافع الثالث: التخفيف من توترات الأفريقيين وضمان ولائهم: حينما أتيحت الفرصة للبرجوازية الأفريقية بنهاية الحرب العالمية الأولى؛ لأن يكون لها وجود نسبي وصوت سياسي في المناطق الحضرية الكبرى في جنوب أفريقيا، وحصل أعضاؤها على هامش من الثروة والمكانة، راحوا يلعبون دورًا مهمًّا في ترويض المقاومة الأفريقية وتهدئتها. وظل الأمر هكذا حتى نجح الحزب الشيوعي في اكتساب شعبية بين الأفريقيين، خصوصًا في فترة الكساد العظيم من ١٩٢٩–١٩٣٣. وفي هذا الإطار، لعبت الجبهة غير الأوروبية المتحدة، والمكونة من تحالف الأفارقة مع الملونين والهنود سنة ١٩٣٩ دورًا مهمًّا في تنشيط حركة التحرير الوطني. فنشأت رابطة شباب المؤتمر الوطني الأفريقي في أبريل سنة ١٩٤٤. ولما كان معظم المنتمين لها من المدرسين والكتبة والطبقة المهنية، وكلهم تحت سن الـ ٤٠، لذا فقد شكلوا تحالفات مع المنظمات الأفريقية غير الرسمية، فكانت لهم اتصالات مع الفلاحين والعمال. حيث سعى مُنظِّرها، أنتون ليمبيدى، حتى وفاته في عام ١٩٤٧، لتطهير الحركة القومية الأفريقية من أي عناصر أخرى، والاعتماد الثقافي على الذات. وبالتالي، كانت حملات المقاومة الشعبية خلال الأربعينيات، مثل مقاطعة الحافلات التي نظمها سكان مدينة ألكسندرا بين عامي ١٩٤٤ و١٩٤٥، للمطالبة بحرية التملك، والاضربات العمالية سنة ١٩٤٦، وأيضًا حركة الحقوق في ضواحى جوهانسبرج في الفترة من ١٩٤٤ – ١٩٤٧ [٣٤]، قد جعلت الوضع مشتعلًا بين الأفريقيين. فكان لابد من الزيارة الملكية للتخفيف من حدة توترات هؤلاء الأفريقية . فضلًا عن طمأنة الأفريقين الموجودين تحت الحماية، في سوزازلاند وباسوتولاند وبتشوانالاند، بعدم ضمهم لاتحاد جنوب أفريقيا، وبقاء علاقتهم مع بريطانيا فقط.

الدافع الرابع: تهدئة توترات الآسيويين والملونيين: فقد كان قانون حيازة أراضي الآسيويين، وقانون تمثيل الهنود لعام ١٩٤٦، من أهم قوانين التمييز العنصري التي أشعلت حملة المقاومة السلبية الهندية في الأربعينيات. أما بالنسبة للملونين وهم يشكلون نسبة ١٠٪ من إجمالي سكان جنوب أفريقيا، فقد كان سلوكهم حاسمًا في تحديد سياسة الحكومة، بل كانوا في كثير من الأحيان

يشكلون المعارضة لهذه السياسة. وحين حدث تقارب قبل انتخابات سنة ١٩٤٣، وأُعلن عن إقامة إدارة منفصلة لشؤون الملونين داخل وزارة الداخلية، حيث كانت تدار كجزء لا يتجزأ من سلطات البلديات والمقاطعات، أنشئوا جهبة للدفاع عن الملونيين في مايو ١٩٤٣. وهي التي ساهمت مع الحزب الشيوعي والجبهة غير الأوروبية المتحدة، والنقابات العمالية ورابطة المعلمين في إشعال حركة المقاومة ضد الحكومة البيضاء. ووصلت التوترات إلى مداها في يونيو ١٩٤٦، لذا صدر قانون الجمعيات المثيرة للشغب، فتم حظر أي تجمع سلمي تزيد تحركاته عن أربعمائة متر، مما جعل الجمعية العامة للأمم المتحدة تطالب في أكتوبر سنة ١٩٤٦ بالإفراج عن حوالي ٧٥٠ معتقلًا، لكنها فشلت في أن تقود حملة إدانة دولية ضدها [٣٥]. وفي هذا الإطار، كانت الزيارة الملكية مهمة للغاية، وتحتاجها جنوب أفريقيا وبريطانيا نفسها.

الدافع الخامس: دافع اقتصادى: فإذا كانت بريطانيا قد قاتلت في القرن ١٩ من أجل السيطرة على الماس والذهب، لذا فإن الرغبة في استمرار السيطرة ظلت موجودة وقائمة. لكن الجديد بعد الحرب العالمية الثانية هو الرغبة البريطانية في مساهمة جنوب أفريقيا في علاج مشكلات بريطانيا الداخلية. ولعل المساعدات التى جُمعت على هامش الزيارة في كيب تاون وجوهانسبرج، لمساعدة بريطانيا في محنتها[٣٦]، تؤيد تلك الرغبة وتشرحها. ناهيك عن الرغبة في بقاء الميزان التجاري في صالح بريطانيا، كما هو الحال منذ سنة ١٩٢٥. فضلًا عن الرغبة في قيام جنوب أفريقيا بمساعدتها في حل أزمة الأرصدة الأسترلينية بعد الحرب العالمية الثانية. فضلًا عن الرغبة في استمرار شركات المملكة المتحدة في ممارسة أعمالها التجارية في جنوب أفريقيا [٣٧].

الدافع السادس: رسم استراتيجية جديدة للكمنولث البريطاني: فتحت عنوان " زيارة العائلة الملكية إلى جنوب أفريقيا في الصحافة الأمريكية"، يشير التقرير الذي أرسله اللورد إنفيرشيبل Inverchapel من واشنطن إلى بيفنBevin فى ٢٤ يونيو ١٩٤٧، بأن الغرض الرئيس للزيارة الملكية، هو التوصل إلى إستراتيجية جديدة للكومنولث البريطانية؛ حيث ناقشها التقرير عبر مقالين مهمين نشرتهما الصحف الأمريكية: الأول: فقد أشار ستيوارت ألسوب Stewart Alsop لهذه

الأطروحة، عبر مقال نشرته صحيفة الواشنطن بوست يوم ٧ يونيو بعنوان "الفول السوداني والإمبراطوريةPeanuts and the Empire ". حيث كتب يقول: "ما حدث هو أن أفريقيا قد حلت محل الهند والشرق الأقصى، كنقطة اتصال بين الإمبراطورية البريطانية. فمنذ أن تم إغلاق خط الحياة في الشرق الأوسط في معظم فترات الحرب العالمية الأخيرة، وحدث تطوير للطائرة بعيدة المدى، فضلًا عن الأسلحة الجديدة، وحلت أفريقيا ببطء لتأخذ مكانها، حدث هناك اعتراف بريطاني بأنهم لن يحتفظوا في القريب بإمبراطوريتهم في الشرق الأقصى، وفي هذا الإطار سيعتمدون على أساس إستراتيجي رئيس من نقطتين: تطوير شرق أفريقيا، عبر مشروع زراعة الفول السوداني. ومن خلال دفع اقتراح الإمبراطورية الجديدة، بأن تلعب أفريقيا قاعدة الحماية الرئيسة للاستراتيجية البريطانية والحفاظ على نفط الشرق الأوسط. وفي المقال الذي نشره هانسون بولدوينHanson Baldwin ، المراسل العسكري لصحيفة النيويورك تايمز، يوم ١٥ مايو، أشار فيه إلى خطوة أبعد في الاهتمام الأمريكى بالزيارة، حيث ذكر بأن: "الزيارة الملكية إلى أفريقيا...لم تكن مجرد جولة عادية .. فالجزر البريطانية هي عاصمة العالم في العصر الذري وعصر الصواريخ، وقاعدته في مجال الطاقة. أما جنوب أفريقيا، فهي بعيده جدًّا من الناحية الجغرافية، لكنها تملك قوة مادية واقتصادية تحتاجها أمريكا، شأنها شأن كندا وأستراليا، فهي تقدم موقعًا مثاليًّا كعاصمة بديلة لدول الكومنولث البريطاني، حيث يشكل طريق رأس الرجاء الصالح مجالًا مفتوحًا بدرجة معقولة أمام البحرية البريطانية والقوة الجوية البريطانية إذا اعتمدت على جنوب أفريقيا. علاوة على ذلك، فإن أفريقيا قارة هائلة وغير مستغلة الثروة، ولديها احتياطي كبير من المعادن الغنية، بما في ذلك اليورانيوم. واستغلال هذا المعدن الأخير سيعيد القوة التاريخية للجنية البريطاني، باعتباره متحكمًا في مصير العالم. ولم يستغل شيء من إمكانيات القارة المظلمة، سواء كقاعدة عسكرية، أو كرأس مال سياسي، وخزان اقتصادي، يمكن أن تفقده بريطانيا؛ حيث كانت جنوب أفريقيا تزرع، وكينيا تتطور. وتختم الوثيقة لتقول " انتهت الزيارة الملكية لتكون بداية عهد جديد، يكون فيه التحول في مركز قوة العالم، بعيدًا عن أوروبا ونحو أفريقيا"(٣٨).

وفي نفس التقرير السابق، وفي السياق نفسه، أعاد والتر ليبمانWalter Lippmann في ١٨ مايو إلى الأذهان خطاب الفيلد مارشال سمتس في يونيو ١٩٤٦. والذي قسم فيه العالم إلى مجموعتين كبيرتين تقع بريطانيا بينهما، وبأن كل مجموعة تحتاج للأخرى في منع الحرب. حيث ذكر بأن خطاب سمتس قد بشر بعقيدة مخالفة لعقيدة التضامن الأنجلو أمريكي التي أعلنها السيد تشرشل في فولتون، وجاء الكلام ضمنًا في عقيدة ترومان. فقال بأن هذا الكلام يحوز أرضًا في الواقع:" فالزيارة الملكية إلى جنوب أفريقيا، ضمنت لبريطانيا الجنرال سمتس كرئيس للوزراء، في الوقت الذي تراجع فيه دورها في اليونان وتركيا ومصر وفلسطين. فضلًا عن اتفاقها الاقتصادي مع بولندا، ومفاوضاتها مع الاتحاد السوفيتي". وأيضًا يشير إلى دفاع خطاب تشرشل عن أوروبا المتحدة، بقوله "سنكون نحن الأوروبيين". وطلب من الدمينون البريطاني والولايات المتحدة إعطاء مباركتهم لدور بريطانيا الجديد،" بلعب دور كامل لها كعضو في الأسرة الأوروبية ". وأنه لا يمكن تجاهل هذا الأمر إلا بعد فهم ما يجري في العالم. وفى هذا الإطار ينتهي التقرير إلى نتيجة مهمة، فحين يقول " لم تذهب العائلة الملكية إلى جنوب أفريقيا من أجل الهروب من الطقس البارد في إنجلترا، ولكن لتعزيز التغيير الذي يجري في الإمبراطورية، وللتأكيد على استراتيجية الثورة في الاستراتيجية الامبراطورية، حيث وجدت بريطانيا في جنوب أفريقيا أرضًا غنية وبيئة صالحة للخروج من مأزق الانسحاب من الهند، لتكون قريبة من الإمبراطوريات الشرقية، وقوة كبيرة مستقلة في العالم "، يعني أنها احتفظت بجنوب أفريقيا لجانبها. وإذا كان الأمر من تلك التعليقات يبدو جليًّا، فإن الأميركيين قد حدث لهم تشويش حول أهمية الزيارة، ولا يوجد شك في أنهم ينظرون إليها على أنها حققت نجاحًا منقطع النظير، وآثارها لا تقتصر على اتحاد جنوب أفريقيا أو على الكمنولث البريطاني فقط [٣٩]. إذًا، كانت الزيارة لها أبعاد إستراتيجية وأمنية عليا رصدتها الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن ترصدها بريطانيا نفسها.

المحور الثالث: تأمين الملك جورج السادس والعائلة الملكية:

لا يمكن القول بأن خطة تأمين الملك جورج السادس وأسرته خلال زيارته لجنوب أفريقيا، قد بدأت مع حلولهم باتحاد جنوب أفريقيا. فعلى الأرجح أن الاستعدادات التأمينية قد بدأت مع إعلان الخبر في الاتحاد في ٢١ مارس ١٩٤٦، أي قبل الزيارة بعام، فقد كان كل شيء مرتبًا بعناية تقريبًا. أيضًا نعرف من رسالة السير إيفلين بارينج للورد أديسون في ١٠ مارس ١٩٤٧، بأن شعب جنوب أفريقيا ومسئوليه كانوا يتابعون الزيارة منذ أن بدأت في ٣١ يناير ١٩٤٧. فمن خلال تقارير الحياة اليومية المرسلة من داخل السفينة فانجارد Vanquard التي تقل العائلة الحاكمة، وكذا من خلال المقالات الصحفية عن الحياة الخاصة للعائلة المالكة وموظفيهم، عرفوا الكثير عن تفاصيل الزيارة وتأمينها داخل المحيط الأطلنطي. ثم تنقلنا الرسالة مباشرة للاستعدادات التي جرت في كيب تاون طيلة الأسبوع الذى سبق الزيارة، فتقول بأنه " في مساء يوم الأحد ١٦ فبراير، كان الناس يتجمعون في الشوارع ليتفحصوا الأماكن التي سيشاهدون من خلالها الموكب الملكى في صباح اليوم التالي" (٤٠). وفي نفس السياق يشير خطاب القنصل العام المصري بأنه " قبل وصول العائلة الملكية بشهر، قامت في المدينة حركة واسعة فى التنظيف والتزيين، وحين وصلت العائلة احتشد جمع غفير من الناس على اختلاف طبقاتهم فى طريق الركب الملكى" (٤١). وهذا يعني أن كل شيء كان معدًا بعناية، وبشكل جيد. فالزائرون سيحتكون بجماهير مختلفة الأشكال والألوان ومتباينة سياسيًّا وثقافيًّا؛ فيها المؤيد للزيارة، وفيها المعارض لها والناقم عليها، ومن الطبيعي أن يتم الترتيب بين الإدارة البريطانية والإدارة الجنوب أفريقية حول سُبل تأمين الملك وعائلته. ويمكن تلخيص طبيعة هذا التأمين في أربعة أشكال رئيسة:

الشكل الأول: عبر السفينة فانجارد: أعتقد أن تأمين العائلة الملكية قد بدأ مع بداية الرحلة من بريطانيا، فالرجل سيزور أكبر مستعمرة في أفريقيا وأغناها، وبها مشاكل لا حصر لها، لهذا فإن اختيار السفينة فانجارد، باعتبارها أكبر سفينة بحرية بريطانية، كان لحاجة في نفس بريطانيا. فمن يتابع السفينة، وحجم القوات التي عليها، والتسليح المصاحب للزيارة، يستشعر تلك القوة

الرهيبة التي جاءت تحمى الملك وترهب أي قوى تحاول المساس به. واعتقد أن وصول البارجة قبالة كيب تاون في الفجر، ثم اقترابها من رصيف دنكان Duncan Dock ، ونزول الملك وعائلته في الساعة التاسعة والنصف صباحًا، والراية الملكية ترفرف على صاري السفينة الرئيس، وعلم البحرية الأبيض الرسمي، يشعرك بأن الأمر ما هو إلا رسالة ترهيب مهمة للقوى المسيطرة على جنوب أفريقيا إذا ما حدث شيء يعكر صفو الأسرة المالكة. ولعل مجيئ رئيس هيئة الأركان العامة، ورئيس أركان جنوب المحيط الأطلسي في مقدمة الأشخاص الذين حضروا مناسبة استقبال الملك في ميناء دنكان، يعني أن هناك قوة بريطانية موجودة داخل الاتحاد مهمتها الحفاظ على حياة الرجل وأسرته. بل كان هناك ارتياح من حكومة الاتحاد وموافقة، على الاعتراف بالدور الذي لعبته البحرية الملكية في إحضار الأسرة الملكية لشواطئ هذا البلد(٤٢). وعلى هذا، فإن التأمين الشخصي للملك وأسرته لا يوجد به مشاكل تقريبًا.

فالاستعراض البريطاني للقوة بدأ مع إبراز رهبة السفينة الحربية فانجارد، حين فتحت للجمهور منذ ٢٢ فبراير ١٩٤٧. حيث زارها أكثر من ١٧،٠٠٠ شخصًا، وظل المئات في انتظار الذهاب على متنها قبل أن ترحل بعيدًا. حيث شاهدوا عرض مشاة البحرية الملكية على متنها في ٢٥ فبراير، حضره حشد كبير للغاية (٤٣). وهذا يعني أن الإمبراطورية استطاعت أن تفرض هيبتها في أول نزول للملك في جنوب أفريقيا. فكان وصول الملك على ظهر باخرة تعتبر من أكبر قطع الأسطول، ودعوة جميع أفراد الشعب لزيارتها يومي السبت والأحد ، وإقامة حفلة الشاي على ظهرها، دعوا إليه بضعة مئات من علية القوم (٤٤)، يعني أن الإدارة البريطانية قد أوصلت رسالة لمعارضيها، فهمها الأفريكانرز في الداخل بشكل قوي.

الشكل الثاني: التأمين خلال عملية الانتقال: فنتعرف من إحدى الوثائق البريطانية في١٦ مايو ١٩٤٧، أنه تم وضع ترتيبات خاصة من قبل سكك حديد جنوب أفريقيا، حيث برز وجود شرطة جنوب أفريقيا قويًّا رغم غيابها في كثير من الحوادث المؤسفة. وتم الترتيب مع هيئة إذاعة جنوب أفريقيا لتغطية الزيارة الملكية في كافة الأماكن التي تزورها والطرق التي تسير فيها. ورتبت

محطات السكك الحديدية الكبيرة أمنيًا لتمكين الأسرة الحاكمة من التقرب للجمهور، كما هو الحال حينما كانوا يلتقون مع أناس عاديين أو فلاحيين. وعلى هذا، تم الترتيب لتكون تحركات الأسرة عبر القطار، ليكون كقاعدة رئيسة ينطلقون منها. فعبر وقوفه المتكرر في محطات الطريق، رتبت الأمور على أن تكون مفيدة للغاية (٤٥). وفي هذا الإطار، اشترى اتحاد جنوب أفريقيا القطار الأبيض خصيصًا لتلك المناسبة، وهو قطار عدد عرباته ١٥ عربة، تتوفر فيه جميع سُبل الراحة والمتعة، غادرت من خلاله العائلة المالكة الكاب في يوم الجمعة ٢١ فبراير ١٩٤٧ لتزور كافة نواحي جنوب أفريقيا والمناطق المجاورة لها (٤٦). وحينما ذهبت العائلة الملكية عبره إلى شلالات فيكتوريا، وضعت خطط جيدة لحسن سير هذه الجولة، من إعادة تخزين المياه، وإعداد مرافق الإذاعة والتلغراف وغسل الملابس وغيرها من الأمور (٤٧).

الشكل الثالث: تخصيص قوة خاصة بالتأمين: فقد وضعت ترتيبات الزيارة الملكية في منتهى الدقة والنظام، حتى لا يحدث أى شيء يكدر صفو الأمن، حيث وضعت الحكومة الاتحادية نظمًا أمنية تحافظ على الأسرة المالكة بين التجمعات المرحبة، وأقلها يبدأ بـ ٥٠ ألف جنديًا، وأكبرها يصل لـ ٢٥٠ ألف جنديًا (٤٨). وهذا يطابق ما أشارت له القنصلية المصرية، " بأن حجم القوة المخصصة لتأمين الزيارة في الكيب يقدر بنحو خمسين ألف شخص، على خلاف ما أذاعه راديو لندن بربع مليون نسمة" (٤٩). وكان امتناع غالبية الافريكانرز عن الترحيب بالزيارة يتطلب تغييرًا في إستراتجية تأمين الأسرة الملكية، كما هو الحال مع تزايد أعداد المرحبين فى المناطق الأفريقية داخل الاتحاد (٥٠). بل تشير إحدى التقارير بأن شرطة جنوب أفريقيا هي التي كانت تتولى حراسة الملك طوال فترة الزيارة ، حيث استعرض الملك بنفسه بعض قواته المؤمِنة لزيارته (٥١).

الشكل الرابع: قوة أفريقية خفيفة عند زيارة المحميات البريطانية: مع أن التقارير لم تذكر لنا حجم القوة المخصصة لتأمين الزيارة، لكننا نستشعر من حديث الوثائق عن الترتيبات الدقيقة الموضوعة في شلالات فيكتوريا وبتشوانالاند وروديسيا الجنوبية(٥٢)، بأنها كانت مرتبة بطريقة

صارمة، غير أنها كانت قليلة العدد للغاية. ففي سوازيلاند، ورغم أن خبرة المفوض المقيم، بيتهام Beetham ، لم تتعد ستة أشهر، إلا إنه لقى نجاحًا ملحوظًا في التغلب على كافة الصعوبات، سواء المادية أو البشرية. فقد حرص على ألا تكون هناك أي عقبة في الإجراءات أو أي صعوبات مع السوازي؛ لأنه ليس من السهل السيطرة على القبيلة أو تنظيمها في مثل تلك المناسبات. وبمقارنة عدد الشرطة المخصصة لتأمين زيارة السوازى بتلك التي كانت في زولولاند، لوجدنا في الأخيرة عدد كبير من الشرطة الأوروبية، أما في سوازيلاند، فلم يكن هناك سوى نحو عشرين شرطيًّا في أرض الندابا. بل لم يسمح للمحاربين في زولولاند بحمل الرماح، وحاول الأوروبيون أيضًا تنظيم رقصة الزولو، وهو الأمر الذي جعل الزولو يفقدون حماسهم خلال الزيارة (٥٣). وهذا يعد نوعًا من التمييز بين الأفريقيين القابلين بالزيارة في المحميات، وأولئك الذين يثيرون القلاقل للحكومة المحلية داخل اتحاد جنوب أفريقيا.

وفي باسوتولاند، وفي بيتسو تحديدًا، كان هناك ٢٢ من رجال الشرطة يقومون بأداء واجبهم. وكان الحشد بما يقرب من ١٠٠،٠٠٠من الباسوتو منظم وبشكل هادئ تمامًا. وكان عدد أفراد الشرطة المستخدمين في باسوتولاند وفي سوازيلاند، في تناقض صارخ مع عدد الحاضرين في احتفالات مماثلة في ترانسكاي وزولولاند. واعتقد أن ما يقرب من ١٠٠٠ رجل شرطة كانوا حاضرين فى كليهما. بل إن الترتيبات التي وضعتها الإدارة طوال فترة الزيارة للتعامل مع الحشود الكبيرة في الباسوتو كانت تلقى الإعجاب. ومن بين العديد الذين استحقوا هذا الإعجاب عدد من الموظفين الإداريين وضباط الشرطة (٥٤). وتم نفس الأمر في محمية بتشوانالاند، فقد كان عدد القوات المؤمنة صغيرًا. حيث قدم مجموعة صغيرة من الحراس، تحت قيادة الكابتن لانجلي Langley، التحية الملكية (٥٥). ونخلص مما سبق أمرين: الأول: أن تامين الزيارة الملكية كان قويًّا وكبيرًا عبر أنحاء اتحاد جنوب أفريقيا، وكان قليلًا جدًّا في المحميات البريطانية. الثانى: أن شكل التأمين يعكس القلاقل الموجودة ويعكس عملية الرفض والقبول للزيارة. فالأماكن المرحبة، وخارج الإتحاد، كان التأمين فيها خفيفًا، فالناس كانت تعلن الولاء وتعبر عنه بكافة الأشكال

والألوان. أما المناطق الرافضة للحكم الأبيض، فكان التأمين قويًّا، لكنه لا يعكس كراهية للملك وأسرته بقدر ما يعكس خشية على حياة الأسرة إذا حدث شيء يعكر صفو الزيارة.

المحور الرابع: برنامج الزيارة وأبعاده السياسية :

إذا كانت الزيارة الملكية لاتحاد جنوب أفريقيا في ظاهرها ترفيهي، فإن تتبعها يكشف لنا طبيعتها السياسية في المقام الأول. ولهذا وجب علينا قراءة كافة التقارير والوثائق الرسمية المتعلقة بهذا الأمر. وإذا تتبعنا برنامج الزيارة والأماكن التي زارتها العائلة المالكة طيلة الفترة من ١٧ فبراير ١٩٤٧ وحتى ٢٤ ابريل ١٩٤٧ لوجدنا بأن الأمر يحتاج إلى قراءة أكثر من أرشيف حولها. فلم يكن الأرشيف المصري هو الوحيد الذي سجل الزيارة، بل هناك الأرشيف البريطاني، والأرشيف الجنوب أفريقي وغيرهما، وفي هذا الإطار سنتابع برنامج الزيارة عبر أرشيفات ثلاثة:

أولها: الأرشيف البصرى: فهناك ميداليات من البرونز والفضة والذهب توثق للزيارة، وهناك عملات معدنية وورقية وطوابع بريدية تؤرخ للزيارة وتوثقها [٥٦]. وهناك وثائق تحمل توقيعات الزوار الملكيين أنفسهم، مثل كتاب الزوار لسلاح المهندسين في الترانسفال، ودفتر تشريفات الكنيسة الإنجليكانية في الترنسفال، ومتحف الترانسفال للفوج الإسكتلندي. وهناك كتاب زوار كينجز في ديربان، وهناك البرنامج التذكاري للزيارة الملكية لإيست لندن، وهناك صور وكتب تذكارية تسجل للزيارة وتشرحها. وهناك صور وأفلام للقطار الملكى الذي نقل الزائرين إلى كل ركن تقريبًا في جنوب أفريقيا [٥٧]. بل هناك أفلام وثائقية كثيرة تم تسجيلها خلال فترة الزيارة، وتتبعت برنامجها خطوة بخطوة. فعلى سبيل المثال، هناك فيلم من جزأين: يسجل أحدهما مغادرة العائلة المالكة لبريطانيا من قصر باكنجهام في ٣١ يناير ١٩٤٧ مصحوبة بهتاف الحشود البريطانية، ثم ركوبهم القطار من محطة واترلو للذهاب لميناء بورتسموث، ثم ركوبهم للسفينة فانجارد ووصولهم إلى كيب تاون في ١٧ فبراير ١٩٤٧. أما الآخر، فيسجل الزيارة الملكية لمضمار سباق الخيول في كينيلورث قرب كيب تاون، ثم افتتاح الملك للبرلمان الاتحادي التاسع، ثم زيارتهم لبورت اليزابيث، وينتهي بمشهد رقص أفريقي احتفالي[٥٨].

وهناك عدد كبير من الأفلام توثق للزيارة فى كل ركن ذهبت إليه العائلة المالكة عبر منطقة الجنوب الأفريقي ككل. وإذا ما نظرنا إلى عدد من تلك الأفلام التي وثقت للزيارة وسجلتها، وهي منشورة على شبكة المعلومات الدولية، سنجد أن الملك جورج السادس ترافقه الملكة وأبنتيه الأميرة إليزابيث والأميرة مارجريت إلى اتحاد جنوب أفريقيا، باعتبارها المرة الأولى التي يخرج فيها الملك مع عائلته فى جولة خارجية [٥٩]. فإحدى هذه الأفلام تتبع الزيارة عبر السفينة خلال السبعة يومًا التي قضوها في مياه المحيط الأطلنطي، في الفترة من ٣١ يناير إلى ١٧ فبراير ١٩٤٧ وتوثق لنا مشاهد من تدريب الأميرتين على إطلاق النار على سطح السفينة، ثم الألعاب التي شاركوا فيها شباب الضباط على السفينة. ومشاهد من عمامة الملكة البيضاء، ثم ارتدائها لملابس تتكرية خلال إحدى حفلات السفينة بمناسبة اقترابها من ميناء كيب تاون. ومشاهد من صعود فان زيل، الحاكم العام وزوجته، وجان سمتس رئيس الوزراء وزوجته، ثم مصافحتهم الملك جورج السادس وأسرته على سطح السفينة، ثم نزولهم إلى رصيف الميناء، ثم انطلاقهم إلى مقر الحكومة. بعدها ينتقل لمشاهد من هتافات الحشود للأسرة الحاكمة التي تسير في سيارة مكشوفة عبر الشوارع المزينة بالرايات والشعارات الترحيبية. ثم ينتقل لمشاهد من حفل استقبال بلدية الكيب لهم [٦٠].

وتتبع إحدى هذه الأفلام الزيارة منذ مغادرة السيارات الملكية لقصر باكنجهام في ٣١ يناير ١٩٤٧، ثم تنقل لنا بعض التفاصيل التي سجلها الفيلم السابق، لكنها توثق لنا جلوس الأسرة المالكة على سطح السفينة، وتعطينا صورة أوضح للعبة التاج "tag"، وهي لعبة يطارد فيها الشخص شخصًا آخر، لعبتها الأميرتان مع شباب الضباط. ثم وصولهم إلى كيب تاون فى ١٧ فبراير، ثم تستعرض بعض الشخصيات المحلية، وتنقل لنا مشهد الألعاب النارية عبر الشوارع المرحبة بالزائرين. ثم تنقلنا لمشهد وصول الأسرة الملكية إلى مقر مجلس الشيوخ لافتتاح البرلمان. وجلوس الملك والملكة داخل البرلمان في ثوب الاحتفال بجلوسه على العرش، في حين جلست الأميرتان في شرفة تطل على القاعة، ثم مغادرة مجلس الشيوخ بصحبة المارشال سمتس. ثم تنقلنا لمشهد ركوب العائلة المالكة القطار الأبيض للتجول عبر جنوب أفريقيا، ثم مشهد زيارة مزرعة

النعام في أوتشورن، وإعجاب الأسرة بالنعام وصغاره. ثم ينقلنا الفيلم إلى زيارة الأميرة إليزابيث إلى إيست لندن وتلقيها هدية من الماس.ثم ينقلنا إلى مشهد الزيارة لشاطئ بونزا Bonza، والالتقاء مع الحشود. ثم ينقلنا لمشهد زيارة محمية باسوتولاند، والذهاب لرؤية إحدى القري ثم العاصمة ماسيرو ومشاهدتهم لمئات من الفرسان ومواكب الشيوخ والزعماء. ثم ينقلنا إلى مشهد وصولهم إلى ديربان فى ٢٠ مارس، حيث استقبلتهم الحشود عبر الشوارع بقيادة رئيس البلدية ومسيرة من الجنود السابقين، ثم ذهابهم لأرض الزولو ووصولهم إلى عاصمتهم إيشوى Eshowe ، حيث كان في انتظارهم تجمع كبير من القبائل في استقبالهم، وجرى تقديم عرض فولكلوري، ورقصوا رقصة نجوما ايمكوسى. ثم توجهوا لزيارة الباروتس Barotse فقدموا رقصاتهم وموسيقاهم. وذهبوا بعدها فى رحلة عبر نهر الزمبيزى في روديسيا الشمالية. وشاهدوا المراكب الملكية تجري عبر النهر، ثم قاموا بزيارة لقبر سيسيل رودس فى ١٥ أبريل. ثم عادوا مرة أخرى لكيب تاون، فشكر الملك والملكة موظفي القطار الأبيض. ثم ينقلنا الفيلم لمشهد الاحتفال بعيد ميلاد الأميرة إليزابيث الـ٢١ في ٢١ أبريل. ثم قيامهم برحلة إلى قمة جبل تيبل، ثم يختم بمشهد مجئ سمتس ووزرائه لتوديع العائلة المالكة لحظة مغارتها جنوب أفريقيا يوم ٢٤ أبريل، ثم صعود الأسرة لسطح السفينة فانجارد، حيث حياهم قائدها الكابتن أجنيو، ثم التلويح للحشود الموجودة على الشاطئ، ثم تحرك السفينة عائدة بهم إلى بريطانيا [٦١].

وقدم لنا أحد الأفلام مشاهد مهمة لزيارة الأميرة الشابة إليزابيث إلى إيست لندن ثم الاحتفال بعيد ميلادها الـ٢١ في ٢١ أبريل ١٩٤٧، ثم إلقائها كلمة عبر راديو كيب تاون. وسجل لنا حفلتى ايست لندن♥؛ في ساحة المدينة وفي مقر الحكومة. وكان هذا أول ظهور علني منفرد للأميرة [٦٢]. حيث أعطيت قلادة وسوار كهدية من حكومة اتحاد جنوب أفريقيا، عبارة عن سلسلة طويلة من الماس ٢١ قيراط على شكل الرغيف الفرنسي. وتختلف هذه الهدية عن القطعة الأخرى التى أهداها لها السير أرنست أوبنهايمر، رئيس مجلس إدارة شركة دي بيرز، عندما زارت مناجم كيمبرلي مع والديها في ١٨ ابريل ١٩٤٧ [٦٣]. خلاصة القول: إن الأفلام الوثائقية التي سجلت

الزيارة تفصيلًا، قدمت لنا ما لم تقدمه الوثائق الرسمية من تفاصيل، وأكدت لنا على بعض المعلومات الواردة خلال تلك الوثائق. فعرفنا من خلالها ما إذا كان وصف الاستقبالات صحيحًا أو مغاليًا أم مجافيًا للحقيقة. وبالتالي، فإن أي مؤرخ لا يرى هذا الأرشيف البصري المهم، فقد غاب عنه الكثير من التفاصيل والمعلومات.

ثانيها، الأرشيف المصري، قدمت لنا القنصلية المصرية في الكيب تفسيرًا لاهتمامها بالزيارة الملكية للاتحاد، وهو كثرة الدعوات التي جاءت لقنصلها العام، باعتباره عميدًا للهيئة الدبلوماسية في جنوب أفريقيا. صحيح أنه لم يدع في أول يوم للزيارة، لكنه منذ اليوم الثاني وبالتحديد منذ حفلة حديقة دار الحاكم العام لم تتجاهل إدارة كيب تاون دعوته وزملائه من الدبلوماسيين. فتمت دعوته في اجتماع البرلمان، وحضر يوم الإثنين ٢٤ فبراير ١٩٤٧ حفلة الشاي على ظهر السفينة فانجارد. وفي هذا الإطار، شرح لنا أسباب هذا الحضور والدعوات، وأن تدخله بوصفه عميدًا للهيئة القنصلية قد غير موقف الحكومة الجنوب الأفريقية التي كانت تتجاهل دعوتهم. ولعل قوله " ولقد كان من المعهود في السنين الأخيرة أن يهمل القناصل حتى مثل هذه الدعوات، حتى أنهم لم يحضروا في العام الماضي حفل الشاي التي أقامها الحاكم العام بحديقة داره الواسعة، والتي دعوا إليها كل من هب ودب من سكان الكيب، وعندما تولى القنصل عمادة القناصل كان هذا الأمر أول ما اهتم له حضرات زملائه، فعمل على تحقيق رغبتهم، فكان للقناصل، أو لعميدهم قسط وافر في الدعوات التي أقيمت لجلالة الملك، وهو مايعتبره الزملاء فوزًا لهم" [٦٤]، يعني أن تحركاته لمطالبة الحكومة بتوجيه الدعوة له ولزملائه هي التي جعلته يقف على تفاصيل كثيرة للرحلة، ويرسلها للخارجية المصرية.

وفي هذا الإطار، يقدم لنا خطاب القنصلية المصرية بالكيب لوكيل وزارة الخارجية في ٦ مارس ١٩٤٧ معلومات مهمة عن برنامج الزيارة، لكنه لم يتابع كل تفاصيل الرحلة. فيركز على بعض المناطق ويتجاهل بعضها، ربما لعدم أهميتها للخارجية المصرية، أو ربما لعدم قدرة القنصلية على أن يكون لها آذان أو أسماع في كل الأماكن التي زارتها الأسرة الملكية. فحين يقول" بأن جلالة ملك الإنجليز جورج

السادس وجلالة الملكة وسمو ولية عهده وشقيقتها الأميرة مارجريت، قد وصلوا إلى الكيب يوم الاثنين ١٧ فبراير ١٩٤٧ على ظهر الباخرة الحربية، فإن جارد، وكان في شرف استقبالهم الحاكم العام وزوجته، والمرشال سمطس والوزراء ورجال السلك السياسي، ولم يدع أحد من رجال السلك القنصلي، ونزل الملك ضيفًا على الحاكم العام في دار الحكومة، وعند وصوله إلى الدار كان في استقباله أعضاء مجلس النواب والشيوخ، لتقديم تحية الترحيب بالعائلة الملكية، وألقى جلالة الملك كلمة شكر أجاب عليها رئيس مجلس الشيوخ" [٦٥]، فهذا يعني أن القنصلية رغم عدم دعوة قنصلها لتلك الاستقبالات إلا إنها سجلت تفاصيله بدقة وعناية. بل إن مرفق الرسالة السابقة، وهو عبارة عن ترحيب أعضاء مجلس الشيوخ بالملك وعائلته فى ١٨ فبراير ١٩٤٧، وتسجيل لخطاب رئيس مجلس الشيوخ، وبأنه سعيد؛ لأنها المرة الأولى في تاريخ الكمنولث، لأن يتكون برلمان جنوب أفريقيا من الملك وأعضاء مجلس النواب والشيوخ، وأن يفتتحه الملك شخصيًّا، وأنهم يصلون من أجل ذلك اليوم، ثم إجابة الملك بشكره لأعضاء المجلسين، وشكره لكل خطابات الترحيب التي قيلت، وشكره للجنرال ستمس ودوره وتقليده لوسام الشرف، ثم قيام الجنرال سمتس بشكر الملك والملكة وسط حالة من التصفيق الكبير[٦٦]، يقطع بأن التقارير المصرية لم تدع تلك اللقطات تمر عليها في تلك الاحتفالات، حيث أعطتنا من خلال جريدة الكيب أرجوس إضاءات مهمة حول الدور الذي لعبته الأسرة المالكة في تعضيد الجنرال سمتس، وأن ابقاء الوشائج البريطانية الجنوب أفريقية قائمة كان واضحًا في تحركات الزيارة ومقاصدها. وأن الأمن الاستعماري كان في نظر الزائرين أمرًا مهمًّا وقاطعًا. وما أرشارت إليه الوثيقة المؤرخة بـ ٦ مارس عما حدث داخل البرلمان " وقيام الملك بتقليد وسام الاستحقاق إلى المرشال سمتس بين تصفيق الحضور، وامتناع رئيس المعارضة، الحزب الأفريكاني، وهو مالان واحد عشر عضوًا برلمانيًّا من حزبه، عن حضور حفلة الترحيب، بينما اشترك أعضاء الحزب البرلمانيون الباقون، ولم يحضر أى عضو من شيوخ المعارضة"[٦٧]، يؤكد لنا الدور الذي لعبته الزيارة في الوقوف إلى جانب سمتس وتعضيده. وأن هذه المؤازة كانت سببًا في نفور أعضاء الحزب الوطني المتطهر، وامتناعهم عن حضور فعاليات الزيارة وتقديم واجب الترحيب بالزائرين.

وينتقل بنا الأرشيف المصرى للحديث عما جرى في مساء يوم ١٨ فبراير ١٩٤٧ وعن حفل العشاء الكبير الذي أقيم على شرف العائلة في دار البلدية، فتحدث عن الخطبة التي ألقاها الملك وأجاب عليها المارشال سمس [٦٨]، وأرفق لنا الخطبة والرد. ومن خلال هذا، أمكننا التعرف على خطاب الملك كاملًا، فنتبين منه شكر الملك للجنرال سمتس، مثنيًا على الترحيب الذي لقيته الملكة وبناته وشخصه من سكان جنوب أفريقيا. مشيرًا بأن كلماتهم الرقيقة لمست الأوتار بعمق، وأنه تعرف على ولاء السكان للعائلة المالكة بشكل كبير خلال ساعات قليلة من وصولهم، وأنه لا شيء يمكن أن يزول من ذاكرتهم. ذكرًا الجهد الذي بذلته جنوب أفريقيا خلال الحرب العالمية الذنية التي انتصروا فيها سويًّا، وأن الحرية هي التي دفعتهم لزيارة دول الكمنولث، وشكرهم على مشاركتهم في الحرب، مركزًا على الدور الذي لعبه الجنرل سمتس في لأم الجروح التي نتجت عن الحرب العالمية الثانية، كون كل حرب ينتج عنها مشاكل عويصة صعبة الحل، متمنيًا أن يقضي بينهم رحلة موفقة، وأن يكررها ثانية. وفي نفس الوقت، نتعرف من خلالها على خطبة الجنرال سمتس التي رحب فيها بالملك وأسرته معلنًا الولاء للعرش البريطاني، مشيدًا بأنها أول زيارة ملكية، وأنها ستقوى علاقات العائلة الكبرى وصلاتها بشعوب الكمنولث. مذكرًا بالحرب وسنوات الخطر وكيف عاشت جنوب افريقيا وبريطانيا جنبًا إلى جنب، داعيًا للأسرة المالكة بالتمتع بجو جنوب أفريقيا والاستمتاع بجمالها. خاتمًا خطبته "بأن هذه فرصة لشعب جنوب أفريقيا للرجال والنساء والأطفال وأجناس جنوب أفريقيا لتحية الأسرة المالكة وتقديم الولاء للملك والملكة، وأن يعتبروا الزيارة ليست زيارة عادية، بل قوة فعالة لمنظماتهم وذاكرتهم في المستقبل" [٦٩]. ونستنتج مما سبق أمرين: الأول: أن الزيارة تؤكد وقوف الملكية البريطانية بجانب سمتس كونه الرجل الذي يحافظ على إبقاء جنوب أفريقيا موالية لبريطانيا. الثانى: أن تفصيلات الوثائق المصرية مهمة للغاية في رصد تفاصيل لا يمكن التقاطها عبر الأفلام الوثائقية والصحافة الورقية.

وتستمر القنصلية المصرية في رصدها لبرنامج الزيارة، فتقول فى إحدى وثائقها " بأنه في اليوم الثاني للزيارة دُعي ٦٠٠٠ شخص لحفل شاي في حديقة دار الحاكم العام، كان من

بينهم القناصل. وطاف جلالة الملك والملكة والأميرات بالحديقة محيين المدعويين بكثير من الدعة والمجاملة. وفى المساء أقام عمدة المدينة حفلة راقصة في دار البلدية دُعي إليها ٤٠٠٠ مدعو، كان من بينهم القناصل أيضًا. ورقصت ولية العهد مع العمدة، ورقصت الأميرة مرجريت مع وزير التجارة". وأضافت بأنه " في يوم الأربعاء صباحًا زارت العائلة المالكة سيمونزتاون، حيث مقر البحرية البريطانية. وبعد الظهر حضروا سباق الخيل الذي أقيم لهذا الغرض، وتناولوا الغذاء على مائدة رئيس النادي. وفي المساء، عادوا إلى البلدية، حيث أقيمت حفلة راقصة لغير الأوروبيين". ثم قارنت القنصلية بينها وبين الحفلة الأولى التي حضرها أكبر عدد من اليهود الذين يحقدون على الإنجليز، من وجهة نظرها، لموقفهم من المسألة الفلسطينية، فكان حضورهم حبًّا للتظاهر لا ولاءً للملك، بينما قالت " بأن غير الأوروبيين لا يزالون على الاندفاع قلبيًّا في مسراتهم، والولاء لرمز القوة والسلطان. فكان مظهرهم فيه قوة اليقين والإخلاص". وفي يوم الخميس، خرج الركب الملكي لرحلة في ضواحي الكيب في مدينتي بارل♥ وستيلنبوش♥، وقطعوا نحو ١٦٠ كم في السيارات في هذه الرحلة. وفي مساء يوم الخميس أقيمت بدار البلدية حفلة موسيقية لم تحضرها العائلة المالكة، إذ أراد المارشال أن يستأثر بالملك للتحدث في أمور سياسية مهمة. وكان هذا على إثر تغيير حاكم الهند العام، وارتباط جنوب أفريقيا بمصير الهند، ومشكلة الهنود فيها. وكانت تتوق الملكة لحضور الحفلة، ولكنها لقيت معارضة من المارشال. وتخبرنا الوثيقة بملمح مهم في اهتمام الإدارة المصرية بالزيارة الملكية، حيث تشير بأن القنصل المصرى قد تمت دعوته إلى هذه الحفلة بوصفه عميدًا للهيئة القنصلية، وخصص له العمدة مقصورة مواجهة للمقصورة الملكية. ثم تخبرنا بأنه فى ظهر يوم الجمعة افتتح الملك البرلمان، ولم يدع القناصل إلى حفلة الافتتاح. ويعتبر هذا حدثًا تاريخيًّا في حياة البلاد، إذ لأول مرة يفتتح ملك الإنجليز بنفسه برلمان إحدى الممتلكات المستقلة. ويلاحظ أن الملك حرص على تلاوة عبارة افتتاح البرلمان باللغة الإنجليزية والأفريكانية على السواء(٧٠).

وأرفقت لنا القنصلية المصرية خطاب العرش الذي ألقاه الملك في افتتاح البرلمان في ملاحق تقريرها، والذي نشرته جريدة الكيب تايمز في ٢١ فبراير ١٩٤٧، حيث شكر الجميع، وشكر أعضاء البرلمان، وعبر عن سعادته وترحيبه بهم في الدورة الرابعة من البرلمان التاسع من الاتحاد، وبأنها المناسبة الأولى التي يكون فيها قادرًا على افتتاح الدورة البرلمانية في أي بلد تابع للكمنولث، وأنه يرحب بالفرصة، معبرًا عن سعادته بحسن الاستقبال، وأنه يتعامل الآن مع مشاكل السلام وبتوفير جو الحرية والعدالة، ثم عرض المشاكل الأهلية في الاتحاد نفسه التي نشأت في الحرب، ودعا إلى حل مشاكل السكن والرفاهية الاجتماعية والصحة والتطور الإقليمي، وما يتبع ذلك من إجراءات تشريعية، ثم تطرق للميزانية الحالية وبأنها سترتفع عما قبل، ثم أعلن افتتاح البرلمان (٧١). وإذا ما أعدنا النظر في الخطاب، لوجدناه يعكس الهدف الرئيس من الزيارة، وهو تحقيق الأمن الاستعماري، وحل مشاكل رعاياه الاقتصادية والاجتماعية .

وتستأنف القنصلية المصرية حديثها عن برنامج الزيارة بعد ظهر يوم الجمعة ٢١ فبراير ١٩٤٧، فتقول: "غادرت العائلة المالكة الكاب بالقطار الأبيض الذي اشتراه اتحاد جنوب أفريقيا خصيصًا لتلك المناسبة، والذي تتوفر فيه جميع سُبل الراحة والمتعة. وستقضى العائلة المالكة شهرين تجوب فيهما أنحاء البلاد والمستعمرات البريطانية المجاورة، وتعود أواخر أبريل إلى الكاب، حيث تقام حفلات الابتهاج بعيد ميلاد ولية العهد، إذ تبلغ ٢١ عامًا. وبعدها يعودون إلى إنجلترا على ظهر الباخرة الحربية فانجارد" (٧٢). وعلى هذا، أعطتنا القنصلية المصرية خلفية شاملة عن برنامج الزيارة حتى نهايتة، وهو ما يدل على أن هذا البرنامج كان دقيقًا ومعدًّا سلفًا. وما قالت به الوثائق المصرية أكدته الوثائق البريطانية والأرشيفات البصرية تمامًا.

ورغم أن الأرشيف المصري قد أمدنا بتفاصيل مهمة عن الزيارة وبرنامجها إلا أنه غاب عنه زيارات العائلة المالكة خارج الكيب. بل لم تعد القنصلية المصرية تكتب عن الزيارة إلا في نهايتها. حيث تشير إحدى وثائقها بأنه " عندما عاد الملك إلى الكيب في ٢٠ أبريل ١٩٤٧ دُعي القنصل المصري في اليوم التالي إلى حفلة عيد ميلاد الأميرة الياصابات ببلوغها سن الرشد،

حضرها القناصل، فجلس معهم في المقاعد الأمامية. وفي يوم ٢٢ أبريل دُعي كذلك بوصفه عميدًا للقناصل إلى الحفلة الموسيقية التى شرفتها الملكة بمفردها، وجلس فى مقصورة مواجهة لها. وفى يوم ٢٣ أبريل حضر مع زملائه القناصل، حفلة شاي في حديقة حاكم مقاطعة الكيب. وكان بوصفه عميدًا للقناصل من بين من استقبلوا في الصالون الخاص، حيث شرفت العائلة المالكة، ومنها ذهبوا إلى الحديقة مع رجال السلك السياسي. وفي يوم ٢٤ أبريل حضر وزملاؤه القناصل العاملون غير الممثلين دبلوماسيًّا في الكيب دعوة غذاء أولمتها الحكومة للملك في يوم سفره. وكقناصل، لم تتم دعوتهم إلى حفلات الغذء السابقة التي أقيمت للملك عند حضوره، وعلى إثر اتصاله الشخصى بوزارة خارجية جنوب أفريقيا، رأت مجاملة للقناصل أن تدعو القناصل العامين من السلك الذين ليس لهم ممثلين سياسين، حتى يتسنى لكل دولة أن تمثل في هذه الحفلات. وكانت لفتة موفقة من جانب وزارة الخارجية أرضت القناصل، ورفعت من شإنه كعميد لهم، إذ تمكن من الحصول على ما لم يكن يتمتعون به من قبل (٧٣).

وإذا كانت الدعوات التي وجهت للقنصل سببًا في الكتابة عن الزيارة ووصفها، إلا إن الشخصية الزائرة استوجبت منه الاهتمام. بدليل كتابته تفاصيل اليوم الأول للزيارة كاملة، مع إنه لم يدع لحفلة الاستقبال. وأعتقد أن المتابعة المصرية للزيارة جاء فى جزء منها، متابعة لنشاط اليهود في جنوب أفريقيا. وربما كان موقف القنصل المصرة من عمدة كيب تاون اليهودي لعدم دعوته القناصل في أول يوم للزيارة، جعله يفسر أشياء بطريقة مبالغ فيها. فحين كان يجمع العمدة مساهمة لبريطانيا في الكيب، لم يظهر اليهود أى رغبة في المساهمة في الإكتتاب، ذاكرًا بأن "حقدهم معروف ضد بريطانيا"، دون تفسير مصدر هذا الحقد (٧٤). وعلى هذا، فإن متابعة الوثائق المصرية بشأن الزيارة مهم لأمرين: أولهما: أن الاهتمام المصرى بشئون الجنوب الأفريقي كان سابقًا على الاهتمام بأى منطقة أخرى في أفريقيا جنوب الصحراء. ثانيها: أن الزيارة مهمة لكل نواحى المستعمرات، ومصر ما زالت تحت الاحتلال البريطاني، فالاستقلال الذى حصلت عليه سنة ١٩٢٢ كان صوريًّا. وبالتالي، هي جزء من المستعمرات المشغولة بالتحركات البريطانية

ومعنية بها، لتأثيرها على مستقبلها، فهي تسعى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية لأن يكون هذا الاستقبال حقيقيًا.

ثالثها: الأرشيف البريطاني: إذا كنا قد تابعنا بعض التفاصيل عن الزيارة وبرنامجها عبر الأرشيف البصرى والمصري إلا إننا سنجد في الأرشيف البريطاني ما هو مختلف عن كل ما سبق، وفيه أيضًا ما يؤيد ما سبق ويؤكد عليه. لكننا سنأخذ منه في هذا المحور ما يخص برنامج الزيارة داخل أراضي الاتحاد، أما ما يخص برنامج زيارة المحميات فسنخصص له محورًا مستقلًا(انظر خريطة الزيارة التالية). وفى هذا الإطار، وتحت عنوان زيارة العائلة المالكة إلى كيب تاون والمناطق المجاورة، أرسل السير إيفلين بارينج Evelyn Baring إلى اللورد أديسون Lord Addison، في ١٠ مارس ١٩٤٧، انطباعاته عن الزيارة، فقال بأنه " ليس هناك شك في أن الأبهة الأكثر روعة خلال الزيارة حتى الآن هو وصول السفينة فانجارد صباح يوم الإثنين ١٧ فبراير. فهذا اليوم كان الأكثر روعة، فمع هبوب الرياح الجنوبية الشرقية على الكيب في هذا الموسم، وعلى مرأى ومسمع من آلاف المتفرجين، وصلت البارجة قبالة كيب تاون في الفجر، ثم نزلوا في ميناء دنكان Duncan Dock في الساعة التاسعة والنصف صباحًا، وكانت الراية الملكية ترفرف على الصاري الرئيس، وعلم البحرية الأبيض الرسمى. وبعد ذلك صعد الحاكم العام ورئيس الوزراء على متن السفينة، وقدموا تحياتهم واحترامهم للأسرة الحاكمة، ثم نزلوا مع بعض الوزراء، واستعرضوا السلك الدبلوماسي والحاكم العام وزوجاتهم". وأضاف " بأن البرنامج الذى رتب للعائلة فى كيب تاون كان مزدحمًا، كما هو الحال في بقية مدن الاتحاد. ففي ١٧ فبراير، وبعد نزوله، وصل الملك لمقر الحكومة وتم الترحيب به من قبل مجلسي البرلمان، حيث انتهز الفرصة بمنح رئيس الوزراء شارة ووسام الاستحقاق"(٧٥).

خريطة توضح الأماكن التى زارتها العائلة الملكية عبر منطقة الجنوب الأفريقي سنة ١٩٤٧

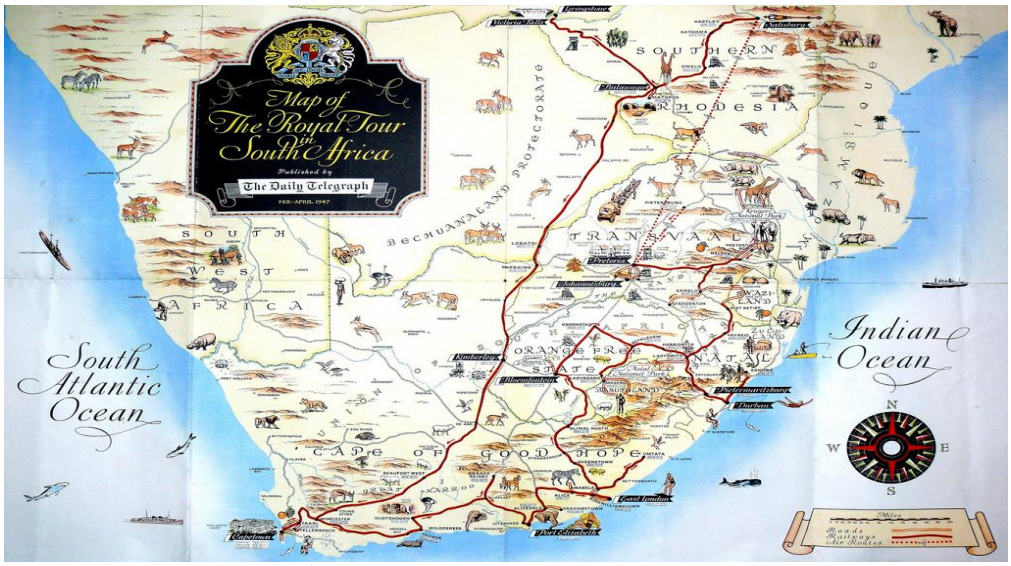

خريطة نشرتها جريدة الديلى تلجراف في ١٨ أبريل ١٩٤٧.

وبطبيعة الحال، تعطينا الوثائق البريطانية تفاصيل لا يستطيع الأرشيف المصري ولا غيره، أن يخبرنا بها. فقول الرسالة السابقة، " بأن العائلة المالكة أخذت الغداء في ويستبروك Westbrooke مع الحاكم العام فان زيل وزوجته، وعادت إلى كيب تاون لحفلة استقبال السلك الدبلوماسي، تلك التي حضرها ممثل بريطانيا نفسه والمفوضين الكندي والأسترالي. وفي المساء، كانت هناك مأدبة رسمية تحدث فيها جلالة الملك والفيلد مارشال سمتس. وفي ١٨ فبراير، حضرت الأسرة الحاكمة مناسبة في ساحة المدينة في الصباح، وعلى الفور، تم دفعهم للقيام بزيارة مشيًا على الأقدام إلى الحدائق النباتية الوطنية في كريستينبوشKirstenbosch... وبعد الظهر، أقام الحاكم العام حفلة في حديقة ملاعب ويستبروك، حضره أكثر من ٥،٠٠٠ شخص، وفي المساء حضروا حفلة ساحة المدينة. وفى يوم الأربعاء ١٩ فبراير، ذهبت الأسرة الحاكمة إلى سيمونزتاون، وبذلت ترتيبات خاصة لوضع أطفال المدارس على طريق طوله ٢٠ ميلا، وأمضوا فترة ما بعد الظهر في

سباق خيل أُجري في كينيلورثKenilworth. وفي المساء، حضروا حفلة في ساحة المدينة لمجتمع الملونيين. وفي٢٠ فبراير قاموا برحلة مضنية بالسيارات لستيلينبوش Stellenbosch وبارل Paarl وبعض المناطق المجاورة. وفي ٢١، افتتح صاحب الجلالة الدورة الجديدة للبرلمان في الصباح، ثم غادرت الأسرة الحاكمة بالقطار في فترة ما بعد الظهر لزيارة بقية الأماكن" [٧٦]. وعلى هذا، يتضح بأن برنامج الزيارة كان معدًّا بشكل جيد، وأن فقراته معدة بشكل سياسي كبير. وأن الأرشيفات المختلفة أعطتنا زوايا مهمة تميز بها كل أرشيف عن الآخر.

المحور الخامس: الموقف السياسي من الزيارة وانعكاساته على الأمن الاستعماري:

من المؤكد أن بعضًا من السود والهنود، وكثيرًا من الأفريكانرز، كانوا يعارضون الزيارة الملكية، لكن الرفض لها لم يستمر على طول الخط [٧٧]. وقراءة هذا التغير فى المواقف يتطلب المتابعة لنرى أسبابه وانعكاساته. فحينما استفاد الشيوعيون من الظروف، دبروا الإضرابات والاحتجاجات والاجتماعات. وبهذا، أُجريت محاكمات ضد الرؤس المدبرة، بعد أن تم تفتيش نواديهم وصحفهم، وصودرت أوراقهم ومستنداتهم[٧٨]. ولعل ما يشير له خطاب القنصل العام لوكيل وزارة الخارجية المصرية بتاريخ ٦ مارس ١٩٤٧ بأن " الاستقبال لم يكن حارًا كما كان متوقعًا، بل ربما يمكن القول بأنه كان يسود الناس نوع من التحفظ لما اكتنف هذه الزيارة من دعايات مختلفة الأغراض من الأحزاب المعارضة، ومن الهنود، ومن الملونيين إلخ"، يلخص الموقف العام من الزيارة. لكن السؤال الأهم: هل استمر هذا الرفض على طول مدة الزيارة؟ أم أن الأمر تغير لصالح الملك وأسرته بعد أيام من بدء الزيارة؟ وهل يمكن تعميم هذا الرفض على سكان جنوب أفريقيا ككل؟ أم أن لكل فصيل أسبابه التي تختلف عن أسباب الآخرين، دفعته لتغيير موقفه من الزيارة؟ غير أن الإجابة التي تقدمها لنا إحدى الوثائق المصرية "من أن الرحلة الملكية كانت موفقة جدًّا، وأنها صادفت نجاحًا في مقاطعة الكيب لم يكن متصورًا، ومن المتوقع أن يستمر هذا النجاح في المقاطعات الأخرى"[٧٩]، يلخص التغيرات التي جرت على الموقف لصالح الزيارة وأهدافها. وهذا يستوجب منا التعرف على مواقف الأطراف المعنية من الزيارة،

وانعكاسها على الأمن الاستعماري. حيث نجحت بريطانيا فى الاحتفاظ بجنوب افريقيا في حضنها لمدة أربع عشرة سنة أخرى على الأقل. ولمزيد من فهم تلك المواقف نوجزها فى أربعة:

أولها: موقف الهنود: فحين أعلن هنود ناتال عن عزمهم القيام بعصيان مدني في يوليو ١٩٤٦، وتجمعت جموعهم برئاسة الدكتور نايكر، نراهم قد احتلوا قطعة أرض فضاء تخص الأوروبيين وأقاموا عليها خيامهم. وفي أول ليلة لهم، تجمع بعض الأوربيين المتحمسين حول الخيام، واقتلعوا أوتادها، وقطعوا حبالها، وحرقوا قماشها. وفي الليلة الثانية، زادت أعداد المتظاهرين من الأوروبيين، وحرقوا بضع سيارات للهنود، واعتدوا على أفراد منهم. وفي الليلة الثالثة، وقف الهنود في صف لدفع كل اعتداء على أمتعتهم، ومنعوا الأوروبيين من اختراق صفوفهم المتراصة" (٨٠). ولهذا، فإن موقفهم من الزيارة قد ارتبط بقضاياهم ومطالبهم بتخفيف القبضة العنصرية. فنتعرف من أحد تقارير القنصلية الملكية بمدينة الكيب في ١٢ فبراير ١٩٤٧ بأن الاحتجاجات الهندية أثرت في موقفهم من الزيارة، فقد أعلن الهنود عن مقاطعتهم للزيارة الملكية إذا لم يتم إصلاح أمرهم. وأنهم سيقاطعون الاحتفال الذي سيعقد لملك الإنجليز عند قدومه هذا الشهر(٨١). ومع أنهم كانوا يذيعون أنهم سيقاطعون الاحتفال بالملك إلا إنهم انقسموا إلى شيع وفرق حول هذا الأمر. فقد اشترك هنود الكيب في الاحتفالات التي أقيمت، كما تألفت لجنة كبيرة من هنود ناتال لعمل مهرجانات لاستقبال العائلة المالكة تفوق في رونقها ما أقامه الأوروبيون(٨٢).

وما قالت به الوثائق المصرية لم يختلف عما قالت به إحدى الوثائق البريطانية، حين أشارت بأن أهم سمة فى الجولة الملكية هو ترحيب المجتمع الهندى بالعائلة المالكة، على الرغم من جهود المتطرفين الهنود فى ترتيب مقاطعة للزيارة (٨٣). وعلى هذا تغير موقف الهنود الرافض للزيارة إلى مؤيد لها، بل أقاموا خلال استقبالهم للعائلة الملكية، المهرجانات التى أخذت بالألباب (٨٤). بل تشير رسالة السير إيفلين بارينج إلى اللورد أديسون في ١٠ مارس ١٩٤٧. بأن الهنود انضموا لصفوف المرحبين بالأسرة الحاكمة في كيب تاون. وفسرت هذا التغيير " بأن الخطوة التى تبنتها حركة المقاومة الهندية التي دعت لتنظيم مقاطعة الزيارة الملكية في ديربان، قد فشلت؛ لأن

هناك مجموعة قوية من الآراء الهندية في جميع أنحاء البلد تعارض كل اقتراح للمقاطعة" (٨٥). وهذا يعنى نتيجتين: الأولى: نجاح العائلة المالكة في تغيير موقف الهنود تجاهها، وضمان ولائها واستقرار المناطق التي تعيش فيها. الثانية: أن تأمين جانب الهنود يصب في صالح الأمن الاستعماري ككل.

ثانيها: موقف الأفريقيين: لم يختلف موقف الأفريقيين القاطنيين في الاتحاد عن موقف الهنود كثيرًا، حيث تشير إحدى الوثائق المصرية بأن السود في ناتال قد اتبعوا الهنود في الاحتجاجات، وقاموا بحرق بطاقات المرور المسلمة إليهم بصحبه طبل وزمر في حفل علني. ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل اقتفوا أثرهم في الإعلان عن مقاطعة الاحتفال بملك الإنجليز عند قدومه (٨٦). وتؤكد على هذا إحدى الوثائق البريطانية بأن هذا الموقف المعارض للزيارة لم يقتصر على منطقة معينة. حيث تشير إلى اجتماع للأهالي للأفريقيين في بلومفونتين في بداية شهر فبراير ١٩٤٧ وقراراهم بألا يرحبوا بالأسرة الملكية. غير أن تصريح المتحدث الرسمي للحكومة " بأن هؤلاء هم السكان الأصليون الوحيدون الذين يرون الملك ضمن أولئك الذين يعملون على وضع القيود أمامهم، وأن الكثيرين منهم ينظرون إليه كملك جيد يراهم في قيود العبيد المعتادة"، يقطع بأن مواقف الأفريقيين من الزيارة كانت متباينة جدًّا. فإذا كانت هناك أقلية قد أعلنت مقاطعتها، فهناك حشود كبيرة منهم في المنطقة الشرقية من الكيب قد قدموا ترحيبًا حارًّا للعائلة الملكية(٨٧). ورغم روعة الاستقبالات التي قوبلت بها العائلة المالكة في المناطق الأفريقية، إلا إنها كانت في زولولاند من أروع ما يكون، بما يدل على تعلق سكانها السود بالعائلة المالكة (٨٨).

وتعطينا إحدى الوثائق المؤرخة بـ ١٦ مايو ١٩٤٧ شرحًا أفضل للمسألة، فتطرح ثلاثة أمور: الأول: أن جهودًا كبيرة قد بذلت من قبل بعض المتطرفين لعدم تحميس الجماهير الأفريقية تجاه الزيارة، لكن مشاعر الدفء والترحيب التي قدمها أفارقة الاتحاد كانت كبيرة، وأنها ليست مستغربة. الثانى: أن معظم الأفريقيين ظلوا يقدمون الولاء للعائلة المالكة، ويرتبطون بالملكة فيكتوريا وبأفكار الحرية والعدالة لجميع الأجناس، تلك التي مورست عمليًّا في إقليم الكاب لسنوات.

حيث كانت تسوده الأفكار الليبرالية منذ فترة ما قبل الاتحاد، تلك الأفكار التي رفضها الحكام الأوروبيين في تشريعاتهم العامة، كتشريع هيرتزوج لسنة ١٩٣٦. الثالث: أنه من سوء الحظ أن تتعرض سلطات الاتحاد لانتقادات كثيرة من قبل المتعلمين الأفارقة بخصوص سلوكهم خلال الزيارات الملكية لمناطق الأفريقيين داخل الاتحاد، فظهرت مقالات صحفية أفريقية تؤكد على قيام السلطات بوضع ترتيبات تؤكد على "التفوق الأبيض"، وعدم السماح لأصحاب الجلالة بالحديث فى المناسبات الأفريقية التي حضروها (٨٩).

ثالثها: موقف الملونيين: لم تظهر للملونيين أية مواقف رافضة للزيارة الملكية، وهو ما جعل الزائرين يشاركونهم الاحتفالات في صباح اليوم الثاني للزيارة. حيث استعرضت العائلة المالكة جموع الملونيين والملايو الذين لبسوا حللًا مهرجانية، طافت مع العرض في أنحاء المدينة في شُعب متفرقة تقودها موسيقاها. وكان الملونون والملايو عادة ما يقومون بهذه المهرجانات في أول كل عام، يصرفون فيها عن بذخ وكرم. وتتنافس فرقهم بعضها البعض لاكتساب شرف التفوق لأحسنها نظامًا، وأجملها ملبسًا وأتقنها موسيقى (٩٠). وفى مساء الأربعاء ١٩ فبراير ١٩٤٧، أقيمت حفلة راقصة لغير الأوروبيين، اجتمع فيها الملايو والملونون والسود بملابس السهرة الأفرنجية، وقام الملايو بتمثيل منظر حرس عربي إسلامي. وإذا كانت الحفلة الساهرة للأوروبيين في البلدية قد نجحت، إلا إن حفلة غير الأوروبيين فاقتها روعة وإخلاصًا. ولعل شرح الوثيقة المصرية لأسباب هذا التفوق " بأن عمدة المدينة_ وهو من أذكياء اليهود_ قد حشد في الحفلة الأولى أكبر عدد من ملته الذين يحقدون على الإنجليز لموقفهم من المسألة الفلسطينية، فكان حضورهم حبًا للتظاهر لا ولاءً للملك. بينما كان غير الأوروبيين لا يزالون على الفترة في الاندفاع قلبيًّا في مسراتهم، والولاء لرمز القوة والسلطان، فكان مظهرهم فيه قوة اليقين والإخلاص" (٩١)، يعني أن القنصلية لجأت للطعن في حفلة البلدية لأسباب تتعلق بمنظمها اليهودي، لكنها نسيت أن قطاعًا كبيرًا من البيض كان متفقًا على عدم إظهار الحماس والترحيب بالزيارة. فى حين لم يظهر الملونيون أية مواقف مسبقة من الزيارة. بل كانت حفلة ١٩ فبراير ١٩٤٧ في ساحة

مدينة الكيب، والتى كانت خاصة بمجتمع الملونيين، تعد واحدة من أنجح وظائف الزيارة إجمالًا. حيث بقيت الأسرة المالكة بعض الوقت مع عدد من وجهاء الملايو والأشخاص الملونين المقدمين لهم. وكان ظهورها مع مجتمع الملونين والملايويين موضع تقدير كبير من قبل تلك الفئات المهملة، وكان هذا اللقاء رافعًا لهم(٩٢).

رابعها: موقف البيض: يشرح لنا السير إيفلين بارينج في رسالته إلى اللورد أديسون في ١٠ مارس ١٩٤٧ الموقف من زيارة العائلة المالكة، فيقول بأنه " قبل وصول العائلة المالكة وزعت أوراق حكومية داعمة تدعو إلى ضبط النفس، وتقدم الدعم للزيارة المقبلة". حيث ظهرت عدة رسائل في الصحافة تحث الناس على الخروج والهتاف للموكب الملكي عندما يسير فى شوارع كيب تاون، وهي قادمة من ميناء الوصول؛ ولأنهم يعلموا بأن حشود جنوب أفريقيا لا تقوم بالهتاف إلا في المناسبات الرياضية وما شابهها فقط، لذا كانت هناك خشية من أن تفشل الحشود في إظهار الحماس، ويلتزمون الصمت تجاه الأسرة الحاكمة. لكن الوثيقة تذكر لنا موقفًا مهمًّا" بأنه إذا كان الهتاف خفيفًا ومتفرقًا عندما نزلت الأسرة الملكية، لكن حينما استعدوا للسير في شوارع كيب تاون، كانت الهتافات مفعمة بالحيوية في استقبالهم ، ووصلت إلى أعلاها في شارع أدرلي Adderley Street ". وقالت بأنه على الرغم من أنه من غير الطبيعي استحالة إجراء تقدير دقيق على ما يبدو لكثير من المراقبين، بما في ذلك محرر صفحة الحزب الوطني المنطهر باللغة الإنجليزية في صحيفة العهد الجديد *New Era*، بأن الحماس كان يزداد للأسرة الحاكمة أثناء إقامتها في كيب تاون. حيث عرضت لنا الوثيقة " بأنه في مساء وصولهم، شوهدت حشود تندفع باتجاههم خلال الوليمة الرسمية المقامة على شرفهم، وبأن الاندفاع كان قليلًا إلى حد ما في البداية. لكنهم قوبلوا في وقت لاحق، في المأدبة المسائية التي أقامتها المدنية، بتصفيق كبير داخل قاعة المدينة وخارجها. وفي مساء اليوم الثالث تجمعت حشود كبيرة خارج قاعة المدينة في انتظار ظهور الأسرة الملكية، فبرزوا في الشرفات وكانوا متحمسين جدًّا في إختراقهم للحواجز "(٩٣).

وتشرح لنا الرسالة السابقة أسباب هذا التغير في موقف سكان الكيب خلال الأسبوع الذي قضته العائلة المالكة في كيب تاون. فتقول بأن الظروف كانت مهيئة لمحادثات الأسرة الحاكمة مع ساستها ونخبتها، وأن احتفالية افتتاح البرلمان وحفل الملونين وفرت المناخ الجيد لتلك المحادثات . بل كانت جنوب أفريقيا ممتنة لصاحب الجلالة لمنحه رئيس وزرائها سمتس وسام الاستحقاق. وكان خطاب الملك في المأدبة الرسمية في مساء وصوله، وشكره على كرم الضيافة وثنائه على المجهود الحربي الذى قدمه الاتحاد خلال الحرب العالمية الثانية، وزيارته للقوات العسكرية، وعشرته اللطيفة لسكان الكيب، قد أدى إلى استقباله الجيد في بارل وستيلينبوش، قلعتى الأفريكانرز في الكيب. فهما بلدتان تقعان في منطقة زراعية تبعدان ساعة أو ساعتين من كيب تاون، ومشاعرهما بالكامل مع الحزب الوطني المتطهر(٩٤).

غير إن الرسالة السابقة تفسر لنا موقف الحزب الوطني المتطهر المثير لاهتمام بعض المسؤلين. فتقول بأنه " منذ أن أعلن لأول مرة عن زيارة العائلة المالكة للاتحاد، أعلن الوطنيون من أنصار الحزب، بأنه من غير المتواقع أن يظهروا أي حماس لها، وأنهم سيتعاملون مع الأسرة الملكية من باب المجاملة والاحترام التي يشتهر بها الأفريكارنرز. وتخبرنا بأنهم باستثناء هفوه أو هفوتين، حافظوا على هذا الموقف، رغم أن مجلسي الشيوخ والنواب وافقًا بالإجماع قبل أسبوع من الزيارة على ضرورة إظهار الاحترام والترحيب لصاحب الجلالة في خطاباتهم عبر غرفتي البرلمان. وتشير الوثيقة بأنه باستعراض العناوين صباح يوم ١٧ فبراير، نجدها تقول بحضور ١١ عضوًا من أعضاء مجلس النواب من أصل ٤٦ عضوًا، في مشهد استقبال العائلة الملكية. بل لم يكن أي من قادة الحزب الوطني موجودًا. وقد أثار هذا الحادث بعض الانتقادات والحيرة، وعدم وجود تفسير لماذا لم يشترط الحزب؛ إما الحضور، أو الامتناع كليًّا. فتقول بأنه تقرر في أحد اجتماعات الحزب بترك أمر الحضور فرديًّا، فمنهم من غاب، ومنهم من حضر. لذا أفادت جريدة دى فادرلاند Die Vaderlnd بأن السيد ستريدوم Strydom، زعيم الحزب الوطنى في الترانسفال، هو فقط من بين أعضاء الحزب الوطني في البرلمان الذي بقي بعيدًا على الدوام عن

كل الاجتماعات التي حضرتها العائلة المالكة. وكان هذا الرجل عند افتتاح البرلمان موجودًا في بهو الفندق، ولم يتبع أى موكب آخر ذهب فيه أعضاء البرلمان إلى قاعة مجلس الشيوخ. وتشرح لنا الرسالة ما نقلته الصحافة عن هذا الموقف، فقالت بأنه " كثيرًا ما يقال أن جوهر معارضة الحزب الوطني أنه أحد الحزبين الكبيرين، وأحد الأحزاب الكبرى التي تقدم نفسها للعالم الخارجي كجبهة متحدة، وهو في الواقع ينقسم إلى جناحين: أحدهما، لا يلين في كراهيته للبريطانيين وعدم التبعية لهم، والآخر، يتكون من أشخاص يشعرون بالشكوك حول حكمة السياسة الحالية للحزب، وأن لها أهدافًا أخرى غير مجرد المعارضة لكل ما هو بريطاني. ومع ذلك لم تعتبر الوثيقة بأن ما حدث في الكيب هو مشهد القول الفصل في المسألة. حيث تشير بأنه " من السابق لأوانه الحكم على آثار أعمق للزيارة على شعب جنوب أفريقيا. لكن يمكن القول باطمئنان بأن الزيارة إلى الكيب كانت ناجحة جدًّا.. وبحلول نهاية اليوم الأول في كيب تاون، كتبوا القليل ونشر صورًا لشيء آخر"[٩٥]. وهو ما يخالف ما جاء في إحدى الدراسات تمامًا [٩٦].

وفي نفس السياق، تعطينا إحدى الوثائق بأن سمتس قد بذل دورًا كبيرًا فى إقناع الأفريكانرز المتعصبين ضد الإنجليز بأنهم مخطئون فى وجهة نظرهم[٩٧]. لكنه لم يفلح في البداية في هذا الأمر، حيث تشير إحدى الوثائق المصرية بأن رئيس حزب الأفريكانرز وأحد عشر عضوًا برلمانيًّا وجميع أعضاء حزبه في مجلس الشيوخ قد امتنعوا عن حضور حفلة الترحيب بالعائلة يوم وصولها. وأن هذا يتفق طبعًا وسياسة حزب الأفريكانرز الذي يتطلع إلى تحقيق أمنيته في التخلص من رباط الإمبراطورية البريطانية، وإنشاء جمهورية جنوب أفريقيا. وقد حدث هذا رغم تصريحات متكررة سابقة من الدكتور مالان، بأن حزبه لا يدعو بالمرة إلى الجمهورية ملقيًا باللائمة على المتطرفين من الأفريكانرز، الذين ينادون بالجمهورية، مع أنه موقن بأن الوقت لم يحن لذلك بعد. ومن ثم فإن امتناع رئيس المعارضة مالان، وأحد عشر عضوًا برلمانيًّا من حزبه، وكل أعضاء المعارضة في مجلس الشيوخ، عن حضور حفلة الترحيب، كان دلالة مهمة على رفض القطاع الأكبر من الأفريكانرز للزيارة وأهدافها. وأنه بالرغم من اشترك بقية أعضاء الحزب

البرلمانيين في الترحيب إلا أن الأمر كان يتطلب جهدًا كبيرًا من قبل الملك وعائلته". ولعل زيارة العائلة المالكة لمدينتي بارل وستيلنبوش، وتعتبران وكر الأفريكانيين في منطقة الكيب [٩٨]، يلخص هذا الدور ويوضحه.

ويبدو أن الجنرال سمتس قد استغل الفرصة لصالحه وصالح ضيوفه، ففي ١٨ فبراير، دفعهم مشيًا على الأقدام للقيام بزيارة الحدائق النباتية الوطنية في كريستينبوشKirstenbosch. وهناك قابلوا بالصدفة عددًا من أعضاء البرلمان من الحزب الوطنى المتطهر مع أسرهم يقومون بنزهه خلوية. وكان من بين هؤلاء السيد سوارت، زعيم المتطرفين. حيث استغل رئيس الوزراء تلك الفرصة لتقديم المجاورين له، وأدخلهم في حوار مباشر مع الملك والملكة[٩٩]. وفي هذا الإطار تقص علينا إحدى الوثائق المصرية بأنه " إذا كان الاستقبال نوعًا ما فاترًا فى البداية، إلا إن الأمر تغير بعد أن أمضت العائلة المالكة خمسة أيام في الكيب. حيث أبدوا فيها كثيرًا من الدعة والمجاملة واللطف أخذت بمجامع القلوب، لهذا لم يحوزوا إعجاب الجميع فحسب، بل اكتسبوا حبًا وتقديرًا من الخصم قبل الصديق". وفسرت هذا الأمر قائلة " كان لجلالة الملك والمارشال سمتس فضل كبير في تحقيق ذلك. فكان المرشال يعمد في رحلاته مع العائلة المالكة أن يخرج إلى الخلوات، حيث يوقن بوجود أعضاء حزب المعارضة يتمتعون بنزهة خلوية، أو يتسلون بلعبة جنوب أفريقيا. فتلوح لهم العائلة المالكة في الحديقة الخلوية الجبلية، وتلتقى بأفراد من أعضاء البرلمان من حزب الأفريكانرز، وهم يتناولون طعام الغذاء على الطريقة الأفريكانية من شى اللحم في الخلاء. وهناك يتقدم جلالة الملك الصفوف، ويقبل على تذوق أصناف الطعام، فيتحدث إلى الجميع في غير كلفة". وأضافت: تراهم أيضًا يصلون إلى مكان يلعب فيه بعض أعضاء نفس الحزب، بنوع من الكرات الخشبية، فتتقدم جلالة الملكة وتشارك القوم في لعبتهم، وتجرب إصابة الهدف. ويسود المكان مرح وسرور، لم يكن لهؤلاء الناس أن يتوقعوه. وكانت الملكة تطلب وصفات الطعام من الأطباق الجنوب أفريقية، كما تبدى رغبتها في التقاط بعض كلمات اللغة الأفريكانية". وقالت بأنه حينما انتشرت هذه الأخبار في عرض البلاد بفضل الدعاية الواسعة لكل حركة تقوم بها العائلة المالكة، تغير الموقف منهم. وتلتقط

لنا موقفًا مهمًّا لهذا التغير حين تقول " حتى أنه عند زيارتهم لمدينة بارل، قابلوا قائد منظمة الأوسيوا براوديج، وهي على غرار النظام النازي، فتلطفوا معه، حتى أنه رغم كراهيته للإنجليز، كان يود أن يدعو العائلة المالكة بالبقاء دومًا في جنوب أفريقيا. وفي رحلاتهم في مناطق الأفريكانرز كان جميع من يقابلون يصرحون بما يكنون لهم من إعجاب وتقدير" [١٠٠]. ومما، سبق نتعرف على الأساليب التى استخدمتها العائلة الملكية في التقرب من معارضيها والرافضين لوجودها في جنوب أفريقيا. تلك الأساليب التي جمعت القلوب حول العرش البريطاني مرة أخرى، وأنهت ما كان عالقًا بين الأفريكانرز والملكية البريطانية.

وأرجعت الوثيقة المصرية الفضل في هذا إلى حكمة المارشال التي مكنته من الوصول إلى الكثير من أغراضه، فقد سعى لتقوية روح الارتباط بالإمبراطورية البريطانية. كما أرجعته إلى قوة شخصية العائلة المالكة وروحها الديمقراطية، حيث تكاتف الشعب في الالتفاف حول العرش مما ظهرت بوادره في تنقلات العائلة المالكة في مقاطعة الكيب، وفي الاستقبالات الحارة التي كانوا يقابلون بها في كل مكان، على خلاف ما حدث في اليوم الأول لوصولهم. وكان نجاح الحفلات التي أقامها العمدة قد ملأ صدور اليهود بالفخر والإعجاب، خصوصًا عندما أهداه الملك قبيل مغادرته الكيب بتحفه جميلة، عليها توقيعات العائلة المالكة[١٠١].

ويحلل لنا السير إيفلين بارينج في رسالته إلى الفيكونت أديسون فى١٦ مايو ١٩٤٧، الموقف من الزيارة خارج إقليم الكيب. ذاكرًا بأنه كان يعرف الانتقادات العلنية والخاصة الموجهه للزيارة الملكية، وأنه سمع بعض هذه الانتقادات بنفسه في جلسات خاصة، لدرجة جعلت المتحدثين يفترضون أن يكون هناك استياء عميق. فذكر بأن الانتقادات لم تكن بنفس الحال في كل المقاطعات. فعلى سبيل المثال، كانت مقاطعة الكيب تحتاج لمعالجة خاصة. أما الترانسفال الغربية، فكان غالبيتها من أنصار الحزب الوطنى المتطهر المؤمنين بالجمهورية، لهذا لم تكن مدرجة في البرنامج. وفيما يتعلق بالراند، بما فيها من عدد سكاني كبير، ومكانة رئيسة تحدد مستقبل سياسة الاتحاد، لم تتلق إلا زيارة قصيرة نسبيًّا. أما في جوهانسبرج، وخصوصًا مدن

الريف، فقد أعربوا عن شعورهم بالاستياء الحقيقي. مع ذلك يقطع بأن الزيارة حققت نجاحات مهمة اختزلها في ثلاثة: أولها، النجاح البارز الذي حققته في دولة الأورانج الحرة. فقد كانت مشاعر الدفء والترحيب ملحوظة بشكل خاص عبر الطريق، وفي التوقفات المتكررة، وفي المدن الصغيرة، مثل كرونستاد Kroonstad وليدى براند Ladybrand. وهى المراكز المعروفة بمناطق القوميين الأفريكانرز. ومع أن صحافة الحزب الوطني. أشارت لهدوء الحشود في بلومفونتين، إلا إن شهود العيان ذكروا لبارنج بالتجمع حول العائلة المالكة عندما وصلت إليها في الصباح، وفي حفلة الحديقة بعد ظهر اليوم، وكانوا يهتفون لهم. واعترفت جريدة دي برجر بأكثر من ذلك، عن قيام الناس بالرقص للعائلة المالكة والهتاف لهم بصوت عال، ليس فقط من داخل قاعة الاحتفال، ولكن أيضًا من قبل الحشود الكبيرة الموجودة في الخارج. ثانيها: في الأفعال التي قام بها الملك والملكة والأميرتان في كل محطة توقف للقطار، فقد كان الناس ينتظرون وصولهم. وبهذا، كانت هناك مناسبات عديدة للتجمع، بما يعد من أنجح ما حدث في هذه الجولة. ففي تلك المناسات، كان من السهل على مزارع أفريكانري عادي، التحدث مع الملك والملكة وإجراء محادثات حول مواضيع تهم البلاد. بما جعل الصورة التي يرسمها الوطنيون للعائلة الملكية كاذبة، فقد كانوا يفتقرون في المناطق الريفية في جنوب أفريقيا إلى جميع الفوائد والمزايا. ثالثها: أن صراخ الحشود الكبيرة من أعضاء حركة الأوسيوا براندوج، لم يؤثر على نجاحات جولة الأورنج. فحينما سمع الملك والملكة ذلك الصراخ في محطة مرسليا Marseilles في الأورنج الحرة، صعدوا إلى القطار مرة أخرى، وانتهى الموقف [١٠٢].

وفي المقابل، فإن المناطق التي يقطنها الناطقون بالإنجليزية كانوا سعداء للغاية بالزيارة، وبوجود الملك بينهم. ولعل الاحتفال الذي أقيم لميلاد الأميرة اليزابيث، والحفاوة بها في مدينة إيست لندن، وحضور الجنود وعمال الحرب في هذا اليوم، وتسليمها الهدايا القيمة [١٠٣]، يقطع بأن تركيزنا على المواقف المعارضة للزيارة في بعض المناطق هدفه التعرف على الجهد الذي بذلته العائلة المالكة لتغيير الموقف. وعلى هذا، فإن كل مناطق الناطقين بالإنجليزية كان قاطنوها مسرورين بالزيارة وسعيدين بها.

ولعل عدم بخل الملك بوقته لاثنين من الاحتفالات، يبين لنا الجهد المبذول من الرجل لاستثمار الزيارة. ففى الاجتماع الذي عقد في بريتوريا مع الاودستريدرز "oudstryders"، وهم المحاربون في حرب البوير، قابل أكبر عدد من شخصيات العهد القديم من كبار السن من الرجال، حيث كانوا سعداء لاستقبالهم. أما الاجتماع الآخر، فكان اجتماعًا غير رسمي مع أعضاء مجلس النواب، حضره الكثير من الوطنيين الأفريكانرز. حيث قدموا للملكة نماذج من قيادات الجوكسكايز♥ jukskeis في النادي البرلماني في فيرنوود Fernwood. وربما كان حديث الدكتور مالان بمفرده مع الملك لمدة نصف ساعة تقريبًا قبل الغداء، والذي أعد له في كيب تاون في آخر يوم للزيارة، أهم من كل ما حدث من اجتماعات. فالملك يجتمع مع زعيم المعارضة التي كانت رافضة للزيارة ومقاطعة لها، ومن ثم، كان لابد أن يثير هذا الاجتماع خلافًا حادًّا داخل الحزب الوطني. غير أن عدم تعليق الوثيقة عليها، واعتبارها كما هو حال المشاجرات الداخلية والتواترات التي حدثت في الحزب طيلة السنوات الأخيرة وتعودوا عليها، والدعاية الواسعة التي أبرزتها الصحف الصادرة باللغة الإنجليزية لهذا الاجتماع، كل ذلك كان له تأثيره في غضب الدكتور مالان، ومن ثم، عمل على التقليل من أهميتها [١٠٤]. وهو ما يجعلنا نستنتج أمرين: الأول: أن الزيارة الملكية لا يهمها إلا مصلحتها، فإذا كانت قد بدأت داعمة لسمتس فى البداية، إلا إنها لم تغلق بابها فى وجه زعيم المعارضة. وهو ما جعلها لم تخسر حينما فاز هذا الزعيم فيما بعد في انتخابات ١٩٤٨. الثانية: أن كل من الملك والمعارضين لزيارته قد أوصل رسالته للطرف الآخر، وهو ما جعل نقطة التلاقي تتفتح أكثر فأكثر بعد خمسة أيام من الزيارة، وتستمر حتى لقطة النهاية.

المحور السادس: زيارة الملك جورج السادس إلى المحميات البريطانية وأبعاده السياسية:

تحدثنا من قبل عن زيارة العائلة المالكة إلى اتحاد جنوب أفريقيا ومدنه المختلفة، وتركنا أمر الحديث عن زيارة المحميات لهذا المحور باعتباره يقع خارج دائرة نفوذ الاتحاد، وضمن المستعمرات الأفريقية التى تتمتع بنظام الحماية البريطانية. صحيح أن التقارير الاستعمارية ضمتها في تقارير الزيارة لجنوب أفريقيا، لكنها فصلتها في تقارير منفصلة عن تلك المخصصة للاتحاد.

وربما جاء هذا الفصل من الناحية الإدارية فقط، لكن كان انطلاق الرحلة باتجاه تلك الأماكن يبدأ من الاتحاد وإليه. وهذا الفصل الإدارى نراه واضحًا في رسالة إيفلين بارينج إلى الفيكونت أديسون في١٦ مايو ١٩٤٧، حيث يخبرة بأن زيارات الأسرة المالكة إلى محميات باسوتولاند وبتشوانالاند Bechuanaland وسوازيلاند، ستكون في تقارير منفصلة (١٠٥). وفي هذا الإطار سنتحدث على كل زيارة على حدة:

الزيارة الأولى إلى الروديسيتين(روديسيا الشمالية والجنوبية): حيث سافرت العائلة المالكة عبر القطار الملكي من جنوب أفريقيا إلى سالزبوري إلى بولاوايو(انظر ملاحق الدراسة). وفي ١٠ أبريل مرت بعدد كبير من المدن حتى وصلت في اليوم التالي إلى شلالات فيكتوريا، ثم نزلت بفندق شلالات فيكتوريا، وقامت بعدة زيارات إلى الشلالات خلال الأيام التالية. ثم قامت بجولة وفقًا للبرنامج المعد سلفًا، وقابلهم الأهالى بالترحيب الشديد وإطلاق النار ابتهاجًا بالمناسبة ، وقابلهم مدير المحطة، تشارلي وايز، وقدم لهم الاحترام والتحية الملكية، واستقبلتهم الحشود بسعادة غامرة. بل كانت الحشود موجودة في كل مكان، تقابلهم بإظهار الإخلاص والحماس، بما ترك انطباعًا جيدًا في نفوس العائلة المالكة. لدرجة أن صحيفة ليفينجستون اعتبرت يوم ١١ أبريل ١٩٤٧، " أهم يوم في تاريخ المدينة"، وأنه لأول مرة يحل فيه الملك جورج السادس على تراب محمية روديسيا الشمالية في ليفينجستون. فنزلوا نهر مارامبا، وزاروا جزيرتين صغيرتين في نهر الزمبيزي، حينها أعرب الملك جورج السادس عن رغبته في تسمية بعض الجزر في نهر الزمبيزي باسم عائلته. فتم تغيير جزيرة لونج لتكون تحت مسمى جزيرة الملك جورج السادس، وأصبحت جزيرة سيشاكولا Siachikola باسم جزيرة الملكة اليزابيث الأم، وخصصت جزيرتان لتكونان باسم الأميرة إليزابيث والأميرة مارجريت، وتم تسمية بقية الجزر باسم الأميرة هيلينا فيكتوريا والأميرة ماري لويز. وتم تسمية طريق موزي– تونيا إلى الطريق الملكي (١٠٦).

وتحت عنوان " الزيارة الملكية إلى روديسيا الجنوبية"، أرسل السير كينيديKennedy إلى الفيكونت أديسون في مايو ١٩٤٧ يخبرة بأن الجولة لقيت من وجهة نظر الحكومة وشعب

المستعمرة نجاحًا كبيرًا. حيث قوبلت العائلة المالكة في كل مكان بحماسة بالغة ومودة. وكان الملك وعائلته قد أعطوا أغلب وقتهم لحضور اجتماعات عدة، فقد حملوا برنامجًا مرهقًا للغاية في اللقاءات العامة، ولم يخصصوا إلا وقتًا قليلًا للترفيه والنقاهة من آثار الرحلة الطويلة داخل الاتحاد. وخصصت الأسرة الحاكمة معظم وقتها لإتاحة الفرصة أمام الأعداد الكبيرة من سكان الروديسيين لرؤيتهم ومقابلتهم. وبطبيعة الحال، كانت هناك خيبة أمل كبيرة لسكان المناطق النائية؛ لأن الوقت لم بسمح بزيارتهم، خاصة وأن كثيرًا منهم سافروا مئات الأميال إلى المدن الكبيرة لرؤية الملك والملكة والأميرات. لكن كان يحدوهم الأمل في قيام الأسرة المالكة بزيارة بلادهم مرة ثانية، وبالتالى زيارة بقية البلاد (١٠٧).

وتشير الرسالة بعدة أمور نلخصها في تسعة: الأول: أن ولاء سكان مستعمرة روديسيا الجنوبية للعائلة المالكة والعرش البريطانى والإمبراطورية لا يدانيه أى ولاء اَخر، وأن الزيارة قد عززت هذا الشعور وقوته. فقد طغى على المستعمرة انطباع قوي بأن الملك وعائلته يعيشون بينهم. وليس هناك أدنى شك بشعور الناس بالمودة للملك وأسرته. حيث استغلت الأسرة الزيارة كمناسبة حقيقية لسعادة جميع سكان المستعمرة. الثاني: أن قصاصات الصحف التي أرفقتها الرسالة تعكس حماسة الشعب ونجاح الزيارة. الثالث: تقدير خاص لموافقة جلالة الملك على افتتاح البرلمان. باعتبارها أول مناسبة يحمل فيها الملك لقب افتتاح برلمان خارج الدومينيون، فضلًا عن سفره لمسافة أكثر من ٦٠٠ ميلٍ في صباح اليوم نفسه لحضور هذا الحفل. الرابع: أقيمت عدة حفلات في مايروز Mayors وسالزبوري Salisbury وبولاوايو Bulawayo تكريمًا لأصحاب الجلالة، حضرها الآلاف من المواطنين والمقيمين في مدن ومناطق البلاد النائية. وتوقف القطار الملكي في المدن الصغيرة فى ميدلاندز Midlands ، وفي العديد من محطات السكة الحديد، حيث قابل سكان تلك المناطق الزائرين بشكل جيد، وأعطت الزيارة شعورًا بالارتياح للشعب. وكان هناك تقدير كبير بقيام أصحاب الجلالة بإعطاء التعليمات بتوقيف القطار لعدة ساعات، رغم صعوبة ذلك في بعض الأماكن ، وذلك من أجل ألا تفوت الفرصة على سكان

المناطق النائية بلقاء العائلة المالكة. الخامس: حضرت مسيرات من الجنود السابقين إلى سالزبوري وبولاوايو، وكانت تبدو عليها الفرحة والرضا، وقضوا الكثير من الوقت وسط هذه المسيرات (١٠٨).

السادس، كرمت الاسرة الحاكمة بتاريخ ٩ أبريل نحو ٢٦٠ شخصية بالأوسمة المدنية والعسكرية في ساحة مقر حكومة سالزبوري، وحضره حوالي ٦٠٠ من الأقارب والأصدقاء♥. وكان التأثير الملكي مفيدًا بين المواطنين، وتركت انطباعًا عميقًا لدى عدد كبير من الزعماء والحاضرين. السابع: كان الملك قادرًا على إجراء مناقشات مع جميع الوزراء، حيث كانوا معجبين بعلمه واهتمامه الواسع والعميق بشؤون المستعمرة ومشاكلها. وكانت هذه المحادثات تلقى تقديرًا كبيرًا. الثامن: تميز عيد ميلاد صاحبة السمو الملكي الأميرة إليزابيث تميزًا كبيرًا♥. وقد ظهر صندوق تمويل عيد ميلاد عبر تبادل الزيارات بين الشباب من بريطانيا العظمى وروديسيا الجنوبية. بل وصل حجم الأموال المجموعة للاحتفال بتلك المناسبة إلى أكثر من ١٠.٢٠٠ جنية إسترليني . التاسع: حضور محافظ مانيكاManica وسوفالا Sofala وزوجته لأصحاب الجلالة أثناء إقامتهم في سالزبوري، فتمكنوا من حضور عدة مناسبات هناك. وكانت طريقة الاستقبال والترحيب قد جعلته يعرب عن تقديره الكبير للطريقة التي تم بها هذا الاستقبال (١٠٩).

الزيارة الثانية إلى سوازيلاند: فتحت عنوان " الزيارة الملكية إلى سوازيلاند"، أرسل السير بارينج إلى الفيكونت أديسون في ٢٣ يونيو ١٩٤٧ يبلغه بأن العائلة المالكة قد زارت سوازيلاند في ٢٥ مارس ١٩٤٧. لكنه يعطينا تفصيلات مهمة عن المنطقة وما حدث خلال الزيارة، ونختزل ذلك في اثني عشر ملمحًا: الملمح الأول: مَيِّز بشكل واضح بين أراضيها الشمالية والجنوبية♥. الملمح الثاني: قضاء الأسرة الملكية في جودجيجون Goedgegun يومًا كاملًا♥. الملمح الثالث: فرضت الأعمال التحضيرية للزيارة ضغطًا شديدًا على الإدارة، فكان من الضروري إحضار كل شيء من خيام وأثاث، ومواد بناء. وعبر الأهالي من مباباني، ومن خلال طرق الجبال المختلفة، لجودجيجون. **الملمح الرابع:** رحب السكان المحليون بأصحاب الجلالة وتعاملوا مع مدركات الناس وطريقة تفكيرهم♥. الملمح الخامس: عندما وصلت السيارات الملكية إلى جودجيجون، كان في

انتظارهم السيد بيتهام وزوجته، والسيد أرمسترونج وزوجته، والزعيم سبوهوزا وزوجته الإندلوفوكازي، وبعض أعضاء مجلس الزعيم؛ ليمثلوا في مجلس أصحاب الجلالة وأصحاب السمو الملكي♥.

الملمح السادس: بعد الدردشة لعدة دقائق مع السبهورزا وغيره من الأشخاص الحاضرين، عاد أصحاب الجلالة لسياراتهم، وترك موكبهم ساحة العرض. لكن كان من المستحيل الوصول عبر الحشود الكبيرة إلى ماسيرو بيتسو Maseru Pitso ، ومن ثم فرضت إجراءات ندابا Ndaba الفرصة لأصحاب الجلالة لرؤية مشهد ربما لن يروه مرة أخرى في جنوب أفريقيا(١١٠).

الملمح السابع: كان هناك تركيز خاص على رقصة سوازيلاند، والمعروفة باسم "سرلا يمكن تفسيره." فذكر مرسل الرسالة بأنه " على الرغم من أن سوازي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالزولو، إلا إن رقصة سوازيلاند هى أكثر شعيرة دينية بالنسبة لهم، ولا تتعلق بالاستعدادات للحرب كرقصة الزولو. ولذلك، فهى أكثر هدوءًا، رغم أن طريقتها الخاصة لا تقل إثارة للإعجاب، ويتم أداؤها في المناسبات الوطنية الكبرى فقط"♥.الملمح الثامن: بسبب المسافة التي تفصل بين مباباني وجودجيجون، وبسبب التركيبة العنصرية للسكان، كانت الزيارة إلى سوازيلاند ربما هي الأكثر صعوبة في التنظيم عن الزيارات الثلاثة التي قامت بها الأسرة المالكة إلى المحميات البريطانية. فالكل كانت لديه مخاوف لا أساس لها. لكن كان أهم هدف للزيارة هو مساعدة إدارة سوازيلاند في اكتساب ثقة الأهالي. حيث كانت للمنطقة قيمة مهمة، تتمثل في شكوك سكان الناطقين بالأفريكانية في جنوب السوازى في الإدارة البريطانية، ويشعرون بأن مصالحهم مهملة. الملمح التاسع: أن بقاء السير بارنج في سوازيلاند عدة أيام بعد رحيل الأسرة الملكية، جعله يسمع كل أشكال التعبير من الجانبين♥. الملمح العاشر: كان فقد أهالى سوازيلاند للكثير من أراضيها لصالح الأوروبيين قد جعلهم أكثر الأفريقيين في المحميات الأخرى الذين يرتابون في الرجل الأبيض، ويشعرون بأن منطقتهم هي سندريلا الأقاليم الثلاثة. الملمح الحادى عشر: أن تأثير الزيارة كان ممتازًا، فقد شعر الأهالي بالفخر عندما لمست أقدام الملك أرض السوازي، ورأوا الأسرة المالكة تتحدث مع السوبهوزا، ويمشون معه على طول خط المحاربين المسلحين بالكامل. الملمح الثانى

عشر: أن السير بارنج يشعر بالحرج من المقارنات التي رسمها الأفارقة أنفسهم في نجاح زيارة ندابا وسوزايلاند مقابل فشل زيارة ايشوى في زولولاند. حيث نراه يستشهد بالدكتور موروكا، وهو طبيب مدرب في مجال الطب، وعضو في مجلس اتحاد السكان الأصليين "، حيث كتب مقالًا في جريدة رفاهية البانتو Bantu Welfare قارن فيه الحرية التي تمتعت بها الأسرة الملكية عند اختلاطها بالأفريقين في المحميات، والأفريقيين في بقية مناطق الاتحاد. فوفقًا للكاتب، أبُقى الأفارقة بعيدًا عن كل شيء، وتم التأكيد على فكرة تفوق البيض. فقد حدث اجتماع في بيترسبيرج بين سكان شمال الترانسفال الأفريقيين للحديث حول هذا الأمر، وتحدث الدكتور موروكا حول تلك النقطة تحديدًا. ولعل قول بارنج " لما لم يكن الدكتور موروكا متطرفًا، ولا جريدة رفاهية البانتو متهمة بالشيوعية، لذا، فإن حديثها حول معاملة الأفريقيين عبر الزيارة لقى تأثيرًا"، يصب في عملية التفرقة والتمييز التي مارستها السلطات العنصرية داخل الاتحاد ضد الأفريقيين، في حين تركتهم الإدارة البريطانية في المحميات أكثر حرية. وأرجع السير بارنج هذا للعناصر التي تتحكم في صحافة البانتو، وقال " بأن المال الذي يأتيها كان عبارة عن مساهمة من قبل مجموعة أرجوس الصحفية بشكل رئيس. وبالتالي، كان لا يمكن أن تمر الفرصة دون أن يسجل الدكتور موروكا رغبته في إحراز نصر على حساب السلطات الاتحادية. وقال بأن ذات الأفكار قد أعرب عنها عدد كبير من أفارقة جنوب أفريقيا" (١١١).

الزيارة الثالثة إلى باسوتولاند: فتحت عنوان " الزيارة الملكية إلى باسوتولاند Basutoland " يرسل السير بارنج إلى الفيكونت أديسون، في ٢٣ يونيو ١٩٤٧، ليحيطه علما بوصول الملك والملكة وصاحبتي السمو الملكي الأميرة إليزابيث والأميرة مارجريت إلى باسوتولاند فى ١١ مارس ١٩٤٧. وأنهم غادروا القطار الملكي في صباح ذلك اليوم، وبعد زيارة لمدينة ليدى براند Ladybrand في دولة أورانج الحرة، وصلوا ماسيرو Maseru في نفس اليوم. ثم يقص عليه تفاصيل ما حدث قبل الزيارة من استعدادت، فيقول بأنه ولعدة أيام في الباسوتو Basuto كان هناك قادمون من جميع أنحاء البلاد، جاء بعضهم عبر طريق التلال، وجاء بعضهم راكبًا للخيل

مع زعيمه وخدمه، وهم يهتفون أثناء دخولهم ماسيرو ويغنون للزعيم. ثم يتطرق بنا لسبعة مشاهد رئيسة: المشهد الأول: حظيت الأميرة إليزابيث والأميرة مارجريت على إعجاب بعض الأحزاب عندما جائتا لميدان سباق الخيل في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. المشهد الثانى: كانت ماسيرو محاطة في الليلة السابقة بمعسكر مشتعل بالنار♥. وكانت الترتيبات الموضوعة من قبل إدارة المعسكرات، للغذاء وللرعي، ممتازة ولا توجد مشكلة. المشهد الثالث: كانت هناك علامات لافتة على تغيير العادات. ففي الماضي في بيتسو Pitso، كانت الحكومة تزود المحتفلين بالثيران فقط، ويعهد بإعداد الوجبات للزعامات التي ترتب إطعام الناس. ونتيجة رغبة الإدارة في تحمل التكلفة والمشاكل، تركت للجميع ترتيب تلك التغذية ليتحملها الزعماء المحليون، وهو ما ترك الكثير من الأتباع جياعًا. وفي هذا الإطار كان الجنود السابقون يطلبون الطعام بصوت عال، ويطالبون الإدارة بالمجيء لهم بأواني الطبخ. وخلال اليومين ظهر الباسوتو، على غير العادة، حسنو المحيا والسعادة. وتفسير ذلك بأنه ربما تكون بطونهم قد غذيت جيدًا. المشهد الرابع: في صباح اليوم التالي، أقام البيتسو العظيم على بعد مسافة قصيرة خارج ماسيرو، حيث كانت الأرض مدرجة بشكل طبيعي. وفي نقطة مركزية، عمل تلاميذ الباسوتو، من مدرسة ليروتولى الفنية تحت قيادة السيد أرشيبالد، على تشييد مبنى من الحجر والخشب يغطيها سقف من القش، يقع أمامه درابزين من حديد. وجلست الأسرة المالكة على منصة حجرية في الجزء الأمامي من هذا المبنى، وكانت الشخصيات الرسمية تجلس بزيها الأبيض على المقاعد الخلفية، ومباشرة قبالة الزعيم الأعلى♥. المشهد الخامس: عند وصول العائلة المالكة مع مرافقيهم لأرض البيتسو غنوا أغنية السلام– المطر. وجلس الملك والملكة على المنصة وبدأت كلمات الترحيب، وأعقب هذا خطبة من الزعيمة العليا قرأها أحد مستشاريها(انظر ملاحق الدراسة). تلك الخطبة التي أجاب عليها الملك. وبعد دقائق قليلة استمع الحشد الهائل لكل الخطب في صمت تام. المشهد السادس، عبرت زعيمتهم بشكل قوي بأن الباسوتو يعترضون بشدة على الكلام المنتشر حول نقل بلادهم لاتحاد جنوب أفريقيا. وبعد الانتهاء من خطب الترحيب كان أفضل تعليق في الاتحاد هو لهجة الصدق

الواضحة والعبارات الخلابة المستخدمة من المنتسيبو سيسو.Mantsebo Seeiso . المشهد السابع: في الخامسة صباحًا، ذهبت الأسرة الحاكمة للقطار الأبيض الذي وصل لمحطة ماسيرو قبل لحظات من تحركهم. وهناك ودعوا كبار المسؤولين، ثم تقدموا إلى الزعيمة العليا وعشرين من المشايخ الواقفين بالزي الوطني، وتحدث الملك والملكة معها ومع المشايخ لبعض الوقت، الذين حيوهم عند رحيلهم بصرخات المطر(١١٢).

وراحت الرسالة السابقة تتحدث عن مميزات الزيارة على الأمن الاستعماري، وتجملها في ستة مزايا: أولها، عبر الباسوتو، في مظهر لا تخطئه عين، عن ولائهم القوي للأسرة المالكة. واتضح بأن مناطق الباسوتو لم تتأثر بالدعاية الشيوعية المنتشرة في الاتحاد في السنوات الأخيرة. ثانيها: أثبتوا عبر أزيائهم والتعبير عن هويتهم شعورهم بأنهم ضد نقل الباسوتولاند إلى الاتحاد؛ لأنهم يعتقدون_ ولكن بشكل غير صحيح حسب مرسل الوثيقة_ أن افتراض سيطرة الاتحاد على باسوتولاند من شأنه أن ينطوي على تخفيف الصلة بالعرش البريطاني. ثالثها: أن أعداد الشرطة المؤمنة للزيارى لا تتجاوز ٢٢ من رجال الشرطة، وهو أمر مختلف تمامًا عما حدث في ترانسكاي وزولولاند. رابعها: أن الترتيبات التي وضعتها الإدارة طوال فترة الزيارة للتعامل مع الحشود الكبيرة في الباسوتو كانت تلقى الإعجاب، سواء للموظفين الإداريين، وضباط الشرطة، وإدارة الأشغال العامة والموظفين وطلاب مدرسة ليروتولى الفنية. ولهذا، قدم صاحب الجلالة شارة الـ C.V.O. للمفوض المقيم، فورسيث تومسون، وشارة الـ M.V.O. للعقيد ف ب ثورب. خامسها:أن الصحافة الاتحادية قدمت دعاية ممتازة للزيارة. فلعدة أيام ظلت تنشر صور الباسوتو والبيتسو في الصحف الناطقة باللغة الإنجليزية[٧]. سادسها، ظهرت الآراء الحرة التى يتمتع بها الباسوتو من خلال البيتسو. حيث لقيت الزعيمة استقبالًا باردًا جدًّا، لكن عندما ظهر شقيق زوجها، بيرنج جريفث Bereng Griffith ، حيته الجماهير بحرارة وحماس صاخب، خاصة عندما تقدم للأمام بلباسه الوطني للحصول على ميدالية من الملك. ونفس الأمر تكرر مع تيكو موكولا Theko Makhaola، حيث كانت له شعبية بين المحاربين، الذين قاتلوا في إيطاليا بين

الجبال، وكزعيم لأكبر جناح، هو الماليوتس Malutis. حيث عبرت الصحف بأن هذين الزعيمين كانا يتآمران ضد ريجنتRegent ، وضد تفضيلاتها المختلفة (١١٣).

وإذا كانت الأسرة المالكة تهدف من زيارتها إلى تحقيق الأمن الاستعماري، فإن إعراب الباسوتو عن رغبتهم فى البقاء كمحمية ورفضهم للانضمام لاتحاد جنوب أفريقيا كان يصب في هذا الاتجاه. فإذا ما نظرنا إلى خطاب الزعيمة العليا للباسوتو المينستو سيسو Mantsebo Seeiso، ريجنت، زعيمة باسوتولاند العليا، نجد أنها تحدثت بالنيابة عن نفسها وعن زعماء أمة الباسوتو، لتدخل مباشرة في هذا الموضوع. فبعد أن عبرت عن الترحيب والود للملك والملكة والأميرة إليزابيث والأميرة مارجريت، قالت بأن هذا الترحيب بمناسبة أول زيارة لباسوتولاند منذ دخولها تحت الحماية البريطانية فى عهد الملكة فيكتوريا، واستمرار الأمر في عهد خلفائها.ثم ذكرت بأنها ومشايخ الباسوتو وأهلها، تجمعوا في أعداد كبيرة ليعبروا عن الفخر بزيارة الأسرة الملكة؛ لأنهم يشعرون برعايتها، مؤكدة على أن ذكريات الزيارة الملكية لن يتم نسيانها أبدًا في هذا الإقليم. لكن خطابها حسم جوانب مهمة للغاية، نختزلها في أربعة: أولها: أكدت على أن أسلافها منذ جدها الأكبر موشيش Moshesh، قد طلبوا بمحض إرادتهم الحماية البريطانية، وأن باسوتولاند بقيت حتى بعد وفاته، وفية لتراثه، وأن أحفاده قد حافظوا على هذا التراث وحقوق الباسوتو فى ظل حماية الملك والحكومة التابعة له. ثانيها: أعلمت الملك بأن رعاية الله هي التي جعلت الباسوتو يدخلون تحت حماية الحكومة الإنجليزية، وأنهم يفخرون دومًا بأن يكونوا منطقة متميزة في ظل قيادة الملك، وفى ظل قاعدة الحماية، وأنهم لا يتمنون أن ينفصلوا بأي شكل عن حكومة الملك العادلة. ثالثها: أن الزيارة الملكية قد أتاحت للزعيمة الفرصة لإعادة التأكيد، بالنيابة عن نفسها وعن مشايخ الباسوتو وشعبها، على الولاء للملك وللعرش البريطاني، منذ تعهد أجدادهم بذلك. رابعها: عبرت للملك وأسرته بأن الكلمات تعجز بشكل كاف عن التعبير عن فرح قلوبهم وسعادتها بهم. وأكدت بأنهم على الرغم من أنهم أمة صغيرة بين شعوب إمبراطوريته، وأراضيهم ليست سوى منطقة صغيرة مقارنة بالدول الكبرى البعيدة والواسعة التي تقع تحت حكم بريطانيا،

لكنهم يسلمون بالولاء والمودة لملك وللعرش لا لشيء. خامسها: عبرت الزعيمة بأنهم أكثر سعادة بأن الملك وعائلته حلوا عليهم بالزيارة في هذا اليوم، ١٢ مارس، باعتباره اليوم الذي طلب جدها الأكبر الحماية من قبل الملكة فيكتوريا وحكومتها، واعتبروا تاريخ الطلب بمثابة عطلة رسمية لهذه المنطقة. سادسها: أنها تتمنى كل النجاح للإمبراطورية خلال عهد الملك، وأنها تقدر كل ما يبذله عبر الإمبراطورية، ثم تطالبه بأن يتذكر دائمًا ولاء بلادها لأسرته، وأن علاقتهم ببريطانيا من الموضوعات المنتهية في موضوع الولاء، ومن النوع الذي لا يمكن الخروج منه. وتطالبه في نهاية الخطبة بسلامة العودة إلى بلادة وأن يقضى وقتًا لطيفًا هو وأسرته [١١٤]. وعلى هذا، حققت الزيارة أهدافها في التعرف على الهواجس التي تسود بين سكان تلك المحمية. واطمئنت على استمرار الولاء طالما لم ينضموا إلى اتحاد جنوب أفريقيا، وهو الأمر الذي تحقق لهم حتى استقلالهم عن بريطانيا سنة ١٩٦٨.

الزيارة الرابعة إلى بتشوانلاند: فتحت عنوان" الزيارة الملكية لمحمية بتشوانالاند Bechuanaland "، أرسل السير بارينج للفيكونت أديسون في ٢٠ أغسطس ١٩٤٧؛ ليحيطه علمًا بأن الملك والملكة والأميرة إليزابيث والأميرة مارجريت دخلوا محمية بتشوانالاند من بولاوايو Bulawayo، ونزلوا محطة حدود راماكوبانى Ramaquabane قبل ظهر يوم ١٦ أبريل، وأنهم ترجلوا مشيًا على الأقدام من محطة فرانسيستاون Francistown واستعرضوا بعض الجنود السابقين، والتقوا تجمع للسكان الأوروبيين. وأن الأفريقيين قابلوهم بترحاب شديد، حيث اصطفوا في المحطة لرؤيتهم. وأنهم كانوا خجولين نوعًا ما في البداية، ولكن عندما لوح لهم الملك أجابوه بحماس شديد. ثم توقف القطار في شاشيShashi ، أسفل خط السكة الحديد، لتمكين الزوار من رؤية المنحوتات الخشبية التي يتخصص بها أهل ذلك المكان. ورغم أن الأسرة الملكية كانت مهتمة كثيرًا بهذه التحف الفنية، إلا إنها اشترت عددًا قليلًا من المعروض؛ لأنهم كانوا ينتظرون استقبالًا آخر لهم في بلابى Palapye، ومرة أخرى في مهالابى Mahalapye، حيث كانت الأسرة في حالة جيدة ولا يزال ضوء النهار موجودًا. وعلى الرغم من أن الأمر تم فى ساعة

متأخرة، إلا إنهم تحدثوا إلى الناس من المنصة، سواء الأوروبيون والأفريقيون. وتم إعداد جناح خاص قرب محطة لاباتسى Lobatsi، وتقع على بعد ٥٠ ميلًا شمال مافيكينج Mafeking، لاسبام لاباتسى الملكية. حينها تحرك القطار ووصل بعد بضع دقائق بعد الساعة السابعة صباح يوم ١٧، ليصل إلى وادى التلال، ليقف عند فضاء كبير، يروا من خلاله المساحات المفتوحة من الجانبين باتجاه طريق تجولوا عليه بضعة أمتار. بعد ذلك، حدث اجتماع بين الملك وسكان محمية بتشوانالاند. وكما حدث في استعدادات زيارة باسوتولاند، حدث فى زيارة بتشوانالاند نفس الأمر، حيث تزينت الأرض بالأعلام والرايات، ووصل السكان الأفريقيون قبل الزيارة بيومين أو ثلاثة. حيث تشير التقديرات بأنه عندما ترجلت الأسرة المالكة من القطار في الساعة العاشرة صباح يوم ١٧، كان عدد الأفريقيين حوالى ٢٥.٠٠٠ أفريقيًا و ٢،٠٠٠ أوروبي. وبالنظر لمعاناة البلاد من نقص المياه وأمراض القدم والفم، وهي أمراض تؤثر في انتقال الناس وتحركاتهم، تعد الأرقام مرضية للغاية (١١٥).

وتتطرق الرسالة إلى بعض المسائل المهمة المتعلقة بالأمن الاستعماري، ونختزلها في ثمانية: الأولى: أن المفوض المقيم في بتشوانلاند كان يرتدي الزي العسكري الكامل، وحضر بالقطار الساعة العاشرة صباحًا، في حين حضرت الأسرة المالكة بسياراتهم. وقدمت مجموعة صغيرة من الحراس من شرطة محمية بتشوانالاند، تحت قيادة الكابتن لانجليLangley ، التحية الملكية. وقامت السيارات التي تقل الملك والملكة والأميرات بعمل استدارة كاملة. الثانية: أن الشونا Bechuana كانوا يملكون العديد من الفضائل الأكثر صلابة، لكنهم ليس من عادتهم التحدث إلى رئيس إلا إذا تحدث هو أولًا. فبمقارنة المظاهرات المتحمسة للأسرة الملكية في أماكن أخرى، يبدو موقف الشونا رصينًا إلى حد ما. فلم يكن هناك صراح بكلمة بولاPula المطر، كما حدث في المناطق الأخرى، ومع ذلك، فقد كان الرجال لا يرددون كلمة مطر كتحية احتفالية . الثالثة: قلدت الأسرة المالكة عددًا صغير من المناصب والرتب، سواء العسكرية والمدنية في مكان الاحتفال، حيث منحوا ميداليات للمشايخ التي حصلوا عليها في آخر عامين. بل قدم المفوض

المقيم شهادتين بحضور صاحب الجلالة. الرابعة: تفقد الملك والملكة يرافقه المفوض المقيم، والرائد جيرموند J. D. A. Germond، والقائمقام الذي عمل مع القوة الرائدة التي حاربت في شمال أفريقيا وإيطاليا، مجموعة الـ ٣٠٠ أفريقي من الجنود السابقين، في حين ذهبت الأميرتان لتفقد الحركات الشبابية، التي تتألف من الفتيات المرشدات، والكشافة، ولواءات الأولاد والبنات. ثم حضرت الأسرة الحاكمة وفي وقت لاحق، حفل شاي للمجتمع الأوروبي، أقيم في أحد أركان المنطقة. وقبل تناولهم للشاي، تفقدوا مجموعة من الجنود الأوروبيين السابقين. الخامسة: قدمت الأسرة الملكية دليل محبتها بالتقاط عدد من الصور بين الناس، وقدموا بعض الهدايا لهم، كرابطة عنق أو شارة، والتقطوا صورًا مع الذين شاركوا في خدمة محمية بتشوانلاند في الفوج الخاص بقذف القنابل. بعد ذلك أخذوا مرطبات، ومشوا فى جولة. ونظرًا للسلوك الممتاز للحشد الموجود كانت الأسرة المالكة قادرة على التحدث مع عدد كبير منهم، وفي طريق جولتهم تحدثوا مطولًا مع الزعماء المحليين وزوجاتهم المدعويين في الحفلة. السادسة: كان انتظام الحشد الأفريقي هو الأكثر إثارة وإعجابًا طيلة فترة الصباح. خاصة، وأنه لم تكن هناك حواجز في اجتماع كجوتلا Kgotla تمنع الناس وتحتويهم ، وربما كان وجود عدد قليل من الحجارة البيضاء، قد حال دون التدافع والتصارع، وبالتالي، لم يحدث تعدٍ على طول الطريق، ولم تحدث أي حالات من سوء الأدب أو عدم الإكتراث. بل لم يتم استدعاء أعداد الشرطة القليليين ليمارسوا دورهم إلا نادرًا. وفي هذا الإطار، لم يكن هناك إلا عدد قليل جدًّا من الضحايا في خيمة الإسعافات الأولية، حيث كان رئيسه يقدم العلاج عبر المسكرات الطبية. بل إن الشيء الوحيد المفهوم والمؤثر أن عددًا قليلًا من الفتيات والفتيان الأفريقين يضحكون ويهتفون ويركضون بشكل جماعي بعد عودة الموكب الملكي بسياراتهم إلى الاجتماع. حيث تأثرت الأسرة الحاكمة بمظاهرات الحب التي رأوها. السابعة: أنه بعد رحيل القطار الملكي، مارس الشباب رياضتهم، وأطلقوا الألعاب النارية في المساء، وعقد الأوروبيون حفلات للرقص في حين أعد الأفريقيون عددًا من الثيران للذبح. الثامنة: قدمت الزيارة انطباعًا ممتازًا لكل مجتمعات محمية بتشوانالاند، خصوصًا لدى هؤلاء الذين وقعوا أسرى

الأخلاق الكريمة وسلوك العائلة الملكية السهل والوقور. هذا بالاضافة إلى تعزيزها اتصال سكان بتشوالاند الأفريقيين بالعرش البريطاني (١١٦).

المحور السابع: موقف الصحافة الجنوب افريقية من الزيارة :

تعكس لنا ملكية الصحف في جنوب أفريقيا الهيكل الاقتصادي والسياسي للمجتمع، حيث كان يتم تمويل الصحف الصادرة باللغة الإنجليزية من قبل الشركات الرأسمالية الكبرى" الإنجليزية. حيث تعاونت مع بعضها البعض بشكل وثيق لحماية مصالحها المالية، على ألا تكون هناك منافسة موجودة مع العناصر الأفريكانرية. فى حين كان قلة من صغار الرأسماليين هم الذين يمولون الصحف الأفريكانية، وبالتالي، شاركت قضية اللغة الأفريكانية ومحاصرتها بجزء من تأجيج الأزمة بين الطرفين (١١٧). لكن إذا ما نظرنا إلى ما عرضته رسالة السير إيفلين بارينج في ١٠ مارس ١٩٤٧ للمواقف الرافضة للزيارة، وتسميتها للصحف الناطقة باسمها، سنجد أنها تضعنا بصورة أوضح على طبيعة تلك المواقف. حيث تشير بأن صحيفة دى ترانسفالر Die Transvaler كانت تمثل الجناح الأكثر تطرفًا، في حين مثلت صحيفة دي برجر Die Burger الجناح الأكثر اعتدالًا. وقالت بأن جريدة الأوسيوا براندوج، وجريدة العهد الجديد، وأصحاب القمصان الرمادية، تمثل المجموعات المتطرفة. تلك المجموعات التي تختلف عن الحزب الوطني المتطهر في الأسلوب ووجهات النظر، لكنها حصلت على مزايا برلمانية حكومية، بشرط ألا تعمل على إنشاء الجمهورية أو تعتبرها هدفًا مناسبًا للشعب الأفريكانية في ذلك الوقت. وكان أتباع هيرتزوج هم الداعمون لسمتس ضد الدكتور مالان خلال فترة الحكومة الاتحادية، مع أنهم كانوا ضد كل من الجنرال سمتس والدكتور مالان خلال الأيام الأولى من الحرب العالمية الثانية، عندما كان الحزب الأفريكاني قائمًا ومعارضًا للحزب الوطنى المتطهر، باعتباره أحد المنظمات المتطرفة فى ذلك الوقت. لكنهم تعاونوا مع أعضاء الحزب الوطنى سويًا في بعض الأحيان، دون أن يتخلوا عن الجمهورية كهدف، ويرغبوا في المزيد من سياسة الدكتور مالان المعتدلة، وتعبر صحيفة دي فادرلاند عن آرائهم. وفي هذا الإطار، جاءت مذكرة السير إيفلين

بارنج لتلخص ردود فعل الصحافة على الزيارة الملكية، خصوصًا تلك التي تدعم الوطنيين المعارضين. حيث تظهر المذكرة ثلاثة مواقف تم اعتمادها، وتعكس بشكل جيد الانقسامات السياسية المذكورة: الموقف الأول، تتجاهل صحيفة دى تراسفالر ودى أوسيوا براندوج ودى نيو أوردي؛ إما الزيارة أو الكتابات المسيئة. الموقف الثاني، انتقلت صحيفة دى فادرلاند في كتابتها قبل وصول العائلة المالكة من عدم الحماس للزيارة إلى الثناء بحماس للملكة، وانتقاد الحزب الوطني بشكل متناقض. الموقف الثالث: بدأت جريدة دي برجر بتبنى موقف صحيح لكنه بارد، بإظهار المعنى التقليدي للضيافة الأفريكانرية، وأنه من الطبيعي أن يرحبوا بالأسرة المالكة. لكن الرسالة أكدت فى ختامها بأنه "يجب أن لا نتوقع الحماس للملكية، حيث يستنكرون تطرف الصحافة الإنجليزية، ويستنكرون طموحات الجنرال سمتس في كسب الأصوات من جراء الزيارة". ومن وجهة نظر أتباع الدكتور مالان، كان هذا صوت السياسة التحريرية. لكن أصبحت بعض المقالات في الآونة الأخيرة لاذعة أكثر، وأقل مهارة. لكن قولها " بأنه من الممكن أن يحدث التغيير نتيجة نجاح زيارة كيب تاون بعد أن تجاوز توقعات دى برجر، لكن قد يكون هذا مجرد تمني"[١١٨]، يقطع بأن المسؤلين البريطانيين كان لديهم طموح كبير فى قدرة الزيارة الملكية على تغيير المواقف.

وفي هذا الإطار، فإن ملحق رسالة إيفلين بارينج فى ١٠ مارس ١٩٤٧، يقدم لنا تفاصيلًا مهمة عن تلك المواقف. فيبدأ بنظرة عامة لما نشرته الصحف، فيشير إلى وجود بعض الشكاوى للصحفيين للحصول على تصاريح لهم، وتسهيلات كافية لإعداد التقارير الصحفية. فقالت بأنه لا توجد ندرة في أخبار الجولة الملكية عبر الصحف، وأنه منذ أن تحركت السفينة فانجارد من ساوثمبتونSouthampton في بريطانيا، ظهرت هناك تقارير يومية في الصحف عن أنشطة الأسرة الحاكمة. فظهرت تقارير في أيام ١٧ و١٨ فبراير، حملت صورًا عن وصول العائلة الملكية للاتحاد، شغلت تقريبًا كل الصحف المؤيدة للحكومة، وغطت كل المناسبات التى حضرتها العائلة المالكة. وقد وصفت بشكل كامل وبارز في جميع الصحف المنتشرة في نواحى الاتحاد، ولمدة

اسبوع تقريبًا، في حين أخذت العناوين الرئيسة في صحافة الكيب. حيث عكست الصحف الموالية للحكومة الحماس والترحيب الحادث في استقبال العائلة المالكة، وفى الرسائل والتعليقات المرسلة لتلك الصحف. فظهرت افتتاحيات الترحيب في جميع الصحف الموالية للحكومة في يوم ١٧ فبراير، حيث خصصت عددًا من صفحاتها الرئيسة للزيارة الملكية على مدى الثلاثة أيام التالية. حيث رحبت بالملك بصفته رئيسًا للدولة، وعكست ترحيب الناس بكل أفراد الأسرة الحاكمة. وركزت كثير من الصحف على بقاء العائلة المالكة مع الشعب البريطاني خلال الحرب (١١٩).

وينتقل الملحق لاستعرض موقف بعض الصحف، فيبدأ بصحيفة دي برجر، فيقول بأن تقاريرها طوال فترة الزيارة كانت منصفة، على الرغم من عدم منحها الزيارة لنفس المساحة والمكان التي قدمت لها في الصحف الموالية للحكومة. فقد أشارت كل دى برجر ودى فولكسبلاد Die Volksblad باستنكار إلى المزج بين الأوروبيين وغير الأوروبيين في الحشود التي استقبلت الأسرة الحاكمة في كيب تاون، رغم تعرض الجريدتين لضغوط مالية ومتاعب لتغطية الزيارة والمشاركة في الترتيبات الملكية. وكانت دى برجر حريصة قبل وصول العائلة المالكة بأسبوع على إبراز أزمة الوقود التي تواجهها المملكة المتحدة، فنشرت في صباح يوم ١٥ فبراير على صفحتها الأولى تقريرًا يزعم أن الزيارة كان هدفها الابتعاد لفترة عن الوضع الخطير الحادث في بريطانيا. وقالت في تقريرها عن مكانة الملك، وأنه ذهب في جولته في جنوب أفريقيا، وتخلى عن شعبه في لحظة الأزمة. وحملت دى برجر فى ١٧ فبراير خبرين رئيسيين مهمين تتناول أزمة الوقود في المملكة المتحدة، في حين كانت تقارير الزيارة الملكية أقل، وفي أسفل صفحتها الأولى، وعلى الصفحة الثانية. وفي ٢٠ فبراير نشرت تقرير مراسل الصحيفة في لندن على صفحتها الأولى، بأن هناك القليل من الدعاية للزيارة الملكية في الصحف الإنجليزية؛ وأرجعت ذلك إلى حقيقة أن العائلة المالكة ذهبت للاستمتاع بأشعة الشمس، وزعمت بأن شعبيتها كانت تعاني وتستند فقط على بقائها في القصر خلال سنوات الحرب، لتتحمل قصف القنابل مع شعبها. وعلقت جريدة دى برجر يوم السبت في أحد أعمدتها بتاريخ ٢٢ فبراير ساخرة من نطق الملك

للغة الأفريكانية خلال افتتاحه البرلمان، ولم يكن هناك بيان آخر في الصحافة يشير بأن الوطنيين يودون الخروج عن خط اللامبالاة بطريقة مهذبة (١٢٠).

ولم تذكر جريدة دى ترانسفالر، وهى صحفية حكومية، وصول العائلة المالكة في أعمدتها الإخبارية. وحذرت فى ١٧ فبراير بعدم عمل دعاية كثيرة للزيارة الإمبراطورية، ومنذ ذلك الحين ورد ذكر الزيارة مرتين أو ثلاث مرات. حتى تمثلت سياسة دى تراسفالر بنصيحة أفريكانرز الترانسفال الذين يريدون أن يعرفوا شيئًا بأي نسبة عن الزيارة الملكية، وأنهم ربما يقراءون بدلًا منها صحيفة دى فادرلاند، لسان حال الحزب الأفريكاني، تلك التى قدمت تقارير كاملة ومنصفة. فعبرت الصحيفة فى افتتاحيتها في ١٧ فبراير عن الترحيب بالزيارة، وقالت بأن جنوب أفريقيا فخورة بوضعها المساوئ للمملكة المتحدة، وبأنها تحمل كل تقدير وإحترام للملك، وسيكون من غير اللائق لأحد أن يدعو دعاية سيئة ضد الزيارة، فينبغى للملكيين أو الجمهوريين أن يظهروا حسن الخلق. وفي ٢١ فبراير، وضعت عناوين كبيرة تشير بأن الملكة قد سرقت قلب الجمهور، وبأن هناك حماسًا كبيرًا في الكيب للعائلة المالكة، وأن الملكة كانت مفضلة من الجميع، وأن "ابتسامتها العريضة تملك تأثيرًا نفسيًا كبيرًا على المعجبين بها، فقد كانت حشود الناس ترى ابتسامتها كما لو أنها كانت تضحك مع كل واحد على حدة. وفى المقابل يذكر المراسل السياسي للفادلرلاند بأن غياب الوطنيين الأفريكانرز عن إظهار الترحيب يعكس تجاهلهم لقانون الاتحاد. مشيرًا بأن الملك يبقي هو ملك جنوب أفريقيا حتى يتم إلغاء تلك القوانين. معتبرًا بأن موقف الوطنيين كان أحمقًا من الناحية السياسية إذا كانوا يهدفون إلى الحصول على أصوات الناخبين الناطقين باللغة الإنجليزية، فهم لم يأخذوا مشاعرهم بعين الاعتبار. وخلص إلى أن الزيارة الملكية كان لها تأثير هائل على الناطقين باللغة الإنجليزية في جنوب أفريقيا، وأن الوطنيين لم يفعلوا شيئًا لتحييدهم" (١٢١).

وكانت جريدة كروثورنج Die Kruithoring أقل تحفظًا بين الجرائد الأفريكانرية، حيث ذكرت رحلة السفارى للعائلة المالكة، بحوالى ٢٤ عربة كارتة. وتساءلت في ٢٦ فبراير عن مدى تأثير الزيارة على الانتخابات القادمة، وشعور الوطنيين الأفريكانرز بالقلق. لكنها توصلت إلى

نتيجة مفادها بأن المؤمنين بالقومية الأفريكانرية سيظلون غير متأثرين بالزيارة بتاتًا، ولن تكون للحزب المتحد أية مكاسب من ورائها. ثم تحدثت عن خيبة أمل أنصار الحزب الذين فشلوا في الحصول على وظائف، وأؤلئك الذين لا يزالون يعانون من نقص الغذاء، ومسئولية الحكومة عن هذا الأمر. في حين أعلنت أوسيوا براندوج عن الزيارة الملكية مع مطالبة الجمهور الأفريكانرى بإحياء يوم ماجوبا في ٢٧ فبراير، الذكرى السنوية لهزيمة البريطانيين في عام ١٨٨١. وأدرجت المظالم ضد النظام الملكي "رمز خضوعنا" ، وأن الأمر من الزيارة لا يزيد عن تقرير يرفعه الرجل إلى حكومته في لندن تحت عنوان "فتح إقليم"، وبالتالي، فإن نيران الحرية لا تزال تشتعل في جنوب أفريقيا، مع أن جمهورية جنوب أفريقيا عانت الأسبوع الماضي من أعظم أنواع الإذلال. وفي يوم ١٩، أعلنت بأن عضوًا بارزًا في الاسوابراندوج رفض السماح للأسرة الملكية بنزهة في مزرعته. وفي اليوم التالي، ذكرت الكيب أرجوس ودى برجر بأن "الجنرال" مارش، زعيم الأسيوا براندوج في بارل، وبأنه لم يتعاطف مع بساطة الأسرة الحاكمة، مع إعلانه بأنه يود بقائهم هناك. وهذا التقرير تسبب في إحداث بعض الحرج للجنرال سمتس" الذي سارع إلى التوضيح بأن هذه التصريحات كانت من وجهة نظره الخاصة التي قيلت في محادثة خاصة، مشيرًا إلى أن طلب الجريدة أن تنشر شرحه للمسألة. أما رد فعل داي كردستاني نيو أوردي على الزيارة الملكية، فهو غير معروف، ولم يكن هناك تعليق من صحيفة الحزب (١٢٢).

ويقدم لنا مرفق رسالة السير إيفلين بارينج إلى الفيكونت أديسون في١٦ مايو ١٩٤٧، عن ردود فعل الصحافة على الزيارة الملكية، تفاصيلًا غاية في الأهمية عن مواقف تلك الصحف وقراءتها للزيارة. ففيما يتعلق بالصحف الموالية للحكومة، قال بأن هناك القليل الذي يمكن أن يقال عن موقفها. فيشير بأنه كان هناك اهتمام كبير بالزيارة الملكية لم ينقطع أبدًا طوال الرحلة، بل رحبت الأسرة الملكية بدور الصحف، وانتقالها مع الرحلة في كل الأقاليم التي زارتها. فقد كانت هناك تقارير طويلة وصور عن الجولة، نشرت في الصحف في جميع أنحاء الاتحاد خلال فترة الزيارة، ملأ بعضها صفحات بكاملها، وفي الصحف الرئيسة لكل إقليم. بل كانت الزيارة من الموضوعات الافتتاحية الرئيسة للصحف، يليها تعليقات المحررين وتحليلاتهم. فعلى سبيل المثال،

كان خطاب الملك في بريتوريا والولائم الملكية، والتى أقلقت الشعب البريطاني، تلقى اهتمامًا واسعًا. ونفس الشيء حدث مع عيد ميلاد الأميرة إليزابيث، حيث لقى نفس الاهتمام. وكذا رحيل الأسرة الحاكمة، فقد كانت كل الصحف متحمسة لنشر كل التفاصيل، حيث دفعت خصيصًا لهذا الأمر، وشددت على قيمة الجولة من وجهة نظر علاقات الكومنولث. لكن السخط كان واضحًا عبر صحف الراند فقط، فقد احتجت على تخصيص يومين فقط لزيارة جوهانسبرغ ومدن الريفReef towns. وبعد رحيل السفينة الحربية فانجارد، اقترحت صحيفة الديلي ميل راند Rand Daily Mail تقديم جائزة خاصة للمسئولين عن وضع برنامج منطقة راند، والهدية عبارة عن باقة من ورق التوت يتم شراؤها بمناسبة ذكرى ما فعلوه مع الأسرة في الراند". وفيما يتعلق بالصحافة الوطنية الأفريكانرية، فقد نشرت الدى برجر والدى فولكسبلاد Die Volksblad، تقاريرًا عن الجولة بشكل يومي تقريبًا. وبالنسبة للجزء الأكبر منها، فقد كانت دقيقة ومضبوطة، وكتبت ببنط مثير للاهتمام. وبطبيعة الحال، فإن عرض هذه التقارير يوضح تأثرها بالسياسة التحريرية للصحف. ولم ينعكس شيء مما قيل على الأسرة الملكية، لكنها انتقدت العقبات الطفيفة في برنامج الزيارة، والتبذير الذى حدث، كهدايا الماس التى انتقدت خصيصًا. وتم الإبلاغ بأن حشود الأورنج الحرة كان ينقصها الحماس، فذكرت كلا الجريدتين بأن الاستقبال الذي جرى في بلومفونتين كان باردًا. وزعمتا بأن العائلة المالكة قد استمتعت بعادات الترفيه الأفريكانية أكثر من أي شيء. بل أعطت مكانة بارزة لتعليقات الصحف المحلية والخارجية على الزيارة، مما يوحي بأن الجولة سوف "تعزز أواصر العلاقة مع الإمبراطورية". وهو جانب مهم من جوانب هذه الجولة، ركز عليه الوطنيون الأفريكانرز بشكل جيد، وأنه لا يمكن اعتبار الزيارة إجازة ملكية يقضونها في الاتحاد. لكن لم توجد تعليقات افتتاحية حينما كانت العائلة المالكة موجودة في الكيب. وحينما وصلوا إلى الأورنج الحرة، أعادت جريدة الفولكسبلاد نشر موقف زعيم الوطنيين الأفريكانرى تجاه الزيارة. حيث تجاهلوا تهنأة مجلس مدينة بلومفونتين وإدارة الإقليم، باعتبار استقبال العائلة المالكة موضة إنسانية في جنوب أفريقيا (١٢٣).

وتستمر الوثيقة السابقة في توضيحها لموقف الصحافة من الزيارة، فتشير لانتقاد جريدة دي برجر في ٢٥ مارس لمستشاري الملك، لسماحهم له بأن يلعب التنس في ديربان يوم الأحد السابق؛ لافتا إلى أن رياضة الأحد كانت مثيرة للجدل في الاتحاد. ففي ٢٨ أبريل، ردت جريدة الفولكسبلاد شكر الدكتور مالان للافريكانرز على سلوكهم المهذب، مضيفًا " بأنهم اضطروا إلى الخضوع لاختبار قاس، منذ أن تم الاعلان في البداية بأن الجولة عبارة عن عطلة للملك، لكن تم استخدمها فى أغراض دعائية". وحافظت دى ترانسفالر على سياستها المضحكة، حسب الوثيقة، في تجاهل الزيارة، على الرغم من ذكرها الأسرة المالكة مرة واحدة أو مرتين في المواد المنشورة، مع مسائل أخرى نشرتها كتقارير من المراسلين. وفي نهاية مارس، وقبل زيارة العائلة المالكة إلى جوهانسبرج، نشرت لوائح حركة المرور في المدينة، مع شرح بأن "هذه القيود تتصل بالزيارة التي قام بها الملك البريطاني"، مما شكل إزعاجًا لقراء الجريدة وشغلهم بالتفاصيل. ثم نشرت الصحيفة في صدر صفحتها الأولى بأن " الدكتور مالان يقابل من جمهوره باعتباره ملكًا". أما جريدة العهد الجديد، وهي جريدة أسبوعية خاصة بالحزب الوطني تكتب باللغة الإنجليزية لجذب القراء الناطقين بها، فأظهرت للناخبين الحماس الذي بدا خلال الزيارة الملكية. وشرحت لقرائها ظهور عدد قليل من البرلمانيين فى مشهد ترحيب البرلمان بالملك، وهو ما يجافى الحقيقة. وانتقدت فشل الدكتور مالان في أن يكون حاضرًا مشهد الافتتاح الرسمي للبرلمان، وحفلة الكيب في الهول سيتى، وعدم مشاركته لموكب أعضاء البرلمان لمقر الحكومة. وعلى الجانب الآخر كتب إريك لوو Eric Louw، مسؤول الحزب الوطنى في جريدة كروتورنج Die Kruithoring مقالًا مطولًا ليثبت بأن الزيارة تم تخطيطها من جانب الحزب المتحد لدعم الدعاية له. وقال بأنها جاءت لمساعدة الجنرال في مهمته قبل الانتخابات، والتهدأة لموضوع الضرائب، والدعاية للحزب في طول البلاد وعرضها. وبالنسبة للحزب الوطني فقد كانت جريدة فادرلاند تنشر تقاريرًا كاملة طوال فترة الزيارة. وبالنسبة لجريدة الأوسيوا براندوج، فقد كانت تقاريرها تحمل في معظمها انتقادات حادة من الأفراد أو المنظمات، كالحزب الوطني، التي تظهر في مصلحة الزيارة، ثم تثني على الأفريكانرز الذين ليس

لهم علاقة بالعائلة المالكة. وبالنسبة للحزب الشيوعي، فقد كانت صحيفة الجارديانGuardian تفترض موقف ازدرائي من الزيارة الملكية التي تدعي بأنها شغلت انتباه السلطات، وقالت بأنه ينبغي التركيز على احتياجات الشعب. وقد اجتذبت الانتباه لظروف الفقر التي أخفيت عن العائلة المالكة، وقد نشرت انتقادات الأسرة خلال الزيارة في صحف المملكة المتحدة (١٢٤).

السؤال الذي يطرح نفسه: هل اقتصر الاهتمام بزيارة الملك جورج السادس لجنوب أفريقيا على مستوى الصحافة الجنوب أفريقية فقط؟ الإجابة بالقطع لا، لكننا في هذا المجال لا نستطيع متابعة ردود الفعل الصحفية جميعها على الزيارة، ومن ثم سنورد ما اهتمت به الخارجية البريطانية نفسها من ردود. حيث يعد التقرير الذي أرسله اللورد انفيرشيبل Inverchapel من واشنطن إلى بيفنBevin في ٢٤ يونيو ١٩٤٧ عن مردود الزيارة في الصحافة الامريكية، من أهم التقارير في هذا الشأن. حيث يحيطه علمًا بأن صحافة الولايات المتحدة تحدثت عن الزيارة الملكية الأخيرة لاتحاد جنوب أفريقيا. حيث حظيت باهتمامها؛ نظرًا لاهتمام الصحافة الأمريكية بنشر أخبار الأسرة الحاكمة ونشاطها، بشكل مستمر ومتتابع لقرائها، كما هو الحال في المملكة المتحدة. ومع ذلك فلم تكن كل التقارير المنشورة دومًا ودية. ومن ثم، كان ينظر للزيارة الملكية على خلفية الحرب العالمية الثانية، حيث كان ينظر لرحلة السفينة فانجارد كعلامة على النصر المشترك، والذى كانت البحرية الملكية قد ساهمت فيه بقوة. وفي هذا الإطار، عبرت الصحافة الأمريكية عن إعجابها بالملك والملكة، الذين تقاسموا مخاطر الحرب الثانية ومحنها مع مواطنيهم بصورة لم يسبق لها مثيل في العصر الحديث. وسنة بعد سنة كان خطاب الملك يبث عبر الإذاعة في دول الكومنولث البريطاني في الذكرى السنوية لإنشاء الكمنولث، وبطبيعة الحال كانت ملايين المنازل الأمريكية تستمع به. فحدث تعاطف في جميع الولايات الأمريكية مع المملكة المتحدة خلال فترة الحرب، وهذا ما عكس الدعاية اليومية في الصحافة للعائلة المالكة، وهو ما تسبب في اهتمامها بزيارتها إلى جنوب أفريقيا. لهذا، فإن نشر صور العائلة أصبح عاديًّا وسمة من سمات ما تنشره صحافة الأحد والمجلات الأسبوعية، وكذلك أصبح من القضايا العادية من معظم الصحف

اليومية الكبيرة". حيث تحدثت عن روح الدعابة، وأصبح لطف صاحبة الجلالة خلال فترة هطول الأمطار في بريتوريا موضوع تعليق خاص(١٢٥).

وتحدث التقرير أيضًا عن مرافقة الملك للملكة والأميرتين الشابتين، إحداهما وريثة العرش الرئيسة، ممن بقوا على قيد الحياة بعد الحرب العالمية الثانية، تلك الأسرة التي كان الأميركيون أنفسهم يقدمون لها الولاء منذ ٢٠٠ سنة. حيث ذكرت الاحتفال بوريثة العرش ببلوغها سن الرشد في سياق الزيارة. مشيرة بأن صاحبة السمو الملكي قد وضعت الأساس لمسؤولياتها المستقبلية، بواسطة رسالتها المدروسة التي بثتها لشعوب الكومنولث، سواء في خزائن ملابس الأميرات، والمفروشات والديكورات على سطح البحر، ومدربيهم على متن القطار الملكي. وتحدثت عن قيمة هدية الماس المقدمة من قبل حكومة جنوب أفريقيا للأميرة وجمالها، وكل هذا كان مصدر اهتمام واضح للمرأة الأمريكية من خلال المجلات وفخامة الوصف والصور. وكانت هناك حرية للمراسلين في أن يدرجوا في تقاريرهم الخاصة، تعليقاتهم الشخصية على سلوك الأميرتين، واهتمامات الزوجين، وبصاحبة السمو الملكي الأميرة إليزابيث، وكان هذا ينشر جنبًا إلى جنب مع عناوين المحررين الفرعية، عن طموحات الجمهوريين بجانب الإطراء على النظام الغذائي. فقد حصلت صاحبة السمو الملكي خلال عيد ميلادها على صور وتسميات وتعليقات عالمية ودية، وتراوحت بين الرزانة والمجاملة. حيث ذكرت جريدة هارتفورد تايمز " الأميرة واحدة من أمنيات الشباب" في حين اندفعت جريدة كورير إكسبريس لتقول " نعتقد أن الأكثر جاذبية هو شابة تدعى إليزابيث". ونفس الأمر ينطبق على جريدة ألكسندرا ماري، حيث بالغت كثيرًا في هذا الأمر(١٢٦).

وبالمقابل، قدمت لنا إحدى الوثائق المصرية صورة مخالفة لما هو منشور في الصحافة الإنجليزية والأمريكية. فالشهرة والمكانة التي حصلت عليها الأميرة إليزابيث ولية العرش البريطاني داخل الوثائق البريطانية على سبيل المثال، تتقاطع تمامًا مع ما جاء فى الوثائق المصرية. فحين تقول الوثائق البريطانية بأن صاحبة السمو الملكي قد حصلت على صور وتسميات وتعليقات عالمية ودية، وتراوحت معاملاتها بين الرزانة والمجاملة، وأنها كانت واحدة من أمنيات الشباب

هناك، وأنها الأكثر جاذبية، قدمت لنا هذه الوثيقة صورة مخالفة لذلك. حيث أشارت نصًا " بأن الصحف الإنجليزية في جنوب أفريقيا عملت على إظهار الأميرة الياصابات بصورة تخالف ما يشاع عنها فى أوساط العامة"، بل أكدت على " أن الناس يشعرون بالجمود تجاه الأميرة الياصابات، في حين يشعرون بحب وتقدير لاختها الأميرة مارجريت، باعتبارها أكثر سماحة وأقل تكلفة وأكثر بشاشة من أختها الكبيرة". ومع ذلك تؤكد، الوثيقة " مراقصة الأميرتان لبعض المدعويين إلى حفلات الرقص الخاصة، وبأنهما تلطفتا مع الجميع" (١٢٧). ترى هل كان موقف القنصل المصري يعبر عن موقف سياسي؟ أم هو رفض لكل ما يرمز للسلطة البريطانية؟ أم أنه الحقيقة التي لا تجرؤ الإدارة البريطانية في الكيب على نقلها لمسئوليها في بريطانيا؟ الإجابة تقتضى القول بأن الوثيقة تعبر عمن انتجها، وقد لا تعبر بالضرورة عما حدث بالفعل. وهذا يعني أن ما كتبه القنصل المصري يعبر عن موقفه الشخصي، وقد يكون دقيقًا أو مخالفًا لما كتبته الصحف في جنوب أفريقيا ووثائق الخارجية البريطانية. لكن الأرجح هو سماعه لبعض تلك التعليقات من الرافضين للزيارة من الأفريكانرز، وأن الإدارة البريطانية لا يعنيها إلا الهدف النهائي، وبالتالي، نقلت محبة الناس لولية العهد دون أن تشغل نفسها بتقديم نظرة تقييميه لأى من الأميرتين تحظى بمحبة الناس أكثر من الأخرى.

على أية حال، أرفق تقرير ٢٤ يونيو ١٩٤٧ نموذجًا من المواد التي ظهرت في مجلة كولير، وصحيفة نيويورك تايمز، ومجلة الأحد، غير أن تحليلة لأهم نتائج الزيارة يعد أمرًا مهمًا. وفي هذا الإطار نختزل ما قاله في ثلاثة أمور: الأول: عند انتهاء الزيارة لم يكن هناك شك في أن الأسرة الملكية نافست في شعبيتها صاحب السمو الملكي دوق وندسور الذي كان يتمتع في هذا البلد بشعبية كبيرة عندما كان أميرًا لويلز. حيث اهتمت الصحف اليومية بوضع الجولة في منظورها الصحيح، وشددت على إيجابيتها في المساهمة في وحدة الكومنولث البريطاني، واعتبرتها مؤشرًا على التوجه السياسى للكومنولث في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية. حيث كان المستهدف بأن يصل عدد الدول التي ستنضم للكمنولث إلى ثلاثة أضعاف حجمه الحالي. حيث

أكدت الأسرة المالكة في أول مكان زارته على المساواة والاستقلال بين البريطانيين ودول الكومنولث، عبر إقامتها في الدومينيون لعدة أشهر اصطحبت خلالها وزراء من جنوب أفريقيا خلال الجولة عبر مختلف المناطق. كما لوحظ أن شرطة جنوب أفريقيا هي التي كانت تتولى حراسة الملك طوال فترة الزيارة، حيث افتتح برلمان جنوب أفريقيا، وأعطى الجماهير وقادة الأحزاب المختلفة وأعضائها التصرف في جميع الأنحاء على أنه ملك لجنوب أفريقيا. وعززت الزيارة بهذه الطريقة الهدف من زيارة كندا قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية. الثانى: أن دفء الترحيب الممنوح للعائلة المالكة، ومشاركة كل أجناس جنوب أفريقيا في مختلف الاحتفالات والمهمات، واصطحاب الوزراء إلى المحميات البريطانية والذهاب في نطاق أضيق إلى روديسيا الجنوبية والإعداد لترتيبات الاتحاد، والتأكيد على موقف مستقل لاتحاد جنوب أفريقيا وروديسيا الجنوبية، كان تاكيدًا على أهمية العرش البريطاني كرابطة بين الأجناس ودول الكمنولث. حيث شرحت للأمريكيين استمرار حيوية الملكية باعتبارها المؤسسة العليا للكومنولث البريطاني والإمبراطورية. الثالث: كان ينظر للزيارة بأنها تهدف إلى تعزيز المجتمع متعدد الأجناس داخل جنوب أفريقيا، ورسم العلاقات بين الاتحاد والمملكة المتحدة. وهذا الاستنتاج الأخير من المعلقين هو الأكثر أهمية في ضوء رأي الولايات المتحدة فى جنوب أفريقيا خلال فترة الزيارة. خاصة بعد الدعاية السيئة التى انتشرت حول رئيس وزرائها سمتس وممارسة بلادة للتفرقة العنصرية على إثر شكوى الهند للأمم المتحدة. فقد كان هناك حماس من قبل القراء للتقارير المتحمسة للقاءات العائلة المالكة مع الزنوج والملونيين والهنود. لكن انتشار صور حفل الملونين فى كيب تاون، حيث كان كل ضيف يرتدي ملابس المساء، مختلف عما هو منشور فى الطرف الآخر عن صور العرايا من المحاربين الزولو، جيدى التغذية والنساء المشاركات في الرقصات القبلية في ناتال، وبالتالي، نفذت إلى ما هو أكثر عمقًا، وهو الاقتناع بأن هناك شيئًا يحدث، وأن ما يقوله الجنرال سمتس بأن الاتحاد يسعى وبسرعه في جهوده الرامية إلى إنشاء دولة متعددة الأجناس يضع حجر أساسها في القرن العشرين، هو جارى تنفيذه بالفعل(١٢٨). وهو ما يعنى إعادة إنتاج صورة

المارشال سمتس الدولية المشرقة مرة أخرى وبطريقة غير مباشرة. وعلى هذا، فإن تحسين صورة الرجل كانت تجرى على المستويين؛ المحلى والدولى، وبدعم بريطانى واضح.

المحور الثامن: أثر الزيارة على الأمن الاستعماري:

تعددت آثار الزيارة الملكية على الأمن الاستعماري ليس في اتحاد جنوب أفريقيا فحسب، بل في عموم الجنوب الأفريقي الخاضع لبريطانيا ككل أيضًا. ولفهم هذا المحور فهمًا جيدًا سنقوم بتقسيمه إلى سبع مسائل رئيسة:

المسألة الأولى: نهاية الزيارة: من المؤكد أن الخطاب الذي رفعه القنصل العام بالقنصلية المصرية بالكيب إلى وكيل وزارة الخارجية في الأول من مايو ١٩٤٧ (١٢٩)، يضع أيدينا على ما حدث في الأيام الأخيرة من الزيارة. حيث يرفع له التقرير التاسع عشر الذي انتهت منه القنصلية في ٢٩ أبريل ١٩٤٧، ليخبرنا " بأن الملك قد أتم رحلته بعد أن طاف في أنحاء البلاد مدة شهرين، عاد بعدها إلى الكيب بتاريخ ٢١ ابريل، وغادرها يوم ٢٤ منه، على الباخرة الحربية فان جارد. وبأنه قد أقيمت للعائلة المالكة حفلات رائعة في كل مكان حلت به، وأن الوزراء كانوا يتناوبون مرافقتها في حلها وترحالها" (١٣٠).

وتشير الوثيقة السابقة بأن الدكتور مالان، رئيس المعارضة، قد نصح أتباع حزبه والأحزاب الجمهورية، بأن تستقبل الملك وأسرته بما جبلوا عليه من كرم، بوصفه شخصية كبيرة تزور بلادهم، فلبى الأفريكارنرز الجامدين نداءه هذا. فلما عاد الملك وعائلته من رحلتهم للمحميات إلى الكيب، وافق أن كان اليوم التالي لوصولهم يوم ٢١ أبريل، وهو عيد ميلاد الأميرة الياصابات وبلوغها سن الرشد، فأقيمت حفلة عرض عسكري في ذلك اليوم(أنظر ملاحق الدراسة). وجاءت الأميرة بمفردها، وبصحبتها المرشال سمتس ورئيس هيئة أركان حرب الجيش، واستعرضت الجيوش وحيت الجماهير. وفى المساء حضرت حفلات راقصة في البلدية وفي دار الحكومة، حضرها شباب الكيب. وفي يوم ٢٢ أبريل، أقامت البلدية حفلة موسيقية شرفتها الملكة بمفردها. وفي يوم ٢٣ أبريل، حضرت العائلة حفلة شاى فى حديقة حاكم مقاطعة الكيب، ومنها ذهبوا إلى

الحديقة مع رجال السلك السياسي. وفي يوم ٢٤ أبريل، حضروا دعوة غذاء أولمتها الحكومة للملك في يوم سفره (١٣١).

ويضيف تقرير الخارجية المصرية " وفي حفلة الغذاء، ألقى المارشال سمتس خطابًا أجاب عليه الملك، ثم تلته الملكة بكلمة أخذت بمجامع القلوب. وقد كان التأثر باديًا عليها عندما أرادت توديع أهالي جنوب أفريقيا، حيث أغرورقت عينيها بالدموع. ثم قام المارشال وقدم هدايا من ألماس إلى الملك والملكة والأميرة مارجريت، كون أختها قد نالت هدايا كثيرة في عيد ميلادها، وفيما اشتركت فيه من احتفالات، كافتتاح رصيف بورت إليزابيث. كما قدم عمدة المدينة شيكًا بمبلغ نحو ثلاثين ألف جنيهًا إلى الأميرة الياصابات إعانة لبريطانيا في محنتها المالية. بينما جمعت جوهانسبرج أضعاف هذا المبلغ لنفس الغرض. ومن الملاحظ أن عمدة المدينة أرسل نداءه لكى يجمع ٢٥.٠٠٠ جنية إعانة لبريطانيا لم يتمكن من تغطيتها إلا بعد جهد وكد ونصب، حتى أنه أرسل للقناصل مستنجدًا بهم". وهو ما يؤكد على أن الهدف الاقتصادي للزيارة كان حاضرًا، وبقوة. ثم يخبرنا التقرير بنهاية الزيارة فيقول " غادرت العائلة المالكة الكيب مساء يوم ٢٤ أبريل على الباخرة الحربية فان جارد، بعد أن أمضت هنا ما يزيد عن شهرين" (١٣٢). وخلاصة القول: بأن نهاية الزيارة حملت تجمع الناس حول العائلة الملكية، وإظهار الحماس والترحيب وإقامة الحفلات، بما يؤكد على نجاح العائلة الملكية في تحقيق أهدافها.

المسألة الثانية: التقارب مع الأفريكانرز الرافضين للملكية: تخبرنا إحدى الوثائق المصرية بأن الرحلة قد جاءت بنتائج طيبة لم يكن يتوقعها أكثر الناس تفائلًا في هذا الإطار. وذكرت لنا عدة أمور فعلتها العائلة المالكة للتقرب منهم، نختزلها في ثمانية: أولها، سعت إلى منازل العناصر الأفريكانية المنحدرة من أصل هولندي أو هوجونوتي، وتحدثت إلى أفرادها بكل بساطة ورفق، وحرصت على مقابلة المحاربين الأفريكانرز القدماء في حرب البوير. وتوجهت لزيارة زوجة المارشال سمتس في عزبتها الخاصة. ثانيها: زارت والدة وزير العمل كوليا سليان Colia Slieynفي دارها. ولما كانت هذه السيدة من أصل إسكتلندي، ومتزوجة من رئيس جمهورية

الأرونج الحرة، لذا كانت لا تزال متعلقة بمركزها كرئيسة جمهورية سابقًا. ومن ثم كانت زيارتها لها مردود مهم في تهدأة الوضع، وفى كسب ثقة ابنها وزير العمل، حيث كان يسير بعدها فى ركاب الملك. ثالثها: رغم ما أظهره الحزب المعارض برئاسة الدكتور مالان من تحد، وعدم مراعاة عند وصول العائلة المالكة إلى الكيب في أول يوم للزيارة، وامتناعه وبعض إخوانه عن الترحيب بالملك، إلا إن تقرب العائلة الملكية من زعيم الحزب، جعل مالان يقابل الملك في اجتماع خاص في نهاية الزيارة. رابعها: أن تقارب العائلة مع الأفريكانرز جعل الأمور تسير بهدوء وتؤدة طيلة فترة الزيارة. بل عندما عاد الملك إلى الكيب، أبدى رغبته في مقابلة من تخلف من أحزاب المعارضة، وتحدث إليهم في خلوة مدة نصف ساعة قبل حفلة الغذاء التي أولمتها الكيب يوم مغادرته. خامسها: أظهر حضور العائلة المالكة للصلاة في كنيسة الأفريكانرز، يقصد الكنيسة الاصلاحية الهولندية Dutch Reforms Church ، وللصلاة في المعبد اليهودي في الكيب، روحها العائلية السامية. سادسها: أن ظهور الأسرة المالكة بالروح العائلية حببها لقلوب الأفريكانرز الذين يحرصون على التكوين العائلي للأسرة. بل تعلقت بالملكة لما اتصفت به من لطف ومجاملة ودعه وذكاء تفوق كل وصف، فكانت تتحدث إلى الناس وتشعرهم بالتقرب قلبيًا إليهم، وتدخل المحال التجارية لشراء حاجيات منزلية لبناتها ولصديقاتها في لندن كأي فرد من الناس (١٣٣).

سابعها: حجم الهدايا السخية من الماس المقدمة إلى جميع أفراد العائلة المالكة. وهو ما وجه انتقادات كثيرة لها. فردًا على سؤال برلماني حول هذا الموضوع، صرح المرشال سمتس بأن أثمن ما أُهدى للعائلة من ماس يقدر بنحو ٢٨ ألف جنيهًا وكسور، خلاف أجرة التركيب التى لم تعرف بعد. وأن هذه القيمة اسمية؛ إذ إن الماس أخذ من المخزون الحكومي. ثامنها: أنه بالرغم من فتور الاستقبالات التي نظمت للعائلة المالكة في المقاطعات المأهولة بالسكان الأفريكانرز، إلا إن الحشود التي شهدتها كانت كبيرة جدًا وبها زحام شديد. وفسرت الجرائد الموالية للحكومة هذه الظاهرة بأن طلعة العائلة المالكة في المقاطعات المأهولة بهؤلاء السكان عليهم، ألجمت ألسنتهم، فلم يحركوا ساكنًا لما استولى عليهم من الدهشة (١٣٤). وفي نفس الإطار تشير رسالة السير إيفلين

بارينج إلى اللورد أديسون في ١٠ مارس ١٩٤٧بأنه قبل مغادرة العائلة المالكة لكيب تاون، كان الناس يقابلونها بحماس وترحيب حقيقي أينما ذهبوا (١٣٥).

المسألة الثالثة: تهدأة الهنود: رغم التوترات التي كانت قائمة بين الهنود قبل الزيارة إلا إن الأمر تغير تمامًا بعدها. ولعل إقامتهم مهرجانات باهرة أخذت بالألباب في دربان، جعل الاعتقاد يسود بينهم إلى ضرورة فصم عرى الاتحاد بينهم وبين الهند. حيث طالبوا بنشوء حزب معتدل من بينهم، يدعو إلى عدم السير في ركاب الهند، باعتبارهم من سكان جنوب أفريقيا ورعاياها (١٣٦).

المسألة الرابعة،: نجاح الترتيبات الأمنية: وربما كانت إشارة إحدى الوثائق المصرية وقولها " مجمل القول أن الزيارة كانت ناجحة، وأن ما وضع لها من ترتيبات كان في منتهى الدقة والنظام، وأنه لم يحدث أى شيء يكدر صفو الأمن على قدر ما وصل إلى علمنا، وأن الجميع، أصدقاء وأعداء، نظروا إلى هذه العائلة المالكة بكل تقدير وإعجاب" (١٣٧)، يقطع بأن بنجاح العائلة الملكية في أهدافها من الزيارة قد تحقق تمامًا.

المسألة الخامسة: التأكيد على ولاء المحميات البريطانية في الجنوب الأفريقي: كانت الاستقبالات التي قوبلت بها العائلة المالكة في المستعمرات الأفريقية الموضوعة تحت الحماية، كبتشوانالاند وسوازيلاند وباسوتولاند والروديسيتين، من أروع ما يدل على تعلق سكانها السود بالعائلة المالكة. فقد صافح الملك والملكة رؤساءهم باليد، وقلدوهم نياشين مختلفة، ومنحوهم هدايا وصور موقعة من الملك إلى غير ذلك. حيث تشير إحدى الوثائق المصرية بأن" هؤلاء الناس يتعلقون بالملكة فيكتوريا، ولا يزال رؤساؤهم يتذرون بالملابس المزركشة الإفرنجية التي أنعم بها عليهم من العهد الفيكتوري. ولاشك أنهم أحسن حالًا من أقرانهم في جنوب أفريقيا من ناحية التمتع بنوع من الحرية والتملك" (١٣٨). حيث سمعت العائلة الملكية إلى مطالبهم الصريحة ببقائهم تحت الحماية البريطانية، وعدم ضمهم لاتحاد جنوب أفريقيا، وهو ما تحقق لهم حتى ستينيات القرن العشرين، حينما استقلت تلك المحميات، لتصبح دولًا وممالك.

المسألة السادسة: التركيز على المصلحة العليا للإمبراطورية: فإذا كانت الزيارة في أحد أهدافها كانت لمساندة الجنرال سمتس في استعادة مكانته الدولية والمحلية إلا إن موقف الأحزاب المعارضة منها، ومقابلتهم ببرود، جعل العائلة تتقارب من كل الأطراف حتى لا تتهم بالتحيز لطرف دون آخر. لدرجة جعلت إحدى الوثائق تقول " ولو أن المرشال قد اكتسب كثيرًا من هذه المرحلة إلا إنه لا يزال هناك وقت طويل على الانتخابات، ولا ندرى إن كان أثر الرحلة سيبقى حتى حلولها" (١٣٩). وهذا يعنى أن المساندة انعكست في وقتها فقط، لكنها لم تقطع باستمرار التأثير حتى موعد إجراء الانتخابات سنة ١٩٤٨. وأول إشارة للزيارة بعد رحيل العائلة المالكة جاءت من كيب تاون من قبل الجنرال سمتس بإحساسه المعتاد للمكان والتوقيت. وبدلًا من الكلام على بعض المناسبات الرسمية التي أدلى ببعض الإشارات فيها، تحدث في ٢٣ فبراير لجمهور يتكون أساسًا من شباب جنوب أفريقيا يقدر عددهم بـ ١.٠٠٠ شاب على أعلى جبل تيبل في إحدى مناسبات التأبين السنوية، حيث قال: "إن تأثير وصول الملك لهو واضح بالفعل في جميع أنحاء البلاد، فهناك المزيد من الوداعة، والمزيد من الوحدة واضحة في جميع أنحاء البلاد، ومن خلال تأثيره الروحى وصفاته الطيبة قام الملك بتأثير مطبب ومهدئ؛ وبسبب ذلك نحن نقدم التصور الصحيح، وبالتالي، وجب علينا أن نثنى على الأسرة الحاكمة لما فعلته من أجلنا " (١٤٠).

وتقدم لنا إحدى الوثائق بأن الشيوعيين يوقنون بأن النظام القائم هو خير وبركة عليهم، بالنسبة لما قد يحيق بهم من اضطهاد إذا ما تولى الحزب الأفريكاني الحكم، وهو من أكبر المعاديين لهم، ولكنهم يرمون في نشاطهم إلى تقويض النظام الحاضر؛ أملًا في الهدم الذي قد تتجلى عنه ثورة انقلابية. وتقول بأن هذه العوامل مجتمعة، وما تلاقية الحكومة القائمة من عنت في توطيد أركان النظام في الحياة العادية الناجمة من مخلفات الحرب، سواء في غلاء الأسعار أو قلة المساكن وغيرها، كل هذا نال من سمعة حكم المارشال سمتس في الفترة الأخيرة، فخسر حزبه بعض المقاعد في المجالس البلدية في مقاطعة الترانسفال، كما خسر دائرة إنتخاب برلمانية

في مقاطعة الكيب، كانت تعتبر إلى آخر وقت من أكبر معاقل حزبه، مع أنه كان مرشحًا لها رجل يعتبر ركنًا مهمًا في الدائرة يفوق منافسه الأفريكاني ثروة وجاهًا وعلمًا وسمعة (١٤١).

وفي ذات الإطار، تشير إحدى الوثائق بقولها " ويعتبر هوفماير من الأحرار الذين ينادون بمحو الفروقات الجنسية واللونية تدريجيًّا، وهو ما يعارض رأي البيض وأغلبيتهم الساحقة. فإن بقيت الظروف على ما هي عليه الآن، فإننا نتوقع استمرار النظام القائم للمدة البرلمانية القادمة. ولا يجب أن يغرب عن بالنا سن المارشال، وقد بلغ ٧٧ سنة، مما قد يضعف الأمل في تمكنه من الاستمرار في الحكم مدة جديدة. فليس من السهل إعطاء حكم قاطع عما سيتمخض عنه القدر، ولكن يجب ألا نغفل أيضًا قوة رؤوس الأموال اليهودية في جنوب أفريقيا، فهي المسيطرة على جميع مرافق البلاد الجنوبية، وقد تمكنوا بها من السيطرة السياسية على كثير من المصالح الحكومية إن لم يكن أغلبها. ويجب أن نحسب لقوتهم قسطًا كبيرًا في الميزان، وقد بدأوا يستدرجون العناصر الأفريكانية في المنشئات المالية ويشركونها في مجالس الإدارات للشركات (١٤٢). وعلى هذا، بدا أن الزيارة صبت في صالح المعارضة أكثر منها في مصلحة نظام سمتس الحاكم، وأن المصلحة العليا للإمبراطورية هي التي فرضت هذا الأمر. فقد كان تقرب العائلة من المعارضة يصب في مصلحة الطرفين دون سواهما.

المسألة السابعة: تغيير أفكار الأفريكانرز وخططهم: فرسالة السير إيفلين بارينج إلى الفيكونت أديسون في١٦ مايو ١٩٤٧، تلخص لنا نتائج هذه الزيارة في هذا الإطار. وتعتبر أن النتائج طويلة الأجل هي الأكثر أهمية، وتختزلها في ست: أولها: أن قليل من الأصوات التي كان الحزب الوطني المتطهر سيحصل عليها في الانتخابات القادمة ستذهب للحزب المتحد. ثانيها: أن الأفكار المصبوغة بالصبغة الجمهورية كتلك التي ينادي بها ستريدوم Strydom أو سوارت، من قادة الحزب الوطني في الترانسفال والأورنج الحرة، ستتعرض للتأثير وستتراجع. وأنه سيتم إزالة الكثير من المرارة والتشويش والارتباك، وتصحيح الأفكار الخاطئة، وأن المبشرين بها ما هم إلا كاذبون. ثالثها: أن هناك خسارة مباشرة لأصوات الناخبين سيتعرض لها الوطنيين الأفريكانرز في

الانتخابات القادمة، وأن هناك أسبابًا وجيهة للأمل في أن تصبح الأفكار القومية أقل حدة عن السابق، ويخفت ضجيجها في الحزب. غير إن طبيعة هذا التغيير في إضعاف القومية ستتم بطريقة تدريجية. رابعها: أن تأكيد الناطقين بالإنجليزية في جنوب أفريقيا على ولائهم لبريطانيا ولولية العهد وتمسكهم ببريطانيا، لا ينفي الشعور المتنامى مؤخرًا بين شبابهم، بأنهم كانوا معزولين في زمن الحرب، وبأن إنجلترا هي بلد بعيد، وأن العرش البريطاني هو مجرد فكرة مجردة وغير مؤسسة في جنوب أفريقيا. لذا بدا الأمر غير صحيًّا إذا سمح له بالتمدد والنمو. خامسها: إن أفكار التحول والتغيير في العقلية الأفريكانرية المتبنية للجمهورية والاستقلال عن بريطانيا تأتي من عدة مصادر، وبشكل خاص من محادثة بارنج مع الدكتور بارناردDr. Barnard، حاكم الأورانج الحرة. حيث يشير بأنه " على الرغم من أن الدكتور برنارد هو أفريكانري، ولد في معسكر اعتقال بريطاني، وعاش كل حياته في أورانج الحرة، إلا إن منزل رئيس الجمهورية براند دي ويت وهيرتزوج، هما الأكثر محافظة على الوطنية الأفريكانرية في الاتحاد. فزوجته هي أيضًا أفريكانية، ولكن ابنه قد مر على التو على دارتموث. وأنه هو نفسه، باعتباره المرشح لرئاسة الحزب المتحد، يرحب وبقوة بمحاربة اللجنة التنفيذية القومية تمامًا، والمجلس الإقليمي للوطنيين الأفريكانرز المتطرفين. لكنه يؤكد على أن التحول الفوري غير متوقع في الحزب. سادسها: قدم الجنرال سمتس ملحوظة صحيحة عندما خطب على قمة جبل تيبل، حيث تحدث بأن أهم نتيجة للزيارة هو نمو روح اللطف والاعتدال. حيث انتهت في سنة ١٩٤٧ الروح القومية المبنية على الكراهية لبريطانيا العظمى، والقائمة على تشويه الصورة البريطانية؛ والجهل بكل شيء يتعلق باللغة الإنجليزية. واعتقد أن ختام الرسالة بقوله بأنه " إذا انتشرت روح الإنصاف تلك، فإن أمر الشعور القومي سيتغير سنة ١٩٥٧ ليضعف تمامًا" (١٤٣)، يقطع بأن نتائج الزيارة كانت ناجحة تمامًا فيما يتعلق بالأمن الاستعماري، وبإعطاء مزيد من الحياة للملكية البريطانية في جنوب أفريقيا.

ولعل أهم نتيجة توصلت لها رسالة إيفلين بارينج فى١٦ مايو ١٩٤٧، بعد استعراضها للقاء العديد من الجمهوريين الأفريكانرز بالأسرة، وبأنهم كانوا غير راغبين في التخلي عن وجهات

نظرهم، بأن الأسرة المالكة كانت على استعداد للإعراب عن أملها عبر الزيارة بتوحيد قسمى البيض، وأن ما يسيرون فيه سيؤدى إلى الانقسام بين قسمي الجنس الأبيض في جنوب أفريقيا، يشرح لنا الدور الذي لعبته العائلة المالكة في إقناع الأفريكانرز بتغيير أفكارهم. ولعل تعبير الأسرة الحاكمة " بأنها تأمل في أن تزيد أعداد البيض في جنوب أفريقيا وتنمو يوميًّا، ولكن لأسباب خاطئة لا يتحدون، فالأوروبيون سيكونون أكثر نجاحًا فى المحافظة على موقعهم المهيمن على الأجناس الأخرى"، يقطع بأن تركيزها على الأمن الاستعماري بأبعاده المختلفة كان هدفًا رئيسًا. ولعل إضافتهم بأن قطاعًا من البيض يرون " بأن الحاجة الأولى هي الاتحاد، خاصة وأن الصناعة تنمو بشكل سريع، وأن الانقسام سيتسبب في الصعوبات الاقتصادية والمشاكل العرقية، وأن استخدام الشعارات العنصرية، سيدفع باتجاه معركة عاطفية بعيدة عن الاحتياجات الحقيقية للبلاد، خصوصًا احتياجات سكانها الأفريقيين، وأنهم يرغبون في إقامة علاقات أفضل بين قسمي السكان البيض في المستقبل، وأن المؤسسة الملكية تسعى في هذا الاتجاه بعيدًا عن الصراعات السياسية الداخلية داخل الاتحاد" (١٤٤)، يؤكد هذا الاتجاه ويشرحه.

غير أن إحدى الوثائق المصرية تعطينا شرحًا أفضل لهذا التغير، فتقول بأن" خطة الحزب الأفريكاني من هذه الناحية غير واضحة بالمرة، فهو يخشى تعجل الحوادث قبيل الانتخابات التي ستجرى في عام ١٩٤٨، ويرمي إلى ضمان معاضدة المعتدلين من الأفريكانرز بجانب المتطرفين منهم، مع التلطف مع المتحدثين باللغة الإنجليزية الذين يضمرون الحقد لليهود. فالحزب الأفريكاني في الواقع يكره الإنجليز، ويسعى للتخلص من الارتباط بإمبراطوريتهم، كما يحقد على اليهود ويعمل للحد من نشاطهم، ويعمل على كسب بعض المتطرفين ضدهم إلى جانبه، ويعالج الموقف بكثير من الحذر خشية الفشل في الانتخابات". وتقدم لنا تصريح مالان " بأنه لا يضمر الحقد لليهود، ولا توجد لحزبه سياسة معادية لهم سوى أن فرع الترانسفال يحتم نظامه عدم قبول اشتراك اليهود في عضويته، وأنه يرى شخصيًّا أنه ليس من مصلحة اليهود أن تتركز جموع منهم في منطقة واحدة أو في بلد معين، إذ كلما كثر عددهم، ازداد شعور العداء لهم، كما إن سياسة حزب الأفريكانرز هي

وضع فروقات جنسية ولونية متطرفة، ويطلبون تحديد مناطق للسود، وأخرى للهنود وثالثة للسمر، ورابعة للبيض، ولا تختلط فئة بأخرى في مسكن أو مأكل أو مشرب"، على أن الحزب وجد تفسيرًا يسوق به موقفه المبدئي من الزيارة عبر كراهيته لليهود ليضمن خروجًا من الأزمة، ويضمن عدم استفادة سمتس منها، والاحتفاظ بالسياسات العنصرية التي يقدم برنامجه الانتخابي من خلالها. لكن الوثيقة تعطينا ملمحًا مهمًّا لا نجده في الوثائق البريطانية، فقولها " مع أن سياسة المارشال سمتس بالنسبة لهذه الفئات تعتبر رحمة ونعمة عليهم، بمضاهاتها وسياسة الحزب الأفريكاني، إلا أن قيام روابط صداقة ومودة وتآلف بين العنصر الأفريكاني والعناصر الملونة الأخرى في الأرياف والقرى، تغطي كثيرًا في الشعور العام على مساوئ الحزب الأفريكاني، فالرجل الهندي أو الملون يجد عطفًا ومودة في معاملاته الشخصية مع العنصر الأفريكاني بخلاف الحال مع العناصر الإنجليزية، وأغلب هذه الفئات تتكلم الأفريكانية بطلاقة أكثر من الإنجليزية"(١٤٥)، يعطينا ملمحًا مهمًّا لأسباب تفوق الوطنيين الأفريكانرز في الإنتخابات التي جرت فيما بعد. وأن وضوح سياستهم، جعل الأطراف غير البيضاء تتعامل مع الأفريكانرز الوطنيين بشكل أفضل. وعلى هذا، قدمت لنا الوثائق المصرية تحليلًا جيدًا لمسألة الانتخابات، بترجيحها كفة الوطنيين على الاتحاديين، في حين قدمت لنا الوثائق البريطانية تحليلا بعيد المدى. فقد وضح بأن الزيارة لا يهمها من يفوز من الانتخابات بقدر اهتمامها بالاحتفاظ بجنوب أفريقيا في بوتقة الكمنولث البريطاني لاطول فترة ممكنة، وهو ما تحقق بالفعل.

خاتمة:-

بعد دراسة موضوع زيارة الملك جورج السادس وعائلته إلى اتحاد جنوب أفريقيا سنة ١٩٤٧ دراسة وثائقية، وبالاعتماد على أكثر من أرشيف، نخلص إلى عدد من النتائج:

- أوضحت الدراسة بأن زيارة الملك جورج السادس وعائلته التي تمت في الفترة من ١٧ فبراير إلى٢٤ أبريل ١٩٤٧، قد حققت أهدافها الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والثقافية، فأوقفت الانقسامات المنتشرة بين جبهتي البيض في جنوب أفريقيا، واحتفظت بالاتحاد في حضن الإمبراطورية البريطانية إلى ما يتجاوز الثلاثة عشرة سنة فيما بعد. حيث تخلى عن نزعة الانفصال المستشرية بين قطاع كبير من أبنائه البيض، وجدد روابطه وولاءته للعرش البريطاني، وارتضى بأن يبقى وحدة مستقلة داخل الكمنولث البريطاني.
- بينت الدراسة بأن أهداف بريطانيا من الزيارة كانت تتقاطع مع أهداف التنظيمات السياسية البيضاء المتصارعة على الحكم. فبريطانيا التي خرجت من الحرب العالمية الثانية، وتعاني من ظروف اقتصادية داخلية وخارجية سيئة، وتحيطها مقدمات حرب باردة، وانشقاقات في القوى الدولية، وانقسام العالم إلى كتل متصارعة، ومستعمرات تريد أن تحصل على استقلالها، كانت أغراضها من الزيارة تختلف عن أغراض تلك المجموعات المحلية المتصارعة على السلطة. فبريطانيا تسعى لأمنها الاستعماري، وتريد أن تحتفظ بمستعمراتها ذات القدرات الاقتصادية الكبرى، خصوصًا وأن الهند تخطو خطواتها الأخيرة نحو الاستقلال، وبالتالي، كان مطلوبًا الاحتفاظ بجنوب أفريقيا ركيزة أساسية لأمنها الاسترتيجي في منطقة الجنوب الأفريقي، وفي جنوب الأطلسي. وبالتالي، أثبتت الدراسة بأن الزيارة قد حققت معظم الأهداف التي تبنتها الإدارة البريطانية.
- أوضحت الدراسة بأن الدعايات المحلية من قبل الأفريكانرز ضد بريطانيا وملكها، تلك التى اعتبرت الزيارة نوعًا من الهروب من المشاكل الداخلية البريطانية، أزمة الوقود والأزمة المالية، فشلت في تغيير النظرة الرافضة لبريطانيا. حيث كان تقارب الملك من التنظيمات الأفريكانرية المتطرفة والمعارضة للحكم البريطاني، قد أفشل كل خطط هؤلاء.

• أوضحت الدراسة العلاقة المتينة بين بريطانيا والمحميات البريطانية في منطقة الجنوب الأفريقي وأكدت على ولاء بتشوانالاند وسوازيلاند وباسوتولاند وروديسيا الجنوبية والشمالية للعرش البريطاني، وأنهم لا يرضون عن الحماية البريطانية بديلًا. وأنهم لا يقبلون مطالبات الاتحاد بضم تلك المحميات إليه، وأن ولاءهم يقتصر على العرش البريطاني فقط. وعلى هذا، اطمئنت الإدارة البريطانية إلى قناعاتها بشأن المحميات التي احتفظت بها كما هي حتى الاستقلال في ستينيات القرن العشرين.

• أثبتت الدراسة بأن العائلة المالكة البريطانية قد حققت من وراء الزيارة ستة أهداف رئيسة: أولها: وثقت العلاقة مع كل المجتمعات القاطنة في منطقة الجنوب الأفريقي، وتأكدت من ولائها التام للعرش البريطاني. ثانيها: ضمنت استمرار هذا الولاء للأميرة إليزابيث ولية العرش، التي تولت الحكم سنة ١٩٥٢ وحصلت كل الأقاليم التي زارتها على الاستقلال خلال فترة حكمها(١٩٥٢– حتى الآن). ثالثها: إحداث تقارب بين العناصر البيضاء في جنوب أفريقيا، وضمان ولائها للعرش وتفاعلها معه. رابعها: تقديم رسالة عبر القناصل للطريقة الوادعة والناعمة في حل المشكلات الاستعمارية. خامسها: الاحتفاظ بهيبة الملكية البريطانية ورهبتها فى نفوس أتباعها. سادسها: أن بريطانيا التي خرجت جريحة بعد الحرب العالمية الثانية، وتحتاج لدعم اقتصادي من الخارج، لم تمت بعد. وأن أساليبها السلمية في معالجة المشكلات تصلح للتطبيق في أكثر من منطقة.

هوامش الدراسة:–

♥ جورج السادس عاش في الفترة من ١٤ ديسمبر ١٨٩٥ – ٦ فبراير ١٩٥٢، وأصبح ملكًا لبريطانيا العظمى وإيرلندا في الفترة من ١١ ديسمبر ١٩٣٦ – ٦ فبراير ١٩٥٢. تزوج من إليزابيث باوز ليون سنة ١٩٢٣ وانجب منها ابنتين هما: الأميرة إليزابيث، الملكة إليزابيث الثانية: ولية عهده ووريثته على العرش، والأميرة مارجريت. توفي في ٦ فبراير ١٩٥٢ بسبب سرطان الرئة. للمزيد انظر،
.http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%D9%

♥ هي إليزابيث أنجيلا مارجريت باوز ليون (Elizabeth Bowes-Lyon) عاشت فى الفترة من ٤ أغسطس ١٩٠٠ وحتى ٣٠ مارس ٢٠٠٢. زوجة الملك جورج السادس، ووالدة الملكة إليزابيث الثانية والأميرة مارجريت، لقبت بعد وفاة زوجها بالملكة الأم. توفيت عن عمر يناهز ١٠٢ عام. للمزيد انظر، http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AC%

♥ إليزابيث هي ابنة جورج السادس، ولدت سنة ١٩٢٦، وتولت الحكم تحت اسم الملكة اليزابيث الثانية منذ سنة ١٩٥٢ وحتى الآن. وتدربت على القيادة، وتزوج منها دوق إدنبره، فيليب، في ٢٠ نوفمبر عام ١٩٤٧، اى بعد رجوعها من جنوب أفريقيا بعدة أشهر. أنجبت إليزابيث أول طفل لها، الأمير تشارلز، في ١٤ نوفمبر ١٩٤٨. ومارست سلطتها منذ أن تدهورت صحة الملك جورج السادس خلال عام ١٩٥١م، حتى تسلمت الحكم رسميا بعد وفاته في ٦ فبراير ١٩٥٢. للمزيد انظر، http://ar.wikipedia.org/wiki

♥ الأميرة مارجريت عاشت في الفترة من ٢١ أغسطس ١٩٣٠ وحتى ٩ فبراير ٢٠٠٢، وكانت كونتيسة سنودون، والأخت الصغرى للملكة إليزابيث الثانية. تزوجت في ٦ مايو ١٩٦٠ من المصور الفوتجرافي أنتوني أرمسترونج جونز، والذي أعطي لقب أيرل سنودون عام ١٩٦١. للمزيد انظر،
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%A7%D8%B1

(١) Thompson, L, A History of South Africa, Revised Edition, New Haven: Yale University Press, 1995, pp.33, 55.

(٢) أحمد عبدالدايم محمد حسين:– الجذور التاريخية لمشكلة الأرض فى جنوب أفريقيا ١٨٣٥–٢٠٠٦، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ص متفرقات.

(٣) محمد عبد الحليم محمد على الزرقا :– اتحاد جنوب أفريقيا.. دراسة لتاريخه السياسى والعنصرى ١٩١٠– ١٩٤٨، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٩٢، ص ص ١٣٩، ١٤٥– . ١٥٠ .

♥ حيث تضمن قانون اتحاد جنوب أفريقيا الذى تمت صياغته فى ٢٠ سبتمبر ١٩٠٩، بأن تكون الحكومة التنفيذية للاتحاد مفوضة للملك، وأن يباشرها بناء على رغبته، وهو الذي يخول للحاكم العام المهام والسلطات التي يريدها. لهذا، فإن الحاكم العام كان يعينه الملك، ويمارس مهامه بناء على رغبته، وبموجب تخويل السلطة إليه.

♥ جديون براند فان زيل Gideon Brand van Zyl ، ولد فى ٣ يونيو ١٨٧٣، وتوفي في١ نوفمبر ١٩٥٦. وشغل منصب الحاكم العام لاتحاد جنوب أفريقيا في الفترة من ١٩٤٥ إلى ١٩٥٠. وهو اول من ولد فى جنوب افريقيا وشغل هذا المنصب. وفى عهدة استضاف الملك جورج السادس والعائلة المالكة البريطانية عندما كانوا يقومون بجولة جنوب أفريقيا.

(٤) محمد عبد الحليم محمد على الزرقا :– المرجع السابق، ص ص ١١، ١٢، ١٣٩، ١٤٥– . ١٥٠ .

(٥) Nicole M. Mares:– The British, Boers, and Civilization in Nineteenth Century South African, Submitted to the faculty of the University Graduate School in partial fulfillment of the requirements for the degree Doctor of Philosophy in the Department of History, Indiana University, September 2012, p.2.

♥ ولد جان كريستيان سمتس في مايو ١٨٧٠ وتوفي في ١١ سبتمبر ١٩٥٠، وهو رجل دولة بارز في جنوب أفريقيا والكومنولث البريطاني، وكان قائدًا عسكريًّا مميزًا في الحرب العالمية الأولى والثانية. وتولى العديد من المناصب الوزارية، وشغل منصب رئيس وزراء اتحاد جنوب أفريقيا في الفترة من ١٩١٩ وحتى ١٩٢٤ ، ومن ١٩٣٩ حتى عام ١٩٤٨. وكان له دور فعال في تأسيس سلاح الجو الملكي، وأصبح مارشالا في الجيش البريطاني عام ١٩٤١، وخدم في مجلس وزراء الحرب الإمبراطورى تحت قيادة ونستون تشرشل.

(٦) محمد عبد الحليم الزرقا : المرجع السابق، ص ص ١١٢ وما بعدها. وكذا انظر ، احمد عبدالداييم محمد حسين :– االتعليم والعنصرية فى جنوب أفريقيا فى الفترة من ١٩٤٨–١٩٧٦، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠١، ص ص متفرقات فى الفصلين، التمهيدى والأول.

(٧) السيد فليفل : مستعمرة الرأس البريطانية ١٨٥٣–١٩١٠، رسالته دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٨٣، ص ص متفرقات.

(٨) Marais, J.S.: The Cape Coloured People, (1652-1937), Johannesburg, 1962. PP. 3-11.

(٩) أحمد عبدالدايم محمد حسين :- مصر ومشروعات الأحلاف الدفاعية في أفريقيا(١٩٥١- ١٩٥٨)، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ص ١٤، ١٥.

(١٠) Walker, Eric A.: A History of South Africa, London, 1941. PP. 523.

(١١) F.O.468-1854-23655-1:- Correspondence Respecting The British Commonwealth ,H Affairs, Part 1, 1945 and 1946, No. 42, From Sir E. Baring to Viscount Addison,(Received in Dominions Office 26th March.)(No. 8. Saving.) (Telegraphic.) Pretoria, 21th March, 1946, P.175.

(١٢) Ibid.

(١٣) انظر ملاحق الدراسة فى الجزء الخاص بأرشيف الوثائق، .Ibid

(١٤) خطاب القنصل العام بالقنصلية المصرية بالكيب لوكيل وزارة الخارجية عن الزيارة الملكية، فى ٦ مارس ١٩٤٧ ، ملف٤، محفظة ٨٤، فيلم ٥٤ بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص ص٦، ٨.

(١٥) خطاب من القنصلية الملكية المصرية العامة بمدينة الكيب إلى حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الخارجية فى ١٢ فبراير ١٩٤٧ ، ملف٤، محفظة ٨٤، فيلم ٥٤ بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص ٢. .

(١٦) خطاب القنصلية المصرية العامة بمدينة الكيب إلى حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الخارجية ،فى ٢٣ ابريل ١٩٤٧، ملف٤، محفظة ٨٤، فيلم ٥٤ بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص ص ٣، ٥.

(١٧) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة، ص٦.

(١٨) نفسه ، ص٧.

(١٩) F.O.468-1854-23656-2:- Correspondence Respecting The British Commonwealth. (General) (Australia, Canada and Newfoundland , No. 46, United States: The Royal Visit to South Africa: Tour Fully Reported in Press, from Lord Inverchapel to Mr. Bevin. (Received 30th June)Restricted (No. 1485) Washington, 24th June, 1947 P.138.

(٢٠) South Africa Bill, HC Deb 26 February 1962 vol 654, Order for Second Reading .read, http://hansard.millbanksystems.com/commons,p p.993,.

(٢١) Ime John Ukpanah:- Yearning to be Free: Inkundla ya Bantu (Bantu Forum) as Mirror and Mediator of the African Nationalist Struggle in South Africa, 1938-1951, A Dissertation for the Degree Doctor of Philosophy in History, Department of History, College of Humanities and Fine Arts, University of Houston,pp.27,28..

♥ وهي المنظمة التى تشكلت في بلومفونتين بتاريخ ٤ فبراير ١٩٣٩ من قبل الأفاريكانرز المواليين لألمانيا.، كانت تقف ضد القوات البريطانية خلال الحرب العالمية الثانية ، وعارضت مشاركة جنوب أفريقيا في الحرب.

(٢٢) محمد عبدالحليم محمد على الزرقا :- المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .

(٢٣) Dan O'Meara: The Afrikaner Broederbond1927-1948:Class Vanguard of Afrikaner Nationalism,Journal of Southern African Studies ,Vol.3,No.2,Apr.1977.PP.157-159.

(٢٤) خطاب القنصل العام المصرى بمدينة الكيب إلى حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الخارجية فى ٢٩ يوليو ١٩٤٦ ، ملف٤، محفظة ٨٤، فيلم ٥٤ بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص ٧.

♥ تشكل الحزب الوطنى سنة ١٩١٤ من خلال ملاك الأراضي المضارين من التحول الرأسمالى، وكان يدعمهم البورجوازيون الصناعيين الطموحين ، وكان هذا التشكيل يعنى حزب رأسمالي قومي يسعى لسياسات حماية صناعية، وتقديم منح ومساعدات للمزارعين البيض، وذلك قبل تشكيله من جديد تحت مسمى الحزب الوطنى المتطهر سنة ١٩٣٤، للمزيد انظر، Daves, Robert and Otheres : Op, Cit., P. 159 وانظر Segal, Ronald:- Political Africa " Awho's Who of Personalities and Parties" Stevens and Sons Limited, London 1961, P. 415

♥ الحزب الاتحادى : تشكل سنة ١٩٣٣ نتيجة انضمام حزب جنوب أفريقيا إلى الحزب الوطني القديم فصار المسمى، الحزب المتحد. وهو الحزب الذى كان يقوم عليه هيرتزوج حتى بداية الأربعينيات، إلى أن تولى الجنرال سمتس زمام الامور، وظل حتى فقد السلطة فى انتخابات سنة ١٩٤٨. وراح يقوده ستراوس Strauss بعد سنة ١٩٥٠ ، ثم السيد دى فيليرز منذ سنة ١٩٥٦ ، وظل هو الحزب المعارض الرئيسى فى البلاد، للمزيد انظر : The New Encyclopadia Britanica Vol. 27, P. 655

(٢٥) Giliiome, Hermann and Luwerance Schlmer: Op, Cit., P. 31..

(٢٦) D.O 35 / 3135, Xc 105325 : Political Situation in South Africa British Commonweath Affairs, South Africa, May 14, 1947, P. 2..

(٢٧) التقرير التاسع عشر المرفوع من قبل القنصل العام إلى وكيل وزارة الخارجية عن الرحلة الملكية فى جنوب أفريقيا، في الأول من مايو ١٩٤٧، والمكتوب فى ٢٩ أبريل ١٩٤٧ ، ملف٦ ، محفظة ٨٤، فيلم ٥٤ بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص ٤ .

(٢٨) خطاب القنصل العام االمصري بمدينة الكيب إلى حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الخارجية فى ٣٠ مايو ١٩٤٦ ، ملف٤، محفظة ٨٤، فيلم ٥٤ بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص ٧. .

(٢٩) محمد عبدالحليم محمد على الزرقا :– المرجع السابق، ص ص ٢١٩، ٢٢٠.

(٣٠) أحمد عبدالداييم محمد حسين :– االتعليم والعنصرية فى جنوب أفريقيا .. الرسالة السابقة ، ص ٩٠.

(٣١) خطاب القنصل العام فى ٢٩ يوليو ١٩٤٦ .. الملف والمحفظة السابقة ، ص ص ٢، ٣.

(٣٢) خطاب القنصل العام المصرى بمدينة الكيب إلى حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الخارجية، بخصوص التقرير الخامس عشر الخاص بفتح الهجرة فى جنوب افريقيا، في ٥ أبريل ١٩٤٧، ملف٤، محفظة ٨٤، فيلم ٥٤ بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص ص ١، ٢، ٧.

(٣٣) خطاب القنصلية االمصرية العامة بمدينة الكيب فى ٢٣ ابريل ١٩٤٧.. الملف والمحفظة السابقة ، ص٢.

(٣٤) Ime John Ukpanah:– Op.Cit.,pp.21,27,28, 39, 63.

(٣٥) Ibid.,,pp.1,42,87,88,107.

(٣٦) التقرير التاسع عشر المرفوع فى الأول من مايو ١٩٤٧.. الملف والمحفظة السابقة، ص ٤ .

(٣٧) South Africa Bill, Op.Cit.,p p. 943,944, 949,953, 984.

(٣٨) F.O.468–1854–23656–2:– No. 46, From Lord Inverchapel to Mr. Bevin,Washington, 24th June, 1947 P.139

(٣٩) انظر ملاحق الدراسة فى الجزء الخاص بأرشيف الوثائق، وكذا انظر، Ibid, P.139

(٤٠) F.O.468–1854–23656–2:– Correspondence Respecting The British Commonwealth (General) (Australia, Canada and Newfoundland, Eire, New Zealand, South Africa, General), Part 1, January to December 1947, No. 40 South Africa: Royal Visit to Capetown and Neighbourring Districts, Dispatch from Sir Evelyn Baring to Lord Addison. (Received in Dominions Office 18th March, 1947) Cape Town, 10th March, 1947, P.118

(٤١) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة، ص ١. .

(٤٢) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, Dispatch from Sir Evelyn Baring to Lord Addison, Cape Town, 10th March, 1947, P.118

(٤٣) Ibid., P.119.

(٤٤) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة، ص ص ٣، ٤، ٨. وكذا انظر الأرشيف البصري الخاص بالسفينة فانجارد فى ملاجق الدراسة.

(٤٥) F.O.468-1854-23656-2:- Correspondence Respecting The British Commonwealth,(General) (Australia, Canada and Newfoundland, No.43, South Africa: Visit of The Royal Family (Received in Dominions Office 23rd May) from Sir E. Baring to Viscount Addison. (No. 125) Cape Town,, 16 May, 1947, PP.129.

(٤٦) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة، ص ص ٣، ٤. .

(٤٧) King George VI and the Royal family visit, 1947, http://www.tothevictoriafalls.com/vfpages/tourism/royalvisit.html

(٤٨) South Africa Bill, Op.Cit., pp.943,944.

(٤٩) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة، ص ١. .

(٥٠) انظر: الأرشيف البصري الخاص باستقبالات الكيب والمدن الأخرى فى ملاجق الدراسة، وانظر، South Africa Bill, Op.Cit., pp.943,944.

(٥١) F.O.468-1854-23656-2:- No. 46, From Lord Inverchapel to Mr. Bevin,Washington, 24th June, 1947 P.138.

(٥٢) F.O.468-1854-23656-2:- Correspondence Respecting The British Commonwealth (General) (Australia, Canada and Newfoundland , No. 44,Royal Visit to Southern Rhodesia., From Sir J. Kennedy to Viscount Addison.(No. 121) Salisbury,16th May, 1947, Pp.133.

(٥٣) F.O.468-1854-23656-2:- Correspondence Respecting The British Commonwealth, (General) (Australia, Canada and Newfoundland , No. 48,Royal visit to Swaziland,From Sir K.Baring to Viscount Addison. {Reedred in the Commonwealth Relations(No. 198)[Extract] Pretoria., 23rd June, 1947 P.144.

(٥٤) F.O.468-1854-23656-2:- Correspondence Respecting The British Commonwealth (General) (Australia, Canada and Newfoundland , No. 49. Royal Visit to Basutoland, From Sir E. Baring to Viscount Addison. {Received in Commonirea/th Relations Office, 3rd July)(Extract]No. 199) Pretoria,23rd June, 1947 P.144,145,146.

(٥٥) F.O.468-1854-23656-2:- Correspondence Respecting The British Commonwealth (GENERAL) (Australia, Canada and Newfoundland , No. 50, South Africa: Royal Visit to Bechuanaland Protectorate, from Sir E. Baring to Viscount Addison. (Received in Commonwealth Relations Office, 26th August)(No. 291) Pretoria, 20th August, 1947 P. 147,148.

(٥٦) انظر الأرشيف البصري في ملاحق الدراسة، وكذا انظر South Africa Royal Visit Medal 1947, http://coinquest.com/cgi bin/cq/coins?main_coin=14203

(٥٧) Royal Visit Rarity 1947,www.stephanwelzandco.co.za/Index.cfm?

(٥٨) Film footage of the visit of King George VI, Queen Elizabeth and Princesses Elizabeth and Margaret to the Union of South Africa during February-April 1947, http://janus.lib.cam.ac.uk/db/node.xsp?id=EAD%2FGBR%2F0115%2FRCMS%20358

(٥٩) أنظر الأرشيف البصرى الخاص باستقبالات الكيب والمدن الأخرى فى ملاجق الدراسة، وكذا انظر، www.royal.gov.uk/HistoryoftheMonarchy/KingsandQueensoftheUnitedKingdom/TheHouseofWindsor/GeorgeVI.aspx

(٦٠) Royal Tour of South Africa, http://www.britishpathe.com/video/royal-tour-of-south-africa.

(٦١) Royal Tour of South Africa, 1947, http://www.colonialfilm.org.uk/node/1064

♥ إيست لندن East London: تقع جنوب شرق البلاد في مقاطعة الرأس الشرقي على المحيط الهندي عند مصب نهر بافالو Buffalo لتشكل الميناء البحري الوحيد في جمهورية جنوب أفريقيا. وقد دعيت بهذا الاسم للتمييز بينها وبين مدينة لندن عاصمة المملكة المتحدة. للمزيد انظر، جنوب أفريقيا ملتقى المحيطين الأطلسي والهندي،

عالم سياحية نادرة وأحياء إسلامية راقية وآمنة،
http://www.eyeoftraveler.com/vb/archive/index.php?t-2085.html

(٦٢) King George VI and the Royal family visit, 1947,
http://www.tothevictoriafalls.com/vfpages/tourism/royalvisit.html

(٦٣) Royal Diamonds Exhibition at Buckingham Palace, The South Africa Necklace and Bracelet, http://www.forbes.com/pictures/ehgm45hklf/the-south-africa-necklace-and-bracelet

(٦٤) خطاب القنصل العام في ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة، ص ص ٣، ٤.

(٦٥) نفسه ، ص ١، وكذا انظر الأرشيف البصرى الخاص باستقبالات الكيب فى ملاحق الدراسة.

(٦٦) Extract from The Cape Times , Cape Town August 18-2-1947

المرفق رقم ١ لخطاب القنصل العام بالقنصلية المصرية بالكيب لوكيل وزارة الخارجية عن الزيارة الملكية، فى ٦ مارس ١٩٤٧ ، ملف٤، محفظة ٨٤، فيلم ٥٤ بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية .

(٦٧) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة، ص ص ١، ٢. وكذا انظر الأرشيف البصري الخاص بافتتاح البرلمان فى ملاجق الدراسة.

(٦٨) نفسه ، ص ص ١، ٢.

(٦٩) Extract from The Cape Times , Cape Town August 18-2-1947 , Kings Pays Tribute to Cape Town

المرفق رقم 2 لخطاب القنصل العام بالقنصلية المصرية بالكيب لوكيل وزارة الخارجية عن الزيارة الملكية، فى ٦ مارس ١٩٤٧ ، ملف٤، محفظة ٨٤، فيلم ٥٤ بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ،. . .

♥ كلمة بارل معناها الجوهرة بالافريكانى، وهى أكثر المناطق خصبًا تكثر فيها الفواكه، ويشقها نهر ذى برجر، وتنتشر فيها زراعة العنب، وتقام فيها اكبر مصانع للنبيذ في أفريقيا، وتحيط بها جبال تأخذ مناظرها بالألباب، انظر وخطاب القنصل العام بالقنصلية المصرية بالكيب لوكيل وزارة الخارجية عن الزيارة الملكية، فى ٦ مارس ١٩٤٧ ، ملف٤، محفظة ٨٤، فيلم ٥٤ بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص ٢.

♥ ستيلنبوش هى مقر الجامعة الأفريكانرية، حيث يتلقى الطلبة هناك العلم بالأفريكانية دون الإنجليزية، والجامعة حديثة النشأة وثابتة الخطى. انظر خطاب القنصل العام بالقنصلية المصرية بالكيب لوكيل وزارة الخارجية عن الزيارة الملكية، فى ٦ مارس ١٩٤٧ ، ملف٤، محفظة ٨٤، فيلم ٥٤ بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ، ص ٢

(٧٠) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة ، ص ص١-٤ .

(٧١) Extract from The Cape Argus , Cape Town , 21- ,Speech from the Throne union's problems of peace . 2-1947

المرفق رقم 3 لخطاب القنصل العام بالقنصلية المصرية بالكيب لوكيل وزارة الخارجية عن الزيارة الملكية، فى ٦ مارس ١٩٤٧ ، ملف٤، محفظة ٨٤، فيلم ٥٤ بريتوريا، أرشيف البلدان، وزارة الخارجية ،. . .

(٧٢) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة، ص ص ٣، ٤. وكذا انظر الأرشيف البصري الخاص بالقطار الأبيض فى ملاحق الدراسة.

(٧٣) التقرير التاسع عشر المرفوع فى الأول من مايو ١٩٤٧.. الملف والمحفظة السابقة ، ص ٣ .

(٧٤) نفسه ، ص ٤ .

(٧٥) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Evelyn Baring to Lord Addison, Cape Town, 10th March, 1947, P.118

(٧٦) انظر الأرشيف البصري الخاص بالاستقبالات في الكيب والمدن الاخرى في ملاحق الدراسة، وكذلك انظر، F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Evelyn Baring to Lord Addison, Cape Town, 10th March, 1947,P.119.

(٧٧) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ ، نفس الملف والمحفظة ، ص٨.

(٧٨) خطاب القنصلية الملكية المصرية لعامة بمدينة الكيب فى ١٢ فبراير ١٩٤٧.. الملف والمحفظة السابقة، ص ٢.

(٧٩) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة، ص ص ١، ٨.

(٨٠) خطاب القنصل العام المصرى بمدينة الكيب فى ٢٩ يوليو ١٩٤٦ .. الملف والمحفظة السابقة، ص١. .

(٨١) خطاب القنصلية الملكية المصرية فى الكيب فى ١٢ فبراير ١٩٤٧.. الملف والمحفظة السابقة، ص ٢. .

(٨٢) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة، ص٨. . .

(٨٣) F.O.468-1854-23656-2:- No.43, From Sir E. Baring to Viscount Addison.Cape Town,, 16 May, 1947, PP.129- 131.

(٨٤) .South Africa Bill, Op.Cit.,pp.943,944.

(٨٥) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Ecelyn Baring to Lord Addison,Cape Town, 10th March, 1947, P.120.

(٨٦) خطاب القنصلية الملكية المصرية بمدينة الكيب فى ١٢ فبراير ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة، ص ٢.

(٨٧) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Ecelyn Baring to Lord Addison, Cape Town, 10th March, 1947, P.120.

(٨٨) South Africa Bill, Op.Cit., pp.943,944.

(٨٩) F.O.468-1854-23656-2:- No.43, From Sir E. Baring to Viscount Addison, Cape Town,, 16 May, 1947, PP.129- 131.

(٩٠) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة، ص ص ١، ٢.

(٩١) نفسه، ص ٢.

(٩٢) F.O.468-1854-23656-2:- No.43, From Sir E. Baring to Viscount Addison,Cape Town,, 16 May, 1947, PP.129- 131.

(٩٣) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Ecelyn Baring to Lord Addison. (Received in Dominions Office 18th March, 1947) Cape Town, 10th March, 1947, Pp.119,120.

(٩٤) Ibid, P.119.

(٩٥) Ibid,P.120.

(٩٦) حيث ذكرت بأنه حين زارات العائلة الملكية الكيب رحب بهم السكان، وأظهروا لهم كرم الضيافة، لكن تجاهلت بعض صحف الحزب الوطنى هذه الزيارة، انظر محمد عبدالحليم محمد على الزرقا :- المرجع السابق ، ص ٢٣٠ .

(٩٧) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة، ص٨.

(٩٨) نفسه، ص ص ١، ٢، ٥.

(٩٩) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Ecelyn Baring to Lord Addison. (Cape Town, 10th March, 1947, P.119.

(١٠٠) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة، ص ٤ .

(١٠١) نفسه ، ص٥.

(١٠٢) F.O.468-1854-23656-2:- No.43, From Sir E. Baring to Viscount Addison,Cape Town,, 16 May, 1947, PP.129- 131.

(١٠٣) Ibid,PP.129– 131.

♥ الجوكسكايز هى لعبة يحاول الأفركانرز الوطنيون من خلالها تنمية الشعور الوطني لدى الشعب الأفريكانري. لكنهم كانوا من أولئك الذين يفضلون بالحديث باللغة الأفريكانية مع أعضاء الحزب المتحد كما ينبغي أن يكون. حيث عاشت الأفريكانية في الترانسفال وفي الريف، والتزمت وجهات نظر بوتا وهيرتزوج طوال السنوات منذ عام ١٩١٢، وهو ما أصبح في دائرة اهتمام الحزب الوطني وبعيدا عن اهتمامات سمتس.

(١٠٤) F.O.468–1854–23656–2:– No.43, from Sir E. Baring to Viscount Addison,Cape Town,, 16 May, 1947, PP.129– 131.، وكذا انظر الأرشيف البصري الخاص بزيارة المحميات في ملاحق الدراسة.

(١٠٥) Ibid.

(١٠٦) King George VI and the Royal family visit, 1947,... Op.Cit.

(١٠٧) F.O.468–1854–23656–2:– No. 44, from Sir J. Kennedy to Viscount Addison, Salisbury,16th May, 1947, P.133.

(١٠٨) حيث تحدثوا لآلاف الرجال الذين خدموا سابقا، وكذا النساء اللاتى حضرن. وعقدت في مقر حكومات سالزبوري وبولاوايو حفلات الاستقبال ما يقرب من ٢،٠٠٠ من الضيوف، مثل فيها جميع أقسام المجتمع، ودعى الشباب لحضور الحفلات في دار الحكومة فى سالزبوري، حضره نحو ٥٠٠ من الشباب والرجال والنساء والفتيان والفتيات. ولقى هذا الحدث نجاحًا باهرًا، حيث وضعت ترتيبات أخرى تسمح لجيل الشباب برؤية الزوار الملكيين بطريقة حميمة، للمزيد انظر، F.O.468–1854–23656–2:– No. 44, from Sir J. Kennedy to Viscount Addison, Salisbury,16th May, 1947,P.134

♥ حيث التقت الاسرة المالكة بجميع أعضاء البرلمان وبجميع الوزراء وعدد من كبار المسؤولين في حفلات العشاء في المقرات الحكومية. وقامت الملكة والأميرات بتنفيذ عدد من الارتباطات الأخرى، كزيارة البعثة التبشيرية، وحضروا الكشافة ومسيرات الفتيات المرشدات، وحفلات الشاي لمقابلة ممثلي كل المنظمات النسائية في المستعمرة، وحصلوا فيها على تقدير كبير جدا. وزارت الأسرة أيضا المدارس في سالزبوري وبلومترى Plumtree. وفى كل من سالزبوري وبولاوايو حضروا عدة احتفالات لم تكن خلابة كما هو الحال في المناطق التي تسودها التقاليد القبلية. للمزيد انظر، F.O.468–1854–23656–2:– No. 44, from Sir J. Kennedy to Viscount Addison, Salisbury,16th May, 1947,P.134

♥ حيث قدم لها بروش من الماس كهدية من قبل أطفال أوروبيين وملونين وآسيويين وأفريقيين، عن طريق اكتتاب بشلنات وبنسات. وقدمت الهدية بواسطة ستة أطفال، اثنين من الأوروبيين، وهندي، وملون واثنين من الأفريقيين، حيث جلبوا البروش إلى مقر الحكومة فى سالزبوري. وفي هارتلي قدمت مرشدات المستعمرة لصاحبة السمو الملكى غطاء رأس من الفضة وخشب روديسي، مع بروش في شكل شارة روديسيا. للمزيد انظر، F.O.468-1854-23656-2:- No. 44, from Sir J. Kennedy to Viscount Addison, Salisbury,16th May, 1947,P.135.

(١٠٩) Ibid, PP.134,135

♥ حيث ذكر بأن معظم أصحاب الأرض من الناطقين بالإنجليزية يسكنون الشمال، ويمارسون الزراعة على نطاق واسع إلى حد ما. أما الجنوب فيسكنه الاوروبيون من أصحاب المزارع الصغيرة. ويتم زراعة الأراضي حسب طريقة الأفريكانرز، وهي عبارة عن واحة خلفية للترانسفال، تحصل على دخلها النقدي من بيع حاصلاتها من التبغ الذي يستخدم في تعبئة الغليون واستنشاق دخانه. وأن كرالات الزعيم الرئيس والإندلوفوكازيIndhlovukazi تقع في الشمال. وتقع مبابانMbabane في جنوب السوازي بين التلال شديدة الانحدار في الشمال، كأى نموذج لعاصمة إقليم استعمارى صغير. للمزيد انظر، F.O.468-1854-23656-2:- No. 48, From Sir K. Baring to Viscount Addison,Pretoria., 23rd June, 1947, P.143.

♥ وهى نموذج للمدن الصغيرة اليى تقع في ريف الترانسفال، وتقريبًا تناسب شارع سنكلير لويس الرئيس. حيث توقف القطار الملكى قرب بيت ريتيف، وبسبب طول رحلة السكك الحديدية زاروا مباباني. وأثناء القيادة بالسيارة إلى جودجيجون رأوا التلال جنوب سوازيلاند، ذلك الجزء الذي يتحدث اللغة الأفريكانية. للمزيد انظر، F.O.468-1854-23656-2:- No. 48, From Sir K. Baring to Viscount Addison,Pretoria., 23rd June, 1947, P.143.

♥ فمثلا عند الدخول إلى سرادق الذى يقدم فيه الشاي، كانت تقف بقرة وحصان، حيث تم الاحتفاظ بالجو الريفى، في ظل ترتيب امنى يشرف عليه المفوض البريطانى المقيم.للمزيد انظر Ibid, P.143.

♥ حيث حضر السوبهوزا لهذه المناسبة بزيه الجديد المكون من سترة زرقاء لامعة، وسروال أحمر مع وشاح أصفر فاتح وخوذة بيضاء يتوجها الريش الأسود. وارتدت الإندلوفوكازي الزى التقليدي لامرأة السوازى المتزوجة، مع بعض الإضافات المناسبة لمكانتها. وارتدى اثنان من مستشاريه الزي الرسمي، وارتدى أحدهم غطاء رأس وثوب يتناسب مع كونه خريج جامعة جنوب أفريقيا. وحظى ملبس سوبهوزا على شعبية كبيرة. للمزيد انظر Ibid, P.143.

(١١٠) Ibid,P.143.

♥ وكان هذه الرقصة يؤديها ١٥.٠٠٠ محارب، فى حين قدرتهم الصحافة بـ ٤.٠٠٠ مسلح، يلبسون الزى التقليدي والدروع ويمسكون بالرماح. استقبلوا الأسرة الملكية بالتحية التقليدية على صافرة بصوت عال للغاية، فالضوضاء التى أثارها المحاربون صمّت الآذان قبل الرقص عند الملك ، ومشت الملكة على طول صفوفهم. وكانت الرقصة أيضًا إحياءً لأعراف أفريقية ميتة. فرقصة موريس فى القرن العشرين كان السوازي يعتادونها ويتصرفون فيها بشكل طبيعي ودون قيود. لهذا، فإن أداءهم أمام الملك جعلها الرقصة التى سيتم اداؤها في ديسمبر من كل عام في كامل الزي الرسمى. فضلا عن عدم تدخل ضباط الشرطة الأوروبيين أو الجهات الإدارية في الرقصة بأي شكل من الأشكال. للمزيد انظر .Ibid, P.144

♥ فسمع عن بهجة شعب جنوب سوازيلاند وودهم لجميع أفراد العائلة المالكة، ثم حماس البلدة المجاورة لبيت ريتيف، تلك التى ينحدر منها كل سكان جودجيجون، وقيام مديري المدارس بتقديم شكر للمفوض المقيم على ما قدموه للأطفال. للمزيد انظر .Ibid, P.144

(١١١) Ibid, P.144.

♥ حيث كانت الخيول، سواء المربوطة او المتروكة، تظهر في كل مكان. مما أعطى المشهد بأنه صورة لمعسكر جيش من العصور الوسطى. حيث جلس الباسوتو القرفصاء، أو في داخل البطانيات، حول النيران يأكلون لحوم الثيران المشوية. للمزيد انظر، F.O.468-1854-23656-2:- No. 49,from Sir E. Baring to Viscount Addison, Pretoria,23rd June, 1947 P.144

♥ ويضيف فى هذا المشهد بأنه كان من المستحيل إقناعها من قبل رؤساء المجالس وأعضائها، بأن تلبس ملابس الباسوتو، الثوب المحيط، حيث كانت تواجه الأسرة الملكية في نصف دائرة بين٧٠،٠٠٠ و ١٠٠،٠٠٠ من الباسوتو من جميع المناطق ومن جميع الأنواع، مرتدين مجموعة متنوعة من الملابس. وبرؤيتهم من أعلى نجد أن آخر صفوف المتفرجين تقترب من تل الحجر الرملي والكهف الذي يقع على مقربة من أراضى باسوتولاند المنخفضة عند منزل يسمى فجوة الرماح ، حيث كانت دورية الفرسان موجودة، وهي إحدى جماعات الباسوتو القديمة المحاربة، وصورتها أكثر إثارة للإعجاب. وكل ما كان مطلوبا هو البطانيات الملونة الكبيرة المعروفة باسم البيتسو Pitsos. للمزيد انظر، F.O.468-1854-23656-2:- No. 49,from Sir E. Baring to Viscount Addison, Pretoria,23rd June, 1947 P.145,146

(١١٢) F.O.468-1854-23656-2:- No. 49,from Sir E. Baring to Viscount Addison, Pretoria,23rd June, 1947 P.144-146.

♥ وكان هناك تعليق على الخطب، وعلى سلوك الباسوتو وعلى تنظيم البيتسو. ففي صحيفة المنتدى Forum قلد الملك الأفارقة بعض الرتب، تلك التى وصفت كحدث فريد من نوعه في تاريخ جنوب أفريقيا ، وقدمت وصفا تفصيليا للزيارة. فضلا عن إشادتها بوسام الشهامة الذي قدم للرقيب ماسوفا Masupha من فيلق بايونير أفريقيا، الذي حصل على ميدالية عسكرية. للمزيد انظر، F.O.468-1854-23656-2:- No. 49,from Sir E. Baring to Viscount Addison, Pretoria,23rd June, 1947 P.146.

(١١٣) F.O.468-1854-23656-2:- No. 49,from Sir E. Baring to Viscount Addison, Pretoria,23rd June, 1947, PP.146, 147.

(١١٤) F.O.468-1854-23656-2:- Correspondence Respecting The British Commonwealth (General) (Australia, Canada and Newfoundland , Enclosure in No. 49, Paramount Chief's SpeechPretoria,23rd June, 1947 P.147, 148.

(١١٥) F.O.468-1854-23656-2:- No. 50,from Sir E. Baring to Viscount Addison,Pretoria, 20th August, 1947 P.148.

(١١٦) Ibid,PP. 148,149.

(١١٧) Ime John Ukpanah:- Op.Cit.,p.15.

(١١٨) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, FromSir Ecelyn Baring to Lord Addison, Cape Town, 10th March, 1947, P.120.

(١١٩) F.O.468-1854-23656-2:- Enclosure in No. 40 Press Reactions, Cape Town, 10th March, 1947, P.121.

(١٢٠) Ibid,P.121.

(١٢١) Ibid, P.122.

(١٢٢) Ibid, P.122.

(١٢٣) F.O.468-1854-23656-2:- Enclosure in No. 43 Press Reactions to the Royal VisitCape Town,, 16 May, 1947, PP.132,133.

(١٢٤) Ibid, PP.132,133.

(١٢٥) F.O.468-1854-23656-2:- No. 46, From Lord Inverchapel to Mr. Bevin,Washington, 24th June, 1947 P.137.

(١٢٦) Ibid, P.137

(١٢٧) التقرير التاسع عشر المرفوع فى الأول من مايو ١٩٤٧.. الملف والمحفظة السابقة، ص ص ١– ٣ .

(١٢٨) F.O.468-1854-23656-2:- No. 46, From Lord Inverchapel to Mr. Bevin,Washington, 24th June, 1947, P.138

(١٢٩) خطاب القنصل العام بالكيب فى ٢٩ ابريل ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة.

(١٣٠) التقرير التاسع عشر المرفوع فى الأول من مايو ١٩٤٧.. الملف والمحفظة السابقة، ص ١ .

(١٣١) نفسه ، ص ٣ .

(١٣٢) نفسه، ص ٤ .

(١٣٣) نفسه ، ص ص ١– ٣ .

(١٣٤) نفسه ، ص ٣ .

(١٣٥) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Ecelyn Baring to Lord Addison, Cape Town, 10th March, 1947, P.121.

(١٣٦) التقرير التاسع عشر المرفوع فى الأول من مايو ١٩٤٧.. الملف والمحفظة السابقة، ص ص ٢ ، ٣ .

(١٣٧) نفسه ، ص ٤ .

(١٣٨) نفسه ، ص ٣ .

(١٣٩) نفسه ، ص ٤ .

(١٤٠) F.O.468-1854-23656-2:- No. 40, From Sir Ecelyn Baring to Lord Addison, Cape Town, 10th March, 1947, P.121.

(١٤١) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة ، ص٦.

(١٤٢) نفسه، ص٧.

(١٤٣) F.O.468-1854-23656-2:- No.43, from Sir E. Baring to Viscount Addison. Cape Town,, 16 May, 1947, PP.129- 131.

(١٤٤) Ibid, P.132.

(١٤٥) خطاب القنصل العام فى ٦ مارس ١٩٤٧ .. الملف والمحفظة السابقة، ص٥.

انعكاسات ثورة يوليو على السياسة البريطانية تجاه أفريقيا (١٩٥٢-١٩٦٦)

أ.م.د/ هدى محمود نايل
استاذ مساعد بالأكاديمية الحديثة

ملخص:

تـزامن تصـاعد دور مصـر الأفريقـي مـع قيـام ثـورة يوليـو ١٩٥٢ مـع تراجـع ملحـوظ وانكمـاش ملفـت للإمبراطوريـة البريطانيـة فـي القـارة الأفريقيـة، ونظـرت بريطانيـا لمصـر منـذ قيـام ثورتهـا المجيـدة باعتبارهـا العـدو الأفريقـي الأول لتطلعاتهـا فـي الحفـاظ علـى مسـتعمراتها ونفوذهـا الاسـتعماري الراسـخ. ومـن هنـا، حرصـت بريطانيـا، سـواء منفـردة أم بمسـاعدة وتنسـيق مباشـر مـع قـوى إقليميـة ودوليـة مثـل إسـرائيل وفرنسـا، علـى مواجهـة كافـة السياسـات المصـرية فـي القـارة الأفريقيـة فـي قضـايا مثـل السـودان، وأقـاليم شـرق أفريقيـا، وأفريقيـا الجنوبية والغربية.

وقـد بلـورت ثـورة يوليـو دور مصـر الأفريقـي والعربـي بشـكل واضـح ومسـتمر حتـى الوقـت الـراهن؛ وبينمـا ركـزت مصـر بعـد ثـورة يوليـو علـى دعـم اسـتقلال السـودان عـن بريطانيـا، القـوة الاسـتعمارية الأعظـم فـي ذلـك الوقـت، والتوصـل مـع لنـدن لاتفـاق فبرايـر ١٩٥٣ ووقـوف القـاهرة بإصـرار أمـام منـاورات الأخيـرة لتسـويف حـل مشـكلة السـودان. وتقـرر بنـاء علـى اتفـاق فبرايـر ١٩٥٣ إقـرار حـق السـودان فـي تقريـر مصـيره ثـم إعـلان اسـتقلاله بالفعـل فـي الأول مـن ينـاير ١٩٥٦، وكانـت مصـر أول دولـة تعتـرف باسـتقلال السـودان، وقـدمت أول سـفير معتمـد للخرطـوم فـي دلالـة علـى حقيقـة موقـف ثـورة يوليـو مـن المسـألة السـودانية وإشـارة لتصـاعد العـداء البريطـاني لسياسـات ثـورة يوليـو الأفريقيـة بشكل عام لاسيما منذ العام ١٩٥٢.

وقـد تناولـت عـدة دراسـات مصـرية وإنجليزيـة تعقيـدات العلاقـات بـين القـاهرة ولنـدن ومواقـف الأخيـرة مـن ثـورة يوليـو ١٩٥٢ وسياسـاتها الخارجيـة؛

ومن أبرزها دراسة للدكتورة هدى جمال عبد الناصر بعنوان "ثورة يوليو في الوثائق البريطانية" (٢٠٠٢) وأبرزت فيها الرؤية الإنجليزية للثورة ودورها الخارجي لاسيما في الشرق الأوسط وأفريقيا؛ ودراسة مهمة للغاية لروبرت ل. هان R. L. Hahn بعنوان: The United States, Great Britain, and Egypt, 1945-1956: Strategy and Diplomacy in the Early Cold War (١٩٩١) وتميزت باعتمادها على مجموعة كبيرة من الوثائق السياسية والعسكرية الأمريكية والبريطانية. وتحاول الدراسة الحالية التركيز على البعد الأفريقي في رؤية بريطانيا لثورة يوليو وتوجهاتها الخارجية والإجابة على أهم إشكالات هذه الرؤية وتبعات مساعي بريطانيا فرض خيارات سياسية على مصر للحيلولة دون التأثير في الدول الأفريقية الشقيقة.

Abstract

Egypt's increased role in Africa since July 1952 was accompanied with a remarkable shrink of the British Empire influences in Africa. It was clear that Britain has considered Egypt as its utmost enemy in Africa, and the barrier against London's aspirations in the continent after the great weave of de-colonialization throughout Africa. As a result, London was keen in working against the Egyptian policies in Africa, both individually or in coordination with some regional and international powers such as Israel and France.

However, the Egyptian revolution of 1952 has catalyzed Egypt's African and Arab role until the current day. While Egypt has paid its great attention to Sudan independence cause, it has achieved several breakthroughs in Africa such as in supporting liberation movements in Kenya, British Somaliland, Zanzibar among others.

The study shed the light on Britain's attitudes towards the Egyptian revolution of 1952 policies in Africa until mid-1960s., and has analyzed these attitudes within the British Containment Policy in order to determine Egypt's move in East Africa and Sudan. In addition, the study has traced the British efforts to mobilize the United States behind the former's aims in Middle East and Africa.

أولًا: بريطانيا "والمسألة المصرية" بعد الحرب العالمية الثانية :

اكتسبت مصر أهمية كبيرة في استراتيجيات بريطانيا في أفريقيا منذ العام ١٨٦٩ مع افتتاح مصر قناة السويس التي زادت من أهمية مصر ومحوريتها عالميًّا، وتحولها إلى أهم مركز لطرق التجارة العالمية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، واتضح ذلك في مرور ٤٨٦ سفينة في القناة في العام ١٨٧٠ بقدرة إجمالية ٤٣٦ ألف طن مثلت البضائع البريطانية منها نسبة ٦٦%. وبحلول العام ١٩١٠، وصل إجمالي البضائع المارة بالقناة ١٦.٥ مليون طن نسبة البضائع البريطانية منها ٦٣%[١]، إلى جانب أهمية مصر في التنافس الاستعماري الدولي الذي سعت بريطانيا خلاله الحفاظ على مكانتها الفائقة فيه. وعلى سبيل المثال، فقد كانت مصر ذات أهمية قصوى في هذه الاستراتيجية الاستعمارية البريطانية لمواجهة النفوذ الاستعماري الفرنسي في مجالات شتى، كما اتضح في مناقشات دارت في العام ١٩٤٢ بين السلطات الاستعمارية البريطانية والفرنسية في السودان وباريس وبرازافيل لتشييد شبكة من الطرق لربط الكونغو بالقاهرة مرورًا بمحطات مقترحة أبرزها "جوبا" والأبيض، وإن فقد مشروع الكونغو– القاهرة قدرًا من قيمته الاستراتيجية في العام ١٩٤٣ مع توجيه البريطانيين أعينهم لاحقًا لساحة البحر المتوسط وليبيا[٢]

وزادت الحرب الكورية من تعقيد برنامج إعادة التسليح rearmanment، أما في إيران، فقد واجه البريطانيون نظامًا وطنيًّا بقيادة

([1]) Thompson, Willie, Global Expansion Britain and its Empire, 1870–1914, Pluto Press, London, 1999, p. 31.

([2]) Eric T. Jennings, Britain and Free France in Africa, 1940–1943 (in: James R. Fichter, editor, British and French Colonialism in Africa, Asia and the Middle East Connected Empires across the Eighteenth to the Twentieth Centuries) Palgrave MacMillan, New York, 2019, p. 289..

كانت الكونغو واقعة بين الاستعمارين الفرنسي والبلجيكي، وحصل الكونغو البلجيكي على الاستقلال في يناير ١٩٦٠، بينما حصل الكونغو الفرنسي على استقلاله في أغسطس ١٩٦٠

مصدق الذي أمم بشكل أحادي شركة البترول الأنجلو– إيرانية Anglo–Iranian Oil Company وفي صيف وخريف العام ١٩٥١، انقسمت حكومة العمال بين فريق يقوده هربرت موريسون Herbert Morrison وزير الخارجية، وشينويل Shinwell وزير الدفاع الذي أراد القيام بعمل عسكري لاستعادة بريطانيا مكانتها، وفريق تبنى سياسات أكثر واقعية ومسئولية لرئيس الوزراء أتليه Attlee، وكان من الأسباب التي ساقها الصقور هي الحاجة لإظهار خطورة إقدام المصريين على خطوة مشابهة للخطوة الإيرانية في مسألة قناة السويس. وربما كان بدافع من النجاح الإيراني أن أعلن رئيس الوزراء المصري مصطفى النحاس بشكل أحادي إبطال معاهدة ١٩٣٦ ورفض المقترحات البريطانية بخصوص تنظيم دفاعي للشرق الأوسط، مع بدء مجموعات مصرية مهاجمة القاعدة البريطانية في قناة السويس، وكان مسئول بالخارجية الأمريكية قد زار مصر في النصف الأول من العام ١٩٥٢ وأكد أمام قيادة الأركان المشتركة الأمريكية American Joint Chiefs of Staff أن التسوية بين المصريين والبريطانيين مستحيلة، وأن العداء ضد البريطانيين في مصر عام وحاد[١].

ومن جانبها، مثلت حكومة المحافظين في بريطانيا بزعامة رئيس الوزراء وينستون تشرشل Winston Churchill تهديدًا لكافة حركات التحرر في مستعمرات بريطانيا الأفريقية، لاسيما أن تشرشل كان على يقين تام من وجوب مواجهة جميع الشعوب غير البيضاء بالقوة، الأمر الذي كان يؤشر إلى اتباع حكومة تشرشل سياسات عدائية للغاية تجاه أنشطة المجموعات المصرية العسكرية المناهضة للوجود العسكري البريطاني في قناة السويس والتي وصلت إلى حد "حرب غير معلنة" (قبيل ثورة يوليو بشهور قليلة) تكبد خلالها الطرفان مائة قتيل مصري و٣٣ جنديًا بريطانيًا، وخول تشرشل القائد

(1) McNamara, Robert, Britain, Nasser and the Balance of Power in the Middle East 1952–1967: From the Egyptian Revolution to the Six Day War, Frank Cass, London, 2005, p. 19.

البريطاني الجنرال روبرتسون تصريحًا باستخدام القوة المفرطة ضد المصريين، وقادت هذه الاستراتيجية إلى كارثة في يناير ١٩٥٢ بمقتل نحو ٥٠ شرطيًّا مصريًّا على يد القوات البريطانية في الإسماعيلية تلاها ما عرف بالسبت الأسود بمظاهرات حاشدة في القاهرة استهدفت السكان الأجانب (الأوروبيين)، ولاحظ البريطانيون تباطؤ الملك ورئيس الوزراء المصريين المتعمد في دعوة الجيش لمواجهة هذه المظاهرات، ووضعت الحكومة البريطانية خطة أطلقت عليها "روديو" Rodeo للاستعداد لاحتلال كامل لمصر في حالة خروج الوضع عن السيطرة، غير أن هذه الخطة لم تطبق بسبب تطابق رؤى جميع قطاعات المصريين[١].

وفي تعارض مع هذه الاستراتيجيات البريطانية في أفريقيا سعت مصر قبيل قيام ثورة يوليو إلى تأمين دعم دول الكتلة السوفييتية لاسيما الاتحاد السوفييتي. وقد عبر الاتحاد السوفييتي منذ تأسيس علاقاته الدبلوماسية مع مصر عن دعمه الواضح لنضال مصر من أجل الاستقلال الوطني. لكن يلاحظ أنه في الفترة التي تلت العام ١٩٤٥ اتخذ الاتحاد السوفييتي موقفًا مختلفًا إزاء "المسألة السودانية" (التي كانت بؤرة سياسات مصر الأفريقية حتى منتصف الخمسينيات على الأقل) كما اتضح في مداولات مجلس الأمن بالأمم المتحدة في أغسطس–سبتمبر ١٩٤٧، وقبل عرض رئيس الوزراء المصري حينذاك النقراشي مطالبه، بادر وفده بالتأكيد على حصولهم على تعاطف الاتحاد السوفييتي وأن مصر ستلتزم بسياسة الحياد في الصراعات الدولية. كما وعدت مصر بالوقوف إلى جانب الاتحاد السوفييتي "عندما تأتي الضرورة، بينما رأت الصحافة الروسية أن أداء النقراشي كان دون المستوى وأنه كان موجهًا لتقليل تأثير المعارضة في بلاده "وإعداد التربة لقرض أمريكي". وبعد أن عبر الاتحاد السوفييتي وحليفتها بولندا عن دعمهما لتأييد التحرر الوطني المصري لكنهما تحفظتا على "دعاوى مصر بالسيادة على

---

(1) Ibid, p. 23.

السودان" وأكد مندوب الاتحاد السوفييتي بمجلس الأمن بالأمم المتحدة أندريه جروميكو Andrei Gromyko في خطاب بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٩٤٧ أن الاتحاد السوفييتي يتفهم التطلعات الوطنية المصرية ويتعاطف معها لتحقيق استقلالها على أساس المساواة في السيادة مع الدول والشعوب الأخرى، ولمطالبة مصر بالسحب الفوري للقوات الإنجليزية من مصر والسودان أساس قوي..."لكننا لا نعرف ما الذي يريده السوداني ونوما الذي يسعون إليه. وبدون معلومات دقيقة فيما يخص أهداف الشعب السوداني فإنه من الصعوبة بمكان على مجلس الأمن اتخاذ قرار في هذه المسألة [١]. "

وشهدت العلاقات الإنجليزية المصرية تطورات حادة في منتصف العام ١٩٥١ مع تصاعد التوجه الإنجليزي نحو دمج مصر في تصورات أمنية وعسكرية أشمل، عوضًا عن مسألة السودان. وقد أثار وزير الخارجية البريطاني هربرت موريسون Herbert Morisson خلال حديثه أمام البرلمان البريطاني في ٣٠ يوليو ١٩٥١ القضية بطرح مغاير بإشارته إلى حلف "شمال الأطلنطي" وخطط لندن "الجارية" حينذاك لتوسعته ليشمل تركيا واليونان وما كشفه عن أن "مشكلة وجود القوات البريطانية في مصر لم تعد مشكلة إنجليزية مصرية صرفة. إننا قوة Power تحمل مسئولية في الشرق الأوسط بالنيابة عن "الحلفاء الغربيين" ككل. إن مصر من بعض الجوانب المفتاح للشرق الأوسط. وكما يشي التاريخ، فإنه من قبيل Delusion التظاهر بأن مصر يمكنها أن تتجنب الانخراط في أي صراع رئيس (في المنطقة) بحكم موقعها كجسر بين قارتين وعلى ممر مهم في طرق الاتصالات الرابطة بين نصفي الكرة الأرضية الغربي والشرقي، كما إنها هدف من الأهمية الأولى لأية قوة معادية في شرق البحر المتوسط والشام...وفيما يشترك مع حلفائنا في شمال الأطلنطي أو بالكومنولث، فإن شعبنا أخذ على عاتقه عبء ثقيل في وقت السلم من أجل جعل العالم أكثر

([1]) Ginat, Rami, Egypt and the Struggle for Power in Sudan From World War II to Nasserism, Cambridge University Press, Cambridge, 2017, p. 119.

أمانًا اتاك الدول التي نتشارك معها في تراث وحضارة مشتركين. إننا ندعو مصر كشريك على قدم المساواة في هذا الجهد المشترك لجعل العالم آمنًا، ونريد أن خطط علاقاتنا على أساس جديد تمامًا، وإن رفضت مصر ذلك، فإنه ليس بمقدورنا عدم الالتزام بمسئولياتنا الدولية [١].

وفي المقابل، يمكن وصف الوجود البريطاني في أفريقيا منذ منتصف القرن العشرين تقريبًا بأنه اتسم بشكل عام بتوجهات فك الارتباط والانسحاب وتحجيم الأضرار، لاسيما منذ العام ١٩٤٥ بعد أن خرجت بريطانيا من الحرب العالمية الثانية منهكة ومفلسة، ورؤية حكومة العمال الجديدة برئاسة كليمنت أتليه C.Attlee أنه بالإمكان الاعتماد على المستعمرات البريطانية في أفريقيا على نحو يساعد لندن في استعادة مدخولات اقتصادية مهمة، لكن هذه المهمة كانت صعبة لتطلبها استثمارات بريطانية في المستعمرات الأمر الذي لم يكن في مقدور المملكة المتحدة حينذاك. ونتيجة لمرور الأخيرة بأزمة مالية تلو الأخرى منذ ذلك الوقت تزايدت الضغوط السياسية لنيل المستعمرات الأفريقية استقلالها، إضافة إلى ضغط النفقات الإدارية والعسكرية، إضافة إلى ضغوط من الولايات المتحدة التي أصبحت قلقة من نمو المشاعر المعادية للاستعمار واحتمال فتحها الباب أمام انتشار النفوذ السوفييتي في أفريقيا[٢]. ومع حلول منتصف خمسينيات القرن الماضي، أصبح واضحًا لدى الحكومة في لندن أن عليها المضي قدمًا في المسارعة بإنجاز خطط منح الاستقلال السياسي لمستعمراتها. وقد قضت "أزمة السويس" ١٩٥٦ على أية شكوك إزاء جدوى احتفاظ لندن بإمبراطورية أفريقية في "مواجهة رياح التغيير"[٣].

وهكذا تداخلت مصر بحكم موقعها الجغرافي وأهميتها الاستراتيجية المتصاعدة في أفريقيا (والشرق الأوسط) في صلب السياسات البريطانية في

([1]) Information Papers No. 19, Great Britain and Egypt 1914–1951, Royal Institute of International Affairs, London, 1952, P. 143.

([2]) Porteous, Tom, Britain in Africa, Zed Books, London, 2008, p. 6.

([3]) Ibid, p. 6–7

أفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية وعززت نظرة لندن للقاهرة كقوة تهديد لوجود الأولى في القارة السمراء خاصة بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ وتبنيها سياسات استقلال وطني غير مسبوقة في العلاقات البريطانية–المصرية منذ الاحتلال البريطاني لمصر في العام ١٨٨٢.

ثانياً: سياسات ثورة يوليو الأفريقية والمصالح البريطانية في أفريقيا:

ثمة ملاحظات مبدئية مهمة لتوضيح سياق ارتباط أو تعارض سياسات ثورة يوليو الأفريقية ومصالح بريطانيا في أفريقيا قبل رسوخ نظام يوليو، ومن أهم هذه الملاحظات أن مسألة الإمبراطورية أو رابطة الكومنولث قد ظلت منذ العام ١٩٥١ (عودة ونستون تشرشل إلى رئاسة وزراء بريطانيا) حيوية للغاية بالنسبة لمصالح بريطانيا الاقتصادية، إذ استمدت بريطانيا نحو ٤٩% من وارداتها من هذه المناطق التي كانت تستقبل بدورها نحو ٥٤% من صادرات بريطانيا. وواصلت سلسة مؤتمرات حول الكومنولث ترأسها تشرشل منذ مطلع الخمسينيات الاهتمام بالمسألة. وتركز اهتمام بريطانيا في غرب أفريقيا – على سبيل المثال–بكبرى مستعمراتها هناك وهما نيجيريا وغانا اللتان تمتعتا بمساحة كبيرة وعدد سكان يفوق ما سواهما في الإقليم كما أنهما لم تشهدا مشكلة الاستعمار الاستيطاني ووجود مستوطنين من البيض، وهكذا فإنه بحلول العام ١٩٥٥ قبلت حكومة تشرشل على الفور استقلالهما لاسيما أن عدداً كبيراً من الخبراء البريطانيين اعتبروا ان استقلال مثل هاتين الدولتين لن يؤثر سلبًا على مصالح بريطانيا فيهما من الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجية [1].

([1]) Farmer, Alan, Britain: Foreign and Imperial Affairs 1939–64, Hodder& Stoughton, Kent, 1994, p. 96.

حصلت غانا على استقلالها في أبريل عام ١٩٦٠ بينما حصلت نيجيريا على الاستقلال في ستينيات القرن العشرين.

أما شرق أفريقيا، وخاصة مستعمرات بريطانيا في تنجانيقا وأوغندا وكينيا، فقد كانت تتميز بقلة عدد المتعلمين الأفارقة وانتشار أقليات "كبيرة" نسبيًّا من الآسيويين والبيض الذي عززت بريطانيا وجودهم، وكانت خطة بريطانيا الرئيسة في شرق أفريقيا تكوين "اتحاد شرق أفريقيا" على أكتاف الأفارقة في تنجانيقا وأوغندا وبقيادة البيض في كينيا، وهي خطة حفزت بقوة تماسك المعارضة السوداء لاسيما في كينيا في الفترة ١٩٥٢–١٩٥٦ وصعود حركة "ماو ماو" التي دفعت بريطانيا لإرسال آلاف الجنود لكينيا لمواجهة الحركة حتى قمعها في العام ١٩٥٦[١].

وكان الوجود البريطاني في مناطق أفريقيا الاستوائية قصيرًا نسبيًّا مقارنة بوجود بريطانيا في البحر الكاريبي أو الهند؛ فإلي جانب قلة من المستوطنات الصغيرة على ساحل غرب أفريقيا التي أسست في عهد تجارة الرقيق أو فترة إلغاء هذه التجارة، فإن سيادة بريطانيا الرسمية في بعض المناطق لم تتجاوز ٨٠أو ٩٠ عامًا. كما كونت – في المقابل– ممتلكات بريطانيا الاستعمارية في غرب وشرق ووسط أفريقيا (والتي استولت عليها في ذروة قوتها الصناعية والسياسية) التي مثلت في مجملها جزءًا كبيرًا من "الإمبراطورية" البريطانية ووصل عدد هذه لدول التابعة لبريطانيا نحو ١٤ دولة متباينة في الحجم والارتباطات الدستورية مع التاج البريطاني ومنها تنجانيقا التي استولت عليها بريطانيا من ألمانيا عقب الحرب العالمية الأولى، وشملت في بعض الأدبيات "الإمبريالية ما عرف بالصومال البريطاني

([1]) Farmer, Alan, Britain: Foreign and Imperial Affairs 1939-64, Op. Cit. p. 97.

حصلت كل من تنجانيقا (تنزانيا حاليًا) وأوغندا على استقلالهما عام ١٩٦٢، كما حصلت كينيا على الاستقلال عام ١٩٦٣.

و"السودان الإنجليزي المصري" الذي تمتد حدوده في قلب أفريقيا الاستوائية، وخضع رسميًّا فلإدارة المصرية بينما مارست لندن الهيمنة الفعلية عليه(١).

ونالت المستعمرات الأفريقية بعد الحرب العالمية الثانية درجة من التماسك في هذه لافترة التي اتسمت بالتغيرات السريعة ووجود نسب كبيرة من المحليين في الجمعيات الوطنية وعودة القادة السياسيين من المهجر إلى موطنهم الأم، وحدث نوعًا من تطور الحركة الوطنية، حيث تكونت بالأساس –وعلى نحو استثنائي–من نخب سياسية موحدة ومتقاربة في الفهم. كما استثمرت بريطانيا (وبقية القوى الاستعمارية لاسيما فرنسا) استثمارات كبيرة في مجال "التنمية الاستعمارية"، لكن ظلت في المحصلة استثمارات ضئيلة مقارنة بالتراكم الاقتصادي الضخم الذي حققته بريطانيا والقوى الأخرى من السكان المحليين الذين لم يكن أمام الفلاحين منهم خيارات تذكر سوى قبول أسعار الإنتاج المتدنية التي تقدمها هيئات التسويق الحكومية المحلية وجهات الشراء في "الدول الأم"(٢).

كان تحول علاقات بريطانيا العظمى الاستعمارية أحد جوانب نتائج الحرب العالمية الثانية بعد أن حققت جميع مستعمرات بريطانيا تقريبًا وضع السيادة، وظهرت ١٥ دولة جديدة على مساحة ثلاثة ملايين ميل مربع وعدد سكان ١٢٧ مليون نسمة (مقارنة بعدد سكان بريطانيا العظمي حينذاك الذي كان في حدود ٤٧ مليون نسمة)، وهو حجم تغيرات هائل في ذلك الوقت، ولم تؤثر هذه التغيرات على المناطق الأفريقية وسكانها فحسب، بل على مكانة أفريقيا ككل في أولويات بريطانيا وسياساتها التي تغيرت منذ ذلك الوقت بشكل كامل تقريبًا. وفي مواجهة مشكلات خطيرة تتعلق بسياسات لندن في

(1) Munro, J. Forbes, Britain in Tropical Africa, 1880–1960: Economic Relationships and Impact, Macmillan Press, London,1984, pp. 9–10

(2) Londsale, John, Political accountability in African history (in: Chabal, Patrick, editor, Political Domination in Africa: Reflections on the limits of power) Cambridge University Press, Cambridge, 1986, p. 154.

أفريقيا فشلت بريطانيا في تفادي عواقب مساعي استقلال الدول الأفريقية في شكل موجات متلاحقة. وقد خرجت بريطانيا من الحرب العالمية الثانية كأنها إحدى قوى العالم الكبرى كونها احتفظت بإمبراطوريتها دون مساس لكن على مستوى أعمق كانت بريطانيا تواجه مشكلات اقتصادية خطيرة إذ اضطرت إلى التخلي عن ربع أصولها الخارجية لتمويل مجهودها الحربي، كما انها فقدت جزءًا كبيرًا من أسطولها التجاري، وانخفضت صادرات بريطانيا إلى نحو نصف مستوياتها في فترة ما قبل الحرب مباشرة، وتراكمت ديون هائلة على الحكومة البريطانية [١].

ورأت بريطانيا والولايات المتحدة أن جمال عبد الناصر بدأ من العام ١٩٥٤ في اتباع سياسة خارجية (قوامها عدم الانحياز ودعم حركات التحرر الأفريقية) تتعارض مع خططهما، ونظرا بعين الريبة لتصور عبد الناصر عن دور مصر الثوري في قيادة النضال ضد الإمبريالية في العالم العربي والإسلامي وأفريقيا، كما اتضح تمامًا في خطاب عبد الناصر في ذكرى الثورة السنوية الثانية وإطلاقه دعم القاهرة للثورة في الجزائر الخاضعة للحكم الفرنسي وفي كينيا الخاضعة للحكم البريطاني. وأعلن ناصر وقتها رؤيتها أن التحالف الدفاعي الغربي شكل من أشكال الإمبريالية[٢].

وقد تقاطعت تحركات مصر في القارة الأفريقية وخاصة في شرق أفريقيا قبيل منتصف خمسينيات القرن العشرين مع مصالح بريطانيا في الإقليم، ولوحظ أنه بعد إحكام جمال عبد الناصر سلطته في مصر في العام ١٩٥٥ جمع صديقه الكاتب محمد حسنين هيكل مجلدًا صغيرًا لآراء عبد

([1]) Nielsen, Waldemar A. The Great Powers and Africa, Preager Publishers, New York, 1969, pp. 25-6.

كانت مصر دائنة لبريطانيا في ذلك الوقت بمبلغ ٤٥٠ مليون جنيه

([2]) Hahn, Peter L. The United States, Great Britain, and Egypt, 1945-1956: Strategy and Diplomacy in the Early Cold War, The University of North Carolina Press, London, 1991, pp. 183-4.

الناصر بعنوان "فلسفة الثورة" يضع فيه مصر في قلب ثلاث دوائر من التأثير (العربية والأفريقية والإسلامية) وعدها المسئولون البريطانيون بيانًا طموحًا لأهداف سياسة ثورة يوليو الخارجية، وأنه يبلور مساعي مصر لتحقيق "هيمنة إقليمية" ودعم زعامة جمال عبد الناصر عربيًا وأفريقيًا، وهي زعامة لم تكن تمثل مكلة لدى البريطانيين حتى العام ١٩٥٤[١].

وكان العام ١٩٥٥ بالغ الأهمية في رؤية بريطانيا لخطورة تحركات نظام يوليو وسياساته الخارجية لاسيما في الشرق الأوسط وأفريقيا؛ وشهد هذا العام تعزيز قيادة الثورة المصرية سيطرتها بدعم من تطورات الأحداث السياسية الإقليمية. ومع توصل مفاوضات الحكومة المصرية مع نظيرتها البريطانية إلى نتيجة ناجحة بالنسبة لمصر تم بمقتضاها الاتفاق على سحب القوات البريطانية من مصر، فقد كان من المستحيل أمام حكومة جمال عبد الناصر الانضمام للتحالف الدفاعي المقترح برعاية غربية "حلف بغداد"، مع ملاحظة أن المعاهدة الإنجليزية المصرية (١٩٥٤) تضمنت بندًا يسمح بعودة القوات البريطانية في حالة "العداءات العالمية" global hostilities، علاوة على ذلك، فإن حلف بغداد الذي خطط له "الناتو" قد استهدف حسب نظام يوليو الحفاظ على الهيمنة الغربية في الإقليم. وبالنسبة لمصر كانت المصالح الغربية "في وادي النيل" محل قلق مستمر[٢].

ورأت بريطانيا أن مؤتمر باندونج (أبريل ١٩٥٥) شكل قاعدة جديدة لانطلاق سياسات ثورة يوليو الأفريقية في ظل حضور عبد الناصر المؤتمر برفقة وفد مصري كبير على نحو ملفت والتقى بجميع قادة عالم عدم الانحياز الكبار وأغلبهم ممن نالت بلادهم قبيل المؤتمر استقلالها، وسط مؤشرات

---

(1) McNamara, Robert, Britain, Nasser and the Balance of Power in the Middle East 1952–1967, Op. Cit. p. 27.

(2) Kopietz, Hans– Heino and Smith, Pamela Ann, Egypt, Libya and the Sudan (in: Fage, J. D. and Oliver, Roland, eds. The Cambridge History of Africa, Vol. 8 from 1940 to 1975, edited by Crowder, Michael) Cambridge University Press, Cambridge, 2008, p. 514.

اعتبرتها لندن بالغة الخطورة في قدرات مصر على القيام بسياسات أفريقية مؤثرة من قبيل عرض رئيس الوزراء الصيني شوان لاي تقديم أسلحة لمصر ونصحه للزعيم المصري بالتوجه نحو الاتحاد السوفييتي "لن الكتلة الشيوعية يمكنها أن تساعد مصر" خاصة إذا واصلت الدول الغربية رفض الاستجابة لمطالبها(١)، وهو ما كانت تدفع باتجاهه بريطانيا وفرنسا.

وجنح جهاز الاستخبارات البريطاني إلى فكرة ترتيب انقلاب على عبد الناصر من داخل مصر نفسها فيما أصبح يعرف "بمؤامرة الاسترداد" Restoration Plot. وقد تذكر السير باتريك ريللي P. Reilly أن ديك هوايت Dick White قد أخبره شخصيًا أنه كان هناك تجمع/ تنظيم للمنشقين في القاهرة أبدوا استعدادهم لشن ثورة وإسقاط جمال عبد الناصر إذا اقتربت قوات "الحلفاء" من العاصمة. وبرهن جوليان أميري Julian Amery على الاعتقاد البريطاني في نجاعة مثل هذه الخطة وأنه "ثمة حكومة مصرية تنتظر" سيطرة القوات البريطانية والحليفة لها على قناة السويس والبدء في التحرك نحو القاهرة" ثم رحيل ناصر والتوصل لأفضل اتفاق ممكن مع الحكومة الجديدة(٢).

وكان الغرب مصممًا على عرقلة التوسع السوفييتي والشيوعي، وكان الشاغل الأبرز للغرب منذ نهاية الحرب العالمية الثانية هو كيفية منع الاتحاد السوفيتي من الهيمنة على العالم. وكانت الأداة الأولى للغرب في هذه المواجهة تبني ما عرفت بنظرية الاحتواء Containment Theory وهي النظرية التي ظهرت كأساس وقوة دافعة للغرب وسياسة الحرب الباردة الأمريكية. وأكدت نظرية الاحتواء، ضمن أهداف أخرى، على الحاجة إلى تحالفات إقليمية لمنع تقدم الاتحاد السوفييتي. وبناء على ذلك قامت معاهدة

(1) Hail, J. A. Britain's Foreign Policy in Egypt and Sudan, 1947–1956, Ithaca, Press, London, 1994,pp. 124–5.

(2) Steed, Danny, British Strategy and Intelligence in the Suez Crisis, Palgrave MacMillan, London, 2016, p. 92

تحالف شمال الأطلسي North Atlantic Alliance Treaty في أبريل ١٩٤٩ "كمنظمة دفاعية" من ١١ دولة تطل على المحيط الأطلنطي باستثناء إيطاليا، وتقرر ضم تركيا واليونان وألمانيا الغربية لاحقًا للمعاهدة. ونصت المادة ٩ من المعاهدة على الحاجة لتكوين منظمة عسكرية وسياسية أصبحت لاحقًا بالفعل منظمة معاهدة شمال الأطلسي North Atlantic Treaty Organization (NATO) وكانت مهمته الأساسية صد الاعتداءات السوفيتية عند الضرورة. وقامت تحالفات مشابهة بمقتضى هذه السياسة أو الأيديولوجيا الغربية في الشرق الأوسط وفي آسيا. ففي العام ١٩٥٥ كونت كل من باكستان وتركيا والعراق وبريطانيا ما عرف باسم "حلف بغداد" Baghdad Pact الذي انسحب العراق منه في العام ١٩٥٨[١] في خطوة باركتها القاهرة وقتها.

وكان إرفاد إعلان نهاية الاستعمار باستحضار التضامن الآسيوي الأفريقي، بقيادة مصرية مشتركة مع الهند ويوغسلافيا، خطوة رمزية كبيرة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، لكن هذا الإعلان لم يكن ليؤمن في حد ذاته مستقبلًا مستقلًا ومزدهرًا للمستعمرات السابقة التي "تحولت إلى دول وطنية"، كما أنه لم يكن فعالًا في التغاضي عن تضارب المصالح وتنوعها بين هذه الدول. وكان للصراعات الإقليمية أثر عميق على سبل رد فعل الدول الأفريقية (والآسيوية والشرق أوسطية حينذاك) إزاء مناورات القوى الكبرى سواء في عهد الإمبراطورية أم في ظل الحرب الباردة، لاسيما مع تصاعد الخلاف الأيديولوجي بين الصين والاتحاد السوفييتي لاسيما عقب وفاة ستالين في مارس ١٩٥٣[٢].

([1]) Gat, Moshe, Britain and the Conflict in the Middle East, 1964–1967: The Coming of the Six–Day War, Praeger, London, 2003, p. xi.

([2]) Mišković, Nataša, Introduction (in: Nataša Mišković, Harald Fischer–Tiné and Nada Boškovska, editors, The Non– Aligned Movement and the Cold War Delhi – Bandung – Belgrade), Routledge, London, 2014, p. 6.

ثالثاً: موقف بريطانيا من سياسة مصر في السودان :

كانت الحكومتان البريطانية والمصرية قبل العام ١٩٥١ عاجزتين عن التوصل لاتفاق حول منطقة قناة السويس أو حول من سيكون مسئولًا عن السودان. وقد اعتبر تشرشل أن قاعدة السويس ذات أهمية قصوى لبريطانيا رغم أجواء الاستقلال الأفريقي في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، بالنظر إلى كونها رابطة على سلسلة إستراتيجية تمتد إلى سنغافورة والشرق الأقصى. بأي حال فغن المعاهدة الإنجليزية المصرية للعام ١٩٣٦، كانت ستنتهي سريانها في العام ١٩٥٦، وبعد لن يكون بمقدور بريطانيا إبقاء قواتها قانونًا في أي جزء من مصر دون قبول الحكومة المصرية: وهو قبول لم يكن ليمنح لها في أي حال من الأحوال. وفي بداية العام ١٩٥٢، تدهورت العلاقات المصرية الإنجليزية بشكل كبير مع ملاحظة أنها كانت سيئة بالفعل في ذلك الوقت، لاسيما مع تصاعد أعمال الفدائيين المصريين ضد القوات البريطانية في منطقة قناة السويس. وكان تشرشل على ثقة أن قوات بلاده التي وصلت إلى ٨٠ ألف جندي يمكنها معالجة الوضع العسكري بمهارة كافية لكن بريطانيا لم يكن بمقدورها في ذلك الوقت مواجهة الوضع السياسي وضبطه لاسيما مع وصول الضباط الأحرار للحكم وطرد الملك فاروق من البلاد [١].

ظلت مسألة السودان مسألة ملتهبة في السياسة الأمريكية تجاه العلاقات المصرية البريطانية والمفاوضات الثنائية بينهما منذ بدايتها في العام ١٩٤٦، وقدرت واشنطن كثيرًا خطوات نظام ثورة يوليو قبل نهاية العام ١٩٥٢ بالتراجع عن مطلب الوحدة مع السودان لصالح إقرار مبدأ حق تقرير المصير للشعب السوداني، وتراجع القاهرة عن تكتيكات النظام القديم بربط مسألة السودان مع مسألة الدفاع، حتى أن صحيفة مهمة مثل التايمز The

(1) Farmer, Alan, Britain: Foreign and Imperial Affairs 1939-64, Op. Cit. p. 94.

Times قد علقت على موقف ثورة يوليو بان "ما يبدو قد حدث بالفعل أن مصر قدمت للسودان ما سبق أن قدمه البريطانيون وأكثر منه."[١].

واستمرت المناقشات المصرية الإنجليزية حول ملفي السودان ومنطقة قناة السويس، وبدا لمراقبين إنجليز أنه ثمة مناخ توافقي غير متوقع لاسيما بخصوص مسألة السودان. وفي العام ١٩٥٣، ورغم الاحتجاجات في صفوف أعضاء من حزب المحافظين، توصلت بريطانيا ومصر في النهاية إلى اتفاق حول السودان يتم بمقتضاه منح الأخير فترة ٣ أعوام قبل الاستفتاء على الاستقلال التام أو الوحدة مع مصر. وقامت بريطانيا ومصر ببذل أقصى جهد ممكن للتأثير في انتخابات جمعية دستورية سودانية يكون في يدها القرار النهائي. وقرر السودانيون خيار الاستقلال التام في العام ١٩٥٦. بينما كان مسار التفاوض حول قناة السويس أكثر صعوبة مع رفض نظام يوليو جميع الخيارات بخصوص بقاء القوات البريطانية. وبينما رأى إيدن أن أهمية قناة السويس لم تعد كما كانت في السابق فإن تشرشل كان يعارضه في البداية في هذا التصور. وفي العام ١٩٥٤ توصل البريطانيون والمصريون لاتفاق يقضي بانسحاب القوات البريطانية من القناة في غضون ٢٠ شهرًا على أن تظل بعض المرافق الرئيسة (حتى خروج البريطانيون) مدارة على نحو مشترك من الفنيين البريطانيين والمصريين وفي ضوء توجهات مصر الأفريقية عززت مجموعة عرفت باسم "جماعة السويس" Suez Group داخل حزب المحافظين من مواقفها الرافضة للتنازل عن إدارة بريطانية للمنطقة ووجودها العسكري بها باعتبار ذلك إشارة على تهاوي الحكم البريطاني في الشرق الأوسط وأجزاء مهمة من أفريقيا[٢].

([1]) Sayed-Ahmed, Muhammad Abd el-Wahab, Nasser and American Foreign Policy, 1952-1956, The American University Press in Cairo, Cairo, 1989, p. 76.

([2]) Ibid. pp. 94-5.

كما لا تفوت هنا ملاحظة أن السياسة البريطانية نحو مصر والسودان ومصالحها فيهما كانت نابعة بالأساس من مصالح بريطانيا الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية الأكبر في الشرق الأوسط وأفريقيا الاستعمارية. فقد كانت مصر (تحديدًا قناة السويس) والسودان صلة جوهرية في سلسلة طويلة من الأقاليم التي سيطرت عليها بريطاني مباشرة أو غير مباشرة لحماية مصالحها في الهند "درة التاج البريطاني". بأي حال فإن اهتمام بريطانيا تغير بعد الحرب العالمية الثانية، ومع وقوع الحرب الباردة، فإن رغبة بريطانيا (والغرب) في احتواء الخطط التوسعية للاتحاد السوفييتي في أفريقيا (والشرق الأوسط) عزز الأهمية الاستراتيجية المباشرة لوادي النيل بالنسبة للسياسة البريطانية أكثر مما مضى. وفي حالة مصر استمرت بريطانيا في الاعتماد المؤقت على معاهدة ١٩٣٦ التي كانت تتيح لها نشر قواتها العسكرية على امتداد قناة السوس لمدة عشرين عامًا. وكانت مصر دولة مستقلة، بينما استمر البريطانيون عمليًّا في حكم السودان. وزادت أهمية السودان الاستراتيجية في ظل رغبة بريطانيا في السيطرة على عصب الدولة المصرية: نهر النيل. ومن ثم توقعت لندن أن خلافاتها مع مصر ستجبر الحكومات المصرية على الأخذ في الاعتبار وضع بريطانيا في السودان، لكن حكومة مصطفى النحاس (١٩٥٠-١٩٥٢) تبنت موقفًا حياديًّا في الصراعات الدولية الدائرة بين كتل غربية وشرقية وألغت معاهدة ١٩٣٦ في مساعيها لتحقيق سياسة خارجية مستقلة [١]. ورأت بريطانيا أنه في سبيل تحقيق سيطرة فعالة لها في وادي النيل، فإن ذلك يتطلب إقامة إدارة سياسية سودانية بالوكالة، ومن ثم، ترقية وتطوير الحكم الذاتي السوداني على نحو يحول دون "عودة مصر مجددًا لدخول السودان"، كما أشارت الوثائق البريطانية ولتأكيد ذلك حرصت بريطانيا على أن تظل الطرف المهيمن وعلى بقاء المصريين بعيدًا

(1) Ginat, Rami, Egypt and the Struggle for Power in Sudan From World War II to Nasserism, Cambridge University Press, Cambridge, 2017, p. 253

عن مراكز السلطة في السودان بخفض نفوذهم ثقافيًا واقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا في السودان [١].

وعلى سبيل المثال، فإنه في تقرير للسفارة البريطانية في الخرطوم على الوضع في السودان في أغسطس ١٩٥٥، لاحظت أن الوضع لم يتغير منذ ترك صلاح سالم منصبه وزيرًا لشئون السودان، وتقلد "العقيد جمال عبد الناصر هذا المنصب"؛ وتوقعت السفارة حدوث تغير كبير في موقف مصر تجاه السودان، وتوقع التقرير إقدام الرئيس جمال عبد الناصر على اتخاذ قرار أحادي بإعلان استقلال السودان"، لكن السير همفري تريفيليان Humphrey Trevelyan شاهده يوم السبت الماضي ويبدو أنه لا يركز بعد على المسألة". ولاحظ التقرير طلب الحكومة السودانية من الحكومتين المصرية والبريطانية قبول أن يتم الفصل في مستقبل السودان عبر استفتاء وطني وليس وفق الاتفاق الإنجليزي المصري ١٩٥٣، وأن بريطانيا مستعدة لقبول عقد الاستفتاء "وتأمل في قبول المصريين لإرسال الرد بهذا الخصوص"[٢].

رابعا: تراجع النفوذ البريطاني في أفريقيا بعد حرب السويس ١٩٥٦:

مثلت حرب السويس (١٩٥٦) وما تلاها من نتائج إقليمية ودولية خطيرة دلالة واضحة، وربما الأبرز عالميًا، على تراجع نفوذ بريطانيا العالمي؛ ومنذ أن قرر جمال عبد الناصر –ردًا على سحب مخصصات تمويل السد العالي– تأميم قناة السويس في ٢٦ يوليو ١٩٥٦، أثارت سياسات مصر مخاوف بريطانيا (وفرنسا) باعتبارها من أصحاب الأسهم في شركة القناة، إضافة إلى مشاركة مصر القوية في مؤتمر باندونج (١٩٥٥) قبل القرار بنحو عام وحصول القاهرة على دعم أفريقي وآسيوي كبير، مما قاد إلى رجحان مناقشة لندن وباريس مسألة استخدام القوة "فورًا" ضد مصر. كما

([1]) Ibid, p. 253.

- Foreign Office officials, 8 January 1945, 18 January 1945, 21 January 1945, and 22 January 1945, in FO141/939, 31/76/44.

([2]) Sudan, FO 371/113615 (87273), p. 24.

عـزز العـداء البريطـاني والفرنسـي المشـترك لمصـر وسياسـاتها فـي أفريقيـا احتمـالات تعـاون لنـدن وبـاريس ضـد القـاهرة واتهامهمـا للأخيـرة بعـدم قـدرتها علـى إدارة قنـاة السـويس علـى نحـو فعـال (فـي الوقـت الـذي مثلـت فيـه القنـاة اسـتثمارًا شـائعًا لـدى الطبقـة الوسـطى الفرنسـية)؛ رغـم تقـارير المتخصصـين النـرويجيين فـي مرحلـة سـابقة أنـه لا يتوقـع وقـوع مشـاكل ذات بـال عنـد إدارة المصـريين للقنـاة علـى النحـو الـذي يـروج لـه البريطـانيون والفرنسـيون. وأرسـل "أنتـوني إيـدن" A. Eden برقيـة للـرئيس الأمريكـي أيزنهـاور بعـد وقـت قصـير مـن إعـلان عبـد الناصـر تـأميم قنـاة السـويس ورد بهـا "يقتنـع زملائـي وأنـا بوجـوب أن نكـون مسـتعدين فـي نهايـة المطـاف لاسـتخدام القـوة لإعـادة ناصـر إلـى رشـده."، ودعـت الولايـات المتحـدة بريطانيـا إلـى تـوخي الحـذر رغـم مشـاركتها البريطـانيين والفرنسـيين القلـق إزاء اسـتخدام قنـاة السـويس، وتوجـه روبـرت ميرفـي R. Murphy إلـى لنـدن إلـى لنـدن لاسـتطلاع المسـألة برمتهـا، ونـاقش هارولـد مـاكميلان H. Macmillan وعبـر بعـد مغادرتـه عـن يقينـه التـام بقناعـة الحكومـة البريطانيـة بـأن السـويس "اختبـار لا يمكـن مواجهتـه إلا باسـتخدام القوة"[١].

مثـل العـدوان الثلاثـي علـى مصـر تهديـدًا كبيـرًا لسياسـاتها الخارجيـة، ونـتج عـن الإدانـة الدوليـة لهـذا العـدوان، لاسـيما مـن قبـل الولايـات المتحـدة والاتحـاد السـوفييتي معًـا، خـروج الـرئيس جمـال عبـد الناصـر بمكانـة أقـوى كـزعيم للقـوى الراديكاليـة الشـرق أوسـطية والأفريقيـة وفـي مواجهـة الإمبرياليـة، كمـا تعـززت لـدى مصـر قيادتهـا لأفكـار القوميـة العربيـة وارتباطاتهـا الأفريقيـة وتبنـي الأفكـار الاشـتراكية بشـكل عـام؛ الأمـر الـذي تجسـد علـى نحـو كامـل فـي سـتينيات القـرن الماضـي مـع تحـول مصـر رائـدة للعـالمين العربـي والأفريقـي فـي

(1) Williams, Ann, Britain and France in the Middle East and North Africa, 1914–1967, Macmillan Education, London, 1968, pp. 123–4.

مجال تمكن الدولة من إحداث تغيرات حقيقية على الصعيدين الاقتصادي والسياسي(١).

وبادرت السفارة البريطانية في القاهرة من إعلان تخوفها من مشروع الرئيس جمال عبد الناصر بتمويل بناء "سد أسوان" واعتبرته قرارًا أحاديًّا على خلفية تأميم شركة قناة السويس "الذي يؤثر على حقوق ومصالح الكثير من الدول". وبادرت بإبلاغ كافة حكومات الكومنولث، والحكومة الأمريكية في برقية حملت رقم ٣٣٥١ بتاريخ ٢٧ يوليو ١٩٥٦(٢).

وكانت تقارير المخابرات والأجهزة البريطانية المعنية بالأزمة مع مصر تشير (أغسطس ١٩٥٦) إلى ضرورة القيام بعمل عسكري ووضعت سيناريو الإنزال البريطاني البري في الإسكندرية، وبالفعل، صدرت أوامر للقوات البرية ومنها الفرقة الثالثة مشاه في ٥ سبتمبر، وأن تقوم وحدات معينة بالتحرك من الإسكندرية نحو القاهرة للاستيلاء عليها بدعم من ١٦ وحدة مظلية وثلاث فرق كوماندوز، ورغم ترتيب التفاصيل الكاملة بالهجوم البريطاني على الإسكندرية والقاهرة فإن بريطانيا غيرت خططها في النهاية بعد التنسيق مع إسرائيل وفرنسا ورأى مراقبون بريطانيون أن هذا التغيير عبر بقوة عن اضطراب الاستجابة البريطانية بأكملها لنزاعها مع مصر في "أزمة السويس". وبرر مسئولون بريطانيون التغيير بأنه يرجع لعوامل أبرزها فقد المبادرة في إطلاق العملية بالفعل وأن الإنزال البري في الإسكندرية ستكون له

---

(1) Kopietz, Hans– Heino and Smith, Pamela Ann, Egypt, Libya and the Sudan (in: Fage, J. D. and Oliver, Roland, eds. The Cambridge History of Africa, Vol. 8 from 1940 to 1975, edited by Crowder, Michael) Cambridge University Press, Cambridge, 2008, p. 514.

(2) FO#371/119078 UK–US discussion in Washington, 28 July 1956: possible effect of Egyptian action over Suez Canal on Arab–Israeli relations

عواقب سياسية وخيمة مقارنة بعملية في السويس. كما إن الهجوم البريطاني المنفرد سيعني خروج بريطانيا عن سياساتها المتبعة علنًا بالسعي لحل سياسي بتوافق دولي، وأن الهجوم البريطاني سيعني سعي لندن لتغيير نظام جمال عبد الناصر بالقوة كهدف أول لها وليس حماية قناة السويس، وتأكيدًا لإعلان أنتوني إيدن نصًا "أريد تدميره (عبد الناصر)، ألا تفهمون ذلك؟ أريده مقتولًا، وإن لم يكن بمقدوركم (موجهًا كلامه لناتينج Nutting) ووزارة الخارجية قبول ذلك، فمن الأفضل لكم أن تأتوا لرئاسة الوزراء وتفسرون سبب عجزكم عن ذلك.[١]

ولاحظ مؤرخون غربيون معاصرون أن مصر "يوليو" جنحت –حتى قبل وعود الاتحاد السوفييتي بإمدادها بالسلاح وتداعيات أزمة السويس ١٩٥٦، إلشن حملة على بقايا النفوذ البريطاني في العالمين العربي والأفريقي وتقاطعاتهما (لاسيما في اليمن)، كما كثفت القاهرة حملاتها الدعائية ضد الاستعمار البريطاني وسط الأفارقة لاسيما سياسات بريطانيا في "أرض الصومال" وزنزبار وانحياز الإعلام المصري واسع الانتشار وقتها لثورة ماو ماو في كينيا[٢].

وقاد فشل قوى العدوان الثلاثي على مصر إلى تخوف لندن من مزيد من النشاط المصري في دعم حركات التحرر الأفريقية؛ لاسيما مع تصاعد دور الاتحاد السوفييتي على الساحة الدولية في ذلك الوقت وتوجيه موسكو ما عرف بالإنذار السوفييتي لقادة دول العدوان الثلاثي (٥ نوفمبر ١٩٥٦)، وتضمن الإنذار المرسل إلى رئيس الوزراء البريطاني أنتوني إيدن على يد وزير الخارجية السوفييتي: "...ترى الحكومة السوفييتية ضرورة استرعاء نظركم إلى الحرب العدوانية على مصر من بريطانيا وفرنسا، ولها أخطر

---

(1) Steed, Danny, British Strategy and Intelligence in the Suez Crisis, Op. Cit. pp. 119-120.

(2) Bagley, F. R. C. Egypt under Nasser,: International Journal, Summer, 1956, Vol. 11, No. 3 (Summer, 1956), pp.203-4.

العواقب على قضية السلام.."، ولوحظ غياب إيدن في اليوم التالي (٦ نوفمبر) عن حضور الجلسة الافتتاحية للبرلمان البريطاني لإلقاء كلمة العرش، لكنه أعلن مساء اليوم نفسه من مقر رئاسة الوزراء قبول لندن قرار وقف إطلاق النار في السويس. وفي ٢٤ نوفمبر، وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة بأغلبية مطلقة على مشروع قرار يطالب بريطانيا وفرنسا بالانسحاب من مناطق قناة السويس، وأعلنت في ٩ يناير ١٩٥٧ استقالة "إيدن" وتولى خلفه رئاسة الوزراء هارولد ماكميلان شريكه السابق في الحكم ليواصل سياسة العداء نحو مصر وسياساتها الخارجية في أفريقيا[١].

طرحت دوائر بحثية بريطانيا في العام ١٩٥٨ خيار التعامل البريطاني مع جمال عبد الناصر وقبول خطواته نحو تعزيز الوحدة العربية بالتوازي مع فك الغرب ارتباطاته العسكرية في شبه الجزيرة العربية في مقابل توجه عبد الناصر لإنهاء طموحاته الأفريقية، ووقف دعايته ضد "الاستعمار البريطاني" وتخليه عن صلاته مع الاتحاد السوفييتي وقبول إسرائيل[٢].

كما ظلت مسألة القنصليات المصرية في الأقاليم التي يديرها البريطانيون في أفريقيا مع مطلع ستينيات القرن الماضي مصدرًا للخلاف الحاد بين البريطانيين والمصريين، وهكذا، لم يتم تبادل السفراء بين القاهرة ولندن حتى يناير ١٩٦١. وفي العام ١٩٦٠ شملت قضية القنصليات المصرية في بريطانيا مدنًا أخرى إلى جانب ليفربول وجلاسجو من بينها مدنًا أفريقية "والخليج الفارسي" وعددًا من المستعمرات البريطانية في آسيا. وكان لوزارة المستعمرات البريطانية British Colonial Office، لاسيما في شرق أفريقيا، تحفظات أمنية جادة إزاء إتاحة لتمثيل الدبلوماسي للمصريين بهذه المناطق. إذ واصلت إذاعة القاهرة دعايتها المستمرة ضد الحكم الاستعماري

---

(١) شحاتة عيسى إبراهيم: الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، سلسلة (ذاكرة الكتابة)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٥، ص ص ٢٦٣-٢٦٧.

(2) McNamara, Robert, Britain, Nasser and the Balance of Power in the Middle East 1952-1967, Op. Cit. p. 138.

البريطاني. وفي المقابل، أقدم المصريون، فيما بدا ردًّا انتقاميًّا على سلوك البريطانيين، على رفض افتتاح قنصليات للأخيرين في دمشق والسويس أو السماح بتبادل السفراء[١].

ومثلت الأزمة في اتحاد وسط أفريقيا Central African Federation في العام ١٩٦٣ مشكلة في مسار العلاقات البريطانية–المصرية. إذ تفكك الاتحاد مع تحقيق زامبيا وناميبيا استقلالهما في العام ١٩٦٤. بينما كانت روديسيا الجنوبية (زيمبابوي لاحقًا) حالة خاصة في ظل وجود أقلية بيضاء كبيرة الحجم رفضت تمامًا أن تحكم من قبل الأغلبية السوداء واعتبرتهم أقل شأنًا منهم عرقيًّا وسياسيًّا. وفي مايو ١٩٦٥، فازت "جبهة روديسيا" Rhodesia Front العنصرية بقيادة "إيان سميث" Ian Smith بالانتخابات التي عقدت بين الناخبين البيض وحدهم، وفي ١١ نوفمبر ١٩٦٥، أعلن إيان سميث استقلال روديسيا الجنوبية من جانب واحد، وبادرت بريطانيا بإعلان عزمها قمع "التمرد". وأعلنت منظمة الوحدة الأفريقية في اجتماع وزراء خارجيتها في د ديسمبر أنه إن لم تقم بريطانيا بقمع التمرد "بحلول ١٥ ديسمبر"، فإن الدول الأعضاء في المنظمة ستقوم بقطع علاقاتها معها. وبمقتضى هذه المقررات قطعت مصر علاقاتها مع بريطانيا في ١٧ ديسمبر إلى جانب العديد من الدول الأفريقية الأخرى. بينما اتفق الجانبان على إبقاء العلاقات القنصلية[٢].

كما أثارت العلاقة العسكرية بين مصر والصومال تساؤلات كثيرة لدى المسؤولين في كينيا بعد استقلالها خاصة في ضوء علاقات مصر بالحركة الوطنية الكينية منذ قيام حركة "الماوماو" وبحث الرئيس الكيني جومو كينياتا ووزير خارجيته جوزيف مورمبي خلال مشاركتهما في مؤتمر القمة الأفريقي الثاني (القاهرة ١٩٦٤) مع مسئولين مصريين مسألة الدعم المصري للصومال، ما اعتبرته كينيا تهديدًا لسيادتها، وأوضح المسئولون المصريون أن

---

(1) Ibid, p. 157.

(2) Ibid, p. 219.

القاهرة لن تتردد عن دعم أية دولة أفريقية راغبة في تحقيق التحرر الوطني عن الاستعمار (البريطاني)؛ وبعدها بأيام، وجه الرئيس عبد الناصر بإبلاغ وزير الخارجية الكيني باستعداد مصر "للتعاون العسكري مع كينيا على غرار تعاونها مع الجيش الصومالي" لإزالة أية شكوك لدى المسئولين الكينيين بسبب مساعدات مصر للصومال (مع تأكيد القاهرة علمها عدم نية الصوماليين فتح جبهة للقتال في كينيا). وبادر كينياتا عند مغادرته مطار القاهرة بإخبار عبد الناصر رغبة بلاده في رحيل القوات البريطانية الموجودة في كينيا ومساعدة مصر لكينيا في بناء جيشها الوطني ورغبة حكومته في اتخاذ بعض الخطوات التي تمكنه من زيادة قبضة الدولة الاقتصاد الوطني[١].

وبناء على تكليف عبد الناصر، سافر السيد محمد فائق إلى نيروبي في أغسطس ١٩٦٤، واجتمع بالرئيس الكيني ووزير خارجيته مرات عديدة في وقت حساس –حسب المسئول المصري– حيث كان كينياتا يرتب للتخلص من الهيمنة الانجليزية في كافة أوجه السياسة والاقتصاد والجيش في بلاده، فيما لاحظ وقتها وجود "صراع داخل الحكومة الكينية بين القوى اليمينية التي يتزعمها توم مبويا والقوى اليسارية التي كان يتزعمها اليساري أوجنجا أودنجا" ولاحظ المؤلف ميل كينياتا لحسم الموقف لصالح "الاتجاه اليساري التقدمي" بعيدًا عن زعامة أودنجا في الوقت نفسه، وطلب كينياتا من مصر إرسال عدد من المستشارين العسكريين "يكون من بينهم ضابط أركان برتبة كبيرة للعمل كمستشار لرئيس الأركان"؛ لكن الحكومة الكينية لم تتواصل مع السفير المصري في نيروبي[٢].

ومثل الدعم المصري لكينيا حساسية بالغة لدى بريطانيا (والولايات المتحدة)، بسبب ما اعتبرته لندن ارتباطًا بين موقف مصر في اليمن

(١) محمد فايق: عبد الناصر والثورة الأفريقية، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤، ص ص ٩٤–٩٥.

(٢) محمد فايق: عبد الناصر والثورة الأفريقية، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤، ص ص ٩٤–٩٦.

وسياساتها في كينيا (بحكم القرب الجغرافي) ورفض عبد الناصر "غصن الزيتون" الذي قدمته له الحكومة البريطانية في عدن لتسوية الأزمة وقتها أو دعم جهود وزير المستعمرات أنتوني جرينوود A. Greenwood لتحقيق اتفاق بين الأطراف الراديكالية في اليمن، لاسيما الحزب الاشتراكي الشعبي (الذي كان يحظى بدعم عبد الناصر) والسلاطين المحافظين في اليمن، كما اتهم ريتشارد تيرنبل R. Turnbull، وهو المسئول البريطاني الذي نجح في مواجهة حركة ماو ماو في كينيا وعينته الحكومة البريطانية مبعوثًا خاصًّا لها في اليمن نهاية العام ١٩٦٤، مصر وعبد الناصر بمساعدة الحزب الاشتراكي الشعبي في اليمن(١).

وانتهز جوزيف تيتو الفرصة الملائمة لتعزيز حركة عدم الانحياز بين الدول الأفريقية في مطلع الستينيات، وبتنسيق كامل مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر (تجلى في محطات عديدة منذ اجتماع تيتو وناصر ونهرو في جزيرة بريوني Brioni في يوليو ١٩٥٦) وتمكنهم من تجاوز تداعيات الأحداث التي تلت قرار تأميم قناة السويس ومعالجة خروتشوف للأزمة المجرية. وبعد أربعة أعوام تقريبًا من هذه التداعيات، بادر ناصر وتيتو ونهرو بمبادرة أخرى لجذب مزيد من الدول الأفريقية المستقلة لحركة عدم الانحياز، وقاد هذه الجهود تيتو وعبد الناصر نهماك نهرو لاحقًا في الصراع الحدودي الهندي– الصيني. وفي العام ١٩٦٠ دشن تيتو وعبد الناصر بالتعاون مع سوكارنو والرئيس الغاني كوامي نكروما عرفت "بمبادرة الخمسة" Initiative of the Five خلال الجمعية العامة للأمم المتحدة الخامسة عشر (التي شهدت قبول ١٦ دولة أفريقية في عضويتها). ووضع تيتو بالتنسيق مع عبد الناصر أهم قضيتين أمام الأمم المتحدة بعد ١٥ عامًا من نهاية الحرب العالمية الثانية وهما: نزع السلاح والقضاء على الاستعمار، وبعدها بشهور قليلة قرر تيتو القيام بجولة أفريقية موسعة استمرت من فبراير

(1) McNamara, Robert, Britain, Nasser and the Balance of Power in the Middle East 1952–1967, Op. Cit. p. 210.

حتى أبريل ١٩٦١ واختتمها بزيارة القاهرة لتعزيز "حركة عدم الانحياز" واتفق مع الرئيس عبد الناصر (دون التشاور مع نهرو) على استضافة بلجراد لقمة لرؤساء دول وحكومات عدم الانحياز مطلع سبتمبر ١٩٦١[١].

وفي المقابل سعت الحكومة البريطانية إلى استغلال كافة القنوات للتأثير على سياسات الرئيس جمال عبد الناصر كما يتضح في مساعيها لدى م. بوبوفي M. Popovie السفير اليوغسلافي في لندن (أكتوبر ١٩٥٨) لحث الرئيس اليوغسلافي جوزيف تيتو على نقل رسائل لناصر بخصوص العلاقات الإنجليزية المصرية، وعبر بوبوفي بالفعل، حسب تقرير لوزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ٤ نوفمبر ١٩٥٨، عن قبوله نقل ما يريدون قوله لناصر. ورد همفري تريفيليان بأن مضمون الرسالة التي يريدون نقلها هو أن البريطانيين لا يخشون من المصريين، وأنهم لن يلاحقونهم، وأن بريطانيا يمكنها مواصلة سياساتها الحالية تجاه مصر. لكننا نشعر أن تلك المواقف طفولية، وأن لبلدين لديهما مصالح مشتركة هائلة مثل تجارة القطن والصلات الاقتصادية الأخرى، وأن لندن ليس لديها نية لإسقاطه بل نفضل إقامة نوع من العلاقة الناجزة[٢].

وبشكل عام فإن سياسة بريطانيا تجاه مصر ودورها في أفريقيا منذ نهاية الأربعينيات ولاسيما بعد اندلاع ثورة يوليو (١٩٥٢) كانت تقوم على ربط شرق أفريقيا والسودان بتفاعلات هذه السياسة وأن الجنود الذين يتم تجنيدهم في إقليم شرق أفريقيا في صفوف القوات البريطانية (حتى بعد حرب السويس ١٩٥٦) سيسهمون في الدفاع عن الوجود البريطاني في مصر، وهو الأمر الذي تغير بعد فقد لندن قاعدتها العسكرية في السويس، وأثر هذا

([1]) Mišković, Nataša, Introduction in: Nataša Mišković, Harald Fischer–Tiné and Nada Boškovska, editors, The Non– Aligned Movement and the Cold War Delhi – Bandung – Belgrade), Routledge, London, 2014, p. 7.

([2]) FO 371/133470 November 4, 1958

التطور على تراجع أية خطط بريطانية قدمها العسكريون في القوات البريطانية بخصوص إرسال القوات الشرق أفريقية في أية حرب خارج حدود الإقليم؛ الأمر الذي يكشف عمق ارتباط السياسة البريطانية تجاه ثورة يوليو المصرية ودورها في أفريقيا بشكل واضح([1])، ومدى التأثير الذي أحدثته سياسات مصر الأفريقية في أفريقيا (لاسيما في السودان وشرق أفريقيا) من تفكيك واحدة من أهم قواعد العمل العسكري البريطاني عوضًا عن تآكل نفوذها السياسي في القارة ومكانتها كقوة عظمى بشكل عام.

([1]) Percox, David Antony, `Circumstances Short of Global War': British Defence, Colonial Internal Security, and Decolonisation in Kenya, 1945-65, Thesis submitted to the University of Nottingham for the degree of Doctor of Philosophy, October 2001, pp. 124-5.

خاتمة :

تـزامن صـعود المـد القـومي التحـرري فـي مصـر وصـولًا إلـى ذروتـه بقيـام ثـورة يوليـو ١٩٥٢ مـع تراجـع النفـوذ الاسـتعماري البريطـاني بشـكل واضـح ومتصـاعد فـي أفريقيـا؛ وقـد انعكـس هـذا التنـاقض التـاريخي الخطيـر فـي موقـف بريطانيـا مـن سياسـات مصـر الأفريقيـة واعتبـار الأولـى أن سياسـات الثانيـة تسـتهدف بالأسـاس تحجـيم وجودهـا وعلاقاتهـا مـع الـدول الأفريقيـة التـي تسـتعمرها، لاسـيما السـودان وعـدد مـن دول شـرق أفريقيـا وغربهـا. وكشـف التنـاول التـاريخي لمسـار هـذا الموقـف وتحولاتـه أن بريطانيـا كانـت تريـد أن تظـل مصـر فـي فلـك السياسـات البريطانيـة حتـى بعـد قيـام ثـورة يوليـو فيمـا يخـص تشـابكاتها الأفريقيـة؛ وأن بريطانيـا عملـت بكـل السـبل الممكنـة امامهـا لمحاصـرة مصـر أفريقيًـا سـواء بالتـآمر المباشـر علـى نظـام يوليـو أم بالتعـاون مـع دول مثـل إسرائيل وفرنسا لتقويض مشروع الاستقلال الوطني لثورة يوليو.

ونجحـت مصـر فـي تفـادي الصـدام مـع السـودان الشـقيق فـي مسـألة اسـتقلاله رغـم كافـة الجهـود البريطانيـة لتـأزيم المسـألة عبـر التواصـل مـع أطـراف سـودانية وتعزيـز سـردية "الاسـتعمار المصـري" للسـودان رغـم تهافتهـا وعـدم تـوفر أركـان هـذا الاسـتعمار فـي صـورته "الأوروبيـة" التـي جـرت فـي كافـة ارجـاء القـارة الأفريقية.

وارتـبط نجـاح مصـر فـي تبنـي سياسـات أفريقيـة داعمـة لتطلعـات الشـعوب الأفريقيـة بقـدرة القـاهرة علـى مواجهـة مواقـف بريطانيـا بنجـاح كبيـر لاسـيما بعـد العـام ١٩٥٨ ممـا أجبـر بريطانيـا علـى السـعي لتقـارب وتفاهمـات مـع مصر في ملفات عدة في أفريقيا والشرق الأوسط.

وظـل موقـف بريطانيـا مـن سياسـات ثـورة يوليـو الأفريقيـة حتـى منتصـف السـتينيات يرتكـز بالأسـاس علـى مسـاعي احتـواء هـذه السياسـات والحـد مـن خطـورة تأثيراتهـا فـي السـودان وشـرق أفريقيـا بشـكل خـاص؛ كمـا سـعت بريطانيـا إلـى حشـد المواقـف الأمريكيـة ورائهـا (كمـا اتضـح فـي الأزمـة فـي الـيمن وبـدء تحيـز واشـنطن ضـد مواقـف مصـر فـي هـذه المنطقـة المهمـة تحيـزًا كـاملًا كمـا

اتضح في خطاب هام لجمال عبد الناصر في نهاية العام ١٩٦٥ وهاجم فيه السياسات الأمريكية المهددة بقطع المساعدات عن مصر على خلفية هذه الأزمة). وتبلور نجاح مصر في استمرار دعمها للأشقاء الأفارقة في تحول القاهرة إلى قبلة للتشاور والنقاش في كافة القضايا الثنائية والإقليمية في تلك المرحلة الهامة مقابل تراجع أهمية لندن في مناطق نفوذها التقليدية السابقة.

قائمة المصادر والمراجع

Documents

- Information Papers No. 19, Great Britain and Egypt 1914–1951, Royal Institute of International Affairs, London, 1952.
- Foreign Office officials, 8 January 1945, 18 January 1945, 21 January 1945, and 22 January 1945, in FO141/939, 31/76/44.
- FO#371/119078 UK–US discussion in Washington, 28 July 1956: possible effect of Egyptian action over Suez Canal on Arab–Israeli relations
- Sudan, FO 371/113615 (87273). 1956.
- FO 371/133470 November 4, 1958.

Books

باللغة العربية

- شحاتة عيسى إبراهيم: الكتاب الأسود للاستعمار البريطاني في مصر، سلسلة (ذاكرة الكتابة)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٥.
- محمد فايق: عبد الناصر والثورة الأفريقية، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤.

باللغة الإنجليزية

- Eric T. Jennings, Britain and Free France in Africa, 1940–1943 (in: James R. Fichter, editor, British and French Colonialism in Africa, Asia and the Middle East Connected Empires across the Eighteenth to the

Twentieth Centuries) Palgrave MacMillan, New York, 2019.

- Farmer, Alan, Britain: Foreign and Imperial Affairs 1939-64, Hodder& Stoughton, Kent, 1994.

- Gat, Moshe, Britain and the Conflict in the Middle East, 1964-1967: The Coming of the Six-Day War, Praeger, London, 2003.

- Ginat, Rami, Egypt and the Struggle for Power in Sudan From World War II to Nasserism, Cambridge University Press, Cambridge, 2017.

- Hahn, Peter L. The United States, Great Britain, and Egypt, 1945-1956: Strategy and Diplomacy in the Early Cold War, The University of North Carolina Press, London, 1991.

- Hail, J. A. Britain's Foreign Policy in Egypt and Sudan, 1947-1956, Ithaca, Press, London, 1994.

- Kopietz, Hans- Heino and Smith, Pamela Ann, Egypt, Libya and the Sudan (in: Fage, J. D. and Oliver, Roland, eds. The Cambridge History of Africa, Vol. 8 from 1940 to 1975, edited by Crowder, Michael) Cambridge University Press, Cambridge, 2008.

- Londsale, John, Political accountability in African history (in: Chabal, Patrick, editor, Political Domination in Africa: Reflections on the limits of power) Cambridge University Press, Cambridge, 1986.

- McNamara, Robert, Britain, Nasser and the Balance of Power in the Middle East 1952-1967: From the Egyptian Revolution to the Six Day War, Frank Cass, London, 2005.
- Mišković, Nataša, Introduction (in: Nataša Mišković, Harald Fischer- Tiné and Nada Boškovska, editors, The Non- Aligned Movement and the Cold War Delhi – Bandung – Belgrade), Routledge, London, 2014
- Munro, J. Forbes, Britain in Tropical Africa, 1880-1960: Economic Relationships and Impact, Macmillan Press, London,1984.
- Nielsen, Waldemar A. The Great Powers and Africa, Preager Publishers, New York, 1969.
- Porteous, Tom, Britain in Africa, Zed Books, London, 2008.
- Sayed-Ahmed, Muhammad Abd el-Wahab, Nasser and American Foreign Policy, 1952-1956, The American University Press in Cairo, Cairo, 1989
- Steed, Danny, British Strategy and Intelligence in the Suez Crisis, Palgrave MacMillan, London, 2016.
- Thompson, Willie, Global Expansion Britain and its Empire, 1870–1914, Pluto Press, London, 1999.
- Williams, Ann, Britain and France in the Middle East and North Africa, 1914-1967, Macmillan Education, London, 1968.

Periodicals

- Bagley, F. R. C. Egypt under Nasser, : International Journal , Summer, 1956, Vol. 11, No. 3 (Summer, 1956).

Theses

- Percox, David Antony, `Circumstances Short of Global War': British Defence, Colonial Internal Security, and Decolonisation in Kenya, 1945-65, Thesis submitted to the University of Nottingham for the degree of Doctor of Philosophy, October 2001.